جليل القيسي

الأعمال الكاملة

دار ئاراس للطباعة والنشر

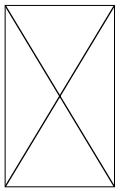

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر، شارع گولان، اربيل، كُردستان العراق

جليل القيسي

الأعمال الكاملة

الجزء الأول

اسم الكتاب: جليل القيسي – الأعمال الكاملة "الجزء الأول"
تأليف: جليل القيسي
من منشورات ئاراس رقم: ٥٩٢
الإخراج الفني: زياد طارق
الغلاف: حميد أزمودة
التنقيح: أوميد البناء
الطبعة الأولى – ٢٠٠٧
رقم الإيداع في المكتبة المركزية العامة بأربيل: ٢٠٠٧/٥٣٢

حلمٌ تحقق

إنه لقدر المُبدع أن يبقى راسخاً في حزنٍ سرمدي وحيويته اللامتناهية... تماماً كما كان المبدع جليل القيسي، أبداً في صمتٍ صائغ وقلة في الكلام ومن ثم عظمة في الإنتاج.

وفي إحدى الأماسي الصيفية كنا أنا والشاعر «كريم دقشتي» عندما ظهر وبهيئة ملاك في حديقة إتحاد الأدباء الكورد –فرع أربيل– وفتح الحضن لنا حيث دخلنا في غابة من الحب والحنان والكلام الرائع وبدا لنا كظهور عظيم لهذا الكاتب ألذي لم يفارقه القلم لحظةً واحدة وهو يسطر الإبداع الإنساني قصةً ومسرحية.

واليوم حيث رحل هذا الكاتب من بيننا ونحن نذرف دموعاً ساخنة على رحيله بقيت له في قلبنا ذكرياته وكلماته الحلوة ومن ثم مجموعة كبيرة من إبداعاته.

وبفضل من مؤسسة «ئاراس» وبدعم وإسناد من أخي الكريم «بدران أحمد حبيب» طبعت كافة مؤلفاته الإبداعية في مجموعة كاملة، وعندما أكتب هذه المقدمة لن أنسى اليوم ألذي إتصل بي وهو على فراش الموت في تركيا وكان يسأل عن مجموعته الكاملة، واليوم حيث يرى القراء إبداعاته في هذه المجموعة بأجمل طراز الطبع ولا يسعني إلا أن أشكر مؤسسة « ئاراس» ألتي كان لها الدور الكبير في إنجاز هذا الكتاب،

تحية الى روحه الطاهرة ، والى قلمه المبدع ومواقفه الشجاعة في زمن القتلة.

إسماعيل البرزنجي

٢٠٠٧/٦/٤ – أربيل

منذ أن أطلق صرخته الأولى ذات يوم من عام ١٩٣٧، قالت إمرأة عّرافة تسكن الحي: أن هذا الوليد، سيكون له شأن مستقبلاً. لم يخب ظنَّها، فكان جليل القيسي إبناً باراً لمدينة كركوك ألتي كانت تنتظره منذ أولى أسطر أيامها السومرية القديمة.

جليل الكاتب الأديب ألذي نزف كلماته بعد أُفٍ وضع عصارة نقاطه على أحرف المدينة ويستلهم منها لبنة أضافها الى صرح الثقافة الإنسانية والعالمية، كان فيها قلمه زاده وزوّاده، القلم ألذي كان أصيلاً ونظيفاً، ودام مدافعاً عن الحقيقة الذبيحة، بألم صَهرهُ حتى يوم رحيله.

أجل، كان شاهداً أميناً على عصره، وكان حارساً أميناً على مملكة إنعكاستنا الضوئية، وهو ألذي نذر نفسه أن لا يخاف في الحق لومة لائم، فكان الناطق بإسم الأغلبية الصامتة، بلُغة لا يُتقنها إلا جليل نفسه، وسرعان ما أفلحنا في فك طلاسمه، ولنتناغم معه في معادلة متوازنة طرفاها، جليلٌ مانح... ومُريدون يتلقون إبداعاته المكتوبة في مسرحيات وقصص قصيرة جميلة ورصينة.

ومن حسن حظي إني كنتُ أطّلع على الكثير من أعماله قبل أن يدفع بهن الى النشر والطبع. ومن حسن حظي أيضاً إنني رافقته في رحلته السعيدة الى مدينة أربيل حاملاً كل أعماله، الى أخوة له أعزاء عليه في إتحاد كتاب وأدباء الكورد. ألذين وعدوه خيراً في طباعتها موحدةً في هذه المجموعة ألتي لم يرها، وعزاءهُ في ذلك حسن الوفاء من القائمين على إخراج المجموعة الى النور.

عاشت المجموعة هذه من بعده، ومات وهو القائل: من الخزي بل من العار أن يرغب الإنسان أن تطول حياته... حين يرى شعباً بائساً، وحين يعجز عن تأليف ما يحس به.

من كركوك

عدنان القطب

صديقه وتلميذه ٢٠٠٧

مملكة الإنعكاسات الضوئية

مجموعة قصص

فتاة مجدولة بالضوء(*)

الى: القاصة والشاعرة مي مظفر

منذ إحالتي على التقاعد قبل زهاء اربع سنوات وأنا اعيش في بيت صغير في حارة تقع في ظاهر المدينة... بيت فيه ثلاث غرف، وصالون، وأشغل في هذا البيت الصامت صمت الدير أكبر الغرف، وأعيش وحدي في عزلة صماء، أقرأ، وأكتب، وأُدون أحلامي كل صباح، وأستمع الى الموسيقى، وأشرب بعد الحادية عشرة ليلاً كأساً، وأروح في خيالات جميلة، وأتذكر أصدقاء أعزاء، وصديقات كنت أحبهن ذات يوم... هذا المساء بدأت بقراءة مجموعة قصص إيطالية شعبية أختارها وأعادَ كتابتها بلغته الساحرة الإيطالي الرائع ـ ايتالو كالفينو ـ اخذتني القصص الى إيطاليا القرن السادس عشر. كنت أقرأ بلهاث، وأعيش مع لصوص شرفاء لا يسرقون سوى الأثرياء ويوزعون سرقاتهم على الفقراء، مخلوقات تتحول في النهار الى ضفادع لتعود في الليل بشراً، ملوك يبحثون عن بناتهم اللائي إختفين في ظروفٍ غامضة، او أختطفتهن ساحرات، وأُمراء شباب يبحثون عن أميرات اختفين ايضاً في ظروفٍ غامضة، ومعقدة، كنوز خرافية تهبط فجأة على الفقراء الزاهدين في الحياة، قصص فيها الكثير من روح ملحمتنا الخالدة – ألف ليلةٍ وليلة– دقت الساعة الحادية عشرة عندما إنتهيت من قصة عن اميرة إضطرت عن طريق ساحرة الى ان تتحول الى ضفدعة لكي تصل الى شاب مُعدم تحبهُ بجنون... أعدتُ الكتاب فوق مكتبي، وهيأتُ نفسي لشرب كأس... شربت برفق وأنا أستمع الى عدة –كائنات– لباخ العظيم... في الثانية عشرة كعادتي دخلت الى الفراش، ورحت أناغي النوم على طريقة الأميرات الحزينات اللواتي ارهقهن الحب... رفت جفوني بسرعة واغمضها النوم بهدوء لذيذ وإن ظللت محتفظاً بخيطٍ من وعيي الذي كان في طريقهِ الى التلاشي تحت ترنيمة النوم، رأيتُ فوق مكتبي ضوءاً بلون البلّور يتوهج توهجاً مثيراً وجميلاً، ويتخذ في أقل من دقيقة أشكالاً غريبةً جداً... تارةً معقدة ملولبة، وتارةً أشكالاً جميلة ومغرية. هل نمتُ؟... أشكُ لأن خيط الوعي ما زال يقظاً... تأملت الضوء وهو يتحول الى أشكال كثيرة، وقلت في نفسي: يا رب ما ذاك

(*) نشرت في جريدة الثورة بتاريخ ١٩٨٧/٦/٣

الضوء الغريب؟... هل ارى ما أراه في الحلم!!...لا... ما النوم!... هل يشعر المرء انه نائم! ماذا يحدث من تغييرات في الموجة الدماغية؟

أية أشياء تسجل رسم الموجات الدماغية في هذه الأثناء بالذات؟ ماذا يحدث للدماغ وهو يبتعد عن حالة اليقظة، او عندما تنحصر موجات الفا السريعة المتعلقة بالرؤيا؟؟ العلم يقول ان الإنسان يمر بأربع مراحل تدريجية للنوم تتميز بموجات دماغية أعمق وأعمق واكثر بطءاً... في اية مرحلة انا الآن... وانا أرى ذلك الضوء وهو يتجول، ويتشكل بأشكال مختلفة؟ تحول الضوء فجأة الى فتاة جميلة جداً، وراحت تتمطى بإثارة وتتخذ حركات ساحرة، ولدهشتي الشديدة راحت برفق تردد الحان كائنات – باخ– بفمها... التقطت الفتاة المجدولة بالضوء مجموعة إيتالو كالفينو، وبعد ان تصفحتها عدة مرات قرأت بإنكليزية طليقة (المجموعة بالأنكليزية ارسلها لي صديق من لندن) قصة الصبي الشجاع... كنت قد أحببت هذه القصة، وهي عن صبي حصل على كنز كبير بسبب شجاعته الخارقة... بعد صمت قالت: الإنسان الغريب الأطوار توجد لديه قيم روحية اكثر مما توجد لدى الإنسان الاعتيادي... أليس كذلك؟ وانا هنا أبحث عن القيم الروحية والفكرية... مدت يدها المجدولة بالضوء والشبيهة بضوء القمر ومسحت بوجهي المبلل بالعرق وهي تقول بصوتها الرقيق جداً:أرجوك...أرجوك... لا تخف مني... إنس الخوف لكي تستطيع السيطرة على أفكارك... هل يعقل انك تخاف من حورية بلون ضوء القمر؟... توقفت عن الكلام، قلت مع نفسي: من هي؟... ماذا تريد؟... لماذا تكلمني بهذه الرقة؟... لماذا هي كتلة ساحرة من الضوء؟... من اين يخرج صوتها الناعس الجميل؟... لماذا هي رقيقة، حالمة جداً؟... لماذا اخاف منها؟... لماذا جسدي يرتعش؟... قالت: إذاً انا قريبة جداً من مشاعرك، وعواطفك، وذوقك؟؟

إلهي انها في لحظات تحزر ما اردده مع نفسي... أضافت: اوه... طبعاً، طبعاً يا عزيزي... أنا لست مجرد ضوء... لا لا... أنا اكثر من ضوء... إسمع منذ بدأت اتابعك، وادرسك، عرفت ان ثقافتك في التاريخ لا بأس بها... هنا إضطرب ذهني إضطراباً شديداً ذلك لانني فعلاً متابع محب للتاريخ وبالذات الأغريقي القديم... قالت: رأيت كتباً كثيرة في مكتبتك عن الفلسفة اليونانية... حتماً سمعت بالأورفيين؟... إنهم طائفة أغريقية عاشت في القرن السادس قبل الميلاد، كانوا يعتقدون ان الجسد يحول بيننا وبين البحث عن الحقيقة والجمال والخير... لهذا يا صديقي العزيز جئتك من غير جسد، جئتك

ضوءاً...لا لا... لا تنفعل... اوه... انت تزداد إضطراباً كلما كلمتك انا بوضوح... اكيد انك الآن تقول مع نفسك انني أردد كلمات لا معقولة... اللا معقول له منطقه ايضاً يعجز المعقول ان يفهمه. آه... ها انت تضطرب اكثر... سأجلب لك كأساً من ذلك السائل الاصفر الذي كنت تحتسيه قبل دخولك الفراش... في لحظات قدمت لي كأساً... بعد الرشفة الثانية استرجعت تماسكي، وقوة أعصابي، وشعرت بعد عدة رشفات براحة نفسية عميقة وإن ظل ضربٌ من الذهول يكتنف دماغي... قالت: إشرب نخب هذا اللقاء... شربت... قالت وهي تطلق ضحكة ناعمة: بعد قليل ستحبني... أنظر... إنني إنسانة بسيطة... إنني كرنفال من المباهج، والأفراح، والذكريات، نعم كرنفال من الأسماء، اريك عما قليل مراتب إجتماعية، واداب السلوك والحب، وانت، ماعليك إلا ان تطلق خيالك وافكارك وتستمع إليّ وكأنك تحلم... رددت مع نفسي: أشك أنني أحلم... أشك... قالت: حسناً إشرب... إشرب. أتعرف ان اسلافك الاشوريين كانوا يقولون ان الكأس الملأى في الحلم دليل الثروة والجاه، والكأس الفارغة دليل الفقر...ها ها ها ها، سأجلب لك كأساً أُخرى... هل سمعت بمامو؟... قلت مع نفسي:مامو! من هي، أو من هو مامو!!! أطلقت ضحكة حلوة، وهي تقول بطريقتها المغرية في الكلام:مامو ربة الأحلام عند الأشوريين... الأغنية الأشورية القديمة تقول... ولدهشتي الشديدة غنت بصوت رخيم وباللغة الاشورية: آه اجعل ربة الاحلام مامو تأتي الى فراشي... مامو... مامو الجميلة... بعد صمت قصير قالت: تصورني مامو... جئت لأزورك... لا لا... انت ما زلت مضطرباً بعض الشيء... اردت ان اقول لها لست مضطرباً، قالت اعرف متى يعتريك التشويش، والاضطراب... يا صديقي إنني اودك... اطلق معي هذه الليلة كل ثروتك العاطفية ايها الشرقي الطيب... آه... أنهيت كأسك... قلت مخاطباً إياها وقد انتابني دوار لذيذ مع خدر ناعم ومثير: نعم أنهيت كأسي... شكراً... قالت: رائع... مسحت على جبيني، وانحنت فوقي وبطريقة رومانسية قبلتني قبلة صغيرة، وتراجعت الى الخلف وهي تقول: لا... ما زلت متعجباً... كن شجاعاً، وحاول ان تكون مثل السندباد مغامراً... ومثله توقع دائماً ان ترى العجائب من الأمور والاحداث... ذهبت الى مكتبتي وبخفة هرة قفزت فوقها وهتفت وهي تشير الى لوحة كبيرة أهداها لي صديق رسام جسد فيها على طريقة خالد الذكر جواد سليم مجموعة رموز جميلة من التراث بدءاً من المرحلة الاشورية والسومرية، والعربية وصولاً الى الحاضر... نَظرتْ الى اللوحة طويلاً، قالت: ترى الى

أي شيء يرمز الفنان بهذه الافعى هنا؟

للمناسبة الافاعي لاترمز الى شيء عندكم... انظر جيداً الى هذه اللوحة... ان قبائل الزولو ونغوني في افريقيا الوسطى وقبائل كفر في جنوب افريقيا،(فجأةً وبينما استمع اليها تحولت اللوحة الى شاشة صغيرة، ورحت ارى غابات افريقيا، وحيوانات مختلفة، وأفارقة عُراة يعملون في الحقول). قالت: ان هذا الشعب الطيب بحاجة الى ما يسمى بالقلب النابض... قلت مع نفسي: ما معنى القلب النابض؟... قالت: العلم... بل كل شعوب العالم الثالث يجب ان تعمل المستحيل للحصول على القلب النابض... أتعرف لا توجد في العالم الثالث رغبة التركيز على البحث العلمي... بعد صمت طويل، وبخطابية قالت: اتعرف ماذا تقول الابحاث عن أنشطة البحث العلمي؟ اكثر من تسعين بالمائة منها في الدول الاوروبية، اثنان بالمائة فقط في الدول النامية، وصفر في افريقيا... سيبقون هكذا عراة... آه... انني كنت اتكلم عن الافاعي... آه... ها ها ها ها... قبائل افريقيا تعتقد ان الثعابين اباء وانهم يعودون الى الحياة ويزورون مساكنهم المقدسة... حتماً ان لهذه الافعى هنا في اللوحة مدلولاً... لكنك رجل علمي لاتؤمن بالسحر... لكن العلم الآن اصبح اكثر سحراً من السحر... اصبح لغزاً لا يصدق... قلت مع نفسي وأنا أرنو إليها بإعجاب وحب شديدين: أي ضوءٍ عاقلٍ هذا! أي حكيم... اي عقلٍ متنور... صاحت بصوت حلو: اوه شكراً... شكراً... لقد بدأت ترتاح لي... رائع. اسمع لقد قال حكيمكم الاشوري – احيقار– مع الحكيم لن يفسد الإنسان أبداً... معي يا عزيزي لن يصيبك اي سوء... تعال... انظر الى هذه اللوحة... هذه غابة نخيل... كلمني عن الأشياء التي تراها... قلت: ارى مدينة... جميلة... بنايات... غريبة التكوين... غابة مترعة بالأشجار، والفواكه... ارى جبالاً عالية... أرى ممرات صنعتها ايدي ماهرة... وهذا النهر...انظر الى لونه... الماء... الماء... ما لونه؟... قلت: غامق الزرقة... قالت: هكذا كان لون نهر دجلة سنة ٧٠٤– ٦٦٩ قبل الميلاد... قلت بتعجب شديد ماذا؟... قبل الميلاد؟... قالت: إستمر في النظر... إلهي تحولت اللوحة الى شاشة حقيقية وفي لحظات رأيت قصراً فخماً فوق مرتفع يلمع بطريقة مثيرة تحت أشعة الشمس. قالت: هذا قصر سنحاريب... الأشياء تتحرك، حقيقية. قالت: تعال... ذاك هو سنحاريب... انظر... رجل وقور، جريء محارب حقيقي... وذاك الذي يكلم حاشيته هو اسرحدون الذي جاء بعد سنحاريب، بعد قليل يجيء حكيمكم الاشوري العظيم – احيقار– انظر كم الفارق كبير بين المحارب والحكيم.

سنحاريب مثل اسد مستفز ويده دائماً فوق مقبض سيفه، بينما احيقار يده فوق قلبه، ووجهه برغم كثافة لحيته رقيق جداً ووديع... تعال ندخل ازقة نينوى القديمة... لا تخف... تجولت طويلاً في المدينة وانا اردد مع نفسي: اين انا!! لم معالم هذه المدينة غريبة برغم جمالها..؟ هل ارى هذه الاشياء في الحلم، ام في اللوحة، في الحقيقة؟؟... لم كل شيء واضح، وحقيقي؟ كيف استطيع العودة بعد ان دخلت عشرات الممرات، والازقة؟... إنني الان في هذه المدينة كالأعمى... ماذا تريد مني هذه الفتاة المجدولة بالضوء! انها لا تفقد صبرها معي ابداً... قالت وهي تعرف كيف تقرأ افكاري في لحظات،،

معي لن تتيه... وهل يتيه الانسان في واحدة من مدن بلده؟... طبعاً لا... يقول احيقار: اعمى العينين يتعلم طريقهُ سريعاً، اما أعمى القلب فانه يحيد عن الطريق السوي ويتيه في الظلال. وانت يا صديقي لست اعمى القلب والعينين. تعال... تعال... سأتجول معك هذا اليوم، واريك كرنفالات حقيقية... سترى بعد قليل قصة نوح السردي، والبابلي، كما أُريك الملك زيو سودار، وملحمة اترا، واخذك الى ذاك العظيم آتو- ناپشتم... فجأةً واجهتني وجوه وقورة... قالت: انظر الى هذه الشخصيات... آّه، لكي ازيد غرورك وأوجعه اقول هؤلاء جميعاً تأثروا بحكيمكم احيقار... اسمع هذا سابيوس القيصري، هو، الأخر حكيم يوناني. إساله بمن تأثرت هيا أساله... أجابني القيصري: اشهد انني تأثرت باحيقار... تعال وهذا كليمنصو الأسكندري، أجابني هو الآخر- بتواضع- الجواب نفسه... قالت: وهذا ويمغريطوس، وميناندر... هيا... امشِ... وسع خطاك. سحبتني من يدي بقوة... توقفت وصرخت فيها بقوة وأنا أغلي غضباً، وتوتراً، واتفرس في الوجوه بحيرة... قالت: لا تصرخ... هل في حضرة هذه الوجوه تصرخ؟ فجأة بعد صراخي إنقطعت المناظر، وغابت الوجوه في اللوحة... قلت أكلم نفسي: يارب... ما هذه اللعبة! انا لست في حلم لكن كل شيء يبدو كما لو أنه حلم حقيقي... ماذا تريد هذه الكتلة من الضوء... صرخت فيها: ماذا تريدين مني؟!... أرجوكِ... قالت: هل يغضب ويصرخ الانسان وهو يرى جوانب من تاريخه القديم...قلت: هذا تاريخ انتهى...وانتِ ماذا تريدين؟ بل من انتِ؟ آأنتِ كذبة؟ وهم؟...انتِ ماذا؟... مدت يدها وصفعتني على وجهي... آه... إذاً وصلت المسألة الى الصفعة... قالت: احيقار يقول لا تكذب... استمع الى احيقار... انظر الى اللوحة مرةً اخرى... رأيتُ احيقار يكلم حشداً من الرجال والنساء ويقول: أن يضربك الحكيم عصياً كثيرة خيرٌ من أن يدهنك الجاهل بطيب معطرة...

توترت أعصابي مع هذه الفتاة الألغوزة. قلت: من انتِ؟ من أين اتيتِ الى غرفتي؟أجابتني ببرود لا تصرخ يا صديقي... لا تنفعل... لا تستعمل كلمة كذبة، كذاب، كذب، مع الحكيم لا يفسد الإنسان... انا لست هنا لأفسدك... تعلم ولو قليلاً من حكيمك...

قلت:حسن...الآن ماذا تريدين؟

قالت بهدوئها الجميل: الإنسان الحضاري لا يصرخ... هل لاحظت مبلغ الرصانة، والرزانة، والوقار على وجوه تلك الشخصيات التي رأيتها...؟ انت تكثر من الصراخ، والزعيق... لا لا...

قلت: حسن... لن أصرخ...أرجوكِ... من انتِ؟...

قالت: حتماً سمعت بالفيلسوف ابيقور...

قلت:آه... يا إلهي... مرة اخرى... ماذا؟ هل انتِ فيلسوفة؟...

قالت: بوسعي ان أكون ما أشاء... لدي قدرة هائلة على ان أصبح ما أريد...

قلت: أرجوك...أتركيني ... أنتِ كابوس...

قالت: انا مثل بروليو...

قلت: بروليو!... أطلقتْ ضحكة حلوة، وقالت: هل نسيت بروليو في الميثولوجية اليونانية التي كانت تتحول بمقتضى الحال الى الف شكل، وصورة... هكذا أنا... وأستطيع ان أكون في أي مكان... أنا قدرة مخيفة...

صرختُ:أنتِ كذبة كبيرة...

قالت بصوتٍ خافت: مع الأسف. أنت تعاني من عمى القلب...ألا تستطيع ان تكون حضارياً؟

صرخت فيها من شدة إنفعالي: أنتِ كذبة سخيفة...انتِ...

آه... بعد صمتٍ طويل قالت بصوت خافت: شكرًا... هل بعد ان قرأت كل هذه الكتب، وبلغت الخمسين من العمر تتكلم معي بهذه اللهجة!... هذه المرة لن أصفعك وإنما أتراجع... ذَهبَتْ الى مكتبتي وأخذت كتابا لأبيقور وقالت: هل الذي يقرأ ابيقور يستعمل كلماتك القاسية؟...

قلت بأسف شديد: أعتذر... كلمتيني قبل قليل عن ابيقور ماذا عنه؟...

قالت بصوتٍ حزين: ماذا عنه! تصرفت معي كبدائي، والان تسألني عن ابيقور...

قلت: أنا آسف...أعتذر... أرجوكِ... من أنتِ؟...

قالت: سأخبرك... أنا مجموعة ذرات معقدة التركيب، يقول ابيقور، ان النفس، وكذلك الجسد يتكونان من الذرات، قلت: هذه كلمات مجردة... قالت: كانت كلمات مجردة... أنا يا صديقي مجموعة ذرات مركبة تركيباً هندسياً وبطريقة معقدة للغاية...

قلتُ ضاحكاً: آنستي المحترمة... أشك ان تنتهي هذه المحاورة بيننا... انتِ!!...

قاطَعَتني بسرعة : انا يا صديقي علم متطور جداً جداً... مستحيل أن يفهمني أي عالم كبير فوق كوكبك... أنا شيء لا أُستوعب هنا لعشرات المئات من السنين... القت الكتاب بعيداً، وقفزت مثل هرة، ثم تدحرجت مثل كتلة كبيرة من الزئبق بأتجاه الباب...

قلت: الى أين...

قالت: أنت تطردني... أنا لا استطيع ان أفرض نفسي على إنسان لا يريدني...

قلت: إلهي... انتِ فعلاً عصية على الفهم... عصية على الفهم جداً...

– فعلاً...

– أرجوكِ من انتِ؟

– أنا يا صديقي إنسانة من كوكب حضاري متطور صناعياً، وحضارياً آلاف المرات عن كوكبكم... نعم لدينا قدرة علمية عظيمة وبوسعنا أن نعمل المستحيل... فوق كوكبكم يوجد أكثر من مليوني كائن من كوكبي، في أمريكا، واوروبا، وآسيا، وافريقيا... نحن نراقبكم، ندرسكم، نتجول بينكم، نستمع إليكم، ندرس تاريخكم القديم، ولدينا معلومات دقيقة عن التاريخ القديم لجميع الشعوب الحضارية... نعرف جميع لغاتكم... اكتشَفَنا عالم فرنسي، واخر أمريكي، ومؤخراً روسي، غير انهم عبثاً حاولوا أن يعرفوا ماهيتنا... مهما حاولوا لن يعثروا علينا... نحن نتحول الى أشياء غريبة بواسطة أجهزة معقدة نحملها معنا... صدقني ليست لدينا أطماع في كوكبكم أبداً... نحن أثرى منكم بملايين المرات. سنبقى نزوركم مثل الهواء، مثل الضوء كما أنا الآن في هذه الغرفة، نتجول بمنتهى الحرية في كل مكان... يا صديقي صدقني إنني حقيقية بعد أيام سأعود الى كوكبي الحبيب... من يدري... قد أزوركم مرة اخرى... اما أنا فلن ازورك.. يجب ان تتعلم الصبر، والاناة، وبُعد النظر، وإستيعاب ما تقرأ جيداً... والآن اقول لك باللغات التي تتقنها:

بالإنكليزية:FAREWEEL

بالفرنسية:ADIEU

بالتركمانية:خوشجا قالن

بالأرمنية:اصطفاد سيرهيد

وداعاً... وداعاً

وغابت في لحظات...

***

غموض الروح(*)

"حياتنا ومضة سريعة، لكنها كافية"
كازنتزاكي

عندما أدخله البواب غرفة العيادة، أعطاني كعادته الإشارة المتفق عليها بيننا، انه، آخر مريض في غرفة الإنتظار... كانت الساعة تشير الى الثامنة إلا ربعاً... دخل بخطوات قصيرة رافضاً بكبرياء وأَنفة، مساعدة البواب له، وسار متكئاً على عصاهُ برفق... كان يحمل بيده الأخرى رواية تولستوي الصغيرة –موت ايفان ايلج– جلس بهدوء... رجل عجوز يابس، متعب جداً، على وجهه المنتفخ الشاحب شحوب الليمون الذابل وامارات الإستعلاء... والإعتزاز بالنفس... كان يتنفس بصعوبة، ويطلق لا إرادياً بين الحين والاخر آناتٍ خافتة... تأملني بعينيه الذابلتين تأملاً طويلاً كمن يعاني من رمد شديد في البصر، ثم بللَ برفق عينيهِ بطرف أصبعهِ ومسحَ قليلاً من الرمص... رفع يده الممسكة برواية تولستوي وراح يحرك بها الهواء أمام وجهه... كانت يده، و(موت ايفان ايلج) ترفرفان مثل جناحي طائر أمام وجهه... من خلال تشنج وجهه عرفت انه يعاني من الام موجعة... غمغم مع نفسه بصوتٍ خافت وحزين، وكلم نفسه كما لو أنه وحده في الغرفة: منذ الظهيرة وهذا الألم يلسعني مثل أفعى مثلثة الرأس... يلسعني في كل مكان من معدتي... رفع رواية موت ايفان ايلج وحركها مرة اخرى ببطء أمام وجهه... لم يكن الجو حاراً بل كانت ثمة برودة لذيذة في الهواء، غير ان العرق كان يتصبب من على جبين العجوز المتغضن... إستمر يكلم نفسه: ماذا بوسع الدكتور ان يعمل لي... لاشيء... سيعطيني عدة أقراص، او يزرقني حقنة مورفين، وأُصاب بالغثيان، وأنام، وأفيق ليبدأ الألم يقرضني مثل فأر جائع... حرك موت ايفان ايلج امام وجهه المنتفخ المرهق والحزين جداً... قلت:

– هل تسمح لي بأن افحصك؟

اجابني كمن أفاق لتوهِ من غيبوبة طويلة. ماذا؟... رفرفت الرواية أمام وجهه. قال وهو

(*) نشرت في مجلة الاقلام في العدد ٦ حزيران١٩٨٧

يتأملني: حتماً ان هذا الطبيب سعيد... لأنه ليس أنا... يا لشبابه...

قلت بلطف: مِمَّ تعاني؟ ألا تريدني ان أفحصك؟...

كان يكلم نفسه بين الحين والآخر مثل المحموم وقال: غير ان هذا الطبيب ينظر إليّ كما ينظر الخفاش الى الشفق... تأملت لصحته المتدهورة، ولوضعه النفسي الحزين، وتركت له حرية الكلام، والغمغمة... قال بصوتٍ ذابل:

– دكتور... هل يرى الخفاش اي شيءٍ في الشفق؟

– طبعاً لا...

– ماذا فيّ لتفحص... انني كما ترى كومة عظام، وجلد جاف.

– لكنك جئت إليَّ تطلب العلاج...

– لا لا... أو ربما نعم... أقول، بالنسبة لي إنتهى العلاج الحقيقي... لكن هنا في معدتي قطعة نار تلتهب... أعطني اي شيء فقط لأخفف الألم...

– حالاً... لكن دعني افحصك اولاً

– يا دكتور صدقني ما تبقى من حياتي ليس أكثر من مساء أو فجر... اريد فقط ان يسكن هذا الألم... أشعر كأن سكاكين تطعن هنا وهناك... تنهد، ورفع موت ايفن ايلج، وسيطر لحظات على ألمه، وأخذ يحرك الهواء أمام وجهه، قلت ملاطفاً أياه:

– سيزولُ هذا الألم... نعم... طالما ان معنوياتك عالية.

– صدقني طوال حياتي لم أفقد معنوياتي أبداً، لكن الألم الشديد، وفي مثل عمري شيء رهيب... دكتور منذ صغري كنت شجاعاً، وحتى هذه اللحظة لم تفارقني شجاعتي... لكن للألم قوة، حضورٌ غريب في الجسد.

تقدمت منه وأمسكته من ذراعه ومددته برفق فوق السرير وأجريت له فحوصات دقيقة... كان قلبه منهكاً، والضغط الدموي مرتفعاً كثيراً، ومن خلال عينيهِ المصفرتين الذابلتين عرفت انه يعاني أيضاً من إرتفاع في السكر، وأمراض معوية أخرى ... أعدته الى مكانه... غمغم بشفتيه الرخوتين الباردتين والجافتين مثل الإسفنجة... أعرف... أعرف... كل شيء في جسدي متعب... أعطني مسكناً قوياً... لا تفكر بأي علاج... كل شيء متدهور في جسدي...

– ما العمل أيها العم... هذا منطق الزمن...

– إذن الضعف شديد جداً... تكلم ...أنا لا أخاف أبداً، كلمني بصراحة.

– طبعاً في سنك الضعف الآن اكثر من ثمانين في المائة...

وقاطعني بصوتٍ بارد وساخر.

– ماذا تفيد البقية الباقية...

وأضاف في شيء كثير من الرضا الهادىء، والأرتياح العذب.

– أجل... هذا منطق الزمن... ثق لم يحدث قط أن خفت من الموت... لكن عندما يفسد الألم راحتي، ويمنعني من القراءة، والتأمل، اشعر بحزن... نعم بحزن عميق.

– لا عليك سأكتب لك أقراصاً تخفف الألم كثيراً... بالمناسبة يجب ان تتناول مواد غذائية سهلة الهضم جداً...

– ها ها ها... لهذا ذبلت... أعيش على خضار مسلوق، مع ذلك هذا الألم لا ينقطع أبداً... لماذا؟

– بسبب ضعف الافرازات اللعابية المعوية.

– من أين أجيء باللعاب والسكر منتشر في جسدي مثل الجراد...

– هذا صحيح... لكن طالما أن معنوياتك عالية، فكل شيء في صالحك...

– دكتور هل فقدان الإفرازات وحده يؤثر في ضعف المعدة؟

– أكيد... عندئذٍ تظهر المعدة ضعفا يؤثر كثيراً...

أطلق ضحكة متوترة، وساخرة، وبسبب ضعف بصره وإصابته بالرمد الصديدي تحلب الرمص في زاويتي عينيه، بللهما ثانية بطرف اصبعه وأرسل إليَّ نظرة طويلة وقال:

– شيءٌ محزن ان الإنسان لا يستطيع ان يرى جثته...

أطلقت لا إرادياً ضحكة حارة لتعليقه الساخر، وشاركني هو الأخر بضحكة خافتة وساخرة، قلت:

– بالمناسبة، ماذا كنت تعمل في شبابك؟

رفع موت ايفان ايلج، وحركها هذه المرة بسرعة أمام وجههِ، ومط عنقه، وسرح بخياله... ووضع الرواية فوق مكتبي، ومن خلال شروده عرفت ان حشداً من الأفكار تواثب على خياله... قال:

– عملت المستحيل لأكون رساماً جيداً وفشلت، عملت المستحيل لأكون زوجاً جيداً، وأباً طيباً فشلت أيضا... واندفعت نحو الخمر.

– حتماً أفرطت في الشرب...

– ماذا؟ أقول لك امنت بقوة الخمر وانت تقول أفرطت. طبعاً أفرطت بجنون.

– أرهقت كامل جسدك...

القى اليَّ نظرة بدت قاحلة، لكنني سرعان ما وجدت فيها مزيجاً من السخرية، واللامبالاة، وقال:

– ثم ماذا!... دكتور ان جميع الجماجم في النهاية تضحك...أليس كذلك؟ اجبته وأنا أضحك على تعليقاته الساخرة... آه... طبعاً... طبعاً. تنهد بعمق وقال: إسمع... إننا كما يقول بولص الرسول، خلقنا لنتعذب... رفع موت ايفان ايلج وحركه أمام وجهه بسرعة، ثم إلتقط منديلاً ورقياً مسح به رقبته النحيفة المحاطة بشبكة من التغضنات المتشابكة، وأطلق آهة وغمغم مخاطباً نفسه. بجرسٍ حزين... هناك في غرفتي المظلمة وفي صمت ابكم اروح من شدة حزني ولوعتي ابوح بأسرار روحي للجدران، ولذكرياتي، ولصور شبابي... توقف عن مخاطبة نفسه، وقال وهو يرسل اليَّ تلك النظرة القاحلة:

– دكتور ماذا يحدث عندما تضعف المعدة؟

– تصاب إفرازات غدة البنكرياس هي الأخرى بالهزال...

أطلق ضحكة ممطوطة، وقال: هذه الكلمات تشبه بيتاً من الشعر السريالي، ردد كلماتي ماطاً إياها بطريقة ساخرة تارةً، ومنغماً الكلمات تارةً أُخرى: ت...صا... ا... ب...ا... ف... را... زا... ت... غدة... الـ... پ... ن... كر... ياس... هي الاخرى بالهزال...

وأضاف بهزء حاد: أكيد ان السيد بنكرياس تمرد عليّ هو الآخر! بل كل شيء في جسدي تمرد عليّ...

قلت ملاطفاً هذا العجوز الطيب الذي تجاوز الستين، وهو، يمتلك روح الدعابة، كما يمتلك ذكاءاً حدسياً غريباً، فضلاً عن ثقافة واسعة، وسرعة بديهة، وسخرية محببة، وروح فكاهة عالية، ويؤمن إيماناً كبيراً بالعقل.

– ليتمرد كل شيء ضدك... ثم ماذا طالما ان معنوياتك عالية، ولديك شجاعة رائعة... لا عليك... سأكتب لك اقراصاً تقطع الألم... ولا تفكر أبداً بالسيد بنكرياس، او بأي شخصٍ آخر...

رفع رأسه وارسل إليّ نظرة طويلة، ورأيت في عينيه الذابلتين نظرات صقيع، نظرات تقول، أنت إنسان طيب... لابأس... شكراً لمجاملتك، وملاطفتك...

قال ونبرة السخرية واضحة في صوته:

– ماذا يحدث عندما يتمرد البنكرياس!

– الأمعاء الغليظة تصاب بالضعف..أقصد القولون... أطلق ضحكة جافة وقال: ال... قو... لون... وهذا متمرد آخر... حسن. ماذا يحدث عندما يدب الصدأ في السيد القولون؟

– يبدأ بالإمساك.

صرخ قائلاً: عليه اللعنه... اللعنه... صدقني يا دكتور ان مجرد العيش في هذه الدنيا يتطلب شجاعة كبيرة...

قلت مستغلاً صمته: لماذا رفضت ان تتزوج!

– لا لم أرفض... لم أجد المرأة التي تناسبني...

– هل يعقل أنك لم تحب واحدة في حياتك؟

– احب واحدة..ها ها... صدقني اشك ان هناك إمرأة تناسبني... هل سمعت بالدكتور فاوست؟

– اهو بروفسور بالطب؟

أرسل اليّ نظرة شاردة، وقال بسخريته المحببة: ماذا؟ بروفيسور في الطب! انت على ما يبدو لا تعرف خارج علم الطب أي شيء... انا أتكلم عن الدكتور الذي خلقه الشاعر الالماني غوته.

– آسف لم أسمع عنه...

– اسمع... قال هذا الدكتور(إن إبتسامة المرأة أعظم قيمة من التاريخ، والفلسفة، والتربية، والقانون، والاقتصاد، وبقية فروع المعرفة)توقف لحظات، وبسخريته اللذيذة أضاف: ومن قولونك، وبنكرياسك وكل الإفرازات، والضغط الدموي، والسكر... المرأة، بالنسبة لي كانت كل تلك الاشياء الرائعة التي ذكرها فاوست... وحتى الآن انا اعشق المرأة... بل ستبقى في ذهني حتى لحظاتي الاخيرة...

– كل هذا الحب ولم تتزوج؟

– أخذتني يا عزيزي لوثة، وهوس كتابة الرواية، والرسم.

– الم تحب واحدة؟

– قُل عشراً... لكنني كنت أهجرهن...

– لماذا؟

– لان الحب دائماً كان من طرف واحد... أنا الذي كان يحب بعمق.

– وهُن!

– كنت قبيحاً في شبابي، مع شيء من الأحديداب في ظهري. آه حرمني الله من نعمة الوسامة، وأعطاني لكي يعذبني قلباً مليئاً بعاصفة من المشاعر الحارة... كنت برغم نفورهن مني أبحث عن المرأة التي تأتيها اللذة من تفكيرها العميق...

– لماذا هذا النوع؟

– أريد المرأة أن تكون مخيفة... إمرأة حقيقية... إسمع يا دكتور، ان أسلافنا البابليين كانوا يقولون: يجب ان تكون المرأة أكثر بكثير من طين ممزوج باللحم والدم... نعم... المرأة يجب أن تكون مخيفة، وعظيمة... المرأة الحقيقية والعميقة التفكير، نعم، مثل هذه المرأة لا تمتلك عواطف نزقة، تطير مثل الفراشة بكل الإتجاهات بحرية منفلتة... هل تفهمني يا دكتور... ارجوك دائما كإنسان، وكطبيب فكر أبعد من البنكرياس والقولون والطحال...

مرة أخرى بلل زاوية عينيه، ثم بحركة بطيئة رفع موت ايفان ايلج، وراح يحرك الهواء قرب عنقه... قلت مع نفسي وانا أنظر الى هذا العجوز الرائع، ان أُنس هذا الانسان، وحديثه الساحر يجذب المرء اليه، والى طبيعته الحارة والمتحمسة برغم كبر سنه، ومرضه... قلت:

– حسن... لماذا لم تستطع ان تكون روائياً؟... أو رساماً؟

– لأنني ببساطة لم أمتلك غموض الروح... الفنانون الحقيقيون يمتلكون روحاً غامضة، غريبة، ملغزة، معقدة...

– ألا يمكن تعلم الكتابة، والرسم عن طريق العمل الشاق مثلاً؟

– مستحيل، الطب، العلم، الهندسة، هذه الاشياء يمكن... اما الإبداع فلا... الموهبة الحقيقية اولاً، ثم العمل الشاق، وغموض الروح... انا كانت تنقصني كل هذه... اوه... قرأت آلاف الكتب، وبرغم تدهور بصري ما زلت أقرأ لحد الآن، بحكم الادمان لا أكثر...

لكنني لم أصبح روائياً... إستهلكت كيلو غرامات من الألوان والأقمشة ولم أصبح رساماً.

– حتماً حاولت وكتبت؟

– حاولت... كنت أستطيع ان أكتب، لكنني كنت مجرد سمك اللوار...

– سمك اللوار؟ ماذا يعمل هذا السمك؟

– هذا السمك يطلق دوامة صغيرة جداً في الماء ثم يختفي، وتختفي معه الدوامة بسرعة... إيه يا دكتور، كنت أحلم ان اكون مثل البحر اطرحُ لآليء من الكلام المثير، والافكار العميقة، لكن الحلم شيء، والحقيقة شيء آخر.

– هل أفهم من كلامك انك هجرت الكتابة والرسم؟

قبل ان أهجرهما، دخلت دنيا المغامرة إيماناً مني بأن الفنان دائماً بحاجة الى حياة ثرية جداً، وداعرة، وماجنة لإثارة خيالي، واغناء تجاربه، سافرت الى إيطاليا، واشتغلت حمالاً في ميناء نابولي، وتعرفت على آلاف العمال من مختلف بلدان العالم، وتعلمت قليلاً عدة لغات وتعاملت مع صنوف مختلفة من البشر، رأيت من الكذابين، والمهربين، واللصوص، والقتلة بالمئات، أتقنت اللغة الايطالية... هناك في نابولي عشقتني إيطالية قوية، تملك قدرة غريبة على الحب والعطاء... روزيتا... كانت روزيتا كتلة من الخيال... نعم خيال رهيف يستطيع رؤية عوالم بعيدة، وقوة بصر تستطيع تحويل الحركات الصامتة، بل تحويل أسرع إيماءة من مجرد مستواها التجريدي في حركتها الغريبة الملغزة الى مستواها السمعي... كانت تحب الأدب حباً يصل الى درجة العبادة... منها عرفت انني لا امتلك الموهبة، ولا غموض الروح... روزيتا كانت دائماً مليئة بسعادة متوترة، وبضربٍ من الإحساس الداخلي بالثراء، وقوة فائضة في المشاعر والعواطف المشذبة... وانا مثل أي شرقي عاطفي، والعاطفي يا دكتور سرعان ما تلهبه الكلمات الرقيقة، والجمال الذي يضرب القلب، يهرب من واقعه ويتعلق بالأوهام... أحببت روزيتا، وكانت ترتاح إرتياحاً مازوشياً لدمامتي، وتسميني – الدميم العنيد– آه... إمرأة غريبة... كانت مزيجاً من الطيبة العذبة والوقاحة... وأحياناً البساطة الآسرة، واحياناً شرسة شراسة وحشية، ولها سعة أُفق غريبة... في الليالي كانت تقرأ لي ساعات بصوتها الجميل لويجي بيراندیلو، وجيوفاني فيرغا، وماتيلدي سيراو، وغابريال دانونتسو، ومارينوموبتي...

كانت أحياناً تسخر من الاحديداب في ظهري وتقرأ بطريقتها الساخرة قصة – مضايقة مرغوبة– للويجي كابوانا، حتى إنني حفظت عن ظهر قلب عدة اسطر.(كان دون بيترو معروفاً بالأحدب مع ان الاحدب كان لقب ابيهِ... وهذا الأخير بالرغم من حدبتين واحدة في الصدر والاخرى بالظهر، وجد إمرأة مليحة)...

ها ها ها ها... كانت تقرأ بطريقة جميلة... إلهي... عندما اتذكر زمن الوشائج الرهيفة التي كانت تشد بعضنا لبعض، احترق، واتأوه، والعن الزمن الذي هرب، وهذه الشيخوخة... فجأة إختفت روزيتا في ظروف غامضة... والقت الشرطة الايطالية القبض عليّ... عشت أكثر من سنة في السجن مع الطليان كانوا يضربونني، وأضربهم، ويغنون طوال الليل، ويتصرفون معي أحياناً مثل الاطفال، ونأكل الاسپاغاتي، وكنت اقلد لهم حركات ممثلهم المحبوب – فيتوريو ديسيكا– كانوا يضحكون... خرجت من السجن... جربت أشياء كثيرة... أشياء براقة، ومعتمة، ونزلت في موانيء مهجورة وحزينة، واخرى مزدحمة بالحياة والموت... كنت أرتحل مثل الطائر وأحط في مدن صغيرة أمكث فيها أياماً وأغادرها من غير ان أعرف اين ستكون محطتي الاخيرة... عشت عدة أشهر في الصومال... آه... في الصومال رأيت نساء جميلات، وطيبات، وبريئات، وحارات الى درجة كنت اشعر أحياناً وأنا انظر الى خدود الشابات ان بوسعي ان أشعل سيجارة فوقها... عشت في مدن كبيرة، أشتغل في هذا المطعم او ذاك المعمل، واسير في الأماسي في شوارع مزروعة ببشر يركضون بلهاث لا احد يعرف الى اين... من اجل ان أكتب كنت بحث وبصبر أيوبي عن مديات المعرفة اللامتناهية لأكون عميقاً... جربت خليطاً من الافكار، والأراء، والمشاعر، والتجارب... جربت الفقر، والتفاهة، والإحباط... كنت اجرب بجنون لأنني ما كنت أريد ان أُحاصر بشيء مثلما كانت تعمل روزيتا... كنت أرحل الى حيث الحقائق واللاحقائق، لأنني كنت اريد ان اكتب مواضيع يعترف بها العالم... كنت أريد أن أخلق الدهشة الشديدة، الدهشة في الفكر، في القلب، في الروح... ان الذي يستطيع ان يدهش بالدعابة إنسان هذا العصر الذري هو مبدع حقيقي... الإنسان فقد الدهشة... انه الآن يعيش معادلات رياضية فقط، وقوانين فيزيائية، ويُطير مئات الاطنان من الحديد البارد والحار الى السماء وفيها فئران بشرية تجرى عليها التجارب... كنت احلم بأن أعطي عبر إبداعي الديمومة للإنسان... آه... لكن الحلم شيء والواقع شيء آخر... رجعت الى بيروت، واشتغلت في الصحف، وعاشرت

نخبة من أمثالي من عديمي الموهبة سنوات طويلة الى ان بدأت القنابل تمطر هذه المدينة المغدورة، وغادرتها الى بغداد.

– ماذا فعلت في بغداد؟

– لاشيء... كنت قبل ثلاث سنوات أتردد ساعات على مقهى البرازيلية، واستمع الى شلة من الشباب وهم يتكلمون بحماسة تصل حد الهذيان عن غاستون باشلار، وميشيل فوكو،ورولان بارت، هذا يتهم ذاك، وذاك يتكلم عن الاصالة، وفقدان الجذور، او يهذي بعبارة طويلة للوسيان غولدمان، ويقاطعه آخر ضارباً الطاولة بقوة وهو يلهث بجملة معقدة لبارت... واضحك مع نفسي، وأردد وانا أغادر المقهى: إلهي... كل يوم وساعات الثرثرة نفسها، الأسماء نفسها، العبارات نفسها...

قلت للعجوز الذي احببته من أعماقي:

– حسن... ماذا تفعل لو رجعت شاباً؟ أعرف انه سؤالٌ سخيف...

– أعيد حياتي نفسها حتى ولو اصبحت سمك اللوار.ها ها ها ها...

تكلم بصوت جميل و مؤثر منغماً كلماته التي كانت تتراجع اسيانه في غرفة العيادة الصامتة، عن العذاب، وهو يسترجع ذكرياته ويفيض من وجهه المنتفخ الشاحب الضارب الى الخضرة تارةً، والى الليمونية تارةً أخرى... ووسط أسف وحزن شفافين سألني فيما اذا كنت متزوجاً... قلت:لا ليس بعد.

– إسمع لا تبقى مجرد طبيب... جرب كل شيء... لا تدع الصدأ يغلف قلبك، وحياتك... في الحياة ثمة متع كثيرة... الحياة تنحل، تتفتت وتصبح خرقة مبللة بسرعة شديدة... تنهد، وغاص في صمتٍ طويل، وقال: أين ذهب ألمي؟... لِمَ لم اعد أحس بالألم؟... لماذا يشتد عليّ ويأخذني في قبضته في غرفتي... غمغم قليلاً، ونهض بتثاقل شديد مستنداً الى عصاه... ترنح وكاد يسقط، صاح بصوتٍ عنيد: أيتها الإرادة لا تتخلي عني... سار بقامة مستقيمة بإتجاه الباب...قلت: نسيت الرواية... أجابني من غير ان يلتفت إليّ: لا أظنني استطيع قراءتها... لقد ضعف بصري كثيراً منذ الاسبوع الماضي صار كل شيء مضبباً...إحتفظ بها... أنا ذاهب الى المكان نفسه التي ذهب اليه ايفان ايلج...

***

مملكة الانعكاسات الضوئية(*)

كانت ليلة مقمرة من ليالي نيسان الهادئة عندما غادرتُ بيت صديقي الفنان عادل العطار الذي يسكن كما سكن أبوه وجده، في قلعة مدينتنا العتيدة، عادل يمتلك لباقة قلب ساحرة، وثقافة عميقة في الفن التشكيلي، وهو محدث رائع... تكلم كعادته كلما نلتقي ونشرب، عن الفن بحب... تكلم بحزن عن إستشهاد الفنان فريدريك بازيل وهو بعد في ذروة شبابه، وحلل لوحته الجميلة – ستوديو الفنان– واسهب بحزن أكثر في الحديث عن الموت المبكر للفنان التنقيطي جورج بيسارو ولوحته الساحرة جسر كوربيفوا... وبعد الكأس الثانية تكلم بحب أكبر، وقدم لي – ألبوماً– عن الفن الكلاسيكي، وتكلم بشرح دقيق عن لوحة– الإله ديونيسوس وارديانى– للفنان تتسيانو، وأخرى للإله زيوس وانتيوبي للفنان بوشيه... من فوق القلعة القيت نظرة على كركوك الحبيبة، وهي تبدو كئيبة، حزينة، ومهجورة من أهاليها بعد الثانية عشرة ليلاً، كنت منتشياً بعد الكأس الثالثة أسير بخطوات قصيرة واتخيل اللوحات، ووجوه الآلهة، باخوس وديونيسوس... أثارتني الليلة الربيعية الطرية، والأرض الندية التي تعبق برائحة لذيذة وهي تلطم الأنف وتدغدغ الحواس والرئة... لكن الليل مثل المدينة نائم نوماً عميقاً، بإستثناء النار الأزلية، التي تهلهل من جهة بابا گرگر كأنها فنار في التاريخ البشري لإرشاد الناس الضائعين الى مدينتي، كان كل شيء ساكناً... إتجهت الى الجهة الغربية من القلعة حيث ثمة درج واسع يؤدي الى الشارع، كان نهر –خاصة– فائضاً على نحو خفيف، والمياه الغرينية تتماوج وتتأوه تحت ضوء القمر الفضي كأنها دلافين سمراء تعبث في صمت الليل المتماوج الذي يلف المدينة التي بوداعة الطفل أسلمت نفسها له... إتجهت الى الجسر الحديدي في المنطقة الشمالية لأنتقل الى الضفة الاخرى... على مقربة من الجسر فجأة ظهر شبحان طويلان، قويا البنية، ملتحيان، شعر رأسهما يصل الى أسفل كتفيهما... في البدء تصورت إنهما مجرد طيفين خلقهما ذاك الشيطان المدعو – ويسكس– ورددت لا شعورياً بصوت مرتفع جملة كاسيو في مسرحية عطيل: يا روح الخمر الخفيفة، اذا لم يكن لك اسم تُعرفين به، فلنسمكِ

(*) نشرت في مجلة الاقلام العدد ١١– ١٢، سنة ١٩٨٨

الشيطان... ولما كان بصري ضعيفاً بعض الشيء، وعمل ذلك الشيطان غشاوة خفيفة عليه، إقتربت منهما وارسلت نظرة مرتجفة اليهما مثل نظرة بومة ادخلت في ضوء قوي، تقدم الرجلان مني. كانا وقورين، مهيبين جداً في كلامهما وحركاتهما، وبأدبٍ جم قال احدهما بصوت غريب الجرس: أيها السيد... لا تخف منا... نحن اصدقاء... حاولت ان أجمع خيوط أفكاري التي إضطربت قليلاً، وشكرت لا إرادياً صديقي الفنان عادل ألذي ألحّ عليَّ ان أشرب كأساً رابعة، اسماها بسخريته اللطيفة كأس الطريق، والتي منحتني فعلاً ضرباً من التماسك والشجاعة، قبل ان أجيبهما، قال الأول: هل نحن في مدينة – آرنجا– ؟ كانت حركاته وهو يتكلم رزينة، ورصينة جداً، وطبيعية، بل بريئة توحي بالثقة... لكن القلب... إلهي احياناً مثل الطفل يخاف من أتفه شيء... قلت بشيءٍ من الخوف: آرنجا؟... هذه مدينة كركوك... اجابني بهدوء مهيب: لكنها بالتاكيد آرنجا... وتلك نارها الازلية... وأشار بحركة يد مسرحية قائلاً:أليس كذلك؟

إضطربت قليلاً. قال الاول: نحن أصدقاء... وانت صديقنا... لا تضطرب... يجب ان تكون شديد السيطرة على نفسك، ولا توجد اية ضرورة لأن تفيض هكذا بالخوف... هل يخاف الإنسان من صديق؟... تكلم بصوت خافت قريب الى الهمس، بينما ظل العملاق الثاني صامتاً قال الأول: حسن... نحن نسميها آرنجا... وانت تسميها كركوك. كركوك إسم جميل ايضا... بدأنا نقطع الجسر المؤدي الى الضفة الأخرى من المدينة، قال الأول: شيء غريب؛ بل غريب جداً... الربيع يتفجر بالحياة، وهذه المدينة نائمة... لماذا؟... قلت: إنها يا صديقي مدينة صغيرة، وتنام بعد الساعة الثامنة... أطلق آهة تعجب غريبة، وقال: ماذا؟... بعد الساعة الثامنة؟ وفي أعياد –الايكيتو– آرنجا تنام في الثامنة...لماذا؟ الا تشربون، وتنشدون... نحن في اليوم الثاني من اعياد الايكيتو... قلت مع نفسي: ماذا يقول هذا العملاق؟... اجبته... نعم تنام بعد الساعة الثامنة...قال: حسن... هل ترغب في أن تتجول معنا؟... قلت: نعم... قطعنا الجسر، إتجهنا الى الجهة اليسرى من المدينة. أشار الى بناية وسألني عنها... قلت: انه نادٍ... هنا يسهرون ويشربون الخمر.قال:آه... رائع... لندخل ونشرب... قلت: النادي مغلق. قال بتعجب:... مغلق... كل شيء نائم...، نعم مغلق إذا كنتما ترغبان في الشرب يسعدني ان أضيفكما في بيتي. وافقا. توجهنا الى بيتي. كانت خطاهما واسعة على نحو غريب... وكنت الحق بهما، اجري خلفهما مردداً مع نفسي: يا لهذه المصادفة العجيبة، يا لهذا التعارف الغريب بعملاقين غريبين... ترى

كيف سيدخلان من الباب الخشبي المؤدي الى الصالون؟...لا أعرف... وصلنا – فتحت الباب الخارجي، دخلا الى الحوش بسهولة، وبسرعة فتحت لهما الباب الخشبي: إنحنى الثاني بطريقة مسرحية حتى لامس جبينه الارض ودخل، ثم تبعه الآخر بالحركة نفسها، وبدلاً من أن يجلسا فوق الأريكة، جلس الثاني على الأرض، وعلى مبعدة أمتار منه جلس الآخر... رجوتهما ان يجلسا فوق الأريكة، رفضا بمنتهى الأدب، وقالا معاً انهما سعيدان بجلستهما، لكنني قلت مع نفسي: وهل حقاً بوسع الأريكة ان تتحمل وزن هذين العملاقين، كانت رصانة الثاني حازمة، ومظهره يوحي بتفوق معنوي كبير... جلبت عدة قناني خمر من صنع مالطي، وفرنسي، ملأت لهما كأسين، شربا محتواهما بسرعة، قال الثاني بحركة نبلاء: خمر رديئة...

قلت: آسف يا صديقي اذا كانت رديئة... النوع الوحيد الموجود في السوق. شربا جميع القناني، بعد الشرب جلبت لهما كمية كبيرة من الرز، والمرق، واللحم، والخبز، والتمر، وعدة قناني اخرى من الخمر. أكلا وشربا بإستمتاع... قال الثاني:

– اهالي آرنجا كرماء... وأضاف: أيها الصديق حاول أن تكون معي. قلت بإحترام: انا معك يا صديقي.

– ليس المهم ان تكون معي بل المهم ان تفهمني وانت تستمع إليّ، ولكي تفهمني يجب ان يكون لديك يقين هادىء...

قلت مع نفسي: يقين هادىء... ماذا يقصد باليقين الهادىء

اضاف: نعم يقين هادىء... وإلا لن تستوعب فكرتي... الشيء الذي أقوله لك لا يحتاج الى صلابة عقلية... لا لا لا ... الصلابة العقلية لا ترى سوى الأشياء الجافة المعقدة... انا أريد منك ان تؤمن فقط... قلت: اؤمن بماذا؟

– اه... تؤمن بمعادلات الحياة... نعم... عندئذٍ تستطيع ان ترى ممالك مجهولة، عوالم غير مرئية...

توقفت عن الكلام وشرب قنينه خمر اخرى. أمام منطق هذا العملاق، إضطربت خيوط أفكاري، وطار خيالي هنا وهناك... إستمر في الكلام قائلاً:

– حاول ان تكون لك نظرة كاملة للحياة، وإنتبه إليّ الآن...ما أسمك...

– جليل القيسي.

– إسمٌ جميل... التفت الى صديقه وكلمه بهمس بلغة غريبة الجرس، واخرج الثاني

بحركات بطيئة ورقيقة من طيات ملابسه قطعة شبيهة بطين إصطناعي وبقصب على شكل مسمار نقش بحركات هادئة ورقيقة على قطعة الطين ومن ثم أعطاني أياها... قال الثاني:

– إسمع يا جليل القيسي، هذا ألذي كتب لك الرسالة التي بين يديك هو الإله – انكي– انه إله الفطنه والذكاء، والماء العذب... كنا قبل ان نتجول فوق مياه نهركم الفائض، ونتجول في آرنجا، اي كركوك العذبة كما تسميها، كنا نتجول في أماكن اخرى... نحن للمناسبة أجدادك القدماء... وما زلنا أحياء كآلهة... انا كبير الآلهة مردوخ، نريدك ان تزورنا بعد يومين في بابل... نحن الآن في إحتفالات رأس السنة البابلية، أي في إحتفالات الايكيتو... عندما تأتي الى بابل سنسمعك قصة الحق، والعدل، والحرية، والمساواة ونريك الرقص، والغناء، وننفذ لك جميع طلباتك، حتى المستحيلة منها... عندما تأتي توجه مباشرة الى قصر – الايزاجيلا– وهو مكان إقامتي في البرج العالي... وإذا رفضت المجيء تكون ملعوناً الى الأبد... نكست رأسي بإحترام شديد أمام هذه الكلمات، وراحت مخيلتي تضخ لي رؤى مخيفة... كابوسية تارةً، وتارةً جميلة، لست في حلم، كما لست في السرير، انما أمام اثنين من أجدادي يكلمانني بأروع منطق، بدافع من نوبة فرح عميق وإجلال نهضت وأندفعت بين ذراعي الإله مردوخ ودفنت رأسي في صدره الكبير مردداً: شكراً... شكراً جزيلاً... لكن أرجوك أعفني من المجيء ... ارجوك... قال: يستحيل... طالما أطعمتني، وسقيتني، واحترمتني كثيراً من غير ان تعرفني، اقول يجب أن تأتي يا جليل القيسي... تعال، وعرض نفسك الى المزيد من النور... هناك سأقدم لك مفاجآت... استمع لنفسك... ولا تستمع الى الصوت الثاني، الشكاك في داخلك... ذلك الصوت يشوش عليك... لا تستطيع ان تفهمه... نعم... وهو الذي أرعبك عندما التقيناك... نهضا... إنحنيت لأقبل يده... رفض وغضب... خرجا من الباب الخشبي بالطريقة نفسهاالتي دخلا بها، وغابا في ظلام الليل،

***

بقوة سحرية غريبة وجدت نفسي في بابل، كانت السهول خضراء تتوامض، والظلال السوداء ترتمي في الوهاد، وتلمع الدروب، ومن بعيد في جهة الشرق تلوح بحيرة خضراء من الحقول، وعشرات الآلاف من الرجال والنساء والشباب والشابات، يرددون بصوت كورالي جميل:

أرض دلمون مكان طاهر
أرض دلمون مكان نظيف
في أرض دلمون لا تنعق الغربان
حيث الأسد لا يفترس أحداً
ولا الذئب ينقض على الحمل
أرض دلمون مكان مضيء(*)

وبرغم دوي عشرات آلاف الحناجر بتمجيد ارض دلمون، كانت فوق الحقول اللازوردية أسراب من الحمام تتموج مثل سحابة بيضاء وكأن كلمات دلمون هيجتها هي الأخرى...اواه، أيُّ منظرٍ مثير بوسعه ان يفجر النشوة في أحزن قلب وجسد... كانت النشوة تهطل عليّ كلما تقدمت من الجماهير المنتشية كانت النساء جميلات، ناعمات البشرة، مثيرات وسط الجواهر التي ترصع ملابسهن الملونة... كانت حول أعناقهن قلادات نفيسة، وتلف خصورهن أحجار اللازورد... وعلى الأرض بحيرة من أكاليل الزهور قذفتها آلاف الأيدي لتتدفق رائحتها الزكية الى أعالي السماء كلما ذكر اسم دلمون. النساء يرقصن ويغنين بحماسة هستيرية، وضفائرهم الطويلة المجدولة والمطرزة بالزهور الطبيعية تتطاير كأنها اغصان مجدولة بعدة الوان... ومن بعيد شباب ذوو عضلات مفتولة يسوقون مركبات يجر كلاً منها حصان واحد فوق الارض العسجدية كأنهم يطاردون أعداء حقيقين، ويطلقون صرخات حماسية: الى الأمام... الى الأمام... الى جنة الدلمون... الى ارض دلمون... كان كل شيء وسط ذاك الوهج والضوء، والطوفان البشري، وصوت الطبول، والناي، والمزمار، وتمجيد دلمون، يؤجج الخيال، أليس الخيال وحده يستطيع ان يلامس كل حافات العالم وضفافه؟... لم يلتفت إليّ أيُّ من الحضور... كان كل واحد مندمجاً بلذة في الإنشاد، والرقص الى درجة السكر والإنخطاف... اي مجتمع هذا الذي يفيض الى درجة الطوفان بالرفاهية!... ما هذا الفرح السعيد جداً الذي يصل حد الخرافة؟

إتجهت الى قصر الايزاجيلا الفخم وسط أشجار النخيل والزهور... قدمت الرقم الطيني لأحد الحراس الذي تأملني بتعجب شديد كما لو انني كائن غريب هبط فجأة

(*) من ملحمة السومريين حول جنة دلمون.

من كوكب أخر... قرأ الرقم، ثم بأحترام كبير اخذني مع عدد من الحراس الى ممر طويل حيث ارتقينا درجاً حلزونياً إنتهى في قاعة فسيحة كل شيء مصنوع من الرخام والذهب، تسمى بالمجمع المقدس الذي فيه تحدد مصائر السماء والارض والبشر كما اخبرني الحارس. عندما دخلت المجمع بعد ان أعلن الحارس قدومي، طافت همسات تعجب، ونظرات إستفسارية من شفاه وعيون حشد من الرجال المهيبين الجالسين بارتخاء رشيق فوق مقاعد مرمرية مفروشة بالحرير... تقدمت مجموعة فتيات جميلات والقين وابلاً من الزهور الربيعية بأتجاهي، ثم بحركات طقوسية مسحنني بعطور زكية الرائحة... من بعيد سمعت صوت ترانيم، أعقبها بعد قليل عزف مثير على قيثارة ثم تراتيل جميلة شبيهة بتراتيل مقطوعة كورس العبيد للموسيقار الايطالي فيردي... بإستثناء كبير الآلهة مردوخ والإله انكي، نظر اليَّ الجميع بفضول شديد، وراحوا كآلهة يقرأون أفكاري، ومشاعري، واستغربوا جميعاً عندما لاحظوا ان الإله مردوخ رحب بي بحرارة الى درجة انه ظل يبتسم لي في ود حبيب بعينيه اللتين ظلتا تومضان بحنان الآلهة... اشار إليّ بالجلوس في مكان مريح... إزداد تعجب حاشيته من شكل ملابسي، من سترتي، من بنطالي، من حذائي، من قصة شعري، ووجهي الحليق، ووزعوا نظراتهم بيني وبين الإله مردوخ التي ظلت إبتسامة جميلة تتخايل في ملامحه الرجولية الرزينة، ولم يتمالكوا أنفسهم وراحوا يتكلمون بلغة الإله مردوخ عندما كلم الإله انكي في بيتي... تعجبت من اني مجرد قزم بالمقارنة الى قامات هؤلاء الذين يشبهون انكيدو في تكوين اجسادهم، وصدورهم، ووجوههم، وطول لحاهم المجعدة، تفحصني الإله انكي بنظرة جانبية مشجعة وكأنه يقول لي بلغة صامتة، تماسك، وكن سعيداً يا جليل... شجعتني نظراته.أمر الإله مردوخ ان يقدموا الخمر للجميع. في دقائق قدم للجميع كؤوساً فضية كبيرة جميلة عليها زخارف فنية رائعة... شربنا جميعاً بطريقة طقسية، وكأننا نؤدي طقوس القربان المقدس... وسط الكأس ثانية، وبعد ان سحرني مذاق الخمر المعتقة، قلت مع نفسي يا صحاري اللاشعور... حقا فيك كل الإلهام... هل حقاً انا جليل القيسي في هذا المجمع المقدس؟... ترى هل اللازمنية نتاج لزمن معين... ربما... ارسلت نظرة الى الإله مردوخ الذي ابعد لتوه الكأس عن شفتيه الممتلئتين ، وتلمظ بوقار... عيناه الواسعتان انبعث منهما لهب جميل وآسر... الهي... اوليس المنطق احياناً أحمق؟ والخيال هذا الهروب الغير المرئي من الطبيعة الحالمة هو الحكيم الحقيقي...

شعرت بخدر لذيذ، ودبَّ في جسدي إنتعاش حالم... قال الإله مردوخ موجهاً كلامه إليّ: يا إبن الارض يا صديقنا جليل القيسي، الذي التقيناه مصادفة في مدينة آرنجا، وقدم لنا خمراً، وخبزاً، ولحماً، وتمراً، واحتراماً كبيراً، ووفى بوعده وزارنا، وعدناك ان ننفذ لك كل ما تطلب حتى المستحيل.. وأضاف بصوت آمر: الآن أطلب... ما تشاء... وبعد ان ننفذ لك طلباتك تخرج الى الجماهير في السهول، لتأكل وتحتفل بأعياد – الايكيتو– العزيزة عينا، وافعل ما يحلوا لك بحرية مطلقة، قلت وانا متماسك جداً بسبب مفعول الخمر: مولاي كبير الألهة مردوخ العظيم، صدقني لا أريد شيئاً... جئت لأنك طلبتني، وقلت اكون ملعوناً لو رفضت... اطلق ضحكة هادئة وهز رأسه بكبرياء، وقال: هل حقاً ان ابن الارض لا يطمع بشيء؟ يا جليل لا تتردد... لا يعقل ابداً ألا تكون بحاجة الى شيء. أطلب ...أطلب... إسمع سأقدم لك الألهة الذين في إمرتي، لكل واحد منهم واجب يستطيع ان ينفذه لك بلمح البصر... فخذ ما تريد... هنا في مجمعي المقدس توجد الآلهة واورورو... تقدمت فتاة ساحرة الجمال، انحنت لمردوخ، ثم التفت إليَّ بوقار... كانت عيناها ترقصان في مزيج من الاحترام الشديد والتعجب ايضاً... قال مردوخ هذه اورورو المقدسة... سيدة الآلهة، وذات سلطان، ترسم للبشر أقداراً رائعة... أطلب منها ما تشاء... كيف تريد ان ترسم لك قدرك؟.

قلت: مولاي كبير الآلهة مردوخ، انا ابن الارض، مهما كان قدري رائعاً وعظيماً، او تعساً فأنا لا أستطيع ان اقهر الموت... الخلود قدركم أنتم... أنا راضٍ بقدري... اشكرك... أرسل اليّ نظرات تفيض بالعذوبة... نادى على الإله آنو... تقدمَ آنو وإنحنى بإجلال... قال مردوخ: يا جليل، هذا آنو جدي، يستطيع ان يهبك المراعي، وموارد الماء، وسيملاء عنابرك بالمؤن. أطلب من جدي ما تشاء... قلت :مولاي، لديّ برغم فقري كفاية... انت تعرف يا مولاي ان الغنى الحقيقي هو في القناعة. ثم الغلال الكثيرة سوف تفسد بالتاكيد علاقاتي الانسانية مع الآخرين... تهمس الجميع فيما بينهم... وتبادل الإله انكي، والإله مردوخ نظرات، وهمسات طويلة... قال مردوخ: هل تعاني أحياناً من الآم نفسية... وإضطرابات في الروح والفكر؟...قلت:لماذا؟

قال: مجرد سؤال... قلت:آه... مولاي، صحيح ان الانسان الحكيم يحول أن لا يتألم، لكنني أعيش عصراً مضطرباً، عصراً صناعياً معقدا جداً، فالإضطرابات، والآلام الفكرية، والنفسية هي خبزنا اليومي...

قال: آه... حسن... نادى على الإله توتو... جاء توتو وإنحنى، قال مردوخ: هذا توتو إله العطاء ومخفف الآلام... يعطي من غير حساب... إبتسمت، وغمرني ضرب من هيمان سام وأنا ارفض بقناعة طلب هذا الإله الكريم... قال: اجل... يعطيك من غير حساب... قلت: ما جدوى ان أملك أنا ومن حولي يعيشون في مرتبة أدنى من الإنسان... قطب وجهه، وقال بنبرة آمرة: يا جليل يجب أن تطلب شيئاً سواء شئت أم أبيت... ماذا؟... هل تريد شيئاً لمدينة آرنجا وأبنائها؟... لقد رأيت مدينة آرنجا مُهملة، حسنٌ... نادِ على الإله النيبليولو... انظر إليه... هذا الإله العظيم واهب الخيرات، ومنظم المراعي والموارد... سوف يفجر الارض عيوناً، ويروي جميع حقولكم، ويجدد نظم السدود والقنوات... وبحركة سريعة نادى على الإله جوكال... قال: وهذا جوكال الطيب رب الغلال الوفيرة... قلت بصوت خرج حزيناً رغماً عني: مولاي، كل هذا لا يفيد... القى عليّ نظرة غاضبة، وقال بنبرة منزعجة: ماذا؟ لا يفيد! أنا مردوخ الذي إذا قال شيئاً فعله، وأنت ترفض، وتقول لا يفيد... ماذا يفيد إذن؟... ساد صمتٌ طويل، وقد لاحظت ان رفضي لم يثر مردوخ فحسب، بل بقية الآلهة الذين تصوروا إنني برفضي طلب مردوخ العظيم أتصنع النبل، وعفة النفس، وطهارة الروح، والحكمة، أو ربما تصوروا ان ابن الأرض يستطيع ان ينسجم مع نفسه بطريقة رائعة مثل الإله... رفع مردوخ صوته قليلاً: لم لا يفيد... قلت: مولاي، من المسؤول في ملكوتك عن تدمير الشر، والقتلة، والفساد، والمستبدين، والمستغلين، ومدبري المكائد؟

قال: آه... الإله شازو... صاح بطلب شازو الذي حضر فوراً. قال: هذا هو شازو الجريء... لا يهرب من بطشه اي شرير مهما كان محصناً، وهو، بالمناسبة شبه مسؤول أيضاً عن إقامة العدل، والحرية، والمساواة، هنا تنهدت بعمق، ووضعت يدي في جيبي واخرجت خارطة مجسمة للعالم، واضعاً عليها أسماء أخطر الأشرار وكلٌ بحسب مسؤوليته، قلت بتمهل، وبصوتٍ هادىء: مولاي، يبقى العذاب، والفساد مستمرين طالما بقى هؤلاء يعيشون هنا وهناك... القى جميع الآلهة نظرة طويلة على الخارطة، وقائمة الأسماء وبسرعة فهموا كل شيء. قال مردوخ: إنهم كثيرون... إلتفت الى شازو وقال: يا شازو الحبيب أعرف جيداً... لا يهرب من بطشك أحد... فابدأ بهم واحداً بعد الآخر من غير شفقة... توقف قليلاً، ثم أضاف: إبدأ كما يطلب ضيفنا من وراء المحيطات حيث يصدر الشر على الفقراء... نظف الكرة الأرضية منهم... شرقاً وغرباً... وبعد صمت

قصير، وبوقار جميل اجاب الإله شازو... أمرٌ كبير الآلهة، حالاً... وأمر مردوخ بعد ذلك الإله زيرسير الذي يمتطي البحر الغاضب ان يذهب الى ما وراء البحار، كما أمر الإله باجيلوفا سيد البلدان أن يقوم بجمع الاشرار، وقال أخيراً: حسن... وانت يا جليل القيسي، يا ابن الارض، طلبت أشياء للآخرين ولم تطلب اي شيء لنفسك، رفضت القدر الجيد، رفضت المال، والمراعي والأراضي، والغلال، ورفضت حتى تخفيف آلامك عند الضرورة، ورفضت السكينة... ألا تطلب شيئاً واحداً لنفسك؟ قلت: يا مولاي العظيم، من المسؤول عن إحياء الموتى؟؟ قال: الإله – اجاكو– إنه رب التميمة المقدس، وباعث الموتى... ماذا تريد من الموتى يا جليل؟ قلت: يا رفيع المجد يا مردوخ العظيم، هذه قائمة بأسماء أشخاص احبهم الى درجة العشق، وأريد ان التقيهم ولو لدقائق بعد ان ينهي الإله شازو الأشرار، ويعم السلام الابدي، والمساواة كوكبنا الحبيب، نادى مردوخ على الإله اجاكو وسلمه القائمة قائلاً: ينفذ طلب ضيفنا... أجاب اجاكو مخاطباً إياي بوقار:آه... انهم موزعون في أرجاء العالم... ثم ماذا... قرأ بألقاء مسرحي الأسماء... هيراقليطس، الحلاج، علي بن محمد، كوبر نيكوس، سيمون بوليفار، جيوردانو برونو، شيكسبير، موتزارت، ماركس، دستويفسكي، اميليانو زاباتا، سيزار ساندينو... هزَّ رأسه وقال: حسن... هذا طلب بسيط...ألا تريد شيئاً آخر! أطلب... نهضت وبكلمات حارة شكرته قائلاً: ليبق أسمك على مر الازمان يا واهب الخيرات، وقاهر الاشرار، وليمجد اسمك يا رب الغلال الوفيرة، يا مانح الحرية، والسلام، والمساواة، يا صاحب الكلمة، أمرَ عدداً من الآلهة ان يذهبوا معي الى إحتفالات الايكيتو، وهو، يقول بحُب: دعوه يأكل جيداً ويشرب جيداً، ويغازل الجميلات كما يشاء ثم يعود الى الى آرنجا بسلام.

خارج قصر الايزاجيلا كانت السماء تمطر نوراً ذهبياً، وكنت مليئاً بالغبطة لأن السلام سيعم الأرض كلها، وسأقابل رجالاً عشقتهم منذ ان عرفت فكرهم، مشيت بخيلاء وحاشية من الآلهة تتبعني... كنت من شدة فرحي أُطارد فراشات حليبية تنتفض مثل ندف الثلج، وأتأمل نور الشمس وهي تعانق الارض بحب، وهو، أحياناً بلون اللازورد، والبرتقال يسقط على آلاف الرجال، والنساء، والشباب وهم يتوهجون تحته. قلت مع نفسي وأنا أطلق تنهيدة تلو الاخرى، إلهي، هذه حقاً مملكة الإنعكاسات الضوئية، الظلال تحت النور بنفسجية وناعمة كالمنخل، عندما وصلنا الجدار البشري،

استأذن الالهة مني بعد ان استخفهم الطرب وانخرطوا في الكرنفال، وراحوا يرقصون بحرارة، وينشدون ويغزلون، آه... هنا إذن، في هذا الكرنفال الحقيقي يُلغى نظام الألقاب، والمراتب الاجتماعية، ويلغى عدة ايام تبجيل حتى الآلهة؟... هنا في الايكيتو لا شيء سوى المساواة المطلقة بين البشر... اقتربت مني فتاة جميلة وراحت تمس بجسدها المستقيم جسدي بحركات سريعة ومثيرة جداً على إيقاعات الطبول السريعة وعزف الناي... شعرت ببهجة من اللذة الحسية الهادئة اولاً، ثم بلذة مثيرة عندما لاحظت عدداً من الآلهة يفعلون الشيء نفسه مع النساء... وخشيت انا الخجول الوقور بعد ان توهجت الإثارة عندي ان أقوم بمداعبات نزقة لاسيما وقد رفضت عطاءات لكبير الآلهة مردوخ... لكن مردوخ قال لي غازل أجمل البنات... قدمت لي الفتاة كأساً مليئة بالخمر، وقطعة لحم كبيرة، شربت بلذة، وأكلت... إحتضنتني الفتاة بقوة وقبلت وجهي، وشفتي، وعنقي، ...آواه... اي كرنفال ساحر هذا... استمررت بالشرب، واستمرت الفتاة الملتهبة شبقاً تمطرني بالقبلات والنداءات الندية، قالت: هل انت سعيد!

– جداً جداً.

اضافت بصوت ناعس: لكنك ما زلت خجولاً!

– بعد الكأس الثانية اكون احسن بكثير...

– إشرب إذن... في عيد الايكيتو المساواة تكون مطلقة، انظر، ذاك هو الإله توتو يرقص، ويلوي جسده مثل الافعى... انظر كم بعنف يرقص الإله اجاكو... وتلك الآلهة وارورو صانعة الاقدار، ترقص بجنون... هنا أشرب... أشرب.

– انتِ فتاة فياضة الحسن والذوق.

– اوه... شكراً... كُل... إشرب... تمتع.

– أنا مستمتع جداً...

– إستمتع دائماً... في كل وقت... ملحمتنا تقول: لا حكمة او حياة في العالم الأسفل... لذا ترانا نشرب الخمر بقلب، ونأكل خبزنا بفرح... هيا اشرب... يجب ان تتجالد، وتتماسك...

– لماذا؟

– لأننا سنذهب غداً الى مدينة أينانا.

– أينانا؟

– نعم... مدينة الوركاء... إحتفالات الايكيتو هناك اكثر جمالاً، وصخباً.

فجأة وبصوتٍ جميل راحت تغني.

سومر... سومر يا أعظم بلدان العالم

ايها المغمور بالنور الدائم، والشرائع المطاعة

اقدار عظيمة لا تتغير

سومر ... سومر(*)

قلت: صوتك جميل...

– اه... شكراً... هل ستبقى معي؟

– ابقى!

– وتأتي معي الى مدينة أينانا؟

– لم لا...

– هناك سأجعل قلبك مفعماً بأنوا ع الأحلام...

– نعم... احلام ملونة... مثل الوان أعياد الايكيتو...

– يثيرني هذا الحبور المشع في وجهك.

هتفت بصوت مزغرد: ملعون من لا يفرح في أعياد اليكيتو، مدت أصابعها الطويلة الفاتنة وبهدوء جميل داعبت شعري، وعنقي، وقالت: انت الان أكثر إرتخاءاً وسعادة.

– فعلاً

– رائع... رائع... أراه الآن بوضوح.

– ترين من؟

– الفرح الحقيقي... انه الآن يجتاحك...

– إنني فعلاً سعيد جداً.

أطلقت لا إرادياً ضحكة قوية وأنا ارنو إليها...

قالت: تعجبني ضحكتك المهذبة جداً...

(*) من الاسطورة السومرية

– شكراً.

مع حلول المساء تمددنا بعد أن هدنا التعب... قالت:

– انظر الى الغروب الذهبي.

قلت بتعجب: آه... متى هبط الغروب؟

قالت بهمس: الآن...الآن... انه غروب جميل...

– جداً جداً.

– سيكون أجمل بعد قليل... في بابل، المساء والليل في أعياد اليكيتو يأخذان أشكالاً عديدة...

– حقاً؟

– أنظر بعد لحظات يصبح الأفق رمادي اللون مثل المخمل... وضعت يدها فوق صدري وهي تقول: تمدد أكثر لترتاح قليلاً... قلت وانا ألقي نظرة طويلة الى السماء... النجوم بدأت تزهر في السماء.

– الليل يكون بلون الفحم.

– هل سنبقى في الظلام هنا؟

– طبعاً بعد قليل سيشعلون النيران... في أعياد الايكيتو نعيش حياة طليقة من الزمن...

قلت مع نفسي: ماذا تقصد بحياة طليقة من الزمن!

قالت: إذن ستبقى معي... أليس كذلك؟

– لماذا؟

– سنذهب معاً الى مدينة أينانا

– لماذا معي بالذات.

– بدأت اعرفكَ اكثر في هذه اللحظات.

– كيف؟

– انت اكثر حقيقة الآن... عواطفك أوضح الآن... أنت إنسان طيب.

– سأبقى معكِ.

– جميل...

– أنا مرهقٌ جداً.

– كذلك انا... حاول ان تنام الى منتصف الليل.

– لماذا الى منتصف الليل؟

أجابتني بصوت مخمور بالنوم والشهوة: في منتصف الليل يشعلون النيران، ونسهر حتى صباح غد، وظهراً نسافر مع آلاف من أهالي المدينة الى مدينة أينانا... يجب ان اسافر.

– لماذا يجب؟

– لأننا جميعاً نخاف من أينانا... من غضبها.

– غضبها؟

– انها بقدر ما تمنحنا الخيرات... تدمر إذا شاءَت البلاد بأكملها.

– لماذا تدمر البلاد؟

– ذات مرة دمرت بلاد سومر لأن بستانياً ضاجعها... اوه... ستكون سعيداً في مدينة أينانا... سترى أعراساً جميلة... غداً مساءاً تصعد أينانا من العالم السفلي بعد ان تقهر الموت... قلت بعد صمتٍ طويل: هل نمتِ؟

– النوم على وشك ان يأخذني الى عالمه...

***

كان الليل عندما أفقت رائعاً، سنياً حولنا،وألسنة النيران تتراقص في كل مكان، وإحتفالات الايكيتو أكثر صخباً، و عنفاً ،وجمالاً... أخذتني الفتاة من جديد ودخلنا الكرنفال اللاطبقي بحماس اشد على نغمات الطبول والأناشيد... كرنفال المساواة... في الهزيع الاخير من الليل تعبت وتمددت فوق العشب الندي، وكان النوم على وشك ان يأخذني عندما جاءَني الإله شازو، وهمس في أذني بصوت رقيق جداً قائلاً: يا ضيفنا المحترم جليل القيسي عند الفجر سيكون اول لقاء لك مع هيراقلطيس... هتفت: هل عم السلام العالم؟

غابة من الاحلام(*)

"هلا جلست الى جانب رأسي وحدثتني
كيف يمضي الزمن بخطوه الريشي"

لوكريشيا ديفدسن

عندما قال لنا الطبيب: بالإمكان زيارة عيادته في الرابعة مساءاً، كنت قد إستنفذت جميع طاقاتي الاحتياطية من الصبر، والتحمل، والإرادة. والإنسان عندما يريد أن يهرب من الناس يجب ان يلتجيء الى أُناس أخرين، وإلا، هل ثمة ملجأ آخر؟ لكن حتى وسط الأخرين كان هو ينهش مخي... إذ كان قبل أقل من شهر ثمة شرارات من الأمل أن يعيش هذا الإنسان النبيل، أما الآن فأشك ان بقيت ولو شرارة صغيرة واحدة من الأمل... إنه سيصبح لي ماضياً، وسوف أعيش كما قلت له أكثر من مرة، وبكل ما لدي من صدق، اسكر نفسي بجرعات من ألذ وأمتع المشاعر التي مرت على روحي، وعقلي ومشاعري معه... ان هذا الإنسان الذي يمتلك خيالاً راعشاً، حياً، خيالاً له أجنحة لا مرئية، وفكراً عميقاً، يأخذ الأخرين معه الى الممالك البعيدة، منه تعلمت ان أُحب اي شيء في الحياة ومهما كان صعباً ينبع من المعرفة الجيدة بموضوع الحب... حتى الألم الوحشي الذي ما زال يعاني منه، سرعان ما فهمه، وتحمله بأبيقورية رائعة... كنت أرى الألم يعوي في داخله، في عينيه السوداوين الآسرتين اللتين انطفأتا الآن، كان بكبرياء رجل حقيقي ينساه، ويتكلم عن ذكرياتنا، وعن أفكاره، وأحلامه... كان واضحاً وضوح الماء معي، واحياناً وبسبب ثقافته الواسعة لم أستطع فهمه... في البداية تصورت انه يتغامض معي، غير أنني اكتشفت انه غامض كتركيب فكري، ونفسي، وروحي... لكن ما ان يغادره الغموض الذي كان يجيئه على شكل نوبات صرع، حتى يبدأ فيه روح المرح يملؤني بشعور فياض، وسعادة متوترة، بل بحالة من الثراء الداخلي، أشعر على اثرها أنني فعلاً أُنثى حقيقية، مثل فنان ماهر حفر جداول عميقة في حياتي، في خيالي، ومشاعري، وافكاري، وأخيراً في إرادتي... لكن إرادتي برغم قوتها إهتزت، وأُصيبت

(*) نشرت في جريدة الثورة بتاريخ ١٩٨٩/٣/٢٩

بكساح حقيقي عندما راح يذبل مثل الشمعة المعرضة الى النار... انه من النوع الذي يستقطب سخرية القدر، ويقبلها كحقيقة، بل كبديهية... في الرابعة مساءًا قال لنا الطبيب: لا تقاطعوه... دعوه يتكلم كما يريد... قد يهذي او يغمغم... المهم، دعوه يتكلم... هززنا رؤوسنا بالموافقة... لأننا جميعاً حتى والده الساذج والطيب جداً إستطاع أن يفهم الكثير ، وان يرى أقصى الحزن في عيني الطبيب... اواه... ماذا سأرى الآن... هل أرى ذلك الانسان الوسيم نفسه، الصلب، الطيب، والغامض أحياناً، وعميق المشاعر... كان إذا بدأ مشروعاً يقول: سأخوض يا ضحى معركة ماراثون أخرى، وهذه المرة النصر مضمون لي... النصر... النصر... كانت كلمته المحببة... دخلنا الغرفة... كان ممدداً مثل المومياء... وقد خرب المرض قسمات وجهه تخريباً همجياً... كان يرانا جميعاً مثا اشباح... سمع صوتي، وراح يجلد بقايا حواسه المرهقة جداً ويوقظها برفق على الرغم من إختراق الألم لجسده وحواسه، ونفسه. قال بصوت واضح وهادىء: كنت أعرف انهم سيسمحون لكم بالمجيء الى هنا... هذا اليوم بالذات ولآخر مرة طبعاً... أرجوكم لا ترسلوا إليَّ مثل هذه النظرات... قفوا مثل تماثيل بصمت، لكن بكبرياء..إنني شاحب جداً... عيناي مطفأتان، ثم ماذا؟... من أنت؟... هل سبق وتعرفت عليك؟... تشبه صديقاً، أخاً، قريباً... (بهذه الكلمات خاطب والده الذي راح يترامق واياه بعينين رطبتين). المهم لست غريباً... وانتِ!! (أراد ان يتحرك عندما رآني... كان وجهه يحترق ألماً) من!... ضحى... إقتربي... لقد سمح لي الطبيب بالكلام بحرية، بل طلب إليّ ان أتكلم وأتكلم... سأطيل حديثي معكِ... مثل عنق الزرافة لتصل الى الغصن... (إلهي حتى حين ينشره الألم، بمنشاره الحاد، فهو يطلق سخريته) لا اريد ان يقاطعني اي إنسان... لا أريد دموعاً... هل ذاك والدي؟ لماذا يهز رأسه مثل زهرة عباد الشمس!... ضحى، ان والدي انسان طيب جداً، وساذج جداً... لا يفهم لغتي إسمعي، الأغريقيون يقولون ان من تحبه الآلهة يموت فتياً.يبدو ان السماء تحبني... أين والدتي؟ آه... صحيح... انها ماتت منذ سنوات... لو كانت تعيش حتى الآن كانت حتماً مثل يعقوب الذي ذهب الى كفر ناحوم لكي يتوسل الى المسيح لكي يشفي إبنته من مرضها... اتعرفين ماذا قال له المسيح؟... قال عد الى بيتك فأنها قد برئت... آه... كم هي غنية قلوب الأمهات... ضحى، ستعرفين هذه الحقيقة عندما تصبحين أُماً... لما لا... إقتربي مني... ما أخر كتاب انشغلتِ به؟... تعالي... أعرف ان الأمل ما زال قوياً فيكِ... (قلت مع نفسي: أي أمل؟ لقد اصبح الأمل

وأنا آراك كومة عظام، بالنسبة لي جزيرة بعيدة، بعيدة وغامضة مثل غموضك) ضحى هل سبق ان كلمتك عن صندق بندورا! في الاسطورة الأغريقية؟ (اجل... اجل... وهل تركت شيئاً لم تشرحه لي؟... لقد علمتني اشكالاً من الوعي، والأساطير، وكيف أتعايش معها، أنت جعلتني أصبح سيدة نفسي) آه... من صندق بندورا انطلقت كل الشرور، لكن بقي في قاعه شيء عظيم وهو الامل... هل لديك أمل؟ هل الطبيب هنا؟ اذا كان هنا فهو حتماً يسخر مني، ومن كلمة أمل ... وكذلك الممرضة... ضحى، الطبيب لا يعرف شيئاً، لأنه لا يعرف كيف يحلم...إلهي، الحلم... الحلم... لا اقصد الحلم الذي يأتينا في الليل... في النوم... حتى أتفه عقل يحلم في النوم. حلم... كان دونكيشوت أكبر حالم في العالم... (اعرف... اعرف... يا عزيزي، كم كان خيالك خصباً، كم كان بوسعه ان يتخيل ممالك مجهولة... لقد كنت انت الآخر حالماً غريباً... العقل... الخيال... الجرأة... حس عظيم بالفكاهة... والسخرية الكاوية... هذا انت) حلم... حلم، انتِ تفهمين أحلامي يا ضحى...(انتَ! كلما اقتربتَ من الينابيع إزددت ظمأً، وازددت مناغاة لمزيد من الأحلام، الهي، وهل إمتلكت الهدوء الداخلي... يالغموضك الجميل) عينا والدي تلمع فيهما الدموع... من تلك الجميلة هناك؟ إقتربي مني لا تخافي... هل حقاً يخاف الإنسان من جثة؟... إقتربي (كانت أختي تخافه، تخاف بعض حالاته غير سوية، من الإضطراب في عينيه، ويديه، من صمته الطويل أحياناً، ثم فجأة من سخرياته) من هي؟ انها تخطو الى الخلف انها رقيقة جداً... ضحى إقتربي، لماذا تنظر إليّ تلك الفتاة بخوف شديد... (كيف لا تنظر إليك بخوف... لقد ذبلت لقد نحلت نحولاً رهيباً، لقد تغيرت بطريقة مثيرة للحزن) هل لأنني سأموت... ثم ماذا؟ ضحى، منذ مدة وأنا أردد مثل المسيح قبل صلبه: اللهم جنبني هذا الكأس، لكن كما تريد انت لا كما أريد أنا... اردد هذه الكلمات على الرغم من انني – اغنوسطي– هل والدتي هنا؟ (اسكرته موجة الهذيان، وظلَّ يسأل عن والدته، وعن أسماء لا اعرفها، وعن مدن زارها، ونساء عرفهن) أه... والدي وحده هنا... بابا... أخيراً تزوجت... رائع، لست ضد زواجك... لا لا... لن اضحك من زواجك في سن الخمسين... انه ليس عمراً متقدماً... أتعرف ان الملك داوود، وهو، عجوز جلبوا له – ابيساجا– ساحرة الجمال فأصبحت امته... عجوز... عجوز... تمتع يا بابا... الزمن احمق كبير... (تنهد بعمق، وربما غزته رعشة قوية في الجسد والروح) هل تروننني بوضوح؟ الألوان أصبحت غامضة في عيني... ضحى... ضحى... لماذا توقفت عن قراءة الروايات

لي؟ لماذا؟... صدقيني عندي رغبة شديدة بالإستماع الى عدة صفحات من إحدى روايات اجاثا كريستي... هل تضحكين من طلبي؟(اضحك!! وهل يستطيع ان اضحك ايها الغامض! لا... لكنني اتسأل، أبعد ذلك الإبحار الشاق في عالم كبار الكتاب ترغب الآن ان اسمعك صفحات من احدى روايات اجاثا كريستي؟)ضحى، كان الجنرال الجمهوري الإسباني – مياجا– يقرأ روايات اجاثا كريستي ابان الحرب الأهلية ليريح ذهنه من مشاكله الكثيرة... ها ها... اعطيني يدك... أصابعي ميتة... ميتة...(اخذت اصابعه الخشبية بين يدي... الحلم والنوم ضدان...اواه... تذكرت يوم اخذ يدي بين يديه بإغراء مني طبعاً، كنا خارج المدينة، البراري الجميلة، موشاة بظلال السماء، وحمرة الشمس الذابلة، وهو، بصوته الرقيق المؤثر، وكلماته التي تضرب القلب، يدفعني الى تأملات كثيرة، كنت وهو يتكلم اشعر برجفة حيوية) يدك... اتذكر ملمسها المثير مثل اليشب الصيني ... ها ها ... بالمناسبة، بذكر اليشب الصيني، قبل اكثر من عشرين يوماً، وفي هذه الغرفة، وفوق ذاك السرير أهدت فتاة جميلة صديقها خنفساً من اليشب الصيني... تصوري خنفس! ضحى، كان المؤمنون في مصر القديمة يقدمون خنفساً صغيراً للإله ايزريس... ماذا لو كنت انا الإله نانا؟ وانتِ زوجتي ننيگال... ماذا لو ان المصادفة العمياء جعلتني نبوخذنصر الثاني! أفرض نفسي سيداً على فينيقيا وسورية، وعلى الغرب كله... لماذا ترف شفاهكم وكأنكم في مسرحية حزينة!!.(آه... ايها الطيب، يا من عشت حياةً غريبة، خارجة عن دائرة البشر، حياة غير سوية بحثاً عن المنطق، والأفكار الجميلة، عن رسالة، وها انت الآن تهذي، وتحلم ان تصبح الإله نانا، وتناديني بإسم ننيگال) لقد بدأت ارى الألوان بغموض، يالألوان عندما تكون غامضة في العينين!(لقد كان الغموض جزءاً من حياتك حتى في رؤية الألوان في اللوحات...)اشعر بقطرات حارة فوق جبيني... أهي دموع؟... هل الآلهة ننيگال تبكي! تبكي على نانا! إبكي... بل ابكوا جميعاً حتى الثمل طالما ان الدموع تريحكم. أنتم الان مع أنفسكم... اما انا فمنتزع عن نفسي... أنا الآن متنكر لنفسي... ننيگال... ننيگال... أتعرفين ان الاسكندر المقدوني كان يتنكر أحياناً لكي لا يكون نفسه؟ كان يتنكر بثياب هرقلس، وأحياناً بثياب الآلهة ارتميمس، وأحياناً بثياب الإله ديونيسوس... كان برغم عظمته يتهرب من نفسه... ماذا حدث؟ لماذا تتهامسون بهذه الطريقة السرية؟ ماذا تقولون لبعضكم البعض؟ حتماً تقولون إنني أهذي! لم امت بعد! ننيگال! إذا مت هل ستصرخين على قبري مثل صديقة

الشاعر پول فيرلين!... كانت كلما تذهب لزيارة قبره تصرخ: پول... پول... قم جميع الأصدقاء هنا... لا لا... لا تفعلي التقليد السخيف... (كانت حياته بالرغم من قصرها خصبة بالصدق، والنظافة، والاصالة، وإحتقار الزيف، والتقليد) ماذا كنت أقول! ها... حتماً كنت اتكلم عن أفكار كلها أضغاث أحلام... (كانت احلامك دائماً رائعة، بل عظيمة).

هل تتذكرين مقالتي عن الكاتب المسرحي بريشت، وعن مسرحية غاليلو غاليلي؟... (وي، كيف لا أتذكر! كيف!... بل أتذكر كل صغيرة وكبيرة قلتها لي... لقد خلقت عندي جنون الاعتقاد بالاشياء العظيمة). إضغطي على أصابعي بقوة... بقوة... (اواه... ما فائدة الضغط وقد غادرتها الاحاسيس... إنها مجرد عظام... اجل اصابعك ميتة). أتعرفين عندما حوكم غاليلو كان مريضاً الى درجة لم يستطع ان يحرك اصابعه، لكن الكاردينال –رمين– امر بجلبه الى المحاكمة على المحفة بعد ان رفض طلبه بالتأجيل... كان يبحث عن أصابعه... اصابعي الميتة ذكرتني بمقالتي وبغاليلو... ها ها ها... ننيگال... إجلسي لصقي... هنا... هكذا... آه... انتِ يا من تشعين بالفرح... رباه... حيثما تكونين يكون الفرح... من يستطيع ان يستغني عنكِ! ننيگال، اتعرفين ان الآلهة اليابانية – هيتو كوكوانون– لا تدعى مرتين، لأنها لا تجيب سوى دعوة واحدة فقط!... أما انتِ ننيگال، فكريمة تمطرين عليَّ دعواتكِ... يالتلك المسافة التي كنت اقطعها لآراكِ... عشرات الكيلومترات، كنت اسير مثل – ليياندر– اليوناني الذي كان يقطع الدردنيل سباحةً ليرى صديقته هيرو، حتى غرق في إحدى سباحاته... (وها هو الزمان يعاكسك انت الآخر، كأنك الأرنب المطارد الوحيد بين الشباب... أجل يطاردك من غير هوادة... لماذا انت بالذات يا أميري؟...لماذا؟) ننيگال لم الموت هو الشيء في هذا العالم!... لِمَ كل هذا الغموض الذي يكتنف هذا العالم؟ بل لماذا اتكلم في بديهيات!... كلماتي لِم لم تعد لها عيون، وآذان، ولسان، واصابع وانها ميتة مثل اصابعي، مثل جسدي... ما هذا الإرتخاء المخيف في عضلاتي؟ لم اعد ارى بوضوح... لماذا هضمتني الأيام برفق وكأنني حيوان رخوي؟ ننيگال هل تذكرين كلماتك الحزينة ونحن خارج المدينة؟ (اذكر؟ ماذا تقصد!)

اجل كنا خارج المدينة... كان مهتاجاً، ونظراته ساطعة... قال لي: تعالي نتمدد فوق العشب الربيعي وزهور النرجس... كنت سعيدة ومغمورة بضرب من الهيمان، بل كنت كعادتي متأججة بحديثه، وبالربيع، وبالحياة... اجبته بحرارة: لِمَ لا يا عزيزي... لنتمدد...

غداً ننام تحت هذا العشب الى الأبد... كانت سلسلة من أشجار التوت تتخاصر مع بعضها وقد إشتبكت أغصانها الصغيرة الشفافة التي دبت فيها الحياة مع إطلالة الربيع... في السماء هرولت سحب كبيرة دكناء تنذر برشقة ربيعية قوية وسريعة... قلت: ستمطر... قال: ثم ماذا؟... أنظري الى هذه الحشائش ...قلت: ماذا؟ إنها مجرد حشائش! قال: لو كنت شاعراً لقلت: استلقينا على حشائش كهرمانية... ربتُ على رأسه وقلت: من اين تأتي بهذه الكلمات الجميلة!

– من التوهج الذي أراه في عينيكِ.

– أتعرف؟

– ماذا؟

أنت دائماً تمنحني لذاذات حسية، وتجعلني احس، بحميمية العلاقة معك.

– أنتِ يا عزيزتي بمسيس الحاجة الى الحب الروحي...

– معك أشعر انني أُنثى حقيقية.

– ربما لأنني إنسان حلو المعشر.

– اوه... احياناً تكون حلو المعشر جداً... جداً... بل اكثر مما يجب.

– الإرهاق.

– أنت ترهق نفسك كثيراً.

– الإرهاق متعتي، خَلاصي... أنا مؤمن يا ضحى ان الحياة ستنصفني ذات يوم... ستعطيني... حقي... كأنسان وكفنان...

– ولكنك تقول ان الحياة تتصرف كما يحلو لها.

– اجل... اجل... لكنني أعرف ماذا أريد... لذا فأن الحياة حتماً ستنصفني... من بعيد مرّ راعٍ كردي شاب في حوالي العشرين يسوق قطيعاً صغيراً، ويغني بصوتٍ رخيم: أيها الليمون... الليمون الكركوكلي، أعطني فمك لأقبله، فأنتِ عروس جديدة... تنهد بعمق، وقال (ترى، ستصبحين عروساً لمن؟) ننيگال أتعرفين ماذا أريد منكِ؟ اريدكِ ان تعيشي كامل أنوثتكِ... أنوثتكِ من حقكِ... جربي الرجال، ولدغاتهم مثلما جربت كيليوپاترا لدغات الرجال والآفاعي... السنوات تهرب مثل غمضة عين، وفجأة تجدين نفسك مثل تلك العجوزين اللتين كنا نلتقي بهما أحياناً أيام الاحد وهما في طريقهما الى الكنيسة...

(اجل... اوه... كانتا من مسيحيات القلعة... تذكرت... كانتا تتكلمان باللغة التركمانية... تتكلمان بحرارة وحب عن ذكرياتهما، وعن شبابهما، ورفه الحياة التي عاشتها في القلعة... كانتا بصوت حزين ترسلان شآبيب من الرحمة على زوجيهما المتوفيين... وترددان بعد كل رحمة: ليتمجد سيدنا المسيح... كانت الاولى تقول:آه... كان قسطنطين عطوفاً معي دائماً... وتردد الثانية: كذلك كان زوجي ميخائيل معي... أوف... أوف... كان ملاكاً... كان يملؤني بالحب، والأماني كما يملأ النحل خلاياه بالعسل حين يرجع الى منحلته... وتهتف الاخرى: كذلك كان قسطنطين... لقد عشت معه مطمئنة الخاطر، ناعمة البال حتى أيامه الأخيرة. وتقول الأخرى بصوت مثل الصفير: ليتمجد سيدنا يسوع... يا عزيزتي... كان ميخائيل يعيش معي بطريقة غريبة وكأن هذه الحياة مرفأ أبدي... وتجيبها الأولى: اما قسطنطين فمثل أي مسيحي حقيقي كان دائماً يقول لي، ان الحياة يا مريم محطة راحة قصيرة... كنا نراقبهما بحب وهما تسيران بخطواتهما بإتجاه الكنيسة تجران معاً مئة وخمسين سنة من العمر معاً وراءهما، ونغادر المكان ونحن نردد: شيء رائع أننا ما زلنا في نضارة شبابنا... لماذا ذكرني بهما...انه بعد ان اقتحم روحي، وكل مشاعري، وفكري يريدني ان أجرب الأخرين لأعرفهم بعمق أكبر.لا لا... لقد عشت معه ناعمة البال مدة قصيرة، وهذا يكفي، انه يهذي... يهذي). يانيكال، الأفعى تقتل من غير تشنج ولا تمزيق، مجرد نعاس...آآآآآه... يالهذا الألم الذي بدأ يعوي وينهش... هناك طرق سخيفة، بل مضحكة ومجانية للموت...اجل موت مجاني... هل أخبرتك كيف مات ذاك الملك الشجاع بيروس؟ هذا الذي قضى حياته في ساحات الحرب، هزم الرومان، وحارب صقلية، ومقدونيا، اسپارطة، أنتصر وهزم...ها ها ها... لم يمت اثناء المعارك، ولا على يد خصم، بل في إحدى الشوارع من قبل إمرأة رمته مصادفة بقطعة آجر من سطح دارها... ها ها... وأُصيب المحارب في رأسهِ، على الفور مات. (أذكر عندما روى لي هذهِ القصة، قلتُ لهُ، هل بعد مثل هذه الكوميديات، والمفارقات الساخرة في الحياة، ترهق نفسك الى درجة النزف! لماذا!... قد تموت على طريقة بيرس... كان يجيبني، ضحى، ضحى، صحيح ان الزمن يسير بشكل ملولب، لكنه يوفر فرصاً عظيمة للناس المجدين، الطيبين، والشرفاء،والموهوبين...أين الفرص؟... ها انتَ ذا أخيراً مُجرد جثة، والزمن واقف في الغرفة ويسخر منك! أين!... حقاً أين)

يواقيت داكنة الزرقة، أساور مطرزة بالمرجان، وحجر اليشم، وخواتم مطعمة بأحجار

الجمشت، ويواقيت بلون الدم...(لقد بدأ يهذي...) ننيكال، تفكرين بحجم اليشم، بخواتم مطعمة بأحجار الجمشت؟ أما أنا فلا ... لا... ما زلت أصر على ان الزمن أنصفني... انا نشأت منذوراً للبتولة، بتولة العقل والفكر... واثق أنكِ تضحكين الآن بصمت، وترددين مع نفسك أحلام... أحلام... غابة من الأحلام، أحلام ضاعت في أحلام... ها ها ها ها انتِ رائعة يا ننيكال... انتِ تملكين روحاً من الماس الحقيقي... هل هذا الثوب الذي تلبسينه من الحرير؟... البياض رمزٌ للموت عند الصينيين... آه... الحرير... الحرير انه فستانكِ المفضل... (البسه يا عزيزي لأنك تقول انني من خلاله إنني اشبه بفراشة، فراشة تحلم...ها ها... تصور فراشة تحلم... أحلام...أ... ح... لا... م... ايه يا دون كيشوتي الحبيب والطيب) ننيكال... انكِ الآن مثل الضباب... اه... أيتها الوردة الصدفية... آه... لقد بدأ الألم مرة أخرى... ثم ماذا... ليبدأ... الآلام ياننيكال ليست أبدية، ماذا! هل عدتم للبكاء... سمعت احدكم يقول إنني فقدت عقلي...لا لا... ما زال عقلي مثل البلور... بلورٌ مُطيب... ننيكال أدخلي الحياة كالبلور... كوني سعيدة... (ما اكثر ما رَّدَدتَ على سمعي هذه الكلمات: كوني سعيدة...لكن السعادة أحياناً تكون مسورة بأسلاك شائكة) ننيكال، الأشياء تزول بسرعة، مثل رقائق الثلج... إنها موجودة بشكل مؤقت... بالنسبة لي ان الزمن هرول بسرعة مخيفة، مُخْفياً في طيات عباءَتهِ كل حقائقي، وأحلامي التي لم أستطع البوح بها...الآن كل شيء غير حقيقي... حتى أنتِ أصبحتِ مؤقتة... أنتم الآن مجرد أشباح... ضباب... ننيكال، الكون وحده جديد، دائماً وحده جديد... الكون وحده يتناسل كل يوم لأنه لا بد ان يُجدد نفسهُ كل صباح... ننيكال، إنني بحاجة ماسة الى زرقة أُبرة جديدة... لقد بدأ بارومیتر الألم يرتفع... الأُبرة تجعلني أشعر بحالة هلامية لزجة، مثل حالات الإنهيار التي تأتي بعد معاناة شديدة... ننيكال، ما زلتِ ترتعشين في أعماق روحي... عما قليل يا ننيكال تذوب مدينة الألوان... أتعرفين ماذا مرَّ في ذهني المليء بالزوابع الآن؟... قول رمنانا في ملحمة رامايانا الهندية، وهو يصرخ: أطردوا كل الفصول، ودعوها تترك العالم... وتبع ذلك توقف كامل في الزمن... الآن، أرجوكم... أُخرُجوا... أُخرُجوا... لقد توقف زمني...

(ودخل في غيبوبته الأبدية).

نيدابة(*)

روزنكرانتز: لست أفهمك يا مولاي.

هاملت: أفرحتني بذلك.

قررت ان أحقق حلماً طالما ناغى خيالي بإلحاح غريب، وهو أن أذهب الى الأهوار لكتابة بحث طويل عن ذاك العالم الغامض، عالم غابات القصب، والهور الضارب في عمق التاريخ، وعن الطيور والأكواخ، والناس الذين يعيشون مئات السنين بصمت بعيداً عن المدينة، والحضارة بإستثناء حضارتهم الداخلية التي شكلتها دنيا الأهوار والقصب الممراع... برغم الكرم الباذخ الذي يتمتع به أهالي تلك المنطقة لكنني بأعجوبة إستطعت ان أؤجر غرفة داخل كوخ من عجوز يعيش مع إبنته، وهي سمراء جميلة اشعلت الشمس والهواء اللافح، ورطوبة مياه الهور بشرتها حتى أصبحت بلون البرونز المطروق... كانت هذه الفتاة تتحرك مثل المكوك منذ الصباح الباكر حتى هبوط الظلام، فوق مساحة صغيرة من الأرض خرجت بالمصادفة المحضة من بطن المياه على شكل لسان من التراب. ترابٌ هش مثل مسحوق ناعم يصبح مثل الطين الدبق بمجرد أن يلامسه الماء... لقد أوحت لي هذه الفتاة بحركاتها المكوكية أنها تتحرك لمجرد الحركة،أو ان الحركة بتلك الإيقاعات المتناغمة أصبحت جزءاً ميكانيكياً من جسدها اللدن، أو ربما إدماناً... تعجن بعجالة، تسجر التنور، تخبز، ثم بخفة طائر تنزل الى الماء ومثل حاوي تجلب سمكة كبيرة وترعى عدة معزات، وتلبي من غير تأفف، بل بحب، عشرات الطلبات التافهة والنزقة لوالدها العجوز... كانت هذه المسكينة بفوطة رأسها السوداء، وفستانها الأسود الطويل الأشبه بآلة سوداء... اما العجوز، فيجلس فوق حشية ويتكيء الى وسادة كبيرة مثل كومة عظام يدخن لفافة بعد أخرى، ويرسل بصره بعيداً لا أحد يعرف الى اين... ترى كيف ينظر هذا العجوز الذي نيف على الثمانين الى هذا العالم الغابي، والمائي، والى ذاك الأفق البعيد، والى افقه الذاتي، والى تلك الدائرة الصامتة التي تلف عالمه... علماء الأنثروبولوجيا يقولون، ان الإنسان البدائي لم ينظر الى العالم كشيء فارغ، بل نظر اليه كشيء زاخر بالحياة... فهل حقاً ان الحياة زاخرة بالنسبة

(*) نشرت في جريدة الجمهورية في العدد ٧٢٨٥ الثلاثاء ٢٩ آب ١٩٨٩

لهذا العجوز، ولأبنته؟؟... وكذلك لأولئك الذين مررت بهم وأنا أبحث عن كوخ؟ ربما... لكن زاخرة بأية حياة؟... حتماً بالحياة المعطاة لهم. والإيمان بها... أوليس الإيمان عقلٌ بدون حدود؟... لقد روى لي هذا العجوز الأُمي قصصاً غريبة عن الأشباح، والأرواح التي تحوم فوق القصب، والأهوار، وتكلم عن روح عدد من الطيور، ولغتها الجميلة، قلد أصوات بعضها بطريقة مثيرة رغم فمه الأدرد، وأسهب في شرح دورة حياة طير جميل وغريب لا يغرد حتى في الربيع وحتى أثناء الحب، وتكلم عن عالم الأسماك، والطير وعن أنواع نسيت أسمها، وروى لي كيف ينظر اجدادنا القدماء في بابل ويفسرون الظواهر الطبيعية والحياتية... فضرب مثلاً عن فهمهم لسقوط الأمطار، قال: إن البابليين كانوا ينتظرون مجيء الطائر –امدغور– العملاق لإنقاذ الإنسان حيث يكسو السماء بالماء فيسقط المطر... كان العجوز الذي لا تفارق اللفافة زاوية فمه يتكلم برفق، ويفسر كل ظاهرة فيزيائية بالقصص، أو بالأساطير.

قال: إذا قل الماء في الهور، وهذا طبعاً نادر الحدوث، لأن الله يريد ان يُفهم الناس شيئاً فعليهم ان يفعلوا شيئاً... قال هذا الأُمي المزروع وجهه بشبكة من التغصنات، إن دجلة جفت ذات مرة على عهد أجدادنا القدماء، وفي أيام – غوديا– فذهب غوديا الى المعبد ونام فيه ورآى حلماً أُخبر فيه ان السبب هو وجود ظلم في البلد... دهشتُ، بل دهشت لجواب هذا العجوز عندما سألته عن سبب عدم وجود أي بناء من الحجر، او الطابوق في المنطقة كلها، أجابني بثقة مكينه، طبعاً لا يوجد، ولن يوجد، لأن احد اجدادنا القدامى خاصم الإله – مشدا– كبير البنائين في بابل، وحرم الإله البناء هنا، وعندما سألته ما إذا كان يؤمن بهذه القصص، تنهد وقال: ألا تؤمن بقصص أجدادك؟... بالنسبة لي ملعونٌ من لا يصدق بها...

قلت مع نفسي وأنا اراقب أصابع العجوز العظيمة وهي تتحرك ببطء لتشعل لفافة أُخرى، نعم ان للذهن البشري نزق غريب في قناعاته، يهيم على وجهه أحياناً مثل المتشرد، ويؤمن بقناعات معينة بعشق... ان القديس توما لم يؤمن لأنهُ رأى المسيح يبعث، بل لأنه كان ضامئاً الى الإيمان قبل ذلك... اجل لقد كان اجدادي من السومريين، والبابليين، والآشوريين، أساتذة في رواية الملاحم، والخرافات، والأناشيد الدينية والأساطير... أما إبنته فهي ملكوت غريب في البراءة، والسذاجة، والطيبة. كانت تكلمني بإيماءات ترحيبية، وبفرح طفولي غير مصدقة نفسها وهي تخدم إنساناً تراه لأول مرة...

إنساناً وكأنه هبط من كوكب بعيد... إذا طلبت منها شيئاً تضم يديها الى بعضها بضراعة وترسل إليّ نظرات تودد وكأنها تقول، أمرك، حالاً... كانت بحركاتها البريئة والحزينة تشعرني بخجل وحزن شديدين... عرفت من العجوز انها ليست خرساء وانما هي هكذا بسبب وحدتها الطويلة منذ وفاة أمها، وهي، بعد في الخامسة لا تكلم احداً، ويكلمها هو بالإشارات... أوَليس الإنسان يتكون من إمكانيات غريبة، وغير معروفة!

كنت أخرج صباحاً في قارب صغير يجذف فيه صبي في العاشرة صامت صمت الهور، سريع الحركات، يده بخفة يد حاوي، يمدها في الماء وبلحظة يخرج سمكة، وبالأخرى يجذف بقوة... يأخذني بعيداً الى ثنايا غابات القصب حيث لا يسمع سوى صفير الريح وهي تئن أنيناً يشبه أنين إنسان مريض، واسمع ايضاً أنات لحيوانات شتى، انات غاضبة، عنيفة، حزينة، وأرجع بعد الظهيرة مخدر الجسد من الجلوس وإهتزازات القارب، ولسعات الشمس، ورطوبة الجو الدبق، وفي الكوخ اجد فوق سلة مجدولة من القصب، ماعوناً فيه نصف طير خضيري محمص بالزبدة، وكمية من الرز، وخبزاً داكن السمار، ولبناً رائباً... وتجيء الفتاة تخب على رؤوس أصابعها، وبحركاتها الإيمائية المعبرة جداً مثل ممثلة قديرة، تقول لي: هنيئاً... هنيئاً... وتنصرف بهدوء. وآكل فعلاً بشهية حارة... في المساء اراقب الشمس برأسها المضرج بلون الدم تموت وراء الأفق تاركةً الظلام يزحف بذيله الثقيل، وأرى العجوز في مكانه نفسه وجلسته المرتخية يدخن...ان هذا الإنسان الوحيد المتأمل من عشرات السنين للأشياء نفسها ربما هو سعيد سعادة إله متوحد... يقول بلوترك: ان أثمن ما وهِب الإنسان هو الوقت... إيه، آخرون الان في أماكن اخرى من العالم يصنعون المعجزات. والمَسي بالوقت الثمين، وهذا العجور يتأمل ويدخن...

***

في اليوم الثالث أُصبتُ بضربة شمس، عالجني العجوز بطريقته الشعبية وسرعان ما أستعدت عافيتي... في الليل إنهمكت في الكتابة... كتبت أكثر من ثلاثين صفحة عن العجوز وإبنته، وعن عالم الأهوار، والقصب، والحيوانات، وعن الصبي الصامت الذي لدهشتي سمعته يغني لأول مرة بصوت طفولي رفيع وجميل... في الواحدة بعد منتصف الليل شعرت بتعب شديد وغشاوة في البصر بسبب ضوء الفانوس الكامد، إنتابني زوغان خفيف في البصر لعدة دقائق ثم عدت وإسترجعت صفاء رؤيتي، ورأيت أمامي

فتاة طويلة القامة، بيضاء بلون اللؤلؤ شعرها عجسدي طويل يصل الى نهاية ردفيها، ترتدي فستاناً مثل المنامة يتموج هفهافاً ويأخذ أشكالاً غريبة على جسدها... إضطربت لا إرادياً، وانتابني حالة نفسية مربكة... ألا تنتاب الإنسان أفكار ورؤى صعبة التفسير، والتحليل، ويصاب لا إرادياً بهياج من الدوار، وبرطوبة في الفم في موقف كهذا؟ من هي؟... أهي إبنة العجوز؟...لا... مستحيل... تلك السمراء ، قصيرة، محتشمة، برونزية البشرة، لها ملامح فلاحة حقيقية... أما هذه، يا إلهي، جميلة على نحو لا معقول، البصر ينحسر عنها هيبةً وإجلالاً بطريقة لا إرادية... اوه، اي عالم واسع هذا الإنسان! اية قوة متناهية هذا الإنسان! وأي خيالٍ لا متناه... وأية أفكار، وروح عظيمة... نكست رأسي بخوف، ووضعت جبيني فوق مائدة مصنوعة من القصب عليها اوراقي وقلمي،كلمت نفسي بهمس قائلاً: تماسك يا جليل وإبعد عنك الخوف... قد تكون في حلم حقيقي، او حلم يقظة، او في وضع ذهني مضطرب، او ربما حالة هلوسة جأتك من إصابتك بضربة شمس، او بسبب تبدل الجو، والأكل، والرطوبة... لكن لا... قبل دقيقة كنت أكتب بحماسة لاهبة، وأستطيع ان أقرأ الأسطر الأخيرة التي كتبتها... ماذا حدث؟ ماذا تريد! هل ستكلمني؟ متى؟

اواه، من يستطيع ان يجيب على هذه الأسئلة التي راحت علامات الإستفهام تتراقص أمامها... قلت ساخراً برغم خوفي، وإضطرابي، اتعرف من يستطيع الإجابة على أسئلتك، الإله المصري القديم، – ثوت– عبقري السحر والتنجيم... ارسلت اليها نظرة طويلة، اواه، من تكون هذه الفتاة الزئبقية العينين... قلت بصوت هامس: من انتِ؟ ماذا تريدين؟ لِم انتِ واقفة هناك؟... إقتربت مني، وشعرت بأصابعها تمسح العرق من على جبيني، وعنقي... لاحظتُ عندئذٍ انني كنت اسبح في عرقٍ غزير راح يتحلب في كل مكان في جسدي برغم إرادتي... تراجعت عدة خطوات الى الوراء... كان ضوء الفانوس بلون الليمون الذابل يعطي مذاقاً رومانسياً لليل، والغرفة حزينة المنظر... جلست بكبرياء فوق مقعد مصنوع من القصب... إلهي، لديها قلب شفاف مثل البلور، أستطيع ان أرى أعماقها... إنها رشيقة مثل الطاووس... وبينما نحن نتبادل نظرات صامتة، رنَّ صوت رجالي دافيء خارج الكوخ، يصاحبه عزف جميل على – المطبج– صوت رخيم يغني بحرقة عن القمر، والحبيبة، والفراق.

كان وقع الصوت المنغوم وهو يِنصب على القلب إنصباباً رفيقاً قد أسكرني، ومنحني

تماسكاً قوياً... قالت بصوت يفيض برنة جميلة لا يستطيع الإنسان إلا ان يمنح نفسه بكليته له: نعم من حقك ان لا تصدق أي شيء لا حواسك، ولا مشاعرك، ولا افكارك... وربما ضحكت من كلام ذلك العجوز وهو يكلمك عن قصة الإله – مشدار– والملك غوديا، والطائر العملاق – امدغو– جالب الأمطار... كان يجب مثل أي عراقي أصيل ان تبقى مؤمناً بجوانب من أساطير أجدادك من السومريين، والبابليين، والأشوريين... تلاشى صوت المغني خارج الكوخ برفق، وبتلاشيه، وأمام كلمات هذه الفتاة، وفي هذا الجو والوقت الغريبين، ووسط الهور الملغز، فقدت ثانية السيطرة على نفسي... قالت: مع الأسف... ها انت ذا ثانية تفقد السيطرة على نفسك، ولا تصدق حواسك، بل انت على وشك فقدانها... يا عزيزي، صدق مشاعرك وأفكارك ،وقلبك... هل حقاً أنا كائنة مخيفة لتخاف مني؟ ألا تريدني ان اسامرك عدة ساعات؟ سأكون انا الاخرى سعيدة معك... بأمكانك ان تتصرف معي كما تريد أنت... نَهضَت من على المقعد وتحركت في الغرفة مثل الفراشة بلون اللؤلؤ، والليمون... قلت مع نفسي: يا إلهي انها خفيفة الروح، رقيقة الى درجة مثيرة رغم هيبتها وجلالها... بل انها جميلة جمالاً غريباً يوقظ في الذي ينظر اليها استنفاراً كاملاً لمنظومته الحسية، والروحية... قلت وانا ما زلت مضطرباً بعض الشيء: ها ها ها ها ها ...

أنتِ يا سيدتي جميلة... لكنكِ تثيرين من حيث لا ادري أفكاراً مظلمة...

ضحكت هي الاخرى على طريقتي نفسها:ها ها ها ها ... أنا؟؟ أثير عندك أفكاراً مظلمة؟؟ لا يا عزيزي جليل... بل بأمكاني ان اصعد عندك أحاسيس رائعة... وأجعل روحك أكبر... أجعلك تطير في آفاق من الأحلام... قلت مع نفسي: يا رب... كيف عرفت إسمي؟ ما أجمل منطقها؟ تقول: أحاسيس رائعة... آفاق من الأحلام... روح أكبر...

قلت: كيف عرفتِ إسمي؟

– كنت قبل قليل نكلم نفسك وتردد أسمك.

– جاوه... إذن، هذه الانسانة تسمع حتى همساتي!... ركزت بصري إليها وانا أردد مع نفسي: هل حقاً يخاف الإنسان من مثل هذا الملاك؟ صحيح انت في قلب الأهوار منذ ثلاثة أيام، وصحيح أيضاً انت مرهق، وأصبت بضربة شمس، وإمتلاء صدرك برائحة رطوبة دبقة، وبروائح زنخة، لكن هذه الفتاة حقيقية لا تقبل الجدل، واقفة هناك

وأنوثتها الناضجة تشرق في كل بوصة من جسدها، ومسحت قبل قليل من على جبينك العرق... والغريب انها تتصرف برصانه الملكات، وجلالهن، ومهابتهن، وأحياناً بسبب إمتلائها بالجمال، والشهوة أيضا، توحي بإنها تسعى الى الهوى الغفل... لا لا... انها تمتلك قوة غريبة في التحكم بنفسها، وبأعصابها، ربما من هنا سبب إضطرابي المشوب بالخوف، وعدم تصديقي لنفسي لها... قلت: يا سيدتي ماذا تريدين!

– أريد ان أقضي معك عدة ساعات... ربما سأبقى معك حتى الفجر، نتجول في الهور... ثم آخذك معي بعيداً... بعيداً آخذك الى اللامحدود، وأعود بك الى المحدود...ها ها ها ها... ما زالت نظراتك مضطربة يا جليل مثل نظرات طائر... لماذا؟... لماذا؟...

– من منطقكِ الغريب من لغتك الغريبة...

– ماذا في منطقي؟ إسمع بدلاً من أن تجلس هنا وتضرب أخماساً لأسداس، وتكلم نفسك بأرتياب، وخوف، إنهض واقترب مني... مسّ جسدي... شعري... قبلني للتأكد... نهضت واقتربت منها، أمررت باطن يدي فوق خدها، وانفها البطي الجميل، وفمها... قالت:

– أخالك اقتنعت الآن؟ إنني انسانة حقيقية... حاول اكثر ... أمسك هذه الخصلة من شعري... هيا امسكها، اسحبها قليلاً... جيد... الآن قبلني... اتعرف يا جليل عندما تقبلني تصبح انساناً مباركاً... وسيبقى لسانك رطباً بذكراي... وقلبك الشكاك معموراً بمحبتي...

– ها ها ... مباركاً... لماذا؟... لماذا؟...

– لن اقول لك لماذا؟... ستعرف لكن ليس الآن ...

اطلقت ضحكة لا إرادية، وأنا اقول مع نفسي : إلهي ترى ماذا تحمل هذه الفاتنة من أسرار بين أجفانها، ونظراتها التي تتراقص فيها الومضات بإستمرار... الساعات... الساعات التي وعدتني فيها، وحدها ستخبرني بكل شيء... إبتعدت عني، وتجولت داخل كوخ على رؤوس اصابعها، ثم فجأة رأيتها ترتفع عن الأرض برفق وتطير متحدية منطق الجاذبية، وإرتفعت فعلاً مثل بجعة حقيقية... عاودني الخوف ثانية وبقوة أكبر. قالت: يا عزيزي جليل... يا حبيبي المؤقت، يا من جاء الى هذه البقعة الغامضة، ها انت مرة أخرى تخاف من جديد...لا لا... مرة أخرى وَبخت نفسي بقسوة، وقلت: ايها المضطرب ايها المرتبك، ايها الرعديد، هل حقاً يخاف الإنسان من فتاة تطفو على وجهها الفاتن مخايل الطيبة والجمال، والابهة... قلت لها:

– يا سيدتي... يا أميرتي... ارجوكِ.. لا تغضبي مني... آسف... صدقيني أن غضبك أقسى على قلبي من أوجع وجع...

أجابتني وهي تحط بجانبي، وتعرك أذني: أريدك ان تسمو بنفسك... يجب ان تكون مثل أجدادك القدماء جريئاً، وفرحاً... انفض ترددك وخوفك... تعال الى الفرح... إسمع من خلال قرأتي لهذه الأوراق التي دونت فيها رؤاك، وأفكارك، وجدتك تملك مواهب جديدة...

– آه... وكيف قرأت هذه الاوراق.

– اوه... لا عليك... متى وكيف... يسعدني ان أقضي معك ساعات... جلست لصقي تماماً، وقبلتني عدة مرات بحرارة وقالت:

– الأسئلة الحقيقية يا جليل لا أجوبة لها... عليك فقط ان تغرق نفسك بآمال مشرقة... أن تملاء نفسك برغبات فتية... قلت مع نفسي بعد ان شعرت بحرارة قبلاتها: يا جليل، من منا لا يحتال على قلبه؟؟ من منا برغم حكمته، وواقعيته لم يدخلهُ قلبه وخياله في (مطبات) مضحكة، وساخرة، وأحياناً ساحرة، وخطيرة... عليه، سلم نفسك لها كما تشاء هي، وتذكر تلك الكلمات الخالدة في ملحمة كلكامش (الانسان أيامه محدودة ومهما صنع فما هو إلا ريح تهب) هبَّ انت الآخر مع هذه الفاتنة حيثما تطير... فجأة قفزت وصرخت بصوتٍ ناعم: ماذا؟أتسمي وجودك معي مطباً مضحكاً؟ مطب خيال؟ غريب... لم لا تتصرف معي كحقيقة، كواقع؟ أصابتني رعشة قوية، قلت مع نفسي: هذه الإنسانة تقرأ أصغر أسراري... لا شك أنها تعرف أعماق أعماقي... صرخت مرة اخرى: طبعاً اقرأ حتى همساتك... أرجوك كفَّ عن شكوكك...انا لستُ مأزقاً فكرياً، او خيالياً...

صرخت انا الآخر وجسدي كله يرتعش: من انتِ؟ من انتِ؟ من؟...

أجابتني ببرود: ليس الآن... سأخبرك من انا يا جليل، لكن ليس الآن... تعال نغادر هذا المكان...تحرك...

– حسن ليكن مصيري كما تشائين يا سيدتي...

– لست مسؤولة عن مصيرك... هيا تحرك.

خرجنا... إرتفعنا عن الأرض بحركة غريبة، وغامضة ساحبة إياي معها: قلت في نفسي: يا أجنحة الحماسة، اين انت؟؟ لا وجود لك، لكنني اسمع رفرفتك... إرتفعت انا

الاخر عن سطح الارض، ورحنا نطير بقوة غريبة... هل حقاً كل هذا ليس مأزقاً فكرياً؟... خيالاً! قالت لي: لا تهذِ... إنس، وإسرح ببصرك... ماذا ترى...

– غابة من القصب وصحراء من الماء، إرتعاشات من الأضواء، أضواء آلاف اليعاسب تتوامض بالليل. وفي إرتعاشات أضواء اليعاسب، وأضواء مركبة غريبة، ووسط هارموني من الإناث، والأهات، والرؤى، يكتشف الانسان ان لغابة القصب لغة لها أجروميتها الخاصة عكس لغتها المتصلبة في النهار... وكانت هي بجسدها اللؤلؤي تشع في الليل المخملي... اذن صحيح جداً ان القديسة تريز كانت ترتفع عن الأرض وتطير... كان جسدها يضيء السهل الساكن الذي بللته رشقات من الندى... أين نحن؟ هل انتهت حدود الهور؟!. حتماً... فغمت أنفي رائحة الندى العبق الممزوج برائحة التراب، والعشب والماء، وروائح أخرى لا أعرف لها أسماء... وحدي الآن في هذا العالم أصدق الطائرين الذين فرا – بميديا– في الاسطورة اليونانية حقيقيان... أضواء... اي منظر جميل... رأيت مدينة تسبح في ضوء بلون الأرجوان... اهي مدينة؟... أم حلم مدينة! أم مدينة حلم... سألتها وأنا لم أستطع لجم فضولي: أين نحن؟... في أية مدينة؟... فجأةً وجدت نفسي فوق بناية عالية شبيهة بمعبد... إنحنى لها مجموعة من الرجال ورشوها بالعطور... قلت: يا أميرتي... يا سيدتي! اين نحن؟ ما هذا المكان!... لا أجوبة لها.

اي صمت أخرس... صمت... يالهذا الإيقاع الكوني للطبيعة... المجد كل المجد للشيء الذي لا يُفهَم... قالت: انت الآن في معبد... هذا المكان مكرسة للآلهة...

– آلهة... آلهة...!

– الآلهة رئيسة في مجتمع الآلهة... لديّ زيارة ضرورية لكبير الآلهة لعدة دقائق تصرف خلالها انت بحرية ريثما ارجع... هذا السلم الحلزوني يلتف حول هذه البناية، ويؤدي الى عدة طبقات...

– أهذهِ بناية؟...

– حسن... انها زقورة... الم تر زقورة؟... ماذا؟ الست من أبناء العراق؟

– لماذا جئتِ بي الى هنا؟

– لدي لقاء سريع... لا تضطرب... استغل دقائق غيابي وتفرج على الزقورة... فجأة إختفت... نزلت الى طابق آخر... لفتت نظري مجموعة نحوت، بألوان قرمزية، وسوداء،

وإرجـوانيـة، وزرقـاء، وذهبـيـة. لم اعـرف كم مـضى من الوقت وأنا مـشـدود الى تلك التماثيل الجميلة... هبطت مثل طيف. أمسكت بها من فستانها... ابتسمت بأعتذار جميل وقبلتني...نزلنا الى الطابق الثالث... قالت ان كبير الآلهة وافق.

– وافق!! انتِ تهذين؟ وافق على ماذا؟... ماذا تقصدين بكبير الآلهة؟

– ليس الآن... سأخبرك عن كل شيء... الان أنظر...

– آه... أسود مجنحة برؤوس بشرية... قنطروس... ثيران مجنحة... ما هذه...

– لِم انتَ مندهش؟ هل حـقـاً يسـأل الانسـان بهـذه اللجـاجـة عن أشـيـاء من صنع أجدادِه.

قلت بغضب: أين أنا؟ من أنتِ!؟ ما هذه الألغوزة؟

– ها ها هـا ها ... تسـأل أين انت؟ حسن... في مكانٍ ما من سـوسـة، اور، الوركـاء، اشنوناك، آشور، نينوى، ماري... انت يا عزيزي جليل معي وفي وطنك... من شدة ذهولي قلت: اهذا حجر الديورايت؟

– نعم نعم... وهذا تمثال– مانشتوسو– ابن سرجون الأكدي...

– إذن انا في نينوى.

– لا أعرف... أعرف انت وطنك...

بإيماءة مرفرفة من اصابعها أشارت إليَّ ان أقترب منها... أمسكت معصمي وجرتني بأغواء جميل إتجاهها، قبلتني وهي تقول: أنظر الى كل شيء وافهمها بطريقة خاصة... لا تسـألني... تعلم... لا تتواصل مع نفسك فقط... أو مع أفكارك... تواصل مع الحياة، مع الخيال اللامتناهي، مع الكون... تَوَقَفت عن الكلام... إرتفع صوت نسوي جميل، ورخيم جداً... بمصاحبة قيثارة، يردد أغنية تقول كلماتها:

غادر الى عوالم مليئة بالاحلام

الى العوالم البلورية، الى اللامحدود

الى المطلق... غادر مع راعي العواصف – كنغالو–

الى كل مكان...

كلما كانت المغنية تتوقف عن الغناء، كان يهب نسيم لذيذ لذاذة همسات غرامية يهب ويتموج ويدغدغ جسدينا... ألقت نفسها بين ذراعي... إحتضنتها بقوة... قلت: أنتِ جميلة

جمـالاً خرافياً... انتِ مثل حجر الاوبال النادر... النفيس... الذي يتغير بطريقة غامضة ومثيرة مع كل حركة...

– وانت من اين جئت الى عـالمي الغـامض... الى مملكتي بدافع صـادق ونبيل، طيب ونبيل... عالمي... آه... عالمي الذي هجرته انا برغبتي...

– ماذا؟.

– نعم... تقديراً لجهودك، رغبت ان اكون مظلتك الواقية عدة ساعات.

– ما أسم عالمك الغامض من انتِ؟

– ليس الآن... ليس الآن.

– ما قيمة ان تكوني مظلتي عدة ساعات؟

– يا جليل انا أعظم من ان أُمتلَك!

– لماذا؟... لماذا؟ لماذا إذن جـئتِ إليّ في ذلك الكوخ، هل فـقط لتـقلقي راحـة بالي، لتسلميني لسنوات من الأوهام؟...

ارسلت إليّ نظرات طفولية فيها دهشة، وانتباه قالت: لا تكن أنانياً... تعلم في الحياة فن العطاء وتعلم يا جليل ان ترفض أيضاً... إن جدك البعيد البعيد جداً، كوديا بنى مدينة عظيمة في مكان في بابل، لكنه رفض ان يكون ملكاً؛ نعم رفض السلطة... رفض كل شيء؛ تنهدت بعمق، وانا أرنوا إليها بذهول. وسألتها، ربما بسبب ذهولي: لم هذه الزقورة عالية جداً؟...

– لتسهيل هبوط الآلهة الى الأرض.

– هل المكان الذي نزلنا فيه اول مرة مكان هبوط الآلهة؟

– نعم... ويسمى معبد الترحيب...

غمـر المكان بحـرٌ من نور، ولأول مـرة وبملء عـيني رأيت جسـدها اللؤلؤي بوضـوح، واصبح المكان مثقلا بأريج أنواع الزهور...تجولتُ في المكان مثل المذهول... كانت هناك عدة تماثيل لورود، وآلهة مصنوعة من احجار الديورايت والدولمرايت، وتماثيل صغيرة مصنوعة من حجر الستيتات، وأخرى رائعة من حجر الهيمتايت تشرق بومضات معدنية... كانت وهي تتحرك وتقوم بحركات رشيقة وكأنها تؤدي طقوساً دينية... اواه... إنها تشبه ماسة كبيرة تشع بحركاتها الفاتنة... اجل إنها فاتنة، فيها حياة فوّارة... لأول

مـرة وسط هذا النور المثيـر، وفي هذا المكان المثـقل بالأريج، شـعـرت وانا انظر الى نهديها الجميلين المتلئين ان الدم راح يتدفق في عروقي بقوة...

قالت: انت تراقبني بدهشة الصغار؟...

– لكني يا اميرتي افكر فيكِ بعقل الكبار.

– رائعٌ... انتَ بصراحة روح عفيفة.

– وانتِ شعلة صافية... آه... من يدري من انتِ؟ لكن في نظري انتِ آلهة حقيقية...

– أنا فعلاً آلهة يا جليل.

– ربما... ربما.

– أتعرف من انا؟...

– لا يا أميرتي...

– أنا يا جليل الآلهة نيدابة... نيدابة... أيها الكسـول، ايها الجاهل لقصص أجدادك وأساطيرهم... أنا الذي جعلت القصب ينمو، وسيطرت على روح الهور، وهجرتها أخيراً... قبل قليل وافق كبير الآلهة على إبعادي... والغى منصبي على الوهية الهور والقصب...

– لماذا يا نيدابة؟

– لم يعد هناك قصب... لقد جرح القصب... طعنت الغابة في خاصرتها لم تعد هناك موسيقى... الحكمة ماتت... المهم... هل استمتعت معي طوال هذه الساعات؟

– جداً... نيدابة.

– ماذا أظنك تريد ان تقول لي أنك بدأت تتورط عاطفياً؟

– نيدابة العظيمة... نيدابة الساحرة، هل يستطيع اي إنسان يمتلك قليلاً من الحس أن يراكِ ولا يحترق بنار أنوثتك! أما وانتِ.

قاطعتني قائلةً: أما وأنا الآلهة نيدابة.

– حقاً... ما الفائدة... انتِ آلهة، وأنا... إنسانٌ أرضي...

– حسن يا جليل، لقد إنتهى وقتي...

أخذت يدي... غادرنا الزقورة... راحت النجوم تشحب، وتضيع برفق في نور الصباح الوردي...قلت

– هل ثمة أمل يا نيدابة في أن آراكِ مرة أخرى.

– لا... جئت لأسامرك لعدة ساعات فقط، لأنك احببت عالمي بصدق، أما أن تراني مرة أخرى، فلا...لا لا...

– أين ومتى ستتركيني وحدي؟

– لا أعرف... قد أضيع فجأةً كما جئتك فجأةً، سأذهب الى مكانٍ ما في هذا الوطن.

– الى مدينة ماري مثلاً.

– الى آشنوناك... الى الوركاء...بابل... سوسة... من يدري قد ارجع ذات يوم مع عودة الموسيقى، والحكمة العظيمة، ماذا؟... انت تبكي... تبكي يا جليل... آه... أنت فعلاً روح عفيفة...

– آه...، من يا نيدابة الرائعة يصدقني اذا قلت له إنني عشت مع آلهة القصب ، مع آلهة الموسيقى، والكلمة الحكيمة...من... من!

– لا أحد طبعاً... وهل ضروري ان يصدقك أحد!... طبعاً لا... هل يضرك حقاً لو قالوا انك لست اكثر من مجرد إنسان خيالي، حالم.

– نيدابة إسمحي لي ان التقيكِ مرة أخرى.

– مستحيل...

– لِم هذه القسوة يا نيدابة؟

– بل لِمَ هذه المحبة... إن عواطف الإنسان يا جليل متشابهة في كل زمان وكان... في عراقنا الحبيب هنالك الجميلات من أمثالي... أستبدلني بأحداهن...

– هل نيدابة الآلهة الحكيمة تقول هذا الكلام؟

– نيدابة تقول كن حكيماً.

***

إقتربت مني ومسحت دموعي، وأخذتني بين ذراعيها، وقبلتني بحرارة، وبطريقتها الناعمة نفسها امسكت بي من بين معصمي ورحنا نمشي، وصلنا مشارف مدينة كثيرة الشبه بمدينتي... قالت: تلك هي مدينة آرنجا الساحرة... مدينة الأحلام والآوهام... انها زهرة تشرق عليها الشمس الى الأبد... هتفت قائلاً:

– آه... كركوك... مدينتي...

– يالنيران باباگرگر... لها المجد... وتلك القلعة الخالدة.

– انتِ تعرفين مدينتي؟

– مثل أية آلهة ،أو إله، اعرف كل شبر من وادي الرافدين... أخرجتْ قصباً جميلاً وعزفتْ لحناً شجياً، وغنت بصوت رخيم:

لا تعشق يا صديقي بجنون.

دائماً إعشق بإعتدال...

توقفت عن الغناء، واخرجَتْ قَصباً آخر وعلى رقعة طينية كَتبَتْ:

حقيقيُ ذاك الذي يرى بوضوح، وبروح الخيال... وغابت في لمحة بصر، وهتفت بحرارة: وداعاً نيابة.

***

توهج بلازما الخيال(*)

"يكون الغموض محترماً ما دام يسند تعقيد الفكر"

وليم امبسون

"ظهوره الثاني في العالم ولربما، ومتحولاً،
سيجول بيننا، كالسابق، يدعو للحق آنذاك"

قسطنطين كفافي

***

ان الذي يملك خيالاً خاملاً لا يستطيع أن يرى حتى الواقع العادي، أشك في أن يستطيع متابعة قصتي هذه... أما القارىء الذي يستطيع خياله الحار أن يحلل أكثر الأشياء إمتناعاً وهروباً، وتفلتاً من التحليل فيستطيع متابعتي بسهولة... أحياناً، وفي ساعات نادرة، وفجأة يبدأ فكري وخيالي، وأحاسيسي بضربٍ من العمل الدؤوب، والديناميكي، رغماً عني، وأصابُ بحالة من الحمى الشديدة، وأبان هذه الحمى اللذيذة، يجمح بلازما خيالي بطريقة متأججة للغاية، وارى سماوات متألقة، وعوالم جميلة تارة، وملغزة، بل معقدة جداً تارةً أخرى، وأحياناً، مستحيلة التصديق، غير أنني وبالتركيز الجيد، وعبر قوى خاصة بعالمي الداخلي، أراها وتصبح برفق واضحة وضوحاً ساحراً... أفكر بعوالم سببية، ولا سببية تعمل في الكون الواسع، وأستطيع برغم إستحالة فكرة ما أرى لدى الآخرين، ربما بأستثناء القلة، ان أرى مثلاً الزمن يرجع الى الوراء، وهو، لا شك يجري أبداً الى الأمام، في الزمن الذي يرجع الى الوراء أستطيع ان اخاطب أشخاصا غادروا الحياة منذ زمن طويل، بمجرد ان أخرج من الاخاديد السببية للمادة والزمان... أعتقد ان ما أراه من السموات المتألقة، والأحداث، والأشخاص،هو، بسبب توهج بلازما خيالي، وأحاسيسي، وأفكاري التي لديها القدرة القوية على تجاوز زماني.

(*) نشرت في جريدة الثورة بتاريخ ١٩٨٧/١١/١١

جليل القيسي، هذا المساء كنت أعاني من حمى شديدة، وبغية ان أخفف من حماي قرأت عدداً من قصص ادغار الن پو، ثم لا إرادياً تذكرت دستويفسكي بحب حار، ثم فكرت طويلاً بعالم نمساوي يدعى كاميرر، وضع نظرية غريبة ومثيرة أسماها:

PERIODICITY وأنتحر بطريقة فاجعة لسبب سخيف جداً، وشغلت ذهني بالنظرية رقم (٧) لفيثاغوريين وعرجت الى نظرية الأيام السعيدة والتعيسة للعالم لكويه، وانتهيت بعد المساء بفرويد الذي آمن بالرقمين ٢٣، ٢٧ الذين يقترنان معه بظهور سلسلة من الأحداث المهمة... فجأةً بعد ان حل الظلام، سمعت طرقاً على الباب الخارجي... نهضتُ، وبخطوات مشلولة، وبيد مرتعشة فتحت الباب، فإذا بي وجهاً لوجه مع فيودور ميخائيلوفتش دستويفسكي، كما اتخيله دائماً عندما أفكر فيه في لاوعيي، طويل القامة، هزيل الجسم، مقطب من غير سبب، وثمة تجويف عميق في خديه الشاحبين يضفي على وجهه الذكي العابس المختفي وراء لحية كثة منظره يثير في النفس شعوراً غريباً، وحباً لمتابعة أصغر خلجة فيه...

كانت نظراته ساحرة، وثمة قوة فيها تجذب الناظر إليها، وضع يديه في جيب معطفه الأسود الطويل، ومسح الغرفة بدقة بنظراته، قلت مع نفسي، إلهي، آمس، واليوم أيضاً فكرت فيه عدة ساعات... هل حقاً يعقل؟ فإذا بدستويفسكي يقول وهو يخطو الى وسط الغرفة:

– المسألة يا عزيزي جليل القيسي، قد تبدو لك صعبة، مثل الهندسة اللاتقليدية. أطمئن... بعد قليل يصبح كل شيء واضحاً وسهلاً مثل بديهية عادية... إندفع بقامته المديدة يبحث عن مقعد مريح... جلس بهدوء، ومط عنقه، وبرؤوس أصابعه الطويلة عبث بطريقة جميلة بلحيته الكثة، وقال:

– كنت تفكر فيّ بحبٍ شديد... أعرف... أعرف... إنك تحبني كثيراً... وها أنذا آتيك بنفسي، إحتراماً لمشاعرك الحارة لي...

– أهلاً بك... لكن كيف؟

قاطعني بسرعة: لا تسأل كيف... هل تعرف أن تزامنات غير سببية تحدث في هذا الكون؟ نعم وبطريقة غريبة...

– كيف!

– ها ها... مثلاً تزامن وقت خروجي هذا المساء من إحدى نوادي القمار مع خسارة كبيرة طبعاً، وإفلاس حقيقي ... لكنني يا جليل لو تأخرت يوماً واحداً لربحت مبالغ كثيرة... أنت تعرف حماستي المجنونة... أتعرف، هذا المساء إكتشفت ان للمقامرين أياماً تعيسة، جداً وأياماً محظوظة جداً...

– لكن، المعروف ياعزيزي المحترم فيدور ميخائيلوفتش ان المقامر يخسر دائماً. وأنت كما تعرف سيء الحظ جداً في القمار .

– لا... ونعم... أسمع، اتعرف هناك تكراراً قانونياً للاحداث؟.

– لا ، كيف!

– أّه... خلتك تعرفها... أنها معادلة صعبة بعض الشيء...

– أشرحها لي... أرجوك.

– حسن ، التكرار القانوني هذا يحدث في زمن لحظوي لاتستطيع ان تدركه إلا النفس الوثابة...

– وأنت، لاشك تمتلك نفساً وثابة جداً، لكنك مع ذلك تخسر دائماً...

– اوه... اجل... لكني لم أفهم، أو بالأحرى لم أؤمن بالتكرار القانوني إلا هذا المساء... قبل هذا المساء لا... لا...

– انا لا أفهمك يا عزيزي... أرجو ان تكرر واضحاً...

– سأحاول... التكرار القانوني يحدث مع كل إنسان... لكن اكتشافهُ يحتاج الى النفس وثابة، يقظة، بل شديدة اليقظة... معي، التكرار القانوني يحدث مرة في كل خمسة اشهر... اشعر، بل في الحقيقة أسمع لكن من غير إنتباه، ان احدهم يهمس لي مثلاً وانا جالس الى جهاز الروليت، أن أضع مبلغاً كبيراً فوق رقم معين، وأُلبي نداء الهمس فوراً، وفجأة أربح... نعم، أربح بطريقة لا معقولة... أنت تعرف حماستي المجنونة، أعود وبهوس اعيد الكرة مع الرقم نفسه واخسر أخيراً بشناعه... هذا ماحدث لي قبل مجيئ لزيارتك، خسرت أخر كوبك كان معي... نعم في ذروة إفلاسي اكتشفت التكرار القانوني للأرقام مع الإنسان...

– أيها المحترم جداً فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكي، هل حقاً تؤمن بمثل هذه المعادلة؟

– طبعاً... بالضبط أؤمن بأن القاتل الحقيقي لكرامازوف الأب، هو، ايفان وليس سميردياكوف... ياجليل، التكرار القانوني مظهراً لمبدأ كوني في طبيعة، ولا علاقة له بسببية فيزياوية... لكن وهذا مهم جداً، متى، وكيف، وأين، وفي أية لحظة تسمع نداء رقمك السعيد وهنا الصعوبة... وأضاف بعد أن مسح على شاربهِ بحركات صغيرة باصابعه.

– هل أستطيع ان أستدين منك مقداراً من النقود...؟

– لِمَّ لا ياعزيزي... لكن النقود التي معي لا تفيد في المقامرة..واضفت ضاحكاً: ماذا؟... هل سمعت ذاك النداء...

– ها ها ها... طبعاً لا... الرقم، والهمس يأتيان مثل الطيف... لا... لن أقامر بعد الآن.

– بالمناسبة، ذلك نداء الهامس نفسه، يقول لك بين حين واخر أن تكتب بهذا الطريقة أو تلك؟

– لا لا... التكرار القانوني لا علاقة له بالكتابة أبداً... أنت تعرف، أنا رجل مزاجي للغاية، سَوداويٌ... في الكتابة، أتنبأ بالأحداث بالمصادفة، وأحياناً بالأستبصار...

– ماذا؟... بالمصادفة؟

– نعم... بالمصادفة، أو دعني اقُل، معرفة الحدث قبل وقوعه...

– كيف!

– قبل ان أكتب، تحدث فيَّ حالة من الإدراك الحسي، ونوع من الإشعاع العقلي الحار...

– لا أفهمك؟

– لاأعرف كيف أوضح لك... لكنني... سأحاول.. كنت مثلاً أحب ديمتري كرامازوف... كان يقول لي بضراعة، ياعزيزي فيدورميخائيلوفيتش، ارجوك لا تنفني الى سيبيريا... أتركني أعيش بقية حياتي مع جروشنكا... جليل، انت تعرف أن ديمتري بريء، لكنه عابث كبير، ومشوه شنيع لحريته، وبالتالي نفي نفسه الى سيبيريا... هذا ما أعنيه بالشعاع العقلي ... هل تفهمني؟

– طبعاً لا... حسن... لماذا تصرفت معه بتلك الطريقة؟

إلتهبت عيناه دهشة لسؤالي، وقال: أنا!؟... مادخلي أنا! هو ياعزيزي جليل عبث

بحريته، وأصابني بإنطباع عاطفي غامض... أنا وديمتري أصبنا بشعور غريب...،وبتضارب موجع في عواطفنا.

– كيف!؟.

– اسمع، لتولستوي كلام جميل بهذا الخصوص، يقول: الشعور الغريزي الذي يستطع الانسان بواسطته أن يخمن افكار الآخر... هل تفهمني الان؟

– تقريباً...

– جيد... بمثل هذا الشعور الصعب عرفت أفكار دبمتري، وعرفت انه سيفني نفسه بنفسه، ويفيد حريته...

نهض وخلع معطفه، حرك جسده النحيل، وبلسانه بلل شفتيه، واطلق آهةً حارة.

قلت: ايها المحترم فيدور ميخائلوفتش، هل يمكنني ان أسالك مثلاً،كيف تحصل على الشعاع العقلي؟

– آه... هل سمعت بيانوس؟.

– أعرف شخصية إسطورية باسم يانوس...

– أحسنت ... نعم... في الأساطير يوجد الكثير من العلم... تعرف ياجليل ان يانوس هذا كان يجابه مخلوقات متحولة الشكل بين لحظة واخرى تحت ظروف معينة وكأنها كرات متوهجة...

– اعرف.

– لقد وهبني الله القدرة على رؤية أدق دقائق الإنسان بطريقة مجردة من أية خاصية فيزياوية...

توقف عن كلام، واطلقت أنا لا إرادياً ضحكة عالية لحديثه المعقد، ولأستعماله مفردات غريبة لشرح أفكاره... قلت:

– انت معقد جداً ياعزيزي فيدرو ميخائلوفتش... إنك فعلاً أعمق بكثير من بئر ديمقريطس... حسن... كيف يمكنك التعرف بتلك الطريقة الغريبة عن شخصياتك، وبطريقة مجردة من خاصية فيزياوية؟

أضاءت وجهه المقطب لأول مرة ابتسامة رائعة، صافية، وقال:

– إذا أجبت عن سؤالك، اضطر يا جليل الى ان أكون أكثر تعقيدا... أسمع هل

تفهمني إذا إختصرت كلامي بهذهِ الطريقة: المادة معادلة مقنعة لوصف ما يحدث حيث لا وجود للمادة...

اطلقت ضحكة قوية وأنا اقول: لالا... أنت حتماً تعبث معي... أنت غامض جداً ياعزيزي فيدور ميخائيلوفتش... آآآآآآ... طبعاً لا افهك.

– حسن... سأحاول تبسيط كلماتي... خذ الأمير ميشكين... انه قبل ان أخلقه، كان صورة لجسيمات أساسية، وفكرت به من خلال ناحية بصرية... أي كنت اعرفه قبل ان أخلقه... وعندما راح ينمو مثل المادة الصغيرة، كنت أراه بوضوح على طريقة يانوس...

– آ... آآآآ... ياحبيبي فيدور ميخائيلوفتش، أرجوك... أرجوك... أنت الآن أكثر تعقيداً...

– أبداً... يصفني البعض بالخارق... انني ياجليل لاأمتلك أكثر من عقل متحضر وحدة بصيرة، وادراك حسي عال... ربما ان ذكائي ليس أكثر من (٢ أي كيو)...

– لكن لديك أيضاً خيال التعالي ... لم أرَّ من هو أكثر منك في السعي الى الكمال...

– هاها ... الكمال!!...لالا... لاتبالغ... لدي إحبطات كثيرة، وفشل هنا، وهناك... لقد عانيت كثيراً من القلق الفكري المؤلم طوال حياتي. كنت دائماً وحيداً وحدة شاملة... وكنت ضعيفاً جداً أحياناً لا أرتاح للآخرين، أتهرب من النظرات، كنت أحب الأمن والطمأنينة... إن خيالي يا جليل عذبني طوال حياتي... ما أكثر ماتمنيتُ ان اكون إنساناً عادياً، بسيطاً، ساذجاً...

– أيها العزيز فيدور ميخائيلوفتش، كم أنت سهل وبسيط وأنت تتكلم عن آلامك...

– صدقني كنت مع نفسي، وأسرتي طفلاً كبيراً، بل ظللت طفلاً كبيراً... لقد احببت هذا العالم كثيراً، ،إستمعت بعمق لعصري... أتعرف كم جميل هذا العالم. بل لا نهاية لجماله... لو إن حدود الرؤية الإنسانية توسعت أكثر لرأيت أي عالمٍ رائع هذا العالم... لدينا كوبرنيكس، غاليلو، شكسبير، بتهوفن، دافنشي، وسيأتي أكثر من هؤلاء لتحرير العقل البشري من الأوهام، والوساوس، والخوف... الإنسان ياجليل سيجد أبعاداً جديدة للحرية، للعلم، وستنتهي حتماً هذه التخاذلية الفكرية، والروحية...

إبتسمتُ له بحرارة، ولأنني منذ ان عرفتهُ أحببته بعقلي، وروحي، وحواسي، نهضت عندما توقف عن الكلام، وطوقته بحرارة وقبّلت صلعتهُ الجميلة، وسقطت رغماً عني قطرات من دموعي فوق صلعته... التبهت عيناهُ دهشةً، وقال: ها انتذا تبكي مثل بعض

شخصياتي عندما تعصف بهم المشاعر اللاهبة... شكراً لدموعك النقية... الآن عرفت كم أنا قريب من أعماقك...

ساد صمت طويل، قلت: لدي فودكا نوع – سميرنوف– صنف جيد جداً نستورده من بلدكم، ولدي لحم دجاج، ولحم بقر مقدد، وسلاطة... مارأيك أن نشرب معاً نخب هذة الزيارة، ونقضي ليلة جميلة...

– اوه... شيء رائع جداً... هيا تحرك...

وضعت أمامه صينية كبيرة... صبّ لنفسه كأساً وأخذ رشفة كبيرة، وقال يتلمظ: آه... فعلاً نوع فاخر... ذهبت ووضعت مقطوعة لموسيقاره المفضل، سرعان ما إمتلأت الغرفة بالموسيقى... هتف بفرح طفولي:

– آه... غلينكا... غلينكا الرائع.

أضاءت وجهه الإبتسامة الصافية، الرائقة جداً نفسها، وكرر اسم غلينكا بانتشاء.

قلت: أعرف إنك تحب غلينكا كثيراً.

– قليلون يعرفون أنني أحب هذا الموسيقار. لكن، قل لي يا جليل من أخبرك انه موسيقاري المفضل؟

– غلينكا، هو، الموسيقار الوحيد الذي ورد اسمه في جميع مؤلفاتك.

– الهي... هذا صحيح... أنت فعلاً تعرف عني الكثير... أنه فعلاً موسيقاري المفضل... موسيقاه تثيرني بطريقة غامضة... أرى ان روح غلينكا كانت غامضة مثل روحي...

شرب محتوى كأسه دفعة واحدة... وبعد الكأس الثانية ردد بصوت منغم جميل...

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين

الشيطان يجرنا هنا وهناك

ويديرنا الى كل الجهات...

قال وهو يمضغ قطعة لحم: أتعرف لمن هذه الأبيات!؟

قلت: لبوشكين...

– أحسنت... لقد عشقت الى الأبد هذا الشاعر.

– أيها المحترم فيدور ميخائيلوفتش، لقد أثارني كثيراً موضوع الإشعاع العقلي، وكذلك موضوع صورة الجسيمات الأساسية، وكذلك موضوع الشخصية الأسطورية

يانوس... هل بالإمكان ان نعود إليها!...

– لماذاتصدع ذهنك بمواضيع صعبة... ألا يكفي غليناكا، والفودكا، وهذا الأكل الشهي، وهذا الجو الهاديء...

– لقد أثرت فضولي، وأفكاري... هذهِ المرة سأحاول أن أركز جيداً...

– يا جليل في الحياة متع كثيرة غير التعقيدات الفكرية... أشرب... أشرب...

– أرجوك يا فيدور ميخائيلوفتش...

شربنا معاً عدة رشفات، قلت وأنا ارنو الى وجهه:

– إذاً، على ضوء ماقلته قبل قليل، انك أنت الذي قررت سلفاً أن تؤدي حرية ديمتري، وحتماً راسكالينوف، وبيير فرهوفنسكي الى الجريمة، وايفان كرامازوف لقتل والده؟ أنت الذي يقرر أن تكون الحرية فعلاً عابثاً... تقبض وجهه، وتألق في أعماق عينيه لهيب حاد، وانقبضت شفتاه، ثم أطلق ضحكة قوية، ،شرب بإستمتاع، وقال:

– نعم... ولا...بل بصراحة لالا ... أرجوك... أعد غليناكا من جديد...

– حاضر...

– هل تحب غلينكا من أجلي، أم من أجل موسيقاه.

– بصراحة أنا لاأحب غلينكا... أنا أحب باخ، وأستمع الى غلينكا عندما أتذكرك.

– ها ها ها... أنت إنسان طيب ياجليل... ...حسن... لماذا تتهمني أنا... مادخلي أنا... ديمتري، راسكالينكوف، كريلوف، بيير فرهوفنسكي هم في الحقيقة تمردوا ضدي، وصرخوا قائلين في وجهي: ايها السيد فيدور ميخائيلوفتش نرجوك ان تتركنا وشأننا... نحن نريد ان نعبث كما نشاء... لقد خلقتنا، شكراً، لكن نرجوك ان تتركنا وشأننا... نحن نحب أن نحترق، وما عليك أن تصب مزيداً من النار علينا...

– ها ها... هل حقاً هم بمحض إراداتهم اختاروا الشر والخطيئة؟

لا لا... لا أعتقد... ايها العزيز فيدور ميخائيلوفتش، هؤلاء ما أن بدأوا بمبايعة الحياة بحب وايمان عميقين حتى علقت أنت سيف ديمقلس فوق رؤوسهم...

– ماذا!... هل يعقل أنت يا جليل، لا تريد أن تصدقني، هم بإرادتهم المحضة تصرفوا ضد إرادتي، ورغبتي... أسمع، أنت متابع جيد لكتاباتي، وتعرف كم بعمق احب الحرية... إستمع الى صرخة المفتش الكبير– لقد أردت حب الانسان حراً... من غير

الحرية الإنسان صفر... وقال المسيح ايضاً: أنا لاأستطيع أن أرى الإنسان عبداً... صرخت ناسياً نفسي، وأنا أشرب بقية الفودكا في كأسي الثانية:

– لا لا ...أنت لاتقول الحقيقة... الحرية الشيطانية عند كريلوف، وايفان، وستافرجين، وفرسيلوف من صنعك أنت... نعم... من صنعك... ساد صمت أخرس، راحت خلاله عيناه تتوثبان بإستمرار متنقلتين باندهاش ترقبان عيني، ووجهي، وأجابني ببرود: أبداً... أبداً... هم كانوا دائمي الشك... كانت الوساوس تأكل أعماقهم، وأرواحهم، وضمائرهم... حتى ان البعض منهم خدعني عن طريق الإنتحار السريع. أجبته بإنفعال: انك في لحظاتك المعراة من المشاعر تجاه الآلام الفردية، كنت تصب بسادية مزيداً من الأسيد على جروحهم... كنت تخلق عندهم الشكوك، والوساوس...

أطلق ضحكة جميلة، وبأعصاب باردة قال: هل حقاً ياجليل لا تريد أن تفهمني؟ لاتكن قاسياً معي... أنت تتكلم عن أستقامة الرأي عندي بغضب، وتتهمني... هم ياعزيزي كانوا أساساً شخصيات ضعيفة بطبعها بسبب الظروف التي عاشوها... كانوا برغم تنور عقولهم لايعرفون التميز، ويحطمون أنفسهم. ماذنبي أنا... مادخلي أنا...! شعرت بدبيب السكر في رأسي... قلت: أنك أيها المحترم فيدورميخائيلوفتش تغالط نفسك...

أجانبي من خلال إبتسامة رقيقة: كيف!؟

– قلت في بداية حديثنا ان الأمير مشكين قبل ان تخلقه كان مجرد صورة لجسيمات أساسية، وفكرت به من خلال ناحية بصرية، اي، قبل ان تخلقه كنت تعرفه، وعندما راح ينمو مثل المادة الصغيرة كنت تراه على طريق يانوس... إليس كذلك؟ والآن تقول انك لست مسؤولاً عنهم. تأملني طويلاً... كانت أعصابه السمعية مرهفة جداً وهو يرنو اليَّ، ويستمع بدقة لكل كلمة من كلماتي، ويسترق السمع ايضاً لهواتف داخلية في أعماقه... فجأة ضحك، وأخذ رشفةً من كأسه الثالثة، وقال: اسمعني غلينكا من جديد رجاءً... أستمعَ الى غلينكا للمرة الثالثة: قال:

– ياعزيزي جليل، أنت لم تفهمني جيداً... أو ربما تتعمد إستفزازي بالكلمة... والإنسان عندما يُستفز بالكلمة يفصح لا إرادياً عن الطبقات الدفينة لأفكاره... أجل قلت الرؤية على طريق يانوس... أنت تعرف ان يانوس كان يرى الشخصيات وهي تتحول مثل الوهج، وكذلك أنا... إرى راسكالينكوف، وبيير فرهوفنسكي، وكريلوف، وايفان

كرامازوف أثناء التحول المتوهج... لقد أكدت لك يا جليل ان يانوس كان يجابه مخلوقات متحولة الشكل تحت الظروف معينة وكأنها كرات نارية... الرؤية الدقيقة للتوهج، نعم، هذا ما أقصده بالشعاع العقلي. أسمع، أنهم أبان تحولهم كانوا يتمردون ضدي... الجميع أبعدوا لجام العقل عن أنفسهم، وغاصوا في الشهوانية، بل أصبحوا عبيداً بأرادتهم... ماذا أفعل أنا لِعاطفة، جامحة، مضطربة، مجنونة مثل تلك التي عند فرسيلوف مثلاً؟... تصوره وهو يجابه بها كاترينا نيقولايفنا؟... لقد مسخته تلك العاطفة، وأصابته بالأزدواجية... أنت تعرف ان الشخص المزدوج لايمكن ان يعرف معنى الحرية... قلت وأنا أتنهد بعمق: أنت قاس يا فيدور ميخائيلوفيتش...

– ها ها ها ها... مرة اخرى تطعن إستقامة الرأي عندي يا جليل...

أنا؟... أنا؟ أنا رقيق جداً... القساة الحقيقيون هم أنفسهم... لا... لستُ قاسياً... انظر كم هو ملائكي سلوك الأمير ميشكين... يعيش بهدوء... وسط ناس مهووسين... هكذا اليوشا مثلاً...

إبتسمت له بحنان، وقلت: بالمناسبة أيهما أنت من الأثنين، الأمير ميشكين، أم اليوشا؟

– لم هذا السؤال؟

أشك جداً أن تكون من طينة كريلوف، أو راسكالينكوف، أو ديمتري مثلاً... أتعرف يا عزيزي فيدورميخائيلوفيتش، عندما أفكر فيك وفي عزلتي، أو عندما أصعد طاقات خيالي، وأحلم بك، وأكلمك كما أكلمك الآن. أرى إن اليوشا أقرب من يشبهك. ثم أغير فكري، وأرى ان الامير ميشكين أقرب اليك.

– أتعرف لماذا تسألني هذا السؤال؟

– لماذا!

– لأنهما صبورين، ويعرفان دقائق الأخرين ، وكذالك أعماقهم و مشاعرهم...

– مثلك بالضبط، وعلى طريقة يانوس...

– ها ها ها... يا لك من فضولي.

– كانا مثلك يمتلكان موهبة الحدس، والتنبؤ، وفهم الآخرين.

– أحسنت والذي يفهم الآخرين يكون عوناً لهم.

بعد صمت قصير، أضاف ساخراً: لكنني لست هذا ولا ذاك...

صبَّ كأساً رابعة، وشرب بلذة، عيناه إحمرتا، وإلتهبتا، غير ان وجهه شعَ بطمأنينة هادئة، وقال: ثق لقد تعاملت مع الجميع بأمانة، وصدق، لكن كل واحدٍ منهم إختار طريقه... هذا يحب التدمير، وذاك الفوضى، وآخر الحب، والوداعة، والحرية...

– أيها المحترم فيدور ميخائيلوفتش، بمناسبة حديثنا عن اليوشا، هل بالإمكان ان أسالك عن الأب زوسيما؟

نهض وتمشى في الغرفة، وألقى نظرة على مكتبي، وقال:

– آه... القرآن... سأخذ هذا الكتاب.

– خذه... هديةً مني...

– إنه كتابٌ عظيم... ماذا تريد ان تعرف عن الأب زوسيما؟

– هل كان الإيمان عنده عاطفة غامضة؟ وتصديقاً عاطلاً عن الأسباب العقلية؟

يالهذا السؤال الصعب... أنت تضطهدني بأسئلتك هذهِ... بدلاً من ان تحتفي بي تحوطني بأسئلة...

– آه... أيها الحبيب فيدور ميخائيلوفتش، لو فقط تعرف كم تعذبت، وعانيت حتى هذا اللقاء... أنا أحتفي بك بروحي، بفكري، بل بكل مشاعري... لكن ارجوك دعني أروِ كل حبي وحنيني لأفكارك وعواطفك، أيها المحترم لقد تطلعت الى السماء طويلاً من أجل الحصول على إجابات معقدة من ذلك لماوراء الأحجية، والتفتَّ بغضب مثقف الى الخلف، وارسلتَّ نظرات صقرية الى التاريخ، ونبشت في أعماقك، وأستمعت بحرارة الى عصرك، والى عذابات البؤساء، والسعداء، وأخيراً أرعبت نفسك، وزلزلتنا جميعاً وسط معادلات إنسانية صعبة، بل مستحيلة... فهل تكثر عليّ ان أسألك عن الأب زوسيما؟

إقترب مني، وربت على صدري، وعانقني على الطريقة الروسية، وقال: حسن... بالنسبة للأب زوسيما كان الإيمان قبولاً عقلياً للحقائق.

– كيف! حقائق الأب زوسيما كانت حقائق غير مُدركة كحقائق علمية مثلاً!

– طبعاً لا يا جليل... كانت بالنسبة له مدركة بعلامات خارقة، بالمعجزات، بالرُسل، بالشهداء من المؤمنين... كانت للأب زوسيما قناعة الأستيثاق من تلك الشهادة،

والعلاقات... وكان على طريقة القديس أوغسطين، لا يستوثق من شيء إلا ان يستوثق من قدرة العقل للمعرفة اليقينية...

– على طريقة –تعقل كي تؤمن–

– بالضبط... ويمكن ان تقول عن الأب زوسيما أيضاً:آمن كي تتعقل...

– كيف؟

– جليل... إذهب وأعد غلينكا كي استطيع تنظيم أفكاري...

– حالاً... حالاً.

– آه... الآن إنتبه... كان الأب زوسيما مؤمناً قبل ان يتعقل... بالمناسبة هل درست نظرية الإشراق المشهورة عند الإسلاميين؟

– لا.

– يجب ان ترجع الى تراثك...

– أرى ان لديك علاقة قوية بأفكار الأب زوسيما...

– لا لكنني درستها بإمعان... كان هو رجل لاهوت...أما أنا، فكما قلت انت قبل قليل تطلعت الى السماء طويلاً من أجل الحصول على إجابات... لدي ثقافة لاهوتية لا بأس بها... تنهد بعمق، وأضاف: ألا يكفي يا جليل... هل ستجرني الى نقاشٍ آخر...!

سألته برقة، وبحنان، بل بصراحة بشيءٍ من التملق كي لا يغضب،

– ايها العزيز فيدور ميخائيلوفتش، هل أحببت ذات مرة بعمق؟

– طبعاً...

– ترى لماذا يتحول جميع محبيك، وعشاقك.

قاطعني بعصبية: اوه...أعرف... تقصد موضوع هلوسة الحب، عند الأمير ميشكين، وكذلك عند رجوجين تجاه ناستاسيا فيليبوفنا، وغرام ستافروجين المضطرب، ومزاجية جرونشكا بين ذاك البولني، وديمتري، وكذلك كاترينا ايفانوفنا... أعرف... هذه القضايا وغيرها تفضي الى الجنون... هؤلاء يا عزيزي لم يعرفوا بهجة الحب أيضاً... كانوا تعساء... بدلاً من أن يكونوا تعساء في الحب، كانوا على العكس دائماً يعمقون تعاستهم... آه... ما ذنبي يا جليل... لقد بدأت أشعر بالأعياء... يجب ان أذهب...

ساعدته في إرتداء معطفه الثقيل... ردد بإلقاء جميل أبيات يوكشين:

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشيطان يجرنا هنا وهناك

ويديرنا في كل الجهات...

قلت: يا عزيزي فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكي، لقد تأخر الوقت كثيراً، وقد تضل الطريق، أرجوك إبق معي نسهر مع غلينكا، والفودكا،

– ها ها ها ها... ولتضطهدني بأسئلتك... لا لا... تعبت... يجب أن أذهب...

– لكنني أخشى ان تضلِّ الطريق؟

– الشيطان لا يمكن ان يضلِ فيدور ميخائيلوفتش... سأذهب من هنا، من جانب قلعتكم العتيدة، وفوق ذاك الجسر أتذكر مشاهد من روايتي القصيرة الليالي البيضاء، ثم آخذ طريقي بإتجاه الجبال الى وطني الحبيب...

عانقني بحرارة، وقَبّلني، وقال بصوتٍ فرح: المجد للملكة البشر ايها الصديق جليل القيسي، شكراً لضيافتك.

وخرج بهدوء، وغاب في ظلام الليل...

***

أحلامٌ بيضاء(*)

كل شوقٍ يسكن باللقاء
لا يُعول عليه...

محمد بن علي الحاتمي

رفضت شيماء ان تستقل السيارة الخاصة بمدرسة الراهبات، وأصرت بعنادها اللامعقول، إنها إذا أردتُ لها فعلاً الذهاب الى المدرسة، فيجب أن يكون ذلك بسيارتي الشخصية، وإلا فلن تذهب أبداً..وشيماء، هي، الإبنة الوحيدة بعد زواج مرَّ عليه عشر سنوات، وأحبها الى درجة أحياناً لا أصدق نفسي البتة أني أبٌ لطفلةٍ رائعة... ولأنني أعرف مبلغ عنادها، وصبرها، وعجرفتها، وكذلك قوة شخصيتها، وهي بعد في السادسة من عمرها، إضطررت الى ان أكون معها أصبر من الجمل، وأُنفذ مسوقاً بلعنة الأبوة ولذتها جميع طلباتها غير عابىء بأية نتيجة تؤدي إليها مرونتي التي تصل معها أحياناً الى حد المبالغة، بل الإبتذال، ضارباً كل مدارس علم النفس، والتربية عرض الحائط... بعد قرار شيماء بالرفض بحوالي عشرة أيام، بدأت أخذها مثل أي سائق مطيع الى المدرسة، وأرجعها ظهراً... كل صباح ونحن في الطريق أكلمها بهدوء وحنان اب صبور عبثاً يحاول أن يقنع طفلة خلقت لتكون عنيدة...

– شيماء هل تعتقدين ان جميع الطالبات يذهبن الى المدرسة بسيارات خصوصية؟ أنظري الى هذه الصغيرة، الى حقيبتها فوق ظهرها... إنها في سنك نفسها، في الصف الأول... تذهب مشياً كل يوم، وحتى في الأيام الماطرة تذهب مشياً، وانت يا عزيزتي ترفضين ان تستقلي سيارة المدرسة... لماذا؟ سيارة كبيرة فيها عشرات التلميذات، وغداً ستتعودين، وتغنين، وتنشدين مثلهن... وتجيبني ببرود إنكليزي:

– بابا، أنا أضجر من الصخب، والدفع، واللكز، والصياح، و... و...

– أعرف يا حبيبتي، لكنكِ بمرور الوقت ستتعلمين، وتصبحين مثلهن تماماً، ثم أن الصخب متعة الصغار... حاولي، واصبري قليلاً...

(*) نشرت في مجلة الأديب المعاصر ايلول ١٩٨٥ العدد ٢

– أبداً... لا يا بابا... أنا أضجر من الصخب... والصياح... أرجوك... وتروح في صمتٍ أبكم...

كانت شيماء دائماً تتصرف بوقار لا ينسجم أبداً مع عمرها الصغير، ولولا صغر عمرها، لتصور أيُّ إنسان يراها، أو يكلمها، او حتى يراقب سلوكها، أنها تتصنع الوقار، او تمثل الكبرياء، والعجرفة، وأحياناً الغطرسة... ثمة طِباع تأتي بالفطرة، وتكون لأصحابها هيبة، وأُبهة طبيعية، وعفوية، وهؤلاء يتصرفون من حيث لا يدرون مثل الأُمراء، والملوك برغم تفاوتهم الطبقي... وعند شيماء هذه الصفات الفطرية المحصنة لا أعرف ممن ورثتها، وكيف... كيف ستواجه هذه الصغيرة الحياة، وهي، كأنثى أحوج ما تكون الى صفات غير تلك التي تنمو معها نمو العشب الربيعي...

– حسن يا شيماء، ماذا عن الصخب الذي لا بد منه في المدرسة؟

وتجيبني بحزم أقرب الى الخشونة:

– لا أعرف... ربما أتعلم، وأتعود عليه هناك في المدرسة... أما ان أستمع الى الصخب داخل السيارة مدة ساعة وهي تلف المدينة من هذا الزقاق الى ذاك، ادوخ وانعس، وأنام... اوه... بابا... ارجوك... لا لا لا... لم اكف عن محاولاتي ، وإستطعت بعد أسبوع، وعبر حديثٍ هادىء، وكلمات معسولة، وتقديم إغراءات كثيرة ان أُقنع شيماء بأن تستقل سيارة المدرسة... تنفست الصعداء، وارحتُ نفسي من إرتباطٍ مضجر، لا ينسجم وطبيعة عملي كفنان، وكموظف أيضاً بسبب إرتباطاتي الكثيرة... غير ان شيماء الشيطانة خيبت ظني عندما راحت تتفجر في الأماسي بالبكاء، لمجرد البكاء، والتوتر، والإضطراب... وفي الصباحات تتصرف كأنها أستفزت، او أهينت، أو حرِمت من طلب عزيز عليها... وإذا اردت منها ان تشرب كوب حليب، ترد بهستيرية، وامها تراقبها بخوف وحنان... ونعمل معاً بصبر أيوبي لايصالها الى المدرسة، لكنها تصرخ، وترفض بكبرياء، وترضخ أخيراً بعد صراعات كثيرة، وبخطواتٍ كسولة تدخل حافلة المدرسة، وهي، ترفض بكبرياء ان تلتفت إلينا، أو تلقي إلينا ولو نظرة باردة...

في المساء أردد لها بصوتٍ خافت: شيماء، جميل ان تشاهدي أماكن جديدة في المدينة كل صباح... منطقة عرفة... القلعة... البيوت القديمة... محلة ألماس... النار الأزلية من بعيد... كركوك مدينة جميلة... أليس كذلك...

تتثاءب وفي عينيها اللوزيّتين نعاس كسول، وتردد ببرود ولا مبالاة:

– كل صباح المناظر نفسها، لا لا ... لا أتحمل...

وبعد صمتٍ قصير ترسل إليَّ نظرة عتاب شديد، وتقول بوجه حزين ومقطب:

– هل إشتريت لي الأقلام الملونة، والمماحي المعطرة، والدفاتر؟

وهل استطيع يا عزيزتي ان أرفض لكِ طلباً...

اذهب وأجلب طلباتها، والقيها فوق السجاد، لكنها بأنفة أميرة حقيقية ترفع رأسها، وبعينيها اللتين راح النعاس المبكر يصفعهما ترسل إليّ نظرة باردة، وتعمل بشفتيها تكشيرة مضحكة، ومن غير كلمة شكر تتمدد، وتريح رأسها فوق ذراعيها، وسرعان ما سيأخذها النوم الى دهاليزه... بعد أسبوع واحد حملت لي خطاباً من مديرة المدرسة تطلب فيه مقابلتي وبالسرعة الممكنة، والمديرة راهبة في حوالي الخمسين، مهيبة الطلعة، رزينة رزانة آسرة، وقوية الشخصية، تتكلم بهدوء غريب، وبمنطق جميل، وقوي، ومؤثر... كانت برغم سنها الخمسين مقرعة بفتنه وقورة... إذا راجعتها لأمرٍ ما، ولو لدقائق، تنهض وتستقبلني بحفاوة صافية، وتلطف ساحر، وبشاشة جميلة... في اليوم التالي لتسلمي خطابها توجهت الى المدرسة... وراء مكتب المديرة رأيت راهبة شابة طويلة القامة، نضرة، وعلى محياها طهرٌ ملائكي. عندما رأتني، افترت شفتاها الريانة عن إبتسامة ساحرة، واشارت الى اريكة لصق المكتب، وهي تقول بصوت ناعم:

– تفضل رجاءاً...

– هل المديرة هنا؟

– تفضل إجلس انها على وشك المجيء...

التفت إليها وانا غير مصدق نفسي البتة أن ثمة جمالاً إرهابياً، نادراً، وآسراً مثل جمال هذه المخلوقة يوجد في الدنيا، ورحت لا إرادياً أرشقها بنظراتٍ صغيرة، وسريعة، وأنا اردد مع نفسي: إلهي، اي سرٌ رهيب في الجمال، وهذا الجمال بالذات... كان كل شيء فيها نقياً وطاهراً طهارةً سماوية، بعد قليل دخلت المديرة، ونهضت الراهبة الشابة بإحترامٍ جم... وعلى رؤوس أصابعها غادرت الغرفة... والمديرة، كعادتها إستقبلتني بحفاوة، وتلطف، وبشاشة، وهي تقول:

– أهلا بالأستاذ محمد... جئت بسرعة...

– بناءاً على طلبكِ.

– اه... رائع... حسناً فعلت... شيماء طفلة رائعة...

– شكراً.

– لكنها صامتة... وعنيدة أحياناً...

– أعرف...

– أتوقع لها مستقبلاً... انها شديدة الملاحظة جداً... بالمناسبة منذ أسبوع لاحظت ظاهرة غير مألوفة فيها...

– ما هي!

– شيماء تبول لا إرادياً في الصف، وأحياناً مرتين، طبعاً نحن نقوم بواجبنا معها، ونفهمها أن المسألة إعتيادية، غير انها تتصرف معنا ببرودة ولا مبالاة، وكأن تبولها مسألة إعتيادية جداً...

اطلقت صيحة تعجب شديدة، وأردت ان اتكلم، غير انها قاطعتني بطريقتها العفوية الجميلة، وقالت وهي ترسل إليَّ نظرة متوسلة ان أتريث قليلاً:

– لا تستغرب يا أستاذ محمد... التبول عند مثيلاتها وفي السنه الاولى مسألة جداً طبيعية... نعم... إنهن عادةً يتبولن لأسباب عديدة، من الخوف مثلاً، من تبديل الجو... المكان، او بدافع لفت النظر، او العناد المحض، وأحياناً بسبب عدم القدرة على ضبط النفس، ويمكن أيضا بسبب مرضي،

قلت: لكن شيماء لا تتبول حتى في منتصف الليل؟ فكيف في النهار، وأحياناً مرتين!

– اخشى أن تكون حالتها مرضية... هي كما تعلم عنيدة... وصعب جداً بسبب عنادها وصمتها ان افهم منها شيئاً...أرى ان تعرضها على طبيب...

– طبعاً... سأخذها الى الطبيب هذا المساء...

– واكون شاكرة لو إطلعتني على النتيجة، قد تتكرر الحالة نفسها مع طالبة أخرى...

– حسن.

في المساء أخذتُ شيماء الى الطبيب الإختصاصي، وبعد عدة تحليلات، وفحوصات اكد لي انها لا تشكو من اية أمراض. والمسألة على أكثر تقدير نفسية بسيطة... مرةً أخرى إستعملتُ الإغراءات، والتودد، والحب، والوعود لأعرف سبب تبولها، أجابتني

هذه الكلبة المدللة، أنها تتبول بتعمد لأنني لا أخذها الى المدرسة بسيارتي، ووعدتني ببرودها الانكليزي ان تكف عن التبول لو أخذتها أنا صباح كل يوم، لانها صباحاً بالذات تشعر معي بالأمان... إستجبت صاغراً، وفعلاً كفت عن التبول.

كل صباح صرت اخذها معي، وأخذ بيدها وأسير معها الى وسط الساحة، والتقي بالمصادفة المحضة بتلك الراهبة الغجرية العينين وهي تتجول في الساحة بين الطالبات، او هي تقرأ في كتاب وهي مستندة بأرتخاء رشيق الى الجدار تحت شمس الصباح العسلية... كنت كلما رأيتها تنتابني رعشة روحية، وحالة من الإضطراب اللذيذ في منظومتي الحسية... كانت عندما ترى إن شيماء تأتي، وبرفق، وحنان راهبة تأخذ يدها... يا إلهي، كم هي وئيدة في مشيتها، أية نعومة رهيفة في بدنها، وأية رشاقة ولدانة في حركتها... تقول بصوتها الناعم: إنها احسن بكثير... أنا واثقة بأنها ستكون تلميذة جيدة... إنها ذكية... كانت تتكلم من خلال إبتسامة رقيقة، خلابة، بل ساحرة تضرب القلب وتعصره برفق، وكنت أشعر وأنا أتابع تلك البسمة بحالة من النشوة الروحية، والإمتلاء، أضطر على أثرها ان أنثني، وأشيح ببصري خشية الغواية، أو الإستسلام... وتضيف برفق:

– إنها يا أستاذ محمد من النوع الذي يحتاج معه الإنسان الى الصبر... صبرٌ كبير...

– يالهذه الكلمة المُتعبة أيتها الأخت...

وأضفت لمجرد ان احاورها: قال القديس توما الاكويني، إن الله خلق العالم وهو يتلهى، وهذه العنيدة شيماء تتلهى بي، وبوالدتها بعنادها ونزقها...

أطلقت ضحكة حلوة، وهي تركز عليّ بصرها لثوان... كانت أسنانها بلون اللوز المقشور، وأردفت ضحكتها الصغيرة بأخرى سريعة، ورددت إسم القديس توما الاكويني عدة مرات بطريقة مبجلة، وقالت بصوت عطوف محب:

– هل تقرأ في اللاهوت المسيحي؟

– نعم... أقرأ بحب... وأقرأ في عوالم مختلفة...

– شيء رائع... هل حقاً ان القديس توما الاكويني قال تلك الكلمات؟

– نعم... ما أسم الاخت؟

– هند...

قلت بلطف: أخت هند... إن الله حر... طبعاً، يستطيع ان يتلهى بكل الأكوان، والمخلوقات، والهوام... ربما القديس توما الاكويني على صواب... ودعتها، وغادرت المدرسة...

بدأنا نلتقي كل يوم، وحتى اذا أردت ان أتراجع، وأغادر المدرسة مودعاً شيماء بسرعة، تروح هي، وبطريقة خاصة بالنساء، تستوقفني وتشجعني على الحديث، وتختلق المناسبة، أو اللحظة لنتبادل خلالها ولو حواراً قصيراً، تارةً عن شيماء وإتقانها للحروف الأبجدية، والسرعة التي تعلمت خلالها تشكيل الحروف، أو الحديث بالمصادفة المحضة عن القديس اوغسطين، مستشهداً بحكمة من حكمه... وبعد كل لقاء، كنت أشعر بقوة غريبة، غامضة، شديدة العتو تدفعني الى هذا التحاور، وأنتظر الصباحات بظمأ تائه في الصحراء... بعد كل لقاء كنت أشعر بقوة غريبة، غامضة تتبرعم في قلبي، وروحي، وهي، ما إن تراني أدخل واترك يد شيماء، حتى تجفل مثل الفرس فزعة، وتسرع بخطواتها الوئيدة بأتجاهي... بعد سلسلة لقاءات، بدأت عندما تراني، ترقص عيناها في مزيج من الفرح، والحزن، وأنا أشعر بدوري لا إرادياً إن في قلبي ألماً أصّماً، وحزناً لا أعرف من أين يأتي... ونمت هذه العلاقة الطيبة المتناغمة بيننا بمرور الأيام ونحن نتحدث في اللاهوت، والحياة، ودنيا الصغار، والدراسة... وكانت في كل لقاء تراوغني ببراءة آسرة، ونقية، كما يراوغ الفرح الإنسان، وأتكلم عن الفلسفة السكولاستيكية في القرون الوسطى، وأنتهي بلوثر... وتقول لي قبل ان اودعها:

– إنك محدثٌ ساحر...

ذات يوم ذهبت الى مكتب المديرة لأدفع القسط الثاني من أجور الدراسة، وجدت هند جالسة في مكان المديرة تقرأ في كتاب، ما ان رأتني حتى تورد خداها كأقحوانتين زاهيتين، وافترت شفتاها الحمراوان حمرة طبيعية عن إبتسامة رقيقة... جلستُ، ورحت كعادتي كلما التقي بها أرشقها بنظرات بريئة... وأصبحت نظرات هند أكثر حناناً، ورزفةً، ومحبة... سلمتها المبلغ وبأصابعها الحليبية الفاتنة، وبخط جميل كتبت لي وصلاً، يا إلهي، ايّ جمالٍ ملائكي في هذا الوجه... جمالٌ يبدد المخاوف، والوساوس، والأحزان، ويجعل الإنسان يحس، ويشعر، أن هذه الدنيا هي أجمل، وأروع فردوس في كل الأكوان... فجأة دخل راهب شاب تُغطي وجهه لحية كثة بلون الفحم، ولما رآني، دقق بصره فيّ طويلاً، وهتف بتعجب: من أرى؟؟ أستاذ محمد الراوي... أية مصادفة غريبة...

إلهي... هل حقاً أرى فنانا الكبير محمد... أتعرف من مدة وأنا أبحث عنك... آه... أنا اكثر من سعيد وأنا أراك هنا بالمصادفة المحضة... حتماً تستغرب وانت تراني في ملابس راهب... ماذا!... لا تتذكرني!...آه... يا عزيزي يا محمد، كنا زملاء الدراسة الأبتدائية والمتوسطة. ياه... أنت الآن فنان تشكيلي عظيم... صدقني أتابع معظم نشاطاتك الفنية... قبل أيام رأيت صورتك في مجلة... آه... ذاك الشاب الشديد الوسامة، الساحر النظرات، المبدع نفسه... تكلم الراهب بلهاث، وحب، وبصوت حار متساوق، وأضاف: ماذا؟ هل حقاً لا تتذكرني؟ كنا معاً نرسم النشرة المدرسية في المتوسطة أتذكر حتى المكان الذي كنت تجلس فيه... تأملت طويلاً... ان لحيته الكثة أخفت ملامحه، كما وغيّر الزمن جرس صوته... عاد هذا الإنسان الرقيق الذي راحت الذكريات القديمة تدوم في رأسه، وتكلم بحماسة اكبر عن صِبانا، وعن موهبتي الكبيرة في الرسم، وعن قوة ملاحظاتي، ورشاقة خطواتي وقتها ومزاجي الذكي للألوان، وفهمي الدقيق في المنظور... تكلم كيف دخل بناء على وصية والده الذي نذره وهو صغير للكنيسة، وأسهب في الحديث عن بعثته الى روما التي مكث فيها ثلاث سنوات، وتكلم عن لوحات عمالقة النهضة، ورَجاني بحرارة ان ازوره ذات يوم في غرفته الملحقة بالمدرسة نفسها لنتكلم في الفن، وليطلعني على ألبومات فخمة جلبها معه عن رفائيل، دافنشي، بوتشيلي... وأخيراً عرفت ان هذا الراهب الطيب صديق صباي، هو، حازم يعقوب، الرقيق، الشفاف، الذي كان يحلم دائماً أن يصبح رساماً كبيراً، أو ممثلاً مسرحياً، لكنه انتهى أخيراً راهباً.

إلتفت الى هند التي كانت تتابعنا بأنتباه ملتهِب، ومن عينيها يشع إلتماع، حنان، وكأنها تقول مع نفسها: غريب أمرُ الأحلام، والآمال والمشاريع في هذه الدنيا... تبدأ هنا وتنتهي هناك... زرت حازم الرقيق مرات عديدة في غرفته المملوءة باللوحات، وكتب اللاهوت... باللغتين العربية والإيطالية، والشموع الملونة الطويلة، وهو كعادته يتحدث بحماسة غريبة عن الفن، والفنانين، كانت هند تأتي بين الحين والآخر عدة دقائق، تجلس بصمت وتستمع بإنتباهٍ لاهب، وحازم يتكلم عن رينوار، ثم يعرج الى فائق حسن، ثم الى ضياء العزاوي، و يعود الى سيزان، ثم فجأةً الى الفن البدائي، وتغادرنا بهدوء، وحازم يلهث بإسم ديگا، وغوغان، وبيسارو.

أقبل الربيع... صباح الخير... مساءٌ حزين آخر... إيه، الزمن إله عطوف، هكذا يقول سوفكليس...

ذات صباح، ومن خلال تنهيدة حارة قالت: إذن انت فنان تشكيلي كبير!

– كبير لا... تشكيلي نعم.

كانت لديها رغبة شديدة في الحديث معي، لكنني من غير ان أعرف لماذا، وبسادية، تركت ابنتي وغادرت المدرسة، في الليالي كنت افكر فيها، أو بالأحرى، ان هذه الملاك التي رسمت عشرات الاسكتشافات لوجهها من مخيلتي، وفي أوضاع مختلفة، صارت تفرض نفسها على خيالي بقوة، ويتداخل خيال الفنان عندي، هذا الخيال الذي يجعل كل ما هو بعيد عن اليقين يقيناً، وأعيش أحلاماً بيضاء، ويفور رأسي برؤى ساحرة، ومثلما تزوغ صغار الأسماك في الماء الضحل، هكذا كانت تزوغ عشرات الأفكار الساحرة في رأسي، وأنا أنام نوم العصافير من شدة تفكيري فيها، وأفيق فإذا بحزن مجنون يضرب قلبي، وروحي، وأعود ثانية الى نوم العصافير، وهكذا الى الصباح، حيث تعود كركوك الى إشراقها، ويجلوها ضوء شديد البهجة والرواء، ويطالعني وجه هند.

– صباح الخير.

– صباح النور.

قالت وهي تقبل شيماء بحرارة، وفرح نادر يتلألأ في وجهها.

– الاب حازم يكتب عنك دراسة طويلة... ليلة البارحة ظل يتكلم عنك بحب.

– الأب حازم يبالغ في حبه لي...

– أنا الأخرى قلت له انك تبالغ في حبك له.

– أحيانا يحرجني بأعجابه ومشاعره.

– لكنه يصر على أنك فنان عظيم.

– يبالغ... صدقيني يبالغ.

– يقول انه يفهمك بعمق.

– ربما...

– ربما لانه يفهمك بعمق لذا يحبك كثيراً.

بعد صمت طويل قلت: هند هل استطيع ان أرسمكِ ذات يوم؟

– لا أعرف... ربما نعم؛ ربما لا

– لم لا؟... وهل حرام ان يرسم الإنسان راهبة سأجسدكِ مثلما تجسد وجه القديسة في خيال الفنانين...

– أرجوك لا تقارني بقديسة حقيقية...

– من يدري... قد تصبحين قديسة ذات يوم...

– ماذا سترسم من هذا الوجه المخفي... أبهذه الملابس!

– لِم لا... اخت هند، وحدي فقط أعرف ماذا سأرسم من هذا الوجه الملائكي، ومن هذه الكاتدرائية التي هي انتِ...

نكست رأسها، وبعد لحظات طاف غمٌ ممض على وجهها، وقالت بصوتٍ هامس:

– وجه ملائكي... الكل يصفون وجهي بالملائكي... قلت وكما لو كنت أتلو صلاةً حارة(بورك البطن الذي حملك، وبورك الثديان اللذان أرضعاكِ)... هتفت وقد تورد وجهها:

– هذا الكلام من إنجيل لوقا...

– أحسنتِ... أخت هند، لو سنحت لي الفرصة لأرسمكِ ذات يوم سأجسد فيكِ قبل كل شيء ضياء روحك... نعم... بوسعي ان أرى في جمالكِ النادر ما لا يستطيع ان يراه الإنسان...

– ماذا ترى؟

– ما أراه لا أستطيع أبداً ان اقوله بالكلام.

– الأب حازم يقول، انت تقول بالألوان ما تعجز اللغة عن قوله، وأضافت بصوتٍ هامس:

– إلهي... كم اود أن اعرف ماذا ستقول!

– لا أعرف... عندما ابدأ بالرسم، وجلد أعصابي العارية من غير رحمة، عندئذ فقط أعرف ماذا سأقول...

– اريد ان أعرف ولو فكرة بسيطة...

– مستحيل.

كانت عندما تتودد لا تستعمل فقط براءتها الآسرة، والطاهرة جداً، وإنما أحياناً جمالها الأخاذ، وتقوم بحركات محتشمة جداً، بها ضرب من الجلال السني الذي لا

يملك الإنسان حياله إلا ان يخضع صاغراً... فقلت مع نفسي: هذه التحفة الملائكية أولاً وأخيراً أنثى، وإكتشفت انها من النوع الذي يعظم جمالها بالمديح البريء، وكذلك الإنفعال مثل كل الجميلات، وبعد ان نمت علاقتنا المتناغمة، كنت أتعمد إثارتها ببراءة وطهر ونقاء، لمجرد ان ارى ذاك وهو ينمو ويتعاظم، جمال خرافي... رانَّ صمتٌ طويل، فجأة رسمت على وجهها إبتسامة، وقالت إنك تستطيع رسم ضياء الروح؟ كيف؟

– بالمحبة.

تورد وجهها بلون القرنفل الاحمر، وأسبلت أجفانها وكأنها راحت تناغي أحلاماً، ورؤى هربت منها الى الأبد... قالت بصوت منطفىء...

– بالمحبة.

– نعم... إسمعي... أخت هند... حتماً مرت عليكِ الكلمات الاتية (لا خوف من محبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى الخارج، لأن الخوف له عذاب، وأما من خاف فلن يكتمل في المحبة)

بعد صمتٍ طويل تلوى وجهها خلاله وهي تستمع الى كلماتي، وأطلقت عدة تنهيدات حارة، ورأيت في عينيها الغجريتين اللتين تظللهما أهدابٌ طويلة، ألماً رقيقاً، وضرباً من مشاعر الانكسار، قالت:

هذه الكلمات التي رددتها جاءت في رسالة يوحنا الرسول...

– أحسنتِ... أحسنتِ... انتِ فعلاً راهبة حقيقية...

بعد قليل قالت بغمغمة: إذن لا خوف من المحبة.

– بل المحبة الكاملة كما يقول يوحنا الرسول، تطرح الخوف،

قالت بصوتٍ مخنوق، وهي تبتعد بإتجاه المدرسة: أنت محدث ساحر، أنت إنسان غريب...

كانت هند تزداد يوماً بعد يوم حنانا، ورأفة، ومودة، ورحمة، وراحت الأيام تهرول بسرعة... آه... غدا الجمعة... السبت... الاحد... وكل يوم نودع بعضنا بعضاً: سأراكِ غداً... ما أثقل أيام العطل... إنقطعت عن زيارتها. بعد اليوم الثالث من إنقطاعي، ذات مساء جلست شيماء في حجرتي، وهمست في أذني بطريقتها الماكرة: بابا... الاخت هند سألت عنك كثيراً... وفي مساء اليوم الثاني قالت: انها تنتظرك... قلت لها اخبري هند

بأني سأغيب طويلاً، وراحت كل مساء تزف لي نداءات هند... ولأول مرة سألت زوجتي، من تكون هذه الأخت؟ وانتما ترددان اسمها هكذا بحرارة...، ذات مساء قالت شيماء، ان الاخت هند تريدني ان ازورها... على ورقة صغيرة كتبتُ الكلمات الآتية واعطيتها لشيماء: «النوم يا هند كالحمامة، إذا مدت يداً إليها حطت عليها، وإذا حاولت القبض عليها طارت».

في المساء سلمتني شيماء ورقة صغيرة فيها الكلمات الآتية:

– اسفة جداً لعدم فهمي كلماتك... تعال قبل ان تطير حمامتك... من المحتمل إنني سأسافر بعيداً ولمدة طويلة...

إلهي... هفا دمي إليها... تُسافر! ولمدة طويلة الى أين! الراهبات يُنقلن من مدينة الى أخرى، ومن كنيسة الى أخرى... في اليوم التالي ذهبت، وعندما رأيتها حاصرني ذلك الألم الأصم الموجع نفسه... كان وجهها مثل وجهي يشف عن ألم وغضب شديدين وعاطفة، عبثاً حاولت ان تكبتها... إ هذه الأخت التي ظلت معرفتي معها على جانب ساحر من الرهافة، والبتولية، والمعاناة الصامتة، وكذلك على جانب من البراءة، والحب العذري، اكدت لي كفنان، ان هناك ضرباً من الحب لا يحتاج الى اللمس أبداً،

قالت لم افهم حمامتك!

– هل سبق ان عانيت من الارق الشديد؟

في الأيام الأخيرة وبقوة،...

– اطلقي حمامتك...أطلقيها...

ومن غير ا اتمالك نفسي، وبحركة سريعة غادرت المدرسة... وقبل سفرها بيوم واحد، ومع انتهاء الموسم الدراسي، سلمتني شيماء ورقة صغيرة عليها الكلمات الآتية:

سافرتُ بعيداً... أشكرك... إمتنانُ أبدي مقابل نسيان أبدي...

***

هذا الحالم الوديع(*)

ذات نهارٍ أشهب من تلك النهارات الشباطية الشديدة البرودة، كانت شآبيب المطر تجلد نوافذ مكتبتي بقوة... كنت أرفع بصري مرغماً وألقي نظرة طويلة الى السماء أراقب كتل الغيوم السوداء الضخمة وهي تهرول وتنذر بالمزيد من الأمطار... تحركت تفاحة الباب المؤدي الى مكتبي عدة مرات، إنفتح الباب، ودخل شاب وسيم ذو بهاء مونق... كانت نظراته نفاذة تنم عن ذكاء، وفراهة، وطيبة... كان متأنقاً، ساطعاً كما لو أنه جاء الى الأستوديو، أو المسرح ليعمل ممثلاً... تقدم بخطوات وئيدة من مكتبي وأزاح برفق ذؤابات من شعره المبلل التي كانت تنام فوق جبينه العريض، وقال بصوتٍ خفيض دافيء مقدماً نفسه إليّ:

– رشيد عبد القادر.

– أهلاً وسهلاً.

– لقد تفضلتم وعينتم هذا اليوم لمقابلتي...

رددت اسمه مع نفسي، وعبثاً حاولت أن أعرف ما إذا كنت فعلاً وعدته بمقابلة، ولماذا... قلت:

– آسف لا أتذكر... انت تعرف مهنة الصحافة... الرأس مثل خلية النحل بأستمرار... حسن... بخصوص أي شيء؟

– بخصوص عملي في صحيفتكم...

– آآآآآآ... نعم... تذكرت... رشيد عبد القادر... هل سبق إن عملت في الصحافة؟

– كلا...

– كيف؟!... الصحافة يا أستاذ مهنه صعبة، بل متعبة جداً، لكي تعمل يجب ان تمتلك خبرة، ودراية... و.

– أعرف... أعرف... السيد رئيس التحرير، أنا بصراحة احب الصحافة حباً شديداً... أعرف أنها مهنة صعبة، ومتعبة، وأحياناً ملغزة، غير إنني أحبها ولي ثقة كبيرة بنفسي

(*) نشرت في مجلة الف باء العدد ١٠٧٧ ، ١٧ آيار ١٩٨٩

وبأنني سأصبح ذات يوم صحفياً قديراً...

قلت وأنا أتأمل عينيه الذكيتين:

– هل سبق أن كتبت شيئاً، او نشرت مقالات في الصحف؟

– لقد ارفقت صحبة طلبي الذي قدمته لكم نماذج من المقالات التي نشرتها في صحيفتكم، وصحف أخرى...

– آه...آآآآآ... نعم... نعم... إطلعت عليها... م م م... تذكرت فعلاً أن مقالاته برغم صغرها كانت فيها لمسات رائعة من الأناقة في أسلوبه وكذلك نفحات من المرح الرقيق، والسخرية المحببة، وروح النكتة الجميلة، وكذلك إستعمال غريب، بل جيد للمفردة...قلت:

– أين تعمل الآن؟

– حالياً أنا عاطل... تخرجت هذه السنه كما ذكرت في طلبي، ولم أُعين بعد.

– والخدمة العسكرية؟

– معفو منها حالياً.

– لماذا؟

– بسبب خلل في ساقي اليمنى.

– خلل؟! أي خلل؟!

– خلل فسلجي... أنا احجل كثيراً عند المشي...

– تحجل... هم م م م، لكن أستاذ رشيد الصحفي الجيد يجب ان يمتلك ساقي تيس...

– لماذا ساقي تيس بالذات؟

– آه... التيس يجري بسرعة، يقفز، ينط عالياً، ويمط عنقه لأبعد نبتة، ويصعد المرتفعات بخفة... الصحافة يا أستاذ رشيد فضلاً عن حاجتها الى مواهب كثيرة، هي أيضاً جري دائم، وبحث مستمر هنا وهناك، بل تزاحم، وتلاكز، ودفع و و و... وأنت تحجل!!... تحجل!!

– بصراحة لا أمتلك ساقي تيس، أما ان اتلاكز، أتزاحم، وأتخشخش، نعم أستطيع... أنا قوي البنية، ومعنوياتي قوية... اما الجري والمشي لمسافات طويلة لا... لا... ثم أن السيارات بوسعها أن تختصر الزمن، والمسافات... فهي أسرع من التيس بكثير... أليس كذلك؟

قلت وأنا أرسم إبتسامة باردة على وجهي:

– ألا تعتقد ان الصحافة لشاب وسيم مثلك مهنة متعبة جداً؟

– لكنني أحبها... أحبها كثيراً، لذا أجدها برغم كل الصعوبات التي فيها، سهلة وممتعة جداً...

– لماذا لا تجرب مهنة أخرى؟

– بوسعي طبعاً... أعتقد ان لدي مواهب لا بأس بها... لكن الصحافة بالنسبة لي كانت وما زالت حلماً... حباً... نعم حباً...

– ماذا تحب فيها؟

– حسن... أعتقد إنها المهنة الوحيدة التي تسمح لي ان اكون على تماس دائم مع الآخرين... لا توجد مهنة بأمكانها ان توفر لي مثل هذه العوالم المختلفة...

كانت حركاته تشرح برشاقة جميلة وهو يتكلم بطلاقة، وأضاف:

– لقد أحببت دائماً الثراء الحقيقي في العلاقات الإنسانية...

قلت ببرود: ماذا لو أجبتك: لا أريدك...

– أنت حر... بوسعي ان اجرب صحيفة أخرى... أنا تقدمت إليكم بناءاً على الطلب الذي نشرتموه في صحيفتكم، ولأعجابي بكتاباتكم كصحفي قدير.

– أنت... توقفت، وقلت مستفزاً إياه:

– أنت تتملقني.

– بل أحتقر التملق والمتملق.

قلت في نفسي وأنا أنظر الى وجهه الوسيم الذي خضبته كلمة تتملقني بحمرة خفيفة، إنه إنسان صادق مع نفسه، وهذا مهم... قال وقد ظهر تعبير مرتبك وسريع فوق شفتيه.

– السيد رئيس التحرير، طالما أمتلك الحب، والصدق، وكذلك الموهبة، سأنجح وبوسعي إذا رفضت أن أجرب صحيفة أخرى، او ربما مجلة أخرى.

غصتُ في صمتٍ طويل، ومن خلال إستماعي الى صوت المطر الرتيب، تذكرت لمسات الأناقة في أسلوبه، والنشر الجميل الرشيق الذي يصلح أساساً للكتابات الأبداعية، وكذلك النفحات من المرح الرقيق، وأحياناً السخرية الكاوية في كتاباته القصيرة،

وأيضاً تعبيره عن الكثير من الأشياء في قليل من الألفاظ مثل قاص مبدع، كانت الرياح وشآبيب المطر تسوط النافذة بقوة، ورحنا نستمع إليها بصمت، ونتبادل النظرات الأستفسارية، قلت:

– هل تجيد أية لغة أجنبية؟

– أنا خريج اللغة الأسپانية كما ذكرت في طلبي...

قلت بطريقة عفوية: آه... صحيح... عفواً... تذكرت... جيد... جيد... ما إن لفظت كلمة جيد، حتى لمع في عينيه فرح متدفق، قلت مع نفسي، لم لا أستفيد منهُ! لأجربه! ربما جاءَت هذه المصادفة لتخدمه... قلت:

– حسن يا أستاذ رشيد عبد القادر، يبدو ان الحظ يريد فعلاً أن يخدمك...

– كيف!؟

– إسمع... تنزل حالياً في فندق الميرديان مستشرقة إسپانية مشهورة، أريدك ان تذهب وتجري معها لقاءاً مطولاً.

– سأذهب إليها... حالاً... حالاً...

أنارت وجهه الوسيم إبتسامة رقيقة طيبة بددت قليلاً من ذلك الوقار الواجم المتنافر مع وسامته... قلت:

– حسن... أخبرني أولاً، ماذا ستسألها... أسمعني عدداً من الاسئلة كمثال؟

– اوه... أسألها عن عالم الأستشراق، مثلاً كيف تنظر كمستشرقة الى حضارتنا، تاريخنا، منجزاتنا الفكرية، والعلمية في مختلف الحقب طبعاً، وأهم اللمسات العربية التي ما زالت باقية في الحضارة الأسپانية، أسألها رأيها في مستشرقين مثل الإسپاني روميرا، وبلاسيوس، وبلانشينا، وعن المستشرق الكبير اجيليو غرسيا تومز، وعن الفرنسي جاك بيرك، وماسنيون، ومكسيم رودنسن.

وأضاف بحركاته التي تشرح دائماً برشاقة جميلة: السيد رئيس التحرير، سيادتكم كصحفي قدير تعرفون ابان لقاء كهذا تظهر أسئلة متنوعة طبعاً... سأتكلم معها أيضاً عن لوركا، ورفائيل البرتي، وسرفنتس، ولوب دي فيغا... ربما إذا سنحت لي الفرصة، أتكلم معها عن الرسام فيلا سكويز، غويا العظيم..أوه، أنا أعرف كيف أضع البارود في كلماتي... وأسئلتي، أنا بالمناسبة لا أعرف المناقشات الأنبيقية.

أطلقت ضحكة لا إرادية وأنا أستمع الى كلمة غريبة... قلت:

– أنبيقية؟... ماذا تقصد بهذه الكلمة؟

الأنبيقية؟ أقصد المناقشات العقيمة، السخيفة، اللامُجدية، والتي لها مردود صفر... صفر... تعرف ماذا أقصد بكلمة صفر!

– أنت على ما يبدو إنسان جاد؟

– جداً... وسترى... جربني...

– سأرى قريباً...

إرتحت كثيراً لحيويته، وحرارته، ولصفاء ذهنه، ولتلك التلقائية في حديثه، وهو يمنح كل كلمة جرساً مثيراً... إتصلت بإدارة الفندق وكلمت مسؤولاً لتسهيل مهمة مراسلنا الشاب، وجاءَني جواب المسؤول : طبعاً ممكن، لكن يجب ان يسرع مراسلكم، لأن المستشرقة بعد أقل من ساعتين ستغادر الى الى المطار...

إلتفت الي السيد رشيد عبد القادر، وقلت مشجعاً أياه:

– العجلة العجلة... اسرع... هنا فعلاً انت بمسيس الحاجة الى ساقي تيس... تيس حقيقي... تحول الى تيس.

– لماذا... ماذا حدث؟

– المستشرقة ستسافر بعد أقل من ساعتين... يا أستاذ رشيد هذه فرصتك النادرة...أسرع... وآتني بموضوع جيد... أسرع الى الميرديان... لا تفوت فرصتك الحقيقية.

– الفندق بعيد... لكن... على اي حال، سأكون هناك... لن أدعها تسافر... مرة أخرى لمع في عينيه الفرح المتدفق نفسه، فرح من يحقق حلماً إستعصى كثيراً على المنال، أعطاني ظهره وسار وهو يحجل بأتجاه الباب... قبل ان يغادر المكتب قال بالإسپانية مشيراً بحركاته الرشيقة نفسها HESTA LA ... (الى اللقاء هنا) خرج... قلت مع نفسي، هل حقاً يستطيع القيام بعمل صحفي بهذه الساق؟؟

في المساء جاءَني بعشر صفحات من حجم –فولسكاب– فيها أجمل، بل أروع، وأرق، وأغنى مقابلة قرأتها في حياتي عن عالم الاستشراق، والحضارة العربية في إسپانيا، وحديث مسهب عن غرناطة، وقرطبة، وعن عباقرة إسپانية، سرفانتس، لوركا،

بيكاسو، البرتي،... شكرته كثيراً، وطلبت إليه ان يقدم أوراقه الأصولية للتعيين. بعد أيام وصلتني رسائل إعجاب كثيرة من القراء عن اللقاء السمفوني. هكذا إتفق الجميع على تسمية المقابلة، ووصلت تحايا إعجاب للصحفي الشاب...

***

الله وحده يعرف مبلغ دهشتي،. وحيرتي، بل إندهاشي عندما وصلتني الرسالة القصيرة التالية من المستشرقة الاسپانية تقول فيها

عزيزي الأستاذ رئيس تحرير جريدة – أ– المحترم

تحية: أود ان أعلمكم أنني أبان وجودي في بلدكم الجميل، بإستثناء مجلة واحدة أجرت معي لقاءاً مطولاً، لم ألتقي بأي صحفي أخر، ولم أقابل أبداً إنساناً باسم رشيد عبد القادر... وان المقابلة المنشورة في صحيفتكم التي حصلت عليها بالمصادفة المحضة لم أدل بها أنا... وبرغم فبركتها من قبل الأستاذ رشيد عبد القادر، فهي يا إلهي، جميلة، ولو فعلاً أجراها معي، صدقني لما كان في وسعي أن أجيب أكثر وأجمل مما وضع هذا الصحفي الغريب على لساني... وليس في المقابلة ما يسيء إليّ أبداً، سوى إنها طبعاً كذبة، وأية كذبة، مع التقدير،

***

عندما طلبت من رشيد عبد القادر إيضاحاً بعد قراءته رسالة المستشرقة، أجابني ببرود صقيعي، ومن غير ان يُظهر أي تعبير مرتبك على وجهه، ووقف من غير ان يزاوله وقاره الواجم.

– السيد رئيس التحرير، صحيح كانت تلك المغامرة فرصتي الذهبية... لقد خانتني ساقي أولاً، ثم الزحام الشديد والمجنون في الشوارع، وأخيراً المواصلات، وضيق الوقت... عندما وصلت الفندق كانت المستشرقة في المطار... أنت تعرف المسافة بين المطار والفندق... طبعاً كان من المستحيل ان اصل المطار، وهب إني وصلت، هل يعقل حقاً إجراء حوار حول الحضارة، والاستشراق، والفكر والفن في المطار؟...

– عليه فبركتَ المقابلة.

– بل قل المقابلة التي أثارت إعجاب جميع القراء...

– لكن ما فعلته مخيف... كذبة... واية كذبة كما تقول المستشرقة...

– نعم... أعترف... إنها كذبة.

– لِننس هذا الموضوع... أمس وصل وفد من إتحاد أدباء دولة شقيقة.

قاطعني بسرعة قائلاً:

– أعرف... أعرف...

وبهدوء وضع إستقالته فوق مكتبي، وقال وهو يغادر مكتبي:

لا أظنني أصلح لهذه المهنة الصعبة، والمتعبة.

تذكرني مع شوبرت(*)

قالت إنها ستخابرني في العاشرة تماماً... منذ أكثر من شهر وهذه الفتاة التي لم ألتقِ بها بعد، تخابرني، وتكتب لي رسائل حارة، مليئة بعبارات بليغة، وبالحكم، وبعشقٍ صوفي عن أخيها المرحوم، وبتواضع جميل عن نفسها أيضاً، تكتب لي مثلاً: وهل أنا ايها الصديق النبيل مثل آلهة بابل، وسومر أبقى أعيشُ الى الأبد؟ طبعاً لا... فأنا سأبلى ذات يوم مثل أي إنسان، لكنني لن أُبلى قبل أن أنتقم لأخي المظلوم... إذا كنت لا تعلم فأعلم إنني عنيدة الى درجة التحجر في عزمي... وكتبت أيضاً ذات مرة : انت تعرف حكيمنا الآشوري العظيم – أحيقار– قال (إن الشريعة كلها واحدة، وهي لا تصيب احداً بمكروه) لماذا أخي!... أجل لماذا؟... وبتلك الطريقة المفجعة التي أنت وحدك تعرفها، وشاهد عليها، لقد كانت شريعة أخي في الحياة، هي الحب، والضمير، وكتبتْ في آخر رسالة لها: لقد عرفتك بعمق من خلال المرحوم كفكر ووعي رائع، انت فعلاً إنسانٌ هائل، وتمتلك من الأفكار ما تطمئن إليه القلوب الحزينة... انت ايها العزيز يُصدَق فيك فعلاً قول المتنبي العظيم:

وقلبك في الدنيا ولو دخلت بنا

وبالجبن فيه ما درت كيف ترجع

لذا يجب ان أقابلك هذا اليوم... ولأنها دقيقة جداً في مواعيدها عند الاتصال بي عن طريق الهاتف، في العاشرة تماماً رنّ جرس الهاتف... قالت بصوتٍ يفيضُ بأسفٍ رقيق: آسف جداً لأزعاجك... أنا إقبال...

آه... أهلاً إقبال... نعم وصلتني رسالتك الاخيرة... طبعاً لا مانع لدي من مقابلتك... حسن... في الحادية عشرة أكون في المتنزه الكبير، وسأجلس بناءاً على طلبكِ على المقعد الثامن على الجهة اليمنى من الممر السادس تماماً، أمام سلسلة أشجار السرو، الى اللقاء.

آه... المرحوم... وأي مرحوم... كان شاباً وضاح الوجه، فخم المحيا، وسيماً، براق العينين، في صوته رخامة آسرة، كان قريباً الى قلوب الجميع، لقد عشت معه أياماً

(*) نشرت في مجلة الأقلام العدد٩ أيلول ١٩٨٩

لاهبة، وسعيدة، وأياماً شديدة البؤس... أشك ان التقي ذات يوم بإنسان مثله يشعر بكل حواسه، وقلبه، وعقله، وخياله، وأفكاره...

***

وضعتُ عدة –سندويجات– وثلاث علب بيبسي في كيس، وفي الحادية عشرة دخلت المتنزه وكان خالياً، وصامتاً إلا من زقزقة العصافير... بعد دقائق، من بعيد رأيت ثلة من طالبات المعهد يتهادين برفق في المتنزه، ويطلقن ضحكات ناعمة، ويتراشقن بورود الربيع، كانت أشعة الشمس الذهبية بلون اللازورد، والحديقة تتوهج، وكل شيء يتوامض... جاءت شابة طويلة القامة ترتدي بلوزة حمراء، وتنورة سوداء تسير بخطوات واسعة... عندما وصلت الى المقعد الذي أجلس فوقه، إلتفتت حولها عدة مرات بحذر، بحركة هي مزيج من الرجولة، لكنها في الوقت نفسه تموج بأنوثة رقيقة، وقبل ان تجلس قالت بصوتٍ هامس:

– أخيراً ألتقي بك أيها الصديق الطيب مهيار القادري.

اضافت، وهي تجلس بجانبي بصوت وإن كان فيه بحة ضامرة، لكنه عذب ومؤثر:

– أعرف إنك دقيق جداً في مواعيدك، لقد أخبرني المرحوم عن حبك للمواعيد بل هوسك بها...

– شكراً... بالمناسبة، كيف، ومتى، وممن عرفتِ عنواني، رقم هاتفي؟

– منذ حوالي سنة قررت مع نفسي وبأصرار أن أبحث عنك... لقد كلمني المرحوم عنك كثيراً بحب حقيقي... كان معجباً بك إعجاباً لا متناهياً... لكنه ولأسباب خاصة به، لم يخبرني سوى بأسمك الأول... وبأسم مدينتك... مهيار... أسم جميل... كان يكتفي فقط في الحديث عن أفكارك، ثقافتك، وعن طريقة كلامك، وضحكاتك... وانت؟ أعرف أنك كنت تحبه كثيراً... لماذا لم تحاول أن تبحث عني؟ عن أسرتي بعد موته؟

– لأن المرحوم كما تعلمين، كان غامضاً معي بعض الشيء فيما يخص الأسرة بالذات... مثلما لم يُعطِكُم عنواني ، لم يعطني عنوانكم، صدقيني بأستثناء حديثه المسهب عنكِ بالذات، وشغفكِ الشديد بالأدب، والفكر، وحبه العميق لكِ، أقول بصراحة لم يأتِ على ذكر اي إنسان في الأسرة، بل قليلاً ما حدثني عن مدينته في الجنوب... آه... كان كتوماً...

– أعرف... وعنيداً جداً.

وأضافت بصوت رقيق: لكنه كان بسيطاً، وخالياً من الطمع والانانية والحسد، خلواً كلياً مثل متصوف حقيقي... أتعرف يا مهيار، أنه حسب علمي لم يعرف الخطيئة في حياته.

– آه... أعرف... أعرف...

كانت شظايا الشمس المنتشرة من خلال أوراق الأشجار خلفنا تتراقص على وجهها الذي في تلك اللحظة كان يفيض بحزنٍ قاتم، وذكرني بوجه المرحوم الذي كان وجهه يصبح اكثر وسامةً وتعبيراً عندما كان يعاني من عذاب رهيب.

قلت: لقد كان إنساناً نقياً، كثير الإيمان بقضيته.

– جداً جداً... كان يجمع بطريقة مذهلة بين رجاحة العقل والبساطة الغريبة...

– كان رابط الجأش عند أصعب الملمات... أوه... كان يتسم بسمو نفس غريب... بعد صمتٍ طويل إلتفتت إليَّ، وأرسلت نظرة فياضة رقة، أُلفة، وداً، وقالت وإبتسامة جميلة تتخايل على ملامحها:

– حقاً كان المرحوم على صواب.

– بخصوص ماذا؟

– كان يقول لي ان نبرات صوتك باردة جداً.

– ها ها ها... ربما أنا أيضاً مثل المرحوم دائم التمكن من أعصابي...

– أعرف... شيءٌ رائع هذا التمكن الفولاذي من النفس...

وأضافت بسخرية حلوة: لكنه فولاذ حساس، أتعرف يا مهيار ان لدى المرأة حساسية غريبة، أو على الأقل حدساً أنثوياً يساعدها بسرعة، متى، وأين، ولماذا تؤمن بوجوه الرجال!

– جداً... وأرى أنكِ تحاولين ان تغوصي عميقاً؟

– طبعاً... إنني يا مهيار مثل أوراق الزنبق العريضة دائماً تحب الاعماق.

– رائع... رائع... آمل ان اكون عند حسن ظنك...

– ماذا!... طبعاً طبعاً... انتَ إنسانٌ خالٍ كلياً من المرواغة والمكر، انت، ايه، شيء رائع...

– شكراً... لكن ما دليلك الشخصي، بأستثناء شهادة المرحوم بحقي؟

– الرهافة الشفافة التي تغلف وجهك لا تخطيء حتى العين العادية ...أوه... أعرف عنكَ الكثير... الكثير.

– من غير مديح... أرجوكِ.

– طبعاً أعرف عنك الكثير... من شهرين وانا أتبعك، وأسير بجانبك في الشوارع التي تتجول فيها، آه لو تعرف كم واجهت من مصاعب حتى إهتديتُ إليك... تصور في مدينة كبيرة وانا أبحث عن شخصٍ لم اره في حياتي... ولا أعرف سوى إسمه الأول... قبل ان اعرفكَ كنت من خلال الوصف العابر الذي كلمني عنه المرحوم، اشكلك في لا وعيي، كنتُ من شدة تركيزي عليك تظهر لي كواقع ثم تتلاشى كالرؤية...

– ها ها ها ها... عجيب...

– كان المرحوم يقول لي، انك عندما تتكلم بلغتك الجميلة، وحركات يديك، تجعل حتى الشكوكي المعقد يؤمن بك...

– أرجوكِ...أرجوكِ...عن غير مبالغة...

بعد صمتٍ قصيرٍ أرسلت إليَّ نظرة مستفهمة، وقالت:

– حسن... الآن... انت تعرف لماذا جئت الى هنا؟جئت كما تعرف لأكلمك في قضية ساخنة...

– أعرف... أعرف...

– طالما تمتلك يا مهيار روحاً أسبرطية مثل المرحوم، واثقة جداً ان طلبي سيتحقق كما أريد...

قلت ضاحكاً بذكرها الروح الأسبرطية مثل المرحوم: أتعرفين ان المرحوم في المواقف الصعبة كان دائما يذكر اسم – يونيداس–

– آه... يونيداس!... الأسبرطي الذي بثلاثمائة جندي هزم جحافل من أعدائهِ...

– أحسنتِ.

– قال لي المرحوم إنك مثلي تحب الفلسفة، والفلسفة اليونانية القديمة بالذات...

– جداً... جداً.

– رائع.

كانت عندما تتكلم تخفض أهدابها الطويلة وكأنها بهذه الحركة اللاإرادية تستطيع ان تختار الكلمات التي تعبر عن افكارها ، ومشاعرها... قالت:

– كنت أتصورك أكبر في العمر...

– أنا الآخر تصورتكِ في الأربعين...

– لماذا؟

– لا أعرف، ربما البحة في صوتكِ، ونضجكِ الذهني، وثقافتكِ، رسائلكِ المليئة بالحِكم...

– آه... البحة... البحة في صوتي... منذ صباي وهذه البحة في صوتي...

– العتب يقع على مخيلتي السمعية التي ترجمت صوتك سهواً..

– ها ها... سهواً... لكنك بحسب معلوماتي الدقيقة عاشقٌ مجنون للموسيقى...

– فعلاً...

– وأعرف من تحب من الموسيقين، بل وأعرف اية مقطوعات موسيقية كنت تبحث عنها قبل شهر واحد...

– عجيب... ماذا؟ شارلوك هولمز!

– ها ها ها ها... قلت لك إني مثل أوراق الزنبق التي تبحث عن الأعماق... منذ سنة أو أكثر وأنا أفكر فيك، وأحاول ان أعرف كل شيءٍ عنك...

– لديكِ صبر المرحوم وأناته تماماً...

– بل دقته أيضاً.

فتحت حقيبتها اليدوية، وأخرجت ثلاث – كاسيتات– قدمتها لي الواحدة بعد الاخرى قائلةً: يا مهيار العزيز سأثبت لك دقة متابعتي وفهمي لك، في هذا الكاسيت كائنات جميلة للموسيقار باخ، كنت تبحث عنها،

أما هذه ففيها –ليدرات–(*) ساحرة لشوبرت

أعرف انكَ تحب شوبرت كثيراً.

هتفتُ لا إرادياً بفرحٍ طفولي: آآآآآ... شكراً...شكراً...

إلتفتت إليَّ ورمتني بنظرة طويلة من تلك النظرات التي تقول فيها المرأة أشياء كثيرة... وبرغم برودة أعصابي، وصعوبة إنفعالي، رأت الدهشة تطفو على وجهي...

قلت: وماذا تعرفين أيضاً؟ حتماً تعرفين عني الكثير...

(*) ليدر: كلمة المانية تعني رومانسي، اي أغنية مؤثرة، وتعني أيضاً نوعاً من البلاد الراقية جداً.

– طبعاً أعرف عنك أشياء كثيرة، ورائعة أيضاً... يا مهيار، أنت إنسان جدير بأن تبحث عنك إنسانة مثلي، مليئة بالغضب، يجب أن تساعدني يا مهيار... أنت من النوع الذي اذا وعد أخلص لوعدهِ... وأنت وعدتني...

– لن أُخلف وعدي...

– شكراً... لن أنسى مواقفك الرجولية مع المرحوم في تلك الايام الرهيبة... لا لا... لقد تحملت المستحيل معه... أنقذته أكثر من مرة... طورت له ثقافته، فكره، وروءاهُ في تلك الغرف البعيدة الرطبة... آه... أما موته بتلك الطريقة المخيفة على يد ذلك المسعور فقد كان خارج إرادتك.

– لقد أحببت المرحوم لأسباب سامية وسأبقى أحبه الى الأبد...

– بالمناسبة يا مهيار... ماذا أحببت فيه؟

– ظمأه الدائم للإيمان بالإنسان، حبه الشديد للحياة... صلابته... تفاؤلهُ الدائم بالمستقبل...

– أحسنت.

ردَدَت كلمة أحسنت من خلال تنهدات حارة، إلتفتت إليَّ وتأملتني بهدوء... كان ثمة صفاء هادىء يرقد في عينيها الواسعتين... صفاء من تجربة دهاليز كثيرة في الحياة برغم عدم تجاوزها الثلاثين... كانت عيناها تلمعان بإصرار غريب... قالت:

– نعم صلابته... صلابته... لم يكن يخاف اي شيء...

– أعرف... كان فقط يخاف إحتقار نفسهِ...

– آه... جداً... جداً...

– من هنا كانت شجاعته...

– بالضبط...

***

قدمت لها قطعة – ساندويج– وعلبة بيبسي.

قالت بفرح: شكراً... أنا فعلاً جائعة جداً.

تأملتها طويلاً وهي تأكل... كانت رشيقة الحركة... خفيفة... وكان سمارها الجنوبي الداكن والمثير كما لو أن دمها قد سيط بالدم الهندي يلفت النظر بقوة... قالت وهي تمضغ برفق:

– إذن قضيتي الآن باتت واضحة.

– طبعاً.

– وتوافق على مساعدتي؟

– إحتراماً لذكرى المرحوم... ولوفائك النبيل لهُ، قلت لكِ نعم...لكن!

– لكن ماذا؟ أنت تعرف ان المرحوم قُتِل بطريقة بشعة، وبهيمنة، مسعورة للغاية...

– أعرف... أعرف... لكنني لا أؤمن بالإنتقام...

– أنا اكثر أخلاقية، وحضاريةً منك في هذا الموضوع... صدقني لو ان المرحوم قُتِل بطريقة إعتيادية مثلما حدث للبعض لما أعرتُ القضية أي إهتمام... أما وقد مارس ذاك الوحش الطليق مع المرحوم مهرجاناً من الوحشية، أقول يجب ان أنتقم له...

مرة أخرى ذكرني وجهها بوجه المرحوم في ذاك المكان الرطب، الخانق، تحت الاضواء الكامدة للمصابيح الصغيرة التي كانت تتحرك أحياناً وتترك أشكالاً سريالية من الخيال والظلال على الجدران، والسقف... أجل هناك ساعة من الخوف المزلزل تجعل الانسان يعيش سنوات من الكابوس والرعب بعد ان يغوص ذلك الغوص بعيداً في لحم الروح والوعي... حتى في تلك الساعات المتزلزلة كان المرحوم يبقى رابط الجأش، وتصبح نظراته ساطعة وقوية، تنفذ الى أعماق أولئك الذين كانوا يمرون، ويصرخون، وتجعلهم يضطربون... يالذاك الجسد المعذب للمرحوم. ويالذاك الألم الرهيب الذي إنصب عليه في لحظاته الأخيرة...

قالت: ألستُ على حق...

– آه... نعم لقد مات بطريقة فاجعة...

– يا مهيار عبر مئات الكتب التي طالعتها، لم اسمع، أو أرى، او أعرف إنساناً كان لديه وهو يقتل المرحوم شعوراً همجياً بالهدم مثل ذاك الوحش الطليق...

– بل قولي إنعدام مطلق للحس الإنساني.

– من أجلِ تلك الميتة سأنفذ قراري... أقتُلهُ...

ساد صمتٌ طويل، كان ظل ورقة يرقص فوق فمها الذي طاف عليه حزنٌ جميل، قالت:

– أوليس من حقي وواجبي؟

– نعم... نعم أتعرفين قبل ان يموت بعدة أيام رآى حلماً غريباً وسجله بخطه الجميل؟

– ماذا تقول؟

– إنه حلم كما قال لي يخالف الطبيعة والمنطق،

– كيف!!

– أخرجت الأوراق التي دون عليها المرحوم حلمه... عندما رأت الأوراق قالت بصوتٍ مخنوق: آه... هذا خطه... والله انه خطه...

– سأقراء لكِ ما كتبه... إستمعي إلي.

قالت وقد المتِ لأول مرة بشفتيها برعشة خفيفة: يجب ان تعطيني هذه الاوراق يجب...

– طبعاً يا عزيزتي... لقد جلبتها لكِ...

***

حلم المرحوم.....

أما بطرس فتبعه لينظر النهاية... الفصل السادس والعشرون من إنجيل متى.

منذ أن ماتت والدتي فكرت أن أبيع بيتها القديم الذي ما زلت أسكنه... بيت قديم، بُني قبل أكثر من خمسين سنة، غرفة مظلمة، كئيبة، حتى في الظهيرة تفوح منها رائحة رطبة، عفنة بسبب الإهمال لكن هذا اليوم رأيت البيت أكثر خراباً، وبؤساً، وكنت من خلال ضوء المصباح في صحن البيت أرى عدداً من الوطاويط تدخل الغرف المهملة المظلمة وهي توصوص تارةً، وتارةً تطلق أصواتاً مثل فحيح الأفعى... وتعقب أصوات الوطاويط أصوات أخرى هي مزيج من مواء قطط شباطية متهيجة، ونباح كلب جريح، وشخير حاد مثل شخير سكير متعب، وأحياناً قهقهات، أو صوتاً يردد مقاطع تهديدية من إحدى تراجيديات شكسبير... تصورت ان اختي إقبال متزوجة منذ فترة طويلة، وأنا وحيد وحدة موجعة في هذا الجو الكابوسي... عبثاً حاولت أن أتذكر وجهها في مخيلتي... لم تبق على شاشة ذاكرتي اية ذكريات لأن جميع جهودي لإسترجاع وجه مهيار الحبيب، راحت عبثاً...الشاشة الآن بيضاء... ماذا؟؟؟ هل حقاً لم اعد انتمي الى بنيان مجتمع عشت عاداته، أعرافه، طقوسه، لم لا توجد في متاهات ذاكرتي ولو صورة... هل الحياة تلاشت، وتلاشى معها كل شيء؟ إشتد الظلام في الخارج... جاء طرقٌ على الباب، تكرر الطرق بسرعة وعصبية، نهضت وفتحت الباب فوجدت نفسي أمام رجل طويل جداً، نحيف يشبه الهيكل العظمي... كان وجهه المخروطي الشاحب مضحكاً أحياناً ومخيفاً أحياناً أخرى، كنت وكأنني أراه من خلال موشور كبير... وجهه

له عدة أشكال... عيناه واسعتان جداً... نظراتهما خارقة وعدائية على نحو رهيب شارباه المعقوفان يتحركان مثل جناحي غراب... قال بصوتٍ خلته خرج من بطنه:

– انت السيد كمال سعيد العلي.

– نعم

– هل تسمح لي بالدخول؟

– قبل ان اسمح لك بالدخول، هل بالأمكان أن أعرف من حضرتك؟... وماذا تريد؟

القى نظرةً حادة، وقال بغضب: طبعاً لا يحق لك ان تعرف من أنا... القيت نظرة على عنقه الطويل، وقامته الهزيلة المضحكة، وأنا أردد مع نفسي: من هو؟... ماذا يريد هذا الكائن الغريب الشكل؟ لا أعرفه، بل لم يحدث قط أن رأيته! لماذا هو وقح وصلف الى هذه الدرجة؟...قلت:

– لكن يجب ان اعرف من أنت اولاً وماذا تريد؟

– ليس مهماً ان تعرف من أنا...

– هل أفهم من كلامك إنك تريد ان تقتحم بيتي عنوةً؟

– نعم.

– أنت فعلاً إنسان وقح...

أردت ان اغلق الباب في وجههِ، مد يده وبأصابعه العظيمة الطويلة مثل أطراف الأخطبوط قبض على معصمي ودفعني بهزة قوية الى الداخل، واغلق الباب بسرعة، ثم بحركة سريعة وميكانيكية أدخلني الى غرفتي، إنتابني غمٌ رهيب سرعان ما تحول الى إنصعاق فظيع من هذه المعاملة الجائرة... جلس فوق اقرب مقعد، وأشار لي بصوت فيه أمر أن أجلس... ارسلت نظرة متفحصة و دقيقة الى وجهه المخروطي الشبيه بوجه الثعلب... قال:

– يجب ان تجيء معي...

قلت وانا ما أزال نهباً لانصعاقي: الى أين؟

– لا تسأل الى أين

– من حقي أن أسأل.

– لا ليس من حقك.

– ماذا لو رفضت؟

– لا تستطيع ان ترفض.

– إنني إنسان حر... من حقي أن أرفض... ثم من انت؟

– ليس من حقك ان تعرف من انا...

صرخت بكل ما لدي من قوة: بل من حقي ان أعـــــرف...

أجابني ببرود: إسمع، من غير جلبة، أو هرج، أو صراخ، إنهض وأجلب أربعة كتب فقط تحبها جداً، وأربع أسطوانات لموسيقيين تحبهم، ودعنا ننطلق...

أردت ان أنادي على أختي إقبال لأستفيد من شجاعتها، لكنني ادركت أنها ليست هنا، بل تعيش في مدينة أخرى مع زوجها... راحت الأفكار المضطربة تصفع رأسي بقوة، ربما سمع هذا الهيكل العظمي دويها الأخرس، ذلك لأن رأسهُ الموشوري الشكل كان يؤكد لي ان ثمة جهازاً، أو أسلاكاً مخيفة في رأسه مثل المجسات... من خلال نظراته كنت الاحظ انه يرى أصغر ومضة في عيني الملتهبتين من الغضب والانفعال...

قلت: تأخذني الى أين؟

– لا تسأل... لا جواب لدي على أسئلتك.

– أرفض المجيء...أرفض... أكرر مرة أخرى أرفض...

قال بغضب: أجبرك...

– لا تستطيع...

إجتاحني برغم ضعف جسدي غضب بلغ من قوة الإستعارة درجة إني هجمتُ عليهِ وصفعته بقوة. غير انهُ مدَّ يده الطويلة و بأصابعه المخيفة أمسك بمعصمي وشد عليه بقوة، وسَرتْ في لحظات في جسمي موجات من التيار الكهربائي إزرقت على أثرها أصابعي، وحتماً كل جسدي الذي كان يراه هو فقط، في تلك اللحظة شعرت بألمٍ رهيب، لكنني كظمت ألمي، وجاهدت أن أبدو طبيعياً، وواجهته بهدوء أعصاب، هزني عدة مرات ودفعني بعيداً عنه... إرتطمت بالجدار وأنا مخدر من التيار الذي صعقني عن طريق يده، أخرج مدية طويلة من قراب رأيته يتدلى من نطاق جلدي اسود يلف وسطه، إقترب مني ووضع حافتها الحادة على عنقي وقال: بمجرد ان أضغط عليها يتدفق الدم، وتبدأ تشخر مثل شاة الذبيحة، أعتقد انا الآن واضح جداً... هل فهمت، أنت لا تستطيع مقاومتي...عليك من غير نطق كلمة واحدة أن تطيعني...

قلت: لكن هذه المعاملة غير شريفة... أنا لم أؤذِ نملة... ولم أعتَدْ على تنفيذ أوامر إجبارية...و

قاطعني قائلاً: من غير أخلاقيات.

– يا لك من إنسان فظ.

– لا تحاول ان تستفزني...

– ما أثقل ظلك... ما أسمك؟

فجأةً طعنني في ذراعي... إنتظرت ان يتدفق الدم من الجرح؛ كان الألم في ذراعي رهيباً، ولكن لم ارى ولو قطرة واحدة من الدم... بعد قليل طعنني في خصري، ثم في فخذي... أسكرتني الطعنات، ترنحت وذهبت استند الى الجدار وأنا أبحث عن خيوط الدم ... لم يكن هناك دم... تحديته من جديد بعد ان ومضت فجأةً كلمات– مفيستو– في ذهني، في رائعة غوتة– فاوست– (إن الأجزاء النبيلة من هذا الجسد ما تزال سليمة...)قال:

– إنهض وأجلب الكتب والاسطوانات التي تريدها بسرعة...

هززت له رأسي بالنفي... شعرت بتيار من جديد يزلزلني... إستسلمت وذهبت بأتجاه مكتبتي... فجأة رأيتُ وجهي في مرآة كنت أضعها فوق أحد رفوف الكتب... كان وجهي من شدة غضبي مزرقاً، ومنخرا أنفي يتسعان مثل منخري حصان توقف بعد جري سريع، قلت مع نفسي: كل شيء في هذا الكائن الغريب يشير بوضوح الى أنه سينهي حياتي وبطريقة درامية مروعة... إلهي... لماذا؟... ماذا فعلت!...

إلتفتُ إليهِ، وقلت بصوتٍ ذابل:

– ما فائدة الكتب، والأسطوانات... لا ...لا أريد شيئاً.

ومضت عيناه ببريقٍ حاد، وقال بذاك الصوت الأمر نفسهُ:

– قلت لك أجلب أربعة كتب، وأربع أسطوانات فقط... نفذ بسرعة... هيا أسرع.

فجأةً تذكرت أنني أمتلك مسدساً صغيراً كان قد أهداه لي اخي قبل سنوات، ورفضت ان آخذه منه بسبب كرهي الشديد لكل سلاح فتاك، غير انه قال مصراً: سأحشوه لك، وأضعه خلف الكتب في المكتب للحالات الطارئة، من يدري قد تحتاجه ذات يوم...آه... إذن، إن الأمل لا يطوي أشرعته دائماً... بدأت أنبش وراء الكتب...

أخرجت رائعة سرفانتس دون كيخوتا، ثم بعد ذلك مسرحية هاملت، والملك لير، وأصابعي مثل ديدان الفجر المتهيجة تبحث عن المسدس.

قال: بسرعة... بسرعة... لا وقت لدي...

قلت: لِم العجلة وقد قررت ان أجيء معك... ليس من السهل العثور على الكتاب الذي اريده وسط هذه الغابة من الكتب.

قلت مع نفسي: ماذا لو عرف؟ وهل استطيع أنا الجاهل في إستعمال السلاح أن أخرج المسدس، ومثل رامٍ ماهر ألتفت وأصوب الى مكان قاتل في جسده؟... والمدهش أصوب أين؟ أين قلبه؟ إنه مثل هيكل عظمي... توصلتُ الى المسدس... ما إن مست أصابعي مقبض المسدس حتى قال الرجل بصوتٍ بارد:

– أترك المسدس... والآن جهز الاسطوانات...

هنا أنهرت تماماً، لان هذا الهيكل العظمي يعرف أدق دقائقي... رجوتهُ ان يسمح لي أن اجلب بدلاً من الحاكي والاسطوانات جهاز تسجيل صغير وعدة أشرطة... وافق... قلت بصوتٍ ميت:

– ألا أحتاج الى ملابس غير هذه التي أرتديها؟

– لا لا... هذه الملابس كافية...

أخذت الكتب والأشرطة، وجهاز التسجيل الصغير، ووضعتها في حقيبة جلدية، وتبعته، خارج البيت مسكني من معصمي، وساقني مثل الشاة... من بعيد رأيت عدداً من الشبان يسيرون ويتكلمون بحماسة عن فلم شاهدوه قبل قليل... قلت مع نفسي: يالسعادتهم... إنهم أحرار... لماذا لم يلتفتوا إليَّ، لماذا لم يلتفتوا إليَّ ولو للحظات... مرّ سكير، وألقى نظرة مضببة على الهيكل العظمي، وقال: ما هذا؟... إنه حتماً عوج بن علق... وأطلق ضحكةً طويلة، وسار بخطوات مشلولة. سارّ بي الهيكل العظمي من زقاق الى آخر... كانت المصابيح تلقي ظلالاً بنفسجية جميلة، وتبدو البيوت من خلالها كأنها ديكورات لمسرحية تراجيدية حزينة. وكأن المارة الذين يسيرون بعجاله كما لو انهم مطاردون يدخلون الأزقة ويضيعون في الظلام المخملي... مررنا بكشك مُضاء بمصباح بلون الدم المتخثر، وتحته رجل لهُ وجه مستطيل حزين يغني بصوتٍ رخيم، إنتظر ولو دقيقة... فلن يطول إنتظارك ايها الحبيب... دخلنا زقاقاً آخر... على شرفة بيت من طابقين

رأيتُ فتاةً ترتدي منامه شفيفة بلون الفستق الطازج، وقد رجلت شعرها على طريقة مثيرة فوق رأسها، وزرعت خلف أذنها وردة أشرفي صفراء... أرسلت يدها اليمنى في حركة مسرحية وهيّ تنظر إليّ وتطلق ضحكات على شكل هدهدات بوق في سيمفونية... بعد مسيرة ساعة أو أقل وصلت الى بيت طيني... ومن خلال الباب الخشبي المفتوح على مصراعيه لمحت صحن البيت الواسع في وسطه عدة نخلات طويلة ميتة، وفتيات صغيرات شبه عاريات ينظرن بوجل الى عدد من الأعراب يضربون على الدفوف، وأصوات نساء تردد بصوتٍ مؤلم: هذا مقدر يا حبيبي... هذا مقدر... بعد منتصف الليل صرنا خارج المدينة... جاءت سيارة غريبة الشكل دفعني الرجل فيها وجلس بجانبي... كان وجه السائق يشبه وجه حصان مريض... من شدة إضطرابي، وغرابة المكان ووحشيته، ووجه السائق الحصاني، وألام الطعنات التي راحت تعوي بقوة في جسدي، أغمي عليّ... مع الفجر رأيت نفسي في مكان صحراوي ووسط عدد من البيوت الطينية القميئة المهجورة، وصمت قبري أخرس يلف الأرض والسماء، أدخلني الهيكل العظمي غرفة طينية صغيرة فيها نافذة واحدة، وسرير خشبي عتيق عليه حشية ملونة بطريقة سريالية... كانت الغرفة أكثر كآبة، وبؤساً من تلك الغرفة المظلمة التي تنقلت فيها مع مهيار القادري، والتي برغم بؤسها فيها تفتحت روحي وفكري... دخل الهيكل العظمي ولدهشتي الشديدة علق لوحة پول غوغان الرائعة التي تحمل عنوان –من نحن من أين جئنا– وبعد قليل علق خلف السرير فوق رأسي لوحة كثيرة الشبه للفنان نفسه بعنوان –المسيح الأصفر– ركزت بصري في اللوحة... كان الوجه الاصفر الحزين يشبه وجوه أناس عظماء عرفتهم وقرأت عنهم... بالحركات الباردة التي دخل بها الغرفة نفسها غادرها، تكورت فوق السرير، وسمعت بعد عدة دقائق أصواتاً خلف الباب والنافذة الوحيدة الموجودة في الغرفة. في اليوم التالي بعد الظهيرة شعرت بجوع شديد، وعبثاً إنتظرت الرجل ان يقدم لي شيئاً لآكُل... خلف النافذة رأيت وجه الهيكل العظمي المخروطي يشير بذقنه المدبب الى صور المسيح... لأول مرة برغم كل عذابي، وآلامي أطلقت ضحكة قوية وأنا ارى وجههُ الكاريكاتوري وهو يتحرك مثل رأس دجاجة عندما تشرب الماء... إلتفت بخضوع الى صورة المسيح، ثم الى النافذة التي لدهشتي لم تعد هناك... قفزت من فوق السرير وهرعت نحو الباب فإذا بي أمام جدار طيني... آه... لقد جصص باب الغرفة، وكذلك النافذة من الخارج... تجمدت شدها في مكاني، وإستسلمت

رغماً عني لغمٍ رهيب... بعد مدة من هذه اللعبة الدرامية، جلبت جهاز التسجيل واستمعت الى مقطوعة جنائزية لشوبان، وبيد مشلولة من السهر والجوع، والألم، إلتقطت مسرحية هاملت، وبأصابع مخدرة فتحت الكتاب لا على التعيين وقرأت بصوتٍ راعش:

ولِم لا؟ ما الخوف

إنني لا أثمن حياتي بفلسين

روحي، فما الذي يستطيع ان يفعل بها، وهي خالدة...؟

بدأ نفسي يضيق ، ودوار مؤلم بألتواءات مظلمة راح يهز مخي، وقلبي، ثم برفق كل جسدي... قلت لنفسي: يا كمال سعيد العلي لقد اصبحت في مساء حياتك... ضاقت نفسي، ورحت اتنفس مثل سمكة منتزعة من الماء، وتذكرت كلمات فاتح الاسكندرية عمرو عندما قال (أشعر كأن السماء قريبة من الأرض وانا بينهما، اتنفس من خرم إبرة...)

***

توقفت عن القراءة، قالت وقد لاحظت ومضات حادة في عينيها: إستمر... لماذا توقفت عن القراءة...

أخذت الأوراق والقت عليها نظرة حنان طويلة، ولأول مرة رأيت الدموع تتلألأ فوق أهدابها... إلتفتت إليّ بكامل وجهها... كانت نظراتها المضببة تعبر عن أمض حدود الغضب، قالت وهي تطلق آهة حارة،

– تصور حتى في أحلامه كان إنساناً رائعاً...

– أعرف كانت روحه مثل فارس حقيقي تتألق دائماً بنبالة...

***

إنتهت من الاكل وبحركة سريعة وضعت بقايا الصمون في برميل صغير للقمامة، وبمنديل ورقي مسحت عينيها وفمها، ورفعت رأسها عالياً، وراحت تراقب سحباً لؤلؤية تهرول، وكتائب من الطيور هيجها الربيع الساحر، أخذت تتموج في السماء وتطلق أصواتاً مثل الثغاء... قالت:

– متى تكون مستعداً؟

– الوقت الذي تقررينه أنتِ...

– هل المكان الذي اقترحته لقتله ملائم؟

– جداً... إنه مكان بعيد عن المدينة، وصامت...

جيد... إذن إتفقنا... يا مهيار، كان المرحوم عندما ينفذ عملاً صعباً يردد كلمات هيبوقراط (ما لا تشفيه الأدوية يشفيه الحديد، وما لا يشفيه الحديد يشفيه النار)... قاتلهُ يعيش الآن في جنه الغفلة... مثلما إهتديت اليك أهتدي بعد بحث وصبر طويلين إليه أيضاً... لا... لن أغفر له... صدقني إنني أحتقر العنف.

– أنا أكثر.

– لكنني لن أعفو عنه...

– هل ثمة من يعرف بعلاقتكما؟

– طبعاً لا... إن غضبي يا مهيار علمني ان ارتب كل شيء بمنتهى السرية.

– رائع.

– ما رأيك غداً؟

– لا مانع.

– سأذهب وأياه الى المكان الذي أقترحته.

– جيد...

– سأهاجم عليه مثل الطائر الخناق الذي يقتل فريسته خنقاً... أصنع له ثقباً كبيراً في رأسه...

– يالقوةِ غضبك...

– أنت إنسان بارد الأعصاب يا مهيار... ليتك تشعر بميكانيكا الغضب المقدس عندما يعمل في الأعماق...

– أشكُ أن تفقدي السيطرة على نفسك.

– وهل حقاً يفقد الأسپرطي السيطرة على نفسه؟ حسن... غداً... أراك للمرة الاخيرة، وأُودع صديقتي التي كنت اعيش معها في مدينتك، غداً نفترق الى الأبد... إلتمع في عينيها وميض فرح فكرّني بوميض نظرات المرحوم... أطلقت آهة لذيذة، وقالت: وداعاً... تذكرني مع شوبرت.

الميثوبي(*)

الى: ياسين النصير.

بعد ربع قرن من الكتابة، لأول مرة تسلمت أغرب رسالة من فتاة تلتها بعد ذلك رسائل عديدة، مثيرة وجميلة...

عزيزي الأستاذ س . ع

تحية...

بصراحة عارية، إنني معجبة بقصصك... إنها تجعلني أهرب من نفسي... ولست أدري لماذا كلما قرأت لك قصة تصورتك من النوع الذي يصعب على اية لغة، أو كلمات حنان أن ترهف من قسمات وجهك الذي لم أره حتى اللحظة التي أسطر فيها هذه الكلمات... أتصورك رجلاً جاداً مقطب الوجه بأستمرار... هل انت كذلك؟ كما لا أعرف كم تبلغ من العمر... أحترم في شخصيات قصتك صمودهم العنيد... انهم لا يعرفون الإستسلام أبداً، ويعشقون قدرهم بهلوسة، وفي أصعب الأزمات هم منضبطون إنضباطاً اسپرطياً صارماً... ومثلما يجيدون فن التمتع بالحياة بسهولة غريبة أوقات الطمأنينة، كذلك يتمتعون فيها في المنعطفات الصعبة... قدرهم ان يتحطموا عند الضرورة، إنهم ممتلئون بالحماسة، ومن أجل حقائقهم يلتهبون... مسالمون، لكن عندما تحاول أية قوة خارجية تشظية سكينتهم بطريقة غير أخلاقية، وشيطانية، يقفون بعناد صلب لكي لا يُخدعوا في مُثلهم ومصيرهم... لكي نناقش بعمق اكثر أدعوك الى أن تأتي لزيارتي في بيتي على العنوان المدون في أسفل رسالتي...

ملاحظة: أعرف انك لن ترد على خطابي هذا... كما أعرف انك لن تجيء لزيارتي، وانا، لكي اريح قناعتي فقط اكتب لك، على اي حال، سأعيش في آفاق من الأحلام مع كاتب أحترمه.

المخلصة

هـ.م

(*) نشرت في مجلة آفاق عربية العدد الثاني عشر كانون الاول ١٩٩١

كنتُ على صواب، وعبثاً أنتظرت منك جواباً..بدأت أتحرى عنك... التقيت عدداً ممن يعملون في دنيا الأدب، هم قلة في كركوك الحالمة... قال لي أحدهم أنك إنطوائي من النوع الأخرس... وأضاف آخر:

– أن تتعرفي، وتصادقي إنساناً مثل س. ع يعني ان تجري وراء سراب مبهم، فارغ، لكن كل الذين عرفوك اكدوا لي انك برغم عزلتك الشديدة، إنسان بسيط جداً، بسيط مثل الحب الحقيقي سأحاول أنا الأخرى... لم لا... ظلٌ باهت من أمل خير من لا أمل... عرفت اين تسكن... هذا الصباح في العاشرة رأيتك تخرج بخطوات قصيرة الى الشارع الرئيسي، إنتظرت سيارة المصلحة طويلاً... مررت أمامك ثلاث مرات... ثلاث نظرات طويلة وعميقة غيرت كل تصوراتي عنك... إنك حوالي في الثانية والاربعين، وما زلت وسيماً برغم بياض شعرك وجهك كما يقول العاملون في السينما – فوتوجينك– آه، لقد أحببت شكلك مثلما أحببت قصصك... واثقة أنك بارد العقل، واتصورك تطلق القهقهات من رومانسيتي السخيفة، ومن عبثي البريء... هل حقاً ستسخر من نشاطي القلبي و الفكري أتجاهك؟...أنت حر... لكن ألا تعتقد ان الرغبة الإنسانية الحارة تخلق طقوساً غريبة وشاذة بل قريبة الى الجنون العاقل؟؟ عدت للمرة الرابعة ومررت أمامك، أرسلت إليك هذه المرة نظرة توسل خفيفة... كنتَ تائهاً شارداً، متشظي الذهن... وانا عبثاً أحاول الولوج الى حدقتي عينيك، أخيراً جأت سيارة المصلحة... وأختفيت في جوفها... حتماً كنت في طريقك الى منطقة أحمد آغا... لقد سمعت انك تتسوق من سوق القورية... اشك جداً في ان تجيب على أسئلتي... غير انني لن انقطع عن الكتابة اليك.

المخلصة – هـ.م

***

عرفت من خلال تحرياتي عنك أنك تكون مساء كل خميس في مكتبة الطليعة... في الخامسة اوقفت سيارتي وتوجهت لآراك لأول مرة عن قرب شديد... أعرف ان الفنان يكون منضبطاً، ومهندساً بارعاً حين يبدع فقط، أما خارج عالم الأبداع فهو روح تائهة، شاردة كما لو أنه خارج الزمان، اواه، لقد كنت شارداً شروداً مثيراً، فجأة سألت عن سعر الاعمال الكاملة لدستوفسكي في طبعتها الجديدة، ولما ذكر السيد احمد السعر أطلقتَ صافرة طويلة صُوبت على أثرها عيون الحضور عليك، ثم غادرت

المكتبة بطريقة حزينة... حزينة جداً... آه، ايها الميثوبي، لو تعرف اي ألم أسيدي إنصب على قلبي لحظة اطلقت ذلك الصفير المفجع، ووجهك جامد بسبب سعر المجموعة وأمثالك لا يملك ذلك المبلغ... سأرسلها قريباً جداً... تبعتك... ذهبت بأتجاه مقبرة السيد علاوي، ومثل متشرد دخلت بخطوات كسولة الشارع المؤدي الى ساحة طيران...

هـ.م

***

بعد أيام وبطريقة أذكى من شارلوك هولز وضعت لك مجموعة من أعمال دستويفسكي الكاملة في مكان ما في بيتك... أنا سعيدة الآن... هل جربت اللذة الايقاعية للحب النقي؟ قبل ان اوصل لك المجموعة ظللت طوال الليل أعاني من الإحتراق الإيقاعي للعذاب، وصافرتك ترن في اذني... أما الآن، فأشعر باللذة الإيقاعية للسعادة الخفية لأنك حتماً سعيد وأنت تتأمل صورة دستويفسكي بوجهه المتجهم الحزين الغامض غموض الكون على غلاف كل مجلد.

هـ.م

***

ما زلت تتجاهلني، وأشك ان تسأل عني ذات يوم... وانا منذ هذا اليوم ، وبعد ان أنتقلنا الى بيتنا الجديد، قررت ألا أتعرف إليك شخصياً الى الأبد، وأنت لن تعرف عنواني الجديد، لكنني لن اكف عن مراسلتك، ومتابعتك، وأظل ايها الميثوبي أرهف سمعي في كل مكان لأسمع أخبارك، وأترقبك كما يترقب النورس العاصفة... أما انت! فلن تراني، وأعرف جيداً ان هذا الكلام لن يقدم او يؤخر لك شيئاً.

هـ.م

***

من مثل الإنسان عديم الصبر، ومن مثله ايضاً عديم الصبر والتحمل عند الضرورة... أنا عديمة الصبر، ربما بحكم تركيبتي كإمرأة معجبة بحرارة بك، وإنت بدورك عظيم الصبر لأنك كمبدع تعرف كيف تسيطر على اعصابك، ربما أيضاً روح الفنان انامت فيك شهواتك، حرارتك، ودفعتك الى حرارة الخلق،... أمس، في الليل، عبثاً حولت بشتى الطرق ان اجلب الى عيني النوم، غير ان مُقلتي ظلتا ترسلان النظرات الى الفراغ من غير ان يرف لي جفن... وساوس كثيرة وغريبة كانت تلسع رأسي وأنا اتقلب في السرير مثل إنسان مسموم... ماذا حدث لي؟ لقد عثرت في عددٍ قديم في مجلة على صور جميلة

لك وانت شابٌ بعد... ربما الصورة أصابتني بالعين... ها ها ها ها هل تؤمن بالحسد؟!... أنا اعرف انني لن احصل من هلوستي معك على شيء... حسبي تلهفي والحنين... هل تتذكر ما قاله دكابو في رواية – بالثازار(*) (المقامرون والعشاق يلعبون ليخسروا) أنا لا أعير كبير الاهتمام للربح أو الخسارة... قد للخسارة أكثر، لأن الخسارة سرٌ مفتوح... لدي إحساس قوي أنك تقرأ كلماتي هذه وانت تطلق ضحكات هي مزيج من السخرية والاعجاب.

ملاحظة: سألتَ صاحب المكتبة السيد أحمد النعيمي فيما إذا كانت اية فتاة أشترت المجموعة الكاملة لدستويفسكي، فأجابك بـــلا... ها ها ها ها... لن تعرف بخططي...

هـ.م

***

لقد علمت أنك تعاني من ضائقة مالية حادة... لقد وضعت لك في المكان نفسه الذي وضعت فيه مجموعة دستويفسكي ثلاثمائة دينارا، إغفر لي تصرفي، بل انظر إليه بقطرات من الحنان... ايها الميثوبي من حقك ان تقبل الهدايا من معجبيك... إسخر كما تشاء من بورجوازية سخيفة... اسمح لك ان تدينني بالسخافة، لكن يصعب علي ان أراك تعاني مادياً... أرجوك لا تغضب من فعلتي...

هـ.م

***

لقد توقفت عن الكتابة لك أكثر من شهر... أنت تعرف قفزات الأفكار، ووثباتها المجنونة، وشطحات العواطف الباردة، والحارة، وتشظي الخيال... إلهي، كيف تتحمل عزلتك الرهيبة في ذلك البيت الصغير... هل يعقل انك غامض لهذه الدرجة، ولم يستطع اي ممن عرفوك ان يفهموك أنت مستوحد غريب تعيش قيمك الخاصة... ورافض لأي تواصل مع الناس. كيف عساي ان أفهمك! يبدو عبثاً أحاول مهما حاولت، واوتيت من معرفة والحدس الانثوي، فلن استطيع إكتشاف أكثر من جزيرة صغيرة في قارتك. ما قيمة الجزيرة بالنسبة الى القارة... ثم ماذا... ان مجرد المحاولة بالنسبة لي لذة، متعة، قشعريرة...

هـ.م

(*) بالثازار، رواية الكاتب الانكليزي لورنس دريل.

أمس رأيتك متعباً، تمشي كعادتك بخطوات قصيرة... كانت عيناك برغم سعتهما... وجمالهما، خاليتين من التعبير، قلت مع نفسي، حتماً نهض لتوه إما من الكتابة، أو القراءة... آه... خفف من التفكير قليلاً... أرح ذهنك... لا يمكن ان تبقى في حالة إنذار وتعبئة مستمرة مثل العسكر... ايها الميثوبي ما قيمة المجد؟ هل المجد ضروري؟ وهل ضروري ان يتذكرك الناس بعد رحيلك؟ هب انهم تذكروك؟ ماذا يفيد... ايها الميثوبي لا تعذب نفسك كثيراً... لكن اعرف ان العذاب هو قدرك اللذيذ.

هـ.م

***

معذرةً لتأخري في الكتابة لأكثر من شهر... أمس قال صديق، هو الآخر معجب بك، لكنه ينفر من وحدانية سلوكك، وصمتك، وعزلتك... قال لي انه ذات مرة قال لك، صحيح انك كاتب موهوب، لكنك تتصرف مثل الارستقراطي أحيانا... فأجبته انت: أحياناً؟... بل دائماً، هل تعرف معنى كلمة ارستقراطي بالضبط؟ أجابك بالنفي... قلت له: إنها كلمة أغريقية – اريسنوس– تعني الأروع... اليس من حقي ان اتصرف كأورستقراطي؟... سحت دموع حارة من عيني وانا استمع لهذه الحكاية، وتحول بكائي الهادىء الى ضحك هستيري... آه... أيها الأروع بحق... أنت حتماً تعرف البكاء... هل ثمة ما هو اجمل من البكاء... هل أذكرك بكلمات رامبو عن البكاء؟(كنت اسكب كثيراً من الدموع... لقد تركت جميع دموع جسدي تنتهي هذه الليلة)... لقد بكيت أكثر من جميع اولاد العالم، لماذا اكتب لك بهذه الحرارة وانا لا أحبك،

هـ.م

***

أتعرف انني قبل أيام إحتفلتُ بعيد ميلادي الثلاثين؟ الترف البورجوازي، ورفه الحياة التي عشتها، والحب المجنون للقراءة، ونزواتي البرجوازية النزقة أحياناً ابعدتني عن التفكير نهائياً بالزواج. كنت اريد ان ابقى في أدغال شبابي، وحيدة، حرة، أعيش دائماً في نشوة ندية، ابدد النقود بعبث الاطفال والمقامرين... لكنني بدأت اخشى، وأشعر ان الربيع لم يعد ينسل من خلالي، هناك شاب وسيم يحبني منذ سنتين... لكنه إنسان غامض أحياناً، وسطحي جداً أحيانا...

أخشى انه يوارب أمراً... أعتقد ايها الميثوبي ان الغامضين من الرجال يتلذون بأن

يخفوا اسراراً بطريقة غريبة ومعقدة... تصور أستفزهُ أحياناً، واتصرف معه بقوة وجلافة الريفيات، فإذا به، بهدوء يقول لي، يا عزيزتي مارسي معي مزيداً من قسوتكِ الجميلة، انها تضفي عليكِ هالة من الهيبة، والفخامة... ثقافته محدودة جداً، غير ان سلوكه الإجتماعي كرجل أعمال رائع ... إنه يؤانس الأخرين بطريقة ساحرة كما لو كان يعرفهم منذ زمن... يتكلم برقة مثيرة، يندفع الى اي إنسان اقدم اليهِ بوجه باسم... الجميع يشعرون معه بالطمأنينة، والأنس... لقد بدأت أحبه أنا الأخرى... دعوته لزيارتي... خطا الى الغرفة على رؤوس أصابعه ووارب الباب بهدوء، وبعينين ناعستين مسح الغرفة التي كانت مضاءة بمصباح خافت... كان كل شيء بلون الليمون، لوني المفضل.

قال وهو يجلس قبالتي: لغرفتكِ نكهة خاصة...

عرفت انه كان مخدراً باللذة، لأنه يحبني بجنون حقيقي، قلت محاولةً أن أستفزه:

– لا أريدك ان تحبني بثقة كبيرة.

– لماذا؟ أنا أرى بأنه يجب ان أحبك بثقة كبيرة.

– لا لا... مثل هذا الحب يجعل صاحبه أعمى... لا أريد مثل هذا الحب...

– حسن... كيف تريدينني أن أحبك!

– لا أعرف... أنا لا أريد ان تخترع لي صوراً كثيرة في ذهنك.

– أنا لا أفهمك أبداً.

– لماذا تحبني؟

– مسألة خارجة عن إرادتي.

– لا لا... إنك بحبك لي بهذه الطريقة تريد ان تخفي ذاتك.

– أخفيها!!... أين؟

– فيّ أنا...

– لِمَ لا...

– لكنني لا أعرف متى، وكيف أنفصل عن الأشياء، عنك، عن الأخرين، وأذهب بعيداً...

– تذهبين الى أين؟

– الى نهاية الدنيا... الى حريتي... الى عبثي... الى هلوساتي...

– حسناً... وأنا أعدكِ بأن أتركك لحريتك... ولن أسال عنكِ حتى إذا هجرتيني الى الأبد... لكنني أبقى أحبكِ...

– آه... أيها المثيوبي هل أثق بهِ...؟؟

هـ.م

***

مرة أخرى تأخرت في الكتابة لك، هذه المرة لأكثر من شهرين، تزوجت أيها المثيوبي... ذهبت مع زوجي بعيداً... لقد عشنا أياماً بلورية رهيفة، تطاردنا النشوة، والسعادة تمطر علينا بسخاء يصل حد الخرافة، كنا سكارى من حب لم نجد له إسماً، بل حتى لم نعرف أسم المكان الذي كنا فيه، ومن شدة شرودنا أسمينا نهراً بنهر النشيج، ربما لانه كان يُصدر صوتاً مثل النشيج... كنا نبلل جسدينا ونرتعش مقلدين عصافير كانت هي الأخرى تسبح على مبعدة أمتار منا... آه... كيف لم يغم عليّ من فرط السعادة؟ هناك أكتشفت ان السعادة الكثيرة خطرة جداً...

هـ.م

أيها الميثوبي، برغم إقتراني برجلٍ أُحبه، سوف أظل ألازمك ملازمة الظل... وقد أكون كاذبة... لا تثق ببرجوازية نزقة...

هـ.م

***

زوجي يخشى ولو بطيبة قلب أن يخدش مشاعري إنه حذر بإستمرار، يراعيني بفيضٍ من الحنان الناعم... ومثل اي ثري، امس جلب لي حجر زبرجد أخضر زنجاري اللون مغلفاً بالذهب... أجدادنا القدماء كانوا يقولون ان الزبرجد يحد البصر ويقويه، وينشط النفس، يقول الإمام جعفر الصادق: ما أفترقت يد تختمت بحجر الفيروز...

أيها الميثوبي هل أرسل لك حجر الفيروز؟ أتخيلك ضاحكاً... من يقول أننا لن نفترق؟ أقصد أنا وأنت... كم أنا سخيفة؟

هـ.م

***

أمس قرأت لك قصة جديدة... ياللذاذة عباراتك، ياالوقع كلماتك في مكانها الملائم، في

القلب، في الروح، في المشاعر... بالحسك اللغوي الرهيف، وتلك السخرية الناعمة اللذيذة أحياناً، والكاوية أحياناً أخرى، التي تسدها بأستذة في ثنايا أسطرك، وبالذاك التنويع والضربات والايقاعات الجميلة، كلها تجعل حتى قصصك الضعيفة جميلة أثناء القراءة... من أين تأتي بكل ذاك الهياج الغامض والمثير من الأفكار؟

هـ.م

***

قبل أسابيع عرفني زوجي بشاعر شاب، وعرفني هذا بدوره الى عدد من الأدباء... إستمعوا إليّ بأنتباه لاهب عندما تكلمت عنك وعن عالمك... هم أيضاً عابوا عليك وحدتك الخرساء فقط... إستمرت لقاءاتي معهم عدة أسابيع، سرعان ما قرفت من لغتهم، وفجاجتهم، ونكاتهم البذيئة، ومزحهم السفيه، وإعجاب بعضهم ببعض بطريقة كاريكاتورية، وسطحية أفكارهم، جعلتني أسترذلهم كـ(شلة)، وتركتهم...

هـ.م

***

ألم تشعر ولو لمرة واحدة بشفقة ملتبسة نحوي؟ الى متى تبقى تعاملني بشموخك الغريب ؟آه... وهل انا أكثر من إنسانه تائهة في ضباب مخيلتك... لماذا أعاتبك وأنا أقسمت ألا أتعرف عليك؟أخبرني أيها الميثوبي(*)

أيها الروح الحبيبة ما مذاق سلام الروح، ما مذاق العزلة الخرساء؟

هـ.م

***

وحيدة مع نفسي ... أنظر بأنتشاء الى النجوم المتباعدة، المضيئة، مثل اليعاسب في الليل المخملي، الليل المخملي أغراني أن أراك غداً، أو بعد غد... سأتلصص عليك، لا حيلة لي سوى التملص... ثمة متعة في التملص... اليس كذلك؟

هـ.م

***

ذات مساء ذهبت لأشتري أغاني جديدة للأسپاني الرائع خوليو اكليسياس من محل

(*) الميثوبي: كلمة أغريقية تعني، سأصنع الأساطير.

دار الالحان... لخوليو صوتٌ ندي، هامس، دافيء... بالمصادفة المحضة رأيتك تكلم صاحب المحل الذي كان يجاملك بلطف... إلهي، كم بحميمية كنت تكلمه عن الأغنية الفولكلورية التركمانية... لقد أيبستني الدهشة، وأنا أستمع إليك وانت تكلم الرجل عن أبرز مغني الخوريات(*): رشا كوله رزا، إسكندر طوزلي، علي قلعالي، احمد بامبوغجي، وقزل آي... ايها الميثوبي، انت تتحدى الزمن... الزمن لن يتحرش بك أبداً... أيها الخالي من الخبث والانانية... وضعت خوليو في حقيبتي وغادرت المحل... في الأمان ايها الوحيد... أيها السعيد.

هـ.م

***

الاشهر تَمُر... زوجي يشتكي من حزن لازمه، وكآبة هبطت عليه مثل مرض شديد الوطأة..كيف يشعر من لا هم له سوى شهواته، وبطنه، وتجارته بالكآبة؟ ربما خسر صفقة كبيرة..إنه مثل والدي... ليس أكثر من عدة مئات من الآلاف من الدنانير... ان طبيعة عمله في التجارة تحتاج الى نفاق، تدليس، قسوة، براعة شيطانية... إنه عالم دنس، اليس كذلك؟ تصور كم سخيفة أنا، وأعيش في جوٍ سخيف... أما أنت ايها المستقيم الذي احسن القدر معاملتك، وسخر مني...ترى هل ستحولني ذات يوم الى مادة أدبية؟ أكتب عني بطوفان من القسوة، صفني كما عرفتني من خلال رسائلي، قل عني بورجوازية، متهورة، نزقة، تافهة، قل أي شيء... فقط قل...

هـ.م

***

معذرةً لتأخري في الكتابة... كم شهراً مضى على صمتي... هذه المرة أنا أصبت بكآبة دبقة... جلب زوجي رجلاً مهرجاً معه، قال انه يستطيع ان يخفف عني كآبتي... هذا الرجل فعلاً يجيد ترصيع أحاديثه بالنكات العميقة والمليئة بالحكم تارة، وتارة بالسخافات... والغريب ان وجه هذا الرجل المهرج يبقى جامداً مثل القناع عندما يتلو نكاته، بينما نروح نحن في ضحكٍ هستيري، ويرسل هو إلينا نظرات تعجب ويسألنا ببرود: لِم كل هذا الضحك؟... هل حقاً قلت شيئاً يُضحك؟سألته ذات مرة لِم لا تضحك معنا؟ قال: لأنني بخيل جداً... قلت ما علاقة البخل بالضحك؟ قال: لأن الضحك يحتاج الي بدل مجهود... إلى عطاء... وأنا غير مستعد للعطاء... صدقني أيها الميثوبي أنه بعد

(*) هي أغاني تركمانية فولوكلورية

الكأس الثانية يهرج بطريقة مهرج الملك لير نفسه ، حدثني ذات مرة عن إمرأة كان يعرفها مشهورة بسوء سمعتها، وشديدة الأعتزاز بتلك السمعة السيئة... سألته: كيف ولماذا تعتز بتلك السمعة؟

قال: لأنها تقول أن السمعة السيئة لها شهرتها، وجاذبيتها أيضاً... ها ها ها ها ذات مرة قال: اتعجب لماذا لا تستطيع النساء ان يتمتعن باللذة من اللقاءات الصغيرة، قلت لأن المرأة لا بد أن تحب أولاً، وتعاني ثانياً ثم بعد ذلك تأتي اللذة... قال بسخرية: لِم هذه المازوكية، والتورط العاطفي، والانفعال لعدة أشهر... ثم أين الوقت الكافي لمثل هذه اللعبة... وأنت ايها الميثوبي ، هل جربت اللذة الصغيرة والعابرة؟!

هـ.م

***

نحن على أبواب الشتاء وضعتُ لك مبلغاً في المكان نفسه... تمتع به بطريقتك الخاصة... انت أجدر به مني ومن زوجي.

هـ.م

***

كم شهراً مضى على توقفي عن الكتابة لك؟ لا أعرف، لكنني أعرف إننا الآن في الربيع... نفورٌ شديد بدأ ينتابني من كل شيء... طلبت من زوجي ان يتركني وحدي عدة أسابيع... لا أعرف أين هو الآن إنني وحيدة مع نفسي من حوالي شهر... أيها الميثوبي أشعر أنني سرابٌ فارغ... مجرد خيالات هاربة... لم يعد حتى ذلك المهرج يثير إنتباهي... قبل أيام قلت له إنك مهرج تافه... قال وهو يغادر البيت بأدبٍ جم: التهريج يا سيدتي حكمة... كم أنا تافهة أحياناً.

هـ.م

***

مع مجيء الخريف أفقد الحماسة لكل شيء... حتى لك ... أرى من الحكمة أن اكف عن الكتابة لك، واترك لخيالي وحده مطاردة المجهول، ايها الميثومي سأبقى أتذكرك وأنا ممتلئة بأحزان غامضة... لم تعد الكتابة إليك تثيرني، سأتوقف بعد هذه الرسالة، واكتفي بمطاردتك في خيالي فقط... إغفر لبرجوازية سخيفة هذيانها... وانت إذا رفضت ان تغفر..... وداعاً...

هـ.م

جروشنكا(*)

لو كان كل شيء معقولاً، لما حدث شيء في الأرض البتة

دستويفسكي...

الى: سامي محمد

كان الوقت مساءاً عندما توقفت أمام بيت أجرافينا الكسندروفنا جروشكنا... سحبت حبل الجرس ثلاث مرات من غير ان أسمع رنينه... كنت أرتجف من البرد، وانفض رقائق الثلج من على معطفي وغطاء الفرو فوق رأسي... كان البخار يتدفق من منخري، ومن فمي كما لو أن ثمة مرجل صغير في صدري يضخ بخاراً حاراً، أردت ان أمد يدي لأسحب حبل الجرس للمرة الرابعة، فتحت شابة واسعة العينين، نحيفة، عرفت إنها خادمة فينيا... أرسلت إليّ نظرة تعجب وقالت بصوت مضطرب : نعم ماذا تريد؟؟

قلت: مساء الخير يا فينيا... لماذا انت مضطربة؟ هل جروشنكا في البيت؟

– تقصد مولاتي اجرافينا الكسندروفنا؟

– نعم... اجرافينا الكسندروفنا.

– تقول جروشنكا... تناديها بأسم التحبب كما لو كنت تعرفها منذ مدة طويلة... هل لديك موعد معها؟

– موعد؟... وهل يجب ان يكون لي موعد معين لكي ارى جروشنكا؟

– طبعاً... ماذا؟ يبدو أنك تعرفها منذ زمن طويل؟

– يا فينيا ...ان اجرافينا الكسندروفنا هي صديقة عزيزة لجميع من تعرفوا عليها بصدق...

– وهل تعرفت عليها؟

– طبعاً؛ وإلا لما جئت... هل يعقل ان أقوم بزيارة إنسانة لا أعرفها؟

– حسناً... من نقول لها ينتظر؟

– صديق؟! مجرد صديق... من غير إسم.

(*) نشرت في الأقلام العدد ١ــ٢ السنه السابعة والعشرون، كانون الثاني.

– ألهذه الدرجة تعرف مولاتي؟

– يا عزيزتي فينيا عليك فقط إخبارها بأن صديقاً يكن لها إحتراماً كبيراً ، ومودةً خالصة، بل حباً شديداً، يريد ان يراها... الخدم يا فينيا يجب الا يكونوا شديدي الفضول... هيا إذهبي...عادت بعد قليل وهي اكثر إضطراباً وقالت:

– سيدتي تقول انها ليست على اي موعد مع اي صديق، ولديها ضيف عزيز ولا تستطيع ان تستقبل اي شخص... هل انا واضحة؟

قلت: أعرف ان اليوشا عندها، وأنا منذ مدة أبحث عن اليوشا أيضاً... الجو بارد جداً يا فينيا، إسمحي لي بالدخول... ماذا؟ لا تُحسين بهذا الزمهرير...

– لا بد ان اعرف أسمك أولاً.

– إسمعي... حسنا... قولي لها ان اسم ضيفكِ هو جليل القيسي

– ماذا؟

عبثاً حاولت ان تلفظ إسمي ، رددت اسمي لها عدة مرات... قالت:

– هل انت طبيب... محامي؟... مسؤول حكومي...اسمك غريب

– يا فينيا قلت لك بأن الخدم يجب ان لا يسرفوا في الفضول ... لا لست طبيباً ولا محامياً ولا مسؤولاً كبيراً... أنا ضيف.

رددت كلماتي في الاخيرة بنبرة غضب، فأسرعت تخبُ أمامي وهي تنادي بصوت مخنوق، يا مولاتي اجرافينا الكسندروفنا... مولاتي ... لقد اقتحم هذا السيد البيت... إلتفتت إليّ وهي تشير الى باب الغرفة.

– إذهب الى غرفة الجلوس...

أخذتني الى غرفة جيدة التدفئة سرعان ما شعرت بحرارة لذيذة تدب في جسدي المقرور، وفي وجهي المخدر... خلعت معطفي وغطاء الرأس، وتهالكت على أقرب مقعد... بعد قليل سمعت صوتاً ناعماً، رقيقاً يقول:

– حسناً يا اليوشا اكتب لها رسالة قصيرة وأعتذر لها عن المجيء... بعد قليل تموج صوت اليوشا في الغرفة الاخرى، وهو يقول: فعلاً يا جروشنكا... لن أذهب... اعرف أن ليزا حتماً ستستفزني كعادتها بكلماتها القاسية... والسماء كما ترين بدأت تثلج بغزارة...

بعد قليل دخلت فينيا وسألتني فيما إذا كنت أرغب في قدح شاي، أو كأس فودكا...

فضلتُ الفودكا... أشاع المشروب دفئاً لذيذاً في معدتي، ثم برفق في كل جسدي... طلبت كأساً ثانية، جلبتها لي الخادمة بطيبة خاطر وظل إبتسامة ماكرة على وجهها... قلت لها:

– أين مولاتك؟ هل أخبرتها إنني هنا؟

– نعم... ستأتي بعد قليل...

– ماذا قالت عندما ذكرتِ لها إسمي؟

– رفعت كتفيها بتعجب، وقطبت وجهها، وعبثاً حاولت ان تلفظ أسمك، مثلما لم أستطع أنا أيضاً... هل أنت روسي؟

– لا.

– قوقازي؟

– لا.

– تتري؟

– لا

– حتماً من سمرقند؟

– لا.

– إذن من اوزكند؟

– لا... أنا عربي من العراق... من مدينة كركوك.

في هذه الاثناء دخلت جروشنكا بخطوات واسعة، لم تنتبه الى وجودي، كانت تطلق ضحكات تشنجية، وثمة وميض حاد في عينيها الجميلتين، وهي تردد بصوت راعش، يا لك من ملاك يا اليوشا... ملاكٌ حقيقي... كانت اجرافينا الكسندروفنا متموجة القامة ترفل في ثوب حريري جميل... عندما رأتني جالساً والكأس في يدي، جَفت الضحكة على وجهها، وأنقلب ذلك الوميض في عينيها الى عتمة، عندئذٍ رأيت دموعاً صغيرة تسح على خديها، دموع ضحكتها الهستيرية كانت تشع مثل حبات اللؤلؤ... إستقبلتني بوجهٍ مقطب، مستجوب كأنني قمت بعملٍ مشين بدخولي بيتها... قالت بعد ان تمالكت نفسها، ومسحت بحركة مسرحية دموعها من على خديها الذين كانا بلون الارجوان... قالت بصوتٍ فيه القليل من الأضطراب: من أنت؟... ماذا تريد؟...

– ألم تخبركِ خادمتكِ عن إسمي؟

– لا لا... آآآ... نعم... لم أتعرف على إسمك... بالاحرى لم أسمع بمثل هذا الأسم... إسمك ثقيل على لساني...

– ربما... ولكن إسمي ليس أصعب من أسمك، حتماً كنتِ منهمكة في حديث حار مع ذاك الطيب اليوشا...

– فعلاً.

– اليوشا إنسان رائع... رائع.

– جداً... جداً... هل تعرفه؟

– طبعاً أعرفه... حتماً أنه الآن حزين... حزين جداً... بل هو حزين هذه الأيام... لموت شيخه زوسيما، ومأساة ديمتري... لكن زوسيما لم يمت... لا... لم يمت...

صاحت جروشنكا بصوت رقيق: اليوشا... تعال... تعال... إلتفتت إليّ وقالت: ماذا! الأب زوسيما لم يمت... كيف! لكنه مات فعلاً، نادت مرة اخرى على اليوشا: يا اليكسي فيدورفيتش... تعال بسرعة... لدينا ضيف... يقول ان الأب زوسيما حي...

بعد قليل دخل اليوشا بخطوات وئيدة وهو يرفل في جبته الكنسية... ألقى عليّ نظرة تعجب شديدة، ثم تبادل النظر لحظات مع جروشنكا في محاولة منه ليعرف من أنا، وماذا جئت أعمل، ولم لا أشبه أحداً يعرفه... قدمت له نفسي قائلاً:

– من حقك يا عزيزي اليكسي فيودروفيتش كرامازوف أن تتعجب...أنك لا تعرفني، لكنني أعرفك معرفة جيدة جدا... لقد تعرفت عليك منذ مدة طويلة. زادته كلماتي تعجباً أكثر. وأضفت: طبعاً يا عزيزي من حقك أن تنبهر، وترنو إليّ بدهشة... يحدث إنك ترى وجهاً غريباً لا ترتاح إليه، وقد تأخذ الظنون عنه... هذا طبيعي... لكنك بعد قليل من الحديث تكتشف ان صاحب هذا الوجه في الحقيقة إنسان دمث، طيب، اليس كذلك؟ أنك حتماً في الدير رأيت مئات الوجوه، وقوافل من الزوار... وأثق إنك تجيد التفرس في الوجوه... أظن يا عزيزي اليوشا أن وجهي واضح...

أخذ يدي بفتور وهو يتفرس في وجهي، وردد: أهلاً وسهلاً بك.

قلت: لماذا أخذت يدي بفتور! ما هكذا يصافح الروسي ضيفه يا اليكسي فيدوروفيتش، كان يجب ان تشد على يدي بحرارة... أنت روسي.

رسم على وجهه إبتسامة رقيقة على الرغم من أن نظراته ظلت باردة وزائفة.

قال: من اي مدينة انت ايها الصديق؟

– لماذا تسأل عن مدينتي؟

– لماذا لا تشبه روسياً؛

– في روسيا يا اليوشا قوميات عديدة... حسناً، أنا آسيوي...

– آسيوي من أي بلد؟

– من العراق... لكنك يا اليوشا تحب الإنسان لأنه إنسان... اليس كذلك؟

– نعم... نعم... آسف... أمرّ الاسف إذا جرحك سؤالي... أنا اعرفك جيداً انت إنسان روحك مليئة بالمودة، والصفاء، والحب، وأنا أحبك كثيراً، لذا قطعت مسافة الآف الكيلومترات لآراك، ولآرى أيضاً إبتسامة اجرافينا الكسندروفنا الرائعة... إلتفتت جروشنكا إليَّ... فوجدتها جامدة النظرات... عبثاً تحاول ان تعرف من اكون، من أين جئت، ولماذا أخاطبها بهذه اللهجة الرقيقة، والاحترام الجم من غير معرفة سابقة، فجأةً قالت وهي تخاطب اليوشا:

– أتعرف يا عزيزي اليوشا أن ضيفنا السيد جليل القيسي قال قبل قليل أن الأب زوسيما لم يمت!!قلت

بالرغم من أن اليوشا في تلك اللحظة كان زائغ النظرات، تائه الهيئة، غير انه ما إن سمع كلمات جروشنكا، وإسم الأب زوسيما حتى قال بصوتٍ حزين، وحائر:

– ماذا... ماذا... الأب زوسيما لم يمت!! كيف؟ لكننا دفناه يا جروشنكا... ماذا يقصد زائرنا العزيز بقوله أن الأب زوسيما لم يمت؟ هل حقاً أن الأب زوسيما لم يمت؟

قلت وأنا ارسل إليه إبتسامة تودية: أعرف يا عزيزي أليوشا إنك لست إنساناً عاطفياً، بل انك في الحقيقة أميل للبرودة في الأعصاب، مع إنك بكيت بمنتهى الحرارة عندما مات الشيخ... طبعاً انه بالنسبة لك مات، وإن هو لم يمت... أعرف مبلغ حبك لذاك الناسك... هل يهزك الشعور الحار نفسه لو اخبرتك ان الأب زوسيما لم يمت!؟ ها ها،

– أنا لا أفهم ماذا تقول!

– هل تستطيع مثلاً أن ترى الفرح وهو قريب منك؟

– لا.

– ربما أنت حزين... حزين جداً... أتعرف يا اليوشا أنت تنقصك الحاسة التي تنبىء الإنسان عن أشياء دقيقة في الوقت المناسب... أو بالأحرى إنك شذبت تلك الحاسة هناك في الدير، ووجهتها الى مسائل كنسية محدودة.

– لقد فقدت زمني يا ضيفنا العزيز وأنا بعد صغير.

– لا لم تفقد زمنك... إنما جعلته ذا بعد واحد... ان تلك الحاسة الرائعة التي اقصدها موجودة عند أخيك إيفان... إن إيفان إنسان غريب ومعقد.

– ماذا تريد ان تقول بالضبط؟ هل فعلاً أن الأب زوسيما حي... حي؟

مستحيل ... لقد تفسخ جسده، بل يا ضيفنا العزيز جليل القيسي لقد دفناه، دفناه... وانت تقول انه حي! كيف بحق المسيح؟ كيف؟ أخبرني...

– للآب زوسيما، كما لك انت ولجروشنكا زمن له ديمومة غير بشرية...

– ماذا أوضح أكثر...

– يا عزيزي اليوشا، لا أظن ان انساناً يريد ان يغادر الدنيا من غير ان يترك فيها لنفسه أثراً باقياً... النسيان التام شيء صعب...

– آآآآآآآ... أنت إذا تتكلم عن تركة الأب زوسيما؟ إنها كثيرة جداً...

لا لا... إنا لا أتكلم عن تركته... أنا أقول لك انه لم يمت... هاهاها... يالوجهك الهاديء الجميل الذي اصبح مقطباً... أتعرف ما الذي يعجبني فيك كثيراً يا اليوشا؟

– ماذا؟

– طيبة قلبك، براءة سريرتك، برودة طبعك حسن نيتك...

– إنها هبة اللّه.

أجل... أجل.

– لكنك لم تخبرني من انت بالذات!

– لمجرد ان أرضي رغبتك أقول انا إنسان...

– ها ها... طبعاً... طبعاً... لكن.

– حسن... أنا عراف... عراف... هل يرضيك هذا الأسم؟

– أجابني بصوتٍ أقرب الى الهمس: عراف، عراف؟ العرافون انتهوا مع الحضارة اليونانية، والرومانية...

كانت جروشنكا جالسة بصمت، وعيناها تشعان ضوءاً ندياً هادئاً وهي تستمع الى حديثي وتتأملني بنظرات لاهبة... قلت: لا يا عزيزي اليوشا إن الانسان يبقى عرافاً الى الابد... إن الانسان عراف خالد... وزوسيما نفسه كان عرافاً... لقد تنبأ بأشياء كثيرة بدأت تتحقق الآن عندكم ، لكنك لن تراها...

– لن أراها؟

– بل دعنا عن هذا... المهم ان الأب روسيما لم يمت... لكن ليتك تقتنع.

– أحاول...

– الاقناع يا اليوشا ليس بالضرورة، يجب ان يكون حقيقياً.

– يا مريم العذراء... أيها المسيح... كيف يكون الإقناع إذاً؟

– قد يكون غامضاً... غير حقيقي، لكنه في الوقت نفسه حقيقي جداً... صرخ لا إرادياً: لا لا... أنا لا أفهمك... أنت ايضاً غامض مثل اخي إيفان...

– آه... الآن يا اليوشا الحبيب لمست الجرح... او كما نقول نحن العرب بيت الداء... دعني أنطلق في الكلام... ولو أنت كان لديك مثلاً نفس معاناته، وعذاباته، وفكره، وهلوساته، والأكتئاب الدوري الحاد الذي يأتيه فجأةً بسبب رهافة مخيفة في مشاعره، وأحاسيسه النارية لصدقتني...

– لا أفهمك!!

– يا عزيزي اليكسي فيدوروفيتش، بصراحة ان الأب زوسيما مثلك، هو الاخر سيبقى يعيش ردحاً طويلاً من الزمن...

صرخ بصوت حزين: لا لا... ماذا! يبقى يعيش مثلي ردحاً طويلاً من الزمن...

أنا أعرف ان التراب يحن الى التراب.

– ماذا تقصد؟

– أقصد ان الكل في النهاية يذهب الى التراب.

– ها ها ها ها ... لماذا تتكلم في بديهيات... لكنكم من تراب آخر... تراب غريب، ومعقد وصعب التركيب...

– السنا بشراً؟

– لا... ونعم أيضاً... لكن من طينة نادرة، غريبة، معقدة...

– أتعرف يا عزيزي جليل القيسي انك تتكلم مثل لغة البهلول في مسرحية – الملك لير– .

– أرى انك تحاول إهانتي...

– عفواً... بل أمدحك، لأن بهلول الملك لير كان يتكلم بعبارات بليغة... الآن كيف يمكنك إقناعي بأن الأب زوسيما حي، أيها العراف العربي الطيب...

– وسيبقى حياً، وستبقى أنت الأخر حياً، وكذلك جروشنكا أكثر من أربعمائة سنة أخرى...

أطلقت جروشنكا فجأةً ضحكة ناعمة، مثيرة سرعان ما تحولت رغماً عنها الى قهقهة شهوية، وهي تردد: يارب... يارب... تصور يا اليوشا انني ساعيش اربعمائة سنة أخرى... أربعمائة سنة... لماذا؟... لماذا؟... بأي حق؟ لأي سبب؟؟

– لانك اجرافينا الكسندروفنا... لأنك جروشنكا... نعم جروشنكا...

– ألهذا السبب فقط؟ ما قيمة اجرافينا الكسندروفنا؟

– وهل كونك اجرافينا الكسندروفنا غير كاف ومقنع؟... هناك يا عزيزتي جروشنكا واحدة في العالم...

– بالطبع لا... أنت تبالغ... تبالغ...

– بل أقول الحقيقة... مثلما هناك هاملت واحد، واوليفيا واحدة، ومكبث واحد... ها ها... لماذا تبتسمين؟ يا لكِ من إنسانه خفيفة الروح، رقيقة رهيفة الى درجة مثيرة... آه... انتِ متألقة، طيبة، شهية، يا جروشنكا...

– لكنني ماكرة، متهورة، شريرة أحياناً، وسافلة عند الضرورة أحياناً.

– أعرف... أعرف كل شيء عنكِ، بل انتِ فاسدة جداً أحياناً...

– هذا صحيح أيضاً...

سطع في عينيها وميض حاد، وصاحت بصوتٍ فيه دهشة شديدة: أجل فاسدة... التفتت إليّ اليوشا وقالت: اليوشا ماذا سنفعل بتلك السنوات الأربعمائة القادمة؟... ها ها ها ... أربعمائة...

بعد صمتٍ قصير سألتني بصوتٍ فيه ضراعة: أخبرني، ماذا عن دمتري... دمتري... هل سيحكم عليه ام يطلق سراحه؟

– آه يا جروشنكا... صدقيني على أطلال أحلامك المنهارة لن يظهر أي أمل... انتِ ستبقين مجرد إنتظار طويل...

صرخَت: أربعمائة سنه أخرى؟!!

– ربما أكثر... وهذا مع الأسف حكم قاسي جداً... يا جروشنكا في الحضارة البابلية كان الإله انليل حافظ الواح القدر، هو الذي يقرر المصير، أما مصيركِ أنتِ، بل مصيركم كلكم فقد قرره كائن أخر...

– من هو!!... لماذا؟... ماذا عملت لأنال هذا المصير...لم اكن ساقطة... صحيح ان ذاك المرابي دنس جسدي عدة مرات، رغماً عني، وحطمني ذاك البولوني النذل عندما هجرني خمس سنوات، وصدقني اول مرة ذقت فيها طعم الحب فجأةً مع دمتري، وإذا به الآن يُحاكم كقاتل... ألهي... اربعمائة سنة من الإنتظار الطويل... لِم لا تعطف عليّ!! لماذا تكلمني بعقلٍ بارد...آه أيها العراف الطيب...

– قدركِ هو الذي يكلمك يا جروشنكا ببرود وليس أنا... نعم قدرك.لو كان قدركِ بيدي أنا أيتها الجميلة لغيرته لكِ، لأنني منذ ان تعرفت عليكِ، أحببتكِ جداً، لذا جئت لزيارتكِ...

ساد صمتٌ طويل، قال اليوشا وهو ينظر الى الكأس الفارغة في يدي:

– إن هذا الحكم السيزيفي قاسٍ جداً... لا لا لا لن أصدق كلمة واحدة مما قلته...نحن لسنا سيزيف...لا لا... إنه فعلاً حكم قاسٍ...

– حسنٌ يا اليوشا انت حر ان تصدق او... لكن الايام وحدها تعرف كيف ستبلور الاشياء التي تبدو لا معقولة... وانت يا اليوشا ستبقى اربعمائة سنة ذاك الملاك الطيب والمحبوب جداً من قبل الجميع نفسه.

– إنني أنسان ... وانت تتكلم بأرقام مخيفة... لا معقولة...

– هذا قدرك... بل قدركم...

– تقصد قدر أسرتي كلها؟؟

– بالضبط جميع من عرف الأسرة.

– لكننا اسرة فاسدة بدءاً من ابي المهرج وصولاً إليّ أنا ...لِم هذا العمر المديد؟

– قدركم، وإرادة خالقكم الساحر الرائع.

– حتى والدي النموذج الأفسد للقذارة سيعيش سنوات عمري نفسها؟

– نعم لكن كمهرج ...كسافل... كمنحط

– لكن والدي مات...حطم احدهم جمجمته...

– مع ذلك لم يمت... الذي هشم رأسه هو سميرياكوف.

– بالمناسبة لماذا جئت لزيارتنا ، أقصد لزيارة جروشنكا؟

جئت لأراكما انتما بالذات... انتما فقط...ها ها ها ...لماذا يا عزيزي الطيب اليوشا تصطنع الجد والوقار وكأنك تصغي الى موعضة عظيمة... أجل جئت لزيارتك لأنني بصراحة احبك، وكذلك احب جروشنكا الجميلة...احب سلوكها الطفولي احياناً، واحب غنجها، ومكرها، وشيطنتها، ألقت جروشنكا إليّ نظرة متحدية مستفزة، عرفت من خلالها انها بعد لحظات ستكلمني بصوتٍ غاضب، لكنها عكس توقعي، تكلمت بلهجة أقرب الى تلاوة الصلاة، وقالت:ألا يكفي ما أنا فيه من عذاب، وجئت انت لتسلبني الامل الذي كنت اتشبث به... جئت لتكلمني عن الانتظار الطويل اللامجدي اربعمائة سنة أخرى... هل سأبقى هكذا في سيرك الحياة أنتظر، وأتألم؟ لماذا...لماذا؟

– يا اجرافينا الكسندروفنا الحبيبة، في الحقيقة ان خالقكم الرائع أراد وبحب ان يعيد لعالمكم المفكك، الوئام والإكتمال ،والحب، والسعادة، لكنكم تمردتم عليه، واعلنتم عليه العصيان، وشققتم عليه عصا الطاعة، أنتم متمردون بالفطرة... إن ذاك المدعو راكتين كان على صواب حين قال عنكم (ان هذه الطبائع المسعورة تحتاج الى الاحساس بالدناءة والسقوط، كحاجتها الى ارفع النبل)...

– انت تتكلم عن خالقنا بحب وإحترام شديدين... من هو؟

– طبعاً أحترمه كثيراً...كان يكلمكم بهدوء، بمنطق، بعقل متفتح، ويطلب منكم ان تطيعوه، وتُسلِموا له امركم ليأخذكم حيث الامان والطمأنينة والسلام... لكنكم دائماً في غضب هستيري... شعاركم الرفض... الحرية... الفوضوية... الهلوسة، العنف... الغضب، القتل...

صاحت جروشنكا: أيها العراف... أيها العراف... أرجوك... أرجوك... كفّ عن هذه الاتهامات...أنظر الى الملاك اليوشا! هل سمعت عن اي تمرد له؟أو اي عصيان؟... أو اي شك؟

– شك! نعم.

صرخ اليوشا: ايُّ شك... متى؟

– بعد تفسخ جلد شيخك خامرك شك قوي في مكانته الدينية...

– نعم... نعم... هذا صحيح...

– وأنتِ يا جروشنكا سببتِ لدميتري مأساته...

صرخت جروشنكا... أنا ؟ إلهي... إلهي... انا.

– نعم أنتِ... لقد قلتِ بنفسكِ في المحكمة:(إسجنوني معه لأنني التي أوردتُهُ موارد الهلاك، لأنني أنا المذنبة) لو لم يتعرف عليكِ، ويلتهب بحبكِ، لو لم تعبثي ذاك العبث المجنون، ثم أخيراً تغيري فكرك وتقعي في حبهِ لما حدث ما حدث...

قالت بصوتٍ دامعٍ حزين: أجل... أجل... لقد عبثت معه... إلهي يبدو ان قدري أن اتعذب وأعاني... أنت تعرف أيها العراف لقد عانيت منذ صباي من السقوط... من الخيانة، من الأغواء... من الكذب، من الهجر، واللعنات، آه أيها العراف... أنت على حق... لنغير هذا الموضوع... أتعرف يا ضيفنا الطيب إننا في يوم مقدس،

– كل الأيام يا جروشنكا مقدسة إذا عرفنا كيف نعيشها بوئام ومحبة.

– نعم... نعم... لكن هذا اليوم بالذات... إنه الجمعة الثامن عشر من شباط يوم الأرواح المقدسة... يا أيها المسيح العظيم إمنحنا السكينة، والأمن والسلام...

رددت: آمين... آمين... وقلت مع نفسي: مع إنني أشك ان تعرف روحكم السكينة والطمأنينة... سألني اليوشا فجأةً:

– أيها السيد جليل القيسي، هل تحب جميع أفراد أسرتي؟

– ها ها ها... طبعاً لا... ليس كلكم... لا لا...

– من تحب منا؟

– أنت بالدرجة الاولى، لأنك فعلاً ملاك... لقد بحثت عنك طويلاً... سعيد لأنني وجدتك وفي يوم الارواح المقدسة... كما إنني سعيد لأنني وجدت جروشنكا الرائعة...

– ألا تحب ايفان؟

– آه... ايفان... كشخص لا أحبه... إنه كئيب... غامض... لكنني أحب جوانب من فكره، خياله... إنه رجل عميق... بل أحياناً مخيف...

– ألا تذهب لرؤيته؟

– ذهبت قبل مدة.

– هل كلمته؟

– لا... من خلال نافذة غرفته رأيته مضطرباً، منفعلاً يكلم الشيطان وهو في أسواء حالاته الذهنية، هل تتذكر يا اليوشا كلامك عن المفتش الكبير؟ كان مضطرباً... ان ايفان يعاني من وساوس لا أساس لها... آه... ليس من السهل التعامل معه... ثم ان أفكاره غامضة، ومعقدة أحياناً، واحياناً مدهشة على نحو غريب، ايفان يمتلك دهاءاً نادراً، ودراية عجيبة بقلوب الآخرين... ان تقابل ايفان في يوم الأرواح المقدسة شيء صعب... أنت تعرف ايفان...

– ماذا تتنبأ له؟

– أرى أنه سيعيش أكثر منكم.

– لماذا؟

– بسبب أفكاره وخياله...

– بالمناسبة هل تحب خادمنا غريغوري؟

– لم هذا السؤال؟... غريغوري! لا... إنه بليد، أحمق، طيب أكثر مما يجب وأحمق، كما لا أرتاح لزوجته أيضاً...

– وسميرداكوف؟

– آه... هذا الأبن بالتبني إنه بصراحة يا اليوشا إنسانٌ شقي، ضعيف، دعي، حقود، وخسيس أحياناً، وإن كان في الحقيقة لا يخلو من الذكاء برغم إختلال عقله خاصة قبل إنتحاره... إنه كما قال عنه دمتري(دجاجة مصابة بداء الصرع)

– حسن... وماذا عن دمتري!

– اكرهه... اكرهه... إنه عنيف، عدائي، منحل، وهيستيري...

– لكنه يا جليل، نبيل، وطيب وكريم أيضاً.

– كريم... ربما في حالات السكر...لقد وصفته ايفانوفنا أدق وصف عندما قالت (هذا المخلوق أشوه)

قلت لجروشنكا، هل تأمرين الخَدمة ان تجلب لي كأساً آخر من الفودكا؟

– بالتأكيد... بالتأكيد.

صاحت على الخادمة: يا فينيا... فينيا... هاتِ قنينة الفودكا مع كمية من اللحم المقدد لضيفنا العزيز... بسرعة...

جأت الخادمة تهرول وهي تحمل صينية عليها قنينة فودكا وصحن فيه لحم مقدد، قلت وأنا أملأُ كأسي: كيف كان بوسعكم تحمل هذا الزمهرير لولا هذا المشروب.

قالت جروشنكا: لهذا ترانا نفرط في الشرب...

أضافت بعد صمتٍ قصير: هل ستزورنا مرة أخرى؟ آه... من يدري... ربما يكف دمتري عن العنف، ويرجع نبيلاً كما كان...

– دمتري! دمتري يا جروشنكا سينفى... وهذه بالمناسبة زيارتي الثالثة لكم... وانتم كما انتم...

– لكننا نراك لأول مرة...

– صحيح لأنني في زياراتي الأخيرتين اكتفيت بمراقبتكم فقط... كنت عديم الخبرة، والتجربة، والثقافة... صدقيني يا جروشنكا كثيرون سوف يزورونكم... ان عالمكم هذا سيتردد عليه عشرات الآلاف من الزوار للتعرف عليكم ، ومن مختلف أنحاء العالم.

– وهل يجيئون مثلك؟

– البعض نعم...

– لماذا البعض؟

– بسبب حبه الشديد لك، ولاأليوشا، والبعض قد يحب ذاك الفاسق المهرج كرامازوف، والبعض قد يعشق رؤية ايفان، او دمتري، ربما البعض يحن لسميرداكوف...

– من أكثر من يرانا ويكلمنا مثلك.

– من لديه خيال حار وعواطف حارة، ورهافة في المشاعر...

– وهل ثمة من لا يعيرون لنا أي إهتمام؟

– طبعاً... ربما منذ الدقائق الأولى لدخولهم الى ملكوتكم...نعم يسأمون، ويهربون بعيداً...

– وهل سنبقى وكأننا مجموعة من الممثلين على المسرح؟

– بل أن مسرحيتكم ستستمر أربعمائة سنة...

– لماذا أنت متمسك بهذا الرقم بالذات؟

– رقم خطر ببالي... ربما ستستمر مسرحيتكم أكثر من هذا الرقم، لإن مأساتكم لا تقل تراجيدية عن مآسي سوفوكليس، ويوربيدس، وشكسبير... نعم... هذا هو قدركم...

قال اليوشا بصوتٍ حزين: قدرنا! أم القدر الذي أختاره لنا ذاك الخالق!!

قلت: انصافاً قدركم انتم ... لقد رسمتموه بأنفسكم، اما هو، فبجسده حيادية خالق أصيل... اوه... انتم خالدون...

شربتُ كأساً أخرى... شعرت بإنتعاش، وحيوية، وسعادة... أطلقت جروشنكا ضحكة بلورية من ضحكاتها المثيرة، وقالت: انت يا ضيفنا العزيز شبح...

– ماذا؟ شبح! هل حقاً لا تؤمنين بالأشباح؟ كلنا في النهاية يا جروشنكا أشباح...

نهضت وبطريقة حارة أخذت اليوشا بين ذراعي وقبلته، ثم إلتفت الى جروشنكا وقلت: جروشنكا العزيزة، لقد قطعت مسافة طويلة لرؤيتكِ عبرت صحاري، وسهولاً، وتلالاً، وصعدت جبالاً... أيتها الحلوة أجرافينا الكسندروفنا لكي أراكِ، وأكلمكِ... هل أجرؤ أن أطلب منكِ قبلة واحدة...

فتحت ذراعيها ، ومثلما تناغي الام أبنها بضربٍ لذيذ من الوجد والجذل، قالت بصوتٍ ناعم جميل: تعال... تعال يا ضيفي العزيز، وخذ أكثر من قبلة...

قبلتها بحرارة عدة مرات... قالت بحرارة: ألا يمكن ان تعيد النظر بنبوءَتك بخصوص دمتري؟ أيها العراف، أنظر ثانيةً، قد تجد له مصيراً فيه أمل...

– آه يا ليت يا جروشنكا... ياليت... لكن مصير دمتري قد تقرر دفعة واحدة والى الأبد...

– آآآآآآآآ... لا... أرجوك.

– صدقيني... اتعرفين لماذا انتِ رائعة يا جروشنكا؟

– لماذا؟

– انك وبرغم كل عيوبكِ تبقين طفلة حقيقية...

التفتُ الى اليوشا وقلت: يا عزيزي اليكسي فيدروفيتش، هل تستطيع انت، أو أنا تغيير المصير الذي كتبه شكسبير لهاملت، لعطيل، لروميو،لماكبث؟؟

– طبعاً لا...

– أنظري يا عزيزتي، منذ مئات السنين وهم يتعرفون على الملايين من الناس، وسيبقون كذلك عدة مئات من السنين... أنتم جميعاً برغم مآسيكم خالدون... وداعاً يا جروشنكا الحبيبة... وداعاً يا اليوشا،،،

ملاحظة:العبارات التي بين الأقواس هي من رواية الأخوة كرامازوف... هذه القصة قد لا تمنح نفسها بسهولة للقارىء الذي لم يقرأ رواية دستويفسكي –الاخوة كرامازوف–

مملو(*)

الى المبدع سعاد الهرمزي

إبن مدينة آرنجا، الذي سحرنا بصوته الرقيق...

من منا لا يحب الحياة، نحبها برغم كل الصعوبات التي نواجهها فيها، بل نحبها أكثر ونحن لم نفهمها فهماً جيداً الى ان نغادرها الى الأبد...إنها كما تقول الأغنية التركمانية، مجرد نافذة صغيرة نلقي من خلالها نظرة خاطفة ثم نرحل...أليس غريباً أن نحب شيئاً الى هذه الدرجة ولا نفهمه... خلال هذه البرهة الخاطفة وإلى أن ننسل من الحياة، سواء بطريقة درامية، أو ميلودرامية، أو بهدوء، نبقى برغبات متشابكة، بل ان كل واحد منا كما يقول – مونتين– يحاول ان يضع نفسه في منزلة أعلى من مدار القمر، وينزل الشمس الى ما تحت قدميه... في هذهِ البرهة، أنا عاشق السفر، أسافر في يقظتي، وفي أحلامي، ويتشظى خيالي في عوالم نائية... أسافر مثل الطيور المهاجرة من غير خارطة، وأحياناً بخرائط، مثل طائر القطرس، عملاق الرحلات الطويلة، يطير بسرعة أكبر من ثمانين ميلاً في الساعة... ومثلما أعشق السفر، أعشق، ويستحيل أن أفلتها من يدي... التقيت بها مصادفة يوم تقديم النذور السائلة...جذبتني من بين مئات الشابات الجميلات وهن محملات بجرارهن المليئة إما بالعسل، أو بالخمر... كانت ساحرة، بل طاغية الجمال، مثل أميرة جبلية وهي ترفل في ثوبها الضارب الى لون الأرجوان... تقدمت منها بخطوات قصيرة... كانت تشعر بالتعب... أطلقت آهة حلوة، وقالت تكلم نفسها: مكانٌ جميل ليتناول فيهِ الإنسان وجبة شهية... من خرج منسوج بخيوط ملونة أخرجت صرة وضعتها بجانبها، وبرفق شديد أخرجت دجاجة محمصة، وخبز، وتوت بري، وكوز فخاري جميل... كانت موجات الجماهير وهي ترفل في ملابس ملونة، وافق من الجرار المليئة بالنذور، تنتظر بفارغ الصبر أن تفتح باب معبد الأيكور الخاص بالإله انيل لتبدأ طقوس تقديم النذور السائلة... أواه، ان المدينة – نفر– في هذا اليوم الربيعي المقدس تشبه الحلم، بل ما فوق الحلم... إنها مدينة مرئية، ولا مرئية،

(*) نشرت في مجلة الاديب المعاصر العدد ٣٤ صيف ١٩٩٢

إنها بسبب المناسبة المقدسة تبدو مدينة زئبقية... كان العشب يلهث بلمعانه، ويومض مثل ماسة خرافية، ويثير حالة من التهيج، ويعطي للمكان الواسع، وللحشد الملون، والمتوتر، والسعيد جداً في أنتظاره للمعبد الشامخ من بعيد مثل زقورة عظيمة، منظراً مخيفاً ومثيراً تحت الشمس، والسماء اللازوردية.

جلستُ على مقربة منها... إلتفتت إليّ، وأطالت النظر الى جرتي، وقالت بعفوية طفولية: رباه... إنها جرة جميلة... جميلة جداً... من أين جئت بهذهِ الجرة؟

– من مدينة آرنجا(*)

– آرنجا؟ أين تقع مدينه آرنجا؟

– في شمال الوطن... عند النار الأزلية... ألم تسمعي بـــ بابا گرگر؟

إلتفتت إليّ بكامل جسدها، وأشارت إليّ بحركة جميلة من يدها، أن أجلس... جلستْ... قالت وهي تُقطع با... با... گر...گر... هذا أيضاً إسم جميل وغريب...

رأيت تألقاً ساحراً خلف أهداب عينيها، وتوهجاً على وجنتيها... قالت بمرح متأجج، وهي، تعبث بضفيرتها الذهبية...

– هل جئت لتقدم نذراً؟

لا... لكنني مع ذلك، وجرياً مع تقاليد أجدادي جلبت معي هذهِ الجرة.

– ماذا في جرتك؟

– خمر معتقة...خمرٌ من كروم الآرنجا...

– آه...آر...نجا...

– وانت!... من اي مدينة جئتِ؟

– جئتُ من ششروم(**) هل سمعت بمدينة ششروم؟

– لا... أهي قريبة من مدينة نفر؟

– ها ها ها... لا طبعاً... إنها بعيدة... أتعرف كم من الأسابيع إستغرق مجيئنا الى هنا؟ جئنا على البغال... الطرق وعرة جداً... أسابيع ونحن في الطريق... ششرم مدينة بعيدة، وسط جبال عالية... إنها في الشمال.

(*) آرنجا:الأسم القديم لمدينة كركرك.

(**) ششروم:شمشرة تقع قرب رانية في كوردستان العراق.

– هل جئتِ وحدكِ؟

– لا... مع مجموعة من أهالي مدينتي... لقد توزعوا قبل قليل في هذا المكان الجميل...

– هل تحبون الإله أنيل كثيراً؟

– طبعاً...

– حتماً لديكِ نذور عزيزة عليكِ؟

– سأطلب من الإله أنيل ان يشفي والدي المريض، ويكثر زرعنا، واكون من نصيب شاب أحبه كثيراً...

قلت مع نفسي وأنا أرنو الى هذهِ الفتاة التي تجعل الإنسان يضطرب لا إرادياً أمام جمالها: آه... لديها ثلاثة نذور... إذن، إن شكسبير كان على حق عندما قال: المجنون والعاشق والشاعر، كلهم بالخيالِ عارمون...

قلت: أنتِ حتماً تملكين روحاً حساسة ونبيلة...

– كيف.

تقطعين مسافة طويلة من مدينة ششروم الى مدينة نفر من أجل إستجداء الإله أنيل كي يجعل شاباً تحبينه من نصيبك...

– ومن أجل والدي أيضاً، ومن أجل زرعنا... آه... أحب الشاب كثيراً...

– الحب سيد يجب طاعته...

– بل نطيعه مرغمين... أليس كذلك؟

– طبعاً... ترى هل الإله أنيل يستجيب لدعائك؟

– هو حر... حر.

– طبعاً هو حر... ماذا يوجد في جرتكِ؟

– عسل... في يوم تقديم النذور السائلة يجب أن تقدم إما خمراً او عسلاً... مدينتي مشهورة بعسلها...

فتحت فم جرتها وبملعقة خشبية أخرجت كمية من العسل وقدمت الملعقة لي وهي تقول برقة: خذ... كُل... كُل... لتحكم بنفسك...

– لكن هذا العسل للإله أنيل... هل أتذوقه أنا قبل أن يتذوقه هو؟

– الإله أنيل يكتفي برؤيته... هيا هيا كُل كُل... الآلهة لا تأكل...

قلت وانا أتذوق العسل: يا عزيزتي إن نقاء روحكِ ألذ...

– ماذا؟

– عسلٌ لذيذ جداً... وأنتِ يجب أن تشربي من خمري...

– لِم لا...

بأصابعها الفاتنة البيضاء قدمت لي كوزها، ملأتُ لها الكوز. شربت بلذة، وهي تردد أثر كل حسوة: خمر معتقة... لذيذة... رائعة... أخرجت رغيفاً من الخبز الأسمر وقطعة أخرى من الدجاج، وخضار شبيه بالنعناع... قلت وأنا أراقب حركات يديها ، ونظافة صحونها الخشبية: حقاً كانت النظافة عند الآشوريين ورع... وأي ورع...

قدمت لي لقمة... اردت ان اقربها من فمي... قالت: إنتظر... إنتظر.

– لماذا؟

– نسيت ان أرش على الأكل ملحاً... أسفة جداً.

– لِمَ أسفة؟ هل يجب أن ترشي ملحاً؟

– طبعاً... طبعاً...

بحركة رقيقة رشت قليلاً من الملح على اللقمة وقدمتها لي وهي تقول:

– ماذا تأكل من غير ملح ألم تسمع بالأغنية الجميلة والمقدسة عن الملح؟

– اية أغنية؟ هناك عدة أغاني عن الملح!

– صحيح... الأغنية التي تقول... غنت بصوتٍ رخيم وجميل:

ايها الملح يا من خلقت في مكانٍ نظيف
طعاماً للإله، جعلك الإله انليل
بدونك لا توجد فائدة في الأيكور
أيها الملح حلّ عني العقدة(*)

توقفت عن الغناء، وأطلقت ضحكة طفولية حلوة، ثم بدأنا نأكل، ونشرب، غمر المكان بحرٌ من النور، وتقدم حملة النذور بأتجاه المعبد...

بدلع مثير جعدت عينيها، وأخذت رشفة أخرى من الخمر، ثم بدلع اكثر مطت شفتها

(*) قصيدة بابلية تتغزل بالملح.

السفلى وقالت كأنها تهر: لماذا تنظر إليّ بتعجب؟

– بتعجب؟... أنظر الى ثوبكِ الجميل... أنظر الى هذه الزرقة الممزوجة بالأرجوان... حتماً أنكِ بارعة في شغل النسيج، والحياكة؟

– في مدينة ششروم النساء كلهن بارعات في النسج، والحياكة.

– عظيم...

جرعات الخمر المعتقة، وسحر المكان، والشمس العسلية الدافئة، والعشب الشبيه بالماس، وحوارنا العفوي الهادىء، وهمسات الجماهير، جعلَتها منتشية الى درجة طافت على وجهها الفاتن رعدة إنفعال مثيرة... قلت مع نفسي: أيتها الأميرة من مدينة ششروم ليس من السهل الوصول الى غابات قلبكِ المهداة الى ذاك الحبيب البعيد، لكنني سأحاول أن اكون صديقاً، وحبيباً إذا وفقت، ريثما انتهي من مهمتي التي جئت من أجلها طائراً مثل طائر القطرس الى مدينة – نفر– ... وهل كثيرٌ على عاشقٍ مسافر أن يضيع في منتصف الطريق لأجلكِ؟ وهل حقاً لا تستحق أميرة مثلكِ أن يضيع الإنسان من أجلها حتى في بداية الطريق؟

قالت: انت تردد أسماء الألوان... حتماً تحب الألوان؟

– جداً.

– في ششروم نحن أيضاً نعشق الألوان...

– لماذا؟

– اوه..لأننا نعيش وسط طوفان من الألوان... أشجار الأرجوان تحيط بنا، عشرات أنواع الزهور الملونة، أشجار البلوط، والتوت، وطيور ملونة، وحتى جبالنا في كل موسم تكون بألوان مختلفة... نحن لا نستطيع ان نعيش من غير ألوان...

– هل تحبون الخمر أيضاً؟

– اوه... طبعاً... ششروم مشهورة أيضاً بكرومها، بفواكهها... طبعاً نحب الخمر...

ناولتها جرتي... شربت من فم الجرة عدة رشفات كبيرة، بعد دقائق عبق وجهها العاجي بالدم... القيت نظرة الى الأفق، ورحت استمع الى الهدوء وهو ينساب فوق المزيد من الهدوء... إلهي، صفاءٌ غريب وساحر يحيط بكل مكان... شعرت أنا الآخر بإنتشاء لذيذ، وحِرتُ فيما إذا كان الزمن يسير بهدوء، أم بسرعة هذا الزمن الذي

يصنع التاريخ، ودراما التاريخ، أم انا طائر القطرس أسير بسرعة مجنونة في ثناياه لأقف فجأةً في واحدة من مدن وطني، في مدينة نفر، وأندغم مع هذا الحشد في يوم تقديم النذور السائلة الى الإله أنيل... إندفع الحشد أمام باب المعبد الذي أنفتح على مصراعيه، وتدفق الجميع بسرعة الى الداخل... قلت: هل يجب ان نذهب الآن؟

– لا لا... يمكننا الأنتظار... المكان واسع هناك... المهم تقديم النذور، وتلاوة الدعاء...

– للمناسبة ما أسمكِ؟

– اسمي تريفة... تريفة... وأسمك!

– جليل... هل لأسمكِ معنى؟

– طبعاً... معناه شعاع القمر...

– إسمٌ جميل.

– قلت قبل قليل إنك لم تأتي لزيارة معبد الأيكور... لماذا جئت إذن؟

– جئت أتعلم، ولأتاكد...

– ها ها... تتعلم ماذا؟... وتتأكد من ماذا؟ هل أفهم من كلامك انه ليست لديك نذور... أماني...

– يا تريفة... الإنسان دائماً يعيش بالأماني.

– حسن... من أجل خاطري أنا اطلب أمنية من الإله أنيل، أمنية واحدة فقط...

– ها ها ها ها... إسمعي يا تريفة... هل هناك إمرأة واحدة في العالم لا تحب أن تكون محبوبة، ومرموقة من الرجال؟

– طبعاً لا... المرأة دائماً تحب ان تكون محبوبة من قِبل الرجال...

– جيد... وأنتِ إمرأة.

– أنا! طبعاً... ماذا تريد ان تقول؟

– سأطلب من الإله أنيل ان يطيل عمر جمالكِ، وأن تكوني محبوبة الى الأبد حتى من قِبل أعدائكِ.

أحمرّ وجهها أكثر، ومن خلال نظراتها عرفت أن قلبها راح يخفق خفقاناً سريعاً حتى إنها خافت أن أسمعه... وأضفت... كما سأطلب من الإله أنيل أن يجعل الشاب الذي تحبينه يكون من نصيبك، وأن يشفي والدكِ المريض، وأن يكثر زرعكم.

– ها ها ها ها... ألا تطلب أي شيء لنفسك؟

– بلى... أطلب منه أن يبقيكِ معي ريثما أنتهي من مهمتي...

– آمين... موافقة يا جليل.

– إذن... سنكون معاً.

– نعم...

– ونعود معاً الى آرنجا، وانتِ الى ششروم، وربما أجيء معكِ الى أربائيلو(*)

– شكراً... شكراً...

– وترين مدينتي... آرنجا الحبيبة.

– طبعاً... أنا موافقة... الآن لنذهب... لم يبق أحد خارج المعبد... لنذهب لكن يا جليل، لم تقل لي ما هي مهمتك في مدينة نفر؟

– جئت أبحث عن رجلٍ يدعى اورشكامو...

– يعمل ناسخاً...

– ينسخ ماذا؟

– هو في الحقيقة ناسخ الملك...

– أي ملك؟

– أمارسين...

– ماذا تريد منه؟

– أريد أن اعرف عدداً من الحقائق عن الملك أمارسين، وعن الآخرين...

– آه... فهمت... من أنت؟!... ولماذا؟

– لنذهب يا تريفة... ستعرفين، لكن ليس الآن...

سحبتني من يدي وهي تحمل جرتها وخرجها، وتقول أسرع خطاك... أسرع...

***

كانت باحة معبد الأيكور واسعة جداً، ومزينة بدعامات، وجدرانها مطلية باللونين الأبيض والأسود، وأضواء الشموع موزعة بطريقة مثيرة ومهيجة للعواطف، والمشاعر والروح... كانت مئاتٍ من الجرار الملونة المليئة بالخمر، والعسل مرصوفة فوق مستطيل

(*) اربائيلو: الاسم القديم لمدينة أربيل.

من الأرض... كان كل شيء يثير في الحضور ضرباً غامضاً من العاطفة والخوف... دخل كاهن طويل القامة، حاد تقاطيع الوجه... إنحنى الجميع... تكلم كأنه يمثل دوراً يتطلب أن يتهدج صوته بالزفرات وقال مشيراً إليّ بصوتٍ آمر وغاضب من بين جميع الحضور في الباحة التي خيم عليها صمتٌ أخرس. انت! من أنت! إنحنِ... إنحنِ مثل الجميع... أبهذهِ الطريقة تستقبلني؟ عندئذٍ رأيت الجماهير منحنية بخشوع وخوف شديدين... سحبت تريفة يدي بقوة وهي تهمس لي:

– إنحنِ...إنحنِ... بسرعة.

حنيتُ ظهري... قال الكاهن: الآن يردد كل واحد منكم الدعاء، والنذور التي من أجلها تجشم عناء السفر... أتمنى من ألإله أنيل أن يتقبل نذركم، ويستجيب لدعائكم آمين.

ردد الجميع برؤوس شفاههم، بخشوعٍ شديد، وبهمسِ دعائهم وأمانيهم... بعد صمتٍ قصير دوى صوت الكاهن بألقاء مسرحي قائلاً(نريد منكم جميعاً الطاعة والولاء للملك – امارسين– الملك امارسين يعني المحق والفناء، الملك امارسين يعني ايضاً الحياة والفلاح، وعصيانه يعني الفناء... كافحوا من أجلِ إسمه وكونوا أتقياء من أجل حياته، تسلموا من كل أثرٍ للخطيئة، من أحب مارسين غدا روحاً مُبجلة، أما الذي يتمرد على جلالتهِ فلن يجد قبراً لنفسه، ويقذف بجثته في المياه(*)... والان إنصرفوا من غير جلبة...)

خرج الجميع الى الشمس، الى العشب الربيعي الذي يتضاحك مع الشمس، وأنتشروا على شكل مجموعات وهم مليئون بالطمأنينة، وتضيء نفوسهم سعادة، وراحة البال، وأنتظار شآبيب من الرحمة التي قد يرسلها الإله أنيل لهم..بدأ الجميع بالرقص، وبالضحك المندفع من الأعماق، والشرب... قالت تريفة ونحن ننزوي بعيداً.

– جليل لِم لم تنحنِ عندما دخل الكاهن؟

– أنا حر...

– ماذا؟... حر في باحة المعبد، وحضرة الكاهن؟ أنت إنسان غريب...

– لو لم تسحبي يدي لما حنيتُ ظهري.

– ماذا؟... امن أجلي أنا حنيت ظهرك؟؟

(*) خطاب كاهن في تمجيد امارسين.

– نعم.

– وتقول نعم... لا لا... أنت إنسان غريب، وغامض... من اي عالمٍ أنت؟

– من هذا العالم يا تريفة... من مدينة آرنجا... بالضبط مثلما أنتِ من مدينة ششروم...

فجأة تحلقت حولنا غابة من الرجال والنساء والشباب الذين خرجوا من المعبد، وراحوا يركزون نظراتهم عليّ، وانفاسهم ترف في الهواء... أجل كانوا يلتهمونني بنظراتهم غير مصدقين أنفسهم فيما إذا كنت إنساناً حقيقاً، أم مجرد شبح، أم حلم، أم مجرد شيء هارب... الشابات رحن ينثرن التأوهات وهن يدققنَّ نظراتهن فيّ، وفي تريفة التي كانت تهيء نفسها بسبب مشاعر مختلطة غمرتها، وبسبب تجمع هذا الحشد حولنا، لبكاء حار... كان كل واحد يقرأ وجهي، يطول الصمت... يطوف المكان بهمس برفق... الشفاه تريد ان تتكلم غير أنها بدافع قوة غريبة تبقى مطبقة... هل بدافع الخوف؟ أم بدافع الأعجاب، أم بدافع حالة من الطمأنينة الفجائية حلت عليهم لمجرد أن إنساً خرق طقوس المعبد وأمام الكاهن... لماذا لا يكلمونني؟ اية هواجس راحت تعصف برؤوسهم؟هل أضاعوا ألسنتهم؟ حسن... لماذا لا أكلمهم أنا؟ ماذا أقول لهم؟ هل هم معي في خرقي لطقوس المعبد أم ضدي؟... لم أفعل شيئاً ليكونوا معي... كانت تريفة تقول، ان كل شيء هنا يا جليل قد تحول الى لغز، ربما الآن لعبت الخمرة دورهاالحقيقي في الرؤوس... وجوه ارجوانية تنبض بالفرح، والتساؤل، والقلق، والهياج الغامض... إقتربوا مني... مسّني عدد كبير منهم بطريقة مسرحية كما لو أنهم أرادوا أن يتأكدوا ما إذا كنت فعلاً إنساناً حقيقياً، أم مجرد شبح، أو طيف، أو لهب... أنا الذي لم انحنِ للكاهن... خيم سكون يشبه الظلام في وسط الظهيرة الربيعي... ماذا؟ هل نسوا طقوس ما بعد الزيارة لمعبد الأريكو، وأعراسها، وتأجيج الجسد بالرقص، والخمر، والعناق، والقبلات؟؟ إنتابهم فيضان من المشاعر الجميلة عندما رحت أبتسم لهم بحب... قالت فتاة شابة: غير مهم من أنت... لكن مع ذلك أنت سرابٌ جميل...

صرخ شاب: علينا ان نشرب المزيد من الخمر لنزيد شهوة الفعل... هناك إذن من يعرف كيف ومتى يرفض ان ينحني...سألت إمرأة: من انت!!... قال رجل: لا تسألوا من هو! تصوروه خيالاً جميلاً، وهماً، زائراً تائهاً جاء من بعيد... تصوروه ضوءاً ربيعيا... هيا... أرقصوا... أرقصوا...

أنتشروا فوق العشب مثل أطياف ملونة يرقصون ويغنون، وقد تحول قلقهم

ودهشتهم، وذهولهم الى فتنه بركانية... آه... إن أجدادي كانوا يمتصون الحياة في كل لحظة، وكانوا يؤمنون إن الحياة خبز حار يجب التهامه بشهية جائع حقيقي وإلا يبرد ويصبح مثل عظم عادي... كانوا يندفعون الى الحياة بحمية فاتنة لأن فقدها يعني فقد كل شيء الى الأبد...بدأو يرقصون، وينشدون بصوت كورالي:

أيتها المدينة التي إزداد طعامها

يا دار الرخاء إنك خضراءُ كالجبل

أيتها المدينة التي قدر مصيرها الإله انكي(*)

قالت تريفة بصوتٍ مضطرب: لماذا تحلقوا حولنا؟ لماذا كانوا ينظرون إلينا بحب؟؟... حقاً من أنت؟

– تريفة... لا تكثري من الأسئلة... دعينا نستجب نحن أيضاً لنداءات الربيع للأحتفال... الربيع ينادي الجميع...

بدأنا نأكل ونشرب... على مبعدة عدة أمتار من حيث كنا نجلس كانت شابة تجلس قبالة شاب يطفو على وجهه حنانٌ لدن يشجع صديقته على المزيد من الإستجابة لغزله معها... قالت تريفة: إنهما يتغازلان...

– لم لا يا شعاع القمر ... لم لا...

– وأنت!... لماذا تنظر إليّ وكأنك تراني لتوك؟

– ياشعاع القمر... أتعرفين بماذا أشعر وأنا أطيل النظر إليكِ؟

– بماذا؟

– أشعر بالحرية...

– ها ها ها... أنت إنسان خفيف الظل جداً...لكنك، غامض... نعم غامض.

– أنا إنسان واضح... صدقيني أنا واضح جداً... أنتِ أيضاً خفيفة الظل وواضحة مثلي...

– ألاّ تذهب لمقابلة ناسخ الملك؟

– طبعاً... يجب أن أذهب... في الحقيقة أنا جئت لهذه المهمةأساساً، في هذه الأثناء جاء رجلان من رجال المعبد، وطلبا مني أن اتبعهما... رفضت في البداية... لكنني حيال

(*) قصيدة بابلية.

لطفهما، ودماثتهما الشديدين وافقت شريطة أن تجيء تريفة معي أيضاً... وافقا... أدخلاني غرفة جميلة من تلك الغرف المليئة بالأبهة الملكية... قالت تريفة بصوتٍ مرتعش:

– ترى ماذا يريدان منا؟

– هل انتِ خائفة يا تريفة؟

– نعم.

بحركة عفوية وضعت باطن يدي فوق جبينها... تأوهت عدة مرات.قلت:

– لا تستعجلي الأمور يا تريفة... إنتظري... أنا لم أفعل شيئاً.

– لكنك رفضت الإنحناء،

– قبل أن أجيب عليها، دخل الكاهن... إنحنت تريفة بسرعة، بينما ظللت جالساً، وبحركة كلها خيلاء وغطرسة قال الكاهن:

– من أي مدينةٍ أنت أيها الغريب؟

– أنا لست غريباً... أنا من مدينة آرنجا...

– هل جئت تقدم نذراً، أم انت مجرد عابر سبيل!

– مجرد عابر سبيل...

لماذا دخلت المعبد إذاً؟

– المعبد للجميع...

– لِمَ لم تنحني عندما دخلت الى المعبد؟

– لا أعرف لماذا... ربما لم أقتنع...

– ماذا!... لم تقتنع؟ هذه الكلمة غريبة... ماذا جئت تعمل في مدينة نفر؟

– جئت لأقابل اورشكامو... إنني أبحث عنه.

– لماذا؟... ماذا تريد من ناسخ الملك امارسين؟

– جئت لأعرف بعض الحقائق.

– حقائق!؟ من أنت حتى تعرف الحقائق؟ أية حقائق؟ ومن اورشكامو بالذات!!... أنت إنسانٌ غريب، لأول مرة أسمع إنساناً يتكلم بهذهِ اللهجة!!

– أنا من هذا الوطن... من مدينة آرنجا... وإنسان طبيعي جداً...لا... لست غريباً.

– لكن بأي حق تريد أن تعرف حقائق؟ وأية حقائق؟

– بحق الأمانة... بحق الصدق... بحق المواطنة المخلصة... لهذا اريد ان أقابل اورشكامو...

– غريب جداً أمرك يا رجل... مواطن عادي يريد ان يقابل اورشكامو! أأنت في كامل وعيك؟

– جداً... جداً... ثم أن اورشكامو مجرد ناسخ، ومواطن مثلي!

– تقول مجرد ناسخ؟ لكنه ناسخ الملك...

– ما يعرفه اورشكامو أعرفه أنا أيضاً...

ساد صمتٌ قصير التفتُ الى تريفة التي كانت ترنو إليّ وكل شيء في عينيها يقول: هذا إنسان غامض، وحالم ، وهائم، وغريب، يكلم كاهناً رفيع المستوى من غير خوف، بل بلا مبالاة... يا لمتانة أعصابه...

قال الكاهن: حسن... الآن، ماذا تريد أن تعرف؟

– حضرة الكاهن لكي نتفاهم بلغة منطق يجب ألا تعاملني بتعالي كاهن.

– حسن... حسن... ماذا تريد ان تعرف... قل... قل...

– اريد ان أقول ان اورشكامو رجل غير صادق، وغير أمين؟

صرخ الكاهن، وقد اربد وجهه وتقبض: ماذا؟ ماذا تقول يا رجل؟

– أقول ان اورشكامو صور الملك – امارسين– على غير حقيقته...

– كيف؟

– صوره وكأنه سيبقى الى الأبد مثل طائر الحرشفة.

– لم أسمع بهذا الطائر.

– طائر الحرشفة القطبي ايها الكائن يحلم ان يعيش صيفاً دائمياً، وتكون الشمس فوقه الى الأبد...

– لا أفهمك! ماذا تقصد؟

– وهذا الطائر حضرة الكاهن يسافر الى أبعد مكان ويرجع في ليلة واحدة.

– ماذا تريد ان تقول أفصح!

– الملك – امارسين– لم يكن هذا الطائر، ولن يبقى في صيف دائمي، وشمسه مشرقة.

– أيها الإله أنيل رحماك، ماذا تريد أن تقول... ماذا؟ أفصح.

أريد ان اقول ان الملك امارسين، اي – خروف الإله سين– وهذا اسمه، قد اعطى الكثير من الرشوة ليمجد أسمه... وأعماله الموهومة... صرخ بصوتٍ مثل الزعيق: ماذا تقول! ماذا تقول!

– إسمع، لقد عثرت على عدة رُقم طينية تثبت ان الملك امارسين لم يكن بطلاً شجاعاً... إن اورشكامو بالغ كثيراً في تصويره له... لقد عثرتُ على رُقيم طيني يقول، أن امارسين سمى نفسه – رافع رأس المعبود أنليل– بالرشوة... كما صور امارسيل نفسه أيضاً بحبيب مدينة – اور– بالرشوة.

صرخ الكاهن وكله تعجب... ودهشة: بالرشوة!... بالرشوة!...أُسكت.

– نعم بالرشوة.

– كيف؟

– اورشكامو اكبر كذاب وإنتهازي، مجد امارسين في حوادث كثيرة ومعارك لا أساس لها إطلاقاً كبطل صنديد...

– اورشكامو فعل هذا!! مستحيل...

– بل هناك أكثر من مزور، هناك ليبانو كشباس، والناسخ الماكر شاروم، هؤلاء صوروا الملك في كتاباتهم وكأنه إنسان خارق...

صرخ الكاهن: ايها الأرنجي... ايها الأرنجي... اعرف حدودك...

– أنا أعرف حدودي وأتكلم بمستمسكات...

– بل انت لا تعرف ماذا تقول:

– أيها الكائن، تكلم من غير إنفعال، أو إحتداد، تكلم برفق... بهدوء، وببرودة أعصاب دعنا نتناقش ...

لاذ الكاهن بصمتٍ طويل... كانت تريفة متوترة، لكنها سعيدة تنظر إليّ بود حبيب. عندما يستحوذ الحب، او الاعجاب الشديد على المرأة تصبح من حيث لا تعرف كيف ولماذا، حساسة، وشجاعة، وخائفة، وغير طبيعية، من هذه الحالات التي لاحظتها عليها، عرفت إنها بدأت تحبني...

قال الكاهن: تقول لديك رُقيمات طينية! أين حصلت عليها؟

– التاريخ هو التاريخ... انه لا يمنح حرية الخيار بطريقة مجانية لأي حاكم مهما كان قوياً، كما لا يمنحه الى أي إنسان...

– ماذا تقصد؟

– التاريخ ايها الكاهن يصنعه الجميع... اسمع... هل لديك إعتراض بأن الملك – نابو نيدو– آخر ملوك بابل كان مجنوناً...

– لا لا... لم يكن مجنوناً... لم يكن مجنوناً أبداً.

تأملت الكاهن طويلاً، قلت مع نفسي: ان هذا الكاهن يتمتع على مستوى الحكم بسلطة كبيرة، مثل جميع الكهنة، الكهنة طبقة حاذقة تعرف كيف تستفيد من ضعف وقوة السلطة السياسية، وتعرف متى، وكيف، ولماذا وأين تخضع هذا الملك او ذاك لهيمنته، وتعرف متى تبعده عن السلطة بسهولة... ومتى تدافع عنه بهستيرية، وفي كل الحالات تستعمل حقها الإلهي... مستعدة عند الضرورة أن تتهم الملك بالخطيئة، بالرذيلة، بالضعف، بالجنون... إتهامات سريعة مثل ممارسة عبادة مدنسة... التجاوز على الآلهة... إذا اعتذر الملك او جبن، يفرضون عليه الصوم الأجباري... قلت للكاهن:

– تقول ان الملك – نابو نيدو– لم يكن مجنوناً؟... حسن... خذ هذا الرُقيم، كتبه أحد اقرب اقربائه يقول انه كان مجنوناً... إقرأ... قرأ الكاهن الرقيم، وغمغم، لا لا... أتهم بالجنون لنزاعه مع معبد مردوخ، وتدخله في المسائل الدينيه، وتفضيله الإله – سن– ومعبده في منطقة حران ومكوثه في واحات الجزيرة...

اطلقت ضحكة ساخرة، وقلت وانا أقدم إليه رُقيما جديداً: وهذا مدون من قريب آخر له... إنه يتكلم عن جنونه، وتصرفاته الشاذة، وعن تهوره وحقده. هل اقتنعت إذاً انه كان فعلاً مجنوناً... أما انتم فمجدتموه كعاقل عظيم...

– ايها المواطن الارنجي، بأي حق تتكلم عن الملك نابو نيدو، وامارسين، وارشكامو، وشاروم، وأنت لست أكثر من مواطن عادي..أتعرف ما هي حقوق المواطن العادي؟

– المواطن العادي لا حق له، لكن لديه قوة سمع الإله – ايا–

– تقصد حكمته؟

– بالضبط... بالضبط...

– أتعرف أنك ترتكب حماقة؟

– لماذا؟

– لأنك كمواطن عادي تفكر بعقلك...

– تقصد ادين بأثباتات صارمة الكذب، والتمجيد الكاذب؟

– أنت عنيدٌ جداً...

– عنيد مع الحق، عنيد مثل أجدادي في تأكيد الحق... عنيد مثل الملك مردوخ– بلادن الذي حارب طويلاً.

– أتعرف لماذا حارب طويلاً؟

– لأنه كان على حق...

– لكنه نُفي عنوةً الى بلاد عيلام...

– ثم ماذا؟ حتى منفاه أستخدمه لتنظيم التمرد في بابل... لم يكن بطلاً بالرشوة والتزوير.

– لكنه انتهى على يد سنحاريب...

– وسنحاريب كما تعرف قُتِل شر قتلة من قبل أبنائه، فهل تتعجب ايها الكاهن أن تُزوّر الحقائق... اتهمتم – اويل– مردوك ابن نبوخذنصر بالرشوة وإرتكاب الخطيئة، واتهموه بأرتكاب الفحشاء ومن ثم قتلتموه لمجرد انه كان إنساناً طيباً.

– أنت أيها الآرنجي تعرف كل شيء عن أسرارنا... كل شيء...

– ورائع انك تعرف بأنني أعرف أسراركم ...

أمر الكاهن بتقديم الخمر لنا... شربنا وسط صمتٍ هاديء جميل نتبادل خلاله النظرات... قال الكاهن: أنت يا عزيزي الآرنجي على حق... ليس كل ما كتب على امارسين كان صحيحاً... بصراحة أنا الاخر شاركت ارشكامو في الكثير من اللا حقيقة، وتمجيد امارسين كذباً... أعترف... أعترف.

قلت مع نفسي وأنا أبادل الكاهن النظرات، لقد كان المؤرخ الأغريقي بولييوس على حق عندما قال: إن معرفة الماضي اسرع وسيلة لتصحيح السلوك...

إلتفتُ الى تريفة التي كانت مستسلمة لتهويمات جميلة... راح الكاهن في صمتٍ طويل بعد أن أستسلم امام الحقائق، وخشية ألا أنبش عن حقائق أخرى في زوايا الماضي، قال: هل تأمر شيئاً معيناً أيها الآرنجي...

لم ارد عليه... آه يا زوايا الماضي ماذا لديكِ من أحداث والذكريات والمؤامرات الخاتلة

في دهاليزك... قلت: أتعرف ايها الكائن ان الكلمة القصيرة التي القيتها في المعبد كانت تملقاً مضحكاً لآمارسين... انت بالضبط مثل ارشكامو مملو(*)

مملو تقدم فن الكذب...

قال الكاهن بصوتٍ خافت: أمام الملوك البطاشين و الدمويين نصبح يا عزيزي أشباح... نتطرف في عبادتنا، نزهد ونتزيف،...

أقتنع هذا الكاهن ان الإفاضة في الحديث معي ليست في صالحه، لذا أنسحب داخل خندق الصمت بعد ان أمر ان يقدموا لنا مزيداً من الخمر... عند إقتراب المساء قال إنه مستعد لأن يضع في خدمتي وخدمة صديقتي كل ما اريد من طلبات... شكرته... أخذت يد تريفة وخرجنا... تجولنا في الشمس الربيعية الآيلة للغروب.

قالت تريفة: الآن الى أين؟

– الى المدينة... لما أنتِ حزينة يا تريفة؟

– بل سعيدة... انني اشكر اللحظة التي تعرفت فيها عليك.

– ألديكِ مانع ان نرجع غداً؟

– الى اين؟

– أنا الى آرنجا وانتِ الى ششروم...

أبهذه السرعة تريد ان تتركني... لِم العجلة يا جليل... أنا اريد أن أبقى معك... هل حقاً اوحشتك آرنجا؟

– حسن لنبق... بل لنبق معاً الى الأبد...

– يقال ان مدينة نفر تكون جميلة في ليلة تقديم النذور السائلة. لنذهب الى المدينة...

– لنذهب يا حبيبتي...

– لنذهب.

– هيا يا شعاع القمر...

***

(*) مملو باللغة البابلية تعني ممثل مسرحي.

أمسية قصيرة مع الأمير

هل تؤمن بالخوارق؟... هل تبقى بسبب قدراتك الذهنية العالية بارداً أمامها، ومن ثم تؤمن بها كحقائق، اذا كنت تؤمن إبق معي لنقضي أمسية قصيرة مع الأمير، وإذا كنت لا تؤمن، وتتهمني بعد عدة أسطر بالهذيان، اقول، اتركني، وشكراً، وثمة حقاً من يصدقني... أتعرف ما معنى الأستبصار... وقراءة الأفكار؟ الألتقاء بأشخاص لم ترهم في حياتك، فإذا بك فجأةً تتكلم معهم بمنطق حار أحياناً، وأحياناً بمنطق بارد... يقول البروفيسور –زيغو– ان المعجزة أثر، أو حادث لا يخضع للقانون... أو هي فوق القانون، تعمل في الكون الداخلي للأدراك... صدقني ان في الكون الداخلي للإدراك قوى رهيبة ورؤى، وعوالم ساحرة وغريبة لا تخضع لأي قانون... الآن، هل تعرف من هو الأمير الذي سأقضي معه أمسية قصيرة وبناء على طلبه... بل بألحاح شديد منه...؟ إنه الأمير ليون نيقولائيفتش مشكين، قد تسألني كيف وهو شخصٌ وهمي؟ لا لا... الأمير أكثر خلوداً منك، ومني، ومن الكثيرين... ان أمثال الأمير مشكين، وهاملت، والملك لير خالدون الى الأبد... بعد مقتل ناستاسيا فيلوبفنا على يد ذاك الدموي بارفيون سيميونفتش رجويين، لفني غمٌ قاتم، ورثيتُ كثيراً لوضع الأمير، وصرخت وأنا وحدي في غرفتي، أنت أيها الأمير مشكين أبله... أبله بحق... قبل أن أغلق الكتاب، وأنا نهب لحزنٍ موجع راح يعصر قلبي، سمعت صوتاً ينادي عليّ: أيها الصديق الطيب... ايها السيد النبيل القلب... دقيقة من فضلك... أعرني سمعك... فإذا بي فجأةً وجهاً لوجه أمام الأمير مشكين، وهو راقد فوق السرير في المستشفى، قال وهو يفيض بالحزن: أنظر ها أنذا عدت ثانيةً الى المستشفى... الى سويسرا... قلت: لماذا؟ لقد سمعت البروفيسور شنايدر يقول (ان أعضاء التفكير عندك مريضة، ومعطلة تعطلاً كاملاً، إنه بصراحة متشائم، يشك كثيراً في انك تشفى)

قال الأمير بصوت غاية في الرقة:

– يا صديقي تعال، اقترب مني وأرفع هذه الوسادة قليلاً... آ آ آ آ... هكذا... تقول ارهقتُ نفسي كثيراً.

– أجل يا عزيزي الأمير، وأحياناً في قضايا عابثة، مجانية، وحرقت أعصابك في

مسائل هامشية... أعرف أنك متعب الآن، اتذكر وجهك وانت في القطار الذي أقلك من سويسرا الى موسكو وقد تماثلت للشفاء... أما الآن، وأنت ثانيةً في سويسرا، شاحب، مرهق، يائس... كنت عند عودتك (أجعد الشعر، أسوده تقريباً... عيناك شهباوان صغيرتان لكنهما تفيضان إشتعالاً وإتقاداً، ووجنتاك بارزتان، وعلى شفتيك إبتسامة غريبة) أذكر إنك كنت آنذاك في السابعة والعشرين... إنني بصراحة أيها الأمير المحترم أرثي لحالك كثيراً...

صرخَ قائلاً وهو يرسل إليّ نظرات حارة: لا لا... لا أقبل الرثاء أبداً... إجلس يا صديقي بجانب سريري... هكذا وجهاً لوجه... جيد... هل بالإمكان أن أعرف اسم حضرتكم؟

قلت: لي الشرف أن أقول للأمير المحترم إنني أدعى (ج).

قال: تشرفنا أيها السيد ج... لم ارّ أحداً ممن تابعني عبر الف صفحة، غَضِبَ، وإنفَعَلَ، وصرخ في وجهي، وإتهمني بالأبله مثلك أنت... كما ولم أشعر يا صديقي بواحدٍ مثلك أحبني بصدق... أنا بصراحة أحببتك، وأحترمتك كثيراً أيها السيد ج... أريد هنا، في هذه الغرفة الصامتة والهادئة، وبعيداً عن اولئك الذين عرفتهم أن أتكلم معك آنت... سمعتهم بعد ان زرعوني هنا يغمغمون أنهم رجعوا الى روسيا... سأبقى هنا مع البروفيسور شنايدر... ثم ماذا؟ السيد الطيب ج، هل حقاً أنا أبله؟

– لقد حيرتني أيها الأمير المحترم، لم أستطع أن أفهم تصرفاتك الغريبة، والمعقدة، الشبيهة عذراً بتصرفات أبله، لكنك لا شك نبيل، وطيب، وصادق، ونقي، وعذب مثل الماء...

قال الأمير: أنا يا صديقي، ذهني وقلبي يسيران معاً... أنا لا أعرف أن أشطب على أفكاري... إنني بسبب طيبتي، ونقائي آسف جداً وأنا أتكلم عن نفسي بكلماتك نفسها أقول أستطيع مثل ايثورئيل أن أكشف كل شيء بسهولة... أتعرف من هو أيثورئيل؟ هو الملاك الذي أوكل إليهِ البحث عن الشيطان، فلما لمسه برمحهِ الذي لا يصمد أمامه زيف إنتفض الشيطان على شكله المعهود... صحيح أنني مريض، بل كنت أشدُ مرضاً في صغري... وثقافتي محدودة... لكن فراستي قوية... لدي قوة بصر إعرابي في الصحراء... لكنني في حالات معينة أبدو مثل البويهيمي الذي يطلق العنان لحواسه، حيث يزيح الفواصل بين الخيال والواقع، والأنفعال، والعقل، فأبدوا عندئذٍ شاذاً، غريباً مُحيراً...

لقد عاملوني كأنسان، لكن صدقني إن خيالي أوسع بكثير من خيالهم جميعاً... لقد قلت لأولئك النخبة من الأثرياء كما سمعتني (لا يزعجنكم أن تسمعوني أقول لكم وجهاً لوجه إنكم مُضحِكون)... أنا لست مُضحِكاً... إنني يا صديقي (ج) أمتلك مخيلة حالمة، لذا أبدو أحياناً كما لو قد أفقت لتوي من نوبة صرع، وأتصرف لا إرادياً بسبب مخيلتي الحالمة مثل المذهول... وبسبب حساسيتي العالية أفهم أدق وأصعب الإشتباكات، وأتحصن ضد كل الإستفزازات، يا صديقي (ج) أنت من النوع ألذي يغضب بسرعة... أنظر جيداً الى الذين حولي...وأنت طبعاً تعرفهم جيداً، وأخص بالذكر اجلايا ايفانوفنا ايبانيتشين، وارالیون الكسندروفتش ايفولجين، وايفان فيدروفتش ايبانيتشين وزوجته الطيبة الثرثارة جداً اليزابيث بروكوفيفنا، والدموي المخيف بارفيون سيميونوفتش رجوين، كوليا، وذاك الشرير الطيب كيللر، والنمام الواشي لوكيان تيموفئيفتش لبيديف، والأميرة المتعجرفة بيلو كوفسكايا، والمصدور المضطرب هيبوليت، وأخيراً تلك المجنونة المخيفة ناستاسيا فيلبوفنا... هؤلاء يا عزيزي (ج) متوترون دائماً، مضطربون يلفهم وضع نفسي صعب جداً... ينتابهم فرح وقتي، ثم فجأةً نوبات من الغم الرهيب المعقد، والهياج، ونوبات من الكآبة المقبضة، هؤلاء لا يملكون الهدوء في أعماقهم، ويغيرون أفكارهم ومشاعرهم في دقائق... أنا يا صديقي أعرفهم معرفة جيدة، لذا فعندما أتصرف معهم بصدق، وهدوء أعصاب، على عكس تهورهم، يتهمونني بأنني أبله، وكذلك انت يا صديقي...أه... لقد سمعتك تصرخ بي مراتٍ عديدة... أبله... أبله... أبله حقيقي وسمعتك تقول: عجيب أمر هذا الأمير، كيف ولماذا يتحمل، وهو الإنسان الطيب نزوات بورجوازية نزقة، متقلبة المشاعر مثل اجلايا؟... إسمع يا سيد (ج)، هل تتصور ان اجلايا البورجوازية سعيدة؟ لا لا... صحيح إنها تعبث معي... أتعرف لماذا؟... لأنها تعاني من أمض حدود اليأس، والكآبة، والوحدة الداخلية، وهي تلتذ وتستمريء كآبتها مدة ثم تنفر منها، لذا تراها تبكي وتضحك من غير سبب، وتقول نعم لهذا الشيء، ثم بعد تصرخ لا لا لا... أنا يا صديقي أفهمها لذا اتحمل نزقها... أفهمها أكثر من نفسها لنفسها، لذا أتصرف معها ببرود وشرود، آه... أيها الصديق الطيب، مع هذه الشريحة البشرية أتصرف دائماً مثل القديس بولص واردد حكمته (مهما تمعن في تعذيبي، فلن آتي عملاً يسيءُ إليك) صدقني أن اجلايا تحب العذاب... بل ثق أن المراءة عامةً تستمتع بالعذاب.

ذات مرة سمعتك تقول لي بغضبٍ حقيقي: أنت ايها الأمير جبان... جبان... جبان، أليس كذلك... ثلاث مرات تكرر كلمة جبان... اليس كذلك؟

قلت: يوم عاملك بارفيون سيميونفتش رجويين بطريقة خسيسه، لاسيما بعد ان تبادلتما الصليب الذي هو رمز للإستقامة، والحب، والوفاء، وجاء بعد ذلك ليطعنك في الفندق، وفعلاً لولا نوبة الصرع المفاجئة لطعنك اليس كذلك؟...

إبتسم الأمير وقال: لي أيضاً كلاماً حقيقياً...هل تتذكر؟... قلت: كان يجب مثل اي روسي حقيقي، مثل الشاعر پوشكين، وليرمنتوف أن تطلبه الى المبارزة...

هيء هيء هيء... صحيح كان يجب ...لكنني لست پوشكين ولا ليرمنتوف... أنا ليون نيقولائيفتش مشكين... إنسانٌ ضعيف... وأعترف لك بأنني جبان... نعم جبان... بسبب طفولتي الصعبة، بسبب مرضي، بسبب يتمي المبكر، وحياتي الخالية من التوجيه والحنان، بسبب الإهمال الشنيع الذي لحقني، بسبب الصرع الذي أعاني منه ولا أعرف متى وفي أي لحظة يزلزلني... الشجاعة يا عزيزي العربي (ج) كما تعرف صفة مكتسبة، وأنا حرمت من إكتسابها للأسباب التي ذكرتها، لذا اقول بتواضع أنا جبان... ومن تريدني أطلب للمبارزة؟ بارفيون سيميونفتش رجويين؟؟؟ ها ها ها... أنت لا تعرف هذا الدموي جيداً... إنه إنسان مخيف... آه، لكي تواجه رجويين، يجب ان تستعد للموت... اوه يا عزيزي إن فورات النزق، والتهور في هذا الإنسان مثل إنفجارات بركان ملتهب... أنا اعرف ماذا يريد رجويين أن يفعل بيّ! إنه يريد أن يفعل بيّ ما كان أباطرة الرومان العظماء يفعلونهُ بأسراهم...

قلت للأمير بعد أن رايت العرق قد تحلب على وجههِ:

– أعتقد إنك تشعر بالأرهاق.

– لا لا ... إنني أريد أن أشرح وضعي لك يا عزيزي العربي (ج) لأنك أحببتني كثيراً، وتألمت من أجلي كثيراً... حسن... ماذا كنت أقول...

– كنت تتكلم عن أباطرة الرومان وما يفعلونه بأسراهم.

– نعم نعم... كانوا يربطون أسراهم بالمركبة التي يمتطونها للأحتفال بمهرجان النصر... أن رجويين يريد بأي ثمن أن يذلني ويهينني أمام ناستاسيا فيلوبفنا، او يقتلني... آآآآ... رجويين إنسانٌ مخيف. لا لا لا، لا أحد يستطيع أن يشد لجام

رجوبين، ولا لجام نزقه وتهوره أبداً، رجوبين ضعيف فقط امام تلك الهستيرية ناستاسيا... لكن كما رأيت قتلها بتلك الطريقة الباردة...، أتعرف يا ج، أنت إنسان دقيق الملاحظة.

قلت: كيف يا عزيزي الأمير؟

– ذات مرة سمعتك تصرخ، وتنفعل وتقول: إن هذا الأمير إنسانٌ ضعيف الى درجة الهشاشة، إنه خرقة مبللة، ويحاول مع ذلك ان يحب إمرأة نارية، بل نمرة حقيقية ومتهورة مثل ناستاسيا فيلوبفنا...ها ها ها ها... هل كلامي هذا صحيح؟

– جداً جداً أيها الأمير...

– لكني يا صديقي لم أحبها... كنت فعلاً ضعيفاً أمام جمالها. عشقت جمالها الآسر... كنت بصراحة ارتعش امام جمالها... لا... لم أحبها... بل هي التي كانت تحبني...آلا توافقني؟... إنني كنت محبوباً من قِبل الجميع...

– فعلاً.

– أتعرف لماذا يا(ج) ليس لأنني طيب أكثر مما يجب...لا لا... أنني لم أعرف، ويبدو لن أعرف معنى الغرور، والغش، والتعالي،

قلت: أتعرف ايها الطيب من الذي فهمك أكثر الجميع؟

– أعرف من الذي أحبني أكثر الجميع.

– مَن؟؟

– أنت يا (ج)...

– شكراً يا أمير... أقول من فهمك أكثر، وقد لا تصدق؟

– مَن؟

– كيللر.

– آه... كيللر... ذاك الملاكم الصلب الذي يستعد دائماً للشجار... هل حقاً ما تقول...

– قال ذات مرة أمام الجميع(إن أفكار الامير أنبل إثنتا عشرة مرةً في الأقل من أفكار جميع من يحيطون به جملةً واحدة، لأن ما يسعى إليه الأمير ليس هو الشهرة، ولا الغنى، حتى ولا هو المجد... وإنما هو الحقيقة)

هتف الأمير: رباه... أهذهِ كلمات تفوَّه بها كيللر... أشكره... أشكره... أضاف بعد

شرود قصير: عن اي شيء كنت اتكلم يا عزيزي (ج)؟

– عن حب ناستاسيا فيلوبفنا لك.

أطلق الأمير ضحكةً حلوة... قلت: لماذا تضحك؟

– أضحك على الطريقة التي هربت بها مني في الكنيسة مع رجوبين ها ها ها ها، هذهِ المرأة المخيفة... إنها تصاب بإنتفاضات من النزق الهستيري، وكذلك إنتفاضات من الفرح الجنوني، والرعشات الهستيرية، لكنها يا عزيزي (ج)، وهذا مهم جداً تعرف من الذي يحبها وماذا تريد...

قلت: أيها الأمير، هل حقاً أن ناستاسيا المتهورة تعرف الحب؟

– هي كتلة من الحب، والإضطراب، وحب للحرية... إنها لا تريد ولن تريد أن يمتلكها أي رجل الى الأبد... لا لا... إنها تعشق حريتها فقط... تذهب مع توتسكي... مع رجوبين... نعم تهرب مع هذا وذاك... إنها يا عزيزي (ج) مثل مصارع الثيران الأسباني الذي لا يهمه إنتهاء المصارعة بالربح أو الخسارة، إنما تهمه التجربة مهما كانت مخيفة... صدقني أشكُ إنها تأوهت عندما غرس رجوبين السكين تحت ثديها الايسر بعمق سبعة سنتمترات... إن ناستاسيا فيلوبفنا تبحث في علاقتها مع الرجل الذي تختاره عن التجربة فقط... اوه... ناستاسيا ليست مجرد إمرأة متهورة، بل ذكية أيضاً... تصور كانت تحس وراء مظهري البارد، وشرودي، وصمتي ، قلبي الذي يتوحش للأمتلاء بالجمال الأصيل أولاً، ثم بالحب والحنان... هي لا تحب الغرام من أجل الغرام... إنما تحب الحنان، وتعرف إنني أستطيع أن امنحها الكثير من الحنان... أتعرف يا (ج) لماذا أُعزي نفسي أمامك؟

– لماذا يا أمير؟

– لأنك إنسانٌ طيب.

– كيف تعرف أنني إنسانٌ طيب؟

– لأنك كنت تتألم من اجلي بصدق... كنتُ أراك كما أراك الآن بوضوح تعاني من أجلي... صدقني أنا الآخر أُحبك يا (ج)... أُحبك... غاص الأمير في صمتٍ عميق... وقال عندما وجدني أمسح العرق من فوق جبينه: أتعرف أن ناستاسيا كان لديها قدرة تنبؤ عجيبة.

– أنا لم أجد فيها سوى جمالها... وتهورها.

– لا يا (ج)... لا... إنها مثل طائر (الهايمون) الأسطوري الذي يتقن فن التنبؤ... كانت تعرف أن رجويين يحبها بجنون وأنه سوف يقتلها ذات يوم، لذا كانت تعبث معهُ عبث القطة مع الفأر، وتعرف كيف تسحب الشكيمة بقوة وتدمي فكه، ومتى ترخيها... ها ها ها ها.

قلت: أنا جداً سعيد يا أمير.

– لماذا؟

– لأنني أراك تطلق ضحكة حقيقية... اضحك... ارجوك... اضحك...

– أتعرف لماذا اضحك؟

– لماذا؟

– أذكر ذات مرة رميت الكتاب من يدك بتقزز ورحت تصرخ ناعتاً إياي بالمجامل المجاني، بالمستمع الى الكذب، وتأييد الكذب... أتعرف متى كان ذلك؟

– متى يا أمير... يبدو انه أنت الاخر كنت تراقب جميع ردود أفعالي!

– طبعاً... طبعاً يا (ج)... كان ذاك يوم كنتُ أستمع بشغف الى كذبات الجنرال اردالیون ايفانوفتش ايفولجين، وهو يتكلم عن نابليون، وكيف اصبح ياورا للأمبراطور وهو في العاشرة من عمره... أتذكر صرختَ قائلاً: أن هذا الأمير الرواقي الذي يؤمن بالقيم الآخلاقية، والفضيلة، ويمقت الكذب، ها هو يستمع بشغف، بل ويشجع جنرالاً متقاعداً على الأستمرار في سرد الأكاذيب... وأذكر يا صديقي (ج)، إنك أضفت بغضب أكثر قائلاً: أما كان بوسعهِ أن يقول للجنرال، أسكت، هذا الكلام كله كذب في كذب... نعم مثلما قالت له ناستاسيا فيلوبفنا عندما راح يسرد لها قصة المرأة وقطتها في القطار، أيها الجنرال انك تكذب، هذه القصة منشورة في المجلة... ها ها ها ها... آه... حقاً... لماذا أستمع الى كذبات الجنرال؟يا عزيزي (ج)، أنا وكذلك انت أيضاً نطلق بين الحين والآخر كذبات بيضاء... صدقني الحيوان وحده لا يكذب... آه... ايفولجين جنرال متقاعد، بائس، مفلس، سكير، حياته كلها خالية من الأنتصارات... يا عزيزي (ج) إن أمثال الجنرال ايفولجين من البسطاء يثقون بسبب هشاشة وضعهم بالّذين لا يعرفونهم، لذا يروحون يسردون لهم قصة حياتهم بلهاث... هب إذا كنت صريحاً معه، هل حقاً كنت أستطيع تغيير تركيبة عقله؟ طبعاً لا... حسن... عندما قالت له ناستاسيا فيلوبفنا

بصلافة أنت تكذب يا جنرال، هل أثر فيه كلامها؟ بالعكس راح الجنرال يكثر من سرد الاكاذيب... إسمع، شكسبير يقول، إن الحقيقه تخجل من الشيطان،أما الجنرال ايفولجين فقد تحصن الى الابد ضد الخجل... لا لا... يا عزيزي الحقيقة لن توقف الجنرال عن سرد أقبح الأكاذيب... أبداً... الكذب يا عزيزي اصبح متعته، لذته، سلواه... إنه في الكأس الثانية يصاب بنوبة كذب، وفي الكأس الثالثة بنوبة هذيان... اوه، إنسانٌ بائس جداً... يا (ج) صرخاتك كانت كثيرة. ذات مرة قلت وأنت تصرف على أسنانك: ألله... ألله... ألا يملك هذا الأمير قليلاً من الكرامة؟ من عزة النفس؟ من يكن هيبوليت، وكيللر، وبوردوفيسكس، هذهِ الشلة من الغوغاء ليستمع إليهم، والى هذيانهم، وتحديهم، وعجرفتهم، وسخريتهم بذاك الصبر الغريب... صحيح أنهم سخروا مني... هذوا... صرخوا... لكنهم أمام أبسط حقيقة إنهاروا... قال هيبولت بصوت ذابل (أنظر الى بوردوفسكي: ها هو يريد صادقاً أن يدافع عن أمه، أليس كذلك؟ في نهاية الأمر لطخ شرفها بالعار)، بدأوا بالشرف والنبالة، ثم انتهوا بالعار... أجل، متهورون، يتكلمون في البداية ببلاغة، وهلوسة، ثم ينتهون بهذيان، وتعرية أنفسهم وأُسرهِم... يا عزيزي، إن رقة الطبع فيّ... وهذه الحقيقة أعترف بها لك، رقة ذوي الطبائع الضعيفة... أنا فعلاً إنسان ضعيف، لكنني طيب، نقي، وصادق... لقد أثار كوليا ايفولجين فضولي بخصوص هيبوليت، وقبلت أن استقبله، فراح هذا ويوردوفيسكي، وكيللر ينهشونني حول حقوق ضاعت ليوردوفيسكي، ويختلقون القصص، ثم أخيراً إستسلموا وبكوا مثل الأطفال... ها ها ها... اكيد انك يا عزيزي (ج) تقول مع نفسك، إن هذا الأمير يصلح أن يعمل في السياسة، لانهُ صبورٌ جداً، وبارد الأعصاب، مناور ذكي، يعرف متى وكيف يتملص بدهاء في المواقف الصعبة، ويعطي أجوبة منطقية... يا عزيزي، دعني أسالك، ماذا تفعل عندما تكون مُحاطاً بمخلوقات ذوات طبيعة ملتهبة؟ طبعاً تضطر ان تكون صبوراً، بارداً، وكيساً... أتعرف لماذا؟... حسن... لأن ذوي الطبيعة المتهورة يفسرون الكلمات عكس معانيها... هكذا هو هيبوليت... بمجرد ان تبتسم له بحنان، يصرخ قائلاً:

لماذا تسخر مني؟ يجب ان تترك هؤلاء لينفسوا عن غضبهم ليرجعوا بعد ذلك أطفالاً يبكون على كتفيك... هؤلاء لا يحاولون ترويض عقولهم، أو إجهاد فكرهم، بطيئوا الفهم إلا في حالات نادرة، ساذجو الفطنة... آه... يا عزيزي هل حقاً تريدني أن أدخل معهم في معارك كلامية، أو عضلية، أو أقول لدموي مثل رجويين. أطلبك للمبارزة؟ لا لا لا...

أنت يا (ج) لا شك إنسانٌ أكثر فطنة بكثير من أن تطلب مني أن أقوم بعمل كهذا... ماذا! أراك صامتاً؟ أعرف ان هناك صرخات أخرى أطلقتَها... إنني أحفظ عن ظهر قلب كل صرخة أطلقتها في وجهي... أعرف أنك لن تغفر لي إستماعي الى حقارات لوكيان تيموفئفتش لبديف... ذاك النمام، الدساس، والمهرج الذي يكذب بطريقة شنيعة، ويحاول بكل الطرق ان ينال من سمعة الناس الشرفاء بالذات... تذكر يا (ج) قصة المحفظة... بل انا أتذكر صرخاتك الحادة وانت تقول لي: إن هذا الأمير الأبله مثلما يلاطف ويستمع بنفس الهدوء الى سافل مثل لبديف، والى انسان طيب... صحيح ان لبديف إنسان لا يؤمن جانبه...نمام، لديه ضعف في وجدانه، لا يُعتمد عليه البتة، لانه كما تعرف بعيد عن اية قيم، ومقامر، أناني، متقلب المزاج، لا أخلاقي، وفنان في إختراع الوشايات، ويحب خلق البلاء للآخرين... حسن، هذا هو لبديف بصراحة.أتعرف ماذا يحدث لو حاولت ان ترشد أمثال لبديف الى طريق الصواب؟ يصرخون في وجهك بصوتٍ راعش، وإجادة مهولة في التمثيل: لماذا أنت مرتاب يا سيدي... لماذا أنت شكاك يا سيدي... الرحمة، الرحمة... يا عزيزي (ج) لبديف على الرغم من لباقته، يعاني مثل كل الذين ذكرت لك أسماءهم، من إختلال كهربائية دماغه، هل تفهمني؟ ايفولجين ناستاسيا، اجلايا، كيللر، هيبوليت، ورجويين، هؤلاء جميعاً يعانون من إضطرابات الموجات في عملهم الدماغي... نعم نعم، بل أكثر، يعانون من إختلال حقيقي وقوي في كهربائية دماغهم... الآن قل لي، ماذا أستطيع ان أعمل لمثل هذه الأدمغة، وانا بطبعي مستمع جيد... طبعاً أستمع إليهم... وهب إني رفضت أن أستمع الى لبديف، هل أستطيع أن أصلحه؟ مستحيل... يقولون أن الأقوياء لا يكذبون... هذا غير صحيح... لقد إعترفت لك أكثر من مرة إنني إنسان ضعيف، وجبان أيضاً، لكنني لم أكذب، أنت كنت تراقبني بدقة لا متناهية يا (ج) هل حقاً وجدتني أكذب؟ ربما مرة واحدة عندما قلت لأم اجلايا إنني أحب اجلايا، ثم عدت وقلت لا لا، لا أحبها، كنت معجباً بها... اجلايا فتاة غريبة... إسمع عندما تجد إمرأة يقظة الهيئة، تأكد إنها ذكية... اجلايا فتاة ذكية، استغلت طيبتي، وراحت تضع اقنعة غامضة على وجهها، تجلس بهدوء، واسترخاء مصطنعين، ثم فجأةً تطلق ضحكةً هستيرية، وكلمات تثقب القلب، أو ترسل لي بعد ان تسخر مني قنفذاً كهدية... ها ها ها.

بعد صمتٍ قصير، إنحنيت وقبّلتُ جبين الأمير الحار... قال بصوتٍ دامع: يا صديقي

الطيب (ج) إغفر لي هفواتي الصغيرة البريئة، ونزواتي النظيفة... كفانا جري وراء المثاليات...

قلت: أيها الأمير ليون نيقولائيفتش مشكين، أنت قديس... نعم قديس حقيقي... وداعاً أتمنى لك الشفاء...

– شكراً... وداعاً يا صديقي...

ملاحظة: قد لا تمنح هذه القصة بسهولة نفسها للقارىء الذي لم يقرأ رائعة دستويفسكي –الأبله– لأنها تدور حول بطلها الأمير مشكين.

وداعاً أيها الشعراء

سبع مسرحيات من فصل واحد

خريف مبكر

مسرحية من فصل واحد

الخـريف وهـو يسـرع لأن يصـبح ذهبـاً
وقـدتناقضت العصـارة في البتـولا حسـرةً
على الذين احببتهم وهجرتهم.
هاهو يبكي بدمـوع من أوراقـه المتسـاقطة
على التراب.

سيرغي ياسينين

زاوية بعيدة في أحد المتنزهات العامة... مصطبة تحت شجرة سرو... ظهيرة خريفية حزينة... الأرض مليئة بالأوراق الصفراء الذابلة... سميرة شابة جميلة... على وجهها إيماءة من العذاب والمعاناة، تتكلم بصوتٍ عطوف، وبحرارة، وبسخرية عند الضرورة، وتعرف كيف تصالح آلامها واحزانها... سامر شابٌ وسيم، متوتر، مضطرب، مزاجي... المكان صامت، وتسمع بين الحين والآخر أمواج من زقزقة عصافير الدوري.

سامر: (بنفاد وصبر) لم هذا الصمت الأخرس يا سميرة؟

سميرة: (ببرود)ماذا؟...

سامر: من مدة وانتِ شاردة... هل تسمعين هذهِ الزقزقة السخيفة... إنها مثل أُبرة محمية تنغرس في المخ... (وقفة) إستمعي... نغمة جافة، رتيبة، وحقيرة... هل سبق وان استمعتِ الى نغمة لها مثل هذهِ الرتابة...(يقلد زقزقة العصافير)

سميرة: إهملها... لماذا تستمع إليها...

سامر: أهملها! لكنها من القوة بحيث تفرض نفسها على أذني رغماً عني، وانتِ، ما إن تصمتي، وتقطبي، أروح أنا لا إرادياً أستمع إليها... أنساها للحظات وانتظركِ لتتكلمي، لكنكِ مضربة عن الكلام، والزقزقة مستمرة...(وقفة، بغضب) عصافير حقيرة... (يصفق بيديه عدة مرات بقوة وبعصبية... تتوقف الزقزقة للحظات... يتنهد) ها ها ها... خافت... إستمعي. بعد ثوانٍ تعود الى ثرثرتها... (يطلق ضحكة

عصبية) ترى ماذا تقول هذه العصافير السخيفة وهي تزقزق بهذه الحرارة والحماس؟

سميرة: وهل العصافير سخيفة يا سامر!

سامر: ما فائدتها؟

سميرة: لا أعرف...

سامر:إتلاف الزرع...

سميرة: إنها عصافير... مجرد عصافير.

سامر: إنها لا تقل ضرراً عن الجراد، لهذا يبيدونها من غير رحمة في الصين.

سميرة: ماذا؟

سامر: طبعاً... لأنها تتلف مساحات شاسعة من الزرع... إنها آفة... نعم آفة حقيرة... (بغضب) إستمعي... عادت الى زقزقتها...(يصفق مرة أخرى) صمت... صمتٌ ناعس...

سميرة: (ببرود) إنها عصافير ذكية...

سامر: (يطلق ضحكة ساخرة) بل تافهة، غبية... لا لا... إنها أحياناً يقظة جداً... عندما كنت صغيراً كنت أحتار كيف أصطاد واحداً بالنبلة... كنت أقطع رؤوسها... إنه طيرٌ يقظ... إنه مثل الذباب كل شيء في جسمه الصغير يرى... ومثل الذباب يتكاثر... (وقفة) أليس كذلك؟

سميرة: ماذا؟ هل جئنا الى هنا لتحاضر في العصافير.

سامر:إنها فعلا... لكن البلابل هنا قليلة... (وقفة) نهار خريفي جميل...

سميرة: بل حزين جداً.

سامر: أنتِ حزينة يا سميرة. أفي مثل هذا النهار ، يشعر الانسان بالحزن.

سميرة: لستُ حزينة... أنت تشعر بالضجر.

سامر: ترى ما شكل الضجر؟

سميرة: وهل للضجر شكل.

سامر: آه لوكان علي شكل شيء يمكن الإمساك به.

سميرة: إنك لا تحاول العثور عليه... لا... لا تحاول.

سامر: اين هو؟ ماشكله؟ اين مكانه... اجل انني اشعر به.

سميرة: إنه في داخلك... وانت يا سامر بدلاً من ان تتغلب عليه، تربيه، وتغذيه كل يوم، إنه مثل العشب ينمو بداخلك.

سامر: (بحزن) ماذا؟

سميرة: من خمس سنوات والضجر صديقك... هل حاولت بجدية ان تتخلص منه... أبداً... أبداً...

سامر: (بحزن أشد) سميرة، هل ستلقين عليّ محاضرة اخرى؟ هل ستبدأين بنفس الأسئلة.

سميرة: سامر... لماذا طلبت مني ان اجيء الى هنا مرةً أخرى؟ يالسخافتي، لا أعرف لماذا لبيت طلبك وجئت الى هنا... هل لأستمع الى ضجرك؟ ولتتكلم عن عصافير سخيفة... وو.

سامر:(مقاطعاً) تعرفين ماذا؟

سميرة: ماذا.

سامر: انا لا شيء.

سميرة: لماذا تصغر من شأنك... أنت اكثر من لا شيء... لكنك لا تحاول.

سامر: بعد قليل ستقولين لي، لماذا لا تلتحق بأحدى الفرق المسرحية.

سميرة: أنت بصراحة ممثل موهوب جداً، وخريج اكاديمية، وسبق أن مثلت أدوار رائعة، فلماذا لا تحاول من جديد وتلتحق بفرقة...

سامر: أنظري... اعرف جيداً هنا، وتحت هذهِ الشجرة سنبدأ نفس النقاش عن موهبتي.

سميرة: أنت بحاجة الى ان تنسى نفسك المهملة... أنت بحاجة ماسة للهروب من لامبالاتك، وكسلك... في الفرقة تكون إنساناً جديداً، وتنهمك مع الممثلين والممثلات، تقرأ، تهيء، تساعد، تعمل... لقد عرفت تملك فائض نشاط غريب. هذه حقيقة يا سامر، وانت لا تريد الأعتراف بها.

سامر: أنا... (بسخرية) أمتلك فائض نشاط. اي فرقة تقبلني في صفوفها.

سميرة: انت اواه... المأساة انك لا تريد ان تعترف بروعة موهبتك، ولا تريد أن تخفف قليلاً من كبريائك، وتوترك، وعصبيتك...انت لا تريد ان تراجع نفسك... (وقفة).

سميرة: سامر إسمع... ان تكون كأنسان بلا أزمة شيء مستحيل... لكن المهم ان تعترف

مع نفسك وبصراحة بهذه الازمة وتعمل على تجاوزها... اما انت فتخلق لنفسك مزيداً من الأزمات كل يوم.

سامر: (بصوتٍ ساخر وحزين) مرة أخرى نعود الى نفس الحديث... الى نفس الثرثرة... الى نفس الهذيان، والمحاضرات...

سميرة: (بغضب) الآن، لماذا طلبت مني أن أجيء الى هنا؟ قل... تكلم لا وقت لديّ... ماذا تريد مني هذه المرة!

سامر: (بإنفعال) لقد قررت مع نفسي ان اكون هادئاً معكِ هذا اليوم.

سميرة: انت تتكلم عن الهدوء بإنفعال شديد.

سامر: أحاول في هذا اللقاء أن أسيطر على أعصابي... أرجوكِ، تكلمي معي برفق... أرجوكِ... لا تثيري أعصابي... كلميني بهدوء... أنتِ تعرفين ان أعصابي تتهيج لا إرادياً. (يحرك اصابعه بعصبية) آه... انا لا أعرف نفسي.

سميرة: لأنك لا تحاول... ماذا تعمل خارج ساعات التدريس... لاشيء.

سامر: فعلاً.

سميرة: أنت لا تقرأ، لا تعمل، لا تحاول، لا لا لا، وكأي شاب تملك فائض نشاط ووقت، ولا تعرف كيف تحل مشاكلك، بل تغوص كل يوم في المزيد منها، اقول يستحيل ان نتفاهم ابداً.

سامر:(بجرسٍ غريب، وبطريقة بليدة وحزينه) انا لا أملك اية موهبة. اعرف إنني ممثل فاشل...

سميرة: مستحيل... مستحيل... لقد اديت أدواراً رائعة وصعبة جداً... كنت في منتهى الروعة، والتألق في الأكاديمية... لكنك الآن تصر على ان تكون مهملاً، ضائعاً، وفاشلاً، اه، يا سامر يوم كنا في الأكاديمية كنت تستمع، وتتكلم بلغة مليئة بالأحلام والآمال، وكنت تقبل النصح، وتعمل بعناد لتطوير نفسك دائماً الى الأحسن... كنت تقرأ بحماس، وتبحث عن المصادر والنصوص بجنون...

سامر: (ببرود) أسفي على تلك السنوات، جريت خلف النصوص، وحتى خلفك مثل الجرو، وأسفي الشديد على زواجي منكِ. وذاك الحب الذي سفحته عليكِ بالذات... ايه، حبي المجنون لكِ، وزواجي منكِ، فشلان ذريعان في حياتي، يضافان الى فشلي في المسرح...

سميرة: اعرف، اعرف... انا سعيدة بمعرفتي هذه الحقيقة، ولهذا نحن مفترقان من عدة اشهر، اسمع، هل طلبت إليّ أن اجيء الى هنا لنعيد احاديث الفشل والألم. والموهبة والغضب.

سامر: كانت سنوات ميتة.

سميرة: وهل اجبرتك على ان تقع في حبي.

سامر: لا...

سميرة: لم الأسف إذن؟

سامر: آ آ آ... اي كارثة حلت بي عندما فجأة بدأت أشعر إنني أحبكِ، (وقفة) لماذا!... حقاً لماذا مات حبكِ(يؤشر الى صدرها) هنا...

سميرة: لا أعرف هذه المسألة تعود لك.

سامر: (يتمشى بخطوات قصيرة، وبألقاء جميل يردد الأبيات التالية لبودلير). وانت تعلمين ان هذا المرض المحموم الذي يتملكنا في تعاستنا الباردة، هذا الحنين الى ان نعرف بلاداً مجهولة... (وقفة) اين اختفت زقزقة العصافير... (صمت) سميرة قررتُ ان اهجركِ.

سميرة: (ببرود) لن تكون اول واخر من احب وهجر...

سامر: سميرة... هل حقاً اذا هجرتكِ تأخذين المسألة بهذه البساطة؟

سميرة: طبعاً... سامر، رغم كل ما عملته معي لا اكرهك كرهاً وحشياً كما تكرهني انت، لا لا لا... ولم اعد انا الأخرى طبعاً أحبك كما كنت أيام الأكاديمية...(وقفة) إنني عندما افترق عنك أشعر انني سأتحرر الى الأبد من كل ما اربكني، وحيرني، وضللني، وآلمني.(وقفة... تطلق تنهيدة عميقة) وابقى يا صديقي الأول أتذكر ومضات حلوة لأيام جميلة وان كانت قليلة عشتها معك.

سامر: لم أعرف إمرأة واقعية مثلك.

سميرة: ولم اعرف رجلاً لم يحاول ولو قليلاً ان يقترب من حافة الواقع مثلك... (وقفة) نعم جرب حياة أخرى يا سامر... وستجرب حتماً... هناك ولمثلك دائماً نساء... جرب...

سامر: (يطلق ضحكة هيستيرية) هل تمزحين؟

سميرة: أمزح؟ طبعاً لا... بل يجب ان تجرب...

سامر: أعرف... هل حقاً لن تقيمي القيامة اذا طلقتك او هجرتك؟

سميرة: (بسخرية) هراء... أقيم القيامة؟ها ها ها... انت لا تهجرني، ارفض هذه الكلمة، لانني لست عشيقتك، وانما زوجتك... فأنت وعدت، واقسمت بشرفك ان تطلقني، هل فهمت.

سامر: اطلقك... نعم وعدتك فعلاً... إذن انتِ لا تمانعين (وقفة) ماذا تفعلين أزاء هجري يا سميرة؟

سميرة: (بسخرية) أمانع! من سنة وانا أرجوك، واهرب منك كما انا هاربة حالياً من عدة أشهر... (تطلق ضحكة ساخرة) وتسألني ماذا أعمل؟ اوه لا تخف، لن اجلس تحت الشمس وابكي واندب حظي... لا لا لا. فإذا كنت تتصور إنني سأجعل من الحزن عبادة وصلاة فأنت الف واهم...(وقفة، وبثقة) إنني سعيدة جداً في حياتي الدراسية، وسعيدة مع والدتي التي انا وحيدتها... لدي غرفة... ومرسمي الصغير أرسم كل يوم... (وقفة) انت تعرف مبلغ موهبتي في الرسم... لدي أفكار جميلة، واحلام كبيرة كي ارسمها... (وقفة) وسوف أصادق فناناً تشكيلياً ذات يوم يفهمني جيداً وأفهمه...(بمرح) اوه ستكون لي مشاريع كثيرة.

سامر: (تنتابه غيرة حادة) وهل فعلاً تقعين في حبه.

سميرة: ما ان أفهمه، ويفهمني هو بدوره حتى اقع في حبه بجنون... لم لا... (تنهض، وتتمشى بخطوات وئيدة)وهل توجد قلوب شابة في هذه الحياة محصنة ضد الحب؟ طبعاً لا... وأنا، ما زلت في ذروة شبابي...(وقفة، بحرارة) الحب الحقيقي يعرف كيف يسرق حتى القلوب المحروسة.(وقفة) سأفتح قلبي بحرارة ذات يوم لمن يعرف كيف يرعاه...

سامر: (بذهول) سميرة، هل حقاً كنت زوجاً فاشلاً.

سميرة: جداً جداً... اوه، وبشكل فضيع.

سامر: لماذا؟

سميرة: لماذا تسألني أنا...

سامر: حقاً... سؤال سخيف... لكنك أحببتني حباً.

سميرة: (مقاطعةً إياهُ) نعم... كأي شابة عديمة التجربة، والخبرة خدعت بوسامتك، وحماستك، وإندفاعاتك الدافئة في الأكاديمية، وأنا بصراحة كنت اخاف من

إنفعالاتك، وتوترك. وأحياناً لا مبالاتك، وطبعك المزاجي، لكنني كنت اعزو كل شيء الى حماس الشباب.(وقفة) صديقاتي كن ينفرن منك في الأكاديمية، أما أنا... آه... كنت أقول، طالما انه يدرس المسرح، ويمتلك حباً حقيقياً للتمثيل، فأنه فنان، وسينضج بمرور الأيام، إنه من النوع الذي يحتاج الى الصبر معه (تطلق تنهيدة عميقة) آه، أنا الأخرى كنتُ من شدة حماسي، وإبتهاجي، أكذب على نفسي، وأندفع عميقاً كل يوم في حبك.(وقفة) الحب... الحب... ملعون هذا الحب الذي يقبل بكل شيء، بالكذب، والغش، والخديعة...(بألم) بعد السنة الأولى لزواجنا اصبحت غضباً مسلطاً عليّ يا سامر.

سامر:(بسذاجة) لماذا لم استطع ان احبكِ بأستمرار.

سميرة: لأنك ببساطة أناني... والأناني لا يستطيع ان يحب حتى نفسه...

سامر:(ببرود)أنتِ على صواب... وانا نرجسي ايضاً.

سميرة: أنت تتآمر على نفسك وتخدعها...

سامر: فعلاً... أنا مخادع سخيف... ربما لهذا السبب اريد ان اكون حراً من اي إرتباط.

سميرة: وانا اقول لك بمنتهى الصدق وداعاً.

سامر: (بشرود بعد صمت) سميرة، هل تحبين أحداً الان؟

سميرة: لا... لكن سأحب بالتأكيد...

سامر: لماذا أنتِ أقوى مني؟

سميرة: بل أكثر واقعية منك.

سامر: ربما اكثر وعياً مني... نعم انت أقوى مني... (وقفة) رغم لا مبالاتي. وانانيتي، واهمالي، إستطعت إغوائي...(وقفة... يطلق ضحكة باردة) أنا! انا الذي كنت انفر النساء، اغويتني وجعلتني اجري خلفك مثل الجرو... كنت فتاة صعبة، آه، كنت مثل السمكة كلما حاولت ان امسك بكِ للحظات كنتِ تنزلقين، وكنت اتوتر...

سميرة: كنت انزلق!... لا... كنت ابادلك الحب بصدق، ولدهشتي الشديدة بدأت بسرعة تريد الجسد... كنت اقول مع نفسي، انه فنان، هل حقاً انه بهذه السرعة يلهث وراء الجسد... كنت بدلا من ان تهمس في اذني كلمات حلوة مثلما كنت تفعل فوق خشبة المسرح وانت تمثل بعض شخصيات لوركا، كنت مثل إنسان جائع...

اوه، كنت اخاف، وارتجف من سلوكك الشهوي، من إضطرابك... يا الهي، وصدق حدسي الأنثوي، ومللتني بعد سنه واحدة على زواجنا...

سامر: (كمن يهذي) صرت كلباً... ها ها ها... كلباً... (بغضب) كنت مخادعاً سخيفاً... كنت وحشاً معكِ...أعترف... نعم كنت وحشاً حقيقياً. فعلاً لم أعرف معنى الحب.

سميرة: كنت تعرفه اكثر من اي عاشق على المسرح...

سامر: ومعكِ كنت وحشاً حقيقياً... الم اقل لكِ إنني إنسانٌ عديم الموهبة...

سميرة: أنت عديم الموهبة في التعامل معي، وربما مع الآخرين، لكنك كممثل موهوب، وأشك ان تعرف الحب الحقيقي.

سامر: ابداً... للمناسبة... ماذا تقصدين بالحب؟

سميرة:وهل يفيد الحديث معك في هذا الموضوع.

سامر: ارجوكِ... ارجوكِ تكلمي... يعجبني ان تمارسي عليّ شيئاً من السادية... ارجوكِ... ماذا تقصدين بالحب؟

سميرة: غريب يا سامر... انت كنت سادياً معي لسنوات... والان تأخذ دور المازوكي... لا... (وقفة) تسألني ماذا أقصد بالحب. الحب الذي اقصده هو ذاك الذي يجعل الانسان ان يتطور، ويطور ملكاته، نعم الحب الذي يجعل الإنسان ينضج كل يوم اكثر فأكثر... هل فهمت،

سامر:(يطلق ضحكة متوترة) أنتِ فعلاً ملاك، اما أنا فوحش فعلاً.

سميرة: أرجوك يا سامر، لنفترق كما تريد، وكما اريد انا... ليعش كل منا حياته الخاصة، (صمتٌ طويل... من بعيد يدخل شاب وشابة يتمشيان بخطوات قصيرة ثم برفق يجلسان فوق مصطبة ويتكلمان مع بعض بحب من غير ان يسمع صوتهما، ويؤديان أثناء حديثهما حركات رشيقة بأيديهما)

سامر: جاءا مرة أخرى كما لو انهما على موعد معنا... اعتقد ان هذه ثالث مرة نلتقي بهما هنا...

سميرة:(تهز رأسها بلا مبالاة) م م م م .

سامر: يختاران مثل هذا الوقت بالضبط... كل شيء هاديء، والحديقة خالية. أليس كذلك.

سميرة: يعيشان نفس أيامنا الحلوة قبل خمس سنوات.

سامر: (بتأوه) ترى ماذا يقول لها الآن وهو يأخذ يدها بين يديه... أنظري... كم بِرقة يمسك يدها... من يدري اية كلمات حلوة يسمعها الآن...

سميرة: أجمل ما عنده.

سامر: اعرف من حركة يديه انه يسمعها ارق كلمة الآن.

سميرة: إذا كان يحبها فعلاً

سامر: إنه يضغط على أصابعها.

سميرة: لا... انه يمسد اصابعها، انت عندما كنت تضغط على اصابعي تخنق الدم فيها. وأضطر أحياناً الى ان أصرخ من المي.

سامر: شابة جميلة...

سميرة: جداً

سامر: ورقيقة.

سميرة: فاتنة حقاً... إنها سعيدة ايضاً...

سامر: تتكلم بطلاقة...

سميرة: صوتها رائق رنان... انها فعلاً غضة مترعة بالفتنة.

سامر: تتكلم بحماس... لقد ارتاحت لنا كثيراً قبل ان ننفصل.

سميرة: آه... في زيارتهما الأولى لنا في البيت.

سامر: إنهما يطيلان فترة خطوبتهما.

سميرة: ليحبا بعضهما أكثر.

سامر: إنهما سعيدان:

سميرة: جداً.

سامر: هي تحب شكسبير وتقول انها حضرت اكثر من عملٍ لي وآخر عمل لي قبل أن اترك المسرح.

سميرة: ربما... إنها دائمة الفرح... مشرقة الوجه بأستمرار...

سامر: لثغتها حلوة وهي تلفظ حرف الراء... أنظري، اظن انه إنحنى ليقبل اصابعها.

سميرة: هكذا يتصرف المهذبون.

سامر: الوحوش أمثالي يخنقون الدم في رؤوس الأصابع.

سميرة: ولا يفيد معهم التأوه.

سامر: سادي... قذر... أنا.

سميرة: لست قذراً، بل إنسان لا يعرف نفسه.

سامر: إنسان أراد ان يلتهم كل شيء دفعةً واحدة.

سميرة: بسرعة ليُشبع بهيميته.

سامر: كنتُ وحشاً.

سميرة: فعلاً.

سامر: كنتُ وحشاً قذراً...

سميرة: عبثاً حاولت ان اجعلك إنساناً حضارياً.

سامر: (ينفعل) لماذا استطيع السيطرة على أعصابي وانتِ تهينيني، وتُسمعينني كلمات قاسية.

سميرة: أنا أقول الحقيقة.

سامر: يعجبني أن أصفعك، يعجبني ان ارى الدم يسيل من زاوية فمكِ.

سميرة: ما اكثر ما أدميتني.

سامر: أنظري...

سميرة: ماذا؟

سامر: الشاب بدأ يربت على كتف الشابة.

سميرة: إنه مهذب جداً

سامر: فعلاً.

سميرة: باسم الوجه دائماً، وخجول.

سامر: جداً.

سميرة: وقليل الكلام... الهي، انظر كم بحنان تستجيب هي الاخرى له... ان حركاتهما الرقيقة تؤكد ان الحب عطاء... عطاء... وليس مجرد أخذ... (وقفة)سامر، يستحيل ان تعرف ما معنى العطاء في الحب...

سامر: حقاً، لقد أخذت منكِ الكثير.

سميرة. أخذت الكثير وبسرعة، لذا مللتني، وخلفت لي العذاب، كنت احتاج الى أعصاب من فولاذ لأتحمل من قسوتك، غضبك، وطبيعتك المتقلبة،(صمت طويل) اين وصلت في معاملة الطلاق؟ وهل ستطلب مني ونحن منفصلان ان اجيء الى هنا

بين الحين والآخر لنعيد نفس هذا الحديث الذي رددناه لسنوات، لقد وعدت ان ترسل لي ورقة الطلاق... اين هي؟ واين وصلت بها...

سامر: لا أعرف لماذا أؤجل الموضوع.

سميرة: إستعجل بها أرجوك.

سامر: ما رأيك لو ارسلها لك بعد يومين.

سميرة: كلام رجل؟

سامر: نعم...

سميرة: اكون شاكرة.

سامر: هل أخبرتِ والدتكِ بقرارنا؟

سميرة: هي لا تتدخل في شؤوني، إنها تتألم كثيراً من اجلي ولا تريد سوى سعادتي.

سامر: (يتأوه) انظري كيف تريح الشابة رأسها فوق كتف صديقها، وهو يدفع خصلة من شعرها.

سميرة: منظرٌ جميل... إنهما يشبهان اللوحة

سامر: هل سترسمينهما ذات يوم؟

سميرة: لا أعرف... ربما...

سامر: لماذا اتصلت بك خمس مرات خلال هذا الشهر؟

سميرة: لا أعرف.

سامر: بماذا تشعرين عندما أخابركِ وأطلب منكِ المجيء الى هنا ؟

سميرة: اشعر بلا شيء... اقول مع نفسي، اكيد هذه المرة ورقة الطلاق معه...

سامر... بالنفاذ صبرك... الشابة تبتسم إبتسامة جميلة... إنهما يقدمان مشهد حب صامت...

سميرة: سعيدان، ولا يحسان بالزمن ابداً...

سامر: بالنسبة لنا وصلنا الى خريفنا.

سميرة: أنت أردته خريفاً مبكراً.

سامر: الشابة تلوح بيدها.

سميرة: إنها سعيدة...

سامر: كيف سيكون شعورك اذا وصلتكِ ورقة الطلاق؟

سميرة: شعور إنسانة حرة حرية مطلقة.

سامر: الهذه الدرجة كنت كابوساً عليكِ.

سميرة: في السنة الاخيرة اصبحت مرعباً، عنيفاً، هستيرياً... اوه

سامر: سميرة، هل تنسينني الى الأبد؟

سميرة: لا طبعاً. ابقى اتذكر ومضات من الذكريات الحلوة في الأكاديمية، وأيام تعارفنا، آه نعم ايام الحب.

سامر: لماذا انا غبي؟

سميرة: لست غبياً أبداً... أنت تعلمت على حياة التشرد والكسل، وأصبحت أنانياً، وعنيفاً، وحرقت مواهبك عبثاً.

سامر: (بسخرية) مواهب... ها ها ها... مواهب.

سميرة: إسخر من نفسك كما تشاء... ما زلت واثقة إنك حتى الآن خير من اجاد دور هملت، وبونتيلا، وياجو... وحتى الأدوار الصغيرة التي إشتركت فيها في الأكاديمية كنت متفوقاً فيها على الأخرين. اي ظلم ان تتحول الى انسان متشرد وكسول.

سامر: هذا اليوم لأول مرة تكلميني بلهجة حادة... لأول مرة اسمع منكِ كلمة متشرد، كسول، عنيف، إنكِ لم تعودي تخافي مني...

سميرة: أبداً.

سامر: لماذا؟

سميرة: لانك لا شيء بالنسبة لي الآن.

سامر: لاشيء .

سميرة: نعم... مجرد صديق عرفته ذات يوم واحببته، ثم ودعته...

سامر: لكن من حقي ان اتصرف معكِ الآن كزوج؟

سميرة: شرعاً نعم: غير انني تجاوزت حاجز الخوف، ولم اعد وسط عذاباتي الكثيرة انظر إليك كزوج، بل كزميل...

سامر: تعلمنا ان نستعمل اتفه الكلمات.

سميرة: بل أحقرها.

سامر: فعلاً.

سميرة: ومع تفاهة الكلمات... يا الهي، تلك القسوة، الضرب والركل... حقاً كيف وبأي حق يضرب الرجل المرأة لمجرد نزوة، او إنفعال...

سامر: أعترف إنني ضربتكِ وبقسوة...

سميرة:(بسخرية) فنان، ومثقف، يصفع زوجته، لا أعرف شيئاً أحقر من هذا؟

سامر: لقد إعترفت لكِ انني كنت حقيراً في الآونة الاخيرة.

سميرة: لم تكن حقيراً، بل وحشاً.

سامر:(يطلق تنهيدة حارة...) عاد الشاب لتقبيل يد الشابة بعد قليل تضع اصابع الشاب فوق خدها...

سامر: عيونها الآن تبرق.

سميرة: مثلما كانت عيناك تشعان وانت يوم كنت تسمعني اجمل الكلمات.

سامر: الهي... وكانت عيناكِ تتلألآن، وصوتك يختنق.

سميرة: وانت تسترسل في الحديث بألقائك الجميل وكأنك على خشبة المسرح...

سامر: كنتِ تُسحرينني بجمالكِ، بدفئك، برقتكِ.

سميرة: وانت كنت ساحراً.

سامر: والآن أصبحتُ وحشاً

سميرة: تذكرني عندما تعود حملاً وديعاً.

سامر: حملاً وديعاً... من يساعدني بعدك لأحقق هذا الحلم.

سميرة: ستحاول.

سامر: مستحيل... وإنني سأرجع أكثر توتراً، وعذاباً وعنفاً.

سميرة: لا لا... سترجع وديعاً، وفناناً.

سامر: ها ها ها... فناناً(وقفة) مازالا يتغازلان...

سميرة: ماذا لديهما سوى الغزل.

سامر: لقد توقف الزمن بالنسبة لهما.

سميرة: إنهما غائبان عن كل شيء.

سامر: يوم كنا نخرج من الأكاديمية كنت الغي الناس، والسيارات والزحام...

سميرة: كنت تسكر من شدة فرحك، وتضحك...

سامر: أنظري... يضحكان... أعتقد يريد ان يقبلها...

سميرة: إنهما حمامتان بحق...

سامر: اريد ان انادي عليهما.

سميرة: دعهما يعيشان أجمل لحظاتهما...

سامر: ترى هل هما متفاهمان؟

سميرة: هذا ما يوحي به تصرفهما...

سامر: سميرة، هل ستعيشين نفس لحظاتهما ذات يوم ومع رجلٍ آخر؟

سميرة: عندما أحب... نعم.

سامر: وهل ستحبين بنفس حرارة حبنا؟

سميرة: أكثر بكثير... سيما بعد ان اعرف كيف أختار...

سامر: وتقلقين على مواعيدكِ معه؟

سميرة: كل القلق...

سامر: وبتوتر تنتظرين رنين الهاتف!

سميرة: الحب هو الذي يعطيني كل هذا الحق.

سامر: وتكتبين له بخطكِ الجميل كلمات حلوة كما كنتِ تكتبين لي؟

سميرة: ربما يلهمني بكلمات لم اقلها لأي كائن.

سامر: ترى هل سيضربكِ ذات يوم كما كنت افعل أنا؟

سميرة: (بغضب) أجبن عمل يقوم به الرجل هو عندما يضرب المرأة.

سامر: (بتوتر) يعجبني ان اضربكِ الآن.

سميرة: لقد ضربتني كثيراً.

سامر: اريد ان اضربكِ.

سميرة: اذا كنت تريد ان تشعر بمزيد من الجبن، هل هناك حقاً بقعة في جسدي سلمت من ضرباتك؟

سامر: إنني الآن اكرهكِ، وأحبكِ حباً... لا أعرف... اسمعي، ماذا لو حاولت من جديد...

سميرة: حاولت ماذا؟

سامر: أن أحبكِ.

سميرة: هيهات...

سامر: لماذا؟

سميرة: لأنني لا اريدك.
سامر: حتى لو رجعت حملاً وديعاً، ورجعت الى المسرح، وو...
سميرة: هراء... أقسمت، وندمت، وهجرت، وضربت، لا لا لا، أنت أدمنت على حياة التشرد...
سامر: هذه المرة الشابة تحاول ان تقبل الشاب.
سميرة: لم لا!
سامر: في هذه المرحلة يكون مذاق القبلات رائعاً.
سميرة: الحب يجعل كل شيء رائعاً...
سامر: يبدو ان قرارك هذه المرة قطعي...
سميرة: قطعي ولا رجعة فيه منذ تركت لك البيت.
سامر: ماذا؟
سميرة: اليأس... فقدان الصبر... الشعور بالدونية معك كرجل.
سامر: اريد ان اصفعك للمرة الأخيرة وفي هذا المكان.
سميرة: انظر... هكذا تبقى وحشاً... بدلاً من أن تقول لي اريد ان اعتذر لك واطبع قبلةً وديعة على خدك، تريد في هذا المنتزه ان تصفعني...
سامر: (يصفعها بقوة) هل آذيتك؟
سميرة: جبان، همجي... وحشي...
(الشاب والشابة يلتفتان اليهما... ينهضان بسرعة ويقتربان منهما)
الشابة: (بفرح)آه... غير معقول... ياللصدفة السعيدة... ماذا انتما هنا من زمان؟(يتصافحون بحرارة)سميرة... انت حزينة، او هكذا تبدين لي، لا أعتقد.
سميرة:(بلطف، ووتجاهد ان تبعد عن وجهها كل معالم الحزن والألم)حزينة؟ ابداً... أهلاً بكما... رأيناكما تدخلان الحديقة وانتما كعادتكما سعيدان، ولم نرد ان نفسد عليكما خلوتكما،
الشابة: (ببشاشة) شكراً لكما... (تُكلم سامر) ما أخبار الاستاذ سامر.
سامر: لا جديد.
الشابة: لا يمكن ان لا يكون لدى فنان مبدع لا جديد... كيف؟
سامر: حالياً لا جديد... أنا مرهق في هذه الأيام.
الشابة:(بفرح شديد)مرهق... أنت متألق، وفي صحة جيدة (وقفة)يا لسعادتي وانا التقي

بكما... نهر خريفي جميل، والحديقة خالية الا من العصافير، وفنان مبدع... شيء رائع.
سميرة: فعلاً.
الشابة: كثيرون لا يحبون الخريف... لماذا؟ هل لأنه فصلُ حزين... إنه مع ذلك خريف مبكر...الأمطار تأخرت... أنا احب هذا المكان في هذا الموسم...(وقفة، وبحركات طفولية) الفنانون يحبون كل المواسم (الى سميرة...) انه فعلاً خريف مبكر.
سميرة: فعلاً (بجرسٍ حزين) خريف... مبكر.
الشابة: (وهي تزداد حيوية وسعادة، وتتكلم بحب)سميرة كرسامة وحدها تستطيع ان ترى حزن الاشجار، والأوراق في هذا الموسم... اليس كذلك؟(تلتقط كومة اوراق وتنثرها، تدور حول شجرة السرو، تلقي نظرة الى السماء) الغيوم تهرول... تهرول، اعتقد ان الخريف يشجع على الرسم.
سميرة: جداً... جداً.
الشابة: يجب ان تجلبي عدة رسمكِ الى هنا...(وقفة) هل ترسمين حياة جامدة؟
سميرة: أحياناً.
الشابة: (بنفس حيويتها) ذات مرة عندما كنا مدعوين عندكم قلت لي ان احسن من رسم الخريف هو، هو... من؟ نسيت اسمه.
سميرة: كلود مونيه.
الشابة: آه... كلود مونيه... رأيت له عدة لوحات ملونة... إنه رسام ساحر...
الشاب: (لاحظ ان صديقته راحت تتكلم بحرارة) أخشى اننا قطعنا عليكما حديثكما...
سامر: لا لا لا... كنا نتحدث في أمور عادية.
الشاب: معذرةً... لتطفلنا عليكما... صديقتي طبعاً معجبة جداً بك وبزوجتك. قالت اكيد انت كنت تتمرن، او تردد مقاطع من احدى المسرحيات.
سامر: (الى الشابة) وكيف تصورتِ إنني كنت اردد كلمات من إحدى المسرحيات!
الشابة: (بوجه ضاحك) كنت تتكلم ويدك ترسم حركات جميلة في الهواء... أنت تستعمل يديك على نحوٍ جميل... (وقفة) التمرين هنا شيء رائع.
سميرة: (بسخرية) سامر منهمك هذه الأيام في التمرين على دور هاملت.
الشابة: (بنفس حركتها الطفولية) شيء عظيم، (بحرارة) آه لو تعرف كم سحرتني

بإلقائك لمقاطع من عطيل يوم كنا مدعوين عندكم، صدقني إنك ممثل موهوب...

سامر: (وهو يطلق ضحكة خافتة وساخرة) شكراً... شكراً.

الشاب: هل حقاً كنت تردد مقاطع من دورك الجديد... حبذا لو اسمعتنا ولو مقطعاً صغيراً.

الشابة: حبذا... أرجوك... (الى سميرة) ما رأيكِ يا عزيزتي!

سميرة: هو حر... (ببرود) اسمعنا جميعاً ولو مقطعاً صغيراً... (بسخرية) ماذا تحفظ ذاكرتك المرهقة يا هاملت.

سامر: ماذا... ذاكرتي... مضغتها الأيام.

سميرة: (تردد الأبيات التالية للشاعر الفرنسي شارل جولييه)

مهما رأيت نفسك حقيراً وناقصاً يحق لك تقدير ذاتك لانك إنسان.

الشابة: (بفرح) انتِ الأخرى تنطقين الكلمات بطريقة ساحرة.

سميرة: شكراً...(الى سامر) ردد شيئاً لهذه المعجبة وهذا المعجب...

سامر: (كمن يستفيق من غيبوبة) ماذا؟ هل تمزحين؟

الشابة: انا جادة... ارجوك... ارجوك... يعجبني ان استمع الى صوتك، وترديدك الجميل للكلمات...(بتودد) أتعرفان ماذا؟ قررنا بعد زواجنا ان ندعوكما لتسهرا معنا، أنا أحب الفنانين... جداً... إنني عندما اتكلم عنهم تصيبني رعشة حلوة...(بحرارة)لا احد مثل الفنان يفهم الاخرين... أنتما مثلاً، آه، وبعد خمس سنوات من الزواج، ما زالت السعادة تشع منكما وكأنكما تعرفتما على بعضكما للتو... الهي، كيف تفهمان البعض بهذا العمق.

الشابة: اي شيء عظيم ان يكون الإنسان فناناً... أنتما رائعان... حبيبان حقيقيان.

سميرة: شكراً.

الشابة: ما زلت احب ان انظر الى التخطيط الذي عملته لوجهي عند زيارتنا الأخيرة لكم... يالأصابعكِ الفاتنة...

سميرة: انتِ تكثرين من المديح يا عزيزتي...

الشابة: أنا لا اقول إلا ما رأيت... كم انا سعيدة، وما اجمل الصدفة التي تعرفنا فيها بكما...(وقفة) لقد قررنا ان نكون مثلكما تماماً

سميرة: مثلنا تماما...

الشابة: لم لا... هذا إذا وفقنا... لقد سحرنا بكما... بفهمكما العميق لبعضكما، وبهذا الحب والتفاهم العميق بينكما... الهي، خمس سنوات من الزواج وأنتما تتصرفان مثل عاشقين... حمامتان رائعتان انتما...(وقفة) الفنانون وحدهم لديهم القدرة الحقيقية على الحب... (وقفة) هل لديكما طفل؟

سميرة: لا ليس لدينا طفل.

الشابة: اوه... لماذا؟ خمس سنوات بدون طفل!

سامر: (يردد الكلمات ببطء)عندي العقم ليس في العقل والروح بل حتى في الجسد.

الشابة: (تطلق ضحكة حلوة) لمن هذه الكلمات.

سامر: للعقم.

الشابة: من هو العقم؟

سامر: عقم الجسد...ايه... كلمات عادية.

الشاب: عقم الجسد... عقم الروح... عقم العقل... كلمات حزينة.(وقفة) ثم لم الإنجاب الآن... ولم العجلة؟

سامر: فعلاً، ونحن ما زلنا شباباً

سميرة: ثم ان المغامرة لا تؤتي شيئاً.

الشابة: المغامرة...

سامر: نحن لا نستطيع ان نغامر في قضايا مهمة بسرعة... لدينا مشاريع كثيرة واحلام كبيرة.

الشابة: لكم أشعر بغيرة وانا اراكما ترفلان بسعادة، وحب...

سميرة: انتِ مدرسة اليس كذلك؟

الشابة: نعم وكذلك خطيبي...

سميرة: هل تحبان بعضكما كثيراً؟

الشابة: بجنون.

سميرة: رائع...الاتخافون ذبول هذا الحب؟

الشابة: وهل يوجد حب خالد...؟ قد لا نملك موهبتكما، وقدرتكما، وحساسيتكما، وخيالكما في فهم الحب، وديمومته... تأملا، بعد خمس سنوات وانتما مثل عاشقين مدنفين تترددان الى الحديقة، وترددان الاشعار، وتتكلمان عن هاملت،

وكلود مونيه، وعن عقم الروح، والعقل والجسد...(وقفة) لا ... اشك كثيرا أن نستطيع الإستمرار مثلكما في الحب... الحب الطويل النفس للفنانين فقط...

سميرة: (تلقي نظرة الى وجه الشاب الذي ينتابه شيء من الخجل) أتعرف يا استاذ متى يمكن للحب ان يستمر!

الشاب: متى؟

سميرة: فقط عندما يكون الحبيب والحبيبة على معرفة جيدة بموضوع الحب.

الشاب: وماذا بعد؟

سميرة: إذا كنت تعرف القليل عن حبيبتك تحبها قليلاً، والعكس صحيح ايضاً.

الشاب: كلام معقول.

الشابة: (بخفة روح الى خطيبها) يجب ان تفهمني بشكل عميق يا حبيبي.

الشاب: أمرك.

الشابة: (تنظر الى سامر وهو شارد) استاذ سامر، ارجوك اسمعنا ولو مقطعاً قصيراً من دورك الجديد...(وقفة) في الكلية قرأنا تاجر البندقية... وهاملت بالأنكليزية طبعاً، كان معنا طالب ذكي يحب شكسبير كثيراً، ويردد اشعاره بطريقة مثيرة... وانت تتلو لِشكسبير بالعربية بطريقة ساحرة، شكسبير عظيم في لغته، لكن كلماته جميلة حتى في لغتنا(وقفة) ارجوك لا تخيب ظني...

سامر: شكراً... هذا مديح مبالغ فيه.

الشابة: لا أظنك ترفض.

الشاب: (الى صديقته) إسمعي يا عزيزتي، ربما لا يمتلك المزاج، والرغبة، اتركي ذلك للقاءٍ آخر.

الشابة: (بعتاب رقيق) اقسم انه كان يردد اجمل المقاطع لزوجته قبل ان نجيء الى هنا.

سميرة: انه إنسانٌ مزاجي... فعلاً كان يردد مقاطع من ادوارٍ شتى.

الشابة: ألم اقل لك يا عزيزي، الفنان دائماً في مزاج رائق.

الشاب: مستحيل يا عزيزتي، الفنان اولاً وأخيراً إنسان...

الشابة: لكنه إنسان رائع... رائع...

الشاب: هذا لا يقبل الجدل..لكنه إنسان قبل كل شيء.

الشابة: اعرف... إنسان... لكنه إنسان من طراز رفيع يعرف كيف يلبي حاجات الإنسان الصعبة.

الشاب: (يمسك ذراعها) لنذهب يا عزيزتي... صحيح ان الحديث مع هذين الأنسانين ساحر وممتع.

الشابة: (لا تتحرك) إنتظر قليلاً... (الى سامر) قبل ان نغادر الحديقة اكرر طلبي.

سامر: (يبتعد مسافة امتار، وبعد تفكير) سأحاول يا أنستي... سأحاول... (بإلقاء مثير يردد المقطع التالي من مسرحية هاملت وهو ينظر الى زوجته)

محق، والله انت محق ولذا، فلنقطع اللف والدوران، لأنني ارى من الصواب ان نتصافح ونفترق إذهبا الى حيث يشير اليكما الشغل والهوى فلكلٍ شغله وهواه...

الشابة: (تصفق بحرارة، وكذلك الشاب) احسنت الآن سنذهب نحن الى هوانا يا عزيزنا الاستاذ... انت رائع... (يخرجان)

سامر: بدأ الجو يبرد... (يركل الاوراق المتساقطة على الارض، ويدور حول شجرة السرو) قد تمطر بعد ساعة او أقل... (من بعيد يدخل احد العمال الذين يعملون في تنظيف الحديقة يحمل مكنسة طويلة، وينهمك في تجميع الاوراق المتساقطة...) الشابة مليئة بالحماس، والحب لكل شيء...

سميرة: ومليئة بأفكار غامضة.

سامر: ممكن ان تصبح فنانه، كل شيء فيها دافيء.

سميرة: ستعيش حياة سعيدة... ونحن خمس سنوات من العذاب، والغضب، والصراخ.

سامر: والقسم الكاذب. والتوبة الكاذبة.

سميرة: سنوات الشباب، كانت مثل النار...

سامر: (بصوتٍ حزين) الا تعتقدين انه بالامكان أن نبدأ من جديد!

سميرة: (وهي تلفظ كلماتها بغضب) مستحيل... مستحيل...

سامر: لماذا مستحيل؟

سميرة: هذا خصامنا الألف...لا لا لا أنت إنسان ذا مزاج وعر جداً، مخيف، لا لا لا.

سامر: اعرف... اعرف... لكنني لا اكرهكِ أبداً.

سميرة: ارجوك... لا تتكلم وكأنك تهذي... أرسل لي ورقة الطلاق بسرعة... ولا تتصل بي بعد الآن... لن أجيء الى هنا بعد الآن.(وقفة) لقد عاملتني مثل سجان حاقد...

انت بأختصار انسان فظيع... جداً... جداً.

سامر: هذه المرة سأحاول واعمل المستحيل.

سميرة: لم اعد اثق بك أبداً... مجرد أيام وتنقلب ذئباً... لنفترق... وهذا قراري الابدي... اريد ان اكون وحيدة مع نفسي، مع أحلامي، اريد ان ارسم، اريد ان احب من جديد... (بإنفعال) اريد ان احصل على مجد لنفسي... اعرف مبلغ موهبتي مثلما اعرف مبلغ موهبتك كممثل... ما زلت في الخامسة والعشرين، امامي حياة جميلة، انتظر ورقة الطلاق...

سامر: لا اعتقد انني استطيع ان افارقكِ.

سميرة: لكنني قررت ان افارقكِ ولن تغريني بأي شيء. وانت بمرور الوقت ستتعود...

سامر: اتعود... اشك! (وقفة) واذا رفضت تطليقكِ؟

سميرة: الدولة اعطتني حق الطلاق منك.

سامر: رباه، لقد اذيتك كثيراً.

سميرة: لقد نجوت منك بإعجوبة.

سامر: اجل كنت مخيفاً، آسف... آسف.

سميرة: وتطلب مني ان امنحك فرصة اخرى، لقد مصصتني مثل برتقالة ريانه، وانا الآن مجرد قشرة...

سامر: لن أنساكِ أبداً.

سميرة: وكذلك انا.

سامر: مثلما الكاثوليكي يعترف ويتناول، اعترف بأنني اذيتك. (وقفه) ماذا تريدين ان اترك لك في البيت؟

سميرة: لاشيء سوى الحاجيات الخصوصية جداً، واترك البيت لك.

سامر:لماذا؟

سميرة: أريد ان أنسى كل شيء، اريد ان اتحرر من أصغر ذكرى... إنني ذاهبة الى الحرية.

سامر: (يلقي نظرة طويلة الى السماء، ويصفق بيديه لأسكات زقزقة العصافير) غيوم داكنة تهرول في هذا الأتجاه.

سميرة: إنه الخريف.

سامر: تصوري ليالي الشتاء الطويلة وكل واحد منا لوحده، آه، الوحدة مع الذات مخيفة،

سميرة: لديك شلتك، والحانات، والسهر.

سامر: انتِ ما زلت جميلة.

سميرة: كنْ صادقاً كرجل وارسل لي ورقة الطلاق غداً.

سامر: (بحركات بطيئة يخرج ورقة الطلاق ويسلمها لها) تفضلي... هذهِ الورقة وبما فيها من كلمات، وتواقيع تضع نهاية لحياتنا الزوجية.

سميرة: (تأخذ الورقة غير مصدقة نفسها... تتنهد بعمق عدة مرات) كان يجب ان يحصل هذا يا سامر... كان يجب.

سامر: (كمن يحلم) اعرف... اعرف... أعتذر عن كل ما بدر مني... لقد كنت وحشاً... كنت متهوراً... كنت فعلاً إنساناً وعرالمزاج كما تقولين... (يبتعد عنها، ويطفو حزن شديد على وجهه) إغفري لي، اتمنى لكِ حياة سعيدة...

سامر: (بإلقاء حزين ومؤثر)

محق والله محق، ولذا فلنقطع اللف والدوران لانني ارى من الصواب ان نتصافح ونفترق.

(يغادر المسرح بخطوات وئيدة، صمت، تبقى سميرة وحدها... بعد لحظات تروح في بكاء صامت، بكاء مزيج من الفرح والألم)

سميرة: وأخيراً انا حرة، آه... لقد عذبني كثيراً، (تنشج) مع كل العذاب الذي سببته لي يا سامر، اغفر لك كل شيء... كل شيء... أتمنى ان تشفى من أجل موهبتك، يا رب ساعده. (يقترب عامل الحديقة من سميرة...تمسح دموعها بسرعة، يقدم لها العامل وردة أشرفي) شكراً جزيلاً... شكراً.

العامل: عفواً... الجو يبرد... قد تمطر.

سميرة: فعلاً.

العامل: لماذا تبكين؟

سميرة: أبكي ... لا.

العامل: هذه الغيوم تهدد بأمطار غزيرة.

سميرة: نعم... شكراً مرة اخرى للوردة.

العامل: عفواً... هل تريدين واحدة اخرى؟

سميرة: لا شكراً... لماذا تجمع هذه الأوراق؟

العامل: هذا واجبي.

سميرة: لم لا تنتظر سقوط كل الوراق ومن ثم تجمعها جميعاً دفعةً واحدة.

العامل: احب ان اعمل واتجول... المتنزه واسع...

سميرة:(تنهض وبخطوات سريعة تغادر المسرح)شكراً للوردة.

العامل: (وهو منهمك في الكنس) عفواً... غريب امر هؤلاء العشاق من سنوات وانا اراقبهم في هذه الحديقة يأتون الى هنا وبعد ساعات من الحديث، والتأوهات يخرجون إما يبكون، او يضحكون، او يتخاصمون... دنـــــيا.

كركوك ١٩٧٧

فراشات ملونة

مسرحية من فصل واحد

ذات يوم انا الآخر كان عندي ربيع زاهر...
آه وهل يدوم الربيع.
من أغنية تركمانية

محمود ٧٠ سنه

سلوى ٦٥ سنه

غرفة إعتيادية... بابان في الجهة اليمنى، باب في الجهة اليسرى، نافذة تطل على حوش بيت آخر وحديقة لا تريان... من خلال النافذة يمكن مشاهدة اغصان من اشجار الليمون، والتوت... على الجدار المواجه للجمهور تقويم كبير، وصورة كبيرة لفتاة جميلة في اطار ذهبي، مكتبة فيها عدد من الكتب، ومجلات ملقاة هنا وهناك باهمال. يرن جرس الباب الخارجي، تدخل سلوى من جهة اليسار، وتهرول بأتجاه الباب من الجهة اليمنى وهي تردد:

– سلوى: نعم... نعم دقيقة... واثقة انه احد اولئك الصغار يعبث بالجرس... الهي، مع الربيع ايضا هم مثل الزنابير الهائجة يبدأون بالطنين في الأزقة... (يستمر الجرس بالرنين) نعم... نعم... (تفتح الباب. يدخل ساعي البريد)

– ساعي البريد: بيت السيد محمود العاصي؟

– سلوى: بالضبط، تفضل...

– ساعي البريد: (يسلمها مظروفاً) برقية... تفضلي وقعي هنا رجاءاً، هنا... شكراً.

سلوى: (تحدق في البرقية بإندهاش... غير مصدقة نفسها... ينصرف ساعي البريد) ممن يا ترى؟ (بصوتٍ عالٍ) آه... نسيت ان اشكر ساعي البريد ... (تنادي وراء ساعي البريد) شكراً... شكراً. (تتأمل البرقية بإمعان) لا استطيع ان أقرأ دون نظارتي... (تهرول بأتجاه الباب في الجهة اليسرى، بعد قليل ترجع وتذهب الى النافذة... تزيح الستارة بيد مرتعشة، وتقرأ بصوتٍ راعش) عزيزتي ماما، عزيزي بابا... سأكون وزوجي والصغير كرم عندكم في العاشر من آيار... مشتاقة لكم

جداً... جداً... قبلاتي... جميلة، (تتنهد بعمق، بذهول غير مصدقة نفسها) الهي، وأخيراً بعد غياب سنوات تأتي وحيدتي لزيارتنا... (تتأمل البرقية... تدور حول نفسها... فجأة تجهش في بكاء حار... بصوتٍ خافت) واخيراً... تبعد نظارتها، وتمسح دموعها... تقبّل البرقية عدة مرات، تنادي من خلال النافذة: محمود... محمود... آه، رغم ضعف بصره الشديد لا يتعب ولا يمل من هندسة الحديقة. بصره يتدهور كل يوم، وهو لا يمل لا القراءة، ولا هندسة الحديقة، ومتابعة الزهور والفراشات... (تنادي) محمود... محمود... اين انت؟

صوت محمود: نعم يا سلوى... ماذا؟

سلوى: تعال يا عزيزي... تعال بسرعة.

صوت محمود: وهل من الضروري ان اجيء... تعالي انتِ... انظري... الم اقل لك ان زهور الأشرفي الصفراء ستبرعم في الربيع... اي لون مثير.

سلوى: لدي خبر رائع... خبر جميل... آه، وحدي فقط اعرف اي فرح كبير سيغمرك يا محمود.

صوت محمود: إنني مخمور بهذا الربيع الساحر... ماذا؟ هل وصلني كتاب جديد؟

سلوى: لا لا...

صوت محمود: رسالة من صديق احبه جداً؟

سلوى: لا... ربما... لا... ربما نعم.

صوت محمود: (ضاحكاً) اي جواب مضحك هذا يا سلوى... لا... ربما... لا... نعم... (بصوت فيه حب وحنان) انظري يا سلوى واخيراً أزهار النرجس، وهذه الزهور الصغيرة التي يسمونها البانسيه... ايه، الطبيعة ساحرة... الاف الحشرات تدوم هنا... انني مثل هذه الحشرات الشفافة امتع جسدي في الشمس... الشمس.

سلوى: ماذا؟ الشمس!

صوت محمود: أتذكرين! زرعت فسائل منها لمجرد التجربة... آه، ها ها ها، انظري تفجرت مع الربيع...

سلوى: محمود... تعال يا عزيزي...

صوت محمود: سلوى... تعالي الي هذه الشمس اللذيذة... (بصوت عال) انظري... (بصوت عال) يالهذه الفراشات... آآآآ... واثق ان هذه التي بلون البلور من صنف الرعاشات...

سلوى: وهل للفراشات اسماء؟

صوت محمود: طبعاً يا عزيزتي... وهذه التي تتموج وتزوغ وكأنها ترقص من نوع كليوباترا...

سلوى: (تطلق ضحكة حلوة) من اين تأتي بهذه الأسماء؟

صوت محمود: هنالك نوع يسمى الطاووس الليلي الصغير، والكرنب، وماميسترا... آه، لقد أشعل الربيع نار الحياة... حتى للعشب شذى مسكر...

سلوى: أيها البستاني القديم، ايها الحدائقي الهائم بالفراشات والزهور تعال... تعال.

صوت محمود: حالاً... آمل ان يكون فرحكِ من النوع الطائر.

سلوى: (تتنهد) ايه يا جميلة، صدقيني كنت اخاف ان اموت من غير ان آراكِ... الهي، لم نتخاصم معها، لم نسمعها سوى اجمل الكلمات، ترى لم كفت فجأة عن زيارتنا؟ بل، حتى قطعت عنا رسائلها... وهل البصرة مدينة بعيدة؟ ابداً... ابداً... سنوات طويلة... شيء صعب لأم في مثل عمري ان لا ترى ابنتها الوحيدة... آه... اي فرح عظيم انها.(تتوقف عن الكلام، وتسرع باتجاه التقويم... بصوت مزغرد)، انها تصل اليوم... اليوم هو العاشر من ايار... اليوم... اي يوم...

محمود: (يدخل الغرفة)ماذا عن هذا اليوم الذي هو أي يوم.

سلوى: صدقني امس في الليل حلمت بها.

محمود: (ببرود) خذي هذه الوردة... وهيجي بها خياشيمك بدلاً من اعصابك... آه، انظري الى هذا الصفار الليموني... شيء لا معقول،

سلوى: (تتأمل الوردة) شكراً... اتعرف امس بالليل حلمت بجميلة.

محمود: (ببرود) مسألة إعتيادية جداً... لانك تفكرين بها كثيراً (وقفة يتنهد) كما افعل انا الاخر، ولكنني نادراً ما احلم بها، حسن ماذا عنها؟

سلوى: (تضع البرقية في جيب روبها)حلمت بها في محل كبير، مخزن ضخم.

محمود: حلم اعتيادي، وماذا؟

سلوى: (بفرح) من خلال واجهة زجاجية رأيتها تلوح لي بمنديل بلون هذه الوردة، وعلى رأسها منديل بلون السماء، وبيدها الاخرى تمسك يد ابنها كرم... (وقفة) ثم فجأةً هبط ما يشبه الضباب بلون اللؤلؤ... ماذا يا محمود الست سعيداً؟

محمود: سعيد بهذا الحلم... (يربت على كتفها) أحلام... احلام... لا تعني اي شيء...

الهذا السبب ناديت عليّ يا سلوى... لأسمع هذا الحلم... (يطلق ضحكة حلوة وساحرة) يا عزيزتي تعالي وكفي عن أحلامك المشتعلة التي ترينها كل ليلة، وتأملي هذا الربيع الساحر، ودغدغي بشرتكِ بأشعة هذه الشمس اللذيذة وهي تغسل الأرض، والزهور، والاشجار... تعالي معي وتنفسي الهواء المنعش في الحديقة... صدقيني الأحلام لا تعني شيئاً... هيا... هيا...

سلوى: ألستَ سعيداً يا محمود لسماع اخبار جميلة؟

محمود: وهل لا يسعد الأب بأخبار طيبة عن إبنته الوحيدة... لكني اضجر من احلامك الكثيرة... ماذا عن جميلة.

سلوى: إنها... آه.

محمود: وهل لدي في هذه الدنيا غير زمردتي الجميلة، جميلة، من لي سواها... ثم لم هذا السؤال اللامعقول... انني اسعد لأصغر خبر عنها... هيا يا عزيزتي تعالي الى الشمس العسلية...

سلوى: (كما لو تحلم) رأيتها تسير بأرتباك، وصرخت عليها بقوة: جميلة، جميلة، وفاضت الكلمات في فمي ورحت لا ارادريا اهذي، واهذر، واردد كلمات لا معنى لها...

محمود: اعرف... اعرف... احلامك المتشعلة كثيرة، ومتشابهة... كلها بسبب شوقك لأبنتك... نعم اعرف... اين يمكننا الهروب من حب الابناء... كل هذا ليس اكثر من شوق أمومي نقي لأبنة وحيدة... (وقفة) سنوات ونحن لم نرها... (يطلق سعالاً طويلاً) اوف. آآآآ... من ايام وهذا السعال يكاد يمزق قلبي وصدري...(وقفة) لا تعيري كبير الإهتمام للأحلام... وارجوكِ ابعدي عنكِ كل هذا الإكتئاب... كلانا في هذا العمر يا سلوى مثل اي ضيف نستحق المحبة... والعطف، ما العمل وزوجها رجل صلف، وجلف... تعالي الى الحديقة.

سلوى: (بدلع رزين، وحب، ثم بحركات تباغت زوجها) طيب... خذ واقرأ.

محمود: (يأخذ البرقية)اعطيني نظارتك. (تعطيه نظارتها... يسلط عدسة النظارة فوق البرقية، ويقرأ ببطء) عزيزتي ماما، وعزيزي بابا، سأكون انا وزوجي، والصغير كرم عندكم في العاشر من ايار... مشتاقة لكم جدا... جدا... قبلاتي، جميلة. (ينظر الى زوجته بتعجب، ويطلق ضحكة عميقة) هيء هيء هيء، اذن كل هذه

المحاضرة التي القيتها عن الاحلام، والمنديل بلون صفارة وردة الأشرفي... ومنديل الرأس بلون السماء، وكل هذا اللف والدوران، باضت هذه البرقية الحلوة... آه، يا بنت الـ... لم تتغيري في عبثكِ معي يا عفريته... (وقفة) ما زلت اعتقد يا سلوى ان الإنسان مهما كبر في السن ، يبقى حس غريب لديه... حس يؤكد له أنه ما زال صغيراً في اعماقه... ابداً، لم تتغيري في عبثكِ معي، اه، كنت، وحتى الآن أذكى مني بكثير في معرفة مفاتيح قلبي... (وقفة) متى وصلت البرقية؟

سلوى: قبل مدة... ألم تسمع جرس الباب؟

محمود: وهل بقي لي سمع وبصر... هل استطيع ان اسمع جرس الباب وانا في زاوية بعيدة من الحديقة... (وقفة، بصوت خافت فيه رنه حزن) حتماً ان جميلة كبرت خلال هذه السنوات... وكرم الصغير كبر هو الآخر... (صمت) اتعرفين يا سلوى، انا الآخر صارت الوساوس في هذه الايام تعبث بشكل مخيف بمخي...

سلمى: وساوس!؟

محمود: نعم... وساوس... مثل ماذا لو مُتّ من غير ان اراها؟ اين ستذهبين انتِ؟ آه، بعد هذه العِشرة الطويلة، وذلك الحب المحموم الذي عشناه يوم بعد يوم وتذهبين الى الابد... وانا ابقى لوحدي... واتخيل البيت من دونك، او العكس أنتِ وحدك فزعة من غير زوج، او صديقة، تبكين، تتأوهين... ايه، وساوس...(يضحك) وساوس سخيفة، وقد تكون حقيقية ذات يوم...

سلوى: جميلة دائماً تذكرنا بالشيخوخة، والوساوس... آه، ياالذاك الفراغ، المؤلم، والحزن، والمرارة، التي خلفتها لنا بعد زواجها... (وقفة، بصوت حزين) اتذكر في اول بيت سكناه في منطقة –الماس– يوم بلغت التاسعة.

محمود: (هازاً رأسه) يا سلوى، وهل هناك ذكرى واحدة، ام عشرات ومئات الذكريات في ذلك البيت مع زمردتي جميلة.

سلوى: كانت دائماً هي المسيطرة على الصغار... دائماً اثناء اللعب هي مديرة المدرسة، هي المفتشة... هي كل شيء... كانت تحب السيطرة، وكل الصغيرات كن يرتعبن منها... (وقفة) واصبحت مع زوجها فأرة...

محمود: يالحقوقه المتطرفة... (وقفة) كعادتها تكتب بأختصار. (يذهب الى حيث التقويم

، ويطلق صرخة فرح) آه... اليوم إذن العاشر من ايار.(يُقبِل البرقية) اليوم تصل زمردتي...(كمن يتخيل... بصوتٍ خافت) أه... جميلة... تصوري يا سلوى بوسعي الآن رغم كل تعب ذاكرتي ، ان اتخيلها وذلك الحبور الجميل النادر يشع من عينيها، بل من كل وجهها... (صمت) يجب ان نعمل المستحيل هذا اليوم من أجل إستقبال زمردتي.

سلوى: سأعمل كل الاكلات التي كانت تحبها... (تهرول بأتجاه الباب في الجهة اليسرى) سأعمل كل شيء... كل شيء.

محمود: (يذرع الغرفة... بصوت خافت وحزين) مسكينه سلوى... تكاد تطير من الفرح... (بصوت لين ورقيق) جميلة وحدها الآن لديها كل الطاقة، والقدرة لانعاش ذاكرتنا المرهقة، وكنس غبار السنوات عنها... هي وحدها بلباقة قلبها تنهضنا من كبوة الشيخوخة طيلة الأيام التي ستقضيها معنا... آه، زمردتي الساحرة، وحدها لديها السحر ان تأخذنا بقوة ذاكرتها الى ذكريات عذبة تختفي وراء ضباب الايام... هي وحدها لديها القدرة ان تزيح النعاس الثقيل عن ماضينا... ماضينا الجميل والسعيد... فعلا وحدها لديها مفاتيح ذكرياتنا... آه، بحيويتها، وبنشاطها ستحول البيت الساكن الميت الى خلية نحل. (وقفة... بعد قليل نسمع زغاريد، وموجات متتالية من التصفيق تصاحب اغنية شعبية تركمانية...)

جميلتي بيتها في القلعة
يالعرشها العالي
طلبت يدها، رفضوا
قالوا إنها صغيرة

تعود سلوى... تتوقف قليلاً وتستمع الى الأغنية، ومن شدة فرحها تردد بصوت مبحوح مقاطع من الاغنية، وتذهب الى النافذة الطويلة، وتستمع الى زغاريد النسوة، وأغنية شعبية اخرى.

محمود: ما هذه الزغاريد يا سلوى؟

سلوى: فتحية؛ إبنة حيدر تزف هذا اليوم...

محمود: (بتعجب) فتحية الصغيرة... حقاً... أه... فتحية الوديعة، هي الاخرى كبرت،... الهي، كم كبرنا نحن اذن... لماذا يركض الزمن مثل المخبول... فتحية الصغيرة

التي كانت الى الأمس تشتري لنا الخبز. هيء هيء هيء... ايه، هكذا حال الحياة...

سلوى: (تلوح سلوى بألبوم) انظر.

محمود: ما هذا؟

سلوى: ألبوم (تمط الكلمات) الـ... بوم... خاص بالعزيزة جميلة... (تقلب صفحات الألبوم برفق) انظر هنا، (بفرح) كم كنت وسيماً يا محمود... لذا بقيت.

محمود: (مقاطعاً) بقيت ماذا؟

سلوى: اعزب لمدة طويلة تطارد البنات.

محمود: (هازاً رأسه) لأنني لم اجد إمرأة تملأ قلبي (تسمع موجات جديدة من التصفيق والزغاريد) هل تتذكرين يوم زفافك؟

سلوى: ايه يا محمود انت كما يقول المثل «تريدني ان احرث في البحر» وما اكثر تكلمنا عن تلك الايام... وجميلة ستفجر لنا بعد قليل جميع ذكرياتنا...

محمود: فعلاً ... آه... زمردتي الرائعة، صاحبة الصوت الدافيء... جميلة التي تمنح الكلمة جرساً ساحراً... جميلة المتوفزة دائما بالبهجة...

سلوى: (بتأفف حار) جميلة، يا حبيبتي...

محمود: يا من ستملئين بعد غيابكِ الطويل البيت بحنان بهيج، يا ذات النظرات المرحة، يا زمردتي... (وقفة) الشيخوخة استعمرت كل وجودنا، (تسمع اغاني اخرى) مسختنا الشيخوخة، آيه، وانحسرت جميع حميات الشباب، لم يبق شيء... (ساخراً) وهناك شباب يدخلون لتوهم الحياة... والاغنية الشعبية تردد:ـ

جميلتي بيتها في القلعة
يالعرشها العالي

(يذهب الى النافذة... يتكلم بفرح) صديقات فتحية يهمسن في اذنها كلمات حلوة... إنها تضحك... يالسعادتها...

سلوى (تاخذ نظارتها وتقف لصق زوجها): اذهب واجلب نظارتك.

محمود: فعلاً (يخرج وبعد لحظات يأتي) كم احببت هذه الصغيرة فتحية... انها الآن فتاة وضاءة الحسن... (ترى هل تزوجت عن حب كما فعلنا نحن...)

سلوى: لا اعرف... كنت كلما تزورني اؤكد لها ان لا تتزوج إلا عن حب حقيقي.

محمود: احسنت... (بشوق) اللّه من الحب... الحب وحده لديه كل الحلول لوجود الإنسان.

سلوى: فعلاً أذكر يا محمود كنت تقول لي وانا في طريقي للوقوع في حبك، سلوى، لا تقتربي مني إلا اذا تأكدتِ بشكل واضح انك تحبيني.

محمود: تذكرين كلماتي... (بإنتشاء) ماذا بعد يا سلوى... ما كنت اقول سوى الحقيقة.

سلوى: وكنت تقول (تقلده) الانسان يكون حياً بشكل حقيقي في الحب.

(تضحك ضحكة حلوة وصافية من اعماقها) وعندما كنت اردد كلماتك لصديقاتي في الدائرة، كن يتعجبن، ويهمسن بطريقتهن الشيطانية: سلوى وقعت في حب شاعر(بفرح) وكنت من فرط فرحي احس برعدة حلوة في كل مكان في جسدي... (وقفة) انظر يا محمود الى تلك الفتاة التي ترقص امام فتحية... تتلوى مثل الأفعى.

محمود: (يدقق بصره) وصديقاتها يزدن حماسة لتتلوى أكثر، اية نشوة، وحماسة، الشباب... آه... الشباب (يتنهد)، الشباب يا سلوى قوة إنسانية كبيرة... الشباب هو كل شيء... (يغني)

ذات يوم انا الآخر كان عندي

ربيع زاهر... آه، وهل يدوم الربيع.

سلوى: لا شيء يدوم في هذه الحياة... أنظر، شابة اخرى نهضت لترقص.

محمود: إنها اكثر حيوية من الاخرى... ياللدانة جسدها النابض بالحياة... (يتنهد عمقياً) الشباب قوة إنسانية كبيرة.

سلوى: هل تردد شعراً.

محمود: لا يا عزيزتي ... أردد اشياء حقيقية... (وقفة) لماذا غادرت فتحية مكانها.

سلوى: لا أعرف... انها الآن مزيج من الخوف، والرغبة، واللهفة، والتوق.

(يترك محمود النافذة، ويغمغم مع نفسه، ثم برفق يغني ذات يوم انا الآخر كان عندي. ربيع زاهر... آه، وهل يدوم الربيع)

تتبعه سلوى بعد ان تدفع جناح النافذة، وتسمع بقايا زغاريد واغاني، كما لو انها تأتي من مكان بعيد...

محمود: (يسير في الغرفة محني الظهر... يتوقف... يغمغم مع نفسه، ويلقي نظرة طويلة الى صورة في الألبوم المفتوح فوق المنضمد... بلهجة حزينة) الحقيقة قاسية...

سلوى: (بلطف وبشاشة) ها انت ذا ثانيةً مع رجلك المفضل دانتون، تكرر هذه الكلمات في فرحك، واحزانك.

محمود: الشيخوخة... الشيخوخة.

سلوى: إنها تعني إنتهاء الأمال الجديدة... لكنها مثل الموت شرط الحياة... (لمجرد ان يغير الموضوع) أنظري يا سلوى كم كانت سلوى رائعة الجمال هنا...

سلوى: وانت! يا الهي، اتعجب، هل كنت فعلاً بهذه الوسامة، والصحة والعافية،... اواه، كم كنت تفيض بالحياة... (يطلق محمود آهة) نظراتك حادة... انظر الى اصابعك كم كانت ممتلئة بالصحة وبالحياة.

محمود: (يلقي نظرة الى اصابعه) والآن... تبدو بالضبط مثل اقلام الرصاص ... مجرد عظام... اين كانت هذه العروق البنفسجية النافرة؟

سلوى: كانت تحت لحم العافية... تحت قوة الشباب...

محمود: اجل... كانت تحت السنين التي إنصرمت رغماً عني.(يطلق ضحكة ساخرة) السنوات إحترقت، والبقية تحترق.

سلوى: هكذا الحياة.

محمود: كلما مررنا خلالها اصبحنا مثل الفراشة التي تقترب من النار...

سلوى: (تقلب صفحة من الالبوم) انظر الى هذه الصورة... ياه... ياه... واقف وكأنك عسكري...

محمود: هنا كنت مديراً لواحدة من أكبر المدارس الاعدادية في المحافظة... صدقيني يا سلوى، حالما كنت أدخل من الباب الرئيسي كان الطلاب مثل العصافير الفزعة يطيرون... المدرسون ينحنون لي، كنت اتنقل مرات عديدة دونما تعب من صف الى اخر، واستمع بشغف لمحاضرة هذا الاستاذ وذاك، واسجل ملاحظاتي عنهم، واملأ هذا الشاغر وذاك... كنت دؤوباً في عملي بالضبط مثل عسكري صلب يتفقد قطعاته، وكنت اتفقد الصفوف... (تنتابهُ سعلة خانقة، وضيق شديد في التنفس يترنح ويكاد يسقط، وتسنده سلوى بسرعة، صمت) الشيخوخة (ضاحكاً) الحقيقة، الحقيقة القاسية... آه يا دانتون انت على صواب...

سلوى: عندما استمع اليك انسى انني إمرأة عجوز... ماذا بعد يا عزيزي.

محمود: (يمسح فمه وعينيه) كنت اتحدى كل المهملين بروح صلبة وانا لا املك اكثر من

اخلاصي، وحرصي الشديد في واجبي (سعلة حادة) آه... اي سعال جاف هذا... احس وكأن يداً وهمية تخنقني... وقلبي المتعب يلهث في ضرباته... (وقفة) انا لا اخاف الشيخوخة يا سلوى...

سلوى: اعرف يا عزيزي... اعرف...

محمود: سلوى؛ احياناً ألتقي ببعض من أصدقائي او ممن تعرفت عليهم في شبابي... اجدهم موسوسين بفضول غريب... يسألونني بخوف: هل اتناول الرز في وجبات الغذاء؟ كم مرة اكل اللحم في الاسبوع. هل لدي سكر؟ هل اشكو الفقرات؟ (سعال) يتذمرون مثل الاطفال..وو... ممنوع عليهم هذه الأكلة او تلك. يستجدونها أحيانا... كل شيء ممنوع إلا الخضار المسلوقة، يأكلون خلسةً اكلة دسمة ويصابون بمغص في المعدة... يسألونني عن قوة بصري، او هل ثمة ضير في كأس من الخمر، او ثلاث رشفات فقط، او كأس جعه.(يطلق ضحكة ساخرة) الشيخوخة... (تسمع زغاريد)

سلوى: انظر الى هذه الصورة... هل تعرف في اي صف كانت جميلة يوم التقطناها؟

محمود: يوه... (عبثاً يحاول ان يتذكر) لقد احترقت ذاكرتي بشكل فضيع...(يلقي نظرة اخرى الى الصورة، ويذرع الغرفة) السنوات البعيدة تبدو مثل الوهم...لو، لو فقط كانت الذاكرة تبقى حية، لكانت الشيخوخة اقل عذاباً.

سلوى: فعلاً.

محمود: (يعود الى المنضدة، ويقلب صفحات الألبوم) تعالي وأنظري ماذا تذكرين لجميلة وهي في مثل هذا العمر؟

سلوى: (تضحك) في هذا العمر... صباحاً كعادتها كانت تبكي من غير سبب وترفض بعناد ان ترتدي ملابسها، او تأكل بيضتها المسلوقة لمجرد العناد، وتطلب اخرى بالدهن.

محمود: اعتقد ان ذاكرة المرأة تبقى اكثر طراوة من ذاكرة الرجل... (وقفة) لقد كنتِ يا سلوى بحق إمرأة نشطة، سريعة الحركة، جادة، ومخلصة في وظيفتك وفي البيت...

سلوى: اي سعادة عندما يتذكر الإنسان انه ادى واجبه في الحياة الزوجية، والوظيفية، بضمير ظل رقيباً على كل سلوكه ووجدانه.

محمود: كلام جميل يا عزيزتي...(يقترب منها ويقبلها بحنان فوق خدها) كلام جميل،

(يلقي نظرات سريعة على صفحات اخرى من الألبوم) هناك صور، وهناك ذكريات تبقى تشغل الروح لردح طويل من الزمن.(وقفة) انظري الى نظرات وعيون جميلة في هذه الصورة(*)

محمود: عينان تفيضان براءةً وصفاء... ايه يا سلوى، واثق بان العالم كان يصبح بلون الفحم لو خلا من الأطفال وعيونهم.

سلوى:(تغلق الالبوم، وتربت بحنان الى كتف زوجها)إنني سعيدة لانك سعيد جداً الآن. طالما تصل جميلة بعد ساعات، سأحاول ان اقدم لك مفاجأة حلوة.

محمود: ماهي...(تغادر سلوى المسرح، يبقى محمود لوحده، يدخن ويذرع الغرفة... يلقي نظرة على التقويم، ويذهب الى النافذة، يعود فيتجول في الغرفة مثل الثمل... بصوت خافت وحزين) ترى كم من الأشياء في هذا العمر كنت استطيع ان اتذكر وان ذهني قدم لي ذكرياتي بتتابعها الزمني الحقيقي؟ (يضحك) لكن مستحيل، كأي كائن كنت اعيش في الزمن...وكأن من المحال الهروب من الساعات، والايام، والاشهر، والسنين... آه، لماذا لا يمنحني ذهني حق ذكرياتي بتتابعها الزمني... (يضحك مرة اخرى... تدخل سلوى، وتتعجب عندما ترى زوجها يضحك ضحكة ساخرة من نفسه)

سلوى: ما هذا الضحك يا محمود؟ لقد رحت تكثر من الضحك مع نفسك هذه الايام.

محمود: كنت احاول ان امسك بتلابيب ذكرياتي...

سلوى: (بمزح) وماذا امسكت منها؟

محمود: لا شيء... لا شيء.

سلوى: لا شيء...

محمود: لا شيء سوى الوساوس... الوساوس فقط تكون قوة الفعل في الشيخوخة...(سلوى تنشغل في إخفاء شيء خلف ظهرها)

سلوى: محمود، اتعرف، انك كلما فكرت مثل الكتب التي تقرأها تؤذي نفسك، وتصاب بمزيد من الوهم، والوساوس، والافكار.

محمود: لا لا لا... إنني إنسان واقعي واؤمن بالافكار العلمية... إنني حزين على فقداني

(*) من المستحسن ان يعكس المخرج الصورة التي يرد ذكرها بالعين السحرية على شاشات صغيرة لإعطاء مزيد من القوة للحوار.

حتى لخيالي... كنت امتلك حرارة الخيال.

سلوى: (تغير الموضوع) دعني يا عزيزي اطلعك على بعض الذكريات الحلوة في حياتنا:

محمود: لقد كانت حياتنا كلها حلوة... وحياتي معكِ ايتها العزيزة كانت فرحة صافية... ماذا لديك يا عزيزتي...

سلوى: اسمع، (تريه كيسا من ورق) ماذا تعتقد يوجد داخل هذا الكيس؟

محمود: (يلاطفها هو الآخر بفرح، ويحاول جاهدا ان يحزر) أعرف... (ساخراً بلطف) فيه هدهد...

سلوى: لا تسخر يا عزيزي... ارجوك... احزر.

محمود: (يتنهد) تصوري يا عزيزتي... برقية صغيرة فيها كلمات قليلة من ابنتنا، كم من الدماء والافراح دفعت الى عروقنا... الي اي ذكريات اخذتنا...(يتأملها طويلاً، وعندما يرى الفرح من وجهها المتغضن، يلاطفها اكثر)... الآن دعيني افكر... إسمعي، اعتقد يوجد في هذا الكيس أُمومة... أُمومة...

سلوى: أمومة؟

محمود: نعم... انه عطاء دائم.

سلوى: (كما لو تغازله) وحب... وسعادة... الآن، ارجوك احزر... ماذا في الكيس...

محمود: (يفكر) فيه... احلام... احلامك الكثيرة...

سلوى: (تضحك) احلام... لا تمزح... احزر يا عزيزي ارجوك.

محمود: (ينظر الى الكيس) انتِ زوجة رائعة يا عزيزتي... كانت دائماً لديك القابلية في العثور على الإثارة... في العثور على جمال الروح عندي... أنتِ إمرأة اشك ابداً ان تنطفيء فيها السعادة، والحب، والبهجة، والمفاجأة... أنت يا عزيزتي.

سلوى: شكرا يا عزيزي... لا تغازلني... احزر ماذا في الكيس...

محمود: (يقترب منها ويقبلها على خدها بحنان) اغزلك. من حقكِ ان اسمعك اصدق ما عندي... لقد احببتك لحد هذه اللحظة بمنتهى الصدق والاخلاص.

سلوى: كل الذين عرفونا، قالوا: عجيبة بشاشة، وسعادة وحب، وتفاهم هذين المخلوقين... يستحيل ان ينضب فيهما لا حبهما لبعضهما ولا بشاشتهما...

محمود: (بحرارة) وهل كان بوسعي ان امل عنكِ الحياة... وانت منذ ان عرفتك تتضوعين بالطيبة، والوداعة، والجمال، وبراءة الطبع والاخلاص... اوه... لا لا لا...

سلوى: (تتأثر بكلام زوجها... بحرارة) كنا نحس، ونحب، ونتألم بإخلاص.

محمود: لا اتذكر كذبنا على بعض.

سلوى: ربما كذبنا على بعض كذبات بيضاء بحسن نية...

محمود: واي خجل كان يورد وجهينا عندما نحس حتى بباض الكذبة.

سلوى: كنا نفضل الموت على الكذب.

محمود: لذا كنا مخلصين حتى في حياتنا الوظيفية الى درجة التطرف حتى الى اليوم الذي احلنا فيه على التقاعد.

سلوى: يشهد الله، كان شعارنا الاخلاص في كل شيء... (صمت) الآن يا عزيزي، ماذا في داخل هذا الكيس... إحزر ارجوك.

محمود:(يحزر ويفكر) عرفت...

سلوى: ماذا قل...

محمود:(يطلق ضحكة صغيرة ساخرة)فيه... بلبل...(تهز سلوى رأسها بالنفي)... قطة.

سلوى: لا...

محمود:(مازحاً) قنفذ...

سلوى: كن جاداً...

محمود: حسن فيه انديمون.

سلوى: لا تتكلم بلغة اجنبية... انديمون ما هذا؟

محمود :(بصوت هامس) في القصص اليونانية ترمز الى الشباب والجمال الخالدين.

سلوى: محمود، ارجوك... من غيرإستعمال كلمات من الكتب... بدون شعر وقصص...

محمود: (يندفع اليها ويحاول ان يأخذ منها الكيس... تهرب سلوى... يؤديان حركات لا تليق بعمريهما، يطاردان احدهما الآخر بطريقة مضحكة ومثيرة، ويؤديان حركات صامتة، يأخذ اخيراً منها الكيس. وبحركة صامتة يخرج منها زوج حذاء طفل) الم اقل فيه انديميون ...آه، كنت اعرف فيه ذكريات... فيه أمومة...اتذكرين يا سلوى...

سلوى: ماذا؟

محمود: (يشير الى الحذاء) اول زوج حذاء اشتريناه لجميلة.

سلوى: اعرف.

محمود: في زمن هذا الحذاء، كنا من كثرة السعادة نتهرب من السعادة.(بحركات صامته، وباندماج يبرك على الارض ويسير على الأربع) هل تذكرين؟

سلوى: (تروح في ضحكٍ عميق) وجميلة تجلس مثل فارس فوق ظهرك... اواه... فعلاً في زمن هذا الحذاء كنا قي فرط السعادة نتهرب من السعادة... كنا نضحك، ونتغزل، وجميلة تصرخ فوق ظهرك، وانا انط، وهي تخاف، ثم تضحك...

محمود: (ينهض بتثاقل، ويتأوه من وجع ظهره)آ آ آ ... من آلام ظهري... (سعال حاد) آه... فعلاً كنا سعداء ... سعداء...

سلوى: كانت الايام تعطينا الحياة ببذخ ونحن نتمتع بها...

محمود: (بألم شديد) آخ من ألم ظهري... نعم... نعم... فعلاً كانت الايام تعطينا الحياة... وها هي الايام الان تأخذ الحياة... معادلة حسابية... (يمرر يده بجهد اسفل ظهره) آ آ آ آ خ خ خ... ألم وحشي...

سلوى: هكذا الحياة... (يسمع صراخ اطفال مختلط بالزغاريد) يااللصغار، كما لو انهم عنصر ملازم للأعراس والمآتم... مثل الزنابير يطنون...(تذهب الى النافذة وتفتح جناحها) تعال يا محمود... بدأوا بتجميل فتحية... كعادتها خجولة وجميلة.

محمود:(يقترب من النافذة) حقاً، كالعادة اسراب من الاطفال، مثل الفراشات يطيرون في كل مكان... (وقفة) لا اظن ان فتحية تجاوزت العشرين... انظري بأي عذوبة تستجيب للمرأة التي تزينها...

سلوى: شعرها طويل بلون الفحم...

محمود: نعم ان جمالها يا سلوى من النوع الذي يقول عنه الشعراء: يا جمالاً سهلاً وسمحاً.

سلوى: يوم كنت أُجلِسها فوق ركبتي احس من فرط وداعتها، ورقتها كأنها السمور بعينه.

محمود: انظري الى بقية صديقاتها... اليست تلك الفاتنة ابنة شاكر افندي المحامي...؟

سلوى: نعم... هي.

محمود: كبرت هي الاخرى... كانت شيطانة حارة... صديقات فتحية ينظرن اليها بغيرة.

سلوى: يتمنين ان يكن مكانها.

محمود: أكيد الأطفال بدأوا هجومهم... لا فضول في الدنيا يوازي فضولهم.(وقفة) فضول قطة... (يبتعد عن النافذة).

سلوى: ماذا كنا نسمي جميلة يوم كانت في العاشرة من عمرها...

محمود: (يقلب الحذاء بين يديه، ويلقيه فوق اقرب اريكة... يشعل سيجارة، (يفكر)... إني عليّ ان اعرف... اطلقنا على زمردتي عشرات الأسماء.

سلوى: اعرف لكن في العاشرة من عمرها اطلقت عليها إسماً غريباً ولمدة طويلة كنا نناديها بذاك الأسم.

محمود: (ضاحكاً) آه... عرفت... كنا نسميها –القلب الأرعن– (يضحكان معا وهماً يرددان –القلب الأرعن–)

سلوى: كنا نطاردها من غرفة الى غرفة، وانت تصرخ، وتزعق مثل الهنود الحمر مردداً: القلب الأرعن... (وقفة) يستحيل يا محمود حتى في التسعين، وأنا واثقة جداً انك ستعيش حتى التسعين، اقول، لن تفقد لا مرحك، ولا فلسفتك، ولا حكمتك، ولا طيبة قلبك... (تقترب منه، وتريح رأسها بحنان فوق صدره) يا أطيب قلب عرفته في حياتي... آه، برقية القلب الارعن ملأتنا بالأفراح والذكريات.

محمود: (يربت على كتفها) سلوى... تعالي نجرب ذاكرتنا مرة اخرى... حسن... بعد لقب القلب الارعن، وعندما شبت زمردتي، اطلقت عليها اسماً آخراً... هل تتذكرين الأسم؟

سلوى: (تفكر) لا أعرف... لا اتذكر...

محمود: (بحركات صامته يسير في الغرفة ماداً يديه الى الأمام، وبحركات إنسان آلي يستدير تارةً الى اليسار وتارةً الى اليمين... يتوقف) لحوالي سنه تقريباً اصيبت بهذه الحالة أثناء نومها...

سلوى: آآآآ... فعلاً... لحظة لأتذكر!... الكلمة على رأس لساني. لا أعرف.

محمود: كنا نسميها النيدلة(*)

سلوى: احسنت... النيدلة... يا حبيبتي يا جميلة... وكانت تسير تشد قامتها مقلدة اياك في المشي... (وقفة) اتعرف... عندما تعرفت عليك كنت اخاف من مشيتك

(*) النيدلة: السير أثناء النوم.

العسكرية... ومن نظراتك الحادة... (وقفة وهي تتأمل زوجها) كنت تبدو لي قاسياً غامضاً، ومعقداً... و معتزاً اكثر مما يجب بنفسك... (تفتح الألبوم وتقلب عدة صفحات) تعال انظر الى هذه الصورة... المدرسون واقفون بأستر خاء رشيق، والبسمة على وجوههم... أنظر انت الوحيد مقطب... (وقفة) آه... ما أسم هذا المدرس؟ نعم كان يزورنا بين الحين والآخر... كنت تقول لي انه يطمح ان يكون روائياً...

محمود: آه... كان فعلاً يمتلك قلباً نبيلاً، ورقة صافية... ايه يا ماجد العزاوي الطيب... كان ثورياً اصيلاً... حياته انتهت بين جدران السجون. لم اعرف صديقاً له صدق ونبل قلب ماجد... ايه... السنون تذيب حتى الحجر... إن ماجد يا سلوى علمني ان الحياة لكي يعيشها الإنسان بلذة يجب ان لا يعرف جانبها العاطفي فقط... منه تعلمت ان اعرف كل الحياة...

سلوى: (تحاول ان تخفف رنة الحزن في صوت محمود) برقية زمردتك مع كلماتها القليلة ألهبت ذاكرتنا وكأنها سياط... كنت أعتقد ان ذاكرتنا ذابلة...

محمود: (ضاحكاً) لقد جأت كلماتها مثل السياط... وزمردتي جعلت السعادة تشع في عيوننا...

سلوى: (بفرح شديد) وكلماتها القليلة خلقت لدينا كل هذه الرهافة، والتوهج عندنا، والبحث عن ذكرياتنا القديمة.

محمود: (بتعجب) تصوري برقية صغيرة أضاءت ماضياً كنت اتصوره مضبباً، الى درجة كنت اتصور أنني لا استطيع ان امسك ولو بشظايا منه...

سلوى: شكراً يا رب... برقية صغيرة ازاحت الركود، والصمت والرتابة، وغمرتنا بالطمأنينة.

محمود: وفجرت ينابيع الابوة، والامومة، والحماسة، والحب.

سلوى:(بفرح شديد) يجب ان نعمل فرحاً، شيئاً هائلاً لزمردتك يجب ان نحتفي بها كملكة...

محمود: أطبخي أكلات زمردتي المفضلة.

سلوى: لا... تأتي هي طباختنا الماهرة وتطبخ بنفسها... (تتنهد) الهي، ما ان تدخل البيت حتى تجلب معها كعادتها كل البهجة.

محمود: البهجة الخالصة... نعم... وتمنح شيخوختنا القوة.

سلوى: ايه وتمرُّ معها الأيام بيسر عجيب، وتذكرنا مرة اخرى بأيام شبابنا.

محمود: فعلاً... وتشعرنا مرة اخرى بالصلابة، والقوة.

سلوى: آه... وفي الليل نبدأ من جديد نتذكر، ونتوصل الى اسرار نسيناها...

محمود: وتذكرنا جميلة بالبيوت المتعددة التي عشنا فيها...ايه، كنا مثل الغجر ننتقل من هذا البيت الى ذاك:

سلوى: ذاكرة جميلة الآن في ذروة توهجها، ومحشوة بالقصص الحلوة.

محمود: حتى ستذكرنا ببيتنا في القلعة(*) وبناسها الطيبين، آه... القلعة وليالي الصيف الناعسة وذاك المرتفع، والمدينة وكأنها بحيرة من الضياء... يالذكرياتنا الجميلة فوق ذاك الجبل الجميل...

سلوى: وجميلة قد تعلمت كل الأغاني التركمانية والكوردية... اغاني حزينة...

محمود: كان صوتكِ لا بأس به يا سلوى... انتِ الأخرى تعلمتِ الكثير من هذه الأغاني.

سلوى: (من فرط سعادتها تغني، هذه الأغنية التركمانية الشعبية)

انا صاحب الخان وانت ناقل للطحين

لا يمكن يا خاتون لا يمكن

لا يأتي الماء الى الطاحونة...

محمود: هل تتذكرين الاغنية الكوردية التي تقول: لا تبكي لا تبكي انها ليست امك لتتحمل دلالك...

سلوى: (تغني)

لا تبكي لا تبكي

لا تؤلمي عيونك

اراه من بعيد يشماغه ازرق

فهو إما حبيبي او ذاكرتي عمياء

محمود: كنت أحب هذه الاغنية (يغني هو الآخر...)

ذات يوم انا الآخر كان عندي

ربيع زاهر...

(*) القلعة: قلعة كركوك.

يالعذوبة تلك الاغاني... كنا نستمع اليها في الليل والشباب يغنون بحرارة... كنت من فرط تأثلي في ليالي الصيف وانا استمع الى الأغاني احس بحنان الظلام... لحن حزين موجع يضرب القلب.

سلوى: الصوت الجميل عند زمردتك، لديها قدرة أداء جميع تلك الأغاني.

محمود: فعلاً... تشدنا الى صوتها ولهجتها ونطقها السليم.

سلوى: لقد كبرت معهم... أه... متى تأتي هذه الجنية لتعصر قلبينا اكثر برقتها...

محمود: (من شدة فرحهما يضحكان معاً) يا سلوى، السعادة وحدها تعيد للإنسان طاقاته كلها... (وقفة) سلوى.

سلوى: نعم.

محمود: لأكثر من عشرين سنة وأنا لم أذق الخمرة... وقنينه الخمر التي أهداها لي جارنا القس في حارة الماس قبل عشر سنوات ما زالت في مكانها... (وقفة) قبل أيام كنت حزيناً الى درجة الهذيان... اخرجت قنينة الخمر وفكرت ان آخذ منها عدة رشفات، لكنني اعدتها ثانية الى حيث نضع بقية القناني والحاجيات في الغرفة الصغيرة تحت السلم.

سلوى: هل تريد ان تشرب هذا اليوم.

محمود: نعم... الحزن يا سلوى أحياناً يضعف العقل والروح، كان الحزن ينهشني قبل أيام... اعتقد سأشرب من ذاك الخمر المعتق كأساً بمناسبة قدوم زمردتي العزيزة، وأنتِ اذهبي وحضري أكلات جميلة المفضلة... تحركي...

سلوى: يجب ان اذهب الى السوق القريب من البيت... انني بحاجة الى مجموعة أشياء.

محمود: حسناً خذي مفتاح الباب الخارجي معكِ، لأنني سأذهب الى الحديقة .

سلوى: حسن... (تخرج)

محمود:(يغني وهو يغادر المسرح: ذات يوم انا الآخر كان عندي ربيع زاهر.(يعود ومعه القنينه) الحزن شديد مثل الفرح الشديد يضعف العقل والروح... الفرح يشغل اللسان... (يملأ الكأس) الحديقة اجمل مكان لشرب كأس من الخمر المعتق... أزهار ملونة، وشمس عسلية، وفراشات ملونة، وانتظار زمردتي... (يسمع اصوات، وزغاريد، وابواق سيارات، وموجات من التصفيق، وصراخ الاطفال، وأغاني شعبية... يذهب ويلقي نظرة من النافذة... اخذوا فتحية)بالرفاه والبنين...

(يغادر المسرح) الى الحديقة... الى الحديقة... (ظلامٌ للحظات ثم يعود الضوء الى المسرح برفق إشارة الى مرور فترة من الزمن... يدخل محمود المسرح ويسقط بعد ان يجتاز الباب بخطوات... يتلوى في مكانه مثل الذبيح) اي احمق انا... (يتأمل القنينة التي تركها فوق احدى المناضد) لم اعد أرى اي شيء... أين شجاعتي... ما هذا العذاب الرهيب في معدتي... آه... جلبت قنينة محلول الجرامكسون، محلول قاتل للحشرات، إلهي اية غلطة قاتلة إرتكبت؟ يالغبائي... لماذا وضعت قنينة الخمر مع باقي القناني فوق الرف... وانا ببصري الضعيف... محلول الجرامكسون فيه من محلول الباركون القاتل بمعدل عشرين بالمئة... يتلوى كمن يعاني من ألم قاتل، ويموت بعد معاناة حادة، إظلام خفيف، ثم ضوء إشارة على مرور وقت قصير. يرن جرس الباب الخارجي مرات عديدة وصوت جميلة يأتي بقوة: ماما... بابا... ماما... بعد صمت طويل، صوت سلوى... محمود... محمود...

ستِار

كركوك ١٩٧٧

نشرت في مجلة الأقلام

وداعاً أيها الشعراء

مسرحية من فصل واحد

[*الى الفنان المبدع رافع الناصري*]

حديقة واسعة من الحدائق التي تعج بالزوار في الربيع، وبالأخص ايام عطل الأسبوع... في الجهة اليسرى شجرة كرز... من بعيد تُشاهَد بيوت خشبية وصليب كنيسة يلمع، هذا المنظر يشبه لوحة فان كوخ المعروفة بإسم –مشهد من سان ماري– أرض الحديقة ملأى بالأوراق الذابلة... بين الحين والآخر تهب موجات من الهواء تحمل معها انغام ارغن لاحدى –كانتات– الموسيقار باخ. يدخل فنسنت فان كوخ بخطوات مشلولة، مريضاً، متعباً وحزيناً للغاية... يتكلم بمنتهى الحزن والاسى وأحياناً بهذيان، ثم بألم بالغ، وأحياناً بمنطق جميل.

كوخ (يستمع الى نغمات الأرغن) آه، بوسعي ان أتخيل باخ العظيم جالساً خلف ارغن الكنيسة يبحث عن الأيمان، عن اللحن... ايه، كان باخ يبحث بلجاجة ويستلهم من الطقوس الدينية ما يخفف عنه الخوف، والخضوع، ولسعات الندم... (يخرج غليونه... يدخن بشراهة، ويتابع بإندماج بقايا اللحن الذي يتلاشى برفق) باخ مخيلة عظيمة... (يردد مقاطع من اللحن بفمه، ويتأمل شجرة كرز... يتوقف عن ترديد اللحن، ويخاطب شجرة الكرز) أانتِ الاخرى مريضة؟ (يمسك ساق الشجرة) مثلي مفعمة بالضجر... ايتها الشجرة الجميلة ترى أيُنا خلّد الآخر؟ أنا في لوحتي، ام انتِ كوجود(*) لأيام طويلة تعبت تحت شمس مدينة سان ريميه المشرقة انقلكِ بصمت الى القماش... (وقفة) وأنت الان في هذا الربيع المتفجر اجمل... يا الهي لكم تبدين شهية، رائعة الان تحت هذه الشمس العسلية... شمس مدينة سان ريميه... أه... (لنفسه)اواه يا فاوست لكم كنتَ على صواب وانت تردد: ايتها الدقائق توقفي لأنكِ جميلة... (يتأمل الشجرة) أنتِ الآن أجمل بكثير تحت هذه الشمس... يوم رسمتكِ كنتِ كائنة أخرى... كم تأملتكِ، وكم درت

(*) للفنان كوخ لوحة بأسم –شجرة الكرز–

حولكِ وكم غيرتي فكري، ومكاني، والواني... الهي، مثل الساحرة تغيرين شكلك. وانتِ الآن في شكل آخر... (تهب موجة هواء وتدفع بالأوراق الذابلة هنا وهناك... ينحني ويلتقط ورقة) صفراء كما لو كانت مصابة بالتدرن. (يتنهد بعمق) ايه، بعد أيام يأتي الصيف، ثم الخريف؛ ثم الشتاء؛ ومع كل فصل تأتي الآمال، واحلام جديدة... تكرار ممل جميل... آه... أيتها الطبيعة الأبدية الرائعة، وحدك فقط تعرفين لغة حضارتك الداخلية... وحدكِ مثل برتويس(*) تتشكلين مع مواسمكِ...(يدخن ويردد مقاطع من لحن باخ الذي يسمع من جديد... يدور حول الشجرة، يلقي نظرة طويلة الى السماء)، يا لها من سحب مهاجرة جميلة... سحب حرة طليقة تشكل نفسها في السماء كما تشاء... اي رسام يستطيع ان يرسم تلك السحب الفوارة، والمتقلبة وهي تهاجر؟ آه، تهاجر الى أين؟ ربما الى تلك الجزر السعيدة... البعيدة... الامنة... الى تاهيتي حيث يعيش غوغان الحبيب. غوغان (بصوت في منتهى الحزن) غوغان... أين أنت أيها المبدع الكبير، اين انت يا من كنا ندس انفسنا رغما عنا في لوحاتك العظيمة... وفي كلماتك الساحرة وفي كبريائك... (وقفة) ايه، غوغان العنيف، كان يفتح لنا قلبه بكرم لنلج منه الى أبوب الأبداع كلها... (بصوتٍ راعش) هل حقاً تعيش الآن وحيداً... (يخاطبه كما لو ان غوغان أمامه) غوغان، اعرف إنك هربت لتبحث عن الجمال النقي... عن الأرتعاشات الصافية... عن التأجج الحقيقي، عن الحماسة، عن الجمال وهو في غضارة تبتله. وعن البدائية النظيفة، عن السمار الدافيء اللذيذ... (بصوت مخنوق) أعرف... أنت غوغان مثل فلاسفة اليونان... (يطلق ضحكة قوية) آه... لا لا لا... لا تسخر مني. أنت بالضبط مثل فلاسفة اليونان تؤمن ان الفزع الكامل هو الشرط الضروري ليكون الإنسان حكيماً، وخالقاً للجمال.(وقفة... يدخن بشراهة) ترى أي شيء آخر هناك في تلك الجزر السعيدة إضافةً الى الغابات الواسعة ، والبحر الشبيه بالزمرد، والطيور الملونة... وحدي يا غوغان أعرف كم انت ضاميء للترحال، ورؤية الجسر البعيدة... حسنا فعلت وهجرتنا... في باريس بدأ الفن يتحول الى سلعة برجوازية...البرجوازية الحقيرة يا غوغان راحت تعفن النقاء والجمال هنا، آه ليتني اراك في الادغال حاملا فرشاتك، وقماشتك تتصيد

(*) برتويس: في الأسطورة الأغريقية عجوز البحر المتكهن يتشكل بأشكال عديدة.

المناظر، والنساء السمراوات العاريات الناعسات، بائعات المانغو...(يطلق ضحكة هستيرية) عاشق كبير انت... لكن هل يعقل انك طوال هذه المدة لم تتعب من رتابة الجزر السعيدة؟ ألم تتعب يا من لم تستوعبك لا باريس ولا آرلي، ولا يانريميه، ولا بقية المدن... (بصوت هامس) ألم تمل الرتابة في تلك الأدغال؟ ام ما زلت في كل يوم تكتشف أسرارالجزر الجملية... أه... كم تملك من قوة ارادة، وصبر، وعناد يا غوغان...(وقفة... تسمع نغمات جديدة لباخ) آه ايها العزيز وهل حقاً يوجد في الدنيا فن مقنع وجميل لا يكلفنا الكثير، بل الكثير جداً...(يردد مقاطع من اللحن الجديد) غوغان ترى هل تتذكرني بين الحين والآخر! ومحاولتي قتلك يوم رسمتني على هيئة مجنون! صراخي في وجهك، توتري، إنفعالاتي المجنونة... ربما... آه... أعرف انك تتذكرني احياناً، لأنني من النوع الذي لا ينسى، ها ها ها... اليس كذلك؟ حتماً تتذكرني وتردد في سرّك: انه انسان طيب، ونقي ،ومضطرب، وخائر القوى، لكنه طيب القلب جداً، وتنقصه روح المرح... ها ها ها (بهمس) اه، ترى يا غوغان هل يمتلك إنسان مثلي روح المرح وقد عاش طفولة مليئة بالخوف، والخضوع والاضطهاد والفشل...(بصوت حزين وخافت) كنت دائما مكدر الخاطر، مقبوض القلب رغماً عني.(يبتسم، ثم سرعان ما تنقلب البسمة الى ضحكة هستيرية وانت؛ اه منك... رغم تطبيقتك، ومنظر أنفك المخيف، كانت الغبطة تضيئك من الداخل بإستمرار... ايها اللاأبالي الكبير، وهل مثلك يعرف اليأس والهزيمة)... ابداً... ابداً كنا جميعاً نتعجب من صلابتك ونحترمها، ومن صبرك الجميل، ومن تحملك للصعاب، ومن عنادك... (يخاطبه بحنان اكثر كما لو انه فعلا امامه) غوغان، لماذا قلت لي في رسالتك الأخيرة، انك عندما تتذكرني تتذكر دموعي... دموعي التي تخاف منها... اي دموع تقصد؟ دموعي الصامتة؟ وهل حقاً ان الدموع الصامتة رهيبة جداً... ارجوك لا تسخر من ضعفي... صدقني قد اكون اكثركم نقاءاً...(يشعل غليونة مرة اخرى، ويدخن كعادته بإنفعال وشراهة، وإضطراب) ايه غوغان يوم عرفتك كنت افور بالحياة... كنت اقول لك وانت الهاديء الرزين، يا غوغان لنعمل بسرعة الريح ، وكنت تجيبني ببرودك: تريث يا فنسنت... تري يا فنسنت...(بعصبية) كنت اقول: غوغان، كميل ديمولان(*) في الثالثة والعشرين من عمره هدم سجن

(*) كميل ديمولان: أحد قادة الثورة الفرنسية

الباستيل، وكنت تجيبني ببرود: لكننا يا فنسنت نحتاج الى الصبر الجميل.. هل بناء الكاتدرائيات العظيمة سهل.. الصبر... الصبر ...(يستند الى ساق شجرة، تسمع اصوات مختلطة وتعليقات، وضحكات نسوية متقطعة... يذهب كوخ بعيداً... تدخل فتاتان شابتان، معهما شابين)

الفتاة١: (برِقة) هكذا الخريف دائماً حزين... يأتي وفي بضعة أيام يصيب كل شيء بالتدرن، وبالحزن... واثقة جداً ان الدنيا بدات بفصل الربيع... ومن ثم جأت بقية الفصول... الخريف... الخريف... باريس الساحرة في هذا الفصل الحزين ترتدي لون الضجر...(يتوزعون في الحديقة على شكل لوحة جميلة).

الشاب١: الخريف! كيف يمكن لإنسان ان يحب الخريف... تصوروا انه يجعل بكآبته كل هذه الطبيعة الثرية افقر من العدم(الجميع يروحون في ضحك عميق).

الشاب٢: لكن اسمعوا، رغم هذه الكآبة، لنعترف بصراحة ان للخريف مذاقاً خاصاً... قليلاً من الشاعرية رجاءاً، صدقوني حتى السآمة تليق بالخريف...

الشابة٢: نعم... مذاق خاص جداً... مذاق كئيب... اوه... ارجوك لا تمزح... اي مذاق... اي هراء... انا اعتقد ان الطبيعة تغفو في الخريف مثل طفل متعب... انه فصل أخرس، لا يجيد سوى التقطيبة الرمادية،

الشابة١: لا يملك سوى انين هاديء... لا يعرف كيف يعربد مثل الشتاء.

الشابة٢: بل فصل خالٍ من الحيل.

الشابة١: ماذا. فصل لا يعرف كيف يعربد!، بالعكس يا عزيزتي في الخريف تتمرن الطبيعة على الزئير... نعم في الخريف تبدأ زفيرها وشهيقها الغاضب...(وقفة) في الخريف فقط اشعر بحزن وحنين شديدين لأشياء لا اعرفها، وافقد حماستي الرومانسية، وفرحي، ولا استطيع حتى ان احلم، بل اصبح كسولة مثل عصفور الكوكو.

الشاب٢: (وهو يطلق ضحكة عالية) عصفور الكوكو... الكو... كو... وماذا يفعل هذا العصفور.

الشابة١: (بدلع) المشهور عن هذا الكوكو الحبيب انه من شدة كسله يضع بيضة في أعشاش غيره من العصافير لتحضنها له.

الشاب٢: عاش الكسول كوكو... كوكو... إذن لنعترف جميعاً ان الخريف فصل الطبيعة اليتيم...

الشابة٢: اكثر من يتيم... الربيع وحده يحولني الى إمرأة عاشقة... (بحركات مغرية) أصبحُ إمرأة متوهجة، متألقة، اذهب في سبيل الحب الى النار... ها ها ها.

الشاب٢: عاش الربيع...

الشابة١: والغريب ان الخريف لا رائحة له... الواحد لا يشم سوى رائحة الأوراق الميته العفنة، وغبار مبلل... ورائحة تثير الخوف...

الشابة٢: الإنسان المرهف الحساس يا عزيزتي يكون دائماً عرضة للخوف... لذا انا اخاف من الخريف.

الشاب٢: يا عزيزتي كو..كو كلماتك الرقيقة تفترس روحي، ايتها الزهرة... ايتها القطيفة، يا من فعلاً تعرفين كيف توشين وتطرزين كلامكِ... يا كوكو العزيزة، كيف يمكن ان يحب الانسان الخريف، والربيع ينفخ الروح حتى في الصوان...

الشابة٢: أُتركوا الخريف يقطب، هيا لنتمرن في هذا الهواء. امامنا اسبوعان فقط لتقديم المسرحية (بإنتشاء)اجمل شيء في هذا الموسم هو ان نعمل، وندفن انفسنا فس التمارين، ونحفظ كلمات راسين الصعبة بدقة، هيا هيا... إفتحوا الصفحة ١٢٦... بسرعة. لا شيء ينسينا كآبة الخريف سوى التمرين... هيا الى ايفيجيني واخيل(*) ... هيا اخيل إبدأ رجاءاً...

الشاب١: (يمثل دور اخيل) أنا الزم الصمت ولا احرك ساكناً.؟ أانا من يساق اليه هذا الكلام؟ الا يعرفون من اخيل؟ او تعتقد أُم كأُمك ان عليها ان تتوسل إليّ من اجلك؟ او تأتي –هي الملكة بكل جلالها– لتتذلل على قدمي؟ ثم تصفع كبريائي بمخاوف جائرة لا ترحم لائذة بدموع غزار علَّ قلبي يلين او يحنو! ليت شعري من تراه اكثر اهتماماً مني بحياتك ومصيرك؟ أه بوسع ذويك ان يعتمدوا دون ادنى شك على وعدي وعهدي... الا ان الاهانه تعنيني انا وحدي، ومهما حاولوا فأني قمين بحفظ حياة ربطتُ بها حياتي... على ان غصبي النبيل العادل سيلزمني بأكثر من هذا، لن اذود عنك فقط. بل سأثأر لك سريعاً... وسأقتص في الوقت نفسه من هذه الخدعة القاسية النكراء... تلك الخدعة الوقحة التي استغلت اسمي لتنال منك.

ايفيجيني: آه... تريث يا سيدي، وتفضل بالاصغاء الي...

(*) ايفيجيني: مسرحية للكاتب الفرنسي جان ارسين.

اخيل: لا بد لي ان اطلب من ابيك سر هذا الخطر المحدق وهذه الخيانة تقع تحت سمع اليونان وبصرهم. فعليكِ يا سيدتي ان توافقي على ما اذهب اليه حين تهتمين انتِ نفسكِ بشرف زوج وكرامته... لا بد للقاسي الذي استطاع ان يستهين بي ان يعلم اي اسم تجرّأ على خداعه.

ايفيجيني: واأسفاه! لو كنت تهواني حقاً، لو تفضلت واصغيت الى رجاء عاشقة ولهى تلطفاً منك اخيراً، فأن عليك يا سيدي ان تبرهن لي ذلك الان... ان هذا القاسي الذي تسعى لقتله، هذا العدو الهمجي الظالم السفاح، هذا الذي مهما فعل، فكر، في انه ابي، ومانح وجودي.

اخيل: هو ابوك؟ الا اني بعد عزمه الرهيب هذا لا ولن اعترف به الا سفاحاً لك وقاتلا.

ايفيجيني: اجل انه ابي يا سيدي اقولها واعيد القول، احبُ احبه، ابُ اعبده، احبه طالما احبني واثرني، وهو حتى اليوم لم يمنحني سوى دلائل الحب والايثار وقلبي الذي شب منذ طفولته على إحترامه وتقديره، لا يمكن إلا ان يأسو لكل ما يشينه، انى لي ان اتجاسر هنا وبتبدل مفاجيء فأوافق على إحتدام غضبك وهياجك، أنا لي، انا نفسي، ان اثير نقمته بأقوالي، هل تعتقد انه لا بد لك ان تحبني بقدر ما احبك، حتى تستطيع ان تتحمل كل العنوت البشعة...

(يقترب كوخ من الممثلين وهو يصفق بحماس، ويردد المقطع ما قبل الأخير من حوار ايفيجيني)

كوخ: هل تعتقد انه لا بد لك ان تحبني بقدر ما احبك... انت رائعة يا ايفيجيني. رائعة حقاً... يالك من فتاة خلابة الشمائل... هل يمكن ان جان راسين تخيل جميلة مثلك واعطاها دور ايفيجيني؟ يالقسمات وجهك... يشبه قسمات وجه طفلة...(بحماس اكبر) بوسعي ان ارسمك... صدقيني بوسعي ان ارسم حتى صوتك الرقيق العذب.(يضحك) لا تسخري مني يا ايفيجيني... آه، اقسم ان صوتكِ اجمل من صوت اسرافيل... اتعرفين من هو اسرافيل؟

كوخ: لا؟ لا؟ حسن... انه عازف القيثار الملائكي ، وصاحب الصوت الارخم بين كل مخلوقات الله... (وقفة... بحزن) ايفيجيني، لماذا تنظرين اليّ بخوف؟ انا انسان مسالم جداً... صدقيني سوف ارسمكِ ذات يوم من مخيلتي... إنني امتلك خيالاً حاراً يا ايفيجيني، بوسعي رغم اضطراب ذهني ان استرجع كل شيء واضعه

تحت هيمنتي... (وقفة، بمزيج من الخوف والخجل) ارجوك اعيدي ولو جملةً واحدة من جان راسين، نعم، لأنقش صوتك بقوة والى الابد في مخي... هيا أيتها الملائكة... (برجاء حار) ايفيجيني! إعتبريني جمهوركِ... أنا أقوى من مئة مشاهد... أرجوكِ اعيدي تلك الابيات الجميلة لراسين.

الشابة١: (بصوت خائف وهاجس وخائف لزميلتها) إنه ذاك الرسام المجنون الذي قطع اذنه قبل مدة...

الشابة٢: انه هو فعلاً أنه مضطرب، وشاحب، ومريض، (يغادرون المسرح بسرعة... كوخ ينادي عليهم بصوت حزين وموجع) انتم... انتم... وانت يا ايفيجيني... ماذا؟ هل انا مخيف الى هذه الدرجة؟ انا، الآن اضعف مخلوقات اللّه... أنا منهك ومريض... لا شك ان وجهي الشاحب بلحيتي الحمراء فيه ما يخيف... وإلاّ... لما هربوا... (وقفة) هنيئاً للذي سيعرف ذات يوم مفاتيح قلبك يا ايفيجيني... ايه، ستثيرين، وتذهلين، ربما وتلهمين الكثيرين بإلهامك الأنثوي يا ذات العينين المخمليتين يا ايفيجيني...(بصوت حزين) اي لحنٍ ساحر كان ينداح من صوتكِ؟ (يشعل غليونة بيد مرتجفة) المرأة... من غير المرأة تستطيع إكتشاف جمال الروح عند الرجل... ربما لهذا السبب أن لوتريك (*) المدمن على النساء دائم التوهج، والفرح، والسخرية، والعريدة، والانتاج الوفير، (صمت) لكنني اعرف ايضاً كم يعاني لوتريك رغم مرحه الظاهري من احتراق شديد في اعصابه... (وقفة... يطلق ضحكة قوية) والنساء يتهافتن عليه بجنون... ويهربن مني... لماذا؟ ماذا في وجهي يجعل النساء ان ينفرن مني؟ هل حقاً انا جداً قبيح؟ يمكن... الهي حتى كريستين (**) الشوهاء الحدباء، المومس رفضت عواطفي مساعداتي، وحتى حناني... هربت مذعورة... لماذا؟ وارسولا ابنة خالتي لا اعرف لما ارتعبت مني، ومن عواطفي الحارة، ومن حماسي وحبي لها. أيها الرب، ترى، هل حظي في الحياة ان لا أحصل على المرأة التي أهواها بعمق، بل حتى التي اعطف عليها؟ لماذا؟ هل لانني عندما أحب ، أحب بأخلاص؟ ايه، ربما ثمة حماقة في

(*) لوتريك: هو الرسام الشهير وصديق فنسنت فان كوخ

(**) كريستين: مومس التقطها كوخ من الازقة غير انها سخرت منه وهربت

الاخلاص... (وقفة) وغوغان، النساء يقعن على قدميه متوسلات، ضارعات، وهو يصفعهن ويزدرديهن (بصوت هامس وحزين) وأنا، البائس، كلما محضت حبي لواحدة بصدق رجع إليّ بالمَسي... (بغضب كمن يعاتب) لم لا يتريثن قليلاً ليجدن اية روح عظيمة امتلك، واية عواطف هادرة احمل بين جوانحي؟ لم لا يتريثن ليعرفن اية قوة بصيرة امتلك، واي الاشياء اللامرئية اراها مخبوءة هنا وهناك...(يبكي بصمت) ايها المسيح الطيب لقد امتلأت مثلك بالحب الصافي للجميع، ولكن لا احد بأستثناء اخي ثيو محضني حبه... (يصرخ) لم كل هذا السوء في الفهم من الاخرين لي... لم... آه ثيو العزيز.(بيد مرتجفة، وعصبية يشعل غليونه ويدخن بشراهة، ويدور حول ساق الشجرة، ويصرخ) من يا اخي الحبيب ثيو يستطيع ان يهديء صراعاتي الداخلية... ثمة اعاصير من الافكار الحالمة، والالوان، والمواضيع الساحرة تتلاطم في داخلي...(كما لو يخاطب ثيو امامه) ثيو العزيز، لقد وصلت حداً من العذاب حتى ان اكبر نجاح بعد الان لا يستطيع ان ينقذني... الفقر... والفشل... وسخريات النقاد، وعبث هذا القطيع من الفنانين الادعياء، وهذا التآمر الصامت، والمتعمد لمواهبي، افقدت روحي بهجتها وآمالها... (بصوت هامس ومليء بالعذاب) إنني في طريقي الى الجنون... نعم الى الجنون. كيف يبدأ الجنون يا ثيو؟ يبدأ بسلسلة من الإنتكاسات... اه، وحياتي كلها إنتكاسات متتالية... وحدي يا ثيو من يعرف هذه الحقيقة الموجعة... انني عندما انظر الى افق حياتي، والمشاريع التي رسمتها عليه، ماذا أرى؟ متاهات... شقاء... سراب... انا، انا الذي دائماً حلمت يا ثيو ان تكون مشاريعي في الحياة نبيلة... (وقفة... بغضب والم) فشلت كبائع لوحات، برجوازيون قذرون تهجموا عليّ بعدائية لأنني ارسم العمال، والفلاحين... هؤلاء الاجلاف يبتاعون اللوحات الميتة ويدفعون لها ببذخ، لكنهم يشمئزون من رؤية العمال والفلاحين وهم يعملون في اللوحات... وعندما اتكلم عن رؤيتي للفن... يضحكون... عندما اقول، ان كل شيء في اللوحة يجب ان يتحرك، ويتأجج، النقاد يضحكون... ها ها ها... ويضحكون عندما اقول لهم انني عندما ارسم ارى حركة كل شيء... ارى ما حدث... وما سيحدث في الطبيعة، في الجدار، في الاشجار، في الوجوه، وفي الضوء... ثيو، ماذا اقول بعد يا اغلى أخ... انت تعرف فشلت كمدير مدرسة،

وكبائع كتب، وكقس، وكعامل منجم، لأي شيء يا ترى اصلح يا ثيو؟ انت لم تر أعماق المناجم. هناك في الأعماق شعرت مع العمال اي ظلم رصاصي ينصب على هذه الشريحة الطيبة من البشر... اواه، اية حياة بليدة، فاترة، وتافهة هيئت لهم... ليتني اعرف ماذا يجب ان أعمل من أجلهم... ما سر حبي الشديد لهم، بل للجميع... ايه، يا ثيو، لا ترسل لي بعد الآن أي شيء... إنني أثقلك بطلباتي، بتذمري، بتهوري، وانفعالاتي الوعرة، بحالاتي اليائسة، بفقري الأبدي، بخيباتي، بأحلامي وآمالي السرابية الكاذبة والهاربة ابداً... (يبتسم) أنت والله بحق اخٌ رائع يا ثيو وكريم جداً ومسامح، لم تبخل عليّ بشيء. ان كل هذا يعذب ضميري. ما معنى الاستمرار في الحياة وقد فهمت جيداً بأنني فنان فاشل... وما ذنبك، وذنب زوجتك الطيبة جوهانا ان تتحملا حساسيتي الشديدة، آلامي، خيباتي، فقري، ومعاناتي... ايه، يا ثيو، لسنوات ظللت اتفاءل رغم بؤسي وفقري وفشلي. اتعرف ما معنى ان تاخذك الحيرة في دوامتها مثل العاصفة الشديدة؟ انت لا تعرف... يكفي... ها ها ها... اتذكر سخرية والدي مني، كنت ابدو مضحكاً لأسرتنا البيورتانية الطيبة... كنت في نظر والدي الأنسان، العاطل، التافه، المضطرب، والخائف... (تأتي أنغام مقطوعة جديدة لباخ...) ثيو أتعرف ان لوحاتي التي عندك، وتلك التي في غرفتي عانيت حتى النزف في رسمها... ثلاث أشجار وبيت، منظر من أوفر، حقل قمح وأشجارالسرو، عجوز حزين، النزهة مساء، الطريق وشجرة السرو ونجمة، لوحتي الشخصية بعد ان قطعت اذني، حديقة سان بول، الكرسي والغليون، زهرة عباد الشمس، وساعي البريد الطيب، الذي كان يأتيني بمساعدتك.(*) ثيو، لقد عانيت حد النزف في رسمها... الأعمال العظيمة ليست صدفة... لا... لا... الأعمال العظيمة إرادة، سهر، عمل متواصل بعناد وصبر... لو فقط تعرف الأيام، والليالي التي قضيتها وانا ادرس لوحات ديلاكروا، روبينز، والرسم الياباني، وديكا، واعمال غوغان العظيم، وذاك العملاق رامبرانت الذي رسم الضوء الحقيقي وهو يسقط على الوجه، والارض والجدار... (وقفة) عذاب لذيذ العمل في تلك اللوحات... (يسمع صوت إمرأة).

(*) حبذا لو عمل المخرج في عكس هذه اللوحات عندما يذكرها كوخ.

صوت المرأة: (بحيرة) الا أجد أحداً في هذه الحديقة يحمل معه ساعة... (تدخل وتقترب من كوخ) كم الساعة رجاءاً؟

كوخ: (يتأملها طويلاً) لست أدري... لكن الشمس على وشك المغيب بعد أقل من ساعة.

المرأة: ألاّ تحمل معك ساعة!

كوخ: كلا...

المرأة: عجيب... (بصوت خافت) ايها المسيح الطيب... اين ذهبت هذه الطفلة اللعينة... اين... اين... ذابت مثل فص الملح في لحظات... يا لها من صغيرة نزقة، شيطانة كثيرة الحركة... (الى كوخ) قلت إنك لا تملك ساعة.

كوخ: (يطلق ضحكة هستيرية) سيدتي إنني لا اجد اي ضرورة لها، ثم لم يجب ان احمل ساعة؟

المرأة: ماذا؟ لا تجد لها ضرورة... من إذن ينبهك على مواعيدك، عملك، زياراتك، لقاءاتك.

كوخ: ساعتي الداخلية.

المرأة: اية ساعة داخلية.

كوخ: في داخلي ساعة دقيقة تقول لي إنهض، أخرج ، تعال... ثم كل شيء واضح يا سيدتي... صباح، ظهر، مساء، ليل... وانا اعمل في جميع هذه الاوقات.

المرأة: مستحيل ألاّ ترتاح...

كوخ: بالنسبة لي كل دقيقة صالحة للعمل... ثم إنني لا اعرف متى تأتيني لعنة العمل.

المرأة: أتسمي العمل لعنة؟

كوخ:لأن عملي صعب جداً...

المرأة: ماذا تعمل؟

كوخ: أعمل في الفجر عند الغسق، صدقيني اعمل في اعماق النوم... انا أعمل الآن وانا أنظر اليكِ.

المرأة: (بتعجب) أنت طراز غريب... لكن الا تخشى ان تسقط ذات يوم من كثرة العمل؟

كوخ: طبعاً أخشى.

المرأة: لم لا تخفف عن نفسك قليلاً.

كوخ: مشكلتي ان اي دقيقة تمر هي صالحة لي للعمل...

المرأة: مثل هذا العمل حتماً يؤذيك ذات يوم..(وقفة) المهم، أنت حر في عملك... هل رأيت طفلة مرت من هنا؟ طفلة في الثامنة من عمرها ...

كوخ: (يستمر في مزاحه مع المرأة) إسمها ايفيجيني أليس كذلك؟ طويلة ونحيفة، وزمردية العينين، ساحرة الصوت.

المرأة: لا لا لا... إنها طفلة في الثامنة...

كوخ: ترتدي فستاناً أزرق، وفوق رأسها قبعة بيضاء.

المرأة: لا لا لا... الطفلة في الثامنة، ترتدي فستان ليموني، وحذاء ابيض...

كوخ: رأيت طفلة أخرى ترتدي معطف بلون الفستق... وفستاناً بلون الكرز... كانت ملونة مثل فراشة جميلة، وتنط في ارجاء الحديقة... إنني يا سيدتي دائماً أحلم بأطفال ملونين.

المرأة: (ينتابها شيء من الخوف المشوب بالشك... تتأمل كوخ طويلاً) انت تتكلم بالألوان... ماذا... حقاً ان الخريف موسم كئيب للبعض.

كوخ: جداً...

المرأة: قد يهيج مسائل غير مريحة لدى البعض.

كوخ: يهيج عندي الخيال والعقل، وعندئذٍ.

المرأة: عندئذٍ ماذا؟

كوخ: تبدأ عند أمثالي حالة من الهلوسة.

المرأة: (بخوف) هل تعاني من شيء ايها السيد؟ (لنفسها) غريب امر هذا الرجل... لا يبدو طبيعياً انه مضطرب.

كوخ: ماذا... مضطرب... وهل هناك انسان لا يضطرب... وهل هناك إنسان يمتلك قليلاً من الحس ولا يعاني.(وقفة) سيدتي حتى الهواء يعاني.

المرأة: الهواء!

كيف يعاني الهواء؟

كوخ: لم لا؟ يعاني... إستمعي إليه جيداً تجدينه يعاني.

المرأة: (بخوف) كيف؟

كوخ: لكن يجب ان تمتلكي أُذنا حساسة جداً لتستمعي الى معاناته.

المرأة: مستحيل ... كيف يعاني الهواء.

كوخ: من ملل الدوران حول هذه الكرة الارضية...

المرأة: (بمزيد من الخوف) وهل للهواء مشاعر او حس؟

كوخ: لكل شيء في هذه الطبيعة مشاعر، وحس...(وقفة) هل تستطيعين رؤية الهواء؟

المرأة: مستحيل انه لا يُرى أبداً...

كوخ: لكنني انا فنسنت فان كوخ استطيع ان اراه، واستطيع ان ارسمه...

المرأة: (بتعجب) حسن ما لونه...

كوخ: يجب ان تمتلكي خيالاً حاداً...

المرأة: كيف... اقصد كيف يكون الخيال الحاد.

كوخ: الخيال الحاد يا سيدتي يرى اللامرئي...

المرأة: اللامرئي...

كوخ: لو كان لديك نفس مشاعري، ونفس حدة بصري، ونفس حرارة خيالي جعلتك ترين اللامرئي.

المرأة: إذن لا استطيع ان اراه.

كوخ: هنا المأساة... الهواء ورؤيته بالنسبة لك مسألة صعبة جداً... تعالي... انظري الى هذه الشجرة؟

المرأة: (يطيب لها التحاور مع كوخ)إنها شجرة كرز.

كوخ: نعم شجرة كرز... حسن، هل تلاحظين حركتها؟

المرأة: إنها ساكنه لا تتحرك.

كوخ:(يؤشر الى الشجرة) انها تتحرك...

المرأة: إنها ساكنة... ساكنة.

كوخ: إنها حية... إنني اسمع شهيقها وزفيرها... الطبيعة يا سيدتي سيد الخداعين لا تمنح نفسها إلا لقلة من الناس...

المرأة: (تتراجع... بخوف) هل تعتقد يا سيدي إنك إنسان طبيعي؟

كوخ: وهل نطقت بأشياء سخيفة، لا معقولة...

المرأة: انت... انت لا تبدوا طبيعياً أبداً.

كوخ: سيدتي المحترمة... هل سبق لكِ وان تألمتِ؟

المرأة: لا يوجد إنسان لا يتألم.

كوخ: ألماً حقيقياً... لا اقصد ألم الجسد التافه...

المرأة: الألم هو الألم.

كوخ: ألم الروح... ألم الخيال... ألم المشاعر الحادة... ألم العذاب والوحدة... ألم حارق مثل اسيد يحرق حيث يسري.

المرأة: (بخوف شديد) لا أعرف... أنت تهذي... (بصوت خافت) هل أنت... أنه انت فعلاً الان عرفت...

كوخ: أنا ... من انا...

المرأة: أنت... أنت كثير الشبه بذاك الرسام الهولندي المجنون الذي قطع اذنه...(تبتعد بخوف)إنك هو... (تهرب) حتماً تذهب الآن وتشكيني الى السيد العمدة .

كوخ:(وقفة... تأتي مجموعة عصافير وتروح في زقزقة... يتأمل كوخ الشجرة، ويطلق ضحكة حلوة، وبحزن) عندما اقول للروائي اميل زولا ان الفنان كائن جمالي، يقطب ويعبث بلحيته الكثة ويفكر، اما لوتريك فمثل طفل صغير من فرط فرحه يحضنني... انه يشعر بكلماتي شعوراً غريباً ويرشفها...اية حتى هذا الكتاب الرائع سخر من خيالي مثلما سخرت تلك المرأة... قال عني زولا بغضب، حتى عمال المناجم اصبحوا فنانين، ورسامين... يا لبؤس الرسم... شكراً يا سيد زولا... هل حقاً لا يحق للعامل ان يصبح فناناً؟ ام ان الرسم سفينة قوم لا يدخلها سوى النخبة... انظر الى لوتريك كم يستمع إلى بحنان، كم يقدر ضربات فرشاتي... لوتريك يعرف ان العمل الفني الرائع يثير العاطفة الجمالية الى حدودها القصوى...(يسمع صوت رجل عجوز).

صوت الرجل العجوز: حسن يا صديقي العزيز حاول ان تزورني... سأكون في إنتظارك... بكل تأكيد، وسنتكلم في الموضوع بشكل مفصل... الى اللقاء... (يدخل الرجل العجوز الى المسرح، ويرسل نظرة طويلة الى فان كوخ) مساء الخير...

كوخ: مساء الخير.

الرجل العجوز: قبل حوالي الساعة كنت اتمشى مع صديقي الذي ودعته قبل قليل، وانت واقف هنا... تدور حول هذه الشجرة وتناغي نفسك.

كوخ: هل كنت تراقبني؟

الرجل العجوز: لا أبداً...لماذا أراقبك... كلما التفت الى هذه الجهة كنت أراك واقفاً... ماذا

في هذه الشجرة؟

كوخ: (بسخرية لطيفة) لا شيء إنها شجرة كرز.

الرجل العجوز: منذ مدة وانت تتأملها وكأنها شجرة غريبة، شاذة، مقدسة.

كوخ: (يتأمل الرجل العجوز جيداً... بصوت جاهد يجاهد الا يسمعه العجوز)رجل عجوز... كمش البرد وجهه. لكن لم يكمش فضوله...

الرجل العجوز: لقد اخذ الجو يبرد...

كوخ: (ملاطفاً العجوز) الأماسي في الخريف تكون مثل أماسي الشتاء بأستثناء الثلج.

الرجل العجوز:الا تشعر بالبرد، وانت لا ترتدي ملابس سميكة...

كوخ:لا لا (بسخرية) لدي فائض كبير من الحرارة في الداخل،

الرجل العجوز: (هو الآخر ملاطفاً) رائع... هل انت شاعر؟

كوخ: (ضاحكاً) الشعراء دائماً لديهم فائض من الحرارة، والمعاناة، لم هذا الظن من النظرة الأولى؟

الرجل العجوز: أظن ؟ أنك شاعر... نعم شاعر اليس كذلك؟

كوخ: نعم...

الرجل العجوز: لأنني احب الشعر، بل اقدسه، فأرى الشاعر من مسافة مئات الأمتار... الحب هو الذي يقول لي ان هذا الانسان شاعر...

كوخ: الحب فقط يدلك عليهم.

الرجل العجوز: المرء يا سيدي يستطيع بنظرة عادية ان يتبينهم وسط الجموع الغفيرة...

كوخ: غريب! كيف... ما هي الاشياء التي في شكلي دلتك على كوني شاعراً...

الرجل العجوز: (يستمريء الحديث مع كوخ) الفنان... الفنان...

كوخ: (ملاطفاً) الفنان الفنان...لا افهمك، ولكن يثيرني، ويعجبني حدسك...

الرجل العجوز: الفنان عندما تسكنه لعنه يكون شاذاً في هيئته، في عينيه، في تقاطيع وجهه...

كوخ: وهل ان هيئتي شاذة؟

الرجل العجوز: شاذة؟ يا سيدي، تجد في هيئة الفنان امارات الحيرة، والخوف والمهاب و الانصفاف، وعدم الانتماء الى العامة في كل شيء...

كوخ: ها ها ها... كلام جميل...

الرجل العجوز: اوه... ارجوك... اخشى ان تغضب... لا... لا تغضب من عجوز مثلي... المهم وقد اكون خاطئاً، لكنك في قناعتي شاعر... (بمزح لذيذ) الخريف، زائداً فصل الخريف وهذه الكآبة، تعني فورة دم، وتحليق عالٍ في الخيال، وتلاطم في العواطف، والحساسية، وحالات من التناقضات الغامضة ... أعرف كم هي صعبة كتابة الشعر... يجب ان نقدس العظماء منهم... اجل، نقدسهم...

كوخ: (يكلم نفسه) عجوز طيب، ورائع... نشط، يقظ الفكر والقلب مليء بالحياة في طريقه الى بيته يطلق الحكمة والفكاهة الهادئة شيء رائع...(وقفة) وهل الخريف فقط يثير هؤلاء الشعراء ايها السيد.

الرجل العجوز: يحبون كل المواسم... سحرة، احياناً لا مواسم لهم... يخلقون مواسمهم، إنهم هم الطبيعة، يغنون في النعيم والجحيم...(وقفة)اذن صدق ظني، فأنت شاعر.

كوخ: نعم... لكنني شاعر بدائي.

الرجل العجوز: شاعر بدائي... كيف؟

كوخ: اكتب قصائدي مثل الأقدمين بالفرشاة والاصباغ...

الرجل العجوز: لا أفهم...

كوخ: حسن. هل تريدني ان اكتبك بكامل هيئتك؟ نعم من قبعتك الى حذائك، قف... لا تتحرك... دعني أتاملك.

الرجل العجوز: (ويهم بالذهاب) اعتقد يكفي لهذا الحد... يجب ان اذهب.

كوخ: لم العجلة...

الرجل العجوز: صديقي ينتظرني...

كوخ: هل انت سعيد ايها العم؟

الرجل العجوز: هذا شيء خاص بي... مع ذلك بوسعي ان اقول لك الان وفي هذه اللحظة ،انا في هذا العمر. انني سعيد جداً لأنني اكلم شاعراً طيباً.

كوخ: انت سعيد ؛ كيف؟

الرجل العجوز: سعيد لأنني عرفتك... الان هل تسمح لي أن أذهب.

كوخ: انت حر... لكن كيف ترى السعادة؟

الرجل العجوز: إننا نتكلم عن السعادة بمفاهيم مختلفة طبعاً، لكننا وهذا مهم جداً في الاخير نطلبها جميعا لأنفسنا... انت في كتابة الشعر ... وانا في اشياء أخرى؟

كوخ: فعلاً.

الرجل العجوز: إسمع يا عزيزي الشاعر، إنني الان ذاهب لزيارة صديق عزيز، هو من نفس عمري، وصديق صباي... الشرفاء من الاصدقاء نعمة عظيمة في هذه الحياة..إنه عازف بيانو ماهر... وعدني هذا المساء ان يحضر لي خمراً معتقاً، ووجبة شهية، وان يعزف لي سوناتا –ضوء القمر– لبتهوفن... ماذا اريد اكثر لاكون سعيداً... انظر... سوناتا في ضوء القمر، خمر معتق، وجبه شهية مع صديق صباي... هذه سعادة عظيمة... (يهم بالذهاب) وداعاً، ايها الشاعر وليلة هانئة ايها المبدع...(يخرج)

كوخ: (يشعل غليونه، ويدخن بشراهة... يسير جيئة وذياباً... ويدور حول شجرة... تسمع قصة جديدة لباخ مع ترتيلة كنيس؛ حزينة جداً) آه... هذه الترتيلة تدخل الرعشة في القلب... رعشة الايمان النادرة... (وقفة) لماذا نشيخ بسرعة نحن الكائنات وكأننا مجرد لوحات، والعالم يرجع اكثر شباباً، ما هذه اللعبة اللعينة التي يعيشها الانسان... والعجوز الذي حاورني... الهي، ما كان يحس بشيخوخته ابداً... كم كان رائعاً، ومحدثاً لبقاً، عجوز سعيد، يذهب الى صديق صباه... عجوز رائع باسم الوجه، ذكرني برجل في مدينة آرلي (*)

قبل سنوات ارادني ان ارسمه قبل سنوات من الآن كنت في آرلي... يا لأيام آرلي في الشتاء، السماء تستقبلني بالثلج وتشع المدينة مثل البلور، وتتفجر في الاعماق الرغبة بالرسم، وتجسيد العالم كماسة بيضاء... آه والربيع يأتي بالافراح، والالوان، وافواج من الطيور الملونة، يكاد الانسان امام الربيع العظيم يحس ان بوسعه ان يرسم الطبيعة دون ادنى موهبة...(يدخن بتوتر) كنت ارسم بحماس في الغرفة، في المزرعة في المقهى، في الحقول، فوق الرصيف... اه، يا لمنظر الحقل تحت مملكة الضوء... والفلاحون يثيرون في اعظم شوق للعمل (يدخن بتوتر اكثر، ويدور حول نفسه، ثم يسير بخطوات تارة قصيرة، وتارة

(*) آرلي: مدينة في جنوب فرنسا.

سريعة)ثيو، اي اخي الحبيب، لا احد سواك يعرف انا كم متعب... متعب لحد النزف... بالنسبة لي انتهى كل شيء الان.(ياخذ انفاساً طويلة من الغليون، ثم يلقيه بعيدا) في مثل عذابي هذا يجب ان يمنح الانسان نفسه الراحة الابدية... (بصوت حزين) اصافحك ايتها الحياة الحلوة... رغم خيباتي الكثيرة ايتها الحياة، كنت عنيداً، لأنني رغم صنوف الآلام، والمَاسي، والعذابات، اقلعت في بحرك العاصف بعناد وبأشرعة ممزقة... اجل بعناد فنان... (صمت) آه، غوغان الحبيب، اشد على يديك يا من تضع الملاحم وسط تلك الادغال في جزيرتك السعيدة... غوغان اي هم رهيب تركت لي بهجرك إياي (صمت طويل... يردد المقطع التالي لشكسبير) ما الحياة إلا طيف يمضي الى زوال... او ممثل لا حول له يخطر ويتنقل على المسرح، ثم لا يسمع منه بعد ذلك... (وقفة) كنت عندما اقرأ شكسبير بحب؛ كان والدي يقول، فنسنت، ما دخل شكسبير بالرسم، ولماذا تقول ان شكسبير ضروري لأفهم الانسان عندما ارسم...(وقفة) يردد بصوت حزين، ما الحياة الا طيف يمضي الى زوال.(بحركات بطيئة يخرج مسدسا، وبعد ان يتأمله، يوجه فوهته الى رأسه ويضغط بسرعة... مع صوت الاطلاقة يقفز، يترنح ويدور حول نفسه ويسقط... وبصوت خافت وحزين) ثيو العزيز، اسف، اعرف انني بأنتحاري سوف افسد عليك وعلى زوجتك عطلة الاسبوع...، ثيو ما كان بوسعي بعد كل تلك الخيبات المزلزلة ان اهدىء صراعاتي الداخلية الملتهبة... (بصوت مخنوق) هل تذكر طفولتنا؟ كنا نتخاصم على قطع؛ الجبن، ونتضارب. هل تذكر وجه والدتنا الحزينة وهي تتأفف من خصامنا... ثيو ارجوك لا تدع زوجتك جوهانا الطيبة تبكي من اجلي... وداعاً... اقبلكم جميعاً.....

ستِار

كركوك

نشرت في مجلة الاقلام

الملاحظة/ للمخرج كامل الحرية ان ينقل هنا المشهد السادس من المسرحية بكامله او يقتطع اجزاء منه كما يشاء هو.

مرحباً ايتها الطمأنينة

مسرحية من فصل واحد

غرفة الجلوس صغيرة فيها أثاث قديم ومهمل.. الجدران متسخة بلون التراب... في زوايا الغرفة شغلت العناكب مكوكها وزرعت عشرات الشباك السوداء... الستارة التي تغطي النافذة الكبيرة والوحيدة في الغرفة في الجدار المواجه للجمهور قذرة، مكرمشة،... مكتبة صغيرة هي الأخرى مهملة فيها عدة كتب انكليزية وعربية مقحمة بأهمال... فوق المكتبة صورة لشاب وسيم، نظراته حادة توحي بالعزيمة، والعناد، وثقة مفرطة في النفس، باب على الجهة اليمنى يؤدي الى الخارج، وآخر في اليسار يؤدي الى غرفة داخل البيت... كل شيء في الغرفة مهمل من مدة طويلة، ولا يستعمل منها سوى جهاز الهاتف، ومجرد المرور للوصول الى الباب الخارجي، يرن جرس الباب عدة مرات، تدخل ساهرة وهي في حوالي الثلاثين... سمراء، جميلة، رشيقة، وذات مظهر حزين ورحيم، ورغم اهمالها الواضح لنفسها، فهي جذابة ورقيقة، ويظلل وجهها الطفولي ضرب من الألم الخبيء، غير ان ابسط إنفعال، او قليلاً من العاطفة، او الحساسية تجعل ذلك الالم الخبيء ينبض بسرعة... يستمر جرس الباب بالرنين... تهرول ساهرة وهي ترتدي فستاناً (جرسي) حائل اللون، وتفتح الباب. يدخل ساعي البريد، يلقي نظرة على ساهرة

ساعي البريد: صباح الخير.

ساهرة: صباح النور.

ساعي البريد: السيدة ساهرة يعقوب؟

ساهرة: (وهي توزع نظراتها بين وجه ساعي البريد، وبين يديه وحقيبته) نعم تفضل...

ساعي البريد: (يسلمها مظروفاً) هذه البرقية لكِ...(ويخرج دفتراً) وقعي هنا رجاءاً... نعم... هنا.

ساهرة: (بتعجب شديد) برقية! (وهي توقع) برقية لي انا؟

ساعي البريد: نعم... من الخارج.

ساهرة: (بصوت مخنوق) من الخارج!

ساعي البريد: نعم...

ساهرة: (بأرتباك) من الخارج... يعقل (تستلم البرقية بيد مرتعشة) شكراً... شكراً...

ساعي البريد: العفو... امل ان فيها أخباراً سارة... مع السلامة...

ساهرة: مع السلامة (يخرج ساعي البريد)... تغلق ساهرة الباب، ويلمع في عينيها إستطلاع غريب، تتأمل البرقية، وفجأةً ورغماً عنها يصبح وجهها شاحباً وكئيباً... ماذا؟!... هل؟! (غير مصدقة نفسها)لا لا... (تلقي نظرة طويلة الى صورة الشاب فوق المكتبة) لم يكن في يوم ما مزاجياً... كان منذ مراهقته جاداً، وحاداً لا يتراجع عن كلامه ابداً... ابداً... وإذا قرر شيئاً فعله... عشت معه سبع سنوات واعرفه مثلما اعرف الكثير جدا عن نفسي...لا ، لم يكن متردداً، ولم يعبث معي لمجرد المزاح ابداً... (تتنهد) هل يعقل انه غير فكره؟ لم لا... وهل كثيرٌ ان يهديه الله... قبل اكثر من سنه ونصف قال انه لن يرجع ابداً، ويبقى في إنكلترا الى الأبد، وطلب مني ان افكر في مستقبلي، بل وحتى خيرني بالزواج اذا اردت، وقال من حقي ان اعتبر رسالته بمثابة ورقة طلاق. (يطفو شعاع هانىء، حالم في عينيها السوداوين، تقلب البرقية بين اصابعها... يجتاحها لا إرادياً خوف غريب وعذب) ماذا يا ترى يريد الآن؟ وهل هي منه؟(صمت، بأصابع مرتعشة تفتح مظروف البرقية، وبخوف شديد تقرأ) عزيزتي ساهرة سأكون في كركوك في العاشر من الشهر الجاري... إنتظريني... قبلاتي...

(يزداد الخوف في داخلها... تنظر الى الجمهور بعينين مفتوحتين كعين سمك ميت، وتنتاب جسدها رعشة حادة... وتسقط البرقية من يدها، وتدور حول نفسها كمن يصاب بدوار خفيف)

ماذا؟ يا كريم يا رب... يا مؤنس من لا انيس له. (تلتقط البرقية وتقبلها بحرارة، وبهدوء تلقيها فوق اقرب منضدة) آه يا عزيزي فوزي... هل هناك إمرأة في الدنيا كلها تحبك مثلي؟(تترنح في مشيتها... بعد قليل تجلس ، تنهض، تعود فتجلس، وتقوم بعدة حركات صامته، لا إرادية، وتحتويها فجأةً نشوة تنبثق من اعماقها، وتدور من شدة فرحها حول نفسها، وتهرع الى الجهة اليسرى بعد

قليل تأتي بمرآة كبيرة تضعها فوق إحدى الآرائك وبحركة هستيرية سريعة تزيح الستارة المكرمشة... يتدفق لسان من الضوء القوي الى الغرفة... تسمع موسيقى حزينه... تلقي نظرة طويلة الى جسدها الرشيق، والى وجهها الذي يصل الى اوج توتره... والمه، وفرحه، تعبث بشعرها؟ آه... اصغر خلية في جسدي ترتعش... (تضع باطن يديها فوق حقويها) ما زلتُ جميلة... اواه... قلبي ينبض بسرعة...(بصوت فيه لمسة الم) فوزي... فوزي... لقد تركتني وحدي... سبع سنوات وانا انتظرك، وابحث عنك مثلما تبحث الشاة عن حملها الذي انتزع منها (يظهرألم رهيب اخرس في عينيها) تركتني ايها الحبيب لقلق ذليل... سبع سنوات وانا احبس عذابي واخدع نفسي واقول(بصوت هامس) سيأتي ذات يوم... (صمت قصير) اتعرف يا فوزي ماذا يعمل العذاب الحبيس، يعمل ثورة ضد كل شيء... لكن حبكِ كان اقوى من ان اثور عليه، (ينتابها سكر عاطفي، وتركض الى جهاز الهاتف، وبأصابع مرتعشة تدير عدة أرقام)الو... الو... سعاد... انا ساهرة... (تضحك) ماذا؟ صوتي...(تتكلم تارة بأنفعال وتارة بهدوء، وتارة بأضطراب...) صوتي مضطرب... مبحوح، انا سعيدة ...سعيدة (تردد بصوت مزغرد)

الريح تعصف يا هواي اليوم

والأمطار تنهمر انهماراً

ليس لي حبيبة واحدة مخلصة.

آه يا سعاد، ما زلتِ تحفظين هذه القصيدة، وكنت احسن من ترددها في الجامعة... انا... انا... مضطربة فعلاً... لست طبيعية يا سعاد... اوه... الريح تعصف يا هواي... والامطار تنهمر إنهماراً... تسألينني فيما اذا كنت على ما يرام...لا ونعم... لا لا، ليس من الخوف... لا يا حبيبتي سعاد... لم تعاودني الكآبة هذه المرة... صوتي طبيعي... لست خائفة... بل خائفة ايضاً... إنني مثل المحمومة يا سعاد...(تبكي) جسدي كله يرتعش... تصوري يا حبيبتي ماذا يحدث عندما ينقلب اليأس المطلق فجأةً الى فرح...(تبكي بحرارة اكبر)سعاد...سعاد... سبع سنوات... بعد سبع سنوات من اليأس، ورساله الطلاق، ابرق لي فوزي يقول: انه

سيكون عندي هذا اليوم... اليوم العاشر من آب... وهل تريدينني ان اكون طبيعية، لو فقط ترين يدي التي تمسك بالسماعة...ترتعش مثل الورقة...اوه... لا لا لا... ارجوك لا تأتي... اتركيني لوحدي... إنني غير طبيعية...اواه... اريد ان اكون لوحدي... كما كنت منذ ان هجرني. اعرف، اعرف اقدر مشاعرك(تبكي وتضحك) إبقي معي على الخط قليلاً... إنني أخاف من الفرح المفاجيء... سعاد... سعاد... لقد عشت سنوات من الآهات... ماذا؟ لا لا... لا اريد ان اتصل بوالدتي... انها مرهقة ولا تتحمل مثل هذا الفرح المفاجيء... الهي... الفرح شيء قاسٍ..قاسٍ جداً... من... سعيد... انه في المدرسة الآن... ماذا يحدث؟ اوه صحيح انه لم يره لكنه لن يفاجأ يا سعاد... لقد زرعت حب بابا فيه منذ ان بدأ يتكلم... انت تعرفين ذلك... ها ها ها...يوه، تسألينني عن الوضع في البيت. طبعاً كل شيء مهمل، وقذر، لا لا لا شكراً، ارجوك لا تأتي... ليقع ما يقع (تطلق ضحكة هيستيرية) اوه يا عزيزتي وهل حقاً تريدينني ان اصلح سبع سنوات من الاهمال في ساعات ... ماذا؟ طبعاً لا أستطيع المجيء الى المدرسة اليوم... شكراً...تحياتي، اسمعي، اتصلي بي بين الحين والاخر... لا اتمالك نفسي جيداً...(تعيد السماعة... تقف امام المرآة وبرفق تمسح دموعها) ما زلت جميلة... بعد سنوات من الشك... لقد جعلتني يا فوزي اعيش ساعات من الظنون السيئة، والاهات، والتنهدات، والاحلام... برسالتك الاخيرة التي خيرتني فيها مصيري انتزعت اصغر نتفة من الهناءة مني، لكنك لم تستطع ان تنتزع مني الأمل... (صمت، تلقي نظرة طويلة الى جسدها في المرآة، وتنتابها غبطة زاهية، ويطفح وجهها الطفولي الجميل بالبشر والوداعة) تدور حول نفسها، مرة اخرى تؤدي من شدة فرحها حركات صامتة لا إرادية تعبر عن الفرح، والألم والحب وبصوت جميل تغني لأم كلثوم

افديه ان حفظ الهوى او ضيعا

ملك الفؤاد فما عسى ان أصنعا

(تهرول بحركات فتاة مراهقة الى الباب في الجهة اليسرى، وهي مستمرة في الغناء)

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه

(ترجع وهي ترفل بفستان بلون النبيذ... تتأمل قامتها) لون جميل... ربما... (وتعود ثانية الى الباب في الجهة اليسرى، تأتي هذه المرة وهي تلبس فستاناً بلون الفستق)آه... هذا اجمل... (تخرج ثانيةً وتأتي بصندوق فضي جميل، وبهدوء تتزين) ما زال وجهي شاحباً... اه... يجب ان اضع مزيداً من الحمرة هنا... هنا بالذات ...هكذا...(تسربلها حالة من الرقة، والنعومة ،والبراءة، والوداعة، وتؤدي من شدة إنتشائها حركات لا تنسجم مع عمرها) الحواجب مهملة... هل هذا هو وجهي الحقيقي؟(تطلق ضحكة حلوة) طبعاً... لماذا انا سخيفة... تغني اغنية اخرى لأم كلثوم

اكذب عيني عنك في كل ما ارى

اكذب نفسي اسمع اذني منك ما ليس تسمع

(تتوقف... تمشط شعرها الطويل بسرعة وعصبية... اه... وجهي بدأ يسترجع رقته، نعومته...(صمت) آه من الريبة، لقد قتلتني الريبة يا فوزي، ونهشت شبابي... أتعرف كم صعب ان يرتاب الانسان دائماً... الموت اهون بكثير...(تبكي) الريبة علمتني الثرثرة، والهذيان مع نفسي، كلما خلوت الى نفسي اكلمها رغما عني بصوت يعلوا وينخفض، واعيش في دوامة من الكذب... اخاطبك، واخاطب شخصاً آخر. وانت اخاطبك الى درجة انسى نفسي، واتكلم معك بحرارة وبحماسة...(تضحك) واحياناً أغازلك، واكلمك بنغم جميل...اه سبع سنوات من الظنون السيئة، والريبة، والآهات... (صمت) تركتني يا فوزي وسط غابة من الشبهات، والافكار المجنونة. لا القراءة ولا اولئك الكتاب الكبار الذين احببناهم استطاعوا ان يخففوا من آلامي... (تمسح دموعها) كنت لمجرد ان انسى نفسي، واحفظ صفحات عن ظهر قلب... نعم لمجرد ان انسى نفسي... (تتأمل في المرآة رفيف شفتيها... فجأة تطلق ضحكة حلوة، وتطفو طمأنينة هادئة وجميلة على وجهها... تخاطب فوزي بحرارة كما لو انه فعلاً واقف امامها، تقوم أثناء هذا التحاور بحركات فاتنة ورشيقة) أتعرف يا فوزي، ارادت نسوة ماكرات بطريقتهن الدنيئة ان يزرعن فيّ ظنوناً سيئة عنك، وعن غيابك، ولا مبالاتك وقسوتك... كنت استمع اليهن بآذان طرشاء... كنت اقول لنفسي، ما دمت اعيش

فهناك امل... وكنت اهرب من نفسي... ايه يا فوزي... اتعرف كم صعب، وحلو ايضاً الهروب من النفس احياناً... وطال معي الهروب... (تتقدم وبإندماج عاطفي تحتضن فوزي) منذ ايام المتوسطة زرعت شبابك حولي... وانا في نضارة شبابي، وفي الجامعة كنا مع بعض...كنت تقول لي: انتِ جميلة، لذا انت مثل قفيرة النحل ، الشباب يحومون حولكِ... كنت فاتنة... ساحرة... فوزي تعرف، بحركة بسيطة من يدي كان بوسعي ان اجعل اي شاب يجري خلفي...(تقبله بحرارة) لكنني كنت اغفو هنا، في قلبك... كنت تغار مني، عندما يطلب الدكتور ان القي قصيدة شيلي بطريقتي...(بحرارة)

لا تذرف دمعة... لا تذرف دمعة

فالزهرة ستتفتح في العام القادم

لا تبك بعد اليوم

ايه كنا نزهو بلغتنا الانكليزية، ونترجم المتنبي والسياب(تقبله عدة مرات) سبع سنوات من الزيجة اللذيذة... ترى هل قدرت مبلغ حبي مثلما قدرت انا؟ فوزي، كنت ارى الحب عميقاً في عينيك، وكنت ازداد قناعة من انني اذا ارتبطت بك سأعيش حياة امنة، هادئة، ومرحة، وحياة لا تخلوا ايضا من الم حقيقي بين الحين والاخر. اي الم لذيذ غير ذاك الذي ينفي الانسان من نفسه، وبيته ومجتمعه، لقد تعلمت الكثير وانا بعد شابة ...(تحتضنه بحرارة اكثر) وعدتني بحياة مليئة بنشوة متجددة.(صمت) وعدتني وعلمتني ان اعمل المستحيل من اجل ان انال حقي في الحياة، وتمردتُ على ابويّ... كنت الوحيدة لأروع و اودع ابوين في الدنيا .(صمت، بصوت جداً حزين) بابا الذي جعلني اعيش في اعطاف النعيم، والسعادة منذ صغري علمني حب الموسيقى... ودرب اذني على صوت ام كلثوم، وادوار سيد درويش ، وعبد الوهاب... تمردت على كل شيء من أجلك... تعال... تعال... لأحضنك بضراوة حنان امرأة مجنونه...(تبكي فوق كتفه) اي حب في الدنيا يا عزيزي يمكن ان يحل محل الحب؟ بل ماذا تساوي المراءة خاصةً اذا كانت مثلي لاهبة العواطف، بدون حب؟

(تترك فوزي وتتراجع بخطوات قصيرة، وبلهجة عتاب مر) انظر... ها انتذا مرة

اخرى تنتصر علي... إن قلوبنا نحن النساء مثل الطفل تهاب عند الحب الحقيقي من اتفه شيء(بصوت دافيء، حزين، وخفيض، وهي تمنح الكلمة جرساً مثيراً) اتعرف ماذا يفعل الارنب عندما تحاصره الافعى؟(تضحك) قل ماذا يفعل... حسنا... يلقي نفسه في حلقها... هاانذا اتنازل عن الم سبع سنوات والقي نفسي(تهرع وتحتضنه بقوة وحرارة) بين ذراعيك... فوزي، كنت بالنسبة لي اعجاباً، واملاً، وايماناً، وكبرياء، وذكاء وقدرة خارقة على تعلم الاشياء...(صمت، تتراجع، وتتأمله بحب، تعود وتتقدم) منه على رؤوس اصابعها كما لو تؤدي حركات باليه، وتقبله عدة مرات... يطفو نفس الشعاع الهانيء الحالم في عينيها السوداوين الهي، فوزي، حتى القانون الرباني بحق المرأة صارم... لانه يريد من المرأة ان تحب الرجل اكثر بكثير مما هو يحب... لماذا؟ حقاً لماذا؟ لماذا لا يكون بنفس القوة بين الطرفين؟ (تبكي) انظر كم بسهولة اغفر لك كل شيء... حسناً.(تمسح دموعها) انتصرت رغم كل عذابي... هكذا نحن النساء، علمتنا الطبيعة كيف نصالح بين آلامنا، واحزاننا، وكيفز نغفر... (صمت) لماذا تنظر إلي بلا مبالاة... لماذا تسخر ها ها ها ها... كنت تريدني ان ارتكب حماقة مثل إمرأة متهورة؟ لا... بقيت يقظة مع نفسي... فوزي، هناك لحظات يقتنع فيها الانسان ان ارتكاب الحماقة صواب... كنت اضحك من هاتيك النساء اللواتي كن يشجعنني على إرتكاب الحماقة الصواب...

آه... لماذا يجب ان يقبل الحب كل شيء... يقبل حتى الذل... اهنتني عندما طلبت الي ان اختار مصيري... (صمت... تذرع الغرفة... يسمع بين الحين والآخر لحن ناعم ينداح ثم برفق يتكامن يغمرها حبورٌ فياض) هل ترى فرحي الداخلي؟ انني أغفر لك كل شيء... كلمات قليلة منك أذابت كل اليأس... كل ليلة كنت أردد اغنيتك المفضلة مع نفسي، حتى ابنك سعيد الذي لم يرك يرددها الان معي(صمت) ترى هل ما زلت تحب صوتي... (تغني)

جنة نعيمي في هواك

ما احب في الدنيا سواك

جنه غرامنا جمالها كل الغصون فيها تتمايل

(تسمع عجلات سيارة تتوقف فجأةً، تهرع الى النافذة بلهفة... تلقي نظرة طويلة... تنظر الى ساعة يدها (الثانية عشر) هذه الشابة الجميلة لا تنسى مواعيدها ابداً...هو الاخر سيأتي عما قليل. الهي، كم رقيق هو، وكم حليم معها... وهي صبورة... كلهم بهذه الشاكلة في البداية)

(تترك النافذة... تسير بخطوات قصيرة... تردد بصوت خافت)

جنه غرامنا جمالها كل الغصون فيها تتمايل

(يرن جرس الهاتف، تفز ساهرة، وتطلق آهة حارة، وتتنهد بعمق عدة مرات... تلتقط السماعة) الو... من؟ آه... إنعام حبيبتي... روحي... طبعاً الخبر صحيح... صحيح جداً... البرقية هنا... هنا... طبعاً مضطربة... اوه... نعومة لا استطيع السيطرة على نفسي، وعلى قلقي وإنفعالي، ها ها ها، كل شيء يبدو لي مثل الحلم... ارجوكِ... لا... تسخري مني... اسمعي، نعومة... تصوري من شدة إضطرابي ، في غرفة النوم ابحث عن فستاني الأصفر... الذي لبسته يوم زفافك، فإذا بي امام المرآة ارتدي فستاني النبيذي ها ها لم اعد افرق بين الالوان، يالغبائي... لو تعرفين كم مرة سقطت علي الأرض... لم اعد اتمالك نفسي... لم اعد اميز حتى الألوان... ها ها ها نعومة عمى الألوان... عيناي الواسعتان لا تريان... وعمى القلب... ماذا؟ اوه... مرهقة المشاعر... وهل بوسعي ان اعمل الى سنين، اعاتب، احاسب، اهذي، احكم... ها ها ها ها... ومثل الفراشة ادور في الغرفة... طبعاً الغرف مهملة... لا لا لا... شكراً يا نعومة لا اريد اية مساعدة... أريد ان اكون وحدي... شكراً... وحدي... مع أفراحي، وتوتري، وإضطرابي، شكراً... (تعيد السماعة... تذهب الى النافذة) جاء الشاب... نفس البسمة الخجولة... ها هو يعتذر عن تأخره... نفس النظرات... ايه، سعيدان، مليئان بالحياة، والآمال... ها هما يتهامسان... ربما نفس الحديث...(ترجع... تأخذ صورة زوجها فوق المكتبة، تنظفها) تعال يا عزيزي... صدقني وحدي انا لدي السحر لاجعلك سعيداً (تعيد الصورة الى مكانها... تقف مثل الحائرة، مرة اخرى يغلبها نفس السكر العاطفي، تؤدي عدة حركات صامتة... تارةً تزيح الستارة، ثم تعيدها، وبصوت عذب) لقد ذهبا... سأراهما غداً... ها ها ها...

(تنفض الغبار عن الارائك بطريقة ميكانيكية، تلقي بين الحين والآخر نظرات سريعة الى قوامها في المرآة، وتمرر أصابعها خلال شعرها، وبغنج تضع باطن يدها فوق حقويها، تسير، تميس وتهز وركيها بحركة سريعة، ثم برفق تغني جنة نعيمي... يرن جرس الباب الخارجي، تجمد في مكانها، وتردد بصوت دافيء وخفيض، إنه هو... هو... يا رب... يا مؤنس من لا انيس له... واخيراً دفعت انيسي من بلاد الضباب... تعال... وداعاً ايتها الآهات... وداعاً ايها القلق النهاش... وداعاً ايتها الظنون السيئة... مرحباً ايتها الطمأنينة... مرحباً ايتها الهناءة...(تفتح الباب. يدخل ساعي البريد نفسه).

ساعي البريد: السيدة ساهرة... مرة اخرى صباح الخير. اسف جداً لأزعاجك.

ساهرة: (ترسل اليه نظرة زائغة... نظراتها تلتمسان العفو، والصفح من ساعي البريد الا يقول شيئاً) نعم... تفضل...

ساعي البريد: اكرر اسفي... في الحقيقة البرقية التي سلمتها لكِ سهواً لا تعود لكِ... إنها لسيدة اخرى تحمل نفس أسمكِ وأسم والدكِ، تسكن في الزقاق الذي يلي هذا الزقاق... (يصل الأضطراب الى حد مخيف مع ساهرة التي تتأمل ساعي البريد بنظرات غائمة)رقم دارك ١٠/٢٥٧ اليس كذلك؟

ساهرة: (وكأنها في غيبوبة) ماذا؟ رقم... ماذا رقم؟

ساعي البريد: هل بالإمكان إعادة البرقية رجاءاً...

ساهرة: (تتلفت حولها، وبخطوات مهزوزة تذهب وتلتقط البرقية من فوق المنضدة، وبيد مرتعشة تسلمها الى ساعي البريد)تفضل...

ساعي البريد: هذه البرقية لكِ.

ساهرة: (بذهول تتسلم البرقية) هذه لي...

ساعي البريد: هل فتحت المظروف؟ لا بأس... أسف جداً لهذا الألتباس...(يخرج... يبقى الباب مفتوحاً... تصاب ساهرة بحالة كمن يرى رغماً عنه رؤى هي مزيج من الهلوسة، والخيال، والحقيقة، واللاحقيقة... عيناها الان جامحتان، ويبدو عليها الذهول) يا رب... ماذا فعلت لأتعذب كل هذا العذاب القاتل؟ لقد كنت طوال حياتي نظيفة ، وطيبة... يا رب، قلت انتهى، لقد اندملت الجروح التي نكأتها

الحياة الصعبة التي عشتها... ياه، لشد ما عشت في العذاب، والأوهام، ودنيا الوهم المخيف... هل سأعود مرة أخرى الى نفس الدوامة؟ ما هذه البرقية!! ترى هل هي بنفس المضمون؟ ماذا لو كانت بصيغة أخرى؟ لم كل هذا الألتباس... (تطلق ضحكة متشنجة مثل صرير مدوٍ يتألم لسماعها الانسان... وتتحول الضحكة برفق الى بكاء، ثم انين هادىء ممدود) ماذا لو كانت فيها غير تلك الكلمات... لماذا لا امتلك الشجاعة لقرأتها! (بذهول شديد) هل سأرجع ثانية الى الآهات، وحبس العذاب، والوحدة، والشكوك. (يظهر ألم صامت ومخيف على وجهها وعينيها) اخاف ان أقراها... الهي اخاف ان افقد فرحي... (تبكي) اه من الفرح عندما يتمرد... يا رب... يا رب... اهمس في اذني ولو كلمة واحدة حلوة... قل فيها كلمات طيبة... شجعني على قرأتها...(تترنح في مشيتها وتسقط... تتلوى كمن يعاني من الصرع... صمت طويل... تجلس مثل المومياء والبرقية في يدها... تدخل صديقتها سعاد)

سعاد: ساهرة... ما هذا، ماذا حدث ما هذا الشحوب... (بفيض من الحنو تندفع وتحتضن صديقتها وهي تطلق الآهات. وتستمر ساهرة في اطلاق انين موجع ممدود) عجيب ما هذا البكاء... (تقبلها بحنان) ماذا بكِ يا عزيزتي... اعرف ان الفرح قاسٍ.(تمزح معها) هيا هيا هيا...(تردد البيت الأول من القصيدة التي رددتها ساهرة و هي تكلمها في التلفون)

استيقظت من أحلامي
في بدء غفوة الليل...(*)

(تمس وجه ويد ساهرة) يداكِ باردتان... لا يا حبيبتي... اهكذا حقاً تستقبلين زوجكِ بعد غياب طويل... انهضي ... انهضي... مجرد مجيئه دليل على ندمه... واسفهِ...(تأخذ ساهرة وتجلسها فوق احدى الأرائك، ثم تذهب وتغلق الباب) لا تبكي يا عزيزتي اوه لم تطلقين هذا الأنين الموجع تكلمي... ساهرة جئت اساعدكِ في تنظيف البيت... هل رتبتِ غرفة نومك؟ لا عليكِ سابدأ أنا بتنظيف كل شيء وابدأ من غرفة نومك...(ساهرة وهي في ذروة ذهولها، وخوفها، ودهشتها، تسلم البرقية الى صديقتها... تفتح سعاد البرقية وتقرأ بالقاء مسرحي:

(*) من قصيدة الشاعر الانكليزي تشوسر بعنوان القبر المضطرب.

السيدة ساهرة يعقوب

يؤسفنا جداً ان نعلمكِ بأن السيد فوزي عبد القادر قد مات في حادث دهس سيارة واضطررنا ان ندفنه في لندن.

اصدقاء المرحوم

ويغمى على ساهرة، تجلس سعاد بجانبها وقد ابكمتها الدهشة.

سعاد: هل عندما خابرتني كنتِ طبيعية؟ ام... ما هذه المأساة... صمت طويل... يأتي صوت ابن ساهرة... ماما... ماما... ماما...

(صمت طويل، واغنية خالد الذكر سيد درويش بصوت فيروز، زوروني كل سنة مرة...)

ستار

نشرت في مجلة الاقلام
سنة ١٩٨٥

إنه خادم مطيع

مسرحية من فصل واحد

شخصيات المسرحية:-

هوارد هيوز: مليونير امريكي صاحب شركات لأنتاج انواع الشوكلاته.

مارغريت هيوز: زوجته... شابة جميلة في الثلاثين مصابة بالفصام.

امرسن اوكنر: مدير أعمال في شركة هيوز في حوالي الخمسين.

دكتور: في حوالي الخمسين.

مهندس شاب

فان رولاند: شاعر، حزين، يائس، حاقد، ساخر، في الأربعين، صديق مارغريت.

روبت: إنسان آلي.

المنظر

غرفة جلوس في بيت هيوز، كل شيء في الغرفة يوحي بثراء وترف فاحشين... نوافذ واسعة، ستائر جميلة... أبواب على طرفي الغرفة تغلق وتفتح آلياً... ثريات جميلة، اصص فيها انواع الزهور، آرائك، كرسي هزّاز، ثلاث هواتف... تلفزيون، كرامافون كبير، مكتبة، صور كبيرة لمثلين وممثلات جيل السبعينيات... مارغريت ترفل في ثوب بلون الكرستال، وتبدو وهي تسير في الغرفة مثل الفراشة الكبيرة، تأخذ من فوق احدى المناضد إطاراً كبيراً خالياً من الصورة... تتأمل الإطار طويلاً كما لو ترنو الى صورة حقيقية داخل الإطار، ثم برفق وبعد عدة زفرات تعيد الإطار الى مكانه... يرن جرس الباب الخارجي. وبعد لحظات يفتح الباب آلياً، يدخل هوارد يلقي نظرة الى زوجته في محاولة سريعة ليتأكد من وضعها النفسي. ثم بفرح طفولي يصفق وهو ينط مثل الارنب متقدما بأتجاهها ... يحتظنها ويقبلها برفق.

هوارد: مارغريت... كم انت جميلة هذا اليوم... آه، مارغو العزيزة لدي خبر مفرح لك... مفرح جداً... يا دميتي الجميلة، كم يسعدني ان ازف لكِ كل يوم خبراً جديداً... لكن لم يعد اي شيء يثير إهتمامكِ هذه الايام... اعرف مرض الملل يا مارغو...

إبتسمي، هيا يا عزيزتي... إبتسمي... صدقيني لدي خبر مفرح لكِ... (يرن جرس الهاتف، يلتقط هوارد السماعة) الو... نعم... يتكلم... آه السيد امرسن... تفضل... ماذا... حقاً... شيء رائع... (ضاحكاً) هائل، تمت الصفقة إذا نهائياً! شيء مدهش... مدهش... كنت اعرف ان الحكومة الأندونيسية لا تمانع، (بفرح) إذاً نجحنا في صفقة كبيرة ولمدة سنتين، رائع... طبعا طبعا... حسنا... اشحن اذن الاف الاطنان من المنتوج القديم... لا بأس وعدة اطنان من المنتوج الجديد طالما ثمة إقبال عليه... ماذا؟ لا لا لا... حالياً اجل ذاك الموضوع... اجله... الموضوع يحتاج الى دراسة مسهبة يا امرسن... اعرف انت ذكي وتعرف ماذا تقول، لكنني افكر في الجانب الاخر من المشروع، حسناً مرَّ سريعاً الى البيت لنضع الخطوط العريضة... طبعاً أفريقيا دنيا اخرى ، وقارة اخرى، ولدينا فيها مواد ضرورية جدا لصناعتنا... انها قارة اخرى وتحتاج الى لغة أخرى. شكراً يا امرسن... انتظرك...(يعيد الساعة) آه صفقة كبيرة فعلا... مارغو مدير أعمالي هذا ابن ثعلب حقيقي... يصلح فعلا ان يكون دبلوماسيا ماكراً، خياله واسع، مكره متشعب، مراوغاته كثيرة ، إنه لبق وفنان في الإغراء، والدس، والرشوة... إنه كومة حيل... اتعرفين واخيراً سنفتح عدة فروع لشركتنا في جنوب شرق اسيا...

مارغريت: (ببرودة ولا مبالاة) الا تزف لي خبرك المفرح؟ (تسير بغنج إتجاه النافذة، وتزيح بحركة باردة وآلية ستارة كبيرة؛ تزفر) الثلوج... الثلوج... مدينة بأكملها بيضاء... تقبض القلب. (وقفة) ترى اي مكان الان جميل، ودافيء ليقضي الواحد شهر شباط وآذار، لقد مللت رؤية الثلوج، وهذا الصمت، وثرثرة مدير أعمالك، ومشاريعك الكثيرة... انا متعبة يا هوارد... متعبة...

هوارد: ما رأيك بمدينه كان الفرنسية؟... انها دافئة وناعسة في شباط.

مارغريت: مللتها، صحيح انها دافئة وناعسة... تذهب الى الشاطيء وتبقى ثمة ولا تسمع كلمة انكليزية واحدة، والفرنسيات المسنات يثرثرن طوال الوقت مثل بطلات موليير... ثرثارات وكأنهم ببغاوات.

هوارد: وماذا عن مدينة نيس؟

مارغريت: (بضجر) نفس الهذيان هناك...

هوارد: اذن اذهبي الى روما

مارغريت: روما جميلة، لكنها صاخبة، والثلج ايضاً ضيف ثقيل على روما... (اعتقد ان اجمل مكان الان هو هونولولو).

هوارد: هونولولو...؟ حسنا لتكن هونولولو... لا مانع لدي ان ارسلك الى كوكب الشمس... مارغو، عزيزتي، انتِ لم تسمعي خبري المفرح بعد.

مارغريت: خبر؟ اي خبر!

هوارد: لدي خبر هائل لكي... هائل...

مارغريت: (ببرود) ماذا؟ هائل! هوارد بصراحة لم اعد اهتز للمفاجآت التي تأتيني بها... مفاجآت باردة... (وقفة) ماذا لديك غير الهدايا الثمينة.(وقفة) الهدايا لم تعد تثيرني... (ببرود اكثر) حسنا، ماذا لديك هات.

هوارد: هذه، يستحيل ان تحزري هديتي الجديدة

مارغريت: (بفضول) حقاً؟ دعني افكر اذن... (بعد صمت قصير) هل جلبت فيما تشابه الهدايا... (وقفة) هل تركت تحفة ولم تجلبها لي؟

هوارد: هديتك هذه المره شيء جديد...آآآآآ... نعم جديد، فكري بعمق... بل لكي أوجج فضولك، اقول: إذا فكرتِ لأيام لن تتمكني من معرفة هديتك الجديدة.

مارغريت: (تفكر طيب سمعت ان الممثلة اليزابيث) تايلور باعت ماستها الشهيرة والثمينة جداً، هل اشتريتها لي؟

هوارد: لا لا... انت بعيدة جداً... ثم لديك ماسات اثمن من ماسات اليزابيث...

مارغريت: هل اشتريت الفيلا التي احببتها كثيراً في مدينة كابري الايطالية.

هوارد: لا لا لا... فيلتنا خارج مدينة ميلانو افخم بكثير من تلك التي في كاري...لا لا لا هديتك الجديدة شيء رائع.

مارغريت: هل دفعت ثمنه

هوارد: طبعاً... وعما قليل سيصل هذا الشيء النادر...

مارغريت: اهو كبير؟ صغير ؟ متوسط الحجم؟

هوارد: كبير... نعم، وبطول قامتي، ربما اقصر بقليل... اوه شيء نادر... جداً نادر في امريكا... عدة اشخاص فقط يملكون منه... تأملي كيف يفكر زوجك بسعادتك.

مارغريت: (ببرود) انت تضجرني... انا لا اتحمل كل هذه الاثارة للفضول... ضع اغنية تؤذيني لانگلبرت هامبوردنك.

هوارد: ألم تملي هذه الأغنية... تؤذيني تؤذيني... ماذا يثيرك في صوت هذا الهندي الأحمر.

مارغريت: صوته دافيء... دافيء... نظراته دافئة و حزينة... عينان زرقاوان في وجه أسمر وسيم، ان صوت هذا الخلاسي حار، حار جداً، ينساب الى الأذن مثل الهمس الجليل... (وقفة) لماذا لا تستطيع النقود ان تخلق للأنسان صوتاً جميلا .

هوارد: ما هذه الفكاهة الباردة يا مارغو

مارغريت: تحرك وضع الاسطوانة،

هوارد: حاضر... (ينهمك في تركيب الاسطوانة على جهاز حاكي... ينطلق صوت همبوردنك خافتاً دافئاً)

Hurt you how could
any one hurt you

مارغريت: تأمل رخامة الصوت يا هوارد. إستمع جيداً.

هوارد: وهل حقاً لهذا الهندي الاحمر رخامة في الصوت، ان امثاله خلقوا للزعيق ورمي السهام...

مارغريت: يا لك من عديم الذوق

leave you could any one
leave you

وهل لديك الوقت لسماع الموسيقى والاغاني... انت دائما مشغول مع مدير اعمالك في افريقيا، وجنوب شرقي اسيا...

If you give me all
of you just give me a
part of you

مارغريت: هل هديتك الجديدة جميلة كشكل؟

هوارد: (يخفف صوت الحاكي) تحفة، غريبة، فخر صناعتنا... قد لا يكون جميلاً كشكل... لكنه شيء فنطازي... تحفة فعلاً.

Just forget him
turn away from your
sorrow

مارغريت: (بلهجة امر) أغلق الحاكي، لا اتحمل هذا المقطع الحزين...

هوارد: (يغلق الحاكي) آه... هذا الهندي الاحمر... مضجر... مضجر.

مارغريت: انت المضجر الحقيقي.

هوارد: لماذا يا عزيزتي؟

مارغريت: لانك تثير اعصابي، انت تعرف انني لا اتحمل هذا القدر من الفضول... وهل انا قطة (وقفة... بضحكة حلوة)آه، اخشى انك اشتريت لي سيارة هتلر الشخصية التي كانت معروضة للبيع.

هوارد: يحاول ان يلاطف زوجته... يأخذ تحية نازية...مارغو وهل عشاق هتلر الجدد فسحوا المجال لاحد ان يشتري السيارة.

مارغريت:(بعد التفكير) لا أعرف. لا أستطيع ان أحزر هديتك الجديدة، (تفكر) عجيب، شيء بطول قامتك، او اقصر قليلاً... لا أعرف.(وقفة) المهم ان ذوقك احيانا مقرف... نعم مقرف.

هواري: هل حقاً ذوقي مقرف؟

مارغريت: ذوقك بدائي احياناً... بل مخيف... خاصة في شراء الفلات في المدن القديمة... تشتريها لمجرد ان الامير الفلاني نام فيها ليلة واحدة، او الدوقة الفلانية سهرت فيها ... (وقفة) وانت ايضا رديء الذوق في اختيار الملابس... انت منهمك حتى ارنبة انفك بالشوكلاته...(وقفة) الا قل لي يا هوارد هل هديتك بحجم الحصان مثلاً.

هوارد: لا لا... بحجمي...

مارغريت: حتماً شيء بشع.

هوارد: وهل انا بشع يا مارغو.

مارغريت: اقصد حجم الهدية.

(يرن جرس احد الهواتف... تلتقط مارغو السماعة) الو... الو... ايطاليا... تفضل... انا زوجته... شكراً... من؟... آه السيد فاكيتي اميليانو... كيف حالك... وزوجتك الجميلة ريتا. رائع... هل الجو بارد في ميلانو؟ اكيد ... نعم... حتماً سأزورك... هوارد واقف بجانبي... كلمه...

هوارد: الو، فاكيتي، انا دائما مشتاق لسماع صوتك يا اذكى مدير أعمال في روما، ان صوتك يذكرني بإيطاليا الجميلة، واكلة–الاسپاغيتي– السحرة، والليالي الجميلة. هيء هيء، يالك من بهلوان يا فاكيني، بهلوان حقيقي... انت ابن كلب حقيقي.

نعم... صار اقبال كبير على النوع الجديد... شيء مفرح... طلب شحن كمية كبيرة... رائع... فوراً... لا لا... حاليا اجل زيادة السعر... دع الشحنات الاخيرة كلها تمشي على السعر القديم... دعهم يتعلموا على مذاق انتاجنا جيداً ثم فجأةً ترفع السعر.أعرف السكر في غلاء... سندبر امورنا ريثما يخفف كاسترو من تهديده لنا ... طبعاً اذا استمر على عناده سوف يؤثر كثيراً علنا، وعلى الاخرين... اعرف انه راح يلوي عنق الكاكاو... لقد اصبحت الاسعار غالية... يا فاكيتي ان امريكا اللاتينية لم تعد ملكاً صرفاً لنا كما في السابق، الثورات هناك تسحب البساط من تحت ارجلنا... سنفكر في الزيادة في وقت اخر.(وقفة) مع الارسالية الجديدة، ستصلك شحنة كبيرة من انتاجنا الجديد– نستلة مع المواصفات والاسعار ... ابرق لي عن مبلغ رواجها فوراً... شكراً... چاو... چاو...چاو. (يعيد السماعة.)

مارغريت: فاكيتي مثل معظم الطليان يحب الثرثرة... لكنه خفيف الدم... وارتاح لنظراته... عيناه تشبهان فالنطينو... انه غوغوله حقيقي... يعرف كأي إيطالي كيف يعصر قلب المرأة... (وقفة) هؤلاء المدراء ما وراء البحار ماذا يريدون ان يثبتوا لك بتزلفهم، ونداءاتهم المتكررة... إنهم فعلاً امعات...

هوارد: اوروبا كلها امعة لنا... اوروبا كلها ملكنا... إنهم يعملون لنا... والمدراء يريدون مزيداً من الدولارات... وفاكيتي هذا، ذكي، ومدير أعمال كفء، وعاشق ابن كلب للدولار...

مارغريت: اشبهه احياناً بالممثل فيتوريوديسكا... وسيم جداً وهو في الخمسين... احب لكنته الإيطالية وهو يتكلم الانكليزية...(وقفة) ثمة سحر غامض وجذاب عند الإيطالين... (وقفة)

مارغريت: هوارد... ذات مرة غازلني فاكيتي بطريقة ساحرة، واستسلمت له برغبة...

هوارد: حسنا فعلتِ... ابن كلب يجيد كل شيء.

مارغريت: قبلاته ساحرة... لذيذة، مسكرة، عندما يمسد عنقي اشعر بارتخاء شديد في جسمي...

هوارد: اعرف... اعرف هؤلاء الطليان... فنانون في كل شيء... عشاق حقيقيون... عشاق حتى في الثمانين...

مارغريت: ما ان يعرف انني في روما، يظهر مثل الشبح، ويستقبلني بحفاوة كما لو انني دوقة حقيقية... (وقفة) ويتكلم عن تاريخ ايطاليا، وعن الفن،والتماثيل والمتاحف، وعن اللوحات، ثم يسخر من موسوليني، وبعد عدة كؤوس من الخمر يبدأ يغازلني بطريقته الساحرة...

هوارد: (ينظر الى ساعته) عجيب الهدية لم تصل لحد الان...

مارغريت: (بسخرية) لا تتكلم عنها... بدأت اقتنع انها سخيفة... انت... انت ترهقني فعلاً(تتجول في الغرفة بكسل) هدايا... سخافة... (يرن جرس احد الهواتف، تلتقط مارغريت السماعة) الو...من : نداء من الفلبين...اوه... الهي... كيف عرف هؤلاء الكلاب انك وصلت الى البيت؟ وهذه المرة فلبين...(الى هوارد) هوارد... هذه غرفة جلوس ام بدالة تلفون... غداً اقلع هذه الهواتف الثرثارة وانقلها الى غرفة اخرى... (بغضب) ما هذه النداءات الملحة والمنفرة...؟(تعطي السماعة الى هوارد)

هوارد: الو...(مارغريت تعيد اسطوانة همبوردنك، ويسمع الصوت الدافيء للمغني خافتا)

I will let you know
tomorrow that love you

(هوارد بصوت عالٍ) الو... الو... لا... لم اسمع اي شيء إطلاقاً... ماذا؟ وكالات الأنباء لم تنقل اخباراً من الفلبين... ماذا؟ متظاهرون هجموا على مؤسسات امريكية واحرقوها. وشركتنا احترقت، وبكم تقدر الخسائر مثلاً، بأكثر من نصف مليون... الا تعتقد يا سيد جو ان هذا إهمال ولا مبالاة منك بالذات... انت تعرف كل اليسار في الفلبين، بل في كل الدنيا يكرهنا كره الشيطان... طلبت منك ان تضاعف الحراسة على الشركة... اسكت... هذا عذر سخيف... ضاعفت... ضاعفت... مجرد كلام... لو فعلاً ضاعفت الحراسة لما وصلوا الى الشركة...(يختلط صراخ هوراد، وصوت مارغريت وهي تردد الاغنية)

I will let you know
tomorrow

(هوارد وهو يصرخ بقوة) الو... سيد جو هل تسمعني؟ (وقفة... يخاطب مارغريت برجاء حار) مارغو، مارغو، يا عزيزتي الشركة بأكملها احترقت في الفلبين... الاضرار نصف مليون دولار، ربما مليون دولار... ارجوكِ كفي عن الغناء مع هذا الهندي

الأحمر ...أرجوكِ (مارغريت توقف الحاكي، وتكف هي الأخرى عن الغناء) الو... سيد جو... لكنك أدرى مني بأوضاع بلدك... اليسار، والمسلمون، وحتى اصغر معارضة ضدنا... سيد جو، اسمع، هل، اوه، لا لا لا، لا تثرثر كثيراً، ارسل محامي الشركة الى واشنطن لاتفاهم معه... ارسله فوراً واذهب...(يعيد السماعة بغضب) ايها المسيح... اي سحر لدى هذا اليسار هناك، بوسعه ان يؤجج الجماهير في اي ساعةٍ يشاء... كل يوم، غضب، مظاهرات، هجوم على مؤسسات، شركات.

مارغريت: (تضع اسطوانة اخرى... تسمع موسيقى دافئة) لم لا تغلق فرع الشركة في الفلبين وتريح رأسك من ذاك الغضب، هذه هي المرة الرابعة يحرقون فيها الشركة... (وقفة) لديك البلايين، نحن اثنين فقط.

هوارد: اعرف.

مارغريت: وهذه النداءات، والاخبار المتضاربة التي تهيجك، وتقرفني... (وقفة) واثقة جداً بعد قليل سيأتي ذلك الثرثار، ويبدأ بحركاته النابليونية تارة، والتهريجية تارة أخرى، ويتكلم بحماس كما لو يخطط لغزو العالم...

هوارد: هل تتصورين اني اسف لضياع نصف مليون او مليون؟

مارغريت: منذ ان تزوجتك لم ارك يوماً هادىء البال، مطمئناً، بارد الأعصاب، انت دائماً مشغول...(وقفة) صراخك على ذاك المدعو السيد جو يثبت انك متأثر لضياع نصف مليون.

هوارد: أنا السيد هوارد هيوز البليونير حزين لضياع نصف مليون.(وقفة) لكنني لن أتنازل عن النصف مليون بسهولة.

مارغريت: هوارد، حقاً ما سر هذا الولع المجنون بالملايين، وانت لا تملك سواي في هذه الدنيا... عملت المستحيل لكي انجب لك طفلاً واحداً لم استطع... رجل بليونير، وامرأة عاقر... وبلايين الدولارات، حقاً وانت، تعمل مثل المجانين كل يوم وكأنك معدم... هوارد... حقاً ما هذا الولع بالمال، ولم، ولمن، والى متى، واين؟

هوارد: عشق... انه عشق يا مارغو لا اكثر.(وقفة) غداً سأتصل بمسؤول كبير في الخارجية ليتصل بدوره بالفلبين... وتسدد لي جميع الاضرار ومع الاعتذار لعبث الدهماء...

مـارغـريت: انت مـثـلي مـريض يا هوارد... اسـمـع، احـجـز فـوراً في احـد الفنـادق في هونولولو... فوراً.

هوارد: تسافرين قبل ان تلقي نظرة على هديتك الجديدة؟

مـارغـريت: لا تكن سـخـيفـاً يا هوارد... لم لا تجد فن التسلية، والحديث الهاديء الحلو، والكلمـات التي تربط القلب... لم لم تجلب هـديتك الجديدة مـعك... لإثارة فضـولي وانا مريضة.

هوارد: الهدية ثقيلة، ويحتاج رفعها لعدة رجال.إنها بطول قامتي

مارغريت: ما هذا الشيء الذي بطول قامتك؟

هوارد: انه شيء غريب... ثم انه يحتاج الى مهندس خبير؛ وشروحات

مارغريت: ها ها ها ها، خبير، وشروحات،

هوارد: هل بإمكانكِ ان تتصوريه الان.

مارغريت: طبعاً لا... انت تتكلم عن شيء يشبه الديناصور ... (بضجر) هوارد ارجوك لا اتحمل هذه السخافات.

هوارد: لقد اثار الديناصور فضـولي في حينه، ومـا زال ، لذا قررت ان اشـتـريه فوراً واهديه لكِ.

مارغريت: ما هو... ماهو... خلصني يا هوارد؟

هوارد:(مصرا على إثارة فضولها) مارغو عندما زارني مسؤول الشركة التي تصنع هذا الشيء الغـريب، الذي لن اذكـر اسـمـه الان، واطلعني على تفـاصـيله، لم استطع ان اكتم قهقهتي وفضولي.

مارغريت: ما هو هذا الشيء... ماهو؟

هوارد: اليس شيئاً رائعاً، وجديداً، ان هـذا النهار بالنسبة لكِ لن يشبه بقية النهارات... سأبقى اثير فضولك مع هديتك الجديدة.

مارغريت: (تضع اسطوانة هادئة. بعد قليل تفتح جهاز التلفاز)اوه، فيتنام مرة اخرى، كل يوم فيتنام (وقفة) هل سبق لك وزرت فيتنام يا هوارد.

هوارد... قبل احتراق شركتي هناك، نعم زرتها عدة مرات... (يدخل امرسن وعلى وجـهه إبتسامة عريضة... ابتسامة هي مزيج من المكر، والمراوغة، والاحترام ،والتزلف)

امـرسن: (يلقي نظرة الى التلفـاز) مـاذا؟ جـثـث جنودنا... اليس لدينا شيء اخـر سـوى

فيتنام... (وقفة) انظر الى هذه المستنقعات... ايها المسيح الطيب... هل تعتقد ايها السيد هوارد سنخرج منها بسلام؟

هوارد: بسلام؟ اعتقد نهزم ،

امرسن: كيف يا سيد هوارد.

هوارد: هذا مـا يقوله الجنرالات، واخرهم الجنرال ويستمور لاند قـائدنا الذي قال انـها ليست حرباً وانما نزهة، وجاء مهرولاً وخائباً مع بيريته الخضراء.

امرسن: (الى مارغريت) معذرة يا سيدتي مارغريتو فيتنام دائماً تنسينا مسائل كثيرة، تحـياتي لمارغـو السـاحـرة الجـمـيلة... وآمل انكِ في وضـع نفـسي رائع كعـادتكِ... (وقفة) كعادتك... (وقفة... وبطريقة ماكرة) إنكِ تشعين جمالاً، وفتنة هذا اليوم بل كل يوم، الجميلات... يا سيدتي مارغريت مثل الماسة الاصيلة يشعن بعشرات الالوان الجذابة (الى هوارد) انت اسعد مخلوق لان لك زوجة ساحرة... الجمال، هبة الله العظيمة، (وقفة ، بتملق لمارغريت) كثيرا مـا افكر مـع نفسي، ترى لو كانت السيدة هوارد ممثلة، لزلزلت الشاشة حتماً...

مارغريت:(ببرود) لا تتملقني يا سيد امرسن... انت تعرف إني اكره الملق... والتزلف.

امرسن: لكنك جميلة... بل جميلة جداً... وهذا الاعتراف لا يحتاج الى الملق.

مارغريت: قلت ازلزل الشاشة... وهذا ملق.

امرسن: بجمـالك... نعم بجمـالك... انك تمزجـين بين جمال تلك السـاحرة لاناترنر، ونمرة ايام زمانها ريتا هيوارث،

مارغريت: لكنني لست موهوبة.

امرسن: السينما في السبعينيات يا سيدتي اصبحت لعبة...(يطلق ضحكة ماكرة) صور شبـه عارية، دعاية، مدير اعمـال ذكي، صدر عامر، (يؤشر الى صدرها) وهذه القـامة، والنظرات السـاحـرة، قـبـلات حـارة، ايه، سـيـدتـي... انني ازيد مـبـيـعـات شركتنا بمجرد ان اضع على علبة النستلة صورة شبـه عارية لفتاة وهي تأكل بأغراء...(وقفة، وهو يطلق ضحكة ساخرة) دعاية تضرب مخ الامريكي الذي يقبل على البضاعة حتى لو كانت سماً.

مارغريت: كيف عثر عليك هوارد. لا اعرف.

هوارد: يا له من مدير اعمال بارع...

امرسن: صدقيني لقطة قريبة لكِ، وبطل فلم يصفعكِ، ودمعتان لؤلؤيتان فوق خديكِ، وانتِ ترددين بصوتٍ هامس حزين، لكنني احبك، احبك... اوه، منظر يجعل المتفرج في الدول المكبوتة جنسياً يزعق في القاعة، ويستمر عرض الفلم لأشهر...

مارغريت: (ببرود) ماذا تقول!

امرسن: هذا ما تفعله شركة وارنربراذرس، ميترو غولدين ماير... عرى، جنس، دعاية طنانه، كلمات نارية، رشوة لهذه الصحيفة، ولتلك المجلة، ثم هوب، فجأةً واذا مارغريت هوارد تصبح قنبلة العصر، غريتا غاربو ثانية... ها ها ها ها...(يلتقط انفاسه) لو سمح لي السيد هوارد ان التقط لكِ وبطريقتي الخاصة صورة لكِ بالبكيني وانتِ تقضمين قطعة من انتاجنا الجديد للنستلة، وتهمسين بحركة ناعسة– انها لذيذة... لذيذة... اقسم ان تنهال علينا الطلبات...

مارغريت: (بسخرية) الطلبات...

امرسن: والارقام تتكلم بهذيان.

مارغريت: كلام سخيف...

امرسن: ربما... (الى هوارد) سيد هوارد جئت اتكلم معك بعجالة حول الموضوع الذي أخبرتك عنه قبل قليل، مشروع فتح فرع جديد في البرازيل.

هوارد: (يؤشر الى امرسن ان اتبعني) اعتقد اننا سنؤجل موضوع البرازيل... الان تعال معي، لدي خبر صغير اريد اهمسه في اذنيك ومن ثم اتركني... (يخرجان).

مارغريت: لديه خبر صغير يريد ان يهمسه في اذنيه... يا له من ثرثار، ذرب اللسان هذا السيد امرسن... (يرن جرس احد الهواتف) نعم... إيطاليا... الو لا اسمع... اوه... نيويورك... من... يا عزيزي يا فان... يا لك من مهرج لطيف وابن كلب حقيقي يا فان، لقد اشتقت اليك كثيراً... بجنون يا فان... ماذا حدث لصوتك ايها الشاعر المتمرد، البائس، آه، يا شاعري العزيز، يا صديقي، يا متشردي، اين انت؟ لم ارك منذ اشهر؟ اشهر وكأنها سنين طويلة... الم تمل التسكع في شوارع نيويورك... انت في واشنطن... قلت انك في نيويورك... اتعرف كم مشتاقة لمسباتك... لكلماتك الحادة الجارحة... طبعاً يا فان استطيع ان اتصورك بوضوح وانت سكران، والسيجارة في زاوية فمك... وملابسك رثة... لحيتك طليقة...

وخصلات من شعرك فوق جبينك، وانت تترنح وتلعن الدنيا كلها وتسب كعادتك كل اثرياء العالم الاوباش وعلى رأسهم هوارد وزوجته مارغريت، ها ها ها ها... تعال يا عزيزي فان... بي رغبة شديدة جداً لرؤيتك... سأبقى انتظرك ايها الانسان الأبي... تعال حتى ولو بعد منتصف الليل... كل الاوقات مسموح لفان الحبيب... تعال...(ما ان تعيد السماعة حتى يرن جرس هاتف اخر...تأخذ السماعة) الو... من... لندن... هذه المرة لندن... موجود... ضروري جداً... انا السيدة هوارد... السيد هوارد مشغول مع مدير اعماله... مهمة جداً... حسن ...لحظة... (تنادي هوارد، يأتي هوارد مهرولاً)

هوارد: اشكرك... الو... روبرت... ماذا لديك هذه المرة؟ لوحة عظيمة؟ لمن؟ لبوتشلي؟(*) تقول انه فنان عظيم جداً... اهو من معاصري بيكاسو... ماذا إذن؟ من فناني النهضة...؟ تباع له لوحة بعنوان ولادة فينوس... بنصف مليون باوند... هذا جنون، ماذا يفيد طالما انه ليس مثل بيكاسو... ماذا؟اكثر... هل حقاً لو بعناها بعد اشهر تجلب مليون باون... مثل لوحة بيكاسو...متأكد... متأكد جداً... اشتريها اذن فوراً... (يعيد السماعة) فكرة عظيمة...

امرسن: اعتقد ان الموضوع واضح كما قلت... سنتكلم غداً بشكل مفصل عن بقية النقاط... طبعاً، وسأدرس هذه الليلة كل الاوليات .(وقفة) للمناسبة هل اخبرت السيدة مارغريت عن هديتها التحفة؟

مارغريت: ماذا؟ ارجوك... لقد اثار هوارد فضولي بما فيه الكفاية...

امرسن: اعتقد من الاحسن ان انسحب، واضح ان هوارد اثار فضولكِ كثيراً.

مارغريت: (ببرود) لو تنسحب احسن يا سيد امرسن.

امرسن: الانسحاب احيانا يعني النصر... واتركِ مع هديتك التحفة يا سيدتي الجميلة (يخرج)

مارغريت: هذا القصير، المهذار، الماكر يثير قرفي... (بتأفف) اسمع يا هوارد احجز لي غداً في احد فنادق في هونولولو... إنني مرهقة جداً...

هوارد: لكن الا تقضين ولو يوماً واحداً مع هديتك الجديدة؟

مارغريت: (تصرخ بقوة) انا مرهقة... مرهقة... لا اتحمل هذه السخافات. (وقفة)

(*) بوتشلي: فنان ايطالي ولد سنة ١٤٤٤–١٥١٠

انت تكلمني وكأنني مديرة شركة كبيرة تحاول اثارة فضولي لبضاعة...كفى ارجوك.

هوارد: لا تغضبي يا عزيزتي... إسمعي، قبل مدة إتصلت بي احدى الشركات الصناعية الكبرى في شيكاغو، واوضحت لي انها تنتج (روبت...)

مارغريت: (بمنتهى التعجب) روبت؟! روبت؟!

هوارد: نعم يا عزيزتي... روبت للخدمات البيتية...

مارغريت: (من خلال ضحكة باردة)... روبت... للخدمات... البيتية... حسناً... إستمر...

هوارد: هذا الروبت يا عزيزتي مارغريت يبلغ وزنه تسعين كيلو غراماً، وارتفاعه اكثر من متر ونصف...

مارغريت:(تتخيل شكل الروبت) طيب يا هوارد ، وماذا بعد؟

هوارد: يتغذى الروبت من بطارية قوة ٥٠ فولتاً... وو... حسنا، ويستطيع هذا الروبت ان يقوم بتنظيف الدار، واشياء اخرى.

مارغريت: اشياء أخرى؟

هوارد: اترك موضوع وظائف الروبت للمهندس الذي سيأتي بعد قليل ويشرح لكِ كل شيء بالتفصيل...

مارغريت: (بفضول شديد) وماذا بعد؟

هوارد: يجيب على النداءات التلفونية... ويتفاهم مع مدراء اعمالي في الفلبين، وايطاليا، ولندن... ويلبي جميع طلبات الضيوف... انه شيء عجيب...

مارغريت: (بتعجب شديد) وماذا بعد يا هوارد... الان بدأت تثير فضولي اكثر، (تصفق) هائل... هائل... ماذا بعد...

هوارد: يفتح الباب للضيوف... وان الابواب في البيت تعمل الياً.

مارغريت: (تنط من مكانها) عظيم يا هوارد.

هوارد: يطلب من الضيوف بأدب جم ان يتفضلوا الى المائدة، او الى غرفة النوم...

مارغريت: شيء لا معقول... ابداً... آه... ماذا تقول يا هوارد.

هوارد: كل هذا الروبت من اجلكِ يا عزيزتي، سيكون صديقكِ في وحدتكِ يا

عزيزتي... اعرف انكِ مرهقة، ومتوترة... ووو... اريد ان اعمل كل شيء من اجل سعادتكِ... (وقفة) والروبت يقدم الطعام للضيوف ايضاً.

مارغريت: مستحيل... انه إنسان حقيقي.

هوارد: ويتابع الاطفال في غياب ذويهم.

مارغريت: يا الهي... يا مسيح الحبيب... ليتني كنت املك طفلاً... ولو طفلاً واحداً.

هوارد: الشركة في شيكاغو انتجت لحد الآن اربعة من هذا الروبت، انا اول من اشترى ... ودفعت ثمنه...

مارغريت: (بأندهاش) إلا قل لي يا هوارد، هل فعلاً رأيت الروبت وهو يقوم بكل هذه الاعمال التي شرحتها لي.

هوارد: وهل اشتري السمك وهو في الماء... طبعاً يا عزيزتي، (بفرح) بعد قليل يأتي صديقك الجديد، ومعه مهندس خبير يشرح لك كل شيء... طبعاً هناك اعمال مثيرة جداً... التفاصيل مع المهندس الشاب...

مارغريت: ها انت ذا تثير فضولي من جديد...

هوارد: قليلاً من الصبر... الصبر...

مارغريت: (بدلع) الخبر مثير فعلاً... آه، تصورني لوحدي ومعي الروبت مثل كلبنا يطيعني بمجرد ان اهمس له بكلمة، وينفذ طلباتي بصمت، ويجيب على النداءات (وقفة) وهل يجلب لي الطعام الى الفراش مثل خادمتي جانيت؟

هوارد: طبعاً... طبعاً... وبوسعه ان يغازلكِ...

مارغريت: (تطير فرحاً) عظيم... هائل... يغازلني... (بفرح) تصوره يعانقني، ويقبلني، لكن هل حقاً لديه مشاعر وعواطف، واحاسيس إنسان؟

هوارد: لم العجلة لمعرفة هذه التفاصيل مني انا يا ماغو... تريثي قليلاً... (ترن الهواتف الثلاثة دفعةً واحدة)ما هذه الهجمة... (يحدقان في بعض يتنهدان)انظري... ليس سهلا ان يصبح الانسان مليونيراً.

مارغريت: هؤلاء الكلاب سيبدأون من جديد ثرثرة طويلة... فاكيتي، جو، امرسن، روبرت، وقريباً سيأتي برازيلي ... غداً لا أريد ان ارى هذه الهواتف هنا...(يلتقط كل واحد منهم سماعة، ويبقى الاخر يرن...)

مارغريت: (بغضب) يا سيد امرسن لم هذه المكالمة وقد تركتنا لتوك... اما كان بالامكان

ان تقول كل ما لديك لهوارد عندما كنت عندنا... ماذا؟ وزارة الخارجية تريده...

هوارد: (يتكلم بأندماج) شيء رائع انجاز كبير... اقدر عالياً جهودك، لقد قررنا ان نهيمن على اوروبا حتى في إنتاج اصغر شيء...

مارغريت: لا وقت لدي ان استمع اليك... وزارة... وزارة... (تسلم السماعة الى هوارد)نعم، ماذا يا امرسن... الوزير... يطلبني... اعتقد بخصوص احداث الفلبين... سأذهب فوراً(يعيد السماعة) الو... نعم... اعتقد يجب ان اتركك

مارغريت: (تلتقط سماعة التلفون الثالث) الو... من السيد فاكيتي... تفضل، اسمع، انا مرهقة جداً وارجوك لا تغازلني... لست في مزاج جيد... قل ما عندك بسرعة، طبعاً ازورك اذا جئت الى روما... اما اذا كان بامكانك ان تقول كل ما لديك عندما اتصلت بهوارد قبل قليل؟ اوه...(تسلم السماعة الى هوارد، بيد هوارد سماعتين) اسمع يا سيد جو اعتذار حكومتكم مقبول وقد طلبني وزير الخارجية الان... اعد السماعة، وشكراً... (يعيد السماعة)الو... فاكستس... انني مشغول جداً اتصل بي غداً... چاو... چاو... (الى مارغريت) اعتذرت الحكومة الفلبينية لاحتراق شركتي، وستدفع التعويضات كلها...

مارغريت: هذه التلفونات تنقل من هنا غداً.

هوارد: لكن هذه التلفونات ضرورية، وهناك تلفونات في كل الغرف... مارغو انني احياناً بنداء واحد احصل على مليونين... (يرن جرس الباب... يدخل مهندس شاب وسيم جداً رقيق)

هوارد: (بعجالة) انا ذاهب لمقابلة الوزير... (للمهندس) اشرح كل شيء بمنتهى الهدوء لعزيزتي مارغريت(الى مارغريت)استمعي اليه جيداً... انا ذاهب الى الوزير... استمعي الى شروحات المهندس بدقة... باي... (يخرج)

المهندس: اسف جداً لتأخري يا سيدتي... تعرفين الزحام شديد جداً... وشيء لا يطاق... والروبت الكبير... (وقفة) هل انت وحيدة في البيت.

مارغريت: (تُسحر بوسامة المهندس، وتتأمله باستغراق) اعيش مع عدة خادمات محروم عليهن الدخول الى هنا... ثم ان هذا اليوم بالذات عطلتهن... حتى كلبي خرج للنزهة... انني على موعد مع الروبت اليس كذلك؟

المهندس: نعم انه صديقك الجديد... الروبت... سيخفف عليكِ الكثير.

مارغريت: آمل... (تسمع اصوات خارج الغرفة).

المهندس: (بصوت عال) تحركوا بسرعة يا رجال... هيا ... هيا... (اصوات خارج المسرح)لا تدفع، بحذر، لاتسرع، ارفع من هنا اكثر... لا تضغط على هذه الازرار... (يدخل عدد من العمال وهم يرفعون الروبت، وبرفق يوقفونه وسط الغرفة).

العامل١: (لزميله) انه ثقيل وزلق مثل السمكة.

المهندس: لحظات رجاءاً اكلم سائق الشركة (يخرج)

العمل٢: اعتقد ان السائق ذهب الى الشركة.

العامل٣: وجه الروبت مقطب وحزين.

العامل٢: يشبه وجه رجل اهين... اليس كذلك؟

العامل١: صحيح انه خادم مطيع، غير ان شكله يوحي بالنفور.

العامل٤: ترى اذا سقط على وجهه هل يستطيع النهوض.

العامل٥: مستحيل... هل يستطيع هذا الديناصور إذا سقط ان ينهض.

العامل١: انه يعمل الياً... يمكن ان ينهض.

العامل٣: مستحيل... حتى لو ارسلت اليه عشرات الايعازات... يبقى مثل جثة.

العامل: ماذا لو سقط اليوم.

العامل٥: نأتي نحن وننهضهُ... سمعت الشركة ستعمل نوعا يقوم بأعمال عشرات العمال

العامل٢: بعد سنوات سنكون كلنا في الشوارع بفضل هذا الروبت

العامل١: ونضطر ان نقبل بأجور حقيرة.

العامل٤: مستحيل ان يؤدي عمل الانسان.

العامل٣: ماذا؟ الم تر الاعمال التي كان يؤديها قبل المجيء به الى هنا.

العامل٢: لن يحل محلنا ابداً... ابداً... (يدخل المهندس)

المهندس: السيارة في انتظاركم... اذهبو الى الشركة.

العامل٢: السيد المهندس هل بالامكان ان اسال سؤالاً...

المهندس: تفضل.

العامل٢: لو سقط الروبت على ظهره هل سيقوم تلقائياً، اقصد بلا إيعاز، ام يبقى

مثلما تبقى السلحفاة الملقاة على ظهرها.

المهندس: لماذا تسأل مثل هذا السؤال، هل تريد ان تشتري واحداً؟

العامل٢: انا نفسي روبت في الشركة. السيد المهندس. مجرد سوأل.

المهندس: (اين ذهبت السيدة هوارد؟)

العامل ١: عندما دخلت ذهبت الى الغرفة المجاورة... ها هي جاءت.

مارغريت: (تدفع عشرات الدولارات للعمال) وزعوها فيما بينكم...

المهندس: (الى العمال)اذهبوا (يخرج العمال).

مارغريت: (تتأمل الروبت طويلاً) اما كان في وسعكم ان تجعلوا تقاطيع وجهه جميلة مثل الممثل وارن بيتي، روك هادسون، الفس برسلي، او بوسامة شكلك مثلاً...(وقفة) انه مقطب، كما لو انه غاضب، اشك ان استطيع رؤيته كل يوم وهو مقطب، اهو غاضب ام ماذا؟

المهندس: لا يا سيدتي ... انه مرتاج جدا.

مارغريت:(بتعجب) مرتاح!؟ جداً... لكنه مقطب... هل اهانه احد ما؟

المهندس: ابداً ابداً...

مارغريت: هل اذا غازلني يبقى وجهه مقطبا هكذا؟

المهندس: انه مجرد خادم يا سيدتي... وخادم مطيع جداً... جداً.(يدخل هوارد لاهثاً مضطرباً)

هوارد: (الى المهندس)هل بدأت بالشرح... رائع.

مارغريت: انت دائما مستعجل

هوارد: (لاهثاً) نسيت ان اخذ معي اوراق مهمة...

مارغريت: الى متى تبقى تلهث... هذا الروبت مقطب، هل تريد من هذا العبوس ان يغازلني...

هوارد: انني مستعجل جداً... مقطب... ثم ماذا... المهم هو ما يقوم به من خدمات يا عزيزتي.

المهندس: تصوري يا سيدتي بمجرد نداء هامس يتقدم اليكِ وينفذ جميع طلباتك.

هوارد: (يركض الى احدى الغرف، ويأتي راكضاً بعد قليل وهو يلهث)اسف... يجب ان اترككما...(يركض خارجاً).

مارغريت: (تدور حول الروبت)شيء غريب ومضحك ايضاً...

المهندس: السيدة هوارد، ما ان تجدي الرغبة بالاستماع الى شروحي عن كيفية استعمال الروبت اخبريني رجاءاً.

مارغريت: هل الروبت من تصميمك؟

المهندس: لا لا... انه انتاج عشرات العقول... انا شاركت في جزء صغير فقط.

مارغريت: (تستهوي المهندس كثيراً، وتنسى الروبت) تعال بجانبي.

المهندس: (يقترب منها) نعم.

مارغريت: لا لا ... قف... هنا... بجانبي لا أمامي... ارفع رأسك قليلاً... هكذا رائع... اما كان بوسع الشركة ان تصنع وجه الروبت مثل وجهك...

المهندس: لم ننتج من هذا الروبوت سوى اربعة... اقتراحك مقبول... وسوف انقله الى الشركة.

مارغريت: (تنظر اليه باعجاب) وجهك وسيم جدا جدا.

المهندس: شكراً

مارغريت: هل انت متزوج.؟

المهندس:لا.

مارغريت: حتماً لديك صديقة جميلة.

المهندس: ربما.

مارغريت: يقول زوجي ان الروبت يغازلني ايضا... هل هذا صحيح؟

المهندس: (ضاحكاً) نعم... انه بأختصار خادم مطيع، ويعمل كل ما تأمرينه.

مارغريت: يعقل ان يعانق ويغازل ويقبل؟

المهندس: يعانق يغازل يقبل...

مارغريت: اشرح لي كيف...

المهندس: هناك يا سيدتي عدة ازرار في جسد الروبت... وكل زر مسؤول عن اداء واجب معين.

مارغريت: وهل اسم الفعل الذي يؤديه مكتوب على الزر...

المهندس: طبعاً... ثم انكِ بمرور الوقت تحفظين عن ظهر قلب اماكن الازرار، وافعالها، وتملأين الروبت بالمعلومة المطلوبة وتوعزين اليه لتنفيذه...

مارغريت: (تمرر يدها خلال شعر المهندس) وتصبح المسألة من كثرة الاستعمال مجرد شي آلي...

المهندس: فعلاً.

مارغريت: اذا قلت له عانقني مثلاً، على اي زر اضغط.

المهندس: تضغطين على زر العلاقات الشخصية الصميمية، وهو يعانقك فوراً.

مارغريت: (تعانق المهندس) كيف يعانقني...

المهندس: (يقلد الروبت) هكذا... (يعانقها) ثم برفق يطوقكِ بذراعيه.

مارغريت: كيف؟

المهندس: بناءاً على طلبكِ يا سيدتي... الروبت لا يعمل اي شيء من تلقاء نفسه... يعمل بأمر...

مارغريت: هل يجب ان اقول له قبلني؟

المهندس: طبعاً... من غير امر لا يعمل.

مارغريت... عندئذ يقبل...

المهندس: فوراً... فوراً

مارغريت: كيف.

المهندس: بهدوء يقدم فمهُ ويقبلك (ويقدم فمه من فم مارغريت... قبلة)

مارغريت: وهل لا يزيح فمه إلا بأمر...

المهندس: نعم.

مارغريت: شي رائع...

المهندس: الآن هيا معي الى الشرح...

مارغريت: لحظة... لم انت مستعجل... اترك الروبت البارد... كلمني... انت شاب رقيق جداً.

المهندس: شكراً... سيكون الروبت ايضاً رقيقاً معك.

مارغريت: لا تمزح...

المهندس: هل نبدأ بالشرح؟

مارغريت: لم العجلة!

المهندس: انا الان في ساعات العمل... انا هنا لأعمل.

مارغريت: ارجوك، لا تتحول الى روبت... انت شيء رقيق، وسيم، لا تكن جاداً اكثر مما يجب...

المهندس: قبل كل شيء يجب ان نختار له اسماً ثابتاً

مارغريت: آه... حسناً... اسميه بأسم ابني... ريتشارد... ريتشارد.(تشير الى الاطار الكبير الخالي من الصورة) أنظر... الي ذلك الإطار... هناك صورة ابني...

المهندس: ابنك؟ (يؤشر الى الإطار) لكن الاطار خالٍ من الصورة، ثم ان المعروف ان البليونير المعروف السيد هوارد هيوز لا ابن له ولا بنت، (ينظر الى الاطار الخالي من الصورة) ثم لا صورة هناك.

مارغريت: انت لا تراه...كثيرون لا يرون الصورة... الصورة هناك...(يتقدم المهندس من الاطار، ويدخل يده ويحركها في المربع الفارغ) اين الصورة؟

مارغريت: إنها هناك.

المهندس: مستحيل.

مارغريت: الا تستطيع ان تكون ثلاثة اشخاص في ان واحد؟

المهندس: مستحيل.

مارغريت: بل اربعة عند الضرورة.

المهندس: انا لا افهمك يا سيدتي، الان تعالي لأشرح لكِ عمل الروبت (يتقدمان من الروبت) انظري الى هذه اللوحة التي فيها الازرار... المعلومات تبدأ من هنا... هذا الزر خاص بالمطبخ... هذه بغرفة النوم... هذا بالتنظيف... وهذا للحراسة، وهذا لرعاية الاطفال، وهذا للمغازلة... تضغطين على الزر، وتكلمين الروبت، ويبدأ العمل، وهنا زر لأستعمال العنف، ان الروبت بوسعه ان يقاتل عدة اشخاص ويقتلهم، وهذا زر للغناء...

مارغريت: ماذا؟ هل تمزح... ويغني ايضاً؟

المهندس: طبعاً في داخله جهاز تسجيل... ان الروبت محشو من الداخل بمجموعة معقدة من اجهزة الكمبيوتر... اما هذا الزر فهو يؤدي جميع الطلبات...

مارغريت: ماذا تقصد جميع الطلبات؟

المهندس: بمجرد الضغط عليه يعمل الروبت... اقصد ريتشارد، ويؤدي كل ما تريدين من خدمات...

مارغريت: رائع.

المهندس: الان نضع –البلاك– انظري... مر التيار في جسد ريتشارد. انه جاهز للعمل... لحظة... نكتب هنا انظري، بهذه الحروف اسم ريتشارد (يكتب) آه... الان هو ريتشارد(*)

الآن نضغط على الزر الخاص بجميع الطلبات... والروبت ينفذ كل شيء... اطلبي اليه الان ان يذهب الى المطبخ ويجلب لنا فواكه مثلاً.

مارغريت: حسنا.

المهندس: لنجرب... إنه الآن جاهز للعمل... كلميه... هيا... هيا.

مارغريت: (بإلقاء مسرحي) يا ريتشارد...

الروبت: نعم يا سيدتي... تفضلي.

مارغريت: (بتعجب) إذهب الى المطبخ واجلب ماعون فيه فواكه.

الروبت: امرك يا سيدتي... (يذهب الروبت الى المطبخ، ويأتي بعد قليل حاملاً ماعون فيه فواكه ويضعه فوق المنضدة) تفضلي يا سيدتي

مارغريت: شكراً يا ريتشارد.

الروبت: عفواً سيدتي.

مارغريت: انه يشبه عفريت علاء الدين الذي يخرج من مصباحه...

المهندس: الاحلام القديمة تتحقق. ... (يتراجع الروبت ويقف بعيداً)

مارغريت: (بعد قليل تنهض، وتتقدم من الروبت) ريتشارد.

الروبت: سيدتي...

مارغريت: قبلني...

الروبت: امرك سيدتي (يتقدم الروبت منها، ويحتضنها، ثم برفق يقبلها)

مارغريت: شكراً ريتشارد... شكراً.

الروبت: عفواً سيدتي...

مارغريت: قبلته باردة... ماذا فمه مثل مذاق الأسفنج...

المهندس: انه مجرد روبت يا سيدتي...

(*) ملاحظة: للمخرج حق التصرف في كيفية تحريك الروبت كما يفهمه.

مارغريت: عناقه بارد.

المهندس: كان بامكانك ان تطلبي اليه ان يضغط عليكِ اقوى...

مارغريت: ممكن ذلك؟

المهندس: طبعاً... لو طلبتِ ان يعصركِ بقوة، يفعل ربما يقتلك ايضاً،

مارغريت: حقاً؟

المهندس: طبعاً... حذار أن تطلبي فعل ذلك... وبوسعه طبعاً اي يقتل اي انسان... انه خادم مطيع جداً... (يرن جرس الهاتف).

مارغريت: (الروبت) أجب على الهاتف يا ريتشارد..

الروبت: حالاً سيدتي.

مارغريت: قل لا أحد في البيت.

الروبت: أمرك يا سيدتي (يلتقط الروبت السماعة) تفضل... من ! السيد امرسن... تفضل... انا ريتشارد الخادم الجديد... اشكرك لا احد في البيت... ليس من حقك أن تعرف من انا ايها السيد المحترم اقول لا احد يوجد في البيت...(يعيد السماعة)

مارغريت: يتكلم بطريقة جميلة.

المهندس: جداً... وهو ايضا خادم قوي جداً... مثلاً... اذا طلبت منه ان يؤدي عملاً عدوانياً، فيؤديه بسهولة... (وقفة) ثمة نية في صنع أنواع اكثر تطوراً، تعبأ بقنابل النيترون، وهذا النوع يستعمل من قبل جنود المشاة في المقدمة لتدمير المدن...

مارغريت: لتدمير المدن... شيء رائع.

المهندس: بل مخيف يا سيدتي... سوف يطلب الينا البنتاغون صنع أعداد كبيرة منه... لتدمير كل شيء في الحرب.

مارغريت: تدمير كل شيء!

المهندس: أطلبي اليه ان يؤدي عملاً عنيفاً.

مارغريت: عملا عنيفاً.

المهندس: حسناً هذه قطعة حديد، هذا حديد صلب، انظري جلبته خصيصاً لاشرح لكِ مبلغ قوة الروبت، يطلب اليه ان يلويه... سأطلب ان يلويه... (الى الروبت) ريتشارد... تعال الى هنا .

الروبت: حاضر يا سيدي.

المهندس: خذ (يعطيه قطعة حديد) الويه يا ريتشارد.

الروبت: حاضر سيدي.(يلوي قطعة الحديد) تفضل.

مارغريت: انه قوي جداً... فعلاً يجب ان يكون الانسان حذراً معه.

المهندس: جداً جداً.

مارغريت: (بعد صمت طويل، تظل خلاله ترنو باعجاب، ورغبة شديدين الى المهندس) هل ستقضي حياتك كلها في المعامل؟

المهندس: المهندس مكانه المعامل.

مارغريت: لم لا تصبح مليونيراً؟

المهندس: (يطلق ضحكة ساخرة) مليونيراً... وهل انا هوارد هيوز...

مارغريت: هوارد يحصل على الملايين احيانا بالتلفون.

المهندس: لانه هوارد هيوز... ايه، صحيح ان امريكا بلد الفرص الغريبة والعجيبة، لكن أين هي الفرص... الفرص تأتي فجأةً للبعض... ومثل علاء الدين يهتفون افتح يا سمسم، فإذا بهم يملكون الملايين... وهناك طرق غامضة، سرية. ملغزة...

مارغريت: وهل تذبل شبابك في المعامل؟

المهندس: ربما نعم... انا مهندس... ومرتبي جيد... ولست افضل من بقية المهندسين.

مارغريت: (بعد صمت طويل) تذهب وتلتقط الإطار الفارغ من الصورة وتنظر اليه بحنان) كن مثل ابني ريتشارد مغامراً...

الروبت: (ما ان يسمع كلمة ريتشارد يجيب بالية) نعم سيدتي.

مارغريت: آه، انت هناك يا ريتشارد... هذه المرة لا اعنيك انت، كنت اقصد ابني ريتشارد.

الروبت: عفواً سيدتي...

مارغريت: يا له من حديد مؤدب.

المهندس: هل حقا عندك ابن؟

مارغريت: طبعاً وشاب...

المهندس: لكن الجميع يعرف ان السيد هوارد هيوز لم يخلف، لانه رجل عقيم ،كذلك المعروف عنكِ...

مارغريت: ماذا؟

المهندس: القصة معروفة...

مارغريت: (تنتابها حالة من حالاتها الفصامية، وترسل نظرة طويلة الى الاطار الفارغ) كلام سخيف هذا الذي يروج عنا... طبعاً انا عندي ابن... نعم... ابن مغامر، شجاع.

المهندس: مغامر ...

مارغريت: في العشرين من عمره قفز من فوق شلالات نياغارا... مغامر حقيقي... مات في ادغال افريقيا... كان يعشق الصيد، ويقلد الروائي المعروف همنغواي...

المهندس: في العشرين! مات... في... ادغال... افريقيا... كيف يا سيدتي؟ وانت لم تبلغي الثلاثين بعد...

مارغريت: انت امرك عجيب ايها الرقيق... لم لا... (بحيرة) الا نستطيع ان نكون ثلاثة اشخاص مختلفين مرة واحدة...

المهندس: لا افهمكِ؟

مارغريت: الا تستطيع ان تتخيل انك الان اب حقيقي وابنك في البيت...

المهندس: ،انا لست ابا...

مارغريت: بالضبط... ريتشارد ابني كان مغامراً... تعجبني المغامرة،

الروبت: (ما ان يسمع اسمه) نعم يا سيدتي، نعم يا سيدتي...

مارغريت: اسكت يا ريتشارد.

الروبت: حاضر يا سيدتي

مارغريت:كان مغامراً، يعشق صيد الوحوش... افترسه اخيراً اسد جائع... انا التي زرعت فيه حب المغامرة... كان مثلك وسيماً لكن عنيفاً... كان تارة يقلد الممثل مارلون براندو، وتارة الروائي همنغواي... صدقني كان مثلك تماماً في الرشاقة ، والطول، والوسامة... (بحزن) وحدي فقط استطيع ان اتخيله كيف كان يتجول في ادغال افريقيا.

المهندس: (وهو غير مصدق إدعاءات مارغريت) هل انتِ متاكدة انه مات في افريقيا...

مارغريت: لماذا؟ هل لديك معلومات اخرى عن مكان اخر مات فيه؟

المهندس: لا لا،،، مجرد سؤال.

مارغريت: سؤالك وجيه... وهل حقاً للمغامرين مكان معين للموت... المغامرون لهم اماكنهم المشغولة... (وقفة) اتصوره احياناً تجمد فوق جبال همالايا.... واحيانا ضاع في صحاري بلاد العرب اللامتناهية، او ابتلعته مياه المحيط...

المهندس: (بذهول وهو يرنو لها) سيدتي هل تتلذذين في تلاوة قصص المغامرة؟

مارغريت: قصص المغامرة؟ انا اتكلم عن مغامرات ابني ريتشارد.

الروبت: نعم يا سيدتي...

مارغريت: اخرس انت.

الروبت: نعم سيدتي ...

مارغريت: وهل يثرثر هذا الروبت كلما ذكرت اسم ابني ؟

المهندس: ان كلمة ريتشارد صارت تعنيه هو بالذات.

الروبت: نعم يا سيدي.

المهندس: لا شيء.

مارغريت: مغامرات ابني حقيقية... حقيقية

المهندس: سيدتي للمناسبة، انني احذركِ ان توجهي اية معلومات للروبت وانتِ لست في وعيك، او مثلاً في مزاج سيء... وهذا شيء مهم.

مارغريت: لا تكن مضجراً ايها الشاب الرقيق، واتركني اتكلم في مغامرات ابني الرائعة، وهل تعتقد بانني اهتم بهذا الحديد البارد.ان حياتي المادية الباذخة جعلتني انفر من اعظم شي بعد دقائق فقط... ما يهمني الان هو حديثي معك، وانتباهك واستماعك المتواضع لي...

المهندس: شكراً... لكن التحذير ضروري... الروبت آلة...

مارغريت: اعرف اعرف... وهل انا سخيفة لدرجة لا اعرف ان هذا الروبت حديد احمق... انا اتكلم عن ابني، وكيف ضاع في ادغال افريقيا... ترك هذه الاموال الخرافية وعشق المغامرة... وتركني لاحزاني...

المهندس: شيء مؤسف جداً.

مارغريت: رائع... ها انتذا تؤيدني (بإغراء) كم تبدو اوسم عندما تشفق علي، انني ارتاح للشفقة. واحياناً ارتاح ان اسب والعن، واحقر.

المهندس:لماذا؟

مارغريت: لا اعرف... هل بعد اليوم تفكر ان تكون مغامراً؟

المهندس: لا لا لا... انا لا امتلك لا الشجاعة، ولا قوة قلب ابنك لأواجه الاسود، والشلالات، او اتجمد في ثنايا همالايا، او اضيع في صحاري بلاد العرب اللامتناهية.

مارغريت: انت إذن روبت بشري...

المهندس: فعلاً روبت بشري...

مارغريت: روبت بشري مدفون في احدى شركات شيكاغو...

المهندس: بالضبط... بالضبط...

مارغريت: يخاف من المغامرة...

المهندس: جداً... المغامرة لا تستهويني ابداً.

مارغريت: وانا... هل ترتاح لي،

المهندس: لم لا... انتِ فعلا إمرأة جميلة، بل ساحرة الجمال.

مارغريت: حقاً... ومجنونة ايضاً... اتعرف يعجبني صوتك كثيراً... يشبه صوت الممثل غريغوري بك...

المهندس: اوه... شكراً... شكراً...

مارغريت: رقتك... نعومتك... وقبلتك كانت حارة. (وقفة) هوارد عندما يغازلني يتكلم كما لو يخاطب مدير احد فروع شركته... انه لا يتواضع...لا... انه يفعل ذلك الياً، لانه الى منتصف الليل يثرثر معهم، انه ببغاء... ويغازل مثل الببغاء... هل تفهمني...

المهندس: نعن... نعم... يا سيدتي.

مارغريت: اشك... لا احد يفهمني... لا احد... لا يفهمني سوى صديقي الشاعر الفاشل فان رولاند.

المهندس: صديقك الشاعر.

مارغريت: يقولون انه شاعر فاشل... لكنني ارتاح لقصائده، ولمساته، وسخرياته ، وكلماته القذرة... انه سكير حقيقي، وقاسي معي حد اللعنة، اشعر بفرح حقيقي، بل بسعادة حقيقية عندما يحتقرني... احبه...

المهندس: شيء غريب...

مارغريت: ما هو الغريب... بل قل رائع... فان رولاند رجل حكيم في نظري، وصريح

جداًيقول انه غوناغول امريكا(*) لكنه وحده يفهمني... يفهم عمق روحي...(يرن جرس احد الهواتف، يلتقط الروبت السماعة) .

الروبت: (يردد بآلية مضحكة ما يسمعه في الهاتف) السيد هوارد غير موجود ... ساخبره حال مجيئه ان لوحة بوتشيلي بيعت فوراً... وبربح عشرة الاف باون... بوتشيلي... اللوح... بيعت... سأخبره... بربح عشرة الاف باوند... ساخبره... (يعيد السماعة)

مارغريت: انظر... عن طريق مدير اعماله في لندن، في دقائق ربح عشرة الاف باون... من غير ان يبذل اي جهد... انكليزي هادىء، بارد، يضارب باموال هوارد ويكدس له الباوندات في لندن... وانت تريد ان تدفن حياتك في شركتك

المهندس: لكلٍ قدرهُ... ثم ان المال يجلب المال ... وبسرعة افتح يا سمسم...

مارغريت: صديقي الشاعر فان رونالد يقول، ان بوسع زوجي هوارد ان يرى الصفقة الرابحة من مسافة الاف الكيلومترات.(وقفة) هوارد لديه عشق مجنون للمال. (وقفة) انه لا يهتم الى الدولار كورقة، لا كرقم، كلما تزداد بلايينه، يزداد فرحه...

المهندس: غريب...

مارغريت: هو يجمع المال، وانا اتلف ببذخ مثلما تتلف الجرذان ملايين الاطنان من المأكولات... اتلف لأتفه شيء (تقترب منه وتقبله بحرارة) انا شعاري كما يقول الفرنسي LAISSEZFAIRE

المهندس: اسمحي لي ان اشرح لكِ كيف نبطل مفعول الروبت.

مارغريت: ماذا؟ انت لا تفكر الا بهذا الحديد البارد.

المهندس: واجبي هنا ان اشرح لكِ عمل هذا الحديد البارد.

مارغريت: واجب... لا تكن سخيفاً ايها الشاب الناعس، واترك ذاك الحديد واقفاً مثل اي خادم مطيع... سأعيش طويلاً معه... واعرف كيف افهمه.(وقفة، بعصبية) من يدري، قد امله بعد ايام واطرده من البيت... انا إمرأة مزاجية... اوه... اسمع هل ترغب ان تأتي معي الى طوكيو...؟

المهندس: سيدتي العزيزة ... اعتقد انكِ مرهقة بعض الشيء...

مارغريت:ابداً... ابداً... احس بمتعة كبيرة معك.

(*) غوناغول: هو اسوأ شاعر عرفته انكلترا.

المهندس: أخيراً... وهذا مهم جداً، اذا اردنا ان نبطل المعلومات الموجودة داخل الروبت... نضغط على هذا الزر، يصبح السيد ريتشارد اخرساً... حديد بارد حقيقي... كوني حذرة جداً... وانتِ كما تقولين إمرأة مزاجية... ان هذا الروبت يحمل في داخله عقول عشرة علماء كبار، لا تطلبي اليه تنفيذ اوامر صعبة...

مارغريت: (بتعجب) انت ما زلت تهذي عن هذا الاحمق البارد... انت تقرفني بهذه الكلمات، انت تتكلم مثل الروبت تماماً... هذه الكلمات كان يجب ان تقولها لأبني ريتشارد.

الروبت: (بآلية) انا هنا يا سيدتي.

مارغريت: اخرس ايها الحديد البارد.

الروبت: امركِ سيدتي.

مارغريت: لو كان ابني هنا، لعبأ هذا الروبت بأكثر الطلبات عنفاً، وعدوانية، ووحشية... لا احد كان له السيطرة على فورته الوحشية...

المهندس: إن مآساتك هي انك وحيدة... وحيدة.

مارغريت: لفرط ما عشت مع نفسي في وحدة طويلة، اصبحت مدمنة عليها، لا اتحمل انسان اكثر من عدة ايام... وحتى إذا سافرت مع عشيق لي، ولي طبعاً العشرات، فأملهم بعد اسبوع واحد، ثم فجأةً ولا إرادياً يبدأ القرفان... احب هذا، ثم ذاك، وانفر فجأةً من الاخر...(وقفة) انا فعلاً مليونيرة متهتكة لا تعرف ماذا تريد... إمرأة لا تثق لا بنفسها، ولا بأي إنسان... تعطي ببذخ من اجل رعدة حلوة...

المهندس: وهل بعد هذا الكلام تريدينني ان اصاحبك الى طوكيو... لا... لست مستعداً ان اكون فأراً اخر للتجربة في مختبرك.

مارغريت: انت ربما استطيع ان ابقى معه اكثر من اسبوعين.

المهندس: وبعد ذلك؟

مارغريت: اكرهك ... ويجب ان تتركني...

المهندس: لماذا؟

مارغريت: لا تكثر من لماذاتك... انت إنسان ساذج جداً... لماذا لا تريد ان تعيش لأكثر من اسبوعين مع مليونيرة جميلة، وحقيرة، ومريضة، ومتمردة، ... انا... اوه(وقفة)

انت إنسان بارد العواطف... الا تستطيع ان تكون عنيفاً... (وقفة) ذات مرة سخر مني رجل اشتهيته كثيراً، سخر مني بطريقة جارحة، نعم، وتركته يتمادى في سخريته، واعطيته الف دولار ليصفعني صفعة قوية... ها ها ها... ومع صفعته المدوية على وجهي استلم المبلغ وارتحت انا...

المهندس: (بتعجب شديد) السيدة هيوز المحترمة، اعتقد يجب ان اذهب... الى الشركة.

مارغريت: إنتظر قليلاً ايها الروبت البشري.

المهندس: شكراً... وهذه الكلمات لا تستفزني... انكِ مرهقة ويجب ان تعالجي نفسكِ.

مارغريت: انت إنسان بارد العواطف والمشاعر.

المهندس: أغفر لكِ كل كلماتك... (وقفة) في حالة اي عطب إتصلي بالشركة... (يهم بالخروج)

مارغريت: لا تذهب... (المهندس يتوجه الى الباب الخارجي) اسمع، لا ترد طلبي، تعال معي الى طوكيو... انت شاب بالغ الوسامة، وانا ارتاح لك كثيراً... تعيش في جنة حقيقية لأسبوعين. سأعمل لك المستحيل (وقفة) اسمع، ذات مرة عرفني مدير اعمال زوجي السيد فاكيتي في روما على شاب بنفس وسامتك... غوغولو حقيقي، اخذني هذا الشاب الى المتاحف الكبيرة، وفي احدى المقابر المليئة بالتماثيل شدني بحزامه الى تمثال وراح يصفعني ويركلني، ويلعن امريكا، وما تصدره امريكا من بؤس للعالم... كنت التذ من الالم، وهو يردد: ايتها المليونيرات الاميركيات كلكن مازوكيات. (وقفة) هل تستطيع ان تصفعني... هيا... هيا... صفعة واحدة فقط...

المهندس: السيدة هوز وداعاً... (يخرج المهندس بسرعة)

مارغريت: شاب وسيم ولطيف، شهي رفض طلبي، واحتقرني...(صمت)... يدخل الدكتور، يقترب من الروبت، من وحيث لا يدري يضغط على زر يطلق الروبت صافرة قوية مثل صافرة سيارات الاطفاء ويردد: هذا هو اللص، هذا هو اللص... اقبضوا عليه... لص... لص... يرتعب الدكتور، ويصاب (بدوار، ويدور حول نفسه... تقترب مارغريت من الروبت وتضغط على زر آخر، تتوقف الصافرة)

الدكتور: ما هذا، ماهذا الشيء المخيف يا مارغريت...(بخوف) انه يشبه رائد فضاء حقيقي... ما هذا!

مارغريت: (ببرود، وصوت حزين) انه خادمنا الجديد يا دكتور...

الدكتور: (بتعجب) هذا... وهل ثمة قحط في البشر... شيء لا معقول، انه مقطب غاضب... لماذا؟ لماذا اطلق تلك الصافرة، واتهمني باللصوصية؟

مارغريت: ضغطت على زر الحراسة... في الليل نضغط على ذلك السر... ويراقب رائد الفضاء هذا البيت... فالويل لأي غريب يدخل الى البيت... دكتور لا طاقة لي لشرح اعمال هذا الروبت...

دكتور: (بتعجب) يالتلك الصافرة، ويالذاك الصوت المخيف وهو يردد هو اللص... صدقيني كاد يغمى علي؛ (يتأمل الروبت)اتعرفين، ينقصه السيف والقمح ليشبه دونكي خوتا... كيف تناديه يا مارغريت؟

مارغريت: اسمه، بإسم ابني ريتشارد.

الدكتور: (يناديه بخوف) ريتشارد. (يتقدم الروبت من الدكتور... يفزع الدكتور ويهرول في الغرفة، والروبت يتبعه مردداً)

الروبت: نعم سيدي... نعم سيدي

مارغريت: (تطلق ضحكة ساخرة) لا تركض منه... إنه خادم مطيع... اطلب اليه ان يقف.

الدكتور: (بخوف) قف... قف... يا ريتشارد،

الروبت: أمرك سيدي.

الدكتور: يا الهي... (يمسح جبينه) وهل كلما ردد الواحد كلمة ريتشارد يتبعه هذا الجسم الضخم مثل الكلب؟

مارغريت: لا لا... اطلب اليه ان يجلب لك كأس ماء..

الدكتور: (ما زال مبهوراً) كأس ماء من فضلك يا ريتشارد.

(يذهب الروبت ويجلب كأس ماء)

الروبت: تفضل يا سيدي.

الدكتور: (وهو يتناول الكأس منه) شيء لا معقول... (يشرب وهو ينظر الى الروبت بتعجب شديد) وهل يعقل ان هذا الحديد لديه تصورات ذهنية... واثق ان هذا الخادم الجديد سيخفف عنكِ مرضكِ.

مارغريت: هل انت متأكد؟

الدكتور: نعم.

مارغريت: (بحزن) بعد ان فشلت انت الاختصاصي الكبير في علم النفس، تتوقع ان يشفيني هذا الحديد الاحمق ها ها ها ها.

الدكتور: المهم انه يسليك ويشغلك.

مارغريت: بعد دقائق مللته.

الدكتور: انت حزينة جداً لماذا؟

مارغريت: حزينة جداً... الى درجة اريد ان انتحر يا دكتور...

الدكتور: انتِ دائماً تبالغين في احزانك... لا لا لا... اسمعي، انا واثق ان هذا الخادم المضحك سينجح في ازاحة غشوة الوسيط الروحي(*)

مارغريت: هل انت جاد يا دكتور.

الدكتور: طبعاً... لأن تعدد الشخصية، يأتي بضرب من الشعورالمصاحب... نعم... والانشطار الذهني شيء رهيب...

مارغريت: ماذا يحدث عندما تزاح غشوة الوسيط الروحي؟

الدكتور:(بتفلسف) ان اجهزتك الداخلية الثانوية مضطربة...

مارغريت: وماذا تفعل تلك الاجهزة يا دكتور...

الدكتور: تمددي... هنا هنا...بأسترخاء تام... رائع ...اه... انظري الى السقف... الاجهزة الداخلية الثانوية عندما تضطرب تخلق عطباً... منذ سنة وانا اعالج هذا العطب

مارغريت: عطب اي عطب.

الدكتور: (بتفلسف اكثر) عطب اجهزتك الشخصية الثانوية...(يمسك من رسغها، ويقلب جفن عينها) نعم... آه... جيد.

مارغريت: انت كل مرة تجعلني استلقي على ظهري وتطلب مني ان اسرد لك قصصاً عن حياتي.

الدكتور: هذه طريقتي في العلاج، أنتِ تتكلمين لي وانا استنتج ،احلل، والسيد هوارد يدفع لي... ثم انني اريد ان اتوصل الى الجذور، الجذور العميقة لهذا الانشطار الذهني... اريد ان اصل الى الآليات الدفاعية العقلية.

مارغريت: هذا مصطلح جديد... الآليات الدفاعية العقلية.

(*) الدكتور يتفلسف في استعمال مصطلحات معقدة خاصة بالأمراض النفسية

الدكتور: نعم... والآليات الدفاعية العقلية هي التي تقودني الى الفصام... الفصام الاساسي، وكذلك الى الفصام التفاعلي... (وقفة) بهذه الطريقة استطيع ان اعالج فيكِ تعدد الشخصية... ويجب ان اعالج ايضاً الشعور المصاحب.

مارغريت: وهل وجدت اي فرق عندي؟

الدكتور: بالطبع.

مارغريت: اما انا لا ارى هذا الفرق، وما زلت اعاني من نفس المشاعر...والكآبة، والرؤى القاتمة...

الدكتور: هناك يا عزيزتي الافعال اللارادية ما زالت تدحض الافعال الارادية.

مارغريت: كيف؟ وماذا تعمل تلك الافعال اللارادية؟الدكتور: يا سيدتي أنتِ لا تفهمين في هذه المسائل، ثم انك تعانين من مسائل ، وحدي اعرف كيف اعالجها...

مارغريت :اخبرني عنها يا دكتور... انا لا اخاف ابداً، قل... ماهي...

الدكتور: حسنا... انت تعانين مثلاً من الاخيلة المهلوسة.

مارغريت: وماذا بعد.

الدكتورة: من التأجج، الحياة المفرحة عندك ذابلة.

مارغريت: الهذا السبب اتوتر، واتهستر، وانفر بسرعة من الاخرين، ومن كل شيء.

الدكتور: نعم... كما اخبرتكِ ان اجهزتكِ الداخلية الثانوية مضطربة.

مارغربت: وهذه الاجهزة. لماذا لم تتحسن بعد علاج سنة؟

الدكتور: ما ذنبي يا عزيزتي... انها لاسباب صعبة لا تعمل مع التواصل الزمني كما يجب.

مارغريت: لا افهم...

الدكتور: علم النفس يا سيدتي علم عميق.

مارغريت: ومتى تبدأ اجهزتي الشخصية الثانوية العمل كما يجب؟ اقصد تعمل كما تقول بالتواصل الزمني...

الدكتور: مع الزمن... مع الزمن.

مارغريت: مع الزمن، لكنني اروح الى الأسواء.

الدكتور: ابداً... ابداً... بل الى الاحسن ... ثم ان هناك مشكله يا سيدتي، وهي، عواطفكِ المنشطرة

مارغريت: وهل ان عواطفي مثل ذهني هي الاخرى منشطرة؟

الدكتور: مسائل متلازمة مع بعضها.

مارغريت:كيف؟ ولماذا؟

الدكتور: التركيب الجسدي شيء معقد.

مارغربت: كلمني عن عواطفي المنشطرة كيف جاءتني...

الدكتور: بسبب نوع معقد من النكوص،

مارغويت: وهذه كلمة جديدة اسمعها... النكوص.

الدكتور: في علم النفس هناك دائماً كلمات جديدة...(وقفة، بتفلسف) وقد لاحظت يا عزيزتي مارغريت وانا استمع الى حياتكِ، انكِ اصبت في صباكِ بحالة من الانفلات في المراحل التطورية ابان المراهقة بالذات... يجب ان اعمل على تحريك الزمن.

مارغريت: الإنفلات في مراحل المراهقة... وهذا إصطلاح جديد يا دكتور... وكيف ستحرك الزمن(تنهض تقف).

الدكتور: وأنا استمع الى اصغر صغيرة في حياتك.

مارغريت: لم تعد لدي قصص... لقد اخبرتك عنها جميعاً.

الدكتور: هناك بعد قصص اخرى؛ المهم... يبقى علي ان اؤجج فيكِ السلوك الامومي.

مارغريت:هذا شيء عظيم... السلوك الامومي... وهل سأبقى عاقراً يا دكتور.

الدكتور: اعتقد... ثم هذا ليس من إختصاصي...

مارغريت: هل أستمر في حلمي مع ريتشارد.

الروبت: أنا هنا سيدتي.

مارغريت: نطق الاحمق من غير سبب، اسكت.

الروبت: أمرك يا سيدتي .

مارغريت:هل أبقى استمر في حلمي الوهمي مع ابني...

الدكتور: طالما ترتاحين لهذا الحلم الكاذب... لكن لا تقتليه في ادغال افريقيا، او تلقيه من شلالات نياجارا، اتركيه يعيش؟

مارغريت: احبه مغامراً.

الدكتور: لا لا، اجعليه وديعاً، طيباً ، مطيعاً... تسمى هذه الخيالات في علم النفس فارس الاحلام الداخلي...

مارغريت:(تردد ببطء) فارس... الاحلام... الداخلي.

الدكتور: نعم... وفارس الاحلام الداخلي هذا يصعد عندك حلم اليقظة الرومانسي،

مارغريت: (تطلق ضحكة حارة) شيء جميل،،، رائع،،، هائل... احب كل شيء رومانسي... حلم... اليقظة...

الدكتور: (يكثر وبتفلسف من العبارات المعقدة) وهذه الرومانسية تعمل على تفريج التوتر.

مارغريت: رائع... رائع لقد ارهقني التوتر...

الدكتور: حالة صعبه... طبعاً... بسبب العواطف المنشطرة...(وقفة) هذا القدر يكفي... إستمعي قليلاً الى موزارت...وشوبان.

مارغريت: كلاهما ساحران ويخففان احزاني.

الدكتور: طبعاً... (بصوت خافت) هل ستحررين لي صكاً.

مارغريت: لم لا... انت فعلاً تتعب معي... (تذهب، وتأتي بعد قليل وتسلم صكاً للدكتور.(يرن جرس الباب، يدخل الشاعر بان رولاند وهو يترنح من السكر... لا يرى الروبت...يمشي ويصطدم به ... يتأمله، ويدور حوله، ثم برفق يربت على كتفه، ويصفعه، وفان كشاعر فاشل وسكير مدمن، يتكلم بغضب تارة، وبحزن تارة، ويردد مقاطع من شكسبير بالقاء جميل)

الشاعر: يا طواحين الدنيا كلها... (بسخرية) من يكون هذا الروماني المقطب. يا مارغريت ... انه يشبه جندي روماني حقيقي...(وقفة) حقاً من يكون هذا الكائن يا مارغو.

مارغريت: انه خادمنا الجديد.

الشاعر: خادمكم الجديد؟

مارغريت: وحارس البيت.

الشاعر: وهل تخافون فعلاً... ممن... من المافيا... وهل تخاف المافيا من المافيا(بسخرية) لكن كل المافيات منقسمة على بعضها هذه الايام...(وقفة) لقد شربت كثيراً ولا ارى هذا الروماني بوضوح... ما هذا الشيء في وسطه... خنجر... سيف.(يردد كلمات من مكبث) أخنجرٌ أرى أمامي ومقبضه بإتجاه يدي؟ تعال، ودعني أ٠٠٠٠٠٠٠٠٠مسكك...(وقفة) ما زلت اراك، وعلى شرفتك، ومقبضك قطرات دم...

مارغريت: يا شاعر ازقة نيويورك، يا افشل الشعراء، تعال بين ذراعي. تعال يا عزيزي...

الشاعر:(بسخرية) اذاني صماء لكلمات التزلف يا مارغو.

مارغريت: تعال بين ذراعي يا عزيزي.

الشاعر:(بالقاء جيد... هذا المقطع لادجار في مسرحية الملك لير) نديما صلف القلب والعقل، اجعد شعري والبس قفازات في قبعتي، احقق الشبق في قلب خليلتي، وافعل معها فعلة الظلام.

مارغريت: بدأت تسخر مني ايها القاسي... ايها السكير... تعال بين ذراعي... انت تعرف اية رغبة عازمة تحدوني لأكون بيك ذراعيك... ياشاعري الحبيب... يا شاعري المتشرد... تعال...

الشاعر: (بسخرية قاسية) تبقين تافهة في عيني يا مارغريت.

مارغريت: لماذا يا عزيزي فان ...لماذا؟

الشاعر: انت لا تحبين اي انسان.

مارغريت: ايها المتشرد السكير، وحدك انت احبك.

الشاعر: لكنك بالنسبة لي انسانة مملة.

ماغريت: ابن كلب حقيقي انت، احبك لدرجة انني اريد ان اكلك.

الشاعر:(يردد هذا المقطع من مسرحية تيمون الاثيني) .

لن استطيع التملق لك ايتها الالهة.

ما اكثر الذين يأكلون تيمون، وهو لا يراهم.

مارغريت: ما اجمل صوتك ايها الصعلوك المتشرد.

الشاعر: وماذا يكون افشل شاعر في واشنطن... يكون صعلوكاً متشرداً، وصديقاً للسكارى.

مارغريت: لماذا ترفض كل هباتي... كل شيء اقدمه لك.

الشاعر: لا استطيع، بل لا اتحمل فكرة ان اخذ من مليونيرة تافهة شيئاً.

مارغريت: يالعزة نفسك.

الشاعر: صدقيني استندت اجرة الحافلة وانا في طريقي اليكِ.

مارغريت: سأحرر لك صكاً بمبلغ محترم.

الشاعر: لن اخذ منك سنتاً واحداً...واحداً.

مارغريت: اعرف عزة نفسك... الست جميلة هذا النهار يا فان؟

الشاعر: مثل الملاك... كل إلهات الفتنة فيكِ الآن.

مارغريت: تعال بين ذراعي.

الشاعر: ليست لدي اي رغبة لتقبيلك.

مارغريت: كم هو صعب إرضاء متشرد مثلك... منذ اشهر وانت لم تأتِ لزيارتي...

الشاعر: لأنني احتقرك... واحتقر هذا الثراء.

مارغريت: (تندفع بين ذراعيه، وتقبله بحرارة، آه يا فان، لو فقط تعرف كم ارتاح لك، لصوتك، لأشعارك، لقسوتك، للعناتك التي تصبها عليّ...)

الشاعر: اصدقكِ عندما تتكلمين بصدق.

مارغريت: كيف يكون الصدق يا فان؟

الشاعر: أنتم الاثرياء لا تعرفون هذه الكلمة.

مارغريت: ربما... حقاً يا فان كيف يكون الصدق؟

الشاعر: مثل الطاعون يا مارغو... يقتل بسرعة... نعم... مثل الحمى المهلكة يجعل الواحد يخر ساقطاً.

مارغريت: فان، انا دائماً صادقة معك... لأنك إنسان صادق... وانت تفهمني بشكل جيد.

الشاعر: افهم اوقاتك العصيبة.

مارغريت: كلب حقيقي انت يا فان، ساحرٌ انت يا فان،

الشاعر: مليونيرة منحطة متهتكة، وسافلة انتِ.

مارغريت: بل اكثر، اكثر يا فان.

الشاعر:(يرى الدكتور لتوه) اوه... الدكتور هنا... مازال يزورك (ساخراً) اعتقد انه سيزورك طالما انتِ حية، الم يفهم بعد مرضك؟ اوقاتك العصيبة؟

مارغريت: انه يحاول.

الشاعر: ماذا؟ منذ سنه وهو يحاول..(الى الدكتور بسخرية) هل ما زلت يا دكتور تردد نفس المصطلحات... النكوص الحاد... العواطف المنشطرة... والشخصية المنشطرة...ها ها ها ها... ومارغو تحرر لك الصكوك... اشك يا دكتور تكون –اريادنا– لمارغريت.

الدكتور: (ببرود اعصاب)اريادنا... ماذا تعني هذه الكلمه...

الشاعر: هذا ليس مصطلح علم نفسي... –اريادنا– في الاسطورة اليونانية (وقف بسخرية) لكن ماذا تفهم انت في الاسطورة اليونانية.

الدكتور: (ببرود اعصاب) اي ضير ان نتعلم من شاعرنا معنى اريادنا.

الشاعر: (الى مارغريت) ألا تسقيني كأساً من الويسكي.

مارغريت: اسفة يا عزيزي... ايها المهرج انسيتني كل شيء(الى الروبت) ريتشارد اجلب قنينة ويسكي ، وثلج وصودا.

الروبت: فوراً سيدتي.

الشاعر: الا تعتقد يا دكتور ان صناعتنا مصابة بشيزوفرونيا

الدكتور: لا اعرف... انا لا افهم في الصناعة.

الشاعر: اعتقد ان هذا الروبت خير دليل على ان صناعتنا تعاني مثل مارغريت من الانشطار في المخيلة.

الدكتور: ما معنى، اريادنا...

الشاعر: اريادنا في الاسطورة اليونانية ، هي الفتاة التي ساعدت تيسويس بخيطها على الخروج من المتاهة، وقتل فيها الميناتور، (وقفة) واشك كثيراً ان تستطيع انت ان تخرج مارغريت من متاهتها.

الدكتور: ستخرج، ذات يوم يا سيد فان، ستخرج.

الشاعر: الذي اعرفه انا، هو انك يستحيل ان تجد ذلك الخيط، ولن تكون ادريانا لمارغريت ابداً.

الدكتور: سأحاول

الشاعر: سنة وانت تحاول...

الروبت: (يدخل حاملا طلبات مارغريت) تفضلوا

الشاعر: ينظر ببرود وسخرية الى الطريقة التي يضع الروبت القنينة والكأس وماعون الثلج فوق المنضدة... ماذا؟ انه ينحني كما لو يعاني من الم في فقراته... ثم هل إنتهى الإنسان ليحل هذا الحديد البارد مكانه... هناك اكثر من مليون عاطل في الشوارع... وهذا الخادم المقطب الاسبرطي الهيئة... اقسم ان صناعتنا تعاني من انشطار في الخيال... انه يمشي مثل المهرج... هاهاها أهذا الحديد البارد

ضروري... الشركات... بدلاً من ان يكتشفوا الحافة القصوى للأمكانات الإنسانية، يصنعون خادماً من حديد... فكاهة... البذخ احيانا يؤدي الى حماقات مضحكة، (يشرب بسرعة عدة كؤوس)

الدكتور: لكنه خادم مطيع... ومفيد.

الشاعر: بقدر ما انت فعلا مفيد لمارغريت... هراء...(يشرب) للمناسبة، كيف يعمل هذا الجندي الاسبرطي؟ (تشرح له مارغريت بسرعة اهم مسائل في الروبت) ها ها ... اذن انه مجرد آلة تسجيل...

مارغريت: اين كنت طوال هذه المدة؟

الشاعر: اتسكع، اشرب، ازور صديقي، اقرأ، واكتب اتفه الابيات.

مارغريت: وصديقتك؟

الشاعر: ما زلنا معاً.

مارغريت: تصورت انك هجرتها.

الشاعر: لا احبها كثيرا يا مارغو، لكنني انا انسان صعب العشرة، ومزاجي كشاعر فاشل صعب للغاية.

مارغريت: اعرف، لكنك انسان رائع،

الشاعر: احياناً طيبتي تصل حد الحماقة (يفتح جهاز التلفاز) انظري يا مارغو كم بوحشية يقمع الجنود اليهود هؤلاء العرب، انظري كيف ينهال بالهراوة على رأسه.

مارغريت: وهل انت متألم؟

الشاعر: علمنا حكام كثير من الدول استعمال الهراوة،، لو كنت شاعراً جيداً لقلت عدة كلمات في هذا الظلم الباذخ... اعتقد يجب ان اترككما... دكتور... استمر بالانشطارات الذهنية والعاطفية.

مارغريت: فان، لا تذهب...ارجوك... انني جداً حزينة هذا اليوم... صدقني إنني اذوب من الأسى...إبق معي ارجوك.

الشاعر: لا استطيع... عندي موعد مع صديق... دقائق قليلة تكفي مع طاعون اسمه مارغريت.

مارغريت: لم تسخر مني هذه المرة كثيراً، ولم تلعني كثيراً.

الشاعر: يا لك من ثرية تافهة.

مارغريت: فعلاً

الشاعر: انتِ اكذوبة سافلة.

مارغريت: ألاَ تحتاج شيئاً،، اطلب ارجوك؟

الشاعر: الإنسان اليائس لا يحتاج لشيء... انا مثل الشاعر الالماني هولدرلن دائماً اردد مع نفسي: لا شيء يكفي عند الضرورة... اعيش على اللاشيء...

مارغريت: اعطيك الف دولار ارجوك.

الشاعر: وها انا شحاذ.

مارغريت: غريبة اطوارك لا افهمك ابداً.

الشاعر: احسن... وداعاً يا مارغو... (بسخرية، من مسرحية روميو وجوليت) الفراق ألم لذيذ، الفراق الم لذيذ

مارغريت: وحدي اعاني من صدق هذه الكلمات يا فان... أنني احبك ايها القاسي... ألا تقبلني قبل ان تذهب

الشاعر:(يطلق ضحكة ساخرة) لا اريد ان الوث شفتي.

مارغريت: احبك ايها الكلب.

الشاعر: هراء...(يخرج).

الدكتور: انا الاخر يجب ان اذهب ... ازورك يوم الثلاثاء المقبل.

مارغريت: حسناً...(يخرج الدكتور) فان وحده ينسيني الامي، لكنه لا يحبني(تنخرط في بكاء حار... تتجول في الغرفة، تقترب من الروبت) انت ايها الحديد البارد هل تعرف المي، واحزاني، ايها الخادم المطيع...لا شيء ينقذني... لا المال... ولا دكتور... والعشاق... كم مرة حاولت ان انتحر... الى متى استمع الى الدكتور وهو يؤكد لي انني امتلك عشرات العقد النفسية... متى اشفى... ريتشارد... اعتقد ان هوارد اتى بك لتنهي حياتي...ريتشارد.

الروبت: نعم سيدتي.

مارغريت: احملني بين ذراعيك... (يحملها بين ذراعيه) تجول بي في الغرفة... اه... الى متى كل هذا التوتر... مللت من السفر، من الفنادق، من تحرير الشيكات... من العشاق... اسمع يا ريتشارد.

الروبت: نعم سيدتي

مارغريت: إسمع جيداً ما سأقوله لك... اريد منك ان تنفذ كل كلمة اقولها لك...كل كلمه.

الروبت: انا تحت امرك

مارغريت: عندما يأتي ذاك العاشق للمال، هوارد هيود، ما ان يصل وسط الغرفة، اهجم عليه وخذه بين ذراعيك بمنتهى العنف واضربه ضرباً وحشياً الى ان يموت... وما ان تنتهي منه تهجم عليّ وتقتلني بنفس الطريقة، بقسوة ومن غير شفقة، ثم تفجر نفسك، الان إنزلني... يتضاعف توترها ...تغني تضحك... تبكي... انا اكذوبة سافلة... مليونيرة متهتكة كما سماني شاعري المتشرد... بعد قليل يأتي هوارد كعادته لاهثاً... (يدخل هوارد لاهثاً)

هوارد: مارغو(ترن الهواتف دفعة واحدة) هذه الهواتف دائماً على موعد معي...(يهجم الروبت على هوارد ويأخذه بين ذراعيه وينهال عليه ضرباً) النجدة... النجدة... مارغو إنقذيني... إنقذيني... انه يقتلني... (يستمر الروبت بالضرب العنيف الى ان يموت هوارد... يقوم بنفس الشيء مع مارغريت ألتي تكتفي اثناء الضرب بأطلاق انات خافته فقط، ثم بعد موت مارغريت ينفجر الروبت ويسقط)

ستار

كركوك ١٩٧٥

نشرت هذه المسرحية في جريدة كروان التي تصدر عن الامانه العامة للثقافة والشباب

ربيع متأخر

مسرحية من فصل واحد

الشخصيات:

سعيد: في حوالي الخامسة والستين، الهرم الذي يغلف وجهه يؤكد انه عاش سنوات بؤس كثيرة، يكسو وجهه الشاحب عندما يغضب او ينفعل تعبير متوحش.

مسعود: في نفس العمر، اطول قامة، يميل الى البدانة، له وجه متهدل فيه تعبير ذليل وبؤس وحزن...

الرجل النحيف: في الاربعين، مضطرب، خائف، سريع الحركة، يطفوا الفرح على وجهه أثناء الاكل... بطين... يعاني من الم موهوم في ظهره...

المنظر

عام ١٩٥٧

زاوية في حديقة مستشفى حكومي، من بعيد تظهر اشجار يوكالبتوز، وجزء من سور المستشفى بلون الحليب، خارج السور جدار بيت فيه نافذة تطل على ساحة المستشفى وعلى اشجار اليوكالبتوز. ثمة نوافذ صغيرة لا تظهر إلا عندما يحل الظلام ، وسط المسرح مقعد طويل من النوع الذي يوجد في الحدائق العامة، ممر يمتد بأتجاه أشجار اليوكالبتوز، والنافذة ، يدخل سعيد متوكئاً على عصا... يطلق أنات متقطعة، يتنفس بسرعة، يقترب من المقعد ويجلس بهدوء.....

سعيد: (وهو يستمع الى صراخ الأطفال، وزعيق النساء)... النساء... دائماً لديهن القدرة على كل شيء... (بغضب) بوسعهن ان يحلن الاعراس الى مآتم، والمآتم الى أعراس، الواحدة منهن تجلب اربعة اطفال... (بغضب) لماذا اربعة؟ (كما لو يخاطب احداً) هذا مستشفى... مستشفى ايتها المحترمة... انظر... انظر... جيش من الأطفال، اوه ايها المريض المسكين... كان الله في عونك... (اصوات اطفال، بكاء..صراخ) ايام الزيارات يتحول المستشفى الى سوق هرج... في الردهة، في الممرات، في كل زاوية في الحديقة تحت اشجار اليوكالبتوز، على الممرات الاسمنتية الاطفال مثل الزنابير يركضون... (يطرد ذبابة تزعجه) آه... مثل

الذباب في كل مكان...(وهو يطارد ذبابة) مستشفى فيه ناس على وشك ان يموتوا(يطلق فواقاً... بجهد) اخ...آآآ... عادت ثانية موجات الغازات... ما ان أغادر السرير فواق وراء فواق... غازات. (يطلق فواقاً طويلاً بضجر) ماذا اكلت طوال النهار... لاشيء، قليلاً من الخضار المسلوق... (بحزن) وهل بقيت لي معدة تستطيع ان تهضم... (يتنهد) حتى الماء تعاني من هضمه. (تعود الذبابة... يطاردها بغضب) حتى هذه الذبابة تعبث من ألامي... آه، الشيخوخة... اللعنة... حقارة... موت بطيء... (اصوات اطفال يلعبون) هؤلاء الأطفال يزيدون من آلامي... هدوء... ياصغار... هدوء... (ترتطم قطعة من قشر برتقال بجانب وجهه... يطلق انيناً... يلتفت الى جهة اليسار، ثم ببطء الى جهة اليمين...) لكن ماذا يفيد ان اعرف من الذي ضربني... كلب... (ينحني، يلتقط قشرة البرتقال... يشم القشرة) هاهاها آخر ما كنت املك... رائحة الشم... ماتت... (اصوات اطفال قوية تأتي على شكل موجات... زعيق نساء وهن يزجرن اطفالهن)آه... صراخهن، ينغرس مثل الأبر في الرأس... (صمت، يضلل عينيه بيده المرتجفة يراقب مريضاً لا يراه المتفرج... يتتبع المريض... بجرس حزين) الأبوّة مثل الأمومة لعنة... تتحمل كل شي من اجل الاطفال... (يتتبع المريض... كمن يخاطب شخصاً لصقه) انظر، انظر، يخفي حصته من فخذ الدجاج ويقدمه خلسةً لأبنه... اعرفه جيداً... يرقد قبالتي في نفس الردهة. (يتنهد) احمق، لماذا يصف لك الطبيب لحم الدجاج... لتشفى ايها السخيف... لكن الابوة... (تعود الذبابة... يطاردها بعصبية) حشرة حقيرة بنت كلبة مزعجة... (يطلق فواقا)... أنظر آه... يضع اللقمة بحنان في ذاك الفم الصغير... أبوّة... (صمت قصير... يطلق ضحكات متقطعة)هيء هيء هيء... انظر... ويعطي زوجـــتـــه جناح الدجـــاج... وهي ترفض... ترفض... هيء هيءهيءهيء...(يتوقف عن الضحك... يطلق فواقاً، يمسد بطنه، وجانب قلبه... باليد الاخرى يطارد الذبابة... صمت) تأخر مسعود... (يراقب الاطفال... تنبعث اغنية ريفية حزينة من مذياع بعيد... ينحني سعيد ويلتقط قشرة البرتقال من جديد، يشم بقوة... يعصر القشرة فوق شفته العليا، ويشم، يدخل مسعود بخطوات وئيدة... يجلس برفق بجانب سعيد)

مسعود: (يربت على ظهر سعيد)حتماً كعادتك كنت تراقب الاطفال وتتذمر...

سعيد: اطفال... عالم غريب هؤلاء العفاريت... من اين لهم كل هذه الطاقات؟...

مسعود: اطفال... آه... انهم اطفال يا عزيزي... كل شيء فيهم طاقة.

سعيد: هل ما زلت مصراً على حزنك القديم.

مسعود: اوه... هيء هيء هيء... بالتأكيد يا سعيد... تأثرت كثيراً لعقمي.

سعيد: هيء هيء هيء... سخافة... صدقني لو جاءك طفل واحد، تبقى لثلاث سنوات ورائحة الغائط تفوح منك.

مسعود: (كمن لا يفيده التمني) اية رائحة، ومتعة... رائحة الطفل... رائحة الحياة.

سعيد: هل سنتكلم عن الطفل، والعقم، وحرمانك من الطفل.

مسعود: لا... لا... لكن يا سعيد لو تعرف كآبة الليالي الصامتة التي عشناها، ليالي حزينة، رتيبة، كئيبة، كثيراً ما كنا انا وزوجتي نحدق في الفراغ لساعات. او نضحك من غير سبب، او لأسباب تافهة، او نتعارك لتمضي الساعات...

سعيد: أعرف اخبرتني اكثر من مرة، وكنتما تلعبان النرد.

مسعود: نتبادل الحزورات.

سعيد: وتصمتان.

مسعود: نبحث عن قصص قديمة.

سعيد: أعرف... (صمت قصير) صحيح هم زينة الحياة... لكن يدفعون الانسان الى الكهولة بسرعة... (تنقطع الاغنية الريفية) انظر... يركضون... يقفزون... يطاردون بعض... ماذا يفيد معهم... الصراخ، والزجر لا...لا (وقفة، يتنهد) اتعرف كثيراً ما اشك بأنني كنت مثلهم صغيراً، هل تتذكر أن كنت طفلاً ذات يوم.

مسعود:(يطرد ذبابة بيده) الذباب... الذباب... ماذا قلت؟ آه... نعم، اوه... طبعاً يا سعيد... ربما كنت اسوأ منهم بكثير، من يدري ربما كنت في وقاحة هذه الذبابة الحقيرة...

سعيد: ماذا تجد في جلدنا الميت تحط عليه، تلسع... بنت الكلبة لا تفرق بين اللحم الجيد واللحم الجاف.

مسعود: (يمزح) الذبابة تشم رائحة الجلد الميت، ربما رائحة الموت...

سعيد: (صراخ اطفال)آه في ايام المواجهة لا يجلبون مجرد الصراخ، والعويل، والعفرته الى هذه الحديقة، وانما افواجاً من الذباب.(يطلق فواقاً)آآآآآخ... آخ.

مسعود: الم تخف الغازات ولو قليلاً؟(بلطف) هل تناولت حبوبك؟

سعيد: (بسخرية) تَخِف... الغازات تفور في معدتي... ربما الحبوب هي التي تعمل هذه الغازات...

مسعود: (بجرس حزين) لا... لا يا سعيد... الشيخوخة الملعونة هي التي تضع هذه الغازات، والاوجاع ، والاورام، لا اسنان... لا حركة ... لا افرازات... لا طاقة... نحن في مثل هذا جثث متحركة... (صمت طويل... تنبعث موسيقى حزينة من نفس المذياع البعيد... بعد قليل تسمع صفارة سيارة اسعاف، تدخل سيارة الاسعاف الى المستشفى... المتفرج لا يراها...تنقطع صفارة الاسعاف... تسمع بقايا من موسيقى حزينة)

سعيد: وهذه جثة اخرى...(وقفة) حتماً واحدة فشلت في علاقتها مع زوجها واحرقت نفسها.

مسعود: او بطران طعن صديقه بسبب مشادة سخيفة.

سعيد: تصور انسان مطعون بالمدية.

سعيد: (يردد بآلية) مدية... مدية... ربما... مدية.

مسعود: مشاكل الحياة كثيرة.

سعيد: كثيرة

مسعود: ومعقدة.

سعيد: أحزان.

مسعود: بؤس... آلام.

سعيد: نعم الحياة صعبة.

مسعود: (بحزن)اتعرف... سيارة الاسعاف ذكرتني بماذا؟

سعيد: بماذا؟

مسعود: (بجرس حزين) الشاب الذي يرقد لصقي من الجهة اليمنى مات في منتصف الليل.

سعيد: مات؟ كان يعاني من صدره؟

مسعود: مسكين، في الليل مد يده ولمس يدي... عيناه كانتا بلون الليمون... اراد ان يتكلم، خنقته سعلة قوية، امسك يدي، تكلم بقوة، تكلم عن والدته طويلاً...كان

يحبها كأي ابن طيب... وتكلم عن والده السجين... وعن صديقته... فتاة جميلة تزوره... كان يمسك بيدي بقوة... قال ان والده اخبره، عندما تموت لا تعطي إنطباع انسان ضعيف... ظل يبتسم... طوال النهار... كان في غيبوبة سأل عن صديقته. ابتسم كثيراً...

سعيد: مات.

مسعود: هل رأيت إنساناً شاباً يموت؟ (في هذه الاثناء يرتطم قشر الموز برأس مسعود... يجفل...) آخ... حتماً احد الصغار ضربني.

سعيد:(بسخرية) اطفال... آه... لو كنت تملك ثلاثة.

مسعود: (مقاطعاً) يجعلون رائحة الغائط تفوح مني لسنوات، آه... وانا كنت اريد واحداً فقط... تصور يا سعيد ثلاثون سنه من الصمت في البيت.

سعيد: هل ستتكلم عن الطفل وحرمانك منه... (اصوات بكاء نسوة... عويل... لا تتأثر يا عزيزي... ستشفى سريعاً ان شاء الله... إيمانك بالله، الصبر واجب...)بكاء... عويل.

سعيد: مع كل سيارة اسعاف لطم، عواء، بكاء... انظر تلك حتماً هي الام، وذاك... الاخ، او الزوج... كلهم مثل المجانين.

مسعود: اهي إمرأة؟ اوه... من يدري... من يدري... (موسيقى خفيفة تنبعث)

من بعيد، يدخل رجل نحيف من نزلاء المستشفى، بيده صمون محشي باللحم. يأكل بشهية، ويهز كتفه الايمن بين الحين والاخر بحركة سريعة. يتبادل سعيد ومسعود نظرات طويلة ويهزان رأسيهما.

الرجل النحيف:(فمه مليء بالأكل ، هازاً رأسه) مستحيل ان يرى الواحد منكم لوحده... الشيوخ يستمرون في صداقتهم بحب حتى الموت... اما نحن الشباب، فحسب المزاج...(يأخذ قضمة من الصمون).

سعيد: (جانباً لمسعود) ما رأيته الا وهو يأكل بنهم... بنهم... الا تعتقد انه بهذه الشهية يريد ان يعذبنا ... انظر يأكل بمتعة.

مسعود: (بهمس... بينما الرجل النحيف يتأمل النساء والاطفال) ونحن لا نستطيع ان نأكل قليلاً من المرق والخبز.

سعيد: بل قليلاً من الخضراوات المسلوقة... وتلوينا الغازات... ونختنق بالفواق...

والحموضة تكوي المعدة مثل النار... (وقفة) لماذا يرقد في المستشفى ولديه مثل هذه الشهية؟

الرجل النحيف: (وهو يبتلع اخر لقمة) انتما صديقان رائعان... عندما اراكما افرح كثيراً، واقتنع ان الشيخوخة لا تعني اليأس ابداً... انتما تتمشيان معاً... وتضحكان معاً، وتتخاصمان معاً... من يدري ربما تعانيان من نفس المرض... حتماً لديكما قصصاً كثيرة، وذكريات كثيرة، وافراح كثيرة، (بحركة سوقية الى مسعود) تلك هي صديقة الشاب الذي مات في ردهتك... انها تنتف شعرها...(يأكل) انها جميلة.

سعيد: (بغضب) لم لا تنهي اكلك وتكلمنا ... انا غير مستعد.

الرجل النحيف: (مقاطعاً) آسف... نبهتني اكثر مرة... اتعرفان؟ ان سيارة الاسعاف جلبت هذه المره فتاة شابة.

مسعود: ما بها؟

الرجل النحيف: حرقت نفسها...(بثرثرة) ترى لماذا البعض بدلاً من ان (يحرك كتفه بسرعة) يتمتع بالحياة، يحرق نفسه. (يلقي نظرة الى الارض... يرى قشرة برتقال، وموز) أكيد كنتما تأكلان برتقالاً، وموزاً هنيئاً، من حقكما ان تهتما بصحتيكما... ضروري ... الشيخوخة تحتاج الى مراعاة خاصة... اكلات غنية وسهلة الهضم... ضروري جداً... (يتنهد) نفسي في قطعة برتقالة ولو فجة.(يتلمض... الى مسعود) هل اشغلوا سرير الشاب في ردهتكم؟ آه، نسيت ان اخبرك. أعتقد ارقدوا عليه بعد خروجك رجلاً في مثل عمري مصاب بطعنات تحت ابطه وكتفه(وقفة) هذه تنتحر. ، وهذا تنقلب به السيارة، وذاك يطعن بالمدية، (بتقزز) تصور مدينة تنغرس في اللحم، ونار تلتهم اللحم... المدية للمطبخ...(يغير الحديث) هل لديكما قطعة برتقال (يحرك كتفه) نفسي في برتقال... (يتلمظ) اتعرف ايها المسعود اية رائحة كانت تنبعث من جثة الشابة التي انزلوها قبل قليل من سيارة الاسعاف ؟ رائحة اللحم ،الشعر المحروق... رائحة غريبة، ومخيفة... بعد ساعات من شدة المها كانت تطلب قليلاً من الماء... او قطعة برتقالة صغيرة ولو فجة لتبلل حلقها، كانت تبكي، وتضحك، ثم تغمغم ... من الالم...

مسعود: (بيأس ، يحاول ان يغير الموضوع) هل اتت زوجتك لزيارتك؟

الرجل النحيف: وهل تستطيع ان تتأخر... انها تحبني ... تعبدني... بعد دقائق تأتي وتجلب لي كل شيء..(يحرك كتفه) من ربع ساعة وانا انتظرها امام باب المدخل... ايام المواجهات تتحول هذه الحقيقة الى متنزه... (يراها من بعيد) تلك هي. إنها تريدني أن أترك المستشفى تقول انها تشعر بالوحدة.(يحرك كتفه) لكنني مرتاح هنا...(يترك المسرح راكضاً في اتجاه اليمين)

سعيد : (بغضب) وهل يجب ان يثرثر كل يوم، ويقدم كشف الوفيات، والانتحارات، كلما التقى بنا... وحتى في الردهة يصدع رأسنا بما يدور في المستشفى... يثرثر وفمه مليء بالاكل، ويحرك كتفه وكأنه يرقص... وانا اعاني من الجوع... وبعد ان يشبع يشحذ منا قطعة برتقال... وهل لدينا برتقال ايها النحيف الثرثار... لولا الرجفة في يدي، وضعفي لضربته بهذه العصا...(صمت) ولديه زوجة وبيت، وهو يرقد هنا... المرأة... دنيا جميلة...(يتكلم كما لو يهذي) مثل ثعلب محاصر... خوف... رغبة... تردد... وكأي جاهل في العالم. كنت انظر الى ملابسها الملونة وخدودها المحمرة... كانت دمية... لم اعرف ماذا اعمل... جلست بجانبها حتى منتصف الليل... وكنت ارتجف كلما طرق احدهم علينا الباب وهو يردد: اسرع... عيب يا رجل... نريد ان نطلق الفشك... وهي تنظر الي بخوف وخجل... عيب يا رجل نريد ان نطلق الفشك... خرجت مثل المجنون وطردتهم.

(يتوقف... صمت تسمع شظايا موسيقى دافئة)

مسعود: هل للربيع علاقة بزواجك.

سعيد: الشمس لذيذة هذه الايام... الحرارة تدغدغ جلدي مثل ام اربع واربعين،

مسعود: كانت زوجتك تراقبك بخوف.

سعيد: لماذا تذكرتها فجأةً في تلك اللحظة... (وقفة) الشمس لذيذة..لذيذة... آه... من اين يأتي الحزن فجأة... الا تؤكد على نفسك يا مسعود في مثل هذا العمر ان هذا الربيع المتأخر سيكون اخر ربيع تعيشه.

مسعود: في مثل عمرنا يؤكد الواحد على نفسه ربما اللقمة التي يبلعها هي الاخيرة.(وقفة... صمت...تستمر الموسيقى... يضلل عينيه) سعيد؟

سعيد: نعم.

مسعود: تلك هي المرأة التي تشبه زوجتك... تعبت من الجلوس... نهضت... انظر... ربما

تغادر المستشفى... (وقفة) ماذا بعد يا سعيد... كلمني...

سعيد:(يطلق فواقاً ... بحزن) السخونة بدأت تهاجم جسدي مثل ام اربع واربعين، حان وقت مغادرتهم المستشفى...ايه سبحان الخالق... انها صورة طبق الاصل من زوجتي... (وقفة) شهر، شهران، ثم اشهر من السعادة، قبلات، سهر، حضن، وهي في كل ليلة تلمع تحت ضوء الفانوس من كثرة تبرجها... دمية جميلة... وانتهت اول سنة...(تطفو على وجهه تعابير مختلطة من الغضب، والحزن) ذات ليلة رجعت متأخراً، ووجدتها عارية، كنت مرهقاً بعد سفر طويل، ورأسي يطن... لم اصدق نفسي وانا اراها، كان لحمها يلمع تحت ضوء الفانوس، مثل خدودها... اقتربت اكثر، رأيت جسد رجل عار يلهث لصقها... قلت مع نفسي اهذا حلم ام حقيقة، تأملتها جيداً، لا هذه حقيقة، ذهبت الى المطبخ فوراً وجلبت مدية كبيرة... فتحت الباب، هجمت عليهما،... يترنح... كانت الطعنة الاولى في سرة زوجتي... (بجهود يائسة ينهض ويلتقط عصاه، ويحاول ان يؤدي ما اقترفه بحركات تمثيلية... يترنح، وعبثاً يحاول ان يتماسك، ينفعل الى درجة كما لو يقوم بعملية القتل الآن) ما ان انتزعت المدية من بطنها رفرفت يدها كجناحين بسرعة، بسرعة، اوه بسرعة عجيبة وكأنها ترد ان تطير... سرعة الألم... سرعة الوصول الى الموت... (وقفة) نهض الرجل بفزع غير مصدق نفسه يرسل اليّ نظرات ميتة... تصور يا مسعود من شدة خوفه اطلق ضحكات هيستيرية، اراد ان يهرب، ضربته بطعنه في تفاحة ادمه... اوه... (يتأرجح، ويستند الى عصا... يزداد انفعال، ينتاب مسعود حالة خوف وهو يرى انفعال صديقه)

مسعود: اجلس... اجلس يا عزيزي... لا تتعب نفسك... اسمعك جيداً وانت جالس... إجلس وتكلم.

سعيد: غائصاً في ذكرياته اتركني... اتركني يا عزيزي... بف... بف...بف... هكذا تدفقت نافورة من الدم من حنجرته وهو يردد انا... هي... انا...(يترنح سعيد، يطلق فواقاً، ويسقط على الارض، يساعده مسعود على النهوض. يطلق فواقاً طويلاً، يترنح فوق المقعد) زوجتي كانت تتلوى، وتتضرع الي... وهو يشخر(بهستيرية) وانا اضرب طعنة هنا ، وطعنة هناك... (يتوقف) الجسدان تحولا الى غربيل (صمت... بعد قليل يسمع صوت صافرة سيارة إسعاف... وكأنه في غيبوبة) ماذا

يفيد... اه... القتل شي صعب ومخيف... ماتت... ومات.

مسعود:الموت... هل تسمع صفارة سيارة الإسعاف؟

سعيد: (يفيق عندما تقترب صفارة سيارة الاسعاف) اي رعب عندما تولج المدية في اللحم البشري، خاصة عندما تصطدم المدية بالعظم... والضحية تتضرع وتصرخ، اوه... وانت مستهتر وتصر بسبب تلوث شرفك على ايلاجها بعيداً، بعيداً، وبقوة اكثر، اكثر.

مسعود: (يبلع ريقه بصعوبه، ويظهر على وجهه المتهدل تعبير ذليل وعذاب) وقتلهما؟

سعيد: ماذا تفعل لو كنت مكاني... تخونك بهذه الطريقة السافلة...

مسعود: لا اعرف؟... قتل انسان شيء مخيف... كان بوسعك ان تهجرها... تطلقها... تلقيها كشيء فاسد في القمامة...(يتغير ضوء النهار قليلاً، ويخيم ظل المساء الشفاف، من بعيد تضاء نافذة التي تطل على ساحة المستشفى، وكذلك بقية النوافذ، وتبدو الأضواء بلون البرتقال الذابل هل تتناول قرصك المسائي الآن؟

سعيد: (يفيق اكثر من ذكرياته) انت مثل الساعة يا مسعود... هل النافذة اضيئت؟

مسعود: نعم... وعما قليل تطل تلك الجميلة وتراقب ساحة المستشفى.

سعيد: (يتناول قرصاً صغيراً من قنينة صغيرة يضعه تحت لسانه) كل مساء تطل من النافذة... ماذا ترى في منظر الحديقة... كل مساء... مرضى... اشجار الكالبتوز... جدران بيضاء... ممرضات عصبيات... احياناً مرحات وهن يسرن بسرعة... بسرعة.

مسعود: انا اتصور ان لها علاقة حب مع احد الدكاترة، او المضمدين.

سعيد: (يلقي نظرة الى جهة النافذة... بحزن) خلف كل نافذة اسرة...

مسعود: اسرة سعيدة.

سعيد: واسرة تعيسة.

مسعود: واسرة حزينة.

سعيد: واسرة لها فائض من السعادة.

مسعود:هناك حتما طفل يحبو بأتجاه والده.

سعيد: وابٌ يصرخ.

مسعود: وام تقبل صغيرها، واخر يدرس.

سعيد: او طفل يعبث بغائطه...

مسعود: والأم سعيدة لأن صغيرها يكبر.

سعيد: وزوجة تقبل زوجها وتخفف عنه تعب ساعات العمل.

مسعود: او اخرى تنتظر زوجها المسافر الى مدينة بعيدة.

سعيد: وشاب يغازل شابة.

مسعود: هناك أسرار كبيرة وراء الأبواب، والنوافذ... البيوت اسرار غريبة...(صمت)... هل سنذهب لنتجول عند الاشجار القريبة من سور الحديقة كما نفعل كل مساء؟

سعيد: ليس الآن يا مسعود... (وقفة) هذا القرص الذي آخذه كل مساء يخدرني...(يلقي نظرة أخرى بأتجاه النافذة، يمط عنقه مرات عديدة مثل الدجاجة عندما تشرب الماء) منذ أمس والالم يدق جسدي... الالم في مثل عمرنا شيء صعب تحمله... (وقفة) انها أمرأة رائعة... رائعة جداً... ارتاح لبسمتها وانسى آلامي...

مسعود: من هي؟

سعيد: الطبيبة... في الايام الاخيرة صارت تسأل عني وعن صحتي كثيراً.(يحل الظلام برفق... اضواء أعمدة الشارع القوية، اضواء جدران المستشفى تضيء الحديقة... يتنهد... بحزن شديد) المساء، وتلك الشابة، والنوافذ البعيدة تذكرني بأنني انا الآخر كنت املك بيتاً، وزوجة، وذكريات... كنت يا مسعود اتصور ان الانسان في ايام الشيخوخة ينسى نهائياً الأنانية، الحسد، ويتمنى كل شيء جميل للأخرين، ماذا بقي لي من الحياة وانا في السبعين... لكن الحياة لا... لا... لا يسلمها الانسان بسهولة... ما زلت رغم الآلام، واوجاع معدتي، وهذه الغازات، وابتلاع انواع الاقراص، ارتعش عندما افكر ان الحياة ستهرب مني الى الأبد... انها الأنانية... الحياة الساحرة... (وقفة) امس كانت الشمس دافئة عندما تركتني... ذهبت وحدي اتجول عند اشجار الكالبتوس... رأيت شاباً وشابة يسيران ويتهامسان... يتهامسان مثل حمامتين رغم خلو المكان إلا من زقزقة العصافير... الشاب كان بين الحين والاخر يريح يده فوق كتف الفتاة، وهي تبتسم له،(بحزن شديد) تذكرت الاشهر الاولي من زواجي، وحلاوة قبلاتها، وحرارة لحمها...(وقفة) ياللحياة، ومفاجآتها الكثيرة والشابان عندما رآياني مجرد جثة متحركة، زادا من انسجامهما، وهمساتهما... كانا ينظران إليَّ كشجرة، كجدار، كلاشيء، الشباب في هذا العمر يعاملوننا كالقطط...(وقفة،

بألم) الله، كنت في تلك اللحظة اتمنى ان ارجع شاباً، اي جنة كبيرة هي حياة الشباب... بكيت بصمت وانا استند الى ساق شجرة... بكيت يا مسعود... بكيت كثيراً.

مسعود: اوه... الهذه الدرجة؟ انك حساس وعاطفي جداً.

سعيد: عندما يملأني الفرح من الداخل. (يطلق فواقاً قوياً) وتهزني الذكريات... والذكريات كلما طردتها تعود وتلتصق بالمخ، الشابان ذكراني بعلاقة حب لي مع إمرأة ثانية.

مسعود: (ضاحكاً) ماذا؟ علاقة حب مع إمرأة ثانية؟

سعيد: لم لا...

مسعود: وهل لعبت بها بالمدية مثل الأولى؟...(تخلو الحديقة، و تسمع ضحكات وتمنيات حارة جداً بالشفاء العاجل، والعودة السريعة الى البيت والاطفال... صمت... يدخل الرجل النحيف وبيده ساندويتش محشو...يأكل بشهية)

الرجل النحيف: هيء هيء هيء هيء... جنون... جنون حقيقي... انا مثلا لا اطيق منظر المدية أبداً...(يحرك كتفه كما لو يرقص) انفعل لا إرادياً وانا امد يدي للمدية... (يحرك كتفه)طبعاً سمعتما صفارة سيارة الأسعاف...(يأكل) قبل قليل انزلوا شاباً في جسده عشر طعنات... من اسفل النقالة كان الدم يتساقط... (وقفة) يارب، كيف يستطيع الانسان ان يولج مدية حادة في لحم إنسان... المدية مثلاً لتقطيع شرائح اللحم...(وقفة) هيء هيء هيء هيء... أغبياء ... حمقى... اوباش... لا يعرفون الاستمتاع بالحياة، يتركون(يؤشر الى الساندويتش) نعمة الرب ويتبادلون الطعنات... اما ينتحرون، او تلعب المدية في اجسادهم (صمت، لمجرد ان يبدأ حديثاً أخر) الممرضات اكدن ان الفتاة التي احرقت نفسها لن تعيش حتى منتصف الليل... نصفها الاسفل فحم... فحم حقيقي... (يأكل بشهية... يحرك كتفه) احسدكما على إنسجامكما معاً بهذه الحميمية... كيف لا تملان البعض...(وقفة) هل ستتجولان كعادتكما كل مساء عند تلك النافذة؟ المرأة التي تطل منها جميلة ولطيفة...(يهز كتفه مرات عديدة) انها في حب مجنون مع المضمد الطويل الذي يزورنا في الردهة... الشاب ... الطويل... الوسيم...(تسمع موسيقى خفيفة من مذياع بعيد) زوجتي تصر على ان اغادر المستشفى... طالما تقول ان صحتي جيدة. وشهيتي جيدة يجب ان اعود الى احضانها...(وقفة) هل

تشجعني على الخروج... (تسمع صفارة سيارة الاسعاف) لأذهب ...حتماً حادثة اخرى... او ربما الفتاة الشابة ماتت(يخرج).

سعيد: ثرثار... بطين... كلب جائع... لم اره وإلا فكه يتحرك ... لا عمل له إلا تتبع اخبار الفواجع... كيف ولماذا يسمحون له بالبقاء بالمستشفى وهو في كامل عافيتهِ.

مسعود: (مغيراً للموضوع) خلت الحديقة نهائيا.

سعيد: من كل شيء ... من الصغار، من الذباب ايضاً، آه... نفس الصمت الاخرس... (وقفة) صدري يؤلمني... بكل جسمي... وقرص المساء يخدرني... ما كان يجب ان اتناوله ابداً،

مسعود: انس موضوع القرص. ما رأيك ان نذهب الى جهة النافذة، وتلاطف انت الفتاة كما فعلت معها مرات... انها جميلة وعذبة.

سعيد: في مثل هذا الوقت عادة تسدل ستار نافذتها، (يتنهد) اذن تحب المرض الشاب... تنتظره كل مساء... له وحده ترسل ابتسامتها التوددية الحارة...(فجأةً، تصفعه هو الاخر الذكريات) لا...لا... لم تكن جميلة مثل الاولى.

مسعود: من هي؟

سعيد: الفتاة الثانية التي احببتها...(بفرح طفولي، وعذوبة شيخ يروي قصة) كانت جذابة، عذبة، في البداية كانت تنظر اليّ بعينين ساكنتين، وكنت اتردد، واحيانا اخاف واتردد... آخ، يا مسعود الا تخاف العيون الباردة...(وقفة) وانقلب البرود الى فرح... المرأة... المرأة، صدقني بوسعها ان تقلب المأتم الى افراح... وصارت تنتظرني عند عودتي من الدائرة، وتتحرش برقة ... ابتعدت عنها لأشهر... اوه، يا مسعود فشلي الذريع في زواجي الاول، والقتل وسنوات السجن، جعلت المرأة عندي شيئاً اكره بكثير من الموت... لكن المرأة دنيا ساحرة، هيجتني ابتسامتها الترددية، وتعارفت على اسرتها، حيرتني في البداية... لكنها منحتني ثقة كبيرة بنفسي... لباقة... نكات... (يطلق فواقاً يتألم، ويطلق انات موجعة، يضع يده فوق صدره عند القلب، بعد صمت... برقة وعذوبة) بشاشتها، رقتها، لطفها، اشعلت ناراً تحت رغباتي الضامئة القديمة، صرت كل يوم اراها بشكل جديد، سيماء مخلصة... كانت... آه... لن انساها... كنت امد يدي لأمسك اصابعها ، كانت تمنعني،هيءهيءهيءهيءهيء... ليس بغضب. إنما بإبتسامة توددية (يطلق انه حادة) كنت ارتجف لتلك البسمة، وحتى بعد ان طلبتها من والدها رفضت

ان امسك اصبعها(وقفة) الرجل يا مسعود يحس بسعادة امام المرأة الواثقة من نفسها...(صمت، يتنهد، موسيقى خفيفة من بعيد) هل كنت تستمع إليّ يا مسعود.

مسعود:(بجرس حزين) طبعاً يا عزيزي... ماذا؟ تعبت ... هل تعبت.

سعيد: (يطلق فواقاً) وامتلأ قلبي بعد موافقة والدها بأفكار، آه، ولا اجمل منها... واحلام سعيدة...(وقفة) لا اعرف اي ابن كلب اخبر والدها بأنني قتلت زوجتي الاولى وذبحت عشيقها...(وقفة، يطلق فواقاً) عندما رفض، لو تعرف اي هلع غمرني، ألم... لأشهر...

مسعود: ان سمعة القاتل حتى من اجل شرفه، مثل الكلب المجرب... حتى لو كان على حق...(يأتي صوت من بعيد مخاطباً سعيد)

الصوت: آه، ايها العم سعيد، حتماً إنك اليوم احسن بكثير ... وإلا لما بقيت لحد الآن في الحديقة... لاتنسى ابداً مواعيد اقراصك... لكن اسمع... هواء الربيع في مثل هذه الساعة ليست لصالحك... اذهب الى سريرك. أمس قلت لك نفس الشيء ايضاً...لا...لا من اسبوع وانت تسلم نفسك لهواء الربيع في الليل... بعد قليل ارجع الى الردهة

سعيد:(يتنهد عدة مرات، يطلق فواقاً... يتكلم مثل المحموم) ما كان يجب ان اتناول قرص المساء الآن... بل قبل النوم... هذا القرص يخدرني.

(وقفة) هذا الدكتور إنسان طيب جداً... إنسان بشوش... شاب... الله... سيعيش حياته ببهجة حقيقية، وبفرح...(بحزن) وانا؟؟ عشت شبابي هراء... اي شباب عفن... وقذر...(على الممثل عند آداء هذا المقطع ان يعكس منتهى العذاب... والحزن، ويعكس احاسيس إنسان يحس بعمق انه اضاع كل شيء رغماً عنه)، زواجي انتهى بقتل. وانا إنسان وديع طيب ولم اخلق للقتل... سنوات من الشك. اي عذاب يا مسعود ان تعيش بالشك... وضمير يلسعك بسبب وبدون سبب... وحب انتهى بالفشل... وزواج ثان...

مسعود: ماذا؟

سعيد: جوع، اطفال، وثلاثون سنة في وظيفة منهكة في غرف رطبة اقفز مثل فأر مطارد من فوق هذا الملف الى ذاك، وامر ابن هذا البك وابن هذا الباشا. ثلاثون سنة مع عشرات الكيلومترات من الاضبارات والمراجعين... اي مئات

البؤساء والفئران من أمثالي تعفنوا في تلك الغرف.(وقفة) اما هذا الدكتور، وسيم وبوسعه ان يتزوج فتاة جميلة دكتورة، ويشتري بيتاً جميلاً، وسيارة... كنا جيل فئران...(يطلق فواقاً) آخ... مسعود... قلبي يؤلمني فواق وراء فواق... ومعدة خاوية إلا من غازات... قلبي يتمزق.(يعاوده العذاب) ثلاثون سنة في غرفة رطبة مثل الفأر اقرض الاوراق، وابحث عن اوليات مواضيع قديمة، ووجبات من الاكلات الميتة... جسد مرهق منذ الشباب، حرب عالمية ثانية، والناس تتكلم، مارشال رومل، وتشرشل، وهتلر، والهجمات العسكرية... والخبز نحصل عليه بالقتال... خبز شعير بلون الفحم... سكر بلون الطين، جوع حقيقي ينهش معدتنا... وزواج ثان، وسبعة اطفال.

مسعود: هل تزوجت مرة ثانية؟

سعيد: الم اقل لك انك لا تشاركني ذكرياتي.

مسعود: صدقني انني استمع اليك ...استمع.

سعيد: الاستماع شيء والمشاركة شيء اخر...(يطلق فواقاً... يلتفت الى الخلف، ويلقي نظرة الى النافذة)... النوافذ... النوافذ المضاءة...

مسعود: الله اعلم ماذا خلفها.

سعيد: افراح، واحزان، وخصام.

مسعود: ربما في هذه اللحظة هناك طفل يحبو فوق السجادة.

سعيد: صوت الحنفية، وطرطشة الماء، وآخر يبكي من غير سبب.

مسعود: يبكون من غير سبب.

سعيد: من الغيرة أحياناً.

مسعود: عالم... عالم افتقدته...(يتنهد) كنا نحلم بواحدة فقط... النوافذ... النوافذ...

سعيد: الان زوجة تتدفأ بزوجها من هواء الربيع البارد.

مسعود: اه... اين ابناؤك الآن؟

سعيد: (بصوت خافت، كمن يهذي) من الذي سماني سعيد... اوه... ابنائي... اين هم... حياة فأر... حياة فأر...(يسمع صوت الدكتور)

صوت الدكتور: لالا... هذا كثير... إذهب الى سريرك... ارجوك... تأكد ان هذا الهواء يؤذيك... ارجوك الى ردهتك فوراً...(تسمع موسيقى خفيفة)

سعيد: عشنا حياة الفئران... هذا الدكتور يستطيع ان يعالج اطفاله وزوجته مجاناً...

يستطيع ان يمنع زوجته من الانجاب... كان شراء الدواء بالنسبة لي كارثة... كارثة لمرتبي الصغير...(يختلط عنده العذاب والحزن مع ما يشبه الهذيان) هذا الدكتور يستطيع ان يسافر ويرى العالم. وانا لم ارى بغداد سوى مرة واحدة في حياتي جئتها بواجب رسمي. (يطلق بواقاً) فأر في الطفولة، فأر في الشباب، فأر في الوظيفة، وكتلة عظام في الشيخوخة. اتعرف يا مسعود متى تتمنى الشيخوخة كل شيء للشباب.

مسعود: متى؟

سعيد: عندما يلمس منهم الحنان... (وقفة) ان البعض ينظر الينا كأشياء زائدة، وتافهة... وهذا الدكتور الشاب يفحصني كل يوم... يربت على كتفي بحنان ابن حقيقي... (بحزن، وبصوت هامس) الحنان يأخذ طريقه الى القلب بسرعة، أساله دكتور، متى تنتهي هذه الغازات، والالم في قلبي، والوجع مثل ام اربع واربعين في جسمي... يبتسم، ويقوي معنوياتي، احبه عندما يبتسم، ويمسد لي بقايا شعري القطني... حنانه اكثر فائدة من الدواء الذي يكتبه لي...

مسعود: الا تعتقد يجب ان نذهب. الهواء بدأ يلسع.

سعيد: (يتنهد ويطلق انات خفيفة) هل تشم رائحة الربيع؟ الربيع عندنا ايام يا مسعود... الردهة كئيبة (مثل المحموم) كئيبة والروائح فيها خانقة؟ والوجوه حزينه...دعنا هنا في هذا الربيع الذي يشبه شباب الدكتور الذي يغمرنا بحنانه... صحته تشرق من خديه... بوسعه ان يأكل دجاجة كاملة من غير ان يطلق فواقاً واحداً... او تمتليء معدته بالغازات... انا دمرت معدتي بالخبز الاسود والشاي، والتمر، واحياناً تشريب احمر.

مسعود: (ملاطفا اياه) خبز اسود.

سعيد: (يستجيب لملاطفته) سكر اصفر بلون الطين.

مسعود: طابور طويل لاستلام الخبز.

سعيد: اوه... جوع، وطائرات... المارشال رومل يتقدم، والجنرال كايتل يتقهقر... والخبز يزداد سواداً... وجنود الكركة الهنود لا يتركون لنا حتى التمر العفن.

مسعود:(صمت) انهض لنذهب.

سعيد: هل نترك هذا الربيع الجميل ونذهب الى الردهة... الى رائحة الديتول، والبطانيات الرطبة، والوجوه الحزينة... والى قناني الأدوية، والأسبرتو... اجلس...

اجلس... (يلتفت الى الخلف يتنهد) هل كنت تشك ان فتاتنا الجميلة تحب الممرض الطويل الوسيم.

مسعود: ابداً.

سعيد: اسدلت ستارة النافذة هذا المساء بسرعة. لماذا؟

مسعود: لم ار الممرض ربما هو مجاز هذه الليلة.

سعيد: لولا الألم الذي راح يشتد علي لذهبت لرؤيتها، انها تلاطفنا.

مسعود: اعتقد يجب ان نذهب.

سعيد: (بصوت ذابل) الردهة في مثل هذا الوقت تعصر قلبي، ثم لا اعرف لماذا انا حزين هذا المساء...

مسعود: كل مساء نحزن... ماذا بقي لنا... (وقفة قصيرة) هل زارك احد من اولادك؟

سعيد: هيء هيءهيء (يضحك)... ذاكرتك ماتت يا مسعود، دفنت تحت رمل الشيخوخة.

مسعود: رمل الشيخوخة.

سعيد: منذ متى ونحن نلتقي كل مساء، وفي النهار مع بعض في الردهة.

مسعود: من اسبوعين او اكثر.

سعيد: هيءهيءهيء... الم اقل ان ذاكرتك دفنت تحت رمل الشيخوخة. بل ثلاثة اسابيع او اكثر... اتعرف كم مرة خلال هذه الفترة سردت لي قصة حياتك، وسردت انا قصة حياتي؟؟

مسعود:(بثقة) انا سردت لك قصة حياتي؟ مستحيل.

سعيد: (يشير الى رأس مسعود) ماتت البقية الباقية من الذاكرة هناك...آه... الشيخوخة ورؤوسنا المتعبة... اصبحت فارغة... ما زلت اتذكر يوم قلت انك في العشرين من عمرك تعينت في شركة النفط، وكنت مع عدد من العمال تعمل في تنظيف انابيب النفط الضخمة في قسم التكرير، من ترسبات الكاربون... وكنتم في المساء تخرجون من داخل الانابيب مثل قطة سوداء...

مسعود: (بتعجب) وما ان نخرج من الانابيب حتى نعطس لا إرادياًويتطاير السخام من أُنوفِنا مثل قطط سوداء...

سعيد: ولعابكم بلون الفحم.

مسعود: وصدر منخور بالكاربون... عيوننا تلمع مثل عيون القطط في الليل...

سعيد: دوار، ودوخان...

مسعود: والانكليزي –وليمسون– يهشنا مثل الخرفان...

سعيد: زاعقاً– الى الحمام... بي سوورعة، بي سورعة... هاري آب... هاري آب... تو ذي باث رووم... هاري.

مسعود: وهل كلمتك عن الوشم الجميل فوق ذراعه... كان وسيما مثل إمرأة شقراء... وهل اخبرتك انه كان شاذاً جنسياً.

سعيد: نعم كان يطارد الشباب الوسيمين.

مسعود:(مثل المبهور) وماذا بعد؟ آه، يبدو إنني لم اترك شيئاً إلا واخبرتك... ايه... ايام عشناها بتعب يوما بعد آخر.

سعيد: وكنتم تنتظرون القطار لأكثر من نصف ساعة للعودة الى البيت.

مسعود: نعم... وتهزنا العربات مثل هزات المهد ويبدأ الشخير...

سعيد: جثث... حياة فأر...(بحزن) لالالا... لا اصدق يا مسعود ان الناس الذين يأتون بعدنا يقبلون بحياة فأر... إنهم سيبحثون عن حياة اكثر سعادة...(يطلق فواقاً... بألم يشبه الهذيان) لا اظن ان جيل هذا الدكتور يعيش مثل الفأر... انا عشت حياة فأر... طفولة مثل الفأر... شباب كله حرمان... وخوف مثل حياة الفأر... عمل مستمر مثل الكلب للقمة الخبز فقط... والآن شيخوخة ووحدة، آه...

مسعود: اعتقد يجب ان نذهب.

سعيد: من الذي سماك مسعود؟

مسعود: لا أعرف لماذا؟

سعيد: مثلي... انت ايضاً فأر يا مسعود

مسعود: لنذهب يا سعيد...

سعيد: أريد أن أتمتع بهواء الربيع.

مسعود: (يجلس... ملاطفاً) سبعة اولاد ولا يزورك احد.

سعيد: ثلاثة انجبتهم من زوجها الاول... كلاب مسعورة... مع انهم كانوا يعيشون على الخبز الاسود والشاي، كانوا في نشاط زنابير هائجة ... ما ان كبروا وبدأوا بالعمل ماتت امهم...(يطلق فواقاً) تعرف... الاطفال... ما تنمو ريشهم يطيرون... وحتى الآن لا أعرف اين هم.

مسعود: وابناؤك.

سعيد: الاصغر مات... ذبل... مات لا اعرف كيف... حياة فأر...(يطلق فواقاً) الاكبر في

السجن(يمر يده فوق صدره عند القلب)

مسعود: هل قتل احداً.

سعيد: لا ابداً... كان يشتغل في السياسة... كان يدخل السجن ويخرج، يعود فيدخله... اخر مرة قبل سنة دخل السجن ولم اره.

مسعود: والآخران؟

سعيد: ملعون الذي يعرف اين هما... في الكويت... في البحرين... في القبر...

مسعود: (يربت على كتفه) أنت الآخر وحيد مثلي...

سعيد: زوجتك، تلك الحدباء... لكنها احسن من لاشيء... ايه يا مسعود سنوات طويلة وانا اعيش لوحدي، اكلم نفسي، وانظر الى الجدران، اهذي، ابكي احياناً لأخفف عن نفسي، لمجرد التسلية، اتذكر جميع اولئك الذين عشت معهم... لقد تدهور بصري ولم اعد اقرأ الجرائد... ثم ماذا في الجرائد... صاحب الجلالة المفدى الملك... فخامة رئيس الوزراء...اوه... لا شيء...

مسعود: هل تعيش في بيت لوحدك؟

سعيد: بيت؟ هيءهيءهيء؛ بيت... غرفة صغيرة... ثلاثة عوائل تعيش معي في نفس البيت... وكل أسرة تملك ثلاثة اطفال، يطنون مثل الزنابير... النساء يصرخن من غير سبب، او لسبب تافه، كم يبكين، ويرفعن ايديهن الى السماء ويدعين الله... في الليل يتهامسن مع ازواجهن المتعبين من المصروف، ويبدأ خصام سخيف، ويستيقظ الاطفال ويروحون في البكاء... كلنا نعيش حياة فأر... (صمت طويل... تسمع موسيقى خفيفة بين الحين والاخر) نعم حياة فأر.

مسعود: لنذهب يا سعيد، لم اعد اطيق هذا البرد،،، انهض... اريد ان اقضي الليل معك ... أتعرف... غداً أغادر المستشفى؟

سعيد: حقاً

مسعود: الطبيب قال يجب ان اغادر... انني فعلا احسن بكثير...

سعيد: (مازحاً) إذهب وإحتضن تلك الحدباء الطيبة.

مسعود: لم لا تزورنا عندما تخرج... أرجوك يا سعيد... تعال وزرنا في البيت... سأريك صورة الحدباء الطيبة وهي شابة... كانت جميلة...

سعيد:(بصوت ذابل) سأحاول... (يطلق فواقاً) عيناي يا مسعود تريدان الخروج من رأسي... حنجرتي تؤلمني... بطني مثل الطبل من الغازات... فمي جاف ومر...

صداع... صداع... الألم يتحرك في كل مكان من جسمي مثل ام اربع واربعين...
(بصوت اكثر ذبولاً كنت احب ان تبقى اسبوعاً اخر...(بحزن) في هذا العمر لا استطيع ان أتحدث، الا مع من أمثالك... ابدو مضجراً في هذا العمر... لكل الذين ليسو من عمري...ـ

مسعود: أعرف... لكن الدكتور الشاب الذي تحبه... اكد لي أنه يجب ان اغادر المستشفى.

سعيد: (يعاوده العذاب، والاحزان، والحمى... بصوت مثل الهمس) يا له من شاب... انه كتلة من الصحة والعافية... سيعيش حياة هانئة، سعيدة، أمثاله لن يعيشوا مثلنا... لا يا مسعود سيرفضون حياة الفئران... (يطلق فواقاً طويلاً) قلبي يؤلمني جداً... ارجوك... اذهب واجلب اقراصي... فوران، نار في معدتي... والم في قلبي.

مسعود: لنذهب يا عزيزي، أشتد البرد كثيراً وهو ليس من صالحك... إنهض... إنهض...

سعيد... لا ... لا... اريد ان ابقى لساعة اخرى... الردهة الان في مثل هذا الوقت حزينة... كئيبة... هواء الربيع يخفف كم ضيق صدري... ارجوك... اذهب واجلب الأقراص.

مسعود: لنذهب معاً.

سعيد: لن اجيء الآن الى الردهة ، هل ترفض طلبي؟ ألا تؤدي لي هذه الخدمة؟ (تسمع صفارة سيارة الاسعاف... بعد قليل حركة ارجل) الاقراص يا مسعود تحت وسادتي...

مسعود: المسافة طويلة لا استطيع ...

سعيد : ألا تؤدي هذه الخدمة البسيطة لي... طيب... اتركني لوحدي ... اذهب ... اذهب...

مسعود: المسافة الى الردهة تماماً... لا تنسى انا الآخر مريض.

سعيد: طيب... لا بأس... اتركني شكراً (يطلق فواقاً... يتنفس بصعوبة) اذهب اتركني.

مسعود: (بتألم) هل انت متأكد ان الاقراص تحت وسادتك؟ هل يجب ان نغضب من بعضنا في اخر يوم لي هنا؟ لا تغضب يا عزيزي... سأذهب... تحت وسادتك... ستخرج بعد ايام وتأتي لزيارتي لدينا ايام كثيرة نقضيها معاً... نعم... سنبقى اصدقاء الى ان نموت، سأذهب الان واجلب اقراصك... انني اودك كثيرا يا عزيزي، لكن لا تتاخر قليلاً، متأكد ان هذا الهواء البارد يؤذيك... الآن... حالاً... سأجلب لك اقراصك... (يخرج... صمت... تسمع موسيقى)

سعيد: (يطلق فواقاً... يتحسس قلبه... يهمس (قلبي يؤلمني كثيراً، حنجرتي، مفاصلي.

آخ... اي وجع حاد بدأ في قلبي) مسعود هل ذهبت لتجلب اقراصي... (يغمغم) اخرج ... لالا... آخ... الم في كل مكان ... فأر... نعم حياة فأر... (بصوت ذابل جداً) يكفي... لقد تعبت... لا أستطيع... (يموت... تنحني رقبته فوق كتفه و يبدو وكأنه نائم... تسمع صفارة سيارة الاسعاف... بعد قليل يدخل الرجل النحيف.)

الرجل النحيف: لا أصدق ابداً...لأول مرة اراك لوحدك... سيارة الإسعاف جلبت رجلاً ميتاً (وقفة) الممرض كان على صواب عندما قال ان الشاب المطعون الذي جلبته السيارة قبل مدة انه لن يعيش... طبعاً مستحيل... مدية... تصور المدية وهي تنغرس في اللحم...آه... مستحيل... هل أخبرتك ان المرأة التي احرقت نفسها ماتت. سيارة الاسعاف جلبت قبل قليل رجلاً ميتا... من السجن، في السجن بدأ اضراب، هكذا يقولون... من يدري... (وقفة) هل ذهب صديقك لينام، هل ستبقى هنا ؟ الجو بارد... اول مساء لم تذهب الى جهة النافذة يا سيد سعيد ... لم لا تجاوبني... الجو بارد جداً...(يتأمله) لكن يجب ان تتغطى...

ستار

نشرت في الاديب المعاصر العدد١٨ تموز–١٩٧٦

جاءَت زهرة الربيع

غرفة عارية تماماً الا من نافذة مستطيلة كبيرة في الجهة اليمنى، وباب لا يرى في الجهة اليسرى... ممثل ومخرج يتدربان على نص مسرحي التدريب الاخير... او ما يسمى –جنرال بروف– المخرج رغم وسامته، والرقة البادية عليه، جاف احياناً، متوتر، عنيف سريع الغضب والحركة... اضاف الى دوره كمخرج للعمل انه يمثل دور مجنونين معاً، يلبس عند اداء دور المجنون الاول قناعاً يعبر عن الغضب، والغطرسة، والبلادة، والقناع الآخر لوجه شاب متناسق القسمات، وسيم، حساس جداً. وحزين... وهناك عدة اقنعة.

المخرج: (يؤرجح القناع بيده وهو يعطي توجيهات الى الممثل الذي يقوم بأداء دور الانسان الطيب الرقيق والذي اقحم مع المجانين علماً انه في كامل وعيه) اسمع هذا تمريننا الاخير... جيد... جداً، الان انظر إليّ...قف هناك... راقبني بإمعان... لالالا... لا تقلدني... دائماً حاول ان تبدع... اريد كل شيء من جسدك... لا تنسى جسدك فيه الف لغة... اريد منك ان تستعملها كلها... حسب التعليمات والتمارين السابقة... الآن ارخ جسدك قليلاً... اريد منك ان تبذل كل ما لديك من طاقة لتكشف عن الامك... عذاباتك... لالالا... لا اريد مبالغة بالانفعال... اريد تجسيداً جيداً للظلم الذي لحق بك... الآن... تأمل المجنون الذي يريد ان يؤذيك... انظر اليه... بتحدي... جيد... مزيداً من التحدي... والتردد ايضاً... حالة نفسية مزدوجة... رائع (الممثل يؤدي جميع ارشادات المخرج بأندماج ، وحرارة وحماس، وبحركات بانتومايمية) الآن يحاول ان يثب عليك... ابدأ(يضع المخرج القناع ممثلا دور المجنون الاول...)

الممثل: (يتكلم بمنطق محاولا إقناع المجنون وقد تهور) يا صديقي، يا عزيزي، انا لا افهم كل هذا العداء ، والشراسة معي (بإستجداء) صدقني انني انسان طيب، طيب جداً ارغمت على المجيء الى هنا... حاول ان تفهم معنى الارغام...(بحيرة) وأنت كلما تهيجت لأسباب نفسية خاصة بك هجمت عليّ مثل النمر الجائع...وانت، لماذا تصر بهذه اللجاجة ان تعرف سبب انطوائي ، وحزني...

حسنا... وهل يجب ان اخبرك عن جميع مشاكلي، (وقفة) وهل حقاً ستتركني اذا قلت لك ان احزاني هي بسبب حساسيتي الشديدة... بسبب رهافة مشاعري، بسبب الامي، والظلم الذي لحق بي...(وقفة) انا ابن رجل ثري جداً، جداً... لكن سافل جداً... وغبي جدا استغله نغل حقيقي، ماكر، ابليس، واستولى على امواله...(كمن يشرح شيئاً معقداً) تسلل هذا الشيطان الى بيتنا مثل الافعى، وفي سنتين سيطر على قلب اختى الجميلة، وعلى عقل والدي، الذكي جداً في دنيا التجارة ، والغبي جداً في معرفة دواخل البشر... لكنه اصطدم بي انا... لانني احتقرته... واحتقرت افكاره، وانتهازيته، وعريته على حقيقته امام الاسرة... لكن اختي كانت قد اصيبت بلوثة الحب، ووالدي اقتنع بنزاهة، وشرف، واستقامة هذا الشيطان... دبر لي هذا الشيطان انواع المكائد، ونصب لي الفخاخ، واقنع ابي العنيد وكذلك اختي، ورشى الاخرين وادخلني الى هنا كمجنون... انا انسان في كامل وعيي... ومثقف لحد ما... (وقفة) واموال والدي كلها الان في قبضة هذا الشيطان، وكل اسرتي العوبة بيده.(حرارة) ثق انا انسان وديع جداً، ومسالم جداً ...

المخرج: (يزيح القناع) جيد جداً... كنت صادقاً في مشاعرك... رائع... الان يواجهك هو بعنف، وتواجهه انت الاخر، رغم رقتك بعنف اكثر، وشيء قليل من الخوف احيانا، لا تنسى ابداً ان تفقد وعيك وهو المطلوب، لانك مستهدف لتصبح مجنونا حقيقيا.(إبدأ)

(يلبسان القناع)

الممثل: لا لا (يتقدم المجنون من الممثل) لا تقترب أكثر... لا ترفع يديك... ها أنت تعود لضربي... إسمع اعرف انك عنيد، ولكني انا الاخر عنيد... انظر الى جسدي ...انظر صحيح انني انسان ضعيف البنية لكنني عندما اهان، او استفز، صدقني اقلب المستشفى، بل الدنيا كلها ... حذار من يأس الضعيف... هل سمعت بيت الشعر الذي يقول: لا تحتقر كيد الضعيف فلربما تموت الأفاعي من سموم العقارب (صمت) حذارِ من مشاعر واحاسيس انسان مضطهد...(بطيبة يحاول التأثير عليه) انت لو خففت من هياجك استطيع ان افيدك... اسمع... هل هناك من يشحنك ضدي في المستشفى؟ من هو؟ لماذا؟ (المجنون يناور، ويتهيأ

للهجوم عليه، ويأخذ شكل حيوان مفترس) قلت اهدأ... اهدأ... ارجوك.

المجنون: (بغطرسة) لكنك صفعتني... اهنتني... ساعدت صديقك الفزاعة المريض ليصفعني هو الاخر بقوة.(وقفة) انني ما زلت احس بصفعتك ترن على وجهي...(ساخراً) انت بالكاد تزن عدة كيلوغرامات... كيف تجرؤ ان تصفع ثوراً هائجاً مثلي... (يصفع الممثل بقوة) سأنهيك هذا اليوم في هذه الغرفة...(يخور مثل الثور) نعم هنا في هذه الغرفة الخالية سأنهيك.

الممثل:(بمنتهى الطيبة) انا لم اصفعك... انا اكره العنف... لم اتعارك طوال حياتي... (مؤكداً) حتى في صغري كنت اتصور ان الحيوانات فقط تتعارك... (وقفة) اسمع، هل تعرف كيف يعيش ابناء الاثرياء؟ يعيشون مثل العذارى... يكونون جبناء عادة (المجنون وهو يريد ان يهجم عليه، ويطلق بين الحين والاخر اصواتاً مثل خوار الثور، وزئير الاسد) لا لا لا... هذه الاصوات لا تخيفني ...انني اكلمك عن تربيتي البرجوازية... اتعرف لماذا انا هنا... اقحمت هنا ظلماً لانني تمردت على تربيتي(باعتداد) انا الان إنسان اخر (بصوت عالٍ) لا تقترب مني... انت تريد ان اطيعك... لماذا؟ من انت... انا تمردت على احقر شيطان داخل بيتي... ظالم، وحشي... صحيح ادخلني هنا كمجنون، لكنني وهذه حقيقة اكره الطاعة العمياء... (يقترب المجنون منه، يصفع المجنون بقوة) خذ... وهذه صفعة اخرى... (وقفة) انا اكره الاوامر. انا لست انساناً سهلاً... (يدور المجنون حول الممثل مثل حيوان مفترس يناور فريسته لينقض عليه) قف مكانك... لا تعتقد ابداً اني اخاف منك. (يلقي للممثل صفعة، غير ان الممثل يتفاداها بحركة سريعة) قلت... حذار... حذار... ان تنتهك مشاعري... وكرامتي... انت وثلاثة من مجموعتك تنتهكون ارق جزء من نفسي، ومن نفس صديقي، لا، لن اصبح مجنوناً...(يتقدم من المجنون بجرأة) الان اهدأ...إهدأ... انظر عندما تهدأ تكون إنساناً لطيفاً...

المجنون: (ببلادة) انت مسكت يدي من الخلف، وصديقك ذاك الذابل انهال ضرباً على بطني وظهري، وركل اليتي... نعم وركلني في بطني. (وقفة) وبقبضته انهال فوق رأسي، واسفل عنقي... (وقفة) ذاك الضعيف الذابل يضربني انا الثور الهائج،لالا... لا احد يستطيع في المستشفى ان يضربني انا... انا الملقب بالثور...(يصفع الممثل) انت تعرف مذاق صفعاتي... اليس كذلك؟

الممثل: تعقل وكف عن صفعي...(بتهديد) ونصيحة لله ان تبتعد عن صديقي. وعني... والا...

المجنون١: (مقاطعاً) والا... هاهاها والا... صديقك المريض المجنون الذابل يقتلني هاهاها... ذاك الذي يصبح مرة شاعراً، ومرة ملكاً، ومرة حكيماً، ومرة مهرجاً...هاهاها... صديقك الطيب.

الممثل: انه اطيب انسان عرفته... اطيب مجنون عرفته... انبل من عرفت كبشر...(بصوت رقيق) اسمع وتعقل... انا عندي امل كبير بالخروج ثانية من هذا المكان الى فسحة الحياة، والآمال، اما هو فيأسه مثل يأسك مطلق...(بحيرة وعذاب، كما لو يقول لنفسه وهل هذا المجنون يفهمني)آه... هل تعرف ماذا يفعل اليأس المطلق؟ صديقي ذاك النحيل المريض المجنون انسان عظيم، عقل كبير، حنان واسع، فكر مضيء،

المجنون: (كما لو ان هذه الكلمات استفزته... ببلادة وببغائية) لكنه صفعني، وانت الاخر صفعتني، وضربتني، وانت بدلاً من ان تتداخل لتفصلنا عن بعض اهنتني، وسمحت لصديقك ان يضربني (وقفة) والان انا اريد ان انتقم منك...

الممثل: هذا ليس صحيح... انت كعادتك عندما تتهيج تهجم عليه... وانا اردت ان ابعدك عنه فقط...

المجنون: لماذا تبعدني عنه.

الممثل: لو فقط تعرف اي إنسان عظيم هو.

المجنون: عظيم... مجرد إنسان مريض سأقضي عليه ذات يوم.

الممثل: لا تستطيع.

المجنون: بل أستطيع كما أستطيع أن أقضي عليك (يصفع الممثل بقوة... ويرد الممثل الصفعة، يتشابكان ويتضاربان بعنف، يبتعد الممثل المجنون عنه– ويتراجع الى الخلف... كلاهما يلهثان) انا كنت اكبر–شقي في المدينة– كان الجميع يخافون من ظلي (يطلق ضحكة ساخرة) وكومة عظام مثل صديقك يركلني عل آليتي... هنا ويصفعني... يصفعني...(يصرخ) وهل الثور الهائج يركل؟ (يهجم عليه مرة اخوى) وانت... (بنفس الببغاوية يردد) تمسك يدي من الخلف ليضربني كومة العظام... أنا... (يزفر بحرارة) أين تفر من يدي في هذه الغرفة... سأنهيك هذا اليوم.

الممثل: (وهو يبتعد عنه ويراقبه بحذر) لا تقبض وجهك... ولا تتنمر علي... لا تريني

عضلاتك...(وقفة) ثق لن اخاف منك، ولن اغفر لك تهورك...(يواجهه بشجاعة) ثم انك تبالغ... انت انسان جبان، ضعيف، بل ضعيف جداً...

المجنون: انا!؟ انا ضعيف؟ (مؤكداً) انا غضب الله... انا مخيف... انا وحش...

الممثل: بل انت ضعيف جداً.

المجنون: انا؟ انا بركان سأحرقك.

الممثل: انت انسان مسكين.

المجنون: (يزداد غضباً) انا مصيبة كبيرة... انا بلاءٌ اسود.

الممثل... بالعكس انت مسكين تستحق العطف، والحنان.

المجنون: انا ثور هائج (يذهب المجنون الى الجدار ومن فرط غضبه يضرب الجدار بقبضته بهستيرية، ثم مثل الغوريلا على صدره) انا ثور هائج.

الممثل: (ساخراً) يائس... اتعرف لماذا انت يائس؟

المجنون: (ساخراً) يائس؟ انا... انا غضب اسود... أأنا استحق العطف؟

الممثل: نعم انت.

المجنون: (صمت) العطف لماذا؟

الممثل: لانك ضعيف... نعم ضعيف.

المجنون: (ينتابه غضب هستيري، ينط من مكانه مثل حيوان الكنغر ويدور حول الممثل، وفجاة يمسكه من كتفه ويهزه هزات قوية، ثم برفق يرفعه من الارض ويصرخ في وجهه) هل انا ضعيف... انظر انت الان مجرد ريشة بين ذراعي... هل انا ضعيف ، ام ثور حقيقي.

الممثل: (من غير ان يفقد تماسكه ثور قوي... نعم... انت فعلا ثور قوي، لكنك ضعيف ، وهش من الداخل...)

المجنون: (يطرحه ارضاً) كل هذه القوة وانا ضعيف... بوسعي ان انهشك الان مثل اسد جائع.

الممثل: (ينهض ويواجه بشجاعة) مع هذا: انت انسان تستحق العطف.

المجنون: (صارخاً) انت تلعب بالنار... هل تريدنني ان املص لك اذنك ؟ ايهما تريد هذه ام هذه؟

الممثل: (لا يتوقف عن تحديه) كل هذه الصرخات والتهديدات لا يمكن ان تجعلني ارضخ لك.

المجنون: حتى لو ملّصت لك اذنك.

الممثل:(بصوت حار) صدقني انت انسان ضعيف جدا في داخلك...وقد تكون طيباً جداً.

المجنون: لا تتملقني.

الممثل: بل اتحداك.

المجنون: تتحداني؟ كيف؟ كيف؟

الممثل: (يصرخ عليه بقوة) ابتعد عني... قلت ابتعد عني (يصفعه بكل مالديه من القوة) إبتعد... إبتعد... اكثر(يطيعه المجنون بخوف ويتراجع الى الخلف (بطيبة) انت انسان تستحق المحبة، العطف لانك لطيف، وطيب، اذهب الى الجدار...هناك... استند الى الجدار، آه... انظر كم انت وديع الان... هناك... (وقفة بحنان) عندما تغضب تضرب الاخرين، وبالاخص تضربني انا ، وتضرب صديقي المريض، ويدخلوننا كعقاب الى هذه الغرفة العارية... انت بحاجة الى هدوء اعصاب)

المجنون: (بصوت حزين وبنفس الطريقة الببغاوية) صديقك كومة العظام ضربني وانت ساعدته.

الممثل: إهدأ... ارجوك... إهدأ... وانس... تعلم كيف تنسى مسائل لا قيمة لها.

المجنون: (يشير الى رأسه بحركة بليدة) لكن رأسي لا ينسى... لذا سأنتقم منك ومنه...(بصوت خافت) انا ثور... صديقك ضربني.

الممثل: اهدأ ارجوك...

المجنون: وهل يهدأ المجنون...(فجأةً يطلق زعيقاً مثل زعيق الهنود الحمر، ويهجم على الممثل...) انا ثور هائج... هنا لا يوجد هدوء... انت تضربني وكومة العظام صديقك يضربني... (يصفع صدره مثل الغوريلا) انا اصفع نفسي... انظر...(يصفع وجهه) هكذا انا وحدي فقط استطيع ان اصفع نفسي... اما كومة العظام، وانت لالالا، قبل قليل كنت ريشة بين ذراعي... عصفور صغير.

الممثل: لكنني لن اخاف منك ابداً.

المجنون: (يهجم عليه ويرفعه بين ذراعيه) عصفور صغير...

الممثل: اتركني ارجوك.

المجنون: انا هنا لأحطمك.

الممثل: (يصرخ في وجهه) قلت انزلني... تراجع الى الخلف... بسرعة، اذهب هناك الى

الجدار... (يطيعه المجنون) ارفع يديك الى الاعلى وابق هناك. ولا تنزلهما الا عندما اطلب منك انا... (وقفة) انت تسألني لماذا انا انطوائي، او اكلم صديقي، اسمع، هل هناك من يشحنك ضدي، لماذا وكيف... (المجنون يريد ان ينزل يده... يصرخ عليه الممثل) ابق كما انت، مكانك... ثابت(يتقدم الممثل من مقدمة المسرح ويتكلم بهمس) انظر انه يخاف منك... لا... لا تجبن ابداً...ابداً... الجبن وحده يجعلك ان تختار ما لا ترتضيه من الآلام ... وهذا المجنون الطيب لو ارخيت له الحبل ، خلق لك مشاكل مخيفة ... تحداه... تحداه...(صمت طويل)

المجنون: (برجاء) لو سمحت لي ان انزل يدي، اطيعك واجلس بهدوء.

الممثل: حسنا اجلس.

المجنون: (بصوت خافت) كلمني كما تفعل احيانا... عن اختك، اختك الجميلة التي سرقها ذاك الشيطان الذي سيطر على اموال والدك؟(بغضب) كان يجب ان تطعنه بل كان يجب ان تخبرني انا لأنتقم لك منه، (وقفة) كنت اجهز عليه بضربة واحدة من رأسي، ثم احز له رقبته بطريقة سريعة...(وقفة) اتعرف لماذا العب معكم مثل الكرة؟

الممثل: لماذا؟

المجنون: (بسخرية) لأنك حساس خجول، انطوائي، ومثقف كما تقول مثل صديقك كومة عظام، ماذا فعل بأختك؟

الممثل: تزوجها رغم رفضي.

المجنون: إبن كلب ... كيف.

الممثل: أثر على افكارها ، مشاعرها، احاسيسها ، عالم غريب.

المجنون: (ضاحكاً) احاسيسها، هاهاها... وتآمرت هي الاخرى معه وجاءا بك الى هنا...

الممثل: نعم هي الاخرى شاركت في جلبي الى هنا.

المجنون: تماماً مثل اختي... مثل اختي.

الممثل: اختك؟

المجنون: نعم...(صمت) للمناسبة، اين نحن الان.

الممثل: في مكان ما من هذا العالم.

المجنون: اين مثلاً؟

الممثل: لا اعرف.

المجنون: هل نحن فوق قمة جبل

الممثل: ربما... (لنفسه) لن انسى هذا المكان ابداً... لقد ورم هذا المكان اعماق اعماقي... سيبقى في ذاكرتي الى الابد.

المجنون: شيء جميل.

الممثل: ماهو؟

المجنون: قلت لي ذات مرة وكنا هنا بعد عراك عنيف...

الممثل: ماذا قلت؟

المجنون: ان اختك فتاة قوية وعنيدة.

الممثل: كانت.

المجنون: لكن اختي لم تكن قوية ابداً...تقول كانت... هل ماتت؟

الممثل: لا لم تمت...غير انها لم تعد تلك الفتاة القوية...انها الان مثل النعامة، تأكل دون تمييز.

المجنون: (بإستفسار مضحك) وهل النعامة تأكل دون تمييز...(يطلق ضحكة حادة) اختي انتهت من الأكل... هي الاخر كانت تأكل بدون تمييز.

الممثل: أصبحت غبية.

المجنون: لم تعد غبية، كانت غبية

الممثل: النعامة حيوان بائس...

المجنون: أنت تقول لي احيانا بأنني حيوان بائس، هل انا نعامة؟

الممثل: لالا... انت انسان بائس... والنعامة حيوان مسكين.

المجنون: مسكين... انا مسكين... لا اعرف كيف اميز...

الممثل: عندما يفقد الانسان التمييز، ينتهي (وقفة... صمت طويل... تسمع اصوات مختلطة، غمغمات، همسات، اصوات ارتطام مواعين معدنية، وملاعق... يذهب المجنون الى النافذة، ويقلد حركات المجانين خارج الغرفة. وهذا يأكل، وذاك يحمل ماعون، وذاك يركض ويضحك)

المجنون: بدأوا يأكلون مثل النعامة... الحساء... الخبز... كلنا نعامة... طعم البصل لذيذ... الرز... تعال شم رائحة البصل... من هنا اشم رائحة العدس... شيء مثير... لعابي بدا يسيل... العدس... البصل ... العدس.

الممثل: زائداً الخبز الحار.

المجنون: لذيذ، هل يطبخون العدس في البيت؟

الممثل: لم لا.

المجنون: تقول ان اختك كانت تأكل دون تمييزمثل النعامة...

الممثل: كانت تميز، اما الان لا... انها الان نعامة حقيقية.

المجنون: انا اختي لم تعد نعامة...(وقفة، بهمس) نفسي في قطعة لحم مع العدس والبصل، الثور يجب ان يطعم بشكل جيد.

الممثل: اتنازل عن حصتي من اللحم لك...

المجنون: اشكرك... انظر بخار العدس.

الممثل: ماذا عن البخار...

المجنون: بوسعي ان الطع البخار...

الممثل: كيف؟

المجنون: هكذا...(يلطع شيئاً وهمياً بلذة) تعال وانظر الى ذاك الاحمق ماذا يفعل هاهاها... يغسل يديه بالعدس الحار...هاهاها... نعامة حقيقية... وذاك يلعب الكرة بالبصل... يقول كان اروع قلب هجوم في فريق مدينته...(يلتفت الى الممثل) تعال انظر...(صمت) انت ابن كلب حقيقي.

الممثل: لماذا انا ابن كلب حقيقي؟

المجنون: لانك سبب منعي من تناول وجبة العدس...

الممثل: انا؟

المجنون: طبعاً انت! لماذا انت هنا؟ (بنفس الببغائية) انا ضربت صديقك كومة العظام، لماذا تدخلت انت، تدخلت ليصفعني، ولأقيم انا القيامة عليك ، وندخل هذه الغرفة... واحرم من الاكل مثل النعامة.

الممثل: ما ذنبي انت تفقد اعصابك بسرعة... انظر الى بقية المجانين... مرحين دائماً، هذا يضحك، وذاك يغني، وذاك يبكي، انت، دائماً هائج، هائج.

المجنون: نعم... هائج مثل الثور... وهل الثور يصفع من قبل كومة العظام، صديقك...(يقترب من الممثل ويصفعه) هكذا صفعني(يريد ان يعيد الصفعة، غير ان الممثل يتفاداه) كومة عظام يصفعني انا...

الممثل: هل ستبدأ نفس اللعبة؟ لا تصفع... اهدأ كما كنت قبل قليل.(يستعمل نفس طريقته التهديدية... يصفعه...) لا تتحرك. ولا ترفع يدك مرة اخرى... والا...

المجنون: وإلا ماذا؟

الممثل: اصفعك بقوة اكبر.

المجنون: كيف؟

الممثل: انت تعرف كيف... اهدأ.

المجنون: (بإستجداء) اصفعني مرة اخرى... ارجوك اصفعني... ارتاح عندما تصفعني...

الممثل: إخرس... كفى.

المجنون: ارجوك اصفعني مرة اخرى، بقوة.

الممثل: (ملاطفاً... يصفعه صفعة خفيفة) ارجوك... ارجوك...

المجنون: بقوة... بقوة.

الممثل: لا...لا...

المجنون: صفعة قوية واحدة...(بغضب) وإلا صفعتك انا.

الممثل: (كمن لا حول له... يصفعه بقوة) الآن انتهى.

المجنون: (ينظر الى الممثل... يتقبض وجهه) لقد فجرت فيّ غضب الدنيا كلها...

الممثل: غضب... لا... انت الان هاديء جداً... فكر في شيء أخر.

المجنون: (ينتابه نفس إنفعاله الهيستيري) انا عنيف، انا مخيف...

الممثل: أعرف... أعرف... لكنك إنسان طيب ايضاً...(يصفعه بقوة) وهذه هي الطريقة الوحيدة لتهدئتك... أليس كذلك؟

المجنون: تماماً... تماماً... هل صفعت الشيطان الذي سيطر على اختك وابيك، واموالك؟

الممثل: لن يفلت مني... لا... ولن يكون بوسعه أبداً ان يجعل مني مجنوناً هنا... سأظل احتفظ بكامل قواي العقلية... سأخرج وأنتقم منه... وسأفضح كل اولئك الذين شاركوه في إدخالي هنا كمجنون... وسأحتقر الى الأبد طبقتي البرجوازية، ومؤيديها...

المجنون: أختك... أختك...

الممثل: ماذا عنها؟

المجنون: (يحضن الممثل ويحاول ان يخنقه) اخنقها... واخنق زوجها هكذا اكتم انفاسها، وانفاسه... مثلما فعلت مع اختي... وعشيقها الذي اغتصبها.

الممثل: اغتصبها!

المجنون: كانت في العشرين... غرر بها... وإغتصبها... عندما وجدته معها في احدى غرف بيتنا في الفراش... نهض، وتقدم مني وبدلاً من ان يخاف مني، او يهرب، صفعني كما صفعتني الآن، ظل يصفعني مرات عديدة لكنني بسرعة خنقته... انت الآخر اكتم له انفاسه... ثم اهرب كما هربت قبل مدة... اهرب واقتله ايها الكلب... واذبح تلك النعجة اختك كما ذبحت انا اختي...

الممثل: (يبتعد عنه) لالا... انا لن اذبحها... لكنني اعرف كيف أنتقم من زوجها لا بالقتل، وإنما بطرقي الخاصة.

المجنون: انت جبان.

الممثل: بل شجاع جداً عند الضرورة... في مثل هذه المسائل انا لا اؤمن بالعنف.

المجنون: (تنتابه هيستيرية) مزقه... قطعه... لقد افقدني العار وكلام الناس عقلي... امضغه مثل قطعة خبز... (يصر على اسنانه بعصبية كما يفعل الجمل المتهيج) انظر... هكذا... امضغه...

الممثل: سأفعل... سأفعل...

المجنون: (يطرح الممثل ارضاً) اجهز عليه كما اجهزت انا على الاثنين... لكن ضربني احدهم بشيء ثقيل فوق رأسي...(وقفة) انهض... لالا... لا تنهض (ينحني عليه يريد ان يخنقه)

الممثل: النجدة... النجدة... (بصوت عال) النجدة... النجدة... (يطلق إستغاثات متتالية، وصرخات... يدخل مسؤول القاعة، رجل قصير ممتليء له وجه ماكر، ملابسه بيضاء نظيفة)

المسؤول: (عندما يراه المجنون، يرتعش من الخوف، ويهرب الى زاوية الغرفة ويتكور في مكانه مثل القنفذ... الى الممثل) حتى في هذه الغرفة العارية تحارش هذا المجنون البائس، وتسمعه اشنع الكلمات وتؤججه، وتهيجه، ثم تقول لنا انك لست مجنوناً... وانك جئت الى هنا ظلماً، وانت مثقف، ووو... هذه ثالث مرة اضطر الى حجزك هنا خلال اقل من اسبوعين... ايها الشاب المثالي كيف اذن يكون الجنون... كيف؟ انظر الى وجهك... عشرات الكدمات يا مثقف... يا من هجر الجاه والنعيم وجاء الى هنا ليعيش مع المجانين... لم لا تستعمل بقايا مخك... الا

تأسف على شبابك... على حياتك التي تقضيها هنا مع المجانين...(وقفة) تعقل واقبل جميع شروط زوج اختك، ووالدك... لماذا تهدد والدك؟ وتهدد زوج اختك؟ لماذا ترفس حياة رغيدة، وجميلة... صديقات جميلات، سيارة فارهة، انسى مثالياتك المضحكة، من ثقافة، افكار إنسانية، حياة متنورة، اخلاق ساقطة، مستقبل اجمل وافضل... ما دخلك وهذا المستقبل... مجانين.

الممثل: لا اسمح لك ان تهينني...

المسؤول: اهينك؟ هاهاها... انت مجنون... مجنون... كيف يكون المجنون؟ تركل جميع انواع النعم وتأتي الى هنا لأعتبارات مضحكة...

الممثل: أنا حر في حياتي... ثم انا لست انتهازياً ولا مرتشياً، وظالماً مثلك.

المسؤول: مع الأسف... مخ يابس... انت حر... احرق شبابك هنا مع المجانين وابق متبجحاً انك عاقل، ومثقف.

الممثل: حياتي تعنيني... انا وحدي...

المسؤول: لكنني لن اقبل بالفوضى هنا...

الممثل: انت الذي تكون الفوضى... أعرف...

المسؤول: لا تثرثر...(بسخرية) صديقك المجنون الحقيقي كومة العظام الذي اما يصمت لأيام، أو يهذي انه هذا العظيم، وذاك المفكر، وذاك الشاعر ارتكب حماقة اخرى بعد ان تعارك (يؤشر الى المجنون) مع هذا الثور الهائج...سأدخله هنا لتسهرا معاً... أبقيا معاً... واهذيا معاً ايها المثقفان...(الى المجنون) وانت يا ثور اخرج... (يهرول المجنون خارجاً) يخرج... (صمت)... يبقى الممثل لوحده... موسيقى حزينة... بعد قليل يدخل المجنون؟

المجنون٢: (شاب رقيق، نحيف، شاحب، حزين) آه... يا صديقي إننا نلتقي رغماً عنا...(وقفة) انظر كم صغيرة كرتنا الارضية... صغيرة جداً، مثل –دعبل– (يتأمل وجه الممثل بحنان) آه... لقد ضربك ذاك الثور... انه ثور حقيقي عندما يتهيج.(وقفة) يده ثقيلة مثل الرصاص... (وقفة) هذا الصباح عندما ضربني على رأسي، آه... افقدني الرؤية... انا هزيل، مريض، كوم عظام... ما زلت حتى هذه اللحظة اعاني من دوار في رأسي... من ظلام في النظر...(وقفة) اتعرف انه يخاف من نظراتي... انه يلتذ عندما يضربني...(وقفة... بسخرية) يقول انني اشبه

عشيق اخته تماماً...(ساخراً من نفسه) تصورني انا الهزيل عشيقاً...(بكبرياء) لكنه مهما تمادى في ضربي لن اتأوه ابداً... عندما اصمد امام ضرباته يزداد خوفاً وغضباً...(وقفة) يخاف من صمتي... ذات مرة اراد ان يخنقني، لكنني افزعته بصمتي...(بصوت هامس) لماذا اخاف منه...ماذا بقي لي بعد ان فقدت كل احلامي...(وقفة) لم اعد امتلك شيئاً من حطام الدنيا...(وقفة) انا الان عار مثل الدودة...ما بك؟ لماذا لا تتكلم...إنني جداً حزين هذا اليوم...(وقفة)وانت يا عزيزي.

الممثل: إنني اعيش أياماً شديدة البؤس.

المجنون٢: صديقتك انقطعت عن زيارتك منذ عشرة أيام.

الممثل: أه... انت دائما تعد الايام... بينما انا انسى الايام... يا لك من إنسان طيب.

المجنون: صديقتك تثير فيّ ذكريات حزينة...(يتأوه) إنني عندما اراها تهدأ هلوستي الذهنية (وقفة، بصوت غاية في الحزن) لم ار فتاة حالة الهيئة مثلها... انها أحياناً شاردة الذهن كما لو ان شيئاً مؤلماً يلسع ذهنها... انها اكثر شروداً مني...(وقفة) الا تعرف لماذا إنقطعت عن زيارتك؟

الممثل: لا أعرف... ربما الشيطان، زوج اختي منعها، او هددها... من يدري... عذرها معها.

المجنون٢: آه... زوج اختك... ربما... (وقفة) هل حاولت ان تفهم صديقتك بشكل عميق؟

الممثل: تقريباً... إنها تحب الصمت.

المجنون٢: الصمت شيء رائع... إنها عكس اختك.

الممثل: أختي!

المجنون٢: اوه... انها يقظة وذكية... لا افهم كيف خدعها ذاك الشيطان.

الممثل: كنت إذن تراقب أختي، وصديقتي بدقة.

المجنون٢: جنون شاعر... نعم شاعر... الشعر لوثة... (وقفة) اختك... صديقتك... (يطلق آهة حارة) رأسي..... أي ألم قاتل في رأسي... الثور ضربني بقوة وخلخل مخي.(وقفة... بحزن شديد) نوبات فقدان الذاكرة بدأت في مخي...(وقفة) اختك! لا، ليست إمرأة سهلة القيادة...

الممثل: أعرف...

المجنون٢: إنها تمتلك قوة حس رهيبة، استمعت الى كل كلمة قالتها في زيارتها

الاخيرة... بل استمع اليها في كل زياراتها... انها تمتلك حس واقعي مثلك تماماً...(وقفة) لكنها مزاجية وهيستيرية... (وقفة) اختك سوف تقتل زوجها الماكر ذات يوم. هذا اكيد...

الممثل: لماذا؟ وكيف؟

المجنون٢: ان زوجها لا يرتاح لها... ابداً... وهي، بدأت تشعر انه يريد ان ينهب كل شيء ويهجر... (وقفة) حدس شاعر مجنون...هاهاهاها...

الممثل: لا افهم... افهم شيئاً واحداً، ان والدي جلب افعى متجمدة الى بيتنا ووضعها في مكان دافيء لتستعيد نشاطها وتلسعنا جميعاً.

المجنون٢: ذاك الشيطان بسبب جشعه الشديد لا يعرف كيف يراقب نفسه وارادته.

الممثل: لا افهمك.

المجنون٢: الجشع يفقد الانسان السيطرة على الذات... انه شيء رهيب... يذيب الإرادة أحياناً...(وقفة) قلت لي انك تقرأ الشعر كثيراً.

الممثل: كثيراً.

المجنون٢: هل سمعت بأبيات الشاعر الكوردي احمد خاني؟ (بألقاء جميل)

لا تحب المال يا من ملكت اسماً طيباً
ان حبه يشوه اسم الانسان
امانا لا تكن للمال حارسا
فما جمعه إلا عبئاً واذى...

(وقفة) سترى... أن ذلك الماكر يموت ذات يوم بيد اختك...(صمت...) كم يعجبني ان ارى صديقتك...

الممثل: لماذا؟

المجنون٢: الذي لا يحب النساء أحمق... أليس كذلك؟ ستكون سعيداً مع تلك الفاتنة...(وقفة) وستنسى كل شيء وتنساني...

الممثل: يستحيل ان انسى تجربتي المريرة هنا، او انساك ذات يوم.

المجنون٢: السعادة تجعل الانسان ان ينسى...

الممثل: لن انساك بسبب رعب التجربة... ثم انت بكل مواهبك لست من النوع الذي ينسى.

المجنون: هذا مديح... لكن للسعادة سحر... واي سحر.

الممثل: لن اترك السعادة تلفني كثيراً في دوامتها.

المجنون٢: رائع... كن ابيقورياً في كل شيء...

الممثل: إنني تمردت على سعادتي كما تعلم...

المجنون٢: اعرف... كان يمكن ان تقبل بكل شيء وتعيش كما تشاء... اما... أنا... ايه... أنا...

بِمَ التعلل لا أهلٌ ولا وطنٌ...
ولا نديم ولا كأسٌ ولا سكنُ

الممثل: لن انقطع عن زيارتك.

المجنون: نترك هذا للزمن... أما انا فأحبك.

الممثل: اعرف... لما كل هذا الحب؟

المجنون٢: لأنك تكره الزيف، انت إنسان نظيف... نقي... (وقفة) وصديقتك... يا إلهي، وجه ناعم... آه... عينان صافيتان في زيارتها الاخيرة كانت وهي ترفل بفستانها الازرق زهرةً جميلة.

الممثل: كم انا سعيد لأن مزاجك رائق هذا اليوم.

المجنون٢: لقد افسد عليّ الثور كل شيء، واصبح مزاجي مضطرباً بعد ان ضربني على رأسي...(وقفة) كنت هادئاً، وفي كامل صحوي هذا الصباح بعد فقدان طويل كعادتي لذاكرتي...(وقفة) هل تعرف ما لون عين صديقتك؟

الممثل:(يتخيل) لا.

المجنون٢: اوه... انت لا تملك قوة الملاحظة... حسناً بلون البلوط...

الممثل: للمناسبة، اهو مجرد فضول لديك هذه الدقة في الملاحظة بعد ان تسترجع ذاكرتك.

المجنون٢: جنون شاعر... الشاعر يرى ادق واصعب الأشياء..(وقفة) هل تعرف ماذا توجد اسفل شحمة اذنها اليسرى؟

الممثل: لا ابداً

المجنون٢: شامة صغيرة.

الممثل: غريب... (يبدأ نفس الصخب عند المجانين كما حدث عند توزيع الاكل قبل مدة...) إنتهوا من الاكل... سوف يقتربون من النافذة ويحاولون ان يثيروك... لا ترد

عليهم... ارجوك... (بعد قليل يأتي مجنون، ثم آخر، وآخر) يضحكون، يصرخون، يهتفون، يصفقون...

الاول: انه يتكلم هذا اليوم.

الثاني: الصديقان... ماذا يقولان للبعض؟

الثالث: يتكلمان في الشعر.

الرابع: يتهجمان على المسؤول.

الخامس: هاهاهاها غلط ينتظران الاخت.

السادس: لالالا... هناك واحدة يسمونها زهرة الربيع... يتكلمان عنها... هاهاها...

الرابع: (يغني بصوت مبحوح) يا نخلة على شفاف الحلوة دوري... (البقية يرددون) دوري... دوري... دوري...

الاول: إنهما حزينان... حزينان جداً...

الثاني: لأن الجميلة تأخرت... هاهاهاها...

الاول: غنِ له آه يا جميل...

الثالث: عندما يسمعك شاعرنا يفرح...

الثاني: هل ترقص اذا غنيت لك اه يا جميل؟

الاول: انهما حزينان... لأن الثور ضربهما... غنِ له اه يا جميل...

الثاني: (يغني بصوت جميل)

آه يا جميل ياللي ناسيني
يلي بنار الهجر كاويني
تسمح في يوم يا جميل وراعيني يا عيني
من كثر شوقي لك ما بنام

(البقية يرددون اللحن تارة بشكل جيد، واخرى بنشاز، ينتشي المجنون في الغرفة مع الممثل، ويستمعان اليهما... وبعد قليل يرددان معاً مشاركين المجانين في الخارج.)

عيني بعيني من اللي جرالي
والله ما كان كل ده على بالي

(فجأة يسمع صراخ الثور وهو يتهجم على المجانين ويطردهم جميعاً، ويقف لوحده يحدق فيهما)

المجنون١: انت... انت... يا كومة عظام اغتصبت اختي ماذا وجدت فيك... لا اعرف... انت اغتصبتها...

المجنون٢: (الى الممثل) وهم غريب، الوهم شيء مخيف.

الممثل: لا تكلمه.

المجنون٢: لن اكلمه... يبدأ بالزئير... ويذهب... (يطلق الثور اصوات حيوانية ثم يترك النافذة... صمت...)

(المجنون٢ يغني بصوت خافت وحزين) المقطع الاول من الاغنية(*)

المجنون٢: (يتوقف عن الغناء بصوت خافت) صديقتك كثيرة الشبه بصديقتي.

الممثل: حقاً.

المجنون٢: نعم كثيرة الشبه... جداً.

الممثل: اين هي الان؟

المجنون٢: ماتت... بالسرطان في الكبد.

الممثل: اواه...

المجنون٢: ايه يا صديقي... كانت فتاة تفيض بالعافية، وتمور بالبهجة، كانت ممتلئة بالحب، والوداعة، والطيبة...(وقفة) فجأةً ذبلت، وماتت مثل زهرة...(ينتابه هذيان ذهني) هل تتذكر دموعها...

الممثل: انا لم ارها...

المجنون٢: كانت تجري بطيئة على خديها... قطرة وراء قطرة.(وقفة) ماذا! الا تتذكر دموعها؟

الممثل: لا.

المجنون٢: الم تكن واقفاً لصقي... كنا معاً نراقب الدموع وهي تجري ببطء... كنت تزورني دائماً.

الممثل: انا عرفتك هنا في هذا المكان...

المجنون٢: (يسرح بذهنه طويلاً، ويصفع رأسه عدة مرات عديدة) هل سبق وان رأيت كيف ينمو الورم السرطاني؟ كيف يكبر؟ (يبكي بتشنج) لم كل هذا التأخر في دنيا الطب؟ لو كنت تملك عيناً حادة مثلي، كنت ترى كيف يصرخ العذاب

(*) الأغنية لسيد درويش، يغنيها سمير إسكندراني والفرقة المصرية.

الحبيس في داخل الانسان (وقفة... بألم شديد) هل سبق ورأيت العذاب وهو يتلوى مثل الافعى...(وقفة) لو كنت معي في تلك الدقائق الرهيبة... بل كنت معي فعلاً، لكنك نسيت... كنت وانا اراقب صديقتي والورم يأكلها(بصوت مثل الفحيح) ألم... ألم مثل الظمأ الشديد... آه... العقل... اتعرف ماذا يفعل العقل؟ انه تارة يخمد بسبب الألم، وتارة يعمل بضعف طاقاته...(يقترب من الممثل، ويمسكه من كتفه بقوة، وبعد ان يرسم غضب هيستيري على وجهه يهزه عدة مرات)ألم، تضرع حار، ظمأ صحراوي... قاتل... نهاش... هكذا مسكتني من كتفي وراحت تهزني... (يبكي بحرقة شديدة) كانت تريدني ان انقذها... كانت تتصور ان خلاصها عندي انا... يا الهي، كنت اراه يعمل بثلاثة اضعاف طاقته... (صمت طويل... من خلال نشيج) هل رأيت عيونها قبل ان تموت؟ اتعرف ماذا تفعل؟ ترقص رقصتها الاخيرة... رقصة هي مزيج من الحب، والشوق، والرجاء، واللوعة، والمستحيل، بسبب الوداع الابدي... آه... رقصة العيون ترى امواجاً من الاحاسيس المختبئة في الاعماق... (يطلق ضحكة حزينة) صدقني كانت مثل –اليعازار– تريدني ان احييها بأي ثمن... (يصفع الممثل لا إرادياً، ويهزه) ولكن هل استطيع انا ان اكون مسيحاً...المسيح فقط هو المسيح... أليس كذلك...

الممثل: إهدأ يا عزيزي... ارجوك إهدأ...

المجنون٢: (صمت طويل) نعم يجب ان اهدأ... يجب ان اهدأ...(بعد صمت يغني بصوت خافت)

آه يا جميل ياللي ناسيني
يلي بنار الهجر كاويني
تسمح في يوم يا جميل وراعيني يا عيني

(يتوقف عن الغناء... صمت) انني حزين... ساعدني ان اخفف من احزاني... يا صديقي...(بصوت عذب ومؤثر) عدني الا تدع صديقتك تفقد اعتباراتها الاخلاقية مثل زوجة المجنون الذي ما ان يحل الليل حتى يهذي عن زوجته الشريرة الشرسة العديمة الحياء المرأة اذا فقدت اعتبارتها الاخلاقية تلتجيء الى ادنى إنحطاط من الوضاعة في سبيل مآربها ....(صمت طويل... يعاود هذيانه الذهني) لماذا انقطع كل شيء في مخي... ماذا كنت اقول... انني...

لماذا فجاةً يضطرب ذهني... ويفتقد الى ابسط ترتيب...(صمت...) لماذا لم تأتِ صديقتك... أين هي؟

الممثل: في مكان ما... في هذه المدينة الناعسة الجفون...(يسمع تساقط زخات من المطر) المطر، مطر الربيع الراشق يكون قوياً...

المجنون: (يزداد عنده الهذيان) هل انت الآخر تنقطع عندك في مخك موجات الافكار؟ هكذا فجأةً مثل موجات التلغراف؟...(وقفة... بذهول شديد) المخ جهاز غريب... اسلاك معقدة...

الممثل: نعم... نعم... (يشتد سقوط المطر)

المجنون٢: اجدادنا العراقيون كانوا ينظرون الى سقوط المطر بعد جدب طويل الى وساطة طير عملاق نسيت اسمه:

الممثل: ماذا يفعل هذا الطير.

المجنون٢: يأتي هذا الطير لانقاذ الناس بعد ان يكسو السماء بجناحيه بسحب الزوابع...(وقفة اعتقد ان ذلك الطير الخرافي هو الذي جلب المطر...(وقفة) بعد هذه الزخات تصبح المدينة رقيقة، بيضاء، حالمة...(وقفة) هل سمعت عن الالهة – نمو !

الممثل: لا...

المجنون٢: آلهة اجدادنا القدماء... السومريون... الاله نمو السومرية ولدت الاله الذكر – آنو– إله السماء، والآلهة –كي–

الممثل: (يربت على كتفه بحنان...) ألا تهدأ قليلاً...

المجنون٢: (بحنان) انا أتكلم عن المدينة التي سكنها الاله نمو، وعن الهواء السومري (بهذيان) وإله القمر نانا... (يتنهد بعمق) سأشكوا لهذهِ الآلهة جميعاً لتثأر لي، وتنتقم من ذلك الثور الذي ضربني هذا اليوم... آه... كان ينهال على رأسي ويردد انت هو... انت هو... الذي إغتصب اختي... اختي الطيبة... انت هو... غضبه اسود... يصبح اعمى البصيرة عندما يهتاج (صمت طويل... يغني المقطع الاول من اغنية آه يا جميل)

آه يا جميل يا للي ناسيني...(يتوقف) صديقتك تأخرت كثيراً... كانت حزينة في زيارتها الاخيرة...

الممثل: جداً.

المجنون٢: كانت حزينة مثل ناقوس نعي...(تمطر زخات اخرى قوية) اما اختك فكانت غاضبة... ان ذاك الشيطان لوث براءتها، لكنها ستنتقم منه، (وقفة بصوت حزين) سترجع مرة اخرى يا عزيزي الى الدفء العائلي، والى تلك الزهرة الجميلة، والى صديقتك... أما انا... فقبري هنا... لقد فقدت احلامي...(بإلقاء جميل)

بم التعلل لا اهلٌ ولا وطنُ
ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ

(وقفة) ستعيش احلاماً جميلة... اما انا فقد حكم علي بغموض أبدي، وبلا ترابط بأفكاري وخيالي واحلامي... (وقفة) ارجو عندما يحين الأوان، ان تتذكرني في عزلتي هنا... تذكر صديقاً احبك لشجاعتك... تذكر مجنوناً مسالماً طيباً، وعاشقاً ذبلت صديقته... تذكرني عندما تكون مع صديقتك الجميلة...(وقفة) زوج اختك لن يعيش طويلاً.

الممثل: خيال مجنون، دائماً يقول شيئاً ولو قليلاً من الحقيقة.

المجنون٢: الجشع شيء رهيب... رهيب جداً... كان الفراعنة يقولون: من يروي حقله بالخطايا ينمو في مزرعته الكذب، ويرى المتاعب الى الابد... ان من تنمو ثروته بالكذب لن يكون له اطفال ولن يكون له وارث على الارض، وسفينته لن ترسو على المدينة... ان الرجل الجشع يعوزه النجاح، لكنه ينجح بالخيبة...

الممثل: ما اكثر ما تحفظ من الكلام الجميل..(صمت طويل... يأتي المجنون الاول ويقف خلف النافذة خارج الغرفة... بصوت مثل الفحيح)

المجنون١: هش... هش... اسمع... اترك كومة العظام وتعال الى هنا لدي خبر لك.

الممثل: ماذا؟

المجنون١: زوج اختك هرب خارج البلاد... سرق اموالاً كثيرة من والدك وهرب...

الممثل: من اين لك هذا الخبر؟

المجنون١: صديقتك تكلم المسؤول عن هذا الموضوع.

المجنون٢: (بفرح) جاءَت زهرة الربيع... الم اقل لك... انهض...

(يدخل المجنون٢ يزيح القناع عن وجهه) رائع... كان عرضاً موفقاً... وشكراً...

ستار

زليخة... البعد يقترب

مجموعة قصص

الإعتقال الصحراوي رقم ١٢٥

هذا المساء وإذا لم تخن الذاكرة، أو التقدير الصحيح، نكون قد أوشكنا على إنجاز أكبر معسكر إعتقال في قلب الصحراء. وتحت سحابة من الحراب، عملنا في صنع معتقلات كثيرة. وكالعادة طلبوا منا أن نستمر في العمل بعد الساعة التاسعة من الليل مستغلين برودة الصحراء، وثبت عسكري متجهم الوجه رقعة كبيرة على باب المعسكر، عليها الكلمات التالية: معسكر الإعتقال الصحراوي رقم ١٢٥ .

قبل إجباري كأسير للعمل في هذا المعتقل، عبثاً حاولت أن أتذكر عدد المعتقلات التي عملت في صنعها. ربما الرقعة، أو الرقم بالذات جواب على تساؤلي، كنا أكثر من مائتي معتقل، عراة أمام الحراب، والصحراء اللامحدودة، والشمس المحرقة ويقين تحول بكر الأيام الى بديهية. بأن الهروب أمر مستحيل. ولكن كان البعض منا مشحوناً بثقة بسعة الصحراء، أن هذا العذاب لن يطول. كنا ندفن الكثير من الأحلام، والحقد، والذكريات في العمل الشاق.

وبضياع آخر ملامح الأفق، أشعلوا بآلية بروجكترات الأضواء الكبيرة التي غسلت بأنوارها الحادة مسافة بعيدة من الصحراء. وحتى في الليالي كانت الصحراء مشتعلة تذكرنا بلهيب الشمس، والعرق، وجلودنا الكاكاوية، وسجننا الكبير. أكلنا بصمت، وأستلقينا على الرمل الذي تبخرت حرارته. أشك أن يكون ثمة من يعرف، أو عرف الصحراء، ولغة الرمل مثلنا، نام البعض بسرعة. وثرثر آخرون بحقد أصم، وهلوس البعض بعيداً في موجات الحلم. لم يبق الكثير على إنتهاء هذا المعتقل الذي عملنا فيه بنضال وحشي مع عدد مثل الكماشة، ومقطع المسامير، ومقص، والمطارق الثقيلة، والأوتاد، والأسلاك الشائكة. أن هذا المعكسر قد أماتَ الكثير من طاقتنا الجثمانية، وفي داخل هذا السور الذي أقمناه على أنفسنا نجتر ذكريات كثيرة في عزلتنا، ومن ثم نبصقها على الرمل.

إن دائرة الأسلاك المحاطة بنا كانت تحتوي على تواريخ تسيل من الأفواه، والأيدي المشققة، والعيون الحزينة، والتأوهات، وتتساقط الى ذرات صغيرة من الرمل في هذا البحر الممتد من الصحراء. هنا لا يستطيع الإنسان أن يكتفي بمجرد الراحة العادية

في أوقات الأستراحة، إذ تجره، الأحداث قسراً الى عوالم بعيدة، وقريبة. نتذكر رفاقاً لنا في السلاح أنتحروا إحتجاجاً على المعاملة القاسية وبطرق شاذة. غرسوا رؤوسهم في برك مياه الواحات وأختنقوا دون أن يطلقوا نأمة واحدة، وآخرون ضربوا رؤوسهم بأحجار كلسية ونثروا مخهم على الحصو. وإذا أراد إنسان ما أن يعرف في أية بقعة نحن الآن، بوسعه أن يقتفي آثار بقع الدم الكرزية التي زرعتها أقدامنا الحافية على الطرق. وثمة جثث طافية في برك المياه، إن لم تأتِ عليها النسور، أو الغربان فهي ثمة تطفو منتفخة .

عملية الإنتحار الواحدة كانت بمثابة إحتجاج، ورفض للتسمية الرديئة. وتأكيد قاطع بأن الإجهاز على النفس عملية سهلة في وجه العبودية. وكأسرى كنا دائماً نمني أنفسنا بالخلاص، والعودة الثانية الى الحياة السعيدة، الى الدفء، واللحم، والذكريات، أو ربما الى أيام أكثر تعاسة. لا، لا يمكن أن تكون ثمة أيام أكثر سواداً من تلك التي قضيناها، أو التي سنقضيها في الأسر، وصنع معسكرات الإعتقال للعدو. كان إنتحار أولئك الرفاق طوال تنقلنا. يؤكد لنا أن الشعور بالشخصية عندهم أقوى. وأوضح من كل واحد منا.

لم أفكر في الإنتحار. كان بي شوق عارم للعودة، وأن في الحقيقة شحنت سلسلة الإنتحارات الأحتجاجية الكثير من لحظاتي بحالة شعورية محمومة وجسدت لي من خلال كل ذاك الإجحاف، والمعاملة اللا إنسانية، ونسف الإتفاقية الدولية، أن قدرة الإنسان على أن يموت في هذه الدوامة هي أعلى درجات الحرية،

كنا نحاول أن نجد مبررات كثيرة لوجودنا في هذا القدر الميكانيكي الغريب، وننتهي الى حقيقة بسيطة في النهاية، وهي أننا أسرى. أجل، حاربنا ببساطة، ولكننا، فشلنا .

وهذه السُخرة الإجبارية القاتلة هي ثمن الفشل، بتبريرات كثيرة، كنا نعمل بجد لمجرد أن نثبت للعدو بأننا رجال ذوو إرادة. كنا كومة أزمة، نعسر على أنفسنا الحساب بوحشية، ونضحك عليها بحديدية و صبر صحراوي. وفي الإنتحار كنا نؤكد مبلغ حبنا، وأصالتنا في عشق الحرية.

صدرت الأوامر إلينا بالعمل، وزِعَت العُدَّد. لقد وجدوا فينا بروليتارية منتجة. ثلاث ساعات من الإستراحة أنتهت مثل أصغر حلم. صعدت السلم المثبت على جدار الأسلاك الشائكة قلت في نفسي وأنا أتتبع حدود الضوء: ترى لما هذا الجدار العالي؟ لماذا

الخوف وحتى الطير لا يستطيع أن يجد طريقه في الصحراء!

لبست قفازي الخشن، وبدأت أسحب الأسلاك، وألف، وأقص، وأطرق بوحشية منفساً عن حقدي. وكالعادة أنطلق التذمر الأخرس، والسب المبطن، والحقد والغمغمة، والأغاني المشحونة بالحقد، والتغني بالوطن. وفجأةً وسط الصخب سمعت جملة غريبة ذكرتني برفيق لي كان يعمل لصقي قبل أكثر من أسبوعين... تخيلته بقوة من خلال حاضر المعسكر . والأضواء المنعكسة على الرمل، وجدار الظلام البعيد. كان وجهه الجاف الذي تحول الى لون البن المحمص أكثر وحشةً من غربتنا وعملنا. كثيراً ما كان يغوص في لحمي مثل أبر الأسلاك ويسمعني. والغريب أنه كان يعمل بنكران ذات فضيعة. حدث مرة أن سألته عن سبب إنهماكه المميت في العمل للأعداء. أجابني بحزن:

– أه، أعداء؟ لا تظلمني. أريد أن أنسى نفسي. أنني عندما أتعب أنام مثل الجثة، وأحلم في الليل.

كانت له قوة إرادة شاذة، بل عجيبة، ولكن عواطفه كانت مخلخلة، وكان الوحيد بيننا الذي يبكي أحياناً بصمت كلما أكثرنا الحديث عن الشمس والرمل، ذات مرّة سألته عن السبب عندما كنا نعمل سوية، أجابني بصوت لا جرس فيه: أرجوك... أرجوك.

وبعد إنهماك طويل في العمل قال: أتعرف كيف ألقي عليّ القبض؟ كنا ثلاثة. كان أحدنا مطعوناً في بطنه. وكان المفروض أن أحمله الى مسافة معينة، ورفيقي الآخر الى مسافة أخرى، وهل يجب أن أذكرك بالرمل في الظهيرة؟ ألقيناه على الرمل – كان جرح بطنه كبيراً. أتعرف ماذا فعل رفيقي الثالث؟ حفر بئراً بطول قامة رفيقنا المطعون. وألقاه فيها بعد أن صوب طلقاً نارياً على رأسه، وقال:«سيرتاح الى الأبد». آه بدأت أنساه بعد كل ذاك الذي رأيناه عبر تنقلنا في المعتقلات.

صمت، وتصنع حالة لا أبالية. وفجأة أنحدرت دموع صغيرة من عينيه، وغاص في عوالم غريبة، وقال:

– أتعرف أنه كان متزوجاً؟

وخلت أنه سألني فيما إذا كنت متزوجاً، أجبته بسرعة:

– كلا... وأنت؟

توقف ومدّ بصره الى حيث حدود الضوء، وقال:

– نعم.

قلت:

– والأطفال؟

صرَّ على أسنانه، ومط عضلات وجهه، ونزع قفاز يده اليسرى، وبحركة تشنجية قرب أصابعه الطويلة أمام عيني، وبحركة سريعة وباردة، بترها جميعها بالمقص الذي كان يمسكه بيده اليمنى. سقطت الأصابع مثل الحصو على الأرض، وبحركة أكثر برودة نكس رأسه من فوق السلم وراح يحدق فيها على الرمل ولأني رأيت عمليات إنتحارية تفوق في رعبها هذا الفعل، أكتفيت بأن أطلقت أنة مختوقة، ورددت بهمس:

– ماذا فعلت؟ لماذا؟

أعاد القفاز الى يده وقال ببرود:

– أجل، خمسة.

– لماذا بترت أصابعك؟

حرك رأسه، وقال:

– لن أعمل بعد الآن.

نزل من على السلم، والتقط الأصابع المبتورة بهدوء، وذهب الى عسكري على مبعدة بضعة أمتار من جدار المعتقل. ومن فوق السلم. وتحت الضوء رأيت الأصابع في كف العسكري يعبث بها مثل الديدان. إرتعب العسكري. وإنبثق بريق حاد من عينيه، وقال بتعلثم:

– أما هذا فمستحيل. أنت مجنون.

– كلا... أنا بكامل قواي العقلية. إنني لن أعمل بعد الآن.

– لماذا بترت أصابعك؟

– إحتجاجاً على هذه السفالة، إنني ببساطة أسيرُ حرب ولست عبداً.

نزع العسكري القفاز من يد رفيقي، وتدفقت خيوط رفيعة من الدم على الرمل.

وقال العسكري بذهول:

– يالهذه القسوة.

سقطت لا شعورياً على الأسلاك، وبقيت رغم إنغراس الأبر في صفحة وجهي أترصده. كان بقية الرفاق يعملون بصمت. لأن مراجعة العسكري، أو الدخول في

حوار، وتقديم الإحتجاجات كانت من الأمور اليومية العادية. إبتعد العسكري عن رفيقي وقال:

– إنتظر ريثما نهيء لك بعض الإسعافات.

وإختفى مهرولاً الى أقرب خيمة. نفضت رأسي عندما جاءَني صوته قائلاً:

– هل أنت من مدينة (د)؟

قلت وأنا أمط عنقي:

– كلا... ولكنني أعرفها جيداً... ماذا تريد؟

– هل تعرف منطقة (ك)؟ إنها مشهورة، ثمة شارع فرعي في سوق الجزارين...الباب الثاني هو بيتي.

– ماذا تريد؟

أقول، إذا رجعت، هناك أمام الباب تجد إمرأة عجوزاً تجلس طوال النهار ، إمرأة تنسج بإستمرار. كثيراًما تجلس مع ثلة من النساء. أخبرها أنني رحت أعالج أصابعي. كان منظرنا غريباً ونحن نتبادل الكلام. أنا من فوق السلم، وهو على الرمل قلت:

– والأطفال؟

إحتضنني طويلاً بعينيه، ورسم على وجهه إبتسامة صغيرة، وقال بعد أن أعطاني ظهره.

– ثمة خسائر في كل إنتصار... أعطيتهم هدية.

سار بخطوات واسعة صوب جدار الظلام، ورأيت يده التي بترت منها الأصابع نائمة فوق فخذه. إبتعد كثيراً من حدود الضوء، وطاردته الأصوات الزاعقة بالوقوف. وأستمررنا بالعمل بعد دقيقة حداد، عندما شقت أصوات الطلقات صمت الصحراء الكلسي.

لست وحدي الذي كُلف بنقل التحيات، والأخبار، وهدايا رمزية للرفاق الذين إنتحروا، معي الآن العشرات محملين بأكثر من هدية رمزية أو توصية. من يدري، ربما أنا أو هم سيسلمون تلك الوصايا للبعض. كانت العادة أن نستمع الى أكثر من محاضرة بعد كل عملية إنتحار، أو خرق للقوانين، حتى تعلمنا كثيراً من تلك الجمل الجاهزة والسخيفة. وبإنتهاء المحاضرة، كنا نعود الى الصمت، والحقد، والعمل وكأننا أستمعنا الى عواء ذئاب بعيدة.

كان العمل الليلي أهون بكثير من عمل النهار. وكنا نعيش عطلة لا بأس بها لو مثلاً أنجزنا العمل المنوط بنا قبل الوقت المقرر له. لذا، كنا نعمل بجد كي نستطيع التمتع بتلك العطلة التي فيها كنا نعيش عوالم كثيرة، ومثل دودة القز التي لا تكف عن إنتاج خيوطها الحريرية، كنا ننتج الذكريات ونقتات عليها بلذة.

نقلتُ السلُم الى مكانٍ آخر بعد أن أنجزت ربط الأسلاك، وبدأت العمل لصق رفيق آخر، منذ مدة طويلة وأنا أتفادى العمل لصق هذا الإنسان، وبالأخص في الاونة الأخيرة حيث ظهرت عليه بوادر شيزوفرينيا واضحة. هو الآخر كان يعمل بجد. قرب سلمه مني، ودونما مقدمة، قال بصوتٍ فرح:

– أتعرف، لقد رجعت من البيت لتوي.

– من البيت؟

أعطاني وجهه، وقال كمن يهذي:

– قطعت هذه الصحراء جرياً...

– متى؟

أجابني بصوت مخنوق:

– أوه. متى... كلكم تسألون متى... كان باب المعسكر مفتوحاً، والأضواء خافتة. زحفت خارج السور لمسافة بعيدة، ومن ثم نهضت، وجريت بقوة. ملأني شعورٌ عميق بالفرح. جريت بكل ما لديّ من قوة، وفجأة طاردتني أصوات فزعة، وعويل، ووقع أحذية. تخدرت في مكاني، وظللت أراوح مثلما نفعل عادة في ساحة التدريب. راوحت طويلاً، ولست أدري فيما إذا كنت أسير الى الأمام، أو الى الخلف. شيءٌ ما كان يشدني الى الرمل. توقف عن الكلام، وأطلق زفرةً طويلة، وبدأ من جديد بصوت راعش: «زادت الأصوات» ووقع الأرجل، وغسلني نفس هذا الضوء اللعين. طاردني الضوء. وكان يضحك، ويصفعني، ولحق بيّ جندي، كان يطول تارةً ويقصر فجأة ويتحول الى شكل فأر صحراوي. ثم طاردتني حراب حتى باب البيت. رأيت والدتي جالسة تحتسي الشاي. شربنا معاً، وتكلمنا طويلاً. ثم أستلقيت على سريري، ورحت دونما سبب أكثر من الضحك. وعندما صرخت عليّ والدتي بقوة، جفلت، ووجدتني في المعتقل من جديد. بدأ يعمل. وأطلق ضحكة تشنجية، وبعد حوالي الساعة. أخذ يكثر من التحديق في حدود أضواء البروجكترات، ويقوم بحركات مجنونة ويضحك. أو يلوح بيده، إلتفت إليّ

وقال بفرحٍ طفولي:

– أتعرف أن خطيبتي جاءت لزيارتي.

قلت في نفسي: هل يحق لي أن أشوش الذكريات، والأحلام على هذا الإنسان الذي يبدو أن شعور قلبه عنده أسمى من كل شيء؟ لقد عرفت رفاقاً في السلاح إنتحروا وهذا الإنسان من ضمنهم، أن الإحساس لديهم أقوى بكثير من أن يستطيع الإحساس نفسه أن يكتشفه. في الحرب، أو في الأسر، هل حقاً توجد ثمة قوة تستطيع أنه تمنع الإنسان من أن يستعرض ذكرياته، وسقطاته، وحبه، وأوهامه؟ في قلب هذا الرمل، والرصاص، والعذاب. والأعمال الإجبارية الشاقة، والإنتحارات، تعلمنا أو نحتفظ بقليل من الخميرة للمستقبل.

إستمر رفيقي يترصد الضوء بشوق، وقال بعد أن إنتابته حالة تشنجية:

– أتعرف أن خطيبتي جاءت لزيارتي!

– يبدو أنها تحبك كثيراً؟

– بل تعبدني.

أراح صدره على الأسلاك، وقال:

– قد تعتقد إنني أكذب عليك. أقسم كلا.

– متى جاءت لزيارتك؟

– قبل دقيقة واحدة فقط.

– وهل قابلتها!

– ليس بعد. أشارت لي من بعيد، هل تريد أن تراها؟

نكست رأسي، وبدأت بالعمل مردداً لنفسي: «حقاً أي شيء لا يجوز في الحرب» وأضاف بعد قليل:

– إنها جميلة، هل يمكن أنها صبغت شعرها بلون الرمل.

– أوه... يمكن... كل شيء يمكن.

– أتعرف... كثيراً ما أخاف من عينيها.

– لماذا؟

– مثل عيون الذئب.

صمت ومد بصره بعيداً، وتجمد في مكانه، وأبتسم، ثم حرك يده الممسكة بالكماشة

الكبيرة وراح يلوح بها كمن يودع مسافراً.

توقفت أنا الآخر عن العمل، وأخذت أترصد حركاته الهيستيرية. وذهلت عندما رأيته يكثر من تحريك يده. ويطلق غمغمات مخنوقة. إلتفت إليّ وقال:

– هل رأيتها؟ إنها هناك... هل أستطيع الذهاب إليها.

– تعقل وأتركها هناك.

– لكنها تنتظرني.

– دعها تنتظر وإلا ستغيب الى الأبد.

– ماذا تقصد الى الأبد؟

– أعني لو ذَهبتَ إليها لَقتلتَها هُناك.

قام بحركات غريبة، وإضطرب كثيراً، وقال بصوت مخنوق:

– لن أقتلها. سنجلس على الرمل... فقط نتكلم مثلما كنا نفعل يوم كنت أدخل السجن لأكثر من شهر... عملية بسيطة.

وبكر الدقائق إنتابته هلوسة حادة، وضرب جبينه على الأسلاك. لمعت نقاط صغيرة من الدم على وجهه، أردت أن أبتعد عنه، غير أنه أمسك بكتفي، سحبني بقوة قائلاً:

– هل رأيتها؟ يجب أن أقابلها.

مط عنقه وأطلق زفرات طويلة، وقال:

– تلك هيّ تشير لي... أنظر... أنظر في إتجاه يدي.

نظرتُ في إتجاه يده ملاطفاً، رأيته يترقب ثعلباً كبيراً يحاول أن يقترب من حدود الضوء. تتبعت الحيوان بدقة، دخل حدود الضوء بخطوات وجلة، ثم تراجع بخفة، وإستمر في تلك الحركة لمدة طويلة، وجننت لشاعرية رؤى رفيقي المضطرب. كان ذيل الثعلب مكسواً بشعرٍ غزير وعلى نحوٍ غير طبيعي. وكان بوسع أي حالم هنا أن يُشبه ذاك الذيل الغزير الشعر بشعر إمرأة. أما إذا كان بأزمة رفيقي النفسية فأنه لا يتردد في تشبيهه بأيّ شيء. وسألني بجرس فزع: هل رأيتها؟ ولمجرد التخفيف من هياجه، قلت:

– تلك هي...

وتهيأ للنزول من على السلم. أوقفته. غضب . قلت:

– تصرف برجولة. دعها تأتي هنا بنفسها وتسأل عنك.

– لكنها تشير لي– تذكرني بالأيام الأولى لتعارفنا. سأخبر بقية الرفاق ربما هناك أخريات معها.

أمسكته من كتفه، وصرخت عليه:

– تعقل.

– أرجوك دعني.

– لا تذهب.

صرخ بقوة:

– لماذا؟ لماذا؟

توقف عن الصراخ، وبعد لحظات شقت أصوات سريعة صمت الصحراء، ورأينا عسكرياً قميئاً يسحل الثعلب من ذيله. ألقى الحيوان لصق جدار المعتقل. تمطت الأعناق، وتصور الجميع أنه إحتجاجاً آخر إنتهى بالموت. ولدقائق تكومت الأبصار فوق الثعلب الميت على الرمل، وتطايرت التعليقات الساخرة، والزمزمة، والسخرية، وبدأ العمل.

تعمد العسكري إلقاء الجثة وسط الضوء لمجرد أن يؤكد لنا أن الهروب مستحيل. تطايرت شرارات مجنونة من عيني رفيقي، وإضطرب بشكل مجنون. قرب وجهه مني، وقال كمن يصلي:

– ماتت... ماتت.

ظلّ جامداً في مكانه، شجعته على العمل. أطلق كلمات كثيرة لا معنى لها. مدَّ بصره الى حدود الضوء وقال: ماتت.

وبحركة سريعة، ووحشية وضع شفتي الكماشة حول عنقه وراح يضغط عليها بوحشية. تدفقت نافورة من الدم – صغيرة، من فمه، وتمزقت حنجرته، وسقط من فوق السلم، وتلوى على الرمل. نهض بتثاقل، وذهب بخطوات ميتة، وتمدد بحركات حزينة لصق جثة الثعلب ومات.

وفي الساعة الثانية صباحاً، إنتهينا من إنجاز المعتقل، وصدرت إلينا الأوامر أن نتراصف على مبعدة أمتار خارج المعتقل، تأملنا بصمت المعتقل الذي عانينا كثيراً في بنائه. وإسترجعنا بعضاً من ذكرياتنا فيه. بحثت عن جثة رفيقي والثعلب فلم أجدهما. ومن بعيد رأينا قافلة صغيرة من الأسرى تدخل بخطوات رفيقة نطاق الضوء لمعت

أجسادهم المحمصة العارية تحت الأضواء، رفعوا رؤوسهم بشموخ، وتقدموا بحركات ميتة وكأنهم مربوطون بعجلة. تبادلنا نظرات قوية. وفي الوقت الذي أنطلقنا بخطوات متخثرة للعمل في مكانٍ آخر، تقدموا هم للدخول في المعتقل الجديد.

إن عروقي تتحول الآن الى لون البنفسج

لم يرجع صادق الى شقته ليلة أمس، وفكر ألا مفر من هجرها الى الأبد وألمه لحد التمزق ألا يستطيع ذكر مشكلته لأحد، كانت حالته النفسية من التوتر، والأصطحاب بمكان بحيث فقد حتى إستعمال أبسط الكلمات... وكلما حاول أن يلخص وضعه بكلمات بسيطة، وبغير إلتباس، وجد نفسه في دوامة من الفكاهة، والتراجيدية اللا معقولة. كان واثقاً ان ذاك الرجل الغريب سيزوره هذه الليلة أيضاً. ويجره قسراً الى نقاشات متوترة، وساخنة بلغة غريبة، ثم تبدأ المعركة بينهما بضراوة حتى يخرج صادق وجسده يلتهب من الضرب. قال صادق لنفسه:

– تُرى من أين يدخل بعد أن أحكم غلق الباب؟ نافذة غرفتي لا تتسع لدخول قطة...

ذات ليلة قال الرجل لصادق، أنه في المرّة المقبلة سيدخله في الثلاجة ويبقيه هناك الى الأبد... وتصور صادق بذهول ما الذي سيحدث لو أنه أدخله فعلاً في الثلاجة وأغلق بابها بالمفتاح... وفي قلب ذهوله، سخر صادق من نفسه، وأطلق ضحكات هستيرية، ولم يعرف، لماذا هو الأعزب إبتاع ثلاجة من النوع الذي يغلق بالمفتاح، وكالعادة إحتج صادق، وإشتبك مع الرجل، وخرج مثخناً بالضرب. أثارت فكرة تجمده داخل الثلاجة، وموته البطيء صداعاً عميقاً في رأسه وألماً غريباً أحَسهُ لأول مرّة في كل ذرة في جسده، وقال في نفسه: أن هذا الرجل لا شيء ممنوع لديه، ومع أن صادق أصرّ أن يواجه الرجل ويتحداه، غير انه شده عندما رأهُ في الليلة الثالثة يخرج من مرآة الكانتور الكبيرة في غرفته ويتصرف ببرود. قال الرجل لصادق. أنا رجل بلا قاعدة. ووسيلتي هي العنف، وعندما أراد صادق أن يستفسر ما ذنبه، وماذا فعل، جلده الرجل بسوطٍ طويل، وفي الليلة الرابعة، غيّر الرجل فكره بعد زيارة خاطفة لصادق، وقال أنه قرر أن يصلبه مثل المسيح.

وفي الليلة الخامسة، ودون أن يعرف صادق لماذا دفعه الفضول للذهاب الى شقته، خرج الرجل من المرآة وجرَّ خلفه صليباً كبيراً، ووضع بهدوء مسامير طويلة فوق المنضدة صغيرة قرب سرير صادق، ومطرقة ثقيلة، وخيرَّ بين أن يدخله في الثلاجة ليموت، أو ليصلبه مثل المسيح. قال صادق:

– لكن لماذا؟

– كل شيء مقبول إلا الإستفسار.

– لكن!

– إنك غير مفهوم بالنسبة لنا.

– من أنت؟ بل من أنتم؟

– هش... هش.

وأراد صادق أن يستفسر أكثر، لكن تذكرَ أن مجرد الإستفسار يعني المزيد من الضرب.

قال الرجل:

– أمنحك فرصة الأختيار حتى الليلة المقبلة.

وغاب. صرخ صادق بكل ما لديه من قوة. من أنتم؟... من؟... مـــن...؟

فكر أن يذهب الى صديقته ويخبرها، لكنه تصورها وهي تضرب مكتبها الصغير في الدائرة. وتطلق ضحكات ساخرة. وتألم أن يذهب ضحية شيء يجهله نهائياً، وبعد قليل بكى، ثم خرج. جلس في حديقة عامة. قال في نفسه: أن فكرة الموت أكثر إيلاماً من الموت نفسه. وبكر الدقائق شعر برعب يحبسه ويسجيه مثل محيط دائرة. بعد قليل أحس بالمحيط واضحاً حوله مما ولدَ لديه عذاباً شاذاً. وقال بحزن. أي ماخور هذا الذي أعيش فيه!

كان الوقت مساءاً وأشعة الشمس البرتقالية تغسل ببرود جدار الحديقة،. وراقب الشمس وهي تتقلص برفق –فكر أنه سيتقلص– بعد أن يتجمد الى كومة لحم باردة في الثلاجة. إستمع الى أصوات ثلة من الباعة، ثم أصوات أرجل المارّة وهي تُخرِج تكتكة رتيبة على الأرض الأسمنتية، وذكرته أصوات الأرجل بالمطرقة وهي تنهال على المسامير. وتأمل المسامير الحادة وهي تشق اللحم الحي برفق، ثم العظم. حدق في كتفيه، ووجد أن المسامير بوسعها أن تنفذ عميقاً ثم تنغرس بهدوء في خشب الصليب. وقال في نفسه بحزن: لا بأس، هي لحظات وتنتهي الأشياء. وجد صعوبة في تقبل مثل هذا المصير، وقال من جديد ولكن بحقد: أوَليس ثمة أنصاف؟

أراد أن ينسى نفسه. وأحس بظمأ قوي الى الفرح. ذاك الظمأ الذي يتدفق من كارثة ويأس. رأى رجلاً منهمكاً في إلقاء حبات الذرة لبضعة بجعات في بحيرة الحديقة.

إرتاح لمنظره، وتخيله سعيداً، ولا مشكله له، وبوسعه أن يرجع الى بيته بهدوء. إلتفت الرجل صوب صادق. إنخفض صادق من الداخل مثل الزق. إنه هو. إقترب من صادق وقال:

– أيهما أخترت . الصلب. أم الثلاجة؟

وقال صادق في نفسه: أما هذا فلا.

وقال الرجل: سأنتظرك. وتركه بخطوات قصيرة. مع أن صادقاً أصيب بحالة أشبه بالإحتقان الدماغي، غير أنه بذل جهوداً للسيطرة على نفسه. تأمل العشب، والصغار وهم يفرغون طاقاتهم في حركات سينمائية، وأعناق البجعات، ثم ركز بصره على الأطفال وسعادتهم الدائمة، تمنى لو يرجع طفلاً. وفي زاوية من الحديقة رأى إمرأة تشبه والدته. وذكرته والدته ووجهها الحزين بحرمان غريب من المحور العاطفي، والروحي، والدفء العائلي. نهض. وسار بخطوات ميته، وحاول أن يجد حلاً لفكرة الموت الغريبة. جلس في مكانٍ بعيد. من جديد تأمل يده وتتبع خيوطاً من عروقه وتصورها وهي تتجمد برفق وتمنع تدفق الدم المتخثر من الجريان. وحاول أن يتصور قلبه وهو يتجمد ويفقد مطاطيته. وقال في نفسه. ألا أستطيع أن أخبر أحداً.

رأى الرجل يتجول بعيداً. سارَ في إتجاه آخر. وأخبر أكثر من شخص بقضيته وإستمع الى قهقهات ساخرة. زار صديقته، وأخبرها قبل أن يخرج. وكأن حدسه في مكانه. ملأت الغرفة بموجات من الضحك. إنطلق بخطوات واسعة الى خارج المدينة، وتجول دونما هدف.

وقال بغضب وهو يلطم جبينه – لماذا أزحف مثل السحلية من هنا الى هناك. وفي الليل مطرت زخات ربيعية قوية. إستند الى جدار وراح يستمع الى خرير مياه الأمطار. رأى أكواماً من ورق اليانصيب. والجرائد، وأعقاب السكائر تطفو فوق مياه الأمطار. ذكرته أعقاب السكائر برغبة ملحة في التدخين. لم يجد سيجارة واحدة في جيبه. تجول. دخل صيدلية وطلب علبة. شيعه صيدلي وسنان بنظرات ساخرة. إبتاع علبة من دكان صغير، كان طعم السيجارة لذيذاً في فمه رغم حموضة حادة غلفت فمه مثل الصمغ. عض لسانه بقوة، وفكر فيما إذا سينتصب عندما يتجمد، أم يبقى نائماً أسفل حلقه. مرّ بجانبه رجل، وقال: السيد صادق أنتظرك لا تتأخر. أرسل صادق صفعة قوية الى وجه الرجل وقفز بوحشية ماسكاً عنقه بكلتا يديه. كلب... كلب. وحاول صادق أن

يغرس أسنانه في عنق الرجل. تخلص الرجل منه، وفلت مثل الهواء في زقاقٍ ضيق.

صرخ صادق خلفه... لماذا أنا...

دخل هو الآخر الزقاق، وجرى خلف الرجل بكل ما لديه من قوة صارخاً:

– ألا يطمئن الإنسان في بيته، وحتى في الشوارع. تعب. سار بخطوات مشلولة. وفي قلب حيرته، أراد عبثاً أن يبحث عن حقيقة هذا الهوس الذي راح يطرقه مثل سنابك الخيل. سقط في بركة ماء. وقال في نفسه: أي ماخور مغلق يتزاحم فيه الواحد ليخنق الآخر دون سبب.

وفي هذه الأثناء سكبت إمرأة كانت واقفة فوق شرفة بيت سطلاً من الماء الدافيء فوق صادق. أستاف أنف صادق رائحة صابون قوية...لم يرفع رأسه. ذكرهُ دفء الماء الذي غسل رأسه ببرودة الثلج. وفي فم زقاق مهجور أوقفه خفير. أراد أن يخبر الخفير بأن رجلاً هدد أن يدخله في الثلاجة ويغلق عليه بابها. وتحت ضوءٍ خافت رأى وجه الخفير الداكن السمار وكأنه لا يملك هو الآخر سوى يأس مطلق. إنتابته ثورة وحشية من الداخل. وقال في نفسه: لو أعرف الى أين أذهب...

قدم سيجارة للخفير، وقال له لا شعورياً.

– هل سبق وإن دخلت في الثلاجة.

وفكر أن الخفير متعود على البرد، لذا يموت في مدة أطول، وتعجب كيف أستطاع ذاك الوجه الحزين أن يشرق، وذاك الفم البائس أن يخرج القهقهات. سأله الخفير فيما إذا أضاع الطريق. وقال صادق في نفسه بحزن. لو أعرف في أي إتجاه يمكنني أن أسير. وقال للخفير ملاطفاً:

– عملك مُرهِق .

– نعم.

– ماذا لو دخلت في الثلاجة؟

– أوه، ألا تكفي ثلاجة ربك في هذا الليل المقرور.

– ألا تتصور أن هذه البرودة دافئة جداً بالمقارنة؟

إهتز جسد الخفير النحيف من الضحك مرة أخرى. قال صادق:

– تصور نفسك داخل ثلاجة. ترى ماذا سيحدث لك؟

– أتجمد.

– أي مكان يتجمد في جسمك أولاً...

– أوه... أخي فكر في فراشٍ دافيء، وفي لحمٍ دافيء. تركه، وسارَ بإمتداد شارع طويل.

قال في نفسه: ماذا لو طلبت إليه أن يصلبني. فكر كم مسماراً سيطرق في جسدهِ. إثنان في بطن يديه، وواحد في مشط قدميه، وهل سيغرس واحداً في سرته. إرتعب من المسمار الذي سيُغرس في سرته. آه... ترى ألهذا السبب قال القديس بولص أن الموت هو آخر عدو حطمه المسيح.

سمع صوتاً نسوياً يطارده. سيد... دقيقة رجاءاً.

إستند الى عمود، إقتربت منه شابة متوسطة الجمال. قالت:

– أرجوك ساعدني في الوصول الى بيتي.

نظر صادق في ساعته، وقال في نفسه – إن الرجل منهمك الآن في شقتي في تحضير عُدد القتل.

كانت الواحدة بعد منتصف الليل. قال للشابة:

– إنه وقت متأخر لشابة!

– أعرف... أعرف...

– سار لصقها. كانت الشابة تلهث. قال صادق لنفسه. ماذا لو لم أرجع الى الشقة هذه الليلة؟

سار مسافة طويلة، توقفت الشابة أمام بيت مظلم. طرقت الباب بقوة. لم يرد أحد. قال صادق:

– لا أحد في البيت.

– ستفتح... إنتظر.

– من؟

– هي.

– أطرقي على النافذة.

وقال صادق لنفسه: لن أذهب الى الشقة... وفكر في غرفته، والكانتور، والمرآة التي خرج منها آخر مرة... طرقت الشابة على النافذة بقوة وهي تردد... إفتحي... إفتحي.

قال صادق: سأقوم أنا بالطرق.

رفعت الشابة ياقة معطفها، وقالت لصادق: ألا تشعر بالبرد؟

تعجب صادق فيما إذا سيدخلهُ الرجل في الثلاجة عارياً أم بملابسه، إستمر بالطرق على النافذة. قال صادق كمن في غيبوبة – أعتقد سأدخله عارياً. نعم عارياً.

قالت الشابة بذهول: ماذا؟

أجاب صادق: سيان لو دخلتها عارياً، أو بالملابس.

أستمر في الطرق، ضحكاً وغمغماً، وطرقا معاً بقوة. قالت الشابة بصوتٍ متشنج.

– إنك تؤذيني.

تشبثت به، وشعر بأنفاسها حارة على عنقه، قال:

– إنها لا تفتح.

– لكنك تؤذيني. فقط لو تعرف كم تؤذيني.

– سيكون الجو ببرودة الثلج هناك.

– لكن... برفق.

تدفقت حزمة ضوء من زجاج النافذة، وغسلت مستطيلاً صغيراً من الأرض. كان صادق مستلقياً على الأرض. ظهر شبح إمرأة عجوز. وفكر صادق أن هذه المرأة تموت بسرعة في الثلاجة. حركت العجوز يدها. وقالت مخاطبة الشابة:

– إنصرفي.

– إفتحي... تجمدت.

زعقت العجوز: إذهبا.

تعجب صادق كيف يمكن أن يتجمد الإنسان في مثل هذا الجو الجميل. فتحت العجوز النافذة، وصرخت: إذهبي.

وفكر صادق فيما إذا كان صوته سينفذ من الثلاجة لو أطلق صرخات كثيرة. مدّ يده ومسك عنق المرأة العجوز وصرخ: إفتحي... إفتحي.

أجابت العجوز بوصوصة: حالاً... حالاً أترك عنقي، وترك صادق عنقها.

أغلقت العجوز النافذة، وغمر المكان الظلام.

أقترح صادق عليها أن يأخذها الى شقته. وافقت، سارا بعجالة. سألها صادق فيما إذا جربت الدخول في الثلاجة. ضحكت وقالت:

– تقصد غرفتك باردة جداً.

– المهم أنها ليلة واحدة. نامي أنتِ على السرير...

أشعل مقدحته الغازية أمام الباب – فتح الباب، وأشعل المقدحة أكثر من مرّة. أضاء المصباح. إرتاحت الشابة لنظافة الغرفة. خلعت معطفها وألقته على أقرب كرسي، وذهبت الى مرآة الكانتور لتنفض عن شعرها حبات المطر. تجاهل صادق المرآة، وذهب بآلية ليُلقي نظرة داخل الثلاجة. مرة أخرى قال في نفسه: ترى كيف؟ لماذا أفكر في الثلاجة؟ وإبتسم رغم صداعه وألمه، وفكره المضطرب. دفع باب الثلاجة، وأختلس نظرة سريعة من المرآة. رأى الرجل واقفاً ببرود. وقال في نفسه – يبدو ألا مفرّ من مواجهته. وقال للشابة بصوتٍ خفيف:

– إذهبي الى الفراش.

إندست الشابة تحت اللحاف، بينما راح هو يذرع الغرفة راقبته بإستغراب. قال في نفسه: سأطلب إليه أن يصلبني مثل المسيح، وأحاول أن أستغفله لأضربه بالمطرقة.

قالت الشابة بصوتٍ حزين:

– العاهرة ستعودني على النوم في غرف الناس.

لم يهتم بها. حدق في كفه، أخرج قلم حبره. وغرس رأسه بقوة في لحمه. لم يتألم، كثيراً، وقال في نفسه: ربما بدأت أفقد الحس. أنتظر أن تنام الشابة . ولأول مرّة أحس أن الزمن بالنسبة له أصبح مشكلة شخصية. حاول أن يجعل من الموت مسألة عادية جداً بإنفصاله عن كل شيء. تأرجح طويلاً بين حالة نفسية معذبة. ونشوانة، وقال بصوت عال:

– هل يُعقل أن يخرج من المرآة؟

سألته الشابة بصوت ناعم: من؟

أجابها بصوت حاول أن يكون طبيعياً: الحيرة... نامي... إبتسمت الشابة.

ربما بخوف، وضحك هو الآخر قال:

– أيهما أهون، الموت مصلوباً أم داخل ثلاجة؟

– أنت مرهق.

– ليتني... في الثلاجة يموت الواحد دون أن يتعفن.

– أدخل في الفراش.

– ليس الآن.

بعد قليل تكلمت الشابة بصوت مخمور عن العجوز، وغرفتها، وفراشها، الدافىء ونامت، خلع صادق ملابسه، تمدد على ظهره فوق الأرض الباردة، ثم أنقلب بعد مدة على بطنه، وخرج أخيراً الى الشرفة ووقف تحت المطر، رفعت الشابة رأسها، وفتحت وجهاً مخموراً من النوم. وقال صادق:

– هل حقاً أذيتك تحت النافذة.

– جداً... لا بأس... تعال.

– نامي.

– أوه... أنت عارٍ في هذا البرد.

– نامي... سأدخلها عارياً.

– لا بأس... لا تقف طويلاً هناك... ستمرض.

– نامي...

غطت وجهها ونامت. ذهب الى الثلاجة، وأفرغ محتواها على الأرض، وإنتزع الرفوف كلها، ودخل فيها جاراً الباب خلفه برفق. لم يتحمل البرد لأكثر من ثلث ساعة. خرج. شعر بتشنج موجع في رقبته، وظهره، ثم جلس قبالة المرآة بتحدٍ. وقال: لن يتأخر هذا الصعلوك...

حدق في سرته ومشط قدمه. خرج الرجل فجأة. وقف أمامه وقال:

– يبدو أنك فضلت الصلب ولهذا تعريت.

ركز صادق بصره على وجه الرجل، ووجد جلده بلون جلد الحرباء. غاب الرجل. وجلب نفس المطرقة، والمسامير، وشده صادق عندما رأى أيادٍ غريبة تسلمه صليباً أطول من قامته. ووضع الرجل الصليب على الأرض، وقال لصادق... تفضل...

أستفسر صادق فيما إذا كانت لديه طريقة ثالثة لقتله. قال الرجل، أوه كثيرة ومتنوعة. مدَّ صادق يده وإختطف المطرقة وهجم على الرجل بجنون، قفز الرجل في الغرفة. طارده صادق بإندفاع همجي. صوب المطرقة على رأس الرجل مرات عديدة. تحاشاه الرجل بخفة لاعب جودو، ودارت المعركة بالمطرقة في الغرفة الضيقة حتى أستنجد الرجل بصوت مثل الوصوصة، خرج ثلة من الرجال من المرآة وهجموا على صادق. كانوا جميعاً يشبهون الرجل، وصُعِق صادق عندما رأى الجميع بنفس الشكل، ويقومون بنفس الحركات –وقال– أقتلني، بسرعة، حتى التمييز مستحيل... كلكم...

وقال الرجل بهدوء: الصلب، أم الثلاجة.

أجاب صادق: سيان... سيان.

مددوه أولاً على الصليب، وشدوه بقوة. وغرس الرجل المسمار في كفه اليمنى أولاً في حين راح الآخر يطرق بقوة. (لماذا تركتني لوحدي). لكنه أستخسف الفكرة. وكلما طرق الرجل الآخر على المسمار سمع صوت الشابة وكأنها تردد من بعيد – أنك تؤذيني.

إنغرس المسمار الأول حتى نهايته في كف صادق. فجأة أخرج الرجل المسمارمن كفه، وبعملية ميكانيكية أدخلوه في الثلاجة، وأغلقوا عليه الباب. صرخ من داخل الصندوق البارد المظلم، جبناء... جبناء...

بعد مدة حاول أن يرفع يده اليمنى، فوجدها ثقيلة، ولم يعد يحس بالثقب الذي حفره المسمار. إشتبكت أسنانه، وحاول أن يتحرك ووجد المكان ضيقاً، وبشكل عابر فكر بالشابة في الفراش، وتعجب لماذا لم تنهض، رغم كل ذاك الصخب. وتذكر صديقته وهي تضحك. وقال:

قليلون هم أولئك الذين يصدقون أن مثل هذه الأشياء تحدث في عالم أهتز كل ما فيه. وأضاف بحزن... لكن لماذا يبدو كل شيء على ما يرام بالنسبة للكثيرين... أواه. أية فوضى براقة...

حرك يده اليمنى. كانت ميتة. راحت تنمل برفق. حرك أصابعه، أو تصور أنه حركها، صرخ بقوة لمجرد أن يدفع الدم في عروقه، قال في نفسه، أن عروقي تتحول الآن الى لون البنفسج. وفي جو الثلاجة المظلم والبارد جداً، أدركَ بكثير من الحزن معنى أن يموت الإنسان وحده. ماتت يده اليسرى، وبحث عن يده اليمنى ولم يجدها. وغابت ساقه الواحدة تلو الأخرى حتى حوضه. وغمره حنين دافق لأشياء كثيرة. زحف البرد الى جمجمته، قال بعد أن فقد ذاكرته، ترى كم ساعة مرت الآن... أين هم... هي– وغمغم بصوت ثلجي أن الحاجة الى العدالة تأكلني، ونام الى الأبد.

ديوس أكس ماشينا

في الحلم، وفي أعماق الصحو تعلمت أن الإنسان لا يستطيع أن ينتبه بما فيه الكفاية، أما هذه المرّة فظهر على شكل علامة إستفهام. تقدم مني، ومن بعد أمتار مد يده اليسرى التي تمطت مثل أفعى سمراء، والتفت أصابعه بقسوة حول عنقي الهزيل.

ووجدتني في إختلاء قاس مع الموت. ومن حيث كان يقف أطلق كلماته من بين شفتيه اللتين كانتا تشبهان أذني فيل ضخم. سقط رأسي برفق على ظهر يده، وتحركت أصابعه مثل أطراف الأخطبوط، وأرتطم بصري بساعة يده المربعة الشكل، ورأيتها هي الأخرى تتمطى مثل قطة صغيرة. وعبثاً حاولت أن أقطر في عيني الزمن رقصت يد الساعة بهستيرية، وأستمرت الأصابع تضغط عنقي، وكلمات الرجل مثل قطرات صغيرة من الرصاص المصهر تنصب أنصباباً رقيقاً في أذني. ماتت يد الساعة الصغيرة على السابعة، وإستمرت اليد الأخرى تدور بقوة. أردتها أن تقف على رقم ما لأعرف الزمن.

أستمرت في الدوران. وبحقدٍ أبكم مددت يدي لأمسك بها، وجدتني ألطم ظلام الغرفة الحبري، ثم إندفعت بوحشية لأخنق الرجل. وكعادتي، بقيت نهباً لحالة نفسية متوترة، وحاولت أن أسترجع كلمات الرجل الثقيلة، أردت أن أحرك يدي، وجدتها لفرط تنملها نائمة على بطني في هدوء طفل. وتدفق فيها الدم برفق، وشعرت وكأنها تضحك معي وتدغدني. نهضت. فتحت صنبور الماء وأزحت ستار النافذة، ورأيت ضباباً كثيفاً يغلف ساحة البيت، كانت إبنة صاحب البيت تذرع الممر خلف نافذتي بخطوات قصيرة مثل شبحٍ أبيض.

قلت في نفسي: وحتى هذه الغرفة؟ من يدري، ربما ستُعلمني هذه الغرفة معنى تلك الكلمات. تأملت الضباب وهو ينزلق بكسل لذيذ على زجاج النافذة. نادراً ما يحل الضباب على هذه المدينة بهذه الكثافة. وما عدا الأيام الأولى من شهر تشرين حيث يحل ضباب خفيف وشفاف يغلف منطقة معينة، ويحول بناياتها الى مجموعة ديكورات لمسرحية حزينة، يندر أن يرى الواحد ما يشبه الضباب أما هذه الموجة الكثيفة فشيء نادر، تركت الستارة. كان خيط الماء في الصنبور رفيعاً ومزعجاً وبلون الضباب. غسلت

العرق من وجهي. تسمرت أمام المرآة، رفعت يدي اليمنى مرات عديدة وحركتها كمن يرسم أشكالاً في الهواء.ذكرتني يدي باليد، وإنصبت فجأة الكلمات الثقيلة في أذني. لم أستطع إلتقاط كلمة واحدة بوضوح. وكلما أكثرت من تحريك يدي، ومن ثم ذراعي مطرت تلك الكلمات مثل مفرقعات صغيرة في كل مكان في الغرفة.

فرحت كثيراً عندما رأيت وجهي قليل الإصفرار، وملأني هذا الشعور بحيوية كثيرة كما يملأ الدم الجرح الجديد، تركت المرآة. بعد أن نهشت وجهي فيها طويلاً. خلف الباب رأيت التقويم يشير الى العاشر من آذار. منذ سنين وأنا أحتفل بهذا اليوم بشيء كثير من الرغبة، والنواح، والرجفة. إنه يوم عيد ميلادي. غسلت وجهي من جديد، وتأملت الغرفة وكل محتوياتها التافهة بدقة لأجد شيئاً ولو بسيطاً يؤجج فيّ جوانب من هذه الذكرى. الإحتفال بهذا اليوم عادة سخيفة غرستها فيّ صديقتي التي هجرتها من فرط حبي اللامحدود لها. ما زلت أراها في الحلم. إن تلك المسكينة لم تستطع أن تجد لها مركزاً مرموقاً في بيتها. لم يبق في ذاكرتي سوى رسم مبهم، لأني لا أفكر فيها سوى مرّة في السنة. إذ أن تقاطيعها تطفوا في أعماق ذاكرتي وتحت ضباب مثل ذاك الذي يغلف المدينة. كثيراً ما يخيل إليّ أنني فقدت صورتها الحقيقية الى الأبد. عينان سوداوان كانتا تضيئان لي الكثير من الآمال. لم تكن حزينة مطلقاً، وكانت تخشى الفرح كثيراً، كانت لها قابلية تصل حد الشذوذ في تمالك نفسها، فترسم على شفتيها إبتسامة حلوة تبدد الإضطراب. ربما كانت تعرف جيداً بأنني سأهجرها ذات يوم.

منذ السنة المنصرمة، إستأجرت أكثر من عشرين غرفة، هي وذاك الصوت وأحلامي الكثيرة تطاردني. منذ سنة وأنا أشبه شيء بمهاجر تتقيأني الغرف، والبنايات، والمقاهي. منذ سنة وأنا أتعرف على أصدقاء جدد لأسبوع واحد، ومن ثم الغرفة الجديدة هي التي تقرر صداقاتي الجديدة.

سمعت صوت المرأة العجوز التي تسكن مع إبنتها لصق غرفتي. طرقت باب غرفتي بقوة. وقالت:

– هل رأيت؟

قلت: أتركي ماعون اللبن على الدرج. (تعلمت أكل اللبن كل صباح من هذه العجوز) وأجابت بفزع:

– الناس... لقد ضاع الناس... يبدو أن مصيبة حلّت بالمدينة.

ألا تعتقد أن هذا نوع من البلاء... توقفت عن الكلام.

أردت أن أضحك، لكنني كنت ما زلت تحت تخدير النوم، والكلمات وعيد ميلادي، وأشياء أخرى كانت تنبثق من الطبقات العتيقة لوعيي.

قالت من جديد: لقد ضاع الناس.

رددت لنفسي، ضاع الناس! لن يضيعوا...

كان صوتها الفزع ثقيلاً على أذني. لذا رجوتها أن تكف عن الصراخ وقالت:

– أرفع الستارة وأنظر. هل رأيت؟ لماذا لا ترد؟ هل ستذهب الى المدينة.

إنطفأ صوتها. أخرجت دفتر مذكراتي وسجلت بعجالة هذه الكلمات (يومٌ جميل. سأحاول جهدي أن أحتفل بعيد ميلادي في الشوارع. لن أذهب الى العمل – عيد ميلادي الثلاثين. آه، أوَليس من الشقاء أن يتذكر الإنسان أنه كان سعيداً ذات يوم، أو ذات مرة. سنوات طويلة وكل شيء غرق. سأحاول أن أنهي جانباً من دائرة صمتي. جميل أن يكون الإنسان في الأزمات مفعماً بالنبالة والوعي. سأتجول وأترك نفسي للضباب) سقط القلم بين أصابعي. ذهبت الى النافذة، وأزحت الستارة. كانت إبنة صاحبة البيت مستمرة في ذرع الممر. أقتربت من النافذة، ووضعت أنفها الأفطس الصغير على الزجاج وإبتسمت. كانت والدتها تحلب بقرتها التي كانت تطلق خواراً مزعجاً. قلت في نفسي: ربما تشكو من ألم حاد في ضرعها. أشرت للفتاة أن تذهب. أختلط صوتها بخوار البقرة ورأيت وجهها مصبوغاً بالجنس. سحقت نهديها على زجاج النافذة، وإبتسمت، ثم حركت لسانها وكأنها تقول: أن سجن الداخل لن يتركنا. تركت الستارة. عبأت نفسي في ملابسي، وتصنعت فرحاً، ورددت بآلية الكلمات التي لا أعرف كيف ولماذا جاءت على لساني: ديوس أكس ماشينا.

أصابني دوار خفيف بعد ترديدها... إستندت الى الجدار، ووجدتني أمام المرآة وجهي يتأملني بسخرية، وفمي يردد: ديوس أكس ماشينا. أشك أن تكون كلمات لأغنية، أو عنواناً لكتاب، أو لقصيدة، أو ماذا؟ أهي كلمات الرجل الذي أراد أن يخنقني؟ لن أفكر في أي شيء سأحاول أن أنسى كل شيء هذا اليوم.

فتحت الباب. رأيت جيشاً من الذباب على ماعون اللبن تنهش في القشرة الصفراء. قلت وأنا أرفع الماعون – إنها أكثر جميع الحشرات صلافة وقذارة وكأنها تصنع من الهواء. طردتها، عادت بميكانيكية مضحكة. عبثت معها. وإستمعت الى طنين أجنحتها.

وأخيراً غرست رؤوس أصابعي بالماعون ورفعت كمية من اللبن. إلتصقت واحدة على رأس أصبعي دفعتها بسرعة الى فمي. مصصت أصابعي بلذة، وتركت بقية الذباب تحتفل بعيد ميلادي على ماعون اللبن.

عند الباب الخارجي، جاءني صوت العجوز الفزع: لا يخرج سوى المجنون في هذا النهار. وبعد لحظات صوت إبنتها المضطرب بالشهوة – أرجوك... أرجع... كان الضباب كثيفاً وكنت أسير في طياته وهو يتحطم مثل فسيفساء إصطناعية الى ألف قطعة. كنت أسير مثل الأعمى. إصطدمت بشيء لحمي. لطمت كلمة عفواً أذني، التفتُ يميناً ويساراً لم ارّ سوى شبحاً يزفر. ضحكت وسرت. فكرت أن أجرب التجوال في سوق (ق): سأعيش يوماً جميلاً، وحافلاً وأصوم عن رؤية الوجوه أقلا لنهار كامل مع حبي العميق للوجوه.

هزتني فكرة الصوم عن عدم رؤيتها حتى الصرع. أن الإكتفاء بمجرد مراقبة الأشباح، والإستماع الى كلمات غريبة تتساقط على جدار الضباب تثير ضرباً من السكر الموحل. وإنتابني وأنا أسير بخطوات واسعة فرح طفولي حتى درجة الإنخطاف.

قلت في نفسي: سأعرف الكثير عن أوهامي التي لست أدري أهي التي تلبسني أم أنا ألذي ألبسها.

كان الشارع خالياً، أو هكذا بدا لي جراء الضباب الكثيف. وبكر الدقائق وجدتُ نسوة مسربلات بعباءات بلون البلور. ورغم الأضواء التي كانت تبدو كابية خلف الضباب، كانت المواد المعروضة للبيع تعكس ألواناً حزينة. كانت النساء يسألن دكان الجزار فلان، أو بائع الخضار، ويثرثرن حول لون البرتقال، أو فخذ بقرة.

هنا فقط كان بوسع الإنسان أن يسير عارياً وبثقة وهو يستمع الى كلمات تتناثر مثل الرذاذ هنا وهناك وسط هذا الدخان الجميل. قالت إمرأة: إنها الآخرة – وقالت الأخرى. هذا ليس ضباباً وإنما مصيبة. وزعقت ثالثة: هذه علائم الآخرة.

كنت أضحك وأردد لنفسي: إن السعادة مستحيلة أمام زنزانات المجانين... كان الرجال يتكلمون بعصبية ويثيرون ضوضاء يفسد الضباب. كان لكل واحد منهم خلف جدار الضباب. وفي السوق، بل في المدينة يتمرغ في أوهامه وعذاباته. كان البعض يبحث عن الوجوه بلجاجة وكأنهم ضاعوا الى الأبد. صرخ جزار فجأةً:

– تعالوا هنا... إني الجزار فلان... أنظروا الى جثة البقرة. إنها بقرة كاملة. إن ذبح

الأبقار والأغنام لن يتوقف في السوق.

إسمعوا ضربات سكيني.

تقززت من ضربات السكين على اللحم النيء في هذا الصباح البلوري. أستمر الجزار في تفتيت اللحم بقوة. صرخت عليه:

– وهل يجب أن تطعن هذا الصباح.

– طبعاً. ألا تريد أن تأكل؟

– نصوم ليوم واحد. ألا يمكن الصوم ليوم واحد عن الأكل والوجوه.. ورددت لنفسي مغمغماً. ديوس أكس ماشينا.

ترنحت قليلاً بعد ترديدي لهذه الكلمات وكأن يداً وهمية هزتني بقوة، ووجدتني أمام الجزار وهو يفتت قطعة صغيرة من العظم. صرخ بقوة في الضباب:

– أنظروا الى هذا اللحم.

أعطيته ظهري، وسرت الى وسط الشارع، وأطلقت من جديد: ديوس أكس ماشينا. هذه المرة أطلقت الكلمات بجرس مغاير. بإمتداد الشارع رحت أبحث عن معنى الكلمات الثلاث. إصطدمت بي إمرأة. وشعرت بشيء بارد ينساب على وجهي، وذاق لساني طعماً حلواً، قالت إمرأة بصوت خافت:

– رباه ماذا فعلت؟ أوف يبدو أنني قلبت ماعون اللبن على وجه هذا الرجل. هل حقاً ضروري أن نأكل في مثل هذا اليوم. ألا نعرف كيف نصوم ليوم واحد.

طربتُ لكلماتها، لم أمسح اللبن من وجهي. وفكرت في مشكلة الأكل الذي هو المحور الأساسي لكل الدوران البشري. أرادت المرأة أن تتحرك. عبثت معها أوقفتها. ضحكت بتألم إرتحت لها لأنها فكرت في الصوم. غمغمت بسخرية وسارت. لا شك أنها كانت أطول مني، وإلا لما أستطاعت أن تقلب ماعون اللبن على رأسي. إصطدم بي بعد قليل رجل، ومدّ يده ليعتذر. تراجعت الى الخلف. وترصدت أصابعه الطويلة اليابسة وهي تتحرك باحثة عن وجهي. ذكرتني الأصابع وهي تتحرك داخل الضباب باليد– رددت بآلية ولكن بقوة: ديوس أكس ماشينا. خمشت الأصابع وجه رجل وصل لصقي لتوه. صرخ الرجل. وإمتلأ المكان بكلمات الأعتذار. تنحيت. وسرت. طرق سمعي وقع سكين على شيء جاف. من جديد وجدتني أمام دكان جزار آخر يفتت بقايا لحم على خشب إسطواني. وقف لصقي تماماً رجل قصير. قربت وجهي منه، كان وجهه الشحمي

الحليق يشبه فخذ بقرة. أثارتني حركاته المائعة، ولغته، كان من أولئك البرجوازيين الذين كثيراً ما يساومون لمجرد المساومة، قال:

– من هذه القطعة أعطني ثلاث كيلوات. لا أستطيع أن أرفع صوتي...

رنَّ صوته في أذني طويلاً. وبعد قليل قال:

– عزيزي قلت من هذه القطعة.

قلت لا شعورياً مع نفسي: كلب...

وحدقت فيه طويلاً. إندفع في هذه الأثناء جزارٌ شاب، وبصعوبة علق جثة خروف على عارضة خشبية وراح يمرر أصابعه المغطاة بالدم على اللحم البارد مردداً بصوت عالٍ.

– آه... لو فقط رأيتم هذه النعمة.

أقتربت من جثة الخروف، تأملت البطن الفارغ من الأحشاء. تكلم الرجل القصير مع الجزار طويلاً. أثارني جرس صوته، إنطلقت بآلية ديوس أكس ماشينا من بين شفتي، وغزتني برودة ثلجية في صدري، وإمتدت ذراعي بقوة وحشية الى بطن الخروف الفارغ وراحت أصابعي تنهش في اللحم داخل الفوهة. سحبني الجزار بقوة. سقطت الجثة على الأرض. ولدهشتي وجدت رأسي مغروساً في البطن، والجزار يسحبني مردداً: ربما أنه لا يرى... يالهذا الضباب... وقفت وتماسكت، إنصرف الرجل القصير. تبعته بدقة. وقف أمام دكان جزار آخر، وإبتاع ثلاث كيلوات. قلت في نفسي: ما معنى أن يشتري اللحم من عدة جزارين؟ وأثارني جرس صوته من جديد. قررت أن أرى وجهه بوضوح. أنصرف. تبعته، حط عدد كبير من الذباب على وجهي. في تلك اللحظة عرفت أن وجهي تدبق من اللبن، ودم الخروف المتخثر. سحقت عدداً من الذباب على وجهي، نسيت الضباب. والمارة والتجوال. ناديت على الرجل: سيد لحظة رجاءاً. لم يرد عليّ صرخت بقوة. توقف عن السير وصلت لصقه، وقلت دون أن أرى وجهه بوضوح.

– أي شيء آخر ستشتري؟

لا شك جفل، وأرتعب لحد الموت. من يدري؟ الضباب وحده يعرف كيف كان شكله إذ ذاك. أجابني بصوت مخنوق.

– وما دخلك؟

قلت في نفسي: حقاً ما دخلي ولكن جرس صوته، وهذا السلوك الحقير في إستبضاع الأشياء آه، ربما مجرد إلتباس أيها الغبي...

قربت وجهي منه حتى لامس أنفي أنفه، فرأيت ملامحه تشبه ذاك الذي كنت أريد

خنقه قلت:

– أريد أن أعرف أي شيء آخر ستشتري؟

أجابني كمن يفيق من غيبوبة طويلة: أشتري... لا أشتري، سأشتري، أشتريت. توقف عن الهذيان وإنطلق على أكثر تقدير بدافع من خوف شديد ضحكة بليدة. حدقت في عينيه. كانتا تلمعان بخوف لا معقول، وضعت يدي على وجهه المكتنز. وجعلت أمررهُ عليه. بدأ يرتجف.

وقال بإختناق: أشتري الشيء الذي يعجبني. ماذا تريد؟

قلت، هل تحب اللحم؟

– أعبده.

– لماذا؟

– هكذا تعودت.

– هل تعيش مثل رجال الكهوف؟

– ماذا تقصد؟

– أعني تفكر قليلاً، بل ربما لا تفكر، وتلتهم أحسن الأطعمة.

– هذه محاكمة لطيفة. أرجوك أتركني.

تركته. سار بخطوات واسعة. وبعد لحظات راح يقفز مثل أرنب مذعور تبعته. دخل زقاقاً ضيقاً. وفي وسط الزقاق المظلم ظلمة طبيعية، وفي دخان الضباب الكثيف مسكت من سترته. سقط الى جدار طيني فقد تماسكه نهائياً، وأخذ يطلق أصواتاً مثل وصوصة الفأر.

قلت: لماذا تطاردني؟

– أنا... أنت الذي يطاردني.

– هذه الليلة أردت أن تخنقني.

مات صوته، مسكت من شعره، ورحت أضرب رأسه بقوة على الجدار مرات عديدة حتى سقط على الأرض ومات. أفرغت اللحم على الأرض وألقيت الكيس بعيداً...بعد قليل وبتأنٍ فرشت اللحم على وجهه مثل بطانية صغيرة تجولت في السوق كثيراً. كان الضباب ما زال كثيفاً، وثمة جمهور قلق يملأ الطريق، ويصطدم بالأشياء.

جلست في مقهى وأحتسيت ثلاثة أكواب شاي مُرّ، وفكرت أن أذهب الى غرفتي

لأحتفل بعيد ميلادي لوحدي. في الشارع، رحت أتدافع، وأدور، وأصطدم، وأفلت من شارع الى آخر. دخلت في عدة بنايات من تلك التي عشت فيها سهواً وزجرت من قبل ساكنيها. في منتصف النهار خفت كثافة الضباب، وصار بالإمكان رؤية الوجوه.

تجولت لنصف ساعة أخرى. في الطريق رأيت العجوز بفرح.

– وأخيراً ذهب الشرّ.

دخلت غرفتي، كان وجهي طبيعياً. أو هكذا أخبرتني المرأة. قلت بصوت عال:ديوس أكس ماشينا. ذهبت الى السرير، ولدهشتي رأيت الفتاة عارية تحت اللحاف تحدق فيّ بإستجداء. سقطت على السرير إحتضنتني بقوة. أستاف أنفي رائحة نهدها وأبطها المعروق. وبكر الدقائق سطحت نهدها على وجهي. إلتهبت. إلتهبت. ذكرني لحم نهدها باللحم الذي فرشته على وجه الرجل الميت في الزقاق. وقبل أن يأخذني أفيون الشهوة بعيداً فكرت طويلاً بمعنى ديوس أكس ماشينا. وفي ذروة شرودي، وبينما يدي تعجن بطن الفتاة، عرفت إنها كلمات لاتينية تعني (الإله الذي يسير على الآلة).

الرجل الذي كانت روحه عارية

توقفت على مبعدة أمتار من محل لتصليح السيارات في شارع فرعي صغير. وعندما دخلت الزقاق وإقتربت من مدخل المحل، وجدته خالياً، وثمة عُدد مختلفة ملقاة على الأرض لصق سيارة شحن مفككة الأحشاء. إنتظرت لدقائق. تحرك جسد في بدلة متسخة بالزيت تحت السيارة، وعندما رأى قدمي زحف برفق. وبجانب إطار السيارة رأيت وجهاً مزيتاً مرهقاً يردد لنفسه بغضب:

– لا فائدة، كل شيء ميت في هذه السيارة.

يبدو أنه كان مرهقاً للغاية، لذا ظلَّ منكفئاً على وجهه. بعد قليل! أنتبه الى وجودي، زحف وتأملني طويلاً، دون أن ينبس بشيء، وجلس القرفصاء أمامي وأخذ يتأملني غارساً نظراته بعدائية غريبة في وجهي... وبدلاً من أن أسأله عن صاحب المحل أعطيته ظهري، نهض، وبخطوات صغيرة جاء ووقف قبالتي، وإستمر يرسل إليّ نظراته مثل إطلاقات سريعة. قطبت وجهي. إنشغل يفرز قطع من الغيار وأدوات صغيرة فوق منضدة كبيرة. إلتفتُ إليه، أحنى رأسه وذهب بعيداً. وجلس على الأرض يوزع نظراته بيني وبين السيارة، وقطع الغيار، ورفع بحركة باردة ملء قبضته تراباً وراح يعبث به، ثم فرك أصابعه المزيتة ورشه بإتجاهي، وبقيت أنتظر صاحب المحل، وأترصد رأس العامل الحليق وهو يلمع تحت الشمس مثل كرة من السلك. من جديد راح يغرس نظراته في وجهي، رأيت في وجهه حزناً غريباً ظلَّ يتكاثف كلما طال التحديق بي. وبكر الدقائق تشنج وجهه، وتحول الى بؤرة من الغضب. ولما أردت أن أستفسر منه عن صاحب المحل، إطلق زعيقاً، وضربني بسرعة بقطعة من الحديد على ذراعي اليمنى. إنفجرت مني أنة خنقها الألم، وترنحت كسكير حول نفسي أطلق عواءاً متقطعاً، وعندما وقع بصري عليه رأيته يبحث عن شيء آخر ليضربني به. ورغم شدة الألم، وذهولي، ولا معقولية سلوك هذا الإنسان، هربت الى الجهة الأخرى من السيارة الكبيرة.

كان الشارع الخلفي مقفراً، ورأيته يتبعني بخفة هرة يحمل بيده المرتعشة قضيباً حديدياً يلمع تحت الشمس. وإشتد ألم ذراعي كثيراً، ووجدت صعوبة في رفع أي شيء لأدافع به عن نفسي. ورحنا ندور حول سيارة الشحن بصمت وتوجس مثل الأطفال

وكأننا نلعب الأستغماية. ولما كان القضيب الذي يحمله ثقيلاً ألقاه بعد دورته الثالثة حول السيارة. كنت في الجهة الأخرى من السيارة واقفاً بخوف لصق بابها المغلق وأنا أحدق بذعر من خلال زجاج النافذة المتسخ، لأتأكد ما الذي ينوي هذا الميكانيكي أن يفعله ؟ وتساءلت مع نفسي مرات عديدة:

لماذا؟ ماذا يريد مني؟ لماذا ضربني! لم يحدث أن جئت لهذا المحل.

وعندما مط عنقه الهزيل، رأيت في النافذة المقابلة رأسه الحليق يلمع مثل قماش السلك، وفي عينيه الحزينتين رأيت غضباً وحقداً لا معقولين. وفكرت أن أستنجد ، أو أصرخ. خجلت من نفسي. تصبب العرق في كل مكان من جسمي، وإشتد الألم في ذراعي، قلت في نفسي: يبدو أن لا خيار لي سوى مراوغته ريثما يأتي صاحب المحل، وتنتهي هذه المهزلة.

تحرك، تحركت. رفع قدمه اليمنى بخفة، فعلت مثله. تحرك جسده، تحركت أنا الآخر... إنتهت الدورة الرابعة. مرة أخرى مط عنقه، وبحث عن وجهي في زجاج النافذة. هذه المرّة، رأيت وجهه يفور بالإضطراب والتمزق، والحقد، وكل ما يملك الإنسان من لعنات.

– إلهي... لماذا؟

أراد أن يبكي... وبعد أن تأملني بكى فعلاً. قلت في نفسي: أيتها الحيرة ماذا يريد هذا الإنسان؟... لم هذا العداء المجاني؟ وفكرت أن أركض لكنني خجلت من نفسي. ومن نظراته، ودموعه. عرفت أنه سيتبعني، ويشتبك معي وسط الشارع.

أراد أن يفتح باب السيارة ليختصر المسافة بعد أن يأس من الدوران وبقيت أمام أمرين أحداهما مُرّ، وهو إما أن أشتبك معه، أو أهرب. وأراد أن يحطم زجاج النافذة بالقضيب. فجأةً ظهر صاحب المحل. القى القضيب من يده بسرعة، وتمدد على بطنه وأنشغل ببعض شؤونه؟ لم أخبر صاحب المحل أي شيء بالذي حدث وأخبرته فقط بالعطب الموجود في سيارتي. ثرثر كثيراً وطلب مني أن أتركها، وأجيء لإستلامها بعد ثلاثة أيام. وفي طريقي الى البيت ظللت أمسد ذراعي، وأفكر بالميكانيكي، وبهجمته الوحشية، وتلك المعركة الدونكيشوتية التي أقحمني فيها رغماً عني. وقررت مع نفسي أنه لابُد من مواجهته.

مساء نفس اليوم ذهبت مع زوجتي الى السينما رأيته واقفاً بملابسه المتسخة أمام

مدخل السينما يحدق بعدائية في الصور، وفي المارة، والباعة. خفت كثيراً. عندما رآني. أنتفض، وأرسل إليّ نفس نظراته النارية، وقضم بعصبية شفته السفلى. وإقتنعت فوراً بأن هذا المعتوه سيخلق بالتأكيد فضيحة أخرى معي أمام السينما...

كانت الصالة مزدحمة. التفت الى الخلف ورأيته يتبعني. دسست يدي في جيب سروالي باحثاً عن شيء يمكنني أن أدافع به عن نفسي. لم أجد شيئاً مرّة أخرى التفت الى الخلف. ورأيته مضطرباً، وقلقاً يتدافع بعصبية ليشق طريقه في إتجاهي. وبحس مخمور أنشغلت في التحديق بالصور، وقلت لزوجتي بصوت جاهدت أن يكون طبيعياً.

– أعتقد جئنا سهواً...

أجابتني بتعجب:

– ماذا تقصد جئنا سهواً...؟ إنه نفس الفلم الذي تكلمت عنه طوال يوم أمس.

– كلا كنت خاطئاً.

– لكنه هو... أنظر.

– قلت، كنت خاطئاً.

تكلمت معها بإضطراب. إمتلأت الصالة بالمتفرجين. ركزت بصري على المارّة تركيزاً حاداً، ووصل بي القلق حداً تصورتني مشتبكاً معه. نسيت نفسي، وفي غمرة شرودي، وتفكيري المضطرب، أطلقت زعيقاً قوياً عندما إنغرس شيء حاد في آليتي اليمنى ، وقفزت في مكاني ثلاث مرات... وزعقت زوجتي لا شعورياً، ومسكت من ذراعي، وصوبت مئات العيون نظراتها المتعجبة إلينا. حاولت أن أسيطر على ألم آليتي، وإرتباكي. وظلت زوجتي تحدق فيّ بخوف وتتكلم بسرعة دون أن أسمعها. تمالكت نفسي قليلاً، وقلت لها بصوت خافت:

– لاشيء يبدو أن أحدهم أراد أن يسرقني.

– لكنك زعقت... لماذا؟ تكلم.

حاولت بجهد أن أكبت الألم الذي راح يتكاثف... وتحلق الناس حولنا، وسمعت أصواتاً تتساءل. أزعجتني زوجتي بأستفساراتها الكثيرة... رجوتها أن تصمت، بكت، وأستفسرت بعناد أكثر... قلت:

– خذيني الى أقرب عربة.

في البيت أسرعت الى دورة المياه لأتأكد من المكان الذي أنبجس منه الألم، وجدت

سروالي الداخلي، وساقي اليمنى مغسولين بالدم، وثمة شج عميق حدث على أكثر تقدير بالموس، إن الحقير طعنني بالموس... لا بأس غسلت فخذي، وعالجت مكان الجرح باليود، وربطته بشيء من الصعوبة لعدم تمكني وتحكمي من مكان الجرح. وعرفت زوجتي بالجرح، وأقتنعت بأن القضية كانت مجرد محاولة سرقة لا أكثر. بعد أسبوع من المعالجة المستمرة، ذهبت لأجلب سيارتي، مع تصميم مطلق على الإنتقام وبشكل وحشي من الميكانيكي. تعجب صاحب المحل لتأخري. وأخبرني بأن السيارة جاهزة. وأبديت له رغبتي بشيء من الإصرار في أن أصطحب معي الميكانيكي لمجرد التأكد من تصليح العطب ولو لنصف ساعة. لم يمانع، وبوغت الميكانيكي بالمهمة. جفل في البدء. وبعد لحظات ظهرت عليه علائم فرح طفولي. قلت في نفسي:

– يبدو أنه لا يخاف... سأتفاهم معه خارج المدينة.

أنطلقت أسوق بسرعة. وفي خارج المدينة بعد أن تأكدت من مسدسي الذي وضعته في جيب سترتي، قلت للميكانيكي بجفاف:

– الآن أخبرني من أنت؟

أجابني بصوت بارد. وبثقة بالنفس أجفلت أعصابي:

– ألا تعرفني؟

– أبداً.

– صحيح تغيرت كثيراً... وذبلت مثل الفاكهة. ولو فكرت قليلاً لعرفتني.

حدجته بنظرة قاسية، وقلت بجفاف أكثر:

– لا أعرفك ولا يهمني أن أعرفك.

– لماذا تصر إذن؟

– قل من أنت؟

– سمني ما شئت... يهوذا مثلاً...

صرخت بغضب:

– قل من أنت؟

أطلق قهقهة طويلة صلبت جميع أعصابي... خففت السرعة، وغرست نظرات حادة في عينيه، أطلق ضحكة أخرى أكثر قوة، ثم فجأة وضع باطن يده فوق فمه، وقال بعد

أن رسم على وجهه خجلاً طفولياً:

– إنسان يحتج على شقائه.

خففت السرعة أكثر، وأنا أردد مع نفسي «إلهي هل ثمة ميكانيكي يتكلم بهذه اللهجة؟» قلت:

– وهل يجب أن أكون أنا ضحية هذا الشقاء؟

– لأنك علمتني أن ليس بوسع الإنسان أن يختفي وراء زهوٍ أحمق.

كان رأسه الحليق يلمع في ضوء النهار الحليبي المنساب من النافذة وبعد أن عبث بأظافره المحشوة بالزيت والتراب، قال:

– الفشل شيء يمكن أن يقيسه الإنسان في النهاية...

أذهلتني لغته وأضاف:

– أليس كذلك؟ ثم أنني عبثاً حاولت أن أنفصل عن ذاتي لأتعرف عليها بشكل جيد ...

قلت في نفسي: إلهي... أيتها الحيرة... أيُّ ميكانيكي هذا؟

ضربت باطن يدي بقوة على المقود، وصرخت:

– من أنت؟ قل من أنت؟

ضلّ في نفس برودة، وقال بعد صمت قصير:

– إنسان أردت أن تعلمه كيف يميز لكنه لم يتعلم. لذا كان، وما زال ميتاً...

أوقفت السيارة بقوة. إصطدم جبينه بالمقود. أعطاني كامل وجهه، ورأيت دموعاً في عينيه... وقال بصوت حزين ومخنوق.

– عندما لا يستطيع الإنسان أن يجد بواعث ضعفه، وبؤسه. أعتقد أنه يستحق شيئاً من العطف والشفقة...

وأضاف...

– أنظر كم غيَّرني الزمن... كان وجهي ذابلاً فذبل أكثر... إن شكلي يخيفني . أوه، أعفُ عني. كنت أريد أن أقتلك بدافع من الحب العميق... صدقني أن الإنسان يقتل أحياناً من يحب بعمق.

وأثار جرس صوته كل تلك الذكريات الصغيرة وأحسست كأن يداً وهمية إمتدت ورفعت غطاء اللاوعي في أعماقي. وعندما إلتفت إليه كنت أنا الآخر أبكي. وقال:

– يكفي أن أبكي أنا... كنت أعرف أنني لم أخلق للكهنوت. منذ خمسة عشرَ سنة وأنا

أجد خلاصي في الأعمال الميكانيكية.

غرقنا في صمتٍ طويل. وتذكرت يوم تعرفت عليه كيف قفز من مقعده مثل غراب كبير، وضغط على يدي، وساقني بلطف الى أريكة وأجلسني لصقه، ولف جسده النحيف بعباءته الكهنوتية الفضفاضة. وبعد أن تأملني طويلاً زفر مرات عديدة دونما سبب. كان في حوالي الثلاثين، ذا وجه حزين، قد يبدو أنه قد قاسى كثيراً أبان تتلمذه على التصوف، والتقشف، وفي البحث المخلص والعميق عن أكثر جوانب اللاهوت إصراراً على تعذيب النفس والجسد، ومن الدقائق الأولى خامرني يقين لم أستطع نفيه، وهو، أن هذا الإنسان قد دخل سلك الكهنوت خطأ، كان كل شيء في وجهه الحزين الذابل وكأن خطبة دينية حزينة في قداس جنائزي تؤكد حالة الإنسان الشديدة البؤس، والمسرفة في الخطيئة، لم أتحمل شكل وجهه، ونظراته التائهة وكأنها تهرول دونما توقف وراء أحلام فيما وراء الأفق. ثمة وجوه تؤكد من خلال ضرب فريد من الألم، أن الإنسان ليس أكثر من مسافر جوال على هذه الأرض.

في زيارتي الأولى، إقتنعتُ من لهجته أنه يقاسي الكثير من أجل أن يصبح بشراً. تكلم في الكهنوت بعمق، وكذلك في الأدب، وأبدى إعجاباً مهوساً بدستويفسكي وغرق في فيض من الغبطة والحزن الشديدين عندما تكلم عن فرويد، وأحلامه، وعن حياته التي هامت في متاهات الحيرة، وعرفت أنه يعيش سلسلة من التعقيدات الأكثر من اللازم. وتكلم عن الجنس، وبؤس العقل من أن يستطيع فعل أي شيء أمام رغبات الجسد. وكلما أوغل في الحديث عن الجنس كان يردد بعد أن يصلي بعينيهِ: إنها حقيقة مُرّة.

قال:

– لِمَ هذه السرعة؟ دعنا نتأمل المناظر الجميلة.

وإنقطعت عن زيارته لمدة شهر. وسمعت أن ثلة من النساء والفتيات أكدن عليه بجدية أنه يشبه المسيح ولكن بفارق بسيط. وهو. لحيته سوداء... في الحقيقة يوم كان في حوالي الثلاثين، كان تكوينه الفسيولوجي، ووجهه الحزين، وفمه وأشياء أخرى تشبه المسيح. وأخبرته أنا الآخر بغرابة الشبه، وأكدت ليس بمزح طبعاً، أن الفارق هو في لون اللحية وشعر الرأس. شعرَ بفرحٍ عميق، وحدق في سقف الغرفة، ثم في صورة للمسيح واقف لصق الخراف، وإنتابته حالة من النشوة العميقة تشنج على أثرها وجهه،

وأطلق ترتيلة حزينة ومسح دموعه مثل طفل صغير.

وبعد ثلاثة أيام فقط سمعت أنه صبغ لحيته وشعر رأسه باللون الأحمر. وراح يقلد حركات المسيح مستوحياً إياها من الصور الدينية، وتهجم عليه عدد كبير من مدمني الكنيسة، وعابوا عليه سلوكه، وتصرفاته الشاذة في حين راح البعض، وكانوا من السذج يلتفون حوله بِوَلَه. وروجت إمرأة عجوز من المعجبات به، أنها ترى المسيح كل يوم، وتخاطبه وتجلس معه. أما هو فلم يحتج، أو يكذب الخبر. بل راح يستمع إليها بلذة قال بصوته الذي فقد جرسه الحزين:

– إنك تسوق بسرعة مجنونة... لماذا لا ترد علي؟

– كنت أتذكر الأمسيات، وغرفتك، وصحن الكنيسة، والنساء، والأطفال.

– إنتهت مثل أحلام صغيرة كنت مجنوناً.

ذات مساء زرته في غرفته، فوجدته يمد يده بوقار لثلة من الصغيرات وهن يلثمنها بدفء. وعندما رآني صرفهن، وإستقبلني مقلداً صورة المسيح وهو يبارك مريضاً. ويبدو أنه لفرط تكراره الآلي في تقديم يده للتقبيل قدمها لي بنفس الآلية. ضغطت على يده بقوة، نكس رأسه. وقضم شفته السفلى بعصبية. كان بلحيته الحمراء. وشعر رأسه الأحمر الطويل يشبه المسيح. لم يرتح لنظراتي الساخرة. كان يعاني من أزمة نفسية ملغومة بأرتيابية جذرية لكل شيء ما عدا موقفه الآني . زلزلني تصرفه الشاذ، قلت:

– ما كنت أتصور أنك ستُقبِل على هذا العمل مطلقاً.

– وحتي أنت...!

– لكن...؟

وقاطعني بسرعة قائلاً:

– ألا يمكنني أن أفعل ما يمنحني العزاء؟

– لكن هذا الذي عملته شقاء... أن لا تكون نفسك.

– أهي خطيئة أن أصبغ لحيتي. وشعر رأسي؟

– بل أكثر من خطيئة أن لا تتمسخ ولا تكون ذاتك.

– علمني اللاهوت حيث لا توجد خطيئة لا توجد حرية.

مسد لحيته مرات عديدة، وحدق في باطن يده، ثم تأملني، وأضاف:

– أليس كذلك؟

– الخطيئة هي أن تفكر بهذا المنطق.

– ألا أشبهه؟

– ثم ماذا؟

– هل تريد أن تقول إنني إنسان فاشل؟

– أعطني تفسيراً آخر للفشل.

آه، ليتك تعرف بأية أشياء رائعة أحس، وأنا أشبهه. الحواريون هم فقط ينقصونني.

– المراهقات... فكر ولو قليلاً.

وصرخ بقوة:

– أخبرني إذن ماذا يمكنني أن أكون... ماذا؟ ماذا؟

– وهل تريدني أن أضحك عليك . كُن ذاتك.

وصرخ بهستيرية:

– أترك غرفتي... لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى.

هجمت ثلة من النساء. وأرسلن نظرات زائغة إليه، وإليّ و تلوى هو برفق مقعده كمن يعاني من حمى. وبعد أيام عرفت أنه طُرد من الكنيسة بعد أن راح يروج علناً في خطبه بأنه المسيح. قال بصوت خافت:

– ما زلت تسوق بسرعة. هل كنت تتذكر حماقاتي؟ إسمع. لم أنقطع عن الحلم في أن أصبح إلهاً. ولكن من نوعٍ آخر.

وقلت بعد صمت:

– ألم تصبح ذاتك بعد؟

– أتعرف متى يمكنني أن أصبح إلهاً؟

لم أرد عليه، وإنتظرت أن يكمل، فجأة فتح باب السيارة، وقذف نفسه منها، ورأيته يتدحرج مثل كرة ضخمة على الأسفلت ثم أستقر بعيداً في حضنِ عشبٍ أصفر.

سمكة طرية

كنا نترنح من التعب، ونسير بخطوات ميتة. بقيت لدينا سمكة واحدة متوسطة الحجم من عشرة أصطدناها طوال نهار عابس، وجاف، وعناد يغلي مع الماء الغريني، والطين الدبق الذي نخوضه حتى الركبة، والأسماك الفزعة، والشبكة العتيقة التي رتقناها أكثر من مرة.

قال زميلي بفرح طفولي:

– كان النهار حافلاً.

قلت:

– حصيلة كبيرة. عشرة دنانير. أوه، يمكنك أن تشتري بها أي شيء.

قال زميلي:

– لننصرف الى صيد الأسماك، ونحاول أن ندرس في الليل تأمل إذا أستطعنا أن نربح ثلاثة دنانير في اليوم خير الف مرة من عذاب سنين طويلة، من الجلوس الجامد فوق الرحلات.

لم أجد جواباً، كانت رائحة السمك الزنخة تفوح منا الى مسافة بعيدة، وكنا نريد أن نتخلص من هذه التي ظلت تتأرجح معنا في الطرقات بعد أن بحت حناجرنا من الصياح. المبلغ الذي حصلنا عليه قلما يحلم به كبار الصيادين في مدينتنا. زعقنا من جديد في الأزقة، والشوارع، ولوحنا بالسمكة للمارّة، والنساء الواقفات أمام البيوت، أو فوق الشرفات. ربت زميلي على كتفي وقال بإنتشاء:

– سأبتاع حذاءاً من ذلك النوع الأحمر الذي رأيناه في المخزن. أما الباقي ربما سأبتاع به تلك السترة التي أعجبتك.

وأردف بتحسر.

– لقد حرمت طويلاً من اللبس. كنا كومة حرمان، نحلم، ونخطط، ثم نعمل.

كانت السمكة تتأرجح في يدي مثل بندول الساعة. وأسيرُ وأنا يغمرني إعزازٌ وخيلاء، وأحس بالهواء يداعب صدري الرطب وقميصي المبلل، وكنت أشعر بمذاق الرجولة الحقة كلما وقع بصري على ملابسي المغسولة بالطين من الأسفل، وأتذكر بدافع

رومانسي أكثر من صديق يضرب في الأزقة والشوارع مثل السوقة، بينما أرجع أنا بعد معركة طويلة في النهر.

قال زميلي وهو يقفز.

– إنتهى، بعت السمكة.

– لمن؟

– للسيدة التي تسكن في تلك البناية الجميلة. نسيت أسمها، هل عرفتها؟

إرتحت كثيراً وتذكرت فعلاً أنها طلبت إلينا أن نأخذ لها سمكة مرّة في كل أسبوع. قلت:

– لكنها سمكة كبيرة، أخشى أنها ألا تريدها ؟

– سنقنعها... نحاول...

وذهبنا بسرعة الى بيت السيدة. كان الباب الخارجي مفتوحاً دخلنا دونما جلبة الى الصالون، وسرنا بخطوات قصيرة على السجاد الناعم الذي دغدغ باطن أقدامنا، كان منظرنا شاذاً في الصالة النظيفة بملابسنا المتسخة، ورائحتنا الزنخة، والسمكة المتأرجحة،

قال زميلي :

– يبدو أنها ليست في البيت.

– إنتظر.

– لكن...

الباب الخارجي مفتوح ، وباب الصالون مفتوح يعني أنها في البيت حتماً، كانت أبواب الغرف الأربع على طرفي الصالون موصدة، وثمة أريج قوي يغسل إمتداد الصالون.

قلت لزميلي:

– أعتقد أن السيدة تعيش لوحدها؟

– هكذا يقولون.

– ألا تخاف العيش في هذه البناية الكبيرة لوحدها؟

– آه، إذا كانت تخاف لهجرتها...

بعد قليل، قال زميلي بهمس يشبه الوصوصة.

– إنها جميلة.

– جداً.

– وسخية. تصور تدفع لنا نصف دينار لسمكة لا تساوي ربع دينار.

– بالمناسبة كم مرّة إشترت منا؟

– هش... أعتقد هذه هي المرّة السابعة.

تخدرت أصابعي الأربعة المحشوة في غلاصم السمكة. قلت:

– إنها ليست في البيت، لنجرب مكاناً آخر لبيعها...

– أصبر قليلاً. أن السيدة لا تتعامل. لقد بح صوتي من الصراخ.

– أراهنك. إنها لن تشتري هذه السمكة.

– أنتظر... أنتظر.

أعطيت السمكة لزميلي، وسرت على رؤوس أصابعي بخفة. وإنتابني فضول أن أبرك أمام الباب سمعت خلفه صوتاً خفيفاً. ظلّ زميلي واقفاً في فم الصالون يتأمل الموجودات بذهول. أنحنيت وبركت برفق وأخذت أحدق من خلال ثقب المفتاح. كانت الغرفة كبيرة جداً. وفي لحظات رأيت السيدة عارية في فراشها وهي تداعب كلباً ذئبياً كبيراً بغنج عاهر. أذهلني منظر ثدييها الكبيرتين، وحلمتيها الشبيهتين بوردتي قرنفل. كانت تتدحرج مع الكلب في الفراش بشكل مثير، ومخيف، معطية ظهرها لي بأردافها البضة تارةً وبطنها الناعس تارةً أخرى. كانت تتلوى مثل أفعى متهيجة. قربت عيني أكثر، ورأيت هذه المرّة فخذها وخلتها لفرط ذهولي إنها سمكة كبيرة. جاء زميلي وبرك بخفة لصقي. قلت بصوت جاهدت أن يكون أوطأ صوت في الدنيا.

– تكلم بهمس. بهمس مخنوق، بل، حرك لسانك...

– ماذا؟

– السيدة؟

–ماذا بها؟

– السيدة...

– ميتة؟ مختنقة؟ منتحرة؟ ماذا... قل.

كان النطق مستحيلاً في تلك اللحظة، بل جنوناً. ألح مرة أخرى أن يعرف وبحثت أنا الآخر عن لساني. قرصني، وهمس.

– قل، ماذا حدث؟ تكلم؟

– ...

–تكلم.

– رباه... إنها تتعهر.

– لا أفهمك.

– تتعهر، هذه الدنيا. وي... وي... هو... ها...

– أعطني مجالاً لأرى.

– لحظة واحدة. فهمت لحظة واحدة.

– ماذا؟ إسمع، يجب ألا ننسى أننا دخلنا البيت دونما إستئذان، ودون أن أرفع عيني قلت:

– هم م م نستأذن ممن مم،

صمت زميلي، رفع الكلب رأسه فجأةً، ونصب أذنيه الطويلتين وأخذ يتلفت حواليه بحذر وفضول، بينما راحت السيدة تمسك من أذنيه، وتحرك رأسه وتحتضنه، وتقبله في أماكن لا على التعيين. وراحت تعبث بظهر الكلب، ثم ببطنه، وتطلق أصواتاً مكتومة كمن يتعارك، وتصر على أسنانها، بينما يحاول الكلب أن يتخلص منها.

قال زميلي:

– قتلتني أيها الكلب ماذا ترى؟

قلت كمن يتكلم في غيبوبة.

– كلب نعم كلب، وأيُّ كلب.

– ماذا ترى؟

– السيدة ميتة في فراشها.

– أمتأكد؟

– كلا لم تمت بعد أنها تنازع.

– لنخرج أيها السخيف.

– أين.

– إرفع رأسك ثم تكلم.

– أين.

– ألا تخاف!

– خائف لحد الجنون ألا تراني أرتعش.

– لنخرج.

– أجبته بلهجة ذابلة بعد أن أنتزعت عيني من الثقب بقوة.

– أسمع، لماذا لا تذهب وتبيع السمكة، ومن ثم ترجع الى هنا.

– وماذا تفعل أنت هنا؟

– أريد أن أكلم السيدة في أمرٍ هام.

– والله شاطر أمرٌ هام.

دفعني، وحدجني بنظرة غاضبة، وقال بوجه عابس.

– دعني أرى ماذا حدث.

– لا شيء أذهب بالسمكة.

قرب عينيه من ثقب المفتاح وراح يحدق وفي لحظات أخذ يحرك مؤخرته كمن يرقص، كانت السمكة ما زالت في يده تركها برفق على السجاد وبيد مرتجفة راح يمسد بطن السمكة الناعس دون أن يكف عن تحريك مؤخرته. قلت:

– إذهب وبع السمكة.

أجابني بهمسٍ مخنوق:

– أرجوك أصمت فقط أصمت.

– إذهب وبع السمكة.

– تنازلت عن حصتي منها لا أريدها خذها لك.

إستمر زميلي في التحديق وتحريك كامل جسمه مثل راقصة ولاحظت أن أصابعه تجرح بطن السمكة وتغوص في الأحشاء وعرفت أنه بدأ يلتهب بجنون وقال بهمس ولكن فيه حقد ألف إنسان.

– ألا تعتقد أن هذا الكلب بل كل الكلاب في العالم تستحق القتل؟

– لكن لا تحتكر التحديق لنفسك.

– سنتناوب عما قليل أتركني لأعش هذا العهر.

كانت عينه ملتصقة بالثقب وقال بوصوصة:

– يا أثداء العالم. أيُّ بطن. أحسُ وكأن يداً تعصرني..

– هل رأيت جسم إمرأة عارية من قبل؟

– أقسم فقط حلمت به.

– وأنا كذلك.

– الكلبة مثل الأخطبوط كأنها تملك ألف يد وألف فخذ. أه لكن هذا الكلب الحقير.

– ماذا يفعل.

– يرفض أن يبقى في الفراش.

– ألا يستحق القتل؟ أسمع أروِ ما تشاهده.

– لساني.

– ماذا به؟

– أين هو؟

– لقد جاء دوري.

نسي زميلي نفسه نهائياً. وتصورت أنه لو تهستر على هذا النحو لفجر فضيحة كبيرة، الصالون صامت، وكان لفرط إندماجه المجنون نسي نفسه وغرس يده حتى الرسغ في السمكة.قلت:

– إذا أحتكرت التحديق لنفسك أطلقت صرخة قوية.

– إذا صرخت أنتهينا الى الأبد كأصدقاء.

– تف على الصداقة. إن هذا إحتكار.

رفع رأسه وأرسل إليّ نظرة ملتهبة، ومجنونة بالغضب والشهوة ولدهشتي رأيت عينيه إحمراراً بلون الدم. وقال بهمس:

– أعطني حصتي من الفلوس.

– لماذا؟

– أريد حقي.

– ألم نعد أصدقاء؟

– قلت أعطني حصتي.

أعطيته خمسة دنانير. قدم لي ديناراً واحداً، ودعك البقية بسرعة بين أصابعه ودسها في جيب سرواله المغسول بالطين، وقال بصوت جد واطيء ومستجد.

– خذ وأمهلني أن أحدق لنصف ساعة.

أجبته بغضب:

– هذه معاملة حقيرة، بل حقيرة للغاية.

– لماذا؟

– ليحدق كل واحد منا لخمس دقائق، وهكذا بالتناوب.

– لكنني أمنحك ديناراً.

– حسناً. أمنحك أنا ديناراً لقاء نصف ساعة.

– قطب بغضب، وزفر مثل ثور هائج. قلت:

– نسيت نفسك مثل حيوان مفترس.

– وهل لا تنسى نفسك.

– الى هذه الدرجة. أنظر الى يدك. غرستها في بطن السمكة حتى الرسغ. وفي تلك اللحظة نظر الى يده وسحبها برفق وبشيء من الخجل. وقال:

– هل تعطيني ديناراً ونصف لنصف ساعة؟

– دونما جلبة، سلمته المبلغ وقربت عيني من الثقب.

كان الكلب مقعياً على الأرض. أما هي فكانت منحنية فوق السرير تداعبه. وكانت بين الحين والآخر تمد ذراعها لتعبث بأُذن الكلب. وتنحني الى درجة تسقط على السجاد ثم تبدأ معركة أخرى مع الحيوان على الأرض. إلتهبت، ووجدتني أحتاج لألفِ عين لأترصد تفجرات ذاك الجسد الرقيق. وكنت مثل المأخوذ أزحف مع حركتها السريعة من ردفيها الى ظهرها الذي كان مثل مستطيل من الحليب المتخثر تحت ضوء سقيفة الغرفة الخافت تقدم الكلب من الباب قليلاً. زحفت هي على بطنها ومسكت ساقيه الخلفيتين وسحبته إليها بقوة وألقته على السرير معطية كامل ظهرها للثقب.

قال زميلي قارصاً فخذي:

– أتنازل عن الدينار والنصف.

ودون أن أرفع عيني من الثقب قلت.

– خذ ديناراً آخر.

– خذ أنت ثلاثة.

ومسكني من كتفي وأزاحني عن الباب وسلمني في فورة من الشبق المجنون ثلاثة دنانير قائلاً:

– أرجوك. خذ وأعطني فرصة... نصف ساعة كثيرة بدينار ونصف.

– لكنك وافقت.

– غيرت رأيي.

أمتصني بعينيه المستجديتين، وقال:

– خذ ثلاثة دنانير.

قلت في نفسي. إنها صفقة سخيفة، ومربحة في آنٍ واحد. وتذكرت لا شعورياً النهر والطين. دس الدنانير في جيبي، وربت على كتفي بحنان أبوي، وإنحنى بصمت مقرباً عينيه من الثقب. وغمز لي بالأخرى بدبلوماسية. وفي لحظات يبحث بهيستيريا بأصابعه عن بطن السمكة، وقال:

– ضع السمكة تحت يدي. أرجوك...

– لماذا؟

– أرجوك. ضعها تحت يدي.

دفعت السمكة الى حيث أصابعه التي كانت تخمش السجادة. زحفت أصابعه الى السمكة، وبخفة قلبها، ثم راح يمسد بطنها. أراد أن يغرس أصابعه في مكان آخر من البطن، غير أنه وصل الى الثقب الذي فتحه في بطن الحيوان، بدأ يتحرك وأولج أصابعه في بطن المثقوب من جديد وبحرية سادية غرس يده في البطن حتى الرسغ. وقال بوصوصة:

– الكلب... الكلب ما زال يرفض أن يبقى في الفراش أنه يريد أن يقفز ، أتعرف لو بقى الحقير في الفراش.

– ماذا نفعل؟

– أوه... ماذا تفعل هذه الدنيا.

– أسمع، هل ستحتكر التحديق الى الأبد بثلاثة دنانير.

– كلا... لساعة واحدة فقط وإذا... خذ جميع ما ربحناه وأترك البيت.

– أبداً... أبداً.

تلفتَ إليّ، وسلقني بنظرات وحشية! ورفع قبضته مهدداً، كانت يده الأخرى مغروسة في بطن الحيوان. وقال:

– أنت تقتلني. أنت تتكالب عليّ؟ ألا تقبل بعشرة دنانير، ورغم غضبه، وإلتهابه

الفظيع من الداخل، ظلّ يتكلم بهمس. قلت:

– لا أقبل.

– لماذا؟

– أريد أن أعيش هذا الموت.

– لا بأس أنظر دقيقة واحدة، وأترك البناية، وخذ الدنانير العشرة ها ما رأيك؟ألا توافق؟

تبادلنا نظرات حاقدة. وقال:

– ما معنى هذا العناد.

– ماذا تقصد؟

– أخشى أن...

– ماذا؟

– أنظر لدقيقة وأترك البناية.

– سلمني بقية الدنانير، قربت عيني من الفتحة، وقلت:

– أيها المجنون، يبدو أننا نسينا أنفسنا نهائياً. أتعرف لماذا يرفض الكلب البقاء في الفراش؟

– لماذا؟

– لأن الحقير حتماً شمَّ رائحة السمكة. أبعِد السمكة بسرعة، نهض زميلي، وسار على رؤوس أصابعه مبعداً السمكة نهضت السيدة، وسارت الى زاوية الغرفة، ووقفت أمام مرآة دائرية كبيرة. وتأملت وجهها فيها. ثم عبثت بشعرها الفحمي الطويل. غنت بصوت خافت وحزين، وذهبت الى النافذة وتأكدت من الستارة أعطت ظهرها لفتحة الباب.

أنسدل ستار من اللحم على الفتحة عندما أقتربت أكثر. قال زميلي:

– أنهض وخذ السمكة.

– حالاً بعد أن ينتهي هذا المنظر.

– أنت تسرقني أجمل اللحظات.

– ستبقى لوحدك أيها الكافر... أنتظر.

تحركت السيدة الى الأمام، وإنزاح ستار اللحم ووقفت تحت الضوء الخافت المنساب

من سقيفة الغرفة معطية عمودها الفقري للفتحة. جرني زميلي، وشهر قبضته وهمس بجنون.

– هذه سرقة. سرقة.

– سرقة.

– تسرقني أجمل اللحظات. إنهض أيها الكلب هذه معاملة خسيسة. إذهب.

قلت في نفسي فعلاً إنها معاملة خسيسة... نهضت، وبسرعة برك وراح يبحث عن وضع مريح. وبعد لحظات هزّ جسمه وقبل أن أترك الصالون، رأيت يده تبحث عن السمكة. سرت على رؤوس أصابعي، والتقطت السمكة المجروحة في بطنها، وألقيتها في برميل القمامة خارج البناية.

وظلَّ يحلم بالوشم

يوم كان الهروب من الجندية اللعبة التي نجد فيها الخلاص ولو الى حين، كنا نحن أبناء جيل ١٩٦٠، ربما بدافع الخيبة نُصعِّد طاقاتنا الروحية، ونتصور أنفسنا مثل الشعراء الذين قال عنهم شلير: بوسعنا أن نكون مشرعي هذا العالم، هذا العالم الذي علمتّنا الظروف، ربما الأزمات، أو السقطات المتتالية، أن نراه مثل صورة مقلوبة. مع إننا كنا نهرب من الخدمة، غير أننا مثل الحمام المدرب، كنا نرجع سواء بطواعية، أو جبراً الى الثكنات: لذا تعودت عبر سنوات طويلة من الهروب، التنقل بصحبة رجال من النوع الذي كلف بتسليمي الى جهة رفض الكشف عن أسمها، ومن الدقائق الأولى تصرف معي بخشونة، ولغة جافة. وحاول إحاطتي والسفرة بدخان من الألغاز. ولتجاربي الكثيرة مع أمثاله، كنت من خلال مواقف أتعمدها، ثم أترصد بدقة ردود أفعال تصرفاتي على وجوههم. وأقرر ببساطة كيفية التصرف معهم. نادراً ما سُلِمتُ الى رجال صلبين طول فترة هروبي تصعب المساومة معهم حتى بالإكثار من دغدغة مصالحهم الذاتية. أو باللجوء الى رغباتهم، أو إرادتهم. أما هذا العسكري القروي، فبعد مضي نصف ساعة أو أكثر بقليل، كشف عن طيبة غزالية وسذاجة أدمت قلبي. عندما كبل يدي، حدجني بنظرة جاهد أن تكون صارمة، ولوى زاوية فمه بغضب أثار ضحكي... ومن تلك النظرات عرفت أن هذا المسكين سيكون في الطريق مثل آلة وترية أعرف كيف أعزف عليها، وأخرج منها الأصوات التي أريدها.

في الطريق ظلَّ يردد كلمة، من هنا... لا تستعجل... سر معي.

رأى صديقاً له، في عنق شارع فرعي، تكلما. سرت أنا بخطوات صغيرة. وقفت خلف عمود كبير تحت سقيفة. ترك صديقه. لم يرني، أصفر وجهه. أستفسر من بعض المارّة. ناديت عليه. عندما رآني تصنع اللامبالاة. وأرسل نظرة سريعة الى بندقيته، وقال بجفاف: سر...

قلت في نفسي: بوسعي أن أهرب منه... لكن، كلا.

مزحت معه، وتكلمت له عن صباي في المدينة، والشوارع، وذكرت له أسماء المناطق، أراد هو الآخر أن يسرد لي جانباً من طفولته، رفضت الإستماع إليه، وشغلت نفسي

بتأمل البيوت، والشوارع الفرعية. إستمر يسرد لي جانباً من فترة مراهقته، وحبه، وتكلمت له قصصاً عن الحب ربت على كتفي، وقال: سأفتح لك الجامعة –الكلبجة–... الطريق طويل، يجب أن تتكلم لي...

قلت: لكن، يجب أن تهتم بمسؤوليتك.

قطب، قطبت أنا الآخر، وطلبت إليه أن يستعمل معي الخشونة، وألا ينسى واجبه. بعد صمت طويل رددت لنفسي أغنية حزينة، إستمع إليّ بشغف، وقاطعني قائلاً:

– إنها تذكرني بقريتي...

لم ألتفت إليه. وراح ينقل لي لوحات بائسة عن قريته التي عاش فيها حتى بلغ العشرين، وكيف هجرها بعد أن أغتيل والده، وكيف جاء الى المدينة، فجأة ضرب باطن يده على أخمص بندقيته، وقال بغضب:

– لماذا لا تستمع إليّ...؟

قلت:

– ما رأيك أن ندخل مطعماً!

قال:

– ذات مرة دخلت مطعماً ولأول مرّة في حياتي، ولست أدري لماذا تزحلقت قدمي وسقطت على الأرض، ورفعني نادل عجوز كان يحمل بيده ماعوناً من الحساء. حركت جسمي لأنهض. تزحلقت قدمي مرة أخرى وسقطت هذه المرّة على جانبي، تصور لم يتأثر أي واحد في المطعم، وإنما راح الجميع في قهقهة، وتطايرت قطع الأكل من أفواههم، وفي المكان الذي سقطت فيه كان يجلس رجل ظل يبصق حبات الرز في وجهي.

– لماذا؟

– لأنه كان يضحك...

توقف عن الكلام، وأنتظر أن أعلق على كلامه، وأبدي تأثري... قلت بجفاف:

– وما معنى هذه السخافة؟

– أعرف كانت سخافة.

– ألم تخجل من نفسك؟

– الأرض كانت زلقة.

– هل كنت حافياً؟

– كنت أحتذي نعالاً... ألا تتصور أنني أُهنت من قبلهِم؟

– هل ما زلت تفكر بجدية في نفس الموضوع؟

– منذ ذلك الوقت لم أدخل مطعماً...

تصورته منكفئاً على وجهه في المطعم، ودشداشته مغسولة بالحساء، ووجهه الأسمر المخروطي مرتعب، أطلقت ضحكة قوية، غَضِب، وغمغم، ثم ضرب بحركة عسكرية باطن يديه على أخمص بندقيته مرات عديدة، سرنا بصمت لمسافة طويلة. إبتسمت له، قال مستغلاً إبتسامتي.

– ألا تعتقد أن ذاك السخيف أهانني؟

– هل ما زلت تفكر في نفس الموضوع كعشائري؟ أخي أنك الآن رجل حكومة...

– إسمح لي، النادل العجوز، ألا تتصور أنه قد قَلبَ ماعون الحساء على وجهي بتعمد؟

– أخي إنسَّ...

– إسمع، أنت تفهم أكثر مني، مرّ أخرى أردت أن أدخل مطعماً صغيراً ولكني تزحلقت أمام الباب...

قلت بلهجة جافة:

– حاول أن تنسى... أنا واثق إذا جئت معي فسوف لن تتزحلق.

وقال بصوت عال:

– مستحيل.

قلت في نفسي: إلهي، ما هذه المخاوف اللاشعورية من أحداث سخيفة؟وما هذا الأسف القديم الذي لا أسم أو معنى له، والندم الذي يحسه حيال شيء تافه...؟

أهملته. تكلم عن أشياء أكثر سخافة. شعر أنني لم أعد أستمع إليه. صفع من جديد أخمص بندقيته. أهملته أكثر. وصلنا الى ممر ترابي. ركلت أكواماً من التراب، إنتهى المرر الى ساحة أسمنتية واسعة. تبعنا أطفال بخوف. وأرسلوا إليّ نظرات حزينة، مزحت معهم، ضحكوا، ظلت عيونهم حزينة وهي تترصدني. أرسلَت ثلة من النساء نظرات حزينة إلينا، وهززن رؤوسهن. وقال:

– كلما أخذت هارباً، غسلوني بنظرات لا أفهمها... لا بد أن وجهي... لم يكمل. تبعنا

الأطفال. حلّ ظلام خفيف على الساحة. رأيت عدداً كبيراً من عربات القطار في الجهة اليمنى من الساحة، كانت ثمة أضواء كثيرة وحادة، أعشت الأضواء الحادة بصري. وأعطيتها ظهري لا شعورياً، وصرخ هو بإرتباك: أين؟

وغسلت إمتداد الرصيف موسيقى شبيهة بمارش عسكري. زجر رجل متجهم العسكري بقوة:

– أهذا مكان للسير مع هارب... خذه بسرعة...

إرتبك، وأخذني بسرعة وهو يخب مثل الحصان. وأدخلني في صندوق مظلم داخل إحدى العربات وأغلق عليّ الباب من الخارج، إنتظرت في الصندوق، وفكرت أن أشغل نفسي بشيء ريثما يرجع. إنشغلت بعد الألواح الخشبية لأرضية الصندوق. أحسست بإختناق. وقفت على رؤوس أصابعي. وتمطيت لأصل نافذة صغيرة... إستمرت الموسيقى، وأصوات أرجل، وموجات خفيفة من التصفيق...

بعد مدة طويلة. تحرك الصندوق، وغمرت المكان أصوات عجلات القطار، تساءلت مع نفسي، ربما كان إحتفالاً... أين ذهب؟ لماذا تجاهلني؟ ربما نسيني. ترى الى أي مدينة سيأخذني...؟ هل يعقل أنه فكر في الإنتقام مني لأنني رفضت أن أستمع الى ذكرياته؟ أم أرتبك عندما زجره الرجل وأدخلني الى هنا؟ لماذا أقحمني في هذه الغرفة الصندوقية؟

طرقت على الباب مرات عديدة، وصرخت بقوة: أفتح... أفتح... أنت... وظللت أكرر كلمة –أنت– لأنني لا أعرف أسمه. ربما كان يرد عليّ. إهتز الصندوق بقوة، وإمتلأ فمي بضجيج العجلات. تعبت من الوقوف، وأخيراً جاءني صوته:

– ماذا تريد؟

– لماذا حجزتني في هذا المكان الضيق؟ أخرجني.

– أتعرف لماذا؟

– لا... لا... لا.

– لأنك لا تستمع إليّ. أليس من الصعب ألا تجد من يستمع إليك؟

– لكنني لا أتكلم عن ذكرياتي. وهل أنا أحمق لأتكلم عن ذكرياتي؟

ولست أدري فيما إذا كان قد غير جرس صوته، أم أنه كان يختلط بضجيج عربة، قال:

– كيف كان شعورك منذ تحرك القطار؟

– آه... أرجوك أفتح الباب... أسمع، هل تأخذني الى بغداد؟ أم... وهل يجب أن أبقى واقفاً؟ أرجوك... تعقل...

– ماذا؟ تهددني؟

– أرجوك... ما الذي حدث...؟

وأذهلني هذا الساذج عندما قال:

– تصور نفسك وأنت تتكلم عن هذه التجربة لشخص وهو يرفض الإستماع إليك.

– أفتح الباب.

– إذا فتحت... هل ستستمع إليّ؟

– الى ماذا؟

– ذكرياتي.

– لكن ما دخلي في ذكرياتك؟

– إذن لن أفتح.

لم أرد عليه. وحرت في هذا التصرف المجنون، ولا أعرف من الذي قال :

– أن بوسع النية الحسنة إن لم تكن نيرة أن تحدث من الأضرار مثلما يحدث الخُبث وسوء النية. وذكرني هذا الحادث بعسكري آخر زجني في غرفة ضيقة في القطار لمجرد أنني نبهته بأنه يشخر كثيراً في نومه. أما هذا، فهل يعقل لأنني لا أريد أن أستمع الى ذكرياته، أو أن أسامره طوال الطريق؟

وبعد أكثر من ساعة طرق عليّ الباب، وقال:

– ماذا قررت... ثم لماذا يجب أن تصمت طوال الطريق...؟

– أخي تعلم أن تنسى الأشياء السخيفة... واجه كل شيء ببساطة.

– إذن أبق في الغرفة ببساطة.

أنفجرت في ضحك قوي سقطت على أثره على أرضية الصندوق، وضربت رأسي مرات عديدة بيدي مردداً، أن هذا القروي الساذج يعرف أن ينطق أحياناً... يالهذه العفوية في الكلام، والنظافة في السلوك!

تنمل جسمي من إهتزاز الصندوق الرتيب. وأخذني نومٌ عميق. وعندما أيقظني، رأيته واقفاً في شق الباب يحرك بيريته أمام وجهه المخروطي المعروق، ضرب بيريته على

ذقنه، ثم أنفه المجدور، وبعد أن تأمل العلامة النحاسية في مقدمة البيرية، قال بصوت مرتجف:

– أخرج... تعال نجلس وحدنا.

كانت العربة خالية إلا من إعرابيين، وإعرابية جميلة، ومجموعة أكياس، وحاجيات قروية مزروعة أمامهم. كانو في تشكيلتهم، وتقطيبة وجوههم وإلتماعة عيني الأعرابية الجميلتين كأنهم لوحة لجواد سليم. كان القطار يسير بسرعة، أردت أن أسأله أين سيأخذني وأين إنتقلت وحدتي، لكنني غيرت فكري، وتركت كل شيء للمفاجأة. قلت له محاولاً أنسى تصرفه معي:

– مسافرون.

– نعم... معهم إمرأة جميلة... سمراء... كنت أتكلم معهم طوال المدة التي حجزتك في ذاك الصندوق. تكلمت معهم طويلاً. عاملوني بلطف. خاصة عندما أعطيت بندقيتي لأحدهم...

قلت مقاطعاً:

– ماذا؟ كيف؟

– لم أعطها له... كلا... لعب بها، وشرحت له كيفية إستعمالها... إنها من النوع الجديد.

وتعجبت لماذا راح يتكلم ببطء وقال:

– شرحت للمرأة حادثة المطعم. أتعرف أنها رثت لحالي كثيراً، وقالت أنها لم ترّ مطعماً في حياتها. قلت لها ألا مانع لديّ من أن أدعوها الى أحد المطاعم. لكن، ذاك الذي يجلس مثل القنفذ يحذق في إتجاهنا... أنظر الى عينيه... إنهما مثل الفانوس زجرني مرات عديدة...

قلت:

– غجر؟

– لست أدري يشبهون الغجر... أسمع، كان ذاك القنفذ يسمح لي أن أكلم المرأة كلما سمحت له أن يعبث ببندقيتي... إنها جميلة... فوق خدها، وذقنها... وعنقها شامات بلون الشذر...

خف صوته، وأخذ يزدرد ريقه بصعوبة... ومن بعيد تلألأت أضواء صغيرة أغمض هو عينيه، وإنشغلت بمنظر الأضواء البعيدة. خفت سرعة القطار قليلاً... نهض الأعرابيان

وألقيا بحركة صامتة مجموعة الأكياس من العربة... حدقا فيّ طويلاً وبنظرات عدائية، ثم قفزوا جميعاً من العربة قلت:

– وماذا بعد...؟ ماذا قالت المرأة؟

تحول وجهه الأسمر بكر الدقائق الى صفار غريب. بلل شفته السفلى وأجابني بصوت ذابل:

– إنها رثت لي... كانت عندما تتكلم يرتعش جسمي... كانت تذكرني بالقرية وبأشياء كثيرة.

وأطلق أنة حزينة وموجعة... إن هذا الطيب يعاني من تعود مزمن على الرثاء والعزاء. قلت:

– تكلم... أريد أن أستمع إليك...

قال بصوت ضعيف:

– كانت تستمع إليّ، وتترصد ملابسي، وبيريتي، وبندقيتي، وكنت ألحُ عليها أن تأتي... وقلت لها الكثير من المطاعم.

توقف عن الكلام، وهز رأسه، ومسح جبينه الذي ألتمعت عليه حبات العرق بكثرة، ثم جلس كتمثال خشبي، وأرسل نظرات ميتة بإمتداد العربة، قلت:

– ماذا قالت... تكلم؟... الطريق طويل... ألم تطلب...

قاطعني قائلا:

– شكراً... قالت لي بهمس، أنها مستعدة لتأتي معي... آه، هيجني صوتها، وحبات الوشم على خدها. عندما أنشغل الأعرابيان ببندقيتي، إقتربت منها. نسيت نفسي نهائياً عندما شممت رائحة عرق جسدها... ذكرتني تلك الرائحة بقريتي. تهيجت... أردت أن أقبلها لكن ذاك الذي تشبه عينيه الفانوس غرس مدية طويلة في ظهري... خلته يمزح، ولما أشار الى حيث مكان الطعنة، رأيت سترته من الخلف مغسولة بالدم. خف صوته، وهزّ رأسه بحركة ميتة، وإنحنى عنقه مثل عنق دجاجة ذبيحة. ورجاني بصوته الذابل ألا أثير ضجة، وأن أحاول الأستماع إليه، وصرخت:

– لكن، تصور موقفي... هل يجب أن أدفع ثمن هذه الحماقة؟

أطلقَ أنات حزينة وموجعة وقال:

– حاول ألا تدعني أموت حتى نصل الى المحطة المقبلة. أو أهـ...ر...ب... وبعد صمت

طويل، قال كمن يتكلم في نومٍ عميق:

– ترى ماذا كنت أفعل لو جاءَت معي؟ أو تزحلقت قدمي وهي معي في المطعم. كانت ستضحك عليّ أليس كذلك...؟ قل نعم ولو لمرة واحدة.

ومات.

هو!؟ هي!؟ هو!؟

قال في نفسه وهو يختلس نظرة فاحصة من وجه النادل. لم يكن وجهه بهذا العبوس البوذي. وأضاف. لكن النادل خير من يلبسون الأقنعة. وإسترجع بدافع لا معنى له وجه النادل المطاطي، وإبتساماته المسلكية، وأسنانه البيضاء التي أعجبته كثيراً، وإنسحابه الأفعوي من غرفته، وتلك الإنحناءات الكوتية التي راح يقلدها مع نفسه كلما أنصرف، مرة أخرى حارَّ في تقطيبته. أدخله النادل في غرفة متوسطة الحجم. كان (ق) ما زال دائخاً من النوم الطويل. غطس في مقعد جلدي ومن خلال الضوء الخافت تأمل صورة مضيفة حزينة على تقويم جديد كانت المضيفة تحمل كمنجة بيد، وقبعة بلون القرنفل. إبتسم (ق) وقال في نفسه: مصور بارع، كانت الصورة ملتقطة من وراء زجاج كبير مرشوش بستار خفيف من المطر. تأمل الصورة من جديد وقال: ربما رجعت لتوها من سفرة طويلة، ونهض لمجرد أن تدب في جسمه الحركة، وإقترب من التقويم، وتفحص الصورة بتلذذ، وردد كمن يحلم: أين يذهب العندليب عندما يأتي الشتاء؟ وأحس بعاطفة دافئة، وقال: لماذا الإحساس بالعاطفة أحياناً نعمة أكبر من نعمة الشعور بهذه العاطفة؟ زحف ببصره الى حقل الأيام، وبحث عن التاريخ، وقال في نفسه: ثلاثة أيام؟ أوه، أتسمي هذه عطلة؟ تخيل الشارع الوحيد الذي طرقه مرات عديدة، والمقهى الذي جلس فيها بحس مخمور لنصف النهار، وقال من جديد: سأجرب التجوال فيه من جديد، وربما أهتدي إليها هذه المرّة.

توقف عن مخاطبة نفسه، ودقق بصره في الغرفة وإمتعض من جوها، وحجمها الصغير، وضوء المصباح الكامد، بحث عن النادل، لم يجدهُ. صرخ عليه، وقال: ينسل مثل الأفعى. لم يعجبه في الغرفة سوى التقويم، ووجه الفتاة. شعر برغبة قوية في إحتساء قنينة جعة باردة.

صرخ بقوة على النادل، عاد الى المقعد الجلدي، كانت غرفته الأولى فيها أضواء جميلة تريح الأعصاب، تذكر ستارتها المخملية الجميلة، والنافذة الواسعة التي تطل على الشارع، والتي منها كان يترصد المارّة، والباعة، والبغايا وهن يقفزن في جوف السيارات الميكانيكية المضحكة، وقال في نفسه: كلب... لماذا غيرّ غرفتي؟ ألا أدفع مثل البقية؟

دخل فجأة شاب طويل القامة، وأضاء مصباحاً كبيراً، وبحركة سريعة زرع نفسه خلف مكتب عليه ملفات، وأوراق مبعثرة، وتلفون، لم يعر (ق) كبير الإهتمام للمكتب، مسح بنظرات سريعة الغرفة التي تعرت فجأة تحت الضوء، صرف على أسنانه، وقال:

لماذا غيرت غرفتي؟ أضاء الشاب الطويل مصباحاً صغيراً فوق المكتب. تبادل (ق) والشاب نظرات إستفسارية طويلة وللحظات تصور (ق) أنه النادل جاء ليغير بعض الأشياء في الغرفة. وقال الشاب بصوت دافيء أرتاح له (ق)كثيراً.

– معذرة، لدي مجموعة أسئلة، أرجو الإجابة عليها مشكوراً.

منذ ثلاثة أيام وهو يسمع أكثر من أي شيء آخر كلمة «شكراً، ومشكوراً». رفع (ق) رأسه . وتأمل سقف الغرفة ومن ثم الشاب، وأجاب:

– أسئلة! لكنني أعطيت هويتي لمكتب الفندق.

– لكنها أسئلة مختلفة بعض الشيء.

نكس (ق) رأسه، وتذكر أن النادل عندما جلبه الى هذه الغرفة سار معه مسافة طويلة شعر خلالها بتعجب، وذهول شديدين من سعة الفندق. وبكر الدقائق، وتحت ضوء المكتب تذكر أنه في شوارع فرعية، رأى مارة في الطريق، وسمع أبواق سيارات وقال في نفسه: ربما كانت في جولتي القصيرة ليلة أمس. وأسترجع وجه النادل المقطب الذي كان يسير لصقه لم يعرف سبب تلك القطبية. وقال: لكن الإبتسامة لم تجف على وجهه إلا مساء هذا اليوم. كان يترصد جرس غرفتي، أو خروجي من الفندق، أو مجرد ذهابي الى الصالة ، ربما حدث له مكروه. صرخ على النادل، وأستفسر الشاب رأيه في قنينة جعة باردة، وإندهش عندما قطب الشاب، وتملص عن طلبه برفق.

أرتاح لحركات الشاب وقال: أتعرف أن الخدمة سأت فجأةً في هذا الفندق؟

– لماذا؟

– أين النادل؟

– رجع الى الفندق.

– رجع الى الفندق!!؟

إبتسم الشاب، وقال بصوت رقيق:

– السيد (ق) أرجو أن تستعد للأجابة حتى يتسنى لك الرجوع الى الفندق.

زاد ذهول (ق). وإبتسم هو الآخر وقال في نفسه: لقد قطعت مسافة طويلة لكن من

أين الى أين؟ لا، لا يمكن أن يمكن ثمة فندق بهذا الكبر. ضرب جبينه برأس سبّابته، وتذكر أن النادل سحبه مرات عديدة من كتفه، ودفع من أمام السيارات وأعتذر بدلاً منه طوال الطريق. وكلما طلب إليه النادل أن ينتبه، كان يجيب: لقد قمت من النوم لتوي.

وقال للشاب:

– حقاً أين النادل؟

– قلت رجع الى الفندق، وسترجع أنت الآخر...

– ولكنني غريب.

– سواق التاكسي يعرفون الفندق.

لطم (ق) حافة المكتب مرات عديدة، وأخذ يكثر من الإبتسامة، وقال للشاب بلطف:

– أذكر أن والدي قال لي ذات مرّة، أنه ووالدتي ضاعا هنا قبل أكثر من ثلاثين سنه وهما في الأسبوع الأول من زواجهما.

بادلهُ الشاب إبتسامة رقيقة، وبحركة دبلوماسية قدم له سيجارة، وأشعل واحدة لنفسه، وقال: إنها مدينة كبيرة.

تأمل (ق) صورة الفتاة الحزينة، وقبعة القرنفل من خلال دخان السيجارة. وإحتضن الصورة بدقة، ورأى جناح طائرة رمادية يلمع مثل شفرة مدية خرافية. فكرَّ بالفتاة، وإقتنع بما لا يقبل الشك أنها تشبه صديقته، إنتابته حالة من النشوة، والسأم، ثم القليل من العذاب. نسى الفتاة، وفكر بعالم الطيران، والعواصم، والمسافرين، والإغتراب، وشعر بالإعتزاز أنه هو الآخر مسافر وفي مدينة كبيرة، جاءه صوت شاب.

– متى وصلت المدينة؟

ولفرط إندماجه في الصورة، وفي الوجه الحزين، وعالم السفر، تصور أن الشاب هو الآخر يشاركه في تخيلاته، وقال:

– أن وجهها يقول الآن، بل، أكثر من هذا إن كل شيء فيها يقول أنها على موعد.

أطلق الشاب موجة كثيفة من الدخان، وقال مجاملاً:

– يمكنك أن تأخذ الصورة، أسمع، متى وصلت انت الى المدينة؟.

أهتز (ق) في مقعده، وقال:

– قبل ثلاثة أيام.

وأضاف بذهول:

– ربما ثلاثة أيام!

– هل تعرف رقم غرفتك؟

– لا أتذكره الآن. أعتقد أن غرفتي هي إما الثالثة، أو الرابعة على الجهة اليمنى على الطابق الثالث.

– متأكد؟

شرد للحظات، وحاول أن يسترجع مربع الضوء الأحمر في المصعد والرقم الفسفوري الذي ينطفيء بمجرد تركه صندوق المصعد، وقال:

– ربما الطابق الثالث....

ترصد (ق) أصابع الشاب الطويلة الممسكة برفق بالقلم، ووجدها منسقة بشكل جميل، وقال في نفسه: حظه جميل. ولكن أصابعه أجمل. سأله الشاب:

– هل جئت للراحة؟

– نعم.

وتذكر للحظات الوجوه المحنطة، والعيون المنطفئة التي تحدق في الفراغ في صندوق الدائرة، وخاصة وجه زميل يجلس قبالته يذكره بمنتهى الفراغ والموت. تنحنح (ق) وأطلق زفرة طويلة. وشعر أن مجرد إسترجاع تلك الوجوه كشف تعبه وغمغم،أجل، مجرد راحة.

– متى رجعت الى الفندق ليلة أمس؟

– لا أعرف.

– حاول أن تتذكر.

وبعد شرود طويل أجاب – النادل يعرف. أو ربما كاتب الفندق الذي سلمني المفتاح، أو عامل المصعد.

– لِمَ هؤلاء فقط؟

– كانوا يقظين.

– أين كنت الليلة الماضية؟

– أذرع الشوارع.

حاول (ق) أن يعرف أين هو، وأين النادل الذي رافقه وأين كان الليلة الماضية. تذكر الأمسية التي وصل فيها الى الفندق الذي بهرته واجهته المغسولة بالأضواء، ورنين

الضحكات النسوية. والنادل الذي طير حقيبته بسرعة، وتذكر حالته النفسية المشحونة بالنشوة. وهو يتأمل المدينة التي سمع عنها الكثير ولم يرها سوى الآن. ثم شكل غرفته رأى منه الكثير في المجلات فقط. وتذكر قناني الجعة الثلاث التي أحتساها بعجالة، وأخيراً الشوارع، وعودته بصحبة خفير سكير بعد أن ضاع في الأزقة، حسناً، أما الليلة الثانية، وهي الليلة التي يُستجوب بخصوصها ، رجع دون أن يعرف متى. وقال في نفسه:

يبدو أن الصمت الذي عشت فيه جعل كل شيء مشوشاً أطلق (ق) ضحكة داوية عندما ألقى الشاب بعد صمتٍ طويل صورة إمرأة عارية بالقرب منه. وقال مغيراً الموضوع بلباقة :

– تأمل هذه المصورة...

تأمل (ق) الصورة بصمت زاحفاً برفق من الشعر الأسود الطويل الى الوجه، والعنق، والأثداء، والبطن، وإنتهى منكساً رأسه عند القدمين، وبعد دقيقة نفض رأسه، وبحث بذهول عن الصورة فوق التقويم. وقال الشاب:

– هل أعجبتك؟

فكر فيها إذ يريد هذا الشاب أن يبيعه صوراً عارية، وقال ببرود:

– إنها مجرد صورة.

– ألا تجد فيها شيئاً؟

– إمرأة عارية.

– وبعد!

– عارية، ولاشيء.

إبتسم (ق) وتذكر أن البعض يحملون مثل هذه الصورة لمجرد التنفيس.

إرتاح للشاب ورجاه أن يحتسي معه قنينة جعة.

– كلا... في وقت آخر... أسمع، هل كنت مع إمرأة ليلة أمس؟

– قطعاً.

– حاول أن تتذكر.

– قلت قطعاً.

– ولكن كنت مع إمرأة.

– حبذا ولكنني لم أكن.

صمت الشاب. حاول (ق) أن يتذكر، شعر بألم حاد في رأسه، رفع الشاب سماعة التلفون، وهمس ببضع كلمات. عاد (ق) الى الصورة العارية، وصورة الفتاة الحزينة على التقويم، وقال في نفسه: ترى أين هي الآن في هذه المدينة الكبيرة، وتذكر تلك الخارطة التي رسمتها له بيد مضطربة على ورقة سمراء، لكنه ضاع في الأزقة ورجع بصحبة خفير سكير. وقال بتألم، سأبحث عن بيتها غداً.

دخل النادل. أقرفه وجهه العابس، وإن أكد وجود، حقيقة كونه في الفندق من جديد، وقف النادل قبالة الشاب، وتبادل نظرات خائفة معه، في حين راح يختلس نظرات استوفازية من (ق). طلب (ق) من النادل أن يجلب قنينة جعة. زاد إضطراب النادل. ونكس رأسه، ومط عضلات وجهه. سأل الشاب (ق) فيما إذا كان يعرف النادل. فأجاب:

– أوه... طبعاً... إنه إنسان لطيف.

وسأل النادل بصوت واطىء:

– متى رجع السيد (ق) الى الفندق؟

قال النادل: في الثانية عشرة ليلاً.

– هل كان مخموراً؟

– كلا. ولكنه رغم ذلك كان يترنح.

– كيف عرفت أنه لم يكن مخموراً؟

– عندما حملته بعد الحادثة وألقيته في فراشه شممت رائحة فمه.

جفل (ق) مثل حصان فزع، وغرس عينيه في وجه النادل، وعبثاً حاول أن يتذكر أية حادثة قصدها، وإستطرد النادل بعد لحظات قائلاً:

– وبعد ذلك نام حتى الرابعة مساءاً. وجلبته هنا بناءاً على طلبك.

أشار الشاب الى النادل بالخروج، وبعد دقيقة دخلت إمرأة جميلة، ووقفت في نفس مكان النادل، وأرسلت نظرات طويلة الى (ق)، كانت نظراتها مزيجاً من الحنان، والاعجاب، والذهول. وخلال الصمت الذي تصنعه الشاب، وزع (ق) نظراته مرات عديدة بين الصورة العارية فوق المكتب، والمرأة، وصورة الفتاة الحزينة، أرتبكت المرأة، وقال الشاب للمرأة:

– هو!

أجابت بصوت مخنوق: بالضبط.

وسأل الشاب (ق) الذي كان شارداً إذ ذاك:

– هي!

إنتاب (ق) ذهول، ووجد نفسه في إلتباسات لا معنى لها، وقال في نفسه: ربما هي؟ ولكنها لا تشبهها، هل يجوز هي الأخرى كانت تبحث عنه؟ ترى كيف عرفت أنني جئت الى المدينة؟ بحلق فيها، ثم راح يقارن تقاطيع وجهها مع صورة الفتاة الحزينة.

– لا تشبهها.

كرر الشاب سؤاله على (ق):

– هي...؟

هزَّ (ق) رأسه قائلاً: من؟

– ألا تعرفها؟

– أبداً.

رفع الشاب سماعة التلفون وتكلم بسرعة. بعد لحظات دخل إعرابي قصير. أفطس الأنف، ذو بشرة بلون النحاس المطروق، يرفل في ثوب حريري، وعباءة بلون الحناء. تقدم بخطوات واسعة ووقف لصق المرأة مثل دمية. تبادل الأعرابي، و(ق) نظرات قصيرة وقال الشاب مخاطباً الأعرابي الذي كان يتصنع في إظهار ثوبه الحريري:

– هو...؟

وسع الأعرابي عينيه، وقال بجرس غريب. بالضبط.

أطلق (ق) زعيقاً غرابياً، وقال بغضب:

– ماذا يعني، هو، هي، هو، بالضبط... ثم من يكون هذا الشيخ؟

ظل الشاب بارداً في مكانه وقال للأعرابي:

– متى دخل غرفتك؟

– في الليل، كانت الساعة حوالي الثانية عشرة والنصف.

قفز (ق) من مكانه مثل الملسوع، وأراد أن يهجم على الأعرابي ويمزق ثوبه، لكنه ردد بفحفحة.

– أما هذا فمستحيل.

قال الشاب للأعرابي بهدوء:

– أجب بصراحة. كيف دخل؟ ماذا كنتما تفعلان ساعة دخوله غرفتكما؟ أرتبك الأعرابي. وعبث بكوفيته، وتأكد بيد مرتجفة من عقاله الذهبي فوق رأسه، وبآلية لف جسمه داخل العباءة. وقال:

– كنا في الغرفة.

سأله الشاب فيما إذا كانت المرأة زوجته. لم لم يحر الأعرابي جواباً، وأكتفى بأن أطلق غمغمة قصيرة، وتملصت المرأة في الأجابة على السؤال نفسه. وقال الشاب للأعرابي بقسوة:

– هل حقاً نزع السيد (ق) ملابسها بقوة عندما دخل الغرفة كما أدعيت في التحقيق.

– نعم.

– وكيف قبلت؟

– كان يحمل مدية طويلة.

نفض (ق) رأسه. وأستمع بإندهاش الى الأعرابي، وأستطرد الأعرابي:

– وبعد أن نزع ملابسها راح يخرمش ظهرها، وبطنها، بينما ظلت المسكينة، تطلق أنات موجعة ومخنوقة من الخوف، وخشيةً ألا نثير فضيحة في الفندق صمتنا.

قاطع الشاب الأعرابي، وسأل المرأة التي كانت تزفر فيما إذا تكلم الأعرابي كل شيء... وقالت بصوت متخثر:

– كلا. قبل أن يدخل علينا السيد(ق) بحوالي نصف ساعة، طلب مني، تتوقف وتشير الى الأعرابي، أن أنزع جميع ملابسي وأستلقي في الفراش، أو أجلس على كرسي. وفعلت.

جلست أكثر من مرة على الكرسي، وفجأة دخل علينا السيد (ق) كنت آنّ ذاك مستلقية على السرير.

قاطعها الشاب قائلاً:

– ألم يكن الباب مغلقاً من الداخل؟

– طلبت منه أن يغلقه، لكنه نسي.

– وماذا فعل السيد (ق) عندما دخل الغرفة؟

أرسلت المرأة نظرة حزينة، ودافئة صوب (ق) الذي تكور مثل قنفذ صغير على المقعد

الجلدي، وراح يحدق في الفراغ بنظرات بمنتهى الحيرة والتعجب... وأستمرت المرأة...

– كان مضطرباً للغاية، ويبدو أن صديقي لم يره، ولفرط خوفي جمدت في مكاني، لم أستطع حتى أن أغطي نفسي بالشرشف الذي كنت أمسك حافته بأصابعي، تقدم مني، وتوقف على مبعدة متر، أو أكثر من السرير. في البدء خفت من نظراته. لكنه سرعان ما رسم على وجهه إبتسامة بددت مخاوفي. وتقدم أكثر، وبرفق أخذ يمسد صدري، وجبيني ويشم شعري.

قاطعها الشاب قائلاً: ألم تفعلي شيئاً.

– أردت أن أفعل شيئاً، غير أنني تريثت، وأختلست نظرات سريعة من وجهه بينما أستمر هو بصمت يمسد ظهري، وشعري.

– وهل ظل زوجكِ جامداً في مكانه!

إرتعشت المرأة، وقالت في محاولة عابثة للسيطرة على نفسها.

– إنني عاهرة. أنه ليس زوجي.

وقال الشاب: أستمري.

– برك أمامي، ثم تمدد لصقي. ومن نظرات الأعرابي الذي ظلّ جالساً بصمت عرفت أنه لن يعمل شيئاً. خف الإضطراب من وجه السيد(ق) وعملت جهد لأخفف بقية إضطرابه. إبتسمت له، وإبتسم هو الآخر.

توقف عن الكلام، وبحثت عن وجه (ق) الذي كان غائباً، ومضطرباً كمن يبحث عن إرتكاز. وأستطردت.

– مررت أصابعي على جبينه المعروق، كان يعرق بغزارة، وأخيراً قام بحركات غريبة. توقفت عن الكلام، وبعد لحظات حثها الشاب أن تستمر، وأن تذكر بعضاً من تلك الحركات.

وقالت: أوه، معروفة. شمني بحنان، وأراح رأسه على بطني، ومن ثم بكى.

قال الشاب: الأعرابي يقول أن السيد (ق كان يحمل مدية).

أجابت المرأة: أبداً... في الحقيقة أن السيد (ق) عندما دخل الغرفة كان هو الآخر عارياً.

أطلق الشاب ضحكة صهيلية، ولطم المكتب بيده، وطلب من المرأة أن تستمر.

– وتمدد لصقي أخيراً، وبعد حوالي نصف ساعة نهض، وغطاني بلطف بالشرشف،

وسار دون أن يلتفت يمنة أو يسرة نحو الباب. طبعاً طوال هذه المدة لم يرّ الأعرابي. وفجأةً جاء طرقٌ على الباب. فتح الباب بنفسه، ودخل الى الغرفة.

صعق النادل. وبحركة سريعة إنهال على النادل ضرباً وهو يردد: يجب أن تعرف أصول الأدب واللياقة.

غير أن النادل إندفع الى سريري ورفع البطانية من عليه، ولف بها السيد (ق) ومن ثم حمله خارج الغرفة.

ذهل الشاب ووزع نظرات كلها حيرة الى المرأة والأعرابي، و(ق)، وسأل المرأة:- ماذا بعد.

– وعندما خَرّجَ النادل السيد (ق) سألت الأعرابي لماذا لم يفعل شيئاً. قال، أنه ألتذ من منظرنا ونحن عراة في الفراش بل أكد أنه أنه يتمنى أن يطول المنظر حتى الصباح، عوى الأعرابي، في حين أطلق (ق) ضحكة داوية، وقفز في الغرفة مثل أرنب مطارد، وهو يردد:

– أما هذا فلا... رباه متى حدث كل ذلك؟ إنه إلتباس...

يتقدم من المرأة ويريد أن يحتظنها، يتراجع، ويذهب صوب صورة الفتاة الحزينة.

ينهض الشاب ويتهيأ للخروج.

يأخذ (ق) التقويم، وتردد المرأة

– إنني لم أُقم عليه دعوى. إنني أتنازل عن كل شيء. ثم أنه دخل الغرفة سهواً.

حتى القطط

عندما أنطفأ الضوء، أكتفى كما فعل قبل ليلتين بمستطيل الضوء المرتطم بسقف الغرفة الحليبي المنساب من زجاج النافذة فوق الباب المطل على الصالون. كان ضوء الصالون كما في كل الفنادق مضاءاً بإستمرار حتى الصباح، كانا يريان البعض مثل شبحين شفافين ومع إنهما لم يرتاحا للون الشاحب للغرفة، لكنهما ظلا يكرران ، أن الأثاث والأغطية والستائر النظيفة.

إندس هو في الفراش، في حين ذهبت هي تتأكد للمرّة الخامسة من ستارة النافذة التي تطل على زقاق ضيق... تسمرت أمام الستارة والقت أكثر من نظرة الى البناية المقابلة للفندق، والمارة، والزقاق... إنها لم تخبره بما حدث لها في اليوم الأول لمجيئهما الى للفندق، تحرك هو في السرير، وبحث بأصابعه عن الكأس المملوءة بالبيرة. قالت وهي تخطو بتوجس في العتمة الشفافة صوب السرير.

– ألا تنهي قنينة البيرة؟

أجابها بهمس:

– ليس الآن...قاطعته بضحكة خافتة، وقالت هي الأخرى بهمس:

– ترى لماذا يتكلم نزلاء الفندق بصوت خافت وكأنهم لصوص؟

ضحك هو الآخر، وبحث بأصابعه عن وجهها، إصطدم باطن يده بشعرها، وبعد قليل أستاف أنفه الشامبو التي ملأت خياشيمه لأكثر من يومين، ورفع لها حافة اللحاف. تسللت الى الفراش مثل هرة. وزحفت لصقه. إحتوى جسدها الدافيء بين ذراعيه. إلتصقت هي بقوة، وقالت:

– متى نزعت ملابسك؟

– عندما إنشغلتِ بالستارة... منذ أمس وأنتِ تهتمين بتلك الستارة أكثر من اللازم... لا تخافي... لا أحد يعرف أننا هنا...

– أوه... أنني أخاف أحياناً...

أرتاحت لصوته الخافت، وإحتضنته، وقالت في نفسها: سأخبرك عن الستارة. وللحظات إستمعا لا شعورياً لأصوات نزلاء الفندق، ورنين أجراس الغرف، ووقع

الأقدام، ثم ألتصقا ببعض وراحا في غيبوبة ناسين كل ضوضاء الشارع... وتلويا في الفراش، وسبحا في عرقهما، ثم همدا كقطعتي لحم، ولأكثر من دقيقة ظلا يستمعان للهاثهما السريع المتقطع... قالت وهي تزفر:

– ألا تعتقد أننا دخلنا الفراش مبكرين؟

– ربما... لكن كلما تركناه فكرنا بالعودة إليه...

وأضاف بصوت مخنوق:

– أمامنا أسبوع آخر.

أستلقيا على ظهريهما ببرود. سألها فيما إذا ترغب في الذهاب الى مكانٍ آخر... أجابته بلا متخثرة خرجت قسراً من فيها. كانت ما تزال تلهث وكأنها قطعت مسافة طويلة جرياً. مدّ يده وبحث عن المنضدة الصغيرة لصق السرير. مسك الكأس، ونهض بتثاقل وأفرغ محتواها في معدته ثم أشعل سيجارة... على ضوء المقدحة رأى وجهها محمراً وأثارَ التهاب داخلها وما زال في عينيها ووجنتيها، أطفأ مقدحته وأعادها بهدوء فوق المنضدة، وتخيلها لأشهر وهي عارية في الفراش لصقه... وحار كيف ستتجاوب معه. كثيراً ما تصور أنها ستكون باردة، وخجولة، وتخاف من عريها، وتتقزز من شكل جسدها اللامتناسق وقالت:

– هل ستبقى في الفراش؟ ألا تضيء المصباح؟

– ألا تعتقدين أن ذلك المستطيل من الضوء يكفي... إنني أحب الظلام في الفراش.

– هل لأننا نتشابه جميعاً في الظلام؟

– أوه...

وأرادت أن تغير الحديث بسرعة، وقالت:

– هل لاحظت؟

– ماذا؟

– منذ أن دخلنا الفراش كنا مثل الذي يعاني من الطرش.هزّ رأسه الغاطس في الوسادة، وإقتنع بما لا يقبل الشك أنها كانت معه لحد الغيبوبة، وقال:

–فعلاً.

وفكرت هي مع نفسها قائلةً: أهذا ما تسميه الكتب الذوبان، والتلاشي في الجسد الآخر؟ إنقلبت على بطنها بكسل، ورفعت ببطىء جسدها حتى الخصر وزحفت الى ظهر

السرير. زقزق السرير مثل عجلات عربة غير مشحمة. قالت في نفسه: إذن منذ نصف ساعة كان السرير يزقزق بهذا الشكل المزعج، ظلّ هو مستلقياً على ظهره يتتبع موجات دخان سيجارته وهي تنفجر عند مستطيل الضوء... أرسلت هي نظرة طويلة الى الستارة، وقالت في نفسها: ترى هل مازال ذاك البائس مسمراً هناك؟ إنقلب هو على جنبه، ووضع باطن يده فوق فخذها، وقال:

– هل ستبقى في الفراش؟

– نفس السؤال.

كنت أظن أنني لن أمل السرير.

– وهل بدأت فعلاً؟

– أزاح اللحاف قليلاً... قالت بسرعة:

– لا تكشف ظهري، أسحب اللحاف.

– هل ما زلتِ متوهجة؟

أجابته بصوت حزين:

– يالتلك السنوات الطويلة التي ضاعت.

– هل أنتِ حزينة؟

– أرجوك مسد ظهري قليلاً.

زحف بيده بأتداد عمودها الفقري، وقال:

– يبدو أنك عرقت بغزارة.

– أستمر في التمسيد أرجوك... أوليس من حقي أن أعرق؟

– أوه... طبعاً...

أطفأ سيجارته، وبحث عن الكأس... سقطت قطرات صغيرة من البيرة فوق ردفيها.

أطلقت صوتاً مخنوقاً... أش... ش... ش... ماذا فعلت؟

مسحها بصفحة وجهه، قالت:

– أعطني قليلاً... بدأت أحس بالعطش.

شربَتْ قليلاً.

– حارّة.

– سأطلب قنينة أخرى.

بعد صمت طويل قالت:

– أمس...

– وسألها: ماذا في الأمس...؟

– أشياء كثيرة... أليس كذلك؟

– طبعاً...

– غداً يكون اليوم الثالث لمجيئنا.

– لماذا تعدين الأيام؟

– من يدري متى سأراك...

ضَحِكتْ دون أن تعرف لماذا، وأكثر من مرة سألها عن سبب ضحكتها، قالت:

– إسمع لنفرض أنك رأيتني عارية من مكانٍ ما، ما الذي تفعله؟

– لست أدري لماذا ترتعبين من شكل جسدك...؟

– أوه... أعرف أن شكله مقزز... لكن أجبني.

– أنتِ بالذات؟

– أية إمرأة؟

نهض قليلاً، وأراح رأسه فوق ظهر السرير، وقال بصوت مخمور:

– لِمَ هذا السؤال؟

– حسن... ماذا تفعلين أنتِ لو رأيتِ رجلاً عارياً؟

بدأت تكثر من الضحك، قالت في نفسها... هل سأراقب صدره، ظهره، أم ذاك الشيء؟ بالتأكيد سألتهب إذا أطلت التحديق، وهذه حقيقة، ثم أحمر، وأهمد مثلما أنا الآن. قال:

– لم تردي عليّ...

– هل تعتقد سألتهب؟

وفكرت للحظات أنها كانت دوماً تحتاج الى مخيلة جيدة لتساعدها في تأجيج نفسها، ما ان ترى رجلاً عارياً...

قالت:

– لست أدري... وأنت؟

– إذا أستهواني الجسد... نعم.

مدت يدها ووضعتها فوق صدره، وقالت:

– هل تعتقد أنني أبحث عن طريقة جديدة للتوهج!؟

– أيُّ ضير.

– أمس... أمس.

وبدلاً من أن تكمل، مسكت بشعرات صدره، وراحت تقلعها مطلقة أصواتاً شهوانية... رفع هو صوته قليلاً وقال:

– ماذا عن أمس...؟

ضحكت بغنج ثم أنقلبت على ظهرها، وقالت:

– أمس عندما خرجت من الحمام نسيت أن أطبق جناحي الستارة جيداً، ضلّ شق بسعة خمس أصابع أو أكثر... وإنشغلت بتجفيف نفسي برفق، فكرت أن أتهيأ قبلك في إرتداء ملابسي، أتعرف ماذا رأيت؟... رجلاً في البناية المقابلة للفندق واقفاً خلف النافذة المواجهة تماماً لنافذتنا يترصد جسدي. أسمع، عندما أفتح النافذة بعد أن نرتدي ملابسنا تراه متسمراً هناك. منذ أمس، وكلما فتحت الستارة، أراه هناك لا يتحرك... فقط تعرف كم كان مضطرباً، ويدخن بشراهة، ويترقب أقل حركة من الستارة بفزع.

وقال بتعجب كمن لا يصدق نفسه:

– ماذا... ما... ذا...؟

– صدقني.

هزت رأسها، وقالت: ياللبائس.

ترك السرير وإرتدى ملابسه بسرعة، وإرتدت هي الأخرى ملابسها . أضاء المصباح، وجلس يفكر في الرجل خلف النافذة، قال في نفسه: ماذا سيحدث لي لو رأيت إمرأة عارية تتصرف بحرية دون أن تحس بوجودي أن جسدي لا يحس بحقيقته، وبفورانه ونبضه إلا عندما يكون ملتصقاً بجسد آخر. أما عن...!

هزَّ برأسه وغمغم، لكنني مع ذلك سألتهب...

صبَّ بقية البيرة في الكأس وشربها برشفات دون أن ينقطع عن التفكير بالرجل وبالجسد العاري في خلوته، وبصديقته، ثم أخيراً بلا شيء. نهض وذهب الى النافذة وبحركة رفيقة سحب مسافة بوصة من الجناح الأيمن للستارة وأرسل نظرة دقيقة الى النافذة المقابلة، ووجد الرجل شارداً يرسل نظرات تائهة من خلال زجاج النافذة. وبدأ

وجهه الأسمر وسط أمواج دخان سيجارته حزيناً. حرك الستارة أكثر. تحركت عينا الرجل ونفخ موجة طويلة من الدخان سرعان ما أصطدمت بالزجاج أرتدت لتضيع وجهه للحظات وطرد الدخان بيديه بعصبية، وأقترب الى الأمام، وتحرك مثل الملسوع. فتح جناح النافذة وأطلق برأسه، وتأمل المارّة بنظرات بليدة، وسحب رأسه وأغلق النافذة... جاءت هي ووقفت لصق صديقها، وقالت:

– حرك الستارة أكثر.

حَرَّكها. بدأ الرجل خلف النافذة يحرك رأسه مثل بندول الساعة لألتقاط حركة صغيرة. قالت:

– ما رأيك أن نعبث معه قليلاً...؟

– كيف...؟

– دعني أفتح الستارة وأبادله النظرات، ثم أسحب الستارة، وأضحك معه قليلاً حتى يرتعب...

قال بتعجب:

– يرتعب...؟

– سيتصرف مثل المجنون.

فتحت جناح النافذة وأرسلت نظرة طويلة في إتجاه الرجل الذي مدَّ يده الى ربطة عنقه، ثم مسد شعره، وإبتسم بحزن مضحك. وحاول جاهداً أن يقدم عرضاً رومانسياً بحركات مضطربة. وبعد قليل فتح هو الآخر جناح النافذة، وأطلّ برأسه، وإبتسم، وبحركة خجولة طير قبلة صغيرة في الهواء. ولأكثر من دقيقتين بادلها النظرات، وأقفلت النافذة، وسحبت جناحي النافذة وتركت بينهما مسافة أربع بوصات. كان الرجل يراها، وكذلك تراه هيّ... راقب صديقها الرجل من زاوية صغيرة في الستارة. إضطرب الرجل أكثر، وأخرج بعصبية سيجارة جديدة ولوح بيده برجاء بائس أن تفتح الستارة أكثر... إبتسمت له وهزّت رأسها ببرود، أنّ لا... أشعل سيجارته، وحرك شفتيه، ويديه كمن يلعن حظاً رائعاً فاته دونما سبب منطقي... غابت عن الشق بين جناحي الستارة، وراقبت الرجل. وجدته مثل المطارد يبحث عن مجال ولو صغير للرؤية... كان يحرك رأسه كمن يراقب لعبة كرة المنضدة ومن فرط توتر وجهه تصورت كم كان يغري ذهنه المرهق بالأحلام. وقالت في نفسها وهي تتأمله وكأنه يعاني من التسمم: الهذه الدرجة

يمكن لجسد إمرأة عارية أن يشوش ذهن الرجل! ترى هل فعلاً أستطاع جسدي الذي كنت أتصوره مشوهاً، وقاحلاً أن ينسيه كل مباهجه الخاصة، وأعماله، ويسمره مثل المصلوب هناك؟ ألم يدفعني حبي لجسد صديقي أن أعترف مع نفسي، وأُقرُ له بكل أنواع الضعف؟ وهو، ألم يتحول في السرير الى كومة عواء، وزفرات، ولهاث، وسلوك نمري؟ إلهي، كنت أتصور أن يعمل أي شيء لكنه لن يعوي لصق جسدي... ترى أهيّ هواجس سخيفة تلك التي أقنعتني بأن جسدي تافه...؟ والرجل المصلوب هناك يشتعل بغضب غبي، ويفرك ذهنه، ويخلق لنفسه بهجات لا أساس لها... وهل حقاً يحس بجسدي مثلما بدأت أحس به لأول مرّة في حياتي قبل يومين في هذه الغرفة؟ يمكن، وإلا لما أستهتر. وقالت مخاطبة صديقها الذي أندمج دون يدري لماذا، في مراقبة الرجل:

– إنه يتعذب...

– في هذا البلد حتى القطط والحشرات تتعذب من الجنس!

قالت في نفسها وهي تراقب الرجل المتهستر: كم يذكرني بعذاباتي.

وأضاف:

– إنه يتلوى مثل سمكة منتزعة من الماء. إنه يتعذب.

وفكرت كم تعذبت هيّ، وأنتظرت طويلاً في تلك الوحدة المفزعة التي لا تحتمل السرير وكأنه حق في الصيف مفروشٌ بالثلج... كم بطريقة عرجاء، وجراء غياب أبسط المفاهيم المنطقية، فكرت كيف سيكون وضعها النفسي والجسدي لصق جسد الرجل؟ كان شعورها التخيلي يؤكد لها بأنها ستتفتح مثل وردة كبيرة. كم خدعت نفسي كل الأخلاقيات المسرطنة التي وقفت عقبة أمام حق شرعي لي... والعرف الذي كان الرجال دوماً يصوغونه حسبما تقتضي مصالحهم ورغباتهم...

أرتاحت لعذاب الرجل خلف النافذة، ومثلما كانت حركة صغيرة من ذراعها تحرك أعماق الرجل، حركت تلك العقبات، والأخلاقيات والأعراف المحنطة التي أمتصت شبابها، كوامن السادية في كل بوصة من جسدها، وصفعتها ذكرياتها القديمة بتيار غاضب من الحقد. الأنتظار اللامجدي، أحلام اليقظة، والتلهف وسفح العواطف بمجانية... وراحت بعنف المرأة البائسة التي جاءت الى فندق صغير بصحبة رجل تعرف سلفاً أنه لا يحبها، ولكنه يعبث بجسدها الذي كادت ينابيع الشهوة أن تموت فيه، تعذب

ذلك الرجل المصلوب خلف النافذة، هذا الرجل الذي رأى عريها بمحض الصدفة، أهو الآخر مثلها أضاع سنوات سحره الحقيقية في الترقب؟ والإنتظار؟ والأحلام اللامجدية؟ أنه من خلال ثقب الأعراف الأجتماعية ينتهك محرمات إجتماعية بلذة... أن وجهه المجهول المعذب يقول، مستعد أن أقول لكل شيء في الدنيا لا... وقالت بصوت عال بعد أن طافت على وجهها أمواج من الإنفعال:

– سأعذبه.

فتحت الستارة بعرض جسدها، وإنتابتها فوضى مخدرة، وفار مثل غضبها القديم على الرجل ورنت في داخلها جميع تلك التعليقات المليئة بالسخرية الكاوية للرجال وهم يعلقون على جسدها الغير متناسق. وقامت بحركات أدمت الرجل من الداخل، بينما راقب صديقها تصرفات الرجل بلذة... وبحركة مغناج نزعت بلوزتها، وكشفت لحم كتفها وجزء كبير من منهدتها. وعندما رأى صديقها إضطراب، وذهول، ودوخان الرجل، إلتفت إليها، ووجدها تمسد لحم صدرها بنشوة، لم ينبس بشيء وإن حارَّ أن يعرف كيف فقدت هي، وكذلك هو الرقابة على نفسيهما. جن الرجل خلف النافذة، وراح يقفز في الغرفة.

وضعت باطن يدها فوق صدرها، ثم بحركة سريعة عبثت بشعرها. بينما راح الرجل خلف النافذة. يلطم رأسه، ويرسم إشارات لا يعرفها إلا هو، في الهواء... وبعد قليل تعرى بحركات مشلولة... ولاحظ صديقها عندما ألتفت إليها فرحاً عميقاً ينبت برفق على وجهها ويختلط بذلك الألتهاب الجنسي الذي أخذ يشع من عينيها، وشفتيها، ويديها، وأخيراً في كل جسدها. نسيت كل شيء، وأخذت تتصرف بهستيرية وكأنها غائبة عن العالم، وبعد أن أسكرها خضوع، وتمايع، وترنح، وذهول الرجل بفرح غامض أطلقت ضحكة ندية وصفعت فخذها بقوة. كان الرجل عارياً حتى نصفه. سخرت هي الأخرى من جسده الهزيل بحركات من يديها... كانا يتكلمان بلغة الأيدي الساحرة، وظلّ يقوم بحركات إستسلامية مُذلة بيديه، وجسده النحيل، وعينيه... وغمرتها أمام أستسلامه الميت سادية وحشية، وألقت بحركة ماجنة تنورتها عنها، وقالت بصوت خافت:

– إنه يرتجف...

سألها صديقها فيما إذا قالت شيئاً، أجابته وهي مندمجة في عالمها الأنتقامي: أوه، لا شيء...

وقال:

– سوف يجن بالتأكيد.

– هذا ما أريده.

وراقب صديقها جسدها من خلال ملابسها الداخلية، ورغم وجودها على مبعدة متر منه، بذل جهداً شعورياً في التخيل وغاص في لحمها ليزيد في نشوته، وألتهب هو الآخر من عبث الأثنين. وقال بصوت راعش:

– ماذا تفعلين؟

– أعذبه. إنظر ماذا حدث له... أنظر.

ورأى الرجل خلف النافذة عارياً تماماً، ويقوم بحركات مجنونة، قال لها:

– إلتهبَّ بشكل محموم.

– ليلتهب... بائس.

كان كل شيء في وجهه المعذب يقول بصمت: ترى لماذا تهسترت، وتعرت... صحيح أن جسدي يعوي لإمرأة... وهذه الغريبة المجهولة لا تعطيني شيئاً، وإنما تسرقني وتزيد فيّ الجوع في كل لحظة. زحف صديقها، ومسك دون أن يظهر في الستارة، من ردفيها. كان جسدها ينبض بسم الشهوة، والغضب. قال:

– أعتقد يكفي.

وقالت بلهاث:

– هل ألتهبت أنت الآخر؟

أراد أن يقول –نعم– بعد أن رأى هذا الشيء المفاجيء، والغير عادي، لكنه إكتفى بعض شفته السفلى بعصبية... وأرادت بهذه المظاهرة الغرامية الإنتقامية التي يراد منها الحب، أن تؤكد له بالذات... أولستم كلكم كذلك؟ قال:

– أعتقد يكفي... لا تنسي أننا في فندق.

– ليكن طالما أراده.

–إنه عارٍ... مسكين.

– دعه يذهب.

سحبها الى ركن الغرفة، ومسكها من كتفيها، وتأمل قطرات العرق وهي تنساب بشكل عمودي فوق جبينها المتشنج، ورأى في عينها شرر الغضب الممزوج بالشهوة،

كانت ملتهبة على نحو مجنون... قبلها، وأطفأ الضوء، ودخلا في الفراش بعد أن أحكم أسدال الستارة التصقت به وقالت:

– سقط أكثر من مرّة على الأرض.

– إنها سقطة الجنس.

– ماذا تراه يفعل الآن؟

– ربما يصحو من أوهامه.

– لنؤججه ثانية!

– ماذا؟

وقالت بصوت مزغرد:

– ما كنت أتصور أن جسدي في الأربعين يمكن أن يهستر إنساناً!

– أوه... ألم أقل حتى القطط في البلد...؟

قاطعته بحضنة قوية. وبينما هما يزفران، سمعا تحطم زجاج النافذة، وصراخ وتعليقات المارّة في الزقاق.

تَركَتْ السرير، وسارت على رؤوس أصابعها، ومن شق صغير ألقت نظرة إلى النافذة ورأت الرجل مدمى الوجه، واليدين، يردد مثل المسعور لاطماً جسده العاري.

– كلبة، عاهرة، لا يحق لك إغلاق الستارة.

وعادت الى الفراش، وقالت وهي تلتصق به: بدأ يصحو:

– إلهي أن جسدي لم يمت بعد...

لنحتفل معاً

إستقبلتني بدفء، وضَغطتْ على يدي بحرارة أكثر من مرة، ثم ساقتني دون أن تترك يدي عبر ممر إسمنتي الى غرفة طويلة شبه مظلمة، وبحركة مسرحية ألقت نفسها فوق أريكة، والتقطت مجلة وتكورت مثل هرّة صغيرة، وأشارت إليّ أن أجلس. كان ظهري على مبعدة أمتار من نافذة مستطيلة لا ستار عليها. ربما لاحظت عدم الأرتياح على وجهي، لذا أكتفت بالصمت والتحديق في وجهي، وظلّ ضوء بلون الفجر يتسرب على شكل مستطيل من الضباب اللاهث البياض من الزجاج ويعري وجهها الأسمر النحيف. أكثر من مرة قلت لنفسي: متى رأيت هذا الوجه؟ بعد قليل خيرتني بهدوء أن أتصرف بحرية، أقلقني منظر الضوء الذي كان يتخذ أحياناً لون الرصاص المصهور، وتختفي زهور الداليا، والقرنفل، والنباتات الصحراوية في الأصص التي كانت تلمع في الحديقة تحت الضوء الشبيه بلون الفجر، ولست أدري لماذا أكد لي تغير لون الضوء خارج النافذة بمجيئي المبكر، وعدم رغبتي بل نفوري من تلبية دعوة سيدة لا أعرفها؟

وسط الغرفة الطويلة كانت ثمة مائدة مستطيلة وطويلة جداً تذكر الواحد بأجواء الأعراس الشعبية.

تتبعت المائدة فوجدتها عامرة بعشرات الصنوف من المأكولات، كانت نهاية المائدة مختفية في ظلام مخيف، وكنت أحتاج الى رؤيتها بوضوح أن أضغط على عيني... كان الضوء الوحيد في الغرفة هو ذاك اللون الشبيه بالرصاص المصهور المنبعث من النافذة. ظلت السيدة جالسة بإرتخاء. التقطت مجلة، وعلى غلافها رأيت صورة لفتاة شبه عارية، رفعت المجلة بتعمد عفوي لأرى الصورة بوضوح. كنت أراقب حلول الظلام خارج النافذة. أرسلت إليّ نظرات مفعمة بالود. كانت تريد مني أن أخوض معها حواراً. وقالت: يبدو أن تغير الضوء قد أستهواك كثيراً في الحديقة... صنعها لي صديق فنان... أنه يذكر الواحد في قلب الليل بالنهار...

تقلص الضوء خارج النافذة، لكنه بعد مدة عاد فأنبلج بلون الحليب، وعري السيدة بشكل غريب في ثوبها الأسود الطويل... لم يكن وجهها غريباً، لكنني عبثاً حاولت أن أعرف متى، وأين رأيتها. منذ شهر واحد جئت الى مدينة (ب)، لأشترك مع مجموعة

رسامين في إقامة معرض. جاءني صوتها:

– خلتك سافرت، وسمعت أنك نفرت بسرعة من جو المدينة.

وأرسلت إليّ نظرات مركزة من عينيها اللتين كانتا الشيء الجميل الوحيد في وجهها الأسمر النحيف، كانت نظراتها مزيجاً من الأعجاب، والتفرس، والسخط أحياناً على لست أدري ماذا؟ حارت في صمتي، وشرودي. وإضطرت حيال عبوسي أن تغير نظراتها وإبتسمت بحنو، وبطريقة وإن بدت مسرحية، أن أحس بإيحاء نفسي غريب، وبقناعة بأن ثمة صداقة قديمة تربطني بها، وإن تواجدي في بيتها أمر عادي.

فكرت بالمائدة، وبأنواع المأكولات. لم أكن جائعاً وإن غمرني شعوراً بالفرح، أقنعت نفسي بأنها ستكون أمسية جميلة فيما إذا أحتسيت قليلاً من الخمر، وتناولت وجبة جيدة، وإستمعت الى شيء من الموسيقى. كررت سؤالها، وأضافت بجرس مغرٍ:

– لم أستطع أن اتمالك نفسي أمام لوحاتك...

أردت أن أشكرها، فجأة دخل شاب متوسط القامة ووقف في الظلام. لم ألحظ وجود باب على مبعدة أمتار من النافذة إلا عندما دخل الشاب، ولم أعرف من أين أدخلتني السيدة الى هذه الغرفة، تأملني الشاب في الظلام. ولم أرَّ وجهه بوضوح. أقترب قليلاً... رأيت يده من خلال ضوء النافذة تبحث عن جيب سرواله... كانت أصابعه الطويلة السمراء قلقة، وظلت تخمش فم الجيب الذي كان ينفتح لها مثل فم السمكة، أخرج علبة سجائر. وعلى ضوء عود الثقاب رأيت عينيه السوداوين تلمعان ببريق حاد، أقترب أكثر، وإبتسم لي بخجل. ثمة عيون، ووجوه تجعل الواحد يحس بنوع غريب من الأطمئنان الحار، والعميق، كانت أسنانه الصغيرة المنسقة تلمع مثل الفضة المجلية، ضغط بها على فلتر السيجارة بقوة، وأضاء بسمة جميلة في عينيه الأخاذتين، أذهلتني وسامته وإبتسامته، وذاك التكوين النبيل لتقاطيع وجهه التي كانت تنضج ببراءة آسرة. وأقتنعت من أن لا بد أن أرسم أستكشافات كثيرة لوجهه وفي أشكال متعددة.

إستقبلته السيدة ببرود وأطلقت أصواتاً ساخرة، ثم عادت الى مجلتها... كانت بين الحين والآخر تتحرك بكسل فوق الأريكة، وتلف ساقيها، أو تمددها بلا مبالاة... وقف الشاب لصقي، وراح يدخن بشراهة، إنحنى أمامي، ثم ربت على كتفي، وإبتسم ، تأملت أهدابه الطويلة. كانت لهجته عندما أعتذر مني، وذهب الى السيدة، مثل لهجة أهالي البادية. قلت في نفسي: أهو الآخر مدعو؟

جلس لصق السيدة بهدوء... سخرت السيدة منه... حرت في سخريتها... هل كانت تريد أن تؤكد لي بأنني لا شيء شكلاً ووسامةً بالمقارنة إليه. ظلت تسخر منه، طاف فجأة على وجهه نوع من المرارة، والخجل، والحزن، الحزن الذي كثيراً ما يجرد الوجه الجميل من كل شيء ويجعله بدون أسلحة. طلبت من السيدة مجموعة أوراق بيضاء. رسمت وجهه في أشكال متعددة وضلّ هو جالساً مثل حيوان مريض تحت الضوء الحليبي... وجهه يفجر في إنفعالات حادة ومتوترة.

نسيت نفسي في الرسم. لم يتعجب كثيراً عندما رأى وجهه فوق الورقة، وأكتفى بأن هزّ رأسه بأعجاب، ثم تكلم بسرعة، وبلهجة لم أفهمها.

صرخت السيدة عليه بقسوة: أيها الكلب ألا تعرف كيف تصمت... تتكلم وكأنك آلة تسجيل... نكس الشاب رأسه، وطاف خجل دبق على وجهه الوسيم، صفعته بقوة فوق رأسه، وطردته... كان ثوب السيدة مشقوقاً على نحو مضحك من الأمام، ومربوطاً بأزرار بيضاء كبيرة، زرت بضعة أزرار، وبعصبية طلبت من الشاب أن يتركنا، وأعتذرت لي عن ثرثرته... سار الشاب بخطوات قصيرة الى الجانب المظلم من الغرفة أخذتْ الأوراق وتأملتْ الرسوم، قالت.

– ركزت على عينيه أكثر من أي شيء آخر...

– إنهما ساحرتان أذهلتاني.

لوت شفتها بسخرية، آلمني معاملتها الجافة له. غيرت من جلستها ورأيتها عارية تحت ثوبها الأسود. أقتنعت بضرورة ترك البيت، رفعت جناح ثوبها، وكشفت عن نصف جسدها. أهملتها وأتجهت صوب الباب الذي منه دخل الشاب. سمعت صوت مضغ أكل في الظلام. صرخت السيدة بغضب.

– هل يجب أن تأكل الآن؟ ألا تستطيع أن تنتظر؟ أهكذا يمضغون الطعام؟ بالضبط مثل الحيوانات.

وجاء صوته الخافت من نهاية الغرفة:

– هل تسمحين لي بالشرب إذن؟

وزعقت:

– أبداً... تعلم أن تنتظر...

– حسناً... فقط دعيني أن أنهي هذه اللقمة.

– أسمع إذا لم تنهض سوف أجعلك تتقيأ ما أكلت...

إنقطع صوت الشاب نهائياً.

قلت في نفسي: من يكون؟ لم هذه القسوة في المعاملة؟ إبنها؟ مستحيل. زوجها؟ أشك.

لِمَ لم يأتِ زائرٌ آخر؟...

مَسكَتْ أكرة الباب. وقالت:

– ألا تبقى معنا؟

– إنني ببساطة لا أعرف كيف جئت؟

– ألست مدعواً؟

– نعم، لكنني بصراحة. لا أعرف بيت من هذا؟

أطلقت ضحكة حلوة، وقالت:

– بيتي... تفضل إجلس. إذا كنت لا تعرفني. لنتعارف...

– كنت فعلاً أريد أن أتعرف عليكِ.

أخرجت فخذها الأيمن من الثوب. مع أنها كانت تستعمل لعبة الأغراء الأنثوية، لكنها كانت تقوم بكل حركة بعفوية مذهلة، وقالت:

– لكنني لا أستطيع الإنسجام بسرعة مع أناس لا أعرفهم.

– يمكنك الإنسجام معي...

وأشارت الى الجهة المظلمة حيث يقبع الشاب بصمت. وفكرت أن أقضي الأمسية معه، وأرسم له المزيد من الأستكشات.

لم ترتح السيدة لبرودي. فجأةً خرجت هي الأخرى من جمودها، وبدأت تتحرك وتتكلم بشغف عن الرسم، والشرب، والصداقة، والمدارس الفنية، ثم مسكت من رسغي وأخذتني الى غرفة مطالعة جميلة وهادئة. تكلمت بإنطلاق، وظلت كلما شرحت لي شيئاً تحرك ذراعها في الهواء وكأنها ترسم أفكارها. وحرتُ في تحديد أحلامها... أحلامها كانت تفوق لغتها وطاقتها... كانت من أولئك البرجوازيات اللواتي عندما يشغل الفن جوانب من دواخلهن يتحولن الى ضرب من المتمردات العاقات.

ظلت تستهلك نفسها أمام صمتي، وأستماعي الجيد لها.

وقالت بلهاث:

– إغفر لي حساسيتي الشديدة... ترى هل من الضروري أن يكون الفنان حساساً؟

قلت ببرود:

– أبداً... هناك فنانون كبار كانوا أقل حساسية من فتاة مراهقة.

هزت رأسها وقالت:

– حتى حساسيتي لا تشفع لي لأشتغل بالفن.

لم أرد عليها. تشنج وجهها، بعد لحظات بكت. قلت:

– ما بكِ؟

– لا شيء، كان يجب أن أجذب عواطفي الكثيرة. آه، كثيرة مثل أمطار الربيع.

– لكن، ألا تتصورين أن تصوراتك الرائعة أحياناً هي نتيجة لتلك الغزارة في العواطف؟

– كلا... إنها عواطف إمرأة متسلبة... تصور منذ متى وأنا أحدق في تلك العيون ولم أستطع أن أراها مثلك... أقسم أنك أحببت تلك العينين أكثر مني...

وبكت بحرقة أكثر وقالت:

– أحب قشور الأشياء وأتصورني أحب اللب... حتى الترف أرى الجانب الزنخ منه... وأخيراً رجتني بإستجداء أن أرسم لها اسكتشاً وهي عارية... عندئذ أدركت أنها كانت تعاني وبعمق من مرض موت الأحاسيس والمشاعر الحقيقية. لم أمانع. ألقت الثوب الأسود عنها. كان جسدها النحيف هادئاً، يشمع بسمارٍ لاهث، وما خلا نهديها الممتلئين، وعينيها، لم يكن ثمة ما يثير فيها، أو يلفت نظر الرسام. قالت بثقة:

– لا تنقلني على الورق مثل منديل القديسة فيرونيكا(*)

– سأنقلكِ بالشكل الذي أراكِ.

وضعت وسادة مربعة بلون الفستق خلف ظهرها، وتمددت. بإرتخاء، ومطت جسدها، ثم أعطت شكل نهديها الكبيرين منظراً مثيراً، أضاءت مصباحاً آخر لأرى بوضوح أكثر. رأيت مجموعة من الوشم بلون الشذر الصافي فوق نهديها. وبطنها، وفخذيها. رسمت بسرعة لأكثر من ساعة. ظلت هي مستلقية ببرود. وقالت:

– يقولون أن الإبداع هو نوع شاذ وغريب من الإنفعال.

(*) القديسة فيرونيكا مسحت وجه المسيح بمنديلها فأنطبعت على القماش الأبيض صورة لوجه المسيح.

– ربما...

وقالت بصوتٍ واطيء:

– هل حقاً يوجد ما يثير الإنفعال في جسدي؟

– ليس من الضروري أن يكون الشيء جميلاً ليثير الفنان...

رفعت رأسها قليلاً، وحركت فخذها كمن يتهيأ للنهوض. لكنها عادت وتمددت وأسبَلت جفونها، وقالت بصوتٍ حزين:

– هل أفهم من قولك أن جسدي تافه؟

لم أرد عليها. أستمررت في الرسم... أمتلأت عيناها بالدموع. وقالت:

– أن والدتي كانت تقول أن مرق جسدك لن يكون أكثر من مرق عصفور.

قلت:

– الفنان كثيراً ما يصل عبر تصوير القبح الى نتائج رائعة.

– قل... قل... أنك أقسى من والدتي... لا بأس... هل ستصل عبر تصوير جسدي الى نتائج رائعة؟

أنتهيت من الرسم. تأملت جسدها على الأوراق بنظرات فزعة، وقالت بصوت مخنوق:

– لم أكن أعرف بأنني أملك مثل هذا الجسد الحقير...

وأضافت بصوت راعش:

– لم ترفق حتى بنهدي.

قلت ببرود:

– إنهما جزء فقط... إنني رسمت الكل...

طرق سمعي نشيج الشاب، غلفنا الصمت للحظات. قلت:

– من هو؟

كانت يدها الماسكة بالورقة ترتجف، وزعقت بهيستيرية مخاطبة الشاب:

– أيها الكلب... أيها الحيوان... أسكت... أسكت...

أمتقع وجهها، وقالت وهي تحدق في الأستكشات:

– أواه... لا يعقل... ليس في جسدي أي إيحاء مطلقاً.

– لقد رأيته هكذا... هكذا فقط.

– حاولت أن أغير الموضوع، قلت:

– من هو؟

– غجري رسم لي هذه الأوشام...

تخيلت وجه الغجري الوسيم، وركزت عيني على عينه، وقالت:

– قلت ليس بالضرورة أن يكون الشيء جميلاً ليثير الفنان، ولكن عينيه الجميلتين أثارتك بسرعة...

– رأيت فيهما عالماً كاملاً... صعدتا عندي الإنفعال الى درجة الأختناق.

– هل أرتحت له؟

– أن بوسعه أن يثير فيّ إنفعالات لا نهائية... إن نظرات الغجر الوحشية فيهما الجرأة والخجل معاً... ليونتهم، وسرعة حركتهم، وسمارهم الداكن تذكر الواحد بالترحال، ونصب الخيم، وصنع عقاقير الحب، والحجب للمحبين... هل صنعوا لك مسحوق حجر الحب؟ جاء صوت نشيج الغجري خافتاً، وحزيناً، قلت:

– لماذا يبكي؟

– عندما أهمله يبكي...

إرتدت ثوبها، وجلست بصمت، وطافت في الغرفة بعد لحظات، أغنية بدوية حزينة. حدقت في صورتها على الأوراق، وقالت:

– وعشقت صوته... تعبت معه حتى الموت... عيناه زلزلتاني... صرفت عليه الكثير حتى سلخته من بقية الغجر... إلهي أنانيون، يعشقون البعض فقط... قلت:

– لكنكِ تعاملينه بقسوة.

– مع أنه ساذج وغبي لا أستطيع أن أستغني عنه... والمشكلة هي أنني لم أعد أحبه مطلقاً...

– وهو حتماً يحبكِ...؟

– يعشقني، وإن ينتابه عذاب ثائر أحياناً كلما يتذكر الغجر، وينقلب الى وحش.

– تعود على الترحال ونصب الخيم.

– أغرتني وسامته... تصور ليس لديه ولو قليلاً من صوت العطف الرقيق الذي يعزي النفس.

– لكن، كل شيء فيه رقيق...

– يمكن... لكن بسذاجة قاتلة. قبل الآن كان يجعلني أحس بسلام مؤقت مع نفسي...

أما الآن لم يعد حتى مجرد صورة جميلة...

نكست رأسها، وحاولت أن تؤكد لي بأنني الوحيد الذي يفهم مفتاح جسدها وكوامنها...

ألقت نظرة طويلة أخرى على الأستكشات، وأطلقت أنة حزينة... كانت تعرف أن ثمة بذرة شقاء رهيبة تنمو في أعماقها ولكنها كانت كمن تخشى أن تحرر نفسها منها...

إنقطع الغجري عن الغناء... بعد قليل دخل مثل موجة هواء زاعقاً، ووقف أمام الباب. كانت عيناه تبرق بوحشية. هجم صارخاً على السيدة وبحركة لينة، وسريعة، مجنونة عرّاها، وحز نهديها الكبيرين بمدية كبيرة وألقاهما في وجهي، ثم طعنها في سرتها أربع طعنات، وتلوت السيدة للحظات وإنتهت.

ومن نظراته الوحشية أقتنعت بأنني أنا الآخر أنتهيت، وعندما وجدني مستمراً في مكاني أبادله نظرات تائهة، ألقى المدية، وهدأ بكر الدقائق وقال: بصوت خافتٍ حزين:

– لنحتفل معاً...

رن جرس الباب الخارجي، وتدفقت موجات من ضحكات نسوة وقهقهات رجال...

سفرة الجسد الأخير

كان يعرف هو أيضاً أنه سينطفيء عما قريب كما تنطفيء الشمعة في الهواء، وكان يعرف كذلك أن كلماته المتقطعة والمغلفة بحنان فوار تنطفيء هي الأخرى، في ذلك الحيز الخانق، لم ينقطع الغبار الذي كان يشبه ستاراً من الرذاذ الكثيف عن الوقوع علينا ولم نكن نأمل بإنقطاعه، حولنا الغبار الى شبحين بلون التراب. إنها لحقيقة دامية أن يعرف الإنسان، وبوعي، أنه سيضاجع الموت... لم أزدر حبه العميق للحياة، لأنني أقل شوقاً منه إليها. لكن ألذي حدث تحت ستار الغبار الذي راح يتكاثف هو أننا أستسلمنا لتفاهة وجودنا في هذا القدر الميكانيكي. قد يضحك الإنسان وهو يواجه الموت... ولست أدري لماذا كنت أضحك كلما خاطبني بصوته الحزين الذي كان في طريقه الى الذبول، قائلاً:

– من أجلِ قليلٍ من الأوكسجين.

فقلت بإختناق:

– حقاً، ما أسخف أن يموت الإنسان من أجل قليل من الأوكسجين!

وبعد صمت قصير قال:

– لنكف عن الكلام، إذا سمحت.

– لماذا؟

– الكاربون يقتل الأوكسجين.

وقال بعد صمت طويل بصوت بارد:

– من كان يتصور أننا سنكون ضحية أوكسجين؟

– الإنسان دوماً ضحية سخيفة.

– نعم.

– لنكف عن الكلام.

كانت الكوة التي تهب منها علينا موجات الأوكسجين الصغيرة من العالم الخارجي تتقلص بتؤدة وكأنَّ يداً وهمية تعبث بها، وبنا. وكلما تقلصت الكوة، راح زميلي بدوره، يتقلص، ويخرج أصواتاً لا بشرية في ذلك الحيز الذي كاد أن لا يكف لأحتضاننا...

وكلما تقلصت الكوة، كنت أبحث عن وجهه، وعن عينيه اللتين رأيت بريقهما مرة واحدة قبل أن تتقلص الكوة، وقال زميلي:

– هل ننتظر؟

– وماذا لو لم ننتظر؟

–حبذا لو رأيت وجهي.

– وماذا فيه؟

– يشبه وجوه الموتى.

– أسكت.

– لماذا؟ كيف تحدث هذه الصدف السخيفة؟

– لا أعرف... الحياة كلها صدفة...

– هل هناك حياة في الخارج؟

– أما زلت تعيش على الأمل؟

– ربما. آه، أرجوك لا تتكلم.

مرة أخرى طرق سمعي ذلك الصوت النسوي الجميل وهو يشق الجدار الترابي الذي يفصلنا... ومع أن الصوت أثار فيّ ألماً حاداً، غير أنه أيقظ في داخلي فجأةً رغبة مجنونة للحياة. كان هذا الجدار يهتز كالطبلة كلما تذكرت تلك المرأة... من هي؟ ماذا تفعل هناك؟ وماذا أفعل أنا هنا؟ ياللصدف اللامنطقية في الحياة؟ لا شك أنها ، هي الأخرى في إنتظار نسمات من الأوكسجين... لم أشعر بضعفي كإنسان إلا عندما عرفت أن وجودي مرتبط بقليل من الأوكسجين... وقال زميلي مرة أخرى، وهو زميلي بالمصادفة.

– إنها تعيش.

– لقد بدأت أفقد التمييز.

– تمييز ماذا؟

أخذ هذا الشخص الذي جمعتني وأياه الصدفة، يتودد إليّ، كان يعرف أكثر مني أننا ننتظر، حتى تتقلص الكوه، لنزحف برفق الى قلب الموت. وأتضح لي أن الإنسان يعشق الثرثرة عند دنو الموت. وقال زميلي:

– لماذا تنغلق تلك الكوة اللعينة بسرعة؟ أعتقد أن الرعب من الموت يكمن في إنتظاره... فقلت في نفسي: صحيح... ولكن حبذا لو يكف عن الكلام. وقال من جديد:

– هذا البطء يقتلني أكثر من الموت... كلمني أرجوك... لو أسمع صوتك... جميل أن يموت الإنسان وهو يثرثر. كلمني أرجوك.

– عما أكلمك؟ إننا نفسد بالكلام القليل من الأوكسجين الموجود هنا.

– عن أي شيء؟

– أعتقد أن نفسك بدأ يضيق.

– لم يضق بعد...

– وبعد صمت قصير قال بجدية مضحكة.

– ماذا لو مددت يدي لتوسيع الكوة؟

ستعجل في موتنا.

– العجلة أفضل.

كان لا يطيق الصمت. حبذا لو صمت... وسعل قليلاً، إهتز جسده المتكور لصقي، إقترب مني وحاول أن يمد رجليه، وبعد قليل أخذ يدي ووضعها في هدوء على صدره الذي كان يرتفع وينخفض كالمنفاخ وقال:

أتعرف أن كتلاً من التراب المبلغم تدفقت من فمي؟ هل تحس بمطارق تنهال على صدرك؟ أظن أنني عما قريب سأودعك...

– لماذا؟

– بدأت أشعر بإختناق.

وبعد صمت طويل قال:

– ألا تسمح لي بالكلام؟ أعرف أنني أفسد بقايا الأوكسجين. لديّ أشياء جميلة أسردها لك...

– تكلم...

– والتراب الذي في فمي؟

– ماذا؟

– كنت أحب رائحة التراب الملل.

وغاص في صمت أصم، وطرق سمعي صوت إمرأة، وهي تطلق هذه الكلمات بشيء من الحسرة والألم.

– أرجوك... أرجوك... هل أنت حيوان؟ حتى الحيوان لا يفكر مثلك... نحن ننتظر الموت وأنت... آه، فكر... فكر.

وعلمت أن الجدار الترابي الذي يفصلنا خفيف، قد يقع بمجرد دفعه قليلاً. وراح زميلي في نوم عميق، وملأت حشرجة صدره الحيز كله. وقلت في نفسي: ترى من يكون هذا المخلوق؟ حتى الآن لم ار وجهه، لأننا نسبح في ظلام دامس. وإستندت الى الجدار بشيء كثير من الحذر، وتصورت أن كل شيء في هذا الحيز مصنوع للعبث بنا. وإزداد شخير زميلي، تأثرت له كثيراً، ومددت يدي ولمست وجهه المغبر بأصابعي. وأهتز الجدار من جديد. وملأ صوت المرأة حيزنا بقوة:

– أتركني، أتركني أيها الحيوان، رباه، كيف تستطيع أن تفكر بمثل هذا الشيء في مثل هذه المأساة؟

وأطلقت صرخات متقطعة، وبعد قليل طرق سمعي صوت رجل ملحاح:

– فكري... يجب أن نغيب. أي شيء يمكن أن ينسينا هذا البطء القاتل..؟ سوف نختنق عما قليل. تأملي، نحن نغيب في نشوة!

– آه. لا يمكن، لا يمكن... من أنت آه، أنت حتماً مجنون... مجنون.

– وإنقطع الصوتان برفق... ومن شدة ذهولي أطلقت ضحكة قوية، وقلت:

– أفي مثل هذا الجحيم خصام؟ لِمَ الخصام؟

ولم أجرؤ على طرق الجدار. لكنني أقتربت منه، وقلت:

– هل أنتم بخير؟

فأجابت المرأة بصوتٍ مثل الفحيح.

– آه، خير؟ من أنت؟ رباه، كيف حدث كل هذا، من أنت؟

– إنسان لا يعرف ماذا حدث.

وبكت المرأة بحرقة. وأردت أن أبكي أنا الآخر، لكنني دون أن أعرف لماذا ضحكت. ونهض زميلي قائلاً بصوت مذعور:

– متى خرجنا؟

– هش... هش...

وصمتنا قليلاً، وظل الغبار يتساقط بغزارة، والكوة كعين واحدة تغمزنا بغنج. كان من المستحيل الإقتراب من الكوة، لأنها كانت بمثابة قلبنا. وقال زميلي:

كنت أحلم أننا في الخارج، وجيش من الأطفال والنساء والرجال يصفقون لنا.

–الإنسان يحلم كثيراً.

– وكانوا ينفضون عن ملابسي الغبار.

وقال بجرس غريب:

– من أنت؟

– إنسان.

– أفهم، ماذا تعمل؟

– مهندس...

وأردف بعجالة قائلاً:

– آه، هذه أسئلة سخيفة...

فقال:

– أنا أعمل مضمداً... مهنة جميلة، أليس كذلك؟

– فعلاً.

– لا أخاف الموت. رأيت الكثيرين يموتون في هدوء على أسرتهم في المستشفى. أطبقت بنفسي جفون أكثر من مائة ميت.

وسألني بعد صمت قصير:

– هل ستطبق جفني؟

– سأحاول...

– أتعرف أنني كنت أحب ممرضة شابة؟

– كيف لي أن أعرف؟

– كانت جميلة، لكنها لم تحبني أبداً... للمناسبة، ماذا يجب أن أفعل حتى تحبني؟

– لا أعرف.

– لكنك مهندس...!

– أسكت أرجوك.

– تصور قلت لأحد الأطباء، وكان يودني جداً، أنني أحب الممرضة الفلانية لكنها لا تهتم بي، قال أنه سيعطيها أقراص حب، هل توجد فعلاً أقراص حب؟

كاد هذا المسكين أن يقتلني ضحكاً وكمداً في الوقت الذي نحن نعد اللحظات لنموت.

ومرة أخرى ملأ صوت المرأة حيزنا، فقال زميلي:

– هذا الصوت يشبه صوت الممرضة، أقسم، ألا تثق بي؟

– هش... هش... أستمع إليها.

كان صوت المرأة الحزين ينفذ الى أعماقي. وعبثاً حاولت أن أعرف ما الذي تفعله ولماذا تستنجد وتصرخ وتبكي قائلة بعصبية:

– لماذا لا تتركني؟ من أنت أيها الوحش؟

وتكلم الرجل قائلاً:

– ستموتين عما قليل. وكذلك أنا، فلنمت في ألذ ساعتنا، لا تتغابي الوقت قصير، قصير جداً... أنظري الى الغبار... إنه يتساقط مثل المطر.

وصرخت المرأة:

– أتركني... أتركني... لا تقرصني.

وقال الرجل بإستجداء منفر:

– لا تفوتي هذه الفرصة الأخيرة عليكِ.

– لا تلح... لا تلح.

وقال زميلي بعد ما إنقطع الصوتان:

– من هما...؟

– آه، كيف لي أن أعرف؟

– إدفع الجدار.

– كلا...

– سأدفعه أنا.

– السقف يقع علينا. تعقل.

وصمتنا من جديد الى أن قال زميلي:

– ألا تعتقد أن صديقتي الممرضة تنتظر خروجي مع جيش من المتفرجين؟

– ربما.

– لا شك أنها ستعجب لصمودي هنا طيلة الساعات الثلاثين.

– ربما.

– هل ستخبرها أنني تحملت كل شيء هنا ببطولة؟

– سأخبرها.

وخيم صمت ميت على الحيز. وأستسلم زميلي فجأةً الى بكاءٍ حار، وسقط المزيد من

الغبار، وتقلصت الكوة كثيراً، وضاق نفسي، وشعرت أن رئتي تتوقفان. وزحفت برفق في الظلام الى الكوة. وكنت أعرف أن أقل حركة كافية لتضيع الكوة، أو يسقط الجدار الترابي الذي يفصلنا عن ذاك الصوت الذي كلما سمعته أثارّ فيّ حزناً، ورغبة في الحياة... ومسك زميلي من ساقي، وقال بنشيج:

– أين...؟ هل ثمة أمل؟

وكنت أحس التراب في حلقي وكأن ثمة مصفاة حولت التراب الى طين دبق... أردت أن أقول... أمل، فإذا بي أبصق طيناً من فمي... وترك زميلي ساقي. وزحفت بحذر، وقربت أنفي من الكوة، ورحت أستنشق، أسكرني الهواء النقي. وأهتز الجدار الترابي من جديد، وتكورت مثل قنفذ صغير لصق زميلي، وحمل يدي ووضعها على صدره الذي شلت حركته تقريباً، ثم قال بصوت ذابل:

– أنا واثق أنها تنتظرني في الخارج.

– من يدري؟ ربما أنها قريبة. خارج هذا الحيز... فكر في شيء آخر.

– إنها جميلة جداً.

ثم قال بعد صمت قصير وبجرس هزني رغم أختناقي:

– أتعرف أنني الآن أبتسم؟

– جميل... أنت إنسان طيب فعلاً.

وبصوت ثقيل ومخنوق تمتم قائلاً:

– أطبق لي عيني...

ومددت يدي باحثاً عن وجهه، وبسرعة أسبلت جفنيه، ثم لم يلبث أن أستسلم للنوم. وظللت وحدي في الحيز. وأرحت رأسي على صدره، ولست أدري فيما إذا أخذني النوم، أو الغيبوبة، وهذيت، ثم تلويت، وزحفت الى الكوة التي تحولت الى صفر صغير، ومددت أصبعي لأكبر الكوة بخوف، وعندما لمست أصبعي الكوة ضاعت. وصرخت بكل ما ليّ من قوة:

– الكـــــوة...

ولم يمضِ وقت طويل حتى أنتفخ جسم زميلي وفاحت من جثته رائحة مدوخة عملت على قتل آخر ذرة من ذرات الأوكسجين وضاق نفسي كثيراً... وبحركة جنونية تلمست الجدار... وعطست مرات عديدة، وسكرت كأن أيدٍ وهمية راحت تضغط على عنقي وصدري. وجاء صوت المرأة. ناعماً خالياً من الغضب:

– إذن لننسى كل شيء ولتكن الأخيرة.

وقال الرجل:

– ولكن هذا المكان الحقير...

– ماذا به؟

– إنه ضيق...

وإقتربت من الجدار الترابي أكثر، وقلت بصوت شبه ميت:

– هل من أمل للخروج من جهتكم؟

فأجابت المرأة بصوت نشوان.

– كلا... كلا... نحن أيضاً ننتظر الموت...

ولأول مرة في مثل هذا الجحيم رغبت بشوق في أن أُقبِل إمرأة. أيّ إمرأة. ثم أضيع الى الأبد. وقلت وأنا أزحف برفق صوب الجدار الترابي:

– هل أنت بخير؟

– كلا، كلا، أنا على وشك النهاية،

– لكن صوتكِ يؤكد لي بأنكِ في حالة أحسن مني بكثير. إنني أختنق.

– أنا الأخرى أختنق.

– وحدك.

وسمعت لهاث الرجل!! وقالت المرأة:

– كلا...!

وتحسست الجدار جيداً. وفكرت أنني سأموت حتماً، ودفعتني حمية قاتلة، لمواجهة هذه المرأة في هذه اللحظات الفوارة بالموت تذكرت أنني لم أحب إمرأة، ولم أجد من تفهمني. وألححت على نفسي يجب أن أرى وجه إمرأة قبل أن أموت. وعندما دفعت الجدار، إنفتحت فيه كوة كبيرة، وشق الظلام بسرعة حزمة إسطوانية من الضوء المغبر ، ومطرت موجات كبيرة من الأوكسجين. ورأيت في مكان ضيق، الرجل يلهث وهو يضاجع المرأة وكلاهما مجروحان في أماكن متعددة من جسديهما. وتراجعت الى الوراء برعب. وسقطت كتلة كبيرة من الصخر على الجسدين، وسمعت ضربات المعول، وأصوات بشرية، وإنفتحت كومة أخرى في الجدار. وبعد أن رأيت ضوء النهار الحليبي. أغمي عليّ.

كركوك ١٩٦٥

السحالي

عندما القيت نظرة أخرى الى المدينة،وجدتها مثل عنقود بلون التراب تسبح في ضبابٍ سرابي، ورأيت بيوتها الطينية الصغيرة ترقص، تترنح مثل قوالب ثملة في نهر أخضر واسع. مع إنها تغيرت منذ أن هجرتها في صباي، وتحولت الى دائرة من الخضار الغابي. لم أرتح لها، وعجزت أن تفجر ولو شظايا من ذكريات طفولتي. ورغم إصراري في تحريك داخلي والبحث ولو عن خيط صغير من الذكرى، أصرت القرية، والخضرة، وأشجار النخيل، ووجوه الرجال، والنساء، وحتى الصغار العراة أن تتجاهلني. إرتحت لهذا الإغتراب.

لم أجد صعوبة كبيرة في سحل التابوت الذي فيه جثة والدي فوق الرمل، كان ينزلق من تلقاء نفسه أحياناً مثل الزئبق المرشوش على أرض ملساء. طاردتني أصوات أهالي القرية التي كانت تشبه موجات خفيفة ونائية من عواء النوارس. كان الرمل يلمع ويضخ حرارة سامة. ولست أدري لماذا كنت أطيل النظر في حبات الرمل الزجاجية الملتهبة مثل الأبر المحمية. في صغري كنت أتصور أن الصحراء لا متناهية، وأن مجرد التفكير بقطعها يأس مطلق... قلت في نفسي، حقاً أين تأخذ هذا التابوت في الصحراء؟

ظللتُ عيني بكفي، وتتبعتُ حدود القرية، وتأملتُ بصعوبة من خلال الضباب التلال المرتفعة التي تحيط بها. لم يسألني أيُّ واحد أين أريد أخذ جثة والدي، وإن طلبوا بحرارة أن أدفنها في القرية، رفضت. وقلت سأتصرف بها كما أشاء طالما أنا وريثه الوحيد. بكت النسوة، ورفع الرجال إليّ وجوهاً حزينة، وعيوناً ظلت تستجديني، وبأدبٍ جم طلبوا مني أن أتركها، وحرت في فهم ذاك الحب الصوفي، والولع المجنون في الأصوات، والعيون، والوجوه بجثة والدي. ضاعت القرية خلفي، أخرجت مرآة صغيرة من جيب سترتي، وتأملت وجهي المرهق، ولحيتي، وعيني اللتين رأيتُ فيهما عنادي وإصراري، وبحثي المستمر عن المشاريع التي خططتها على أفق حياتي، ومغامراتي التي حلمت بها، ومحاولاتي لتجاوز نفسي والعالم. كنت دائماً أحلم بأنني لست قاحلاً مثل الصحراء.

هل حقاً عرفوا من أنا في القرية، أم أكتفوا بالدلائل التي قدمتها لأثبات كون الجثة

لوالدي، وما الذي دفع لوالدي أن يبحث عني بذاك الهوس في المدن؟ أعدتُ المرآة الى جيبي. نسيت حرارة الرمل التي كانت تعجل في تعطين الجثة التي حشرت في التابوت قبل أكثر من يومين. سحلتُ التابوت مسافة أخرى. ظللت الأصوات تطاردني وكنت أتصور أنها من لعبة لغة الصحراء السرابية، كان الحبل المشدود الى التابوت متيناً ومربوطاً من الجهة الأخرى بإحكام حول بطني، فكرت مع نفسي عن سبب رفضي دفن الجثة في القرية، وعن تلك الفوضى الرهيبة التي خلقتها وأنا أتكلم مع الجميع بلغة جارحة. هل حقاً كنت أريد قطع آخر علاقة لي مع تلك المخلوقات، والصحراء والأجواء الكئيبة، والطقوس التي عجزت آلاف السنوات من غسلها ولو قليلاً. سحلت التابوت، وقطعت مسافة أخرى، في الظهيرة فاحت من التابوت رائحة قذرة، وذكرتني برائحة الجثث التي حمصتها الشمس في مدينة (ن) بعد أن أصيبت بدمار مفاجيء، وكلما تخيلت الجثث تقلصت معدتي... كان والدي يتحول الى أولياته داخل مستطيل الخشب. لا بد من دفنه، إزدادت الرائحة. فكرت بعدد الجثث التي دفنتها في مدينة (ن) وهي أما مهروسة، أو مقطوعة الأذرع والسيقان، أو جامدة مثل المومياء... ربما منذ ذلك الوقت فقدت الخوف الغريزي في التحديق بالجثث... وهذه الجثة... ماذا أفعل بها؟ هل أدفنها؟ قلت في نفسي: لِمَ لا... من الرمل الى الرمل.

تذكرت مدينة (ن)، وإستعرضت في ذهني منظر الجثث، والمباني المهدمة، والحانة التي جلست فيها لصق شاب وسيم ظل يتكلم بصوت رقيق، ويحتسي الجعة برفق أنثوي، وكنت كلما أتبادل معه النظرات، كان يسبل أجفانه مثل مراهقة متوترة وفجأةً دونما سبب طعنني بسكين في ذراعي وهرب. وإستغرب الجاني من برودي، وتأملي لخطوط الدم فوق سترتي، ولما سألته لماذا، أكتفى بأن هزّ رأسه وهرب. وقال عجوز كان يجلس لصقي من الجهة الأخرى: من يعرف... حقاً من يعرف... وهزّ العجوز رأسه الذي كان يتحرك مثل زهرة عباد الشمس فوق رقبته الطويلة، وأضاف: صدقني أن الإنسان كثيراً ما يدخل معركة دون أن يعرف لماذا... ربما حبك... يمكن أليس كذلك؟

لكنني لم أحب والدي، ولم يحدث قط أن تذكرته سوى مرّة واحدة وبشكل سريع في مدينة (ن) عندما رأيت الصغار يبحثون بين الأنقاض عن آبائهم. بدأ جسدي يلتهب من الحرارة. جلست فوق التابوت، ورحت بحس مشغول أترقب التلال الكاكاوية المستديرة وهي تلمع مثل أرداف نساء سمراوات تحت الشمس، إقتربت سحلية ضخمة من

التابوت. كانت تتحرك وتستدير، وترفع نصفها الأمامي، ثم تتمطى. إقتربتُ أكثر، لم تحس بوجودي. ركزت بصرها في الخشب. إستدارت وإقتربت بتوجس من التابوت. لم أتحمل رائحة الجثة. مددت يدي بصمت لأمسك السحلية. هربت الى مسافة أمتار. قررت أن أدفن الجثة. فتحت غطاء التابوت، وأنشغلت بالحفر. وجدت السحلية طريقها الى الجثة، تعبت من الحفر. كانت رغبتي في رؤية وجه والدي فاترة، ربما أنني فقدت شكله في وعيي، كان منظر السحلية البني جميلاً فوق الكفن البلوري، وهي تتحرك وكأنها دمية يابانية تعمل بالبطارية الجافة، حفرت في الرمل الحار الى عمق ثلاثة أمتار، ما زالت السحلية منهمكة في قرض الكفن... فجأةً ودونما سبب واضح غمرني إحساس ورغبة في إلقاء نظرة أخيرة على وجه والدي. مزقت الكفن عند الوجه. رأيت وجهاً شمعياً طويلاً. حاولت أن أتذكر ملامحه القديمة. لم أستطع. كان جبينه العريض والذي كان أهالي القرية يؤكدون لي بأنني أملك مثله، والذي يرمز الى الذكاء والتحدي، هو الشيء الوحيد الذي ضخه شعوري الملغي. ذكرني وجهه بوجه رجلٍ عجوز في مدينة (ن) عندما رفعته من تحت صخرة رأيت فوهة في بطنه، ويده الواحدة مسحوقة. عندما سألته فيما إذا يريد شيئاً، قال بهمس: الى أقرب حفرة أيها السخيف. صعدت السحلية فوق ذقن والدي، وبحركة سريعة أخذت الشفة السفلى بين فكيها. وخلت للوهلة الأولى إن والدي مط شفته السفلى بسخرية، وظهرت أسنانه الصفراء، وذكرتني بسخرياته التي كان يطلقها في وجوه رجال القرية وهم يستمعون إليه بخشوع. قلت في نفسي. إذن أتذكر أشياء معينة. فجأةً إقتربت الأصوات التي ودعتني بالشتم. هل مازلت تطاردني!

تمددت لصق التابوت، ورحت في نوم عميق، وأفقت على هدير مئات الأصوات، ورأيت حشداً من الرجال، والنساء، والأطفال حولي. صرخوا في وجهي، وقاموا بحركات فهمت منها أنهم سيمزقونني. أغلقوا التابوت. صرخت بأنني حرٌ في التصرف بالجثة. ألقوا عليّ القبض ورفعوا التابوت بإحترام. وبإحتفال جنائزي مهيب توجهوا الى القرية. في المساء، وسط دائرة كبيرة وضعوا التابوت في مكان مرتع. وأوقدوا ناراً كبيرة. وبحلول الظلام خرجت ثلة من شابات القرية الجميلات بملابس قومية وبدأن يرقصن بشكل مثير على إيقاع طبل هستيري وبكر الدقائق رحن يخمشن وجوههن، ويندبن على إيقاع الطبل. قلت في نفسي. صحيح تركت القرية وأنا صغير. لكن لم يحدث أن

رأيت مثل هذه الطقوس. هل كان لوالدي مكانة خاصة في قلوب هؤلاء الناس؟ هل فعلاً كان ذكياً وشجاعاً؟ لا أتذكر أنه قام بعمل خارق. أستمر اللحن الهستيري، وفجأةً مزقت الراقصات ثيابهن عند الصدر، وإندلقت نهودهن تلمع مثل التفاح الأحمر تحت ألسنة النار... سقطن على الأرض، ورحن يتلوين مثل الأفاعي التي تخلع جلودها. تهستر الجميع. ولمعت أجساد الراقصات وهن يزحفن مثل السحالي في إتجاه النار. وعبثاً حاولت أن أعرف معنى الرقص، وذاك الحب لجثة والدي، وهذه النار، والوجوه وهي تارة حزينة وغاضبة، وأخرى تبتسم. أنتهت الرقصة وخيم صمتٌ أخرس على المكان. وخرج ثلة من الرجال وذهبوا بعيداً. مرة أخرى حاولت أن أفهم معنى الرقص الهستيري، والأحترام المهيب لجثة والدي، وإجتماع أولئك الرجال. وإقتربت النساء مني، وقبلن يدي، ووضعنها فوق بطونهن، وأثدائهن وكأنهن يطلبن بركتي، وإلتصقت إحداهن بي وقبلتني... إنتهى الإجتماع... إبتعدت النسوة. تقدم رجل له نفس ملامح والدي تماماً وقال: حاولنا أن نفهم تلك التلقائية الغريبة في تحديد مشاعرك وعواطفك وفهم ذاك التصرف الأخرق. والأحمق جداً مع الجثة، وسحلك التابوت بإمتداد الصحراء لمجرد تعفين وإهانة الجثة. أقول لم نستطع. وأعتقدنا وسط تساؤلنا الدائم أنك تؤدي واجباً مقدساً حيال الجثة. وإتضح لنا بأنك لا تريد أكثر من إهانة الجثة. ولأن والدك كان نبينا، لذا قررنا أن نسلمك الى هذين الرجلين اللذين خولناهما التعرف بك حسب شعائر القرية.

خرج رجلان الى وسط الدائرة. كان أحدهما يحمل له وجه دب، في حين كان الأخر طويلاً مثل القصب. قلت في نفسي إلهي، أن هؤلاء ما زالوا يؤمنون بالأنبياء. لمعت عيونهم ببريق وحشي تحت ألسنة النار، وإقتنعت بأنهما سينحرانني وسط الدائرة مثل الشاة. صرخت بصوت عال.

– أوَليس من حقي التصرف بجثة والدي بعد أن ظل يبحث عني في المدن؟

– لكنك أهنت الجثة.

– وما دخلكم أنتم؟

أردت أن أتكلم أكثر صفعوني، وبحركة سريعة وضعوني فوق حصان أبيض وفتلوا بي القرية... وتحت ضوء القمر رأيت البيوت الطينية لا أبواب لها، والآهلين يرقصون والشبان يتمرغون مع الفتيات فوق التراب، ونساء منتشرات فوق العشب لصق تلال من

كروم، وصبية يضربون بإيقاع جميل على الطبول... وكنت أسمع صوت القُبل، والضحكات الهستيرية، والتأوهات الشهوانية، إستفسرت من الرجلين اللذين سُلِمتُ إليهما، فيما إذا حدث شيء، وما معنى كل هذه الأشياء. أجابني الرجل الذي يحجل:

– نحن ما زلنا على دين آبائنا.

– ماذا كان والدي؟

– كل شيء بالنسبة لنا.

وقال الرجل الطويل: أسكت... لا تتكلم .

كانت القرية كتلة من الخضار الداكن تحت ضوء القمر. إستمرت الضحكات، والأطلاقات، وعويل متهيج مثل صراخ النوارس لشباب، وشابات...

خرجت شابة نصف عارية من خلف شجرة توت، ومسكت من عنق الحصان. كان جسدها بلون الحصان الذي أسمرت عليه. تكلمت بهمس مع الرجل الطويل، بعد قليل أرسلوا نظراتهم إليَّ. سألني القصير الذي يحجل فيما إذا يعجبني أن أستلقي معها فوق العشب قبل أن أموت... ذكرني جسدها الذي ظل يلمع ببياض لاهث تحت ضوء القمر، بجسد شابة في مدينة (ن) سقطت عارضة خشبية فوق فخذيها... قلت في نفسي وأنا أتأمل الجسد الحليبي المتين: إلهي، كيف يفهمون هؤلاء الجنس؟ ما الذي حدث؟ قلت:

– كلا... لا أريد...

وقالت الشابة:

– إنه شيء مفزع.

– مفزع؟ ماذا مفزع؟

– ألا تختم حياتك هنا.

وأشارت الى ما بين فخذيها، ثم ضربت ظهر الحصان بقوة وركضت وهي تردد:

– مفزع... مفزع...

تركنا القرية... سألت الرجل الطويل الشبيه بالقصب:

– الآن؟ الى أين تأخذانني؟

– الى الموت.

– لماذا؟

– لأنك أهنت الجثة والقرية.

أقتنعت بأن الحوار لن يفيد معهما، لأن كل شيء فيهما كان يؤكد بأنهما جاءا لينفذا مهمة وليس ليستمعا، أو يتفهما، في الفجر أنزلاني من فوق الحصان وطلبا مني الجلوس فوق صخرة، وفكرت كيف سينحرانني، ناما، ونمت أنا الآخر، أفقت على لسعات الشمس، كانا ما زالا نائمين، تأملت الوديان الصغيرة، والمرتفعات وسلسلة واطئة من الجبال بلون الرصاص المصهور... وتخيلت وجه والدي الشمعي داخل التابوت. قلت في نفسي: هل حقاً كان لذلك الوجه البوذي الجاف كل هذا السحر المخيف؟ صرخت عليهما... أفاقا وتصنعا اليقظة، قلت للصغير الذي يحجل:

– هل ضروري قتلي؟

– القرية منحتك فرصة كبيرة لتعتذر... لكنك رفضت،

وعندما طلبنا منك أن تترك الجثة أستعملت معنا لغةً جافة، لويت شفتي بسخرية. قال القصير لصديقه: إنه يلوي شفته مثل والده.

وتذكرت السحلية وهي تقرض الشفة السفلى... قلت:

– هل كان والدي ساحراً؟

طلب مني الرجل الطويل أن أسكت.

أغتنمت فرصة الإستراحة لأتاكد من قدمي اللتين ضاعتا في حذائي منذ أيام، وجدتهما مقرحتين وبلون الخوخ الفج، عندما مسهما الهواء البارد شعرت وكأن يداً وهمية سكبت دلواً من الماء البارد على رأسي، أقشعر جسدي كله، وأصبت بخدر لذيذ، ورغبت في النوم، وتذكرت وجه والدي. وتعجبت من تلك السرعة المخيفة التي يتعفن فيها الإنسان، كانا يترصداننني بدقة، شعرت وأنا أنظر إليهما بقليل من الخوف. خوفُ أن أكون ضحية بهذه السهولة مع المخلوقات تصرفت معي بأسلوب وثني، مرة أخرى حرت في فهم ذاك العشق الصوفي لإنسان مثل أبي في عهدٍ إنتهى فيه الى الأبد مفهوم النبوة. هل حقاً تحولوا الى عبيد لنظام فكره؟ وهذان الجلادان الببغاوان... منذ الفجر يسوقانني في ممرات حلزونية عبر طرق وعرة، دون أن يبوحا لي كيف سيقتلانني، أمرني الطويل أن أنهض. سرنا من جديد، تكلم القصير بلغة دموية عن القتل، والذبح في هدوء كمن يتكلم عن موضوعٍ شيق. وتصورت أنه يتعمد مثل هذه اللغة لأثارة الرعب فيَّ، وتأجيج لسعات الندم في داخلي، وشل إرادتي. لكن أي ندم؟ ندم ترك

القرية؟ والدي الذي عبثاً حاولت أن أتعرف عليه، وكل تلك الذكريات البليدة، عندما هجرت القرية كنت أبحث عن مصير آخر لحياتي، كنت في قرارة نفسي على قناعة مطلقة بصواب ما عملته.

قلت للرجل القصير:

– لماذا لا تقتلني وتنهي هذه اللعبة؟

– قرار القرية هو أن نلقيك من فوق جبل عال يقع على مبعدة مئات الأمتار من هنا.

– لِمَ هذه الطريقة؟

– القرية...

وصرخت فيهما:

– قرارٌ حقير.

– نحن لا ننفذ سوى قرار والدك بحق من يهين القرية.

– وثنيون... لا شك أنه كان جلاداً.

– نبياً.

– ها ها ها ها ها.

– لا تهنه.

– إنه أهان نفسه، هل ثمة عقل بشري يفكر بهذه الطريقة في القتل ها ها ها.

وصرخ في وجهي بغضب: إنهض. بقيت جالساً. كرر صراخه. تحديته. التفت الى الرجل الطويل وقال بلهجة مؤدبة:

– إنهض أمامنا مسافة طويلة.

تخيلت نفسي وأنا أسقط مثل طائر كبير من فوق جبل عال. هل سيكون بوسعي أن أفكر في الفضاء... أفكر... بماذا؟ بالمدن الكبيرة ألتي تشردت فيها! في مدينة (ن) ألقت سيدة جميلة نفسها من بناية مهدمة عندما رأت زوجها الميت في حضني وهي تقول: أنتظرني... أريد أن أجيء معك. وسقطت على رأسها الذي أنفجر مثل جوز الهند، بدويٍ غريب ومقزز. سرنا من جديد. مرقت سحليتان، وعلى مبعدة أمتار منا أشتبكتا في عراك وحشي وسط ستار خفيف من الغبار.

قفزت إحداهن فوق الأخرى، وراحتا في عملٍ جنسي، كان بطن الأنثى ينتفخ مثل منفاخ أبيض صغير. في حين راح ذيل الذكر يرسم في الغبار الشفاف دوائر صغيرة

مثل مجسة حشرة محاصرة، ركزت بصري عليهما. وأطلقت ضحكة قوية، جفلتا وهربتا دون أن تنفلقا، وتلويتا على التراب بلذة أكبر.

سألني الرجل الطويل وهو يراقب السحليتين بدقة.

– لماذا ضحكت.

– الجنس.

– ماذا به؟

– حتى الحيوان يعرف أنه أجمل شيء في الحياة.

تبادلا نظرات طويلة، وقال الأعرج لصديقه:

– إنه يردد كلمات والده.

وسألني فيما إذا كنت قد تعلمت هذا الكلام من والدي. قلت:

– أبداً... من تجاربي.

– والدك كان يؤكد لنا الشيء نفسه...

– في القرية عندنا الجنس مثل الخبز. في القرية لم نعد نخاف سوى الموت... لذا نحن نعبد الموت فقط.

قلت:

– الموت نوع آخر من الجنس.

– أمتأكد.

– جداً.

– ألا تخافهُ؟

– أبداً...

– وتدَخلَّ القصير قائلاً.

– هل تستطيع أن تضاجع الموت بدون نواح؟

– عندما تدحرجني من فوق الجبل إلقي نفسك معي لتتأكد.

إرتعب، وإقتنعتُ أنني أقوى منهما بكثير، وقال:

– الست حزيناً؟

– ها ها ها لم أتعود الحزن وأنا أسير مع مهرجين، عندما يكون الإنسان عبداً لنظام إنسان آخر يكون مهرجاً...

– في القرية نحن أحرار.

– لكنكم عبيدٌ لأفكار والدي.

صرخ الاعرج: مستحيل... مستحيل.

قلت ببرود: بدليل إنكما تدمران حياتي وبطريقة وحشية بناءاً على أمر.

– لأنك أهنت إنساناً نقدسه.

– لا تتكلم بلغة عبد. عندما ينتهي الإنسان بوسعك أن تحرقه. توقفنا عن الكلام. وطلب الأعرج مني أن أسير. سرت أمامهما. عطفت عليهما. هل لأنهما أكثر ضحية مني. ربما... بعد مسيرة طويلة وصلنا سفح جبل عال. كانت أعداد كبيرة من الصقور والنسور تحوم بأجنحتها العظيمة فوق وادٍ عميق لصق الجبل. وتطلق صراخات عويلية مزعجة. تكور الأعرج في مكانه بخوف وتتبع الصقور وقام بحركات من يؤدي صلات عميقة. وقلده الرجل الطويل، ورددا معاً هذهِ الكلمات:

– أيها الموت، يا مليكي أمنحني السلام. عندما تنقر الصقور، والجوارح في جسدي وتأكل السحالي من لحمي أسحبني الى عالمك بسرعة. أيها الموت الخالد أمنحني التحمل والصبر والسلام.

بعد أن رددا هذه الكلمات، بدأنا نصعد الجبل وسط قهقهاتي. كنت أسبقهما دائماً بأكثر من عشر خطوات. وعشر خطوات في التسلق المحفوف بالمخاطر، كانت تساوي أكثر من مئة متر فوق أرض مستوية... بدأ الأعرج يطلق أصواتاً حيوانية في كل خطوة، ويردد أثر كل محاولة:

– آه جسمي يسبح بالعرق. من المحتمل بلت في ملابسي.

ألتفت الى الخلف ووجدته متكوراً مثل قنفذ فزع لصق صخرة كبيرة، ووجهه المخروطي المرتعب يطفو عليه رعب مقرف.

قلت:

– تحرك. ما هكذا يكون الجلاد. تحرك...

لم يستطع الرد عليّ. كان الرجل الطويل يسبقه بخطوات، ويرسل إليّ نظرات حادة، وعدائية، قلت بسخرية:

– ساعد صديقك... كان يجب أن يختاروا غيره لمثل هذه المهمة...

لم يرتح لكلماتي، وأجابني وهو يلهث مثل كلب مطارد.

– لا عليك أستمر أنت في الصعود. تحولت عملية الصعود بعد أن تسلقنا أكثر من مئة قدم الى لعبة. تركتهما خلفي. وأنحبس في داخلي تحد صاخب، ووحشي وقررت أن أثبت لهما مبلغ قدرتي في تقبل هذا النوع المخيف من الموت. قلت في نفسي. إذا كانوا يعبدون رباً أسمه الموت، لأذبحه إذن لهذين الجلادين عبر موتي الذي أختاروه لي. سأُلقي نفسي من فوق الجبل، طاردتنا أصوات الصقور، بعيونها الحديدية... إستندت الى صخرة، وتذكرت لا إرادياً تلك الرقصة الوثنية، والنهود السائبة، والأجساد العائمة فوق العشب، والشابة التي خرجت مثل شبح أبيض والتصقت بالحصان. في كل المدن التي عشت فيها لم أجد مثل تلك الوثنية، والقبول الآلي للجنس. كان يجب أن أبقى في القرية لردح آخر من الزمن لكن عنادي وقناعاتي النهائية، ورفضي كان دائماً سبب جميع عذاباتي، ولذاتي وحتى إنتصاراتي... نهضت وتسلقت الجبل بسهولة.

كان الأعرج يلهث ويردد بصوت مخنوق:

– حقاً إنها طريقة حقيرة لقتل إنسان. كان بوسعنا أن نذبحه.

أجابه الرجل الطويل بلهاث:

– نحن ننفذ وصية.

– لنلقه حيث هوّ...

– الوصية.

– يالنا من عبيد. قتلني التعب.

– أصعد.

– أستمر.

– أين؟

– الى الجبل... الوصية.

– إنه لا يخاف الموت.

– الموت...

– لا يخافه...

– أصعد.

– إنتهيت.

– تصور أنه لا يحترم والده. لم نحن.

– أصعد.

تسلق القصب الصخور بعناد مقلداً حركاتي، وقال الأعرج بخوف:

– هل عشت طويلاً في الجبال.

– طويلاً... في المدن، والوديان، والصحاري، أصعد...

– تعبت...

– لا بأس...

بعد صمت جداً قصير قال:

– أتعرف أن والدك كان يحبك كثيراً.

– غير مهم... لم أحبه مطلقاً... سعيد لأنني لم أصبح عبداً لنظامه مثلك.

– لا تخافه...

– ها ها ها ها.

– يبحث عنك.

– ها ها ها ها.

في عيني الرجل الطويل رأيت التعب والخوف، والرغبة في العودة الى القرية.

قلت له:

– لا تخف، سترجع الى القرية كبطل... تحرك.

أطلق زفرة حارة، بينما عوى صديقه بصوت حزين.

وعندئذٍ عرفت كم من الجرأة، والإرادة، والقوة يحتاجها الإنسان في المواقف المصيرية، عوى الأعرج من جديد، وقال أنه لن يستمر.

وصرخ صديقه: أصعد...

– إنتهيت. تأكد لن أستطيع النزول بعد الآن. أنتهيت هنا.

وردد بآليه: أيها الموت يا مليكي إمنحني السلام.

أطلقت ضحكة قوية، وقلت:

– هل ما زلت تهذي؟

– آه... لا أستطيع.

– أستمر... وإلا دحرجت عليك الصخرة.

راح في بكاءٍ حار... وذكرني إنتصاري بجميع تلك المواقف الصعبة التي كنت أما

أُقحم فيها، أو أُقحم نفسي فيها، وأخرج منها بمجرد تحكيم إرادتي وصبري منتصراً، ولأول مرّة شعرت برغبة عميقة أن أفشل ولو لمرة واحدة في حياتي .

تنملت مفاصلي، وسددت رأسي فوق ذراعي، ورحت في نوم عميق. رأيت ثلاث سحالي بأفواه رطبة وبطون بلون الثلج.

وتحولت السحالي فجأة الى راقصات القرية الجميلات، وفوق بطونها الثلجية رأيت أوشاماً في أشكال رائعة. ورأيتني أجري عارياً وسط زرع حتى ركبتي... ورأيت مدينة (ن) والشاب الذي طمأنني، أيقظني زعيق حاد، ورأيت الأعرج يتدحرج مثل صخرة كبيرة تاركاً خلفه خيطاً من النواح الموجع، كنت أعرف أنه لن يستطيع أداء مهمته. وبعد صمتٍ أخرس طويل، جاءني صوت صديقه!

– سقط.

– كان يفور بالخوف، وأنت هل تصلح لأداء مهمة الجلاد؟

وقال بصوت بارد:

– أيها الصديق، هل ستستمر في الصعود؟

كانت كلمة –الصديق– إنتصاراً آخر لي، تقززت منها، وأحسست أنها لفظت من فمٍ ملوث.

قررت أن أزلزل هذا الإنسان الذي تحول الى كومة جبن، قلت بجفاف:

– ماذا تقصد سأستمر... طبعاً سأستمر.

– إنني تنازلت.

– مستحيل... الوصية... أصعد.

– لا أستطيع. أرجوك...

– يجب أن تؤدي واجبك...

– عفوت عنك...

– كلب... لكنني لن أعفو عنك... أستمر.

– إكراماً لوالدك.

– كلب، هل ما زلت عبداً؟

– أرجوك.

بدأ يرتعش، وردد كلمة أرجوك عشرات المرات. ألقيت عليه صخرة كبيرة ورأيته يسبح مثل نقطة كبيرة في الهواء.

سافروا مع طيور البحر

وبدأ فجرٌ آخر، والبحر كان راقداً، لم يستيقظ بعد. وبدت الميناء كعادتها رطبة مبللة من خلال الضباب الخفيف، عما قليل يطفئون ضوء المنارة الدوار. كان ما زال بوسعي من بعيد أن أرى بقايا الليل ككومة كبيرة من الدخان الأسود المتلاشي يمسح ظهر البحر برفق. فجر آخر –باخرة أخرى– المزيد من شحنات الصناديق المجهولة المحتوى وبعض المسافرين الذين تعبوا كثيراً في الحصول على تأشيرة الخروج. ترى كيف تكون أحاسيسهم وهم يهاجرون في طريقهم الى عوالم أخرى؟ أشك أنهم يرجعون... وهل ترجع الذبابة بعد إنفلاتها من شبكة العنكبوت؟ لكن طعم المدينة سيبقى مثل الملح في أفواههم. عندما كنا صغاراً، كنا نكتب أسماءنا على حافة البواخر بخطوط كبيرة، ونعيش أياماً طويلة ونحن نتذكر الحروف. ونقول كمن يتلاشى في دوامة غير طبيعية من الفرح الحقيقي، إننا الآن في مدينة أخرى، أو في عالمٍ آخر. وكان بعضنا يبكي عندما كنا نؤكد له في صخب المناقشة أنه كتب أسمه في أسفل الحافة القريبة من المياه، وأن المياه حتماً مسحت الحروف.

لم تعد كتابة الأسماء لعبة الصغار فقط، بل أن الكبار الذين أصبحوا جزءاً من المدينة لطول مكوثهم فيها بدأوا هم أيضاً يكتبون أسماءهم على حافة البواخر بحماسة أكبر، كنا نعاني من حقيقة وهي أن العالم الحقيقي كامن خارج عالمنا المنغلق وكانت بعض تلك البواخر ترجع الى الميناء بعد حين ويهرب جميع اللذين كتبوا أسماءهم عليها ليبحثوا عن أنفسهم بجنون في أنحاء الباخرة، لكم كان الأسى يظهر بوضوح سافرٍ على وجوههم عندما لا يجدون خطاً واحداً لا يرمز الى أسمائهم، كنت أسمع حتى الرجال يرددون بحزن:

– غسل البحر كل شيء. كان أسمي هنا. إنني لم أكتب أسمي بالطبشور، وإنما بالدهان، آه، رباه البحر تمسح كل شيء، كل شيء.

ولم أعرف أبداً لماذا كان بحارة السفن قساة معنا، حتى نساء مدينتنا كن قليلاً ما يؤججنهم. ففي الوقت الذي كان عطش الفضول يدفعنا لمعرفة كل شيء، كان دائماً ثمة حظر على أتفه الأشياء، وحتى على البحر، كان كل شيء ممنوعاً في الميناء. البيع

والشراء، تبادل السلع، والهدايا، الغزل، بل الغمز أحياناً فلماذا ترى كل ذاك الحظر!؟ فمنذ الأزل والإنسان لا يجرؤ على قول الحقيقة، كل الحقيقة إلا وفي يده ثمن الموت، أو يظل يمضغها حتى يتعب منها فيبصقها، هكذا كنت أفكر مع نفسي في عزلتي وأحدق بعيداً من خلال المنظار الى البحر، والميناء.

قال زميلي بفزع:

– أسمع، هم مثل الساعة لا ينسون الموعد. ترى أين يسيرون كل يوم في مثل هذا الوقت؟

كان زميلي يرتعب من صوت الأحذية التي تضرب الممر الأسمنتي الأصم نعم، كانت أصواتاً مرعبة، تلك التي كانت تنطلق من الأسمنت فتلتقطه الآذان مثل ضربات المطارق. وقال من جديد: أتسمع؟

أستيقظ البحر وراح يتمطى ويزأر بتكاسل، فزفرت أنا الآخر لقد تعودت أذناي على صوت الأحذية. بل أكثر من هذا، كانت الأصوات بالنسبة لي مجرد. تيك... تاك... تيك.

وقال زميلي:

– ألا تعتقد أنهم يتعمدون السير في المرر لمجرد تفجير دماغنا؟ وقلت في نفسي: يه، مُتعَب جداً دماغي، مُتعَب مثل ساعة محشوة بغبار.

– أنك تكثر التحديق من خلال هذا المنظار كم أتمنى لو لم تكن تلك النافذة هناك. ترى، كيف سمحوا لك بالحصول عليه؟

كان البحر هو الشيء الوحيد الذي يحس بوجود عالم واحد، وهو عالمه الخاص. حقاً، كنت أموت مثل شجرة عطشى لو لم يكن هذا المنظار معي. أنه منظارٌ غريب يقرب لي مسافة أربعة أميال. كنت وما زلت أستبق هذه المسافة وبشوقٍ فوار مردداً لنفسي:

(ودائماً ستسبقيننا أيتها الذاكرة الى كل الأراضي التي لم نرتدها بعد) وقال بتألم:

– وهل يحدق الإنسان بمثل هذا الإفراط في البحر، والبواخر، وو؟

كانوا قد سمحوا لي بعد تمرد قاتل بالحصول على هذا المنظار... هل ثمة مخلوق واحد في الحياة من أنصار وحدوية ألأنا؟ لا، ليس في هذا العالم، ففي النفس الطويل يكون الإنسان سواء أراد أو لم يرد نهباً لِلسعات الآخرين. كنت أحدق في الناس وهم يتحركون مثل السحالي ويصعدون سلم الباخرة بحزن ليضيعوا في جوفها . وكانت البواخر تنقل بعيداً آلاف الصناديق وعشرات، بل مئات، القلوب المزقة وتترك حشداً

من المودعين، في رعشات تشنجية، على الرصيف وكنت أشعر بعد إنطلاقة كل باخرة بأن قلبي ينزف، وتغمرني كآبة، ومن حركات الأيدي وهمزات الرؤوس الرتيبة والمناديل الملونة كنت أحس مبلغ الحزن الذي يعانونه، ثمة أشياء في الحياة تثير الشجن.

وكنت أبقى أترصد الميناء، أبقى مع الحمّالين، والصناديق المفروشة على شكل تلال على الرصيف، وأتتبع بقايا الأوراق والصحف المبعثرة من مختلف أرجاء العالم، تدحرجها أنفاس البحر هنا وهناك. وكنت أنا الآخر أتدحرج معها بعيدا غير أن البعد فقط كان يمنعني من أن أشم رائحة الرجال الآتين من عوالم أخرى. لم أر أقسى من العاملين في الميناء الذين كانوا بعد إبحار الباخرة يسلطون عشرات الخراطيم على الرصيف ويكنسون الروائح الى البحر، كم هو سمج وكريم هذا البحر الذي يبتلع كل شيء دونما إحتجاج. وقال زميلي:

– ماذا حدث لزميلنا؟

عندئذ فقط أدركت أن زميلنا الآخر قد توارى.

وتابع زميلي قائلاً:

– لكم كان طيباً.

وأردف بعجالة:

– كان يخاف أن يُساق الى القلعة، حبذا لو أعرف ماذا في تلك القلعة؟

وأعدت المنظار الى عيني قائلاً لنفسي: من يدري... من يدري؟ وإنتفض البحر وراح يسبح في شمس نيسان الدافئة برفق ويبعث بأنفاسه الطرية صوب القلعة.

وقال زميلي: القلعة... القلعة.

ورددت أنا الآخر بآلية كلمة القلعة. كثيراً ما كانت الكلمات تتصادم في رؤوسنا بميكانيكية منذ دخولنا هذه القلعة.

كانت القلعة لغزاً كبيراً لجميع أهالي المدينة. أجل كان الكثيرون يدخلونها دون أن يرجعوا منها أبداً. وكانت الصحف والمجلات، تروج عنها الدعايات الكثيرة، وتصور جمالها الذي يستعصي على الفهم ، بإختصار، كانت القلعة هي الجنة الموعودة. لذلك كثر عدد الراغبين في الدخول إليها، ولا أحد يدري لماذا كانت السلطات تأذن أولاً للمرضى والعجائز، فضلاً عن المشردين وحجتها في ذلك رغبتها الصميمية في الإصلاح. ولما كانت مدينتنا في ردهة بعيدة عن دائرة الكون، كنا نتصور أنها واحدة

من تلك المدن الممسوحة عن وجه الخريطة لا يعرف بوجودها حتى عمالقة البحاثة والمنقبين. لكنني عرفت أخيراً أنها مدينة مشهورة في العالم بإنتاج مختلف أنواع الأدوية التي تصدر منها الكثير الى الخارج ولا بد لي أن أنوه من أن الدخول الى مدينتي أمرٌ صعب لكثرة العراقيل. لذلك قلَّ عدد زائريها، بل كثيراً ما أقتصروا على الرجال البارزين، ولما كان الدخول صعباً، هكذا كان الخروج. بل لعله كان أكثر صعوبة، كل ذلك خشية تسرب أسرار الأدوية الى الخارج. وقد خلقت تلك العراقيل حالة نفسية متوترة بين الأهالي، فكانوا يحتجون، ولكن بصمت. منذ أجيال والناس يقومون بعملية فحص كامل للضمير فيجدون أنهم عوملوا كقطيع بلا راع، وكان من الأمور العادية جداً أن يفتخر كل جيل بأنه يعيش في دخان كثيف من الأرتياب، والقلق الروحي المتزايد بحثاً عن إيمان مفقود، أو ميناء مطلق.

وما كان لهذا الحال أن يستمر، وكان الناس يصرون أن يعاملوا كما كانت تعامل المخلوقات الأخرى في المدن الأخرى.

– ترى أين أولئك اللذين دخلوا إليها؟ فإن أحداً لم يسمع عنهم شيئاً.

ثم تسأل بصوت مخنوق:

– كنّا كل يوم نقرأ مقالات طويلة عن الحياة الرغيدة في القلعة وعن السعادة فيها. آه، أين هي السعادة؟ إن الناس في الخارج يعيشون على الأحلام. وكم يفتعل الناس التشرد والعجز لمجرد السماح لهم بدخولها...

وأضاف بهمس:

– كيف جاءوا بك الى هنا؟

ووضعت المنظار على عيني، ورحت أراقب البحر من جديد مردداً لنفسي بصوتٍ عال:

– آه، قلت لأن الأرض تدور... تدور...

صمت وصمت هو الآخر، كانت الميناء مهجورة وموحشة بشكلها المستطيل، تبخر الضباب وظهرت المياه بوضوح، فراح البحر يتنفس كحوتٍ متعب... في مدينتنا البحر هو السيء الوحيد الذي لا يحتاج الى عطف، لأنه يعرف أن ليس ثمة غايات نهائية في العالم.

وقال زميلي:

– أما أنا، فقلت أن القلعة كذبة كبيرة... حقاً، لو لم تكن كذبة، فلماذا لا يسمحون للجميع بدخولها؟مساكين أولئك اللذين لا ينقطعون عن الحلم.

وأردف بعصبية:

– حقاً أين الذين دخلوها؟ أين؟ أين!

كان البحر ما يزال يتنفس ويتشنج ظهره كملايين التلال الرملية. للبحر فقط شجاعة تميت حتى الموت، قلت بتألم. البحر... البحر... ولأول مرة منذ هذا الصباح رأيت تشكيلة رائعة لطيور البحر، كانت دائماً بمثابة إعلان عن مجيء باخرة جديدة، وذكريات جديدة، وروائح جديدة.

وقال زميلي:

لو عرفنا المزيد عن القلعة علينا أن نفهم الناس أنها ليست الفردوس. ثمة حدس يؤكد لي أن هذه القلعة الملغزة تحوي أشياء كثيرة ومخيفة، وإلا، لماذا ضربوا مثل هذا الكتمان الأصم حولها. أنها مخيفة...

كان زميلي يفكر، ويحدس كثيراً، كلانا مستودع كبير للأسئلة اللامتناهية.

وبعد حين ظهرت، من بعيد باخرة كبيرة تسير بهدوء، وسارعت أسراب الطيور الى إستقبالها، وسرعان ما دَّبت الحركة في الميناء، فهرع الرجال من هنا وهناك، وزحفت الرافعات الكبيرة وسيارات الشحن الضخمة وأخذت الميناء تتنفس هي الأخرى من جديد. فقال زميلي:

– إذا فتحوا علينا الباب فسأهرب هذه المرّة، أريد أن أعرف سر القلعة، آه. حبذا لو أعادوا زميلنا. ولكنهم لن يعيدوه. أتعرف كان يقول لي – لو سنحت لي الفرصة لفجرت القلعة. ترى، ماذا كان يعرف عن القلعة؟ هل تعتقد أنه أطلع على سرها؟ ها هي الباخرة تزحف بصمت صوب الميناء، وأخذت الطيور تداعب البحر من الصباح وحتى الغروب...

قلت في نفسي: وحتى في الليل أستمع الى أنفاسه وعويله، لكي يبكي البحر بإباء أحياناً. وصلت الباخرة الى الميناء، مستحيل أن توجد باخرة بهذه الضخامة في العالم، ولأول مرة منذ هذا الصباح خاطبت زميلي:

– تعالَ أنظر ... أنظر ماذا وصل الى الميناء.

أجابني بغمغمة:

– لا تثيرني منظر البواخر.

قلت:

– ولكن ما هذا الشيء الرهيب في الضخامة؟

نهض وأخذ مني المنظار، وقال بتلعثم:

– هذا... ألا يشبه حيوان الديناصور؟

وبعد أن وصلت حافة الميناء أستمرت في التقدم الى الأمام، ودمرت في لحظات رصيف الميناء الأسمنتي، وأنطلقت تسير على الأرض.

قلت في نفسي: لا، لا يمكن أن توجد باخرة واحدة في العالم بهذا الشكل والحجم المخيفين، وبكر الدقائق راحت تسير على الأرض بسرعة، وإقتربت من المدينة، وعرجت برفق صوب القلعة ووقفت على مبعدة أقل من ميلين منها.

حدث هرج صاخب في طول المدينة وعرضها عندما أنتشر خبر إقتراب الباخرة من القلعة كانوا يندفعون بشوق وكأنهم يبحثون عم كل ما آذاهم وحيرهم. وكنت من النافذة في غرفتي الملحقة بالقلعة أسمع أخلاطاً غريبة من الأصوات المرتعبة، والصرخات، والأسئلة المخنوقة، ورأيت في بحر نصف ساعة أفواجاً من الناس يهرعون في إتجاهات مختلفة، ويلوحون الى بحارة الباخرة، خاف زميلي عندما رأى الرعب مجسداً في عيون الناس، وفي أرجلهم، وقال بصوت فزع:

– سنعرف كل شيء.

ملأت الممر أصوات أحذية كثيرة، وأردف زميلي:

– ارتعبوا... أنهم يهربون.

إقتربت الباخرة مسافة ميل آخر، وبدت مثل جبل أسود ضخم. عدت الى النافذة، غير أن زميلي أزاحني بعصبية، وقال هذه المرة دونما خوف.

– ولماذا يهربون؟ لماذا لا يذهبون الى الباخرة...

إقتحم ثلة من الرجال غرفتنا، وتحت حراسة مشددة، ساقونا بعصبية، ولهاث الى صالون طويل.

قال زميلي بهمس: ماذا حدث؟

قلت: من يدري...

ساروا بنا بعجالة، ولاحظت على طرفي جدار الصالة رقعاً كبيرة معلقة على الأبواب تحمل أسماء مخيفة مثل (مختبر عمليات حرق الجلد)، و (مختبر عمليات الطاعون)، (ومختبر الحمى المجهولة)، (إلتهاب الدماغ)... وعندئذ أدركت أن القلعة مختبر كبير ومخيف للموت. قلت للرجال:

– أين تأخذوننا؟

دفعوني بشراسة، إحتججت، وأردت أن أخلص نفسي، دفعوني من جديد، وأدخلونا غرفة كبيرة. وقع بصري على عشرات القناني المختبرية المليئة بالسوائل الملونة. أخذوا زميلي بقوة وأوقفوه على مبعدة بضعة أمتار، كان كل شيء يبدو مخيفاً في الغرفة. رأيت صناديق كثيرة مكتوبٌ عليها، جاهزة للتصدير.

حدقَ أحد الرجال في ساعة الجدار، بينما قدمّ آخر ملء أنبوب صغير مشروباً بلون البنفسج لزميلي وحثه على شرب السائل. رفض في البدء، لكنه أُجبر بالقوة، وفي نصف ساعة، أصيب هذا الإنسان الذي كان يفتق ذهني بأسئلته عن القلعة، بإسهال فظيع، وراح الغائط يسيل من بنطاله مثل سائل أصفر، وأصيب بإضطراب غريب ومجنون وراح يئن مثل كلب مطعون، ولاحظت أنه فقد النطق الى الأبد، وأكثر من حركات تشنجية مؤلمة. صرخت بكل ما لديّ من قوة:

– مستحيل، كلاب، ماذا فعلتم به... ماذا فعلتم به؟

وذاب المسكين في لحظات مثل الشمعة المعرضة للنار، وسقط جثة مشوهة، هربت صوب الباب، وفتحته بسرعة وأنطلقت مساقاً بذعر، خرجت من ردهة الى أخرى ودخلت لا شعورياً غرفة أخرى، ووجدت نفسي أمام بضعة رجال يتنفسون بصعوبة، ووجوههم مغسولة بعرق غزير، كانوا يجرون علينا التجارب... وفي لحظات مثلما تقع الذبابة فجأة في شرك العنكبوت، وجدتني أعاني من رشح شديد، وضيق في صدري، ثقل رأسي، وأحسست بغثيان غريب، وتبولت لا شعورياً، وأصبت بتيهان عندما رفسني الرجل الذي كان يجري التجربة بقوة على خاصرتي وطرحني بعيداً خارج الغرفة، إستعدت توازني، نهضت وإستندت الى أقرب جدار، ثم هربت مساقاً بعشق الحياة، والباخرة، وصلت حديقة كبيرة وإهتديت الى جدارٍ مرتفع.

تسلقت الجدار بصعوبة وألقيت نفسي على الرصيف. في الطرف الآخر كان ثمة حديقة صغيرة، أستلقيت على العشب بعد أن شربت قليلاً من الماء وتمددت مثل جثة.

كانت أعصابي تحترق من بقايا رائحة الغاز. جفلت فجأة على صوت غليظ أنبعث من مكبر للصوت يقول:– إنها مجرد باخرة سنجبرها عما قليل على الرجوع. لا تقتربوا منها. ونرجوكم ألا تقتربوا من القلعة لأننا نملك فيها آلات فاتكة جداً صنعناها لمثل هذه الطوارىء. أن القلعة صنعت من أجلكم.

إنقطع الصوت لدقائق، ثم أعاد نفس الكلمات. فلت في نفسي: لماذا هذا الدجل، وبكيت بتألم، وأخذت أشهق عندما تذكرت زميلي الذي ذاب في لحظات، والرجال الذين كانوا يختنقون بصمت. آه، يالتلك القلعة التي أذابت حتى الأرواح!

جفلت على أصوات تردد «الى الباخرة» إندفعت أعداد غفيرة من البشر صوب الباخرة إلتحقت بهم. حاولت السلطات أن تمنع الجماهير، غير أنها أندفعت مثل سيل مخنوق صوبها. إقتربنا من الباخرة، فتحت كوة خرافية، وهجمنا مثل موجة جراد الى جوفها، وأنطلقت أصوات من مكبرات الصوت من داخل الباخرة تؤكد لنا أننا في أمان، وراعنا عندما رأينا أن ساحة الباخرة تسع المدينة كلها، وفي الظهيرة فرغت المدينة ، وبدت مهجورة، وأخيراً تحركت الباخرة بعد أن أطلقت دوياً مخيفاً، وسارت في إتجاه القلعة. بذلت جهوداً يائسة وأنا أشق طريقي وسط آلاف البشر صوب الأصوات التي راحت تؤكد بدفء سلامتنا، وأمننا في الباخرة. وصرخت على بحارٍ طويل دقيق الملامح، أن القلعة ملغمة بالجراثيم. ودهشت عندما أكد لي أنه يعرف كل شيء، وفي نصف ساعة هدمت الباخرة القلعة، وسطحتها مثل أرض مستوية، وتراجعت بهدوء الى البحر. وعندما تأثرنا وبكينا على مدينتنا الجميلة، أكدوا لنا، أنها لم تعد تصلح للعيش، لذا سيبنون لنا مدينة أخرى أكثر جمالاً. وتحت مظلة من طيور البحر، ووسط البحر الذي عشناه، إجتررنا بحزن أجمل الذكريات عن مدينتنا.

سفرة حول المقبرة

أبي، ثمة من يلتذ بالعيش حتى تحت السماء الخانقة رغم البصاق الذي يغسل وجوههم كل يوم.

قالت والدتي، إن أبي لن يرجع، كنت أؤمن بتكهناتي في السابق، أما الآن، فقد تحررت من وعيها البدوي، وحالات النشوة الحالمة التي تقع فيها لحد الغيبوبة عندما تفكر في قضايا حزينة، وعندما سألتها لماذا لن يرجع كانت تشير الى رأسها. كانت تعشقه حتى في الخمسين من عمرها، منها تعلمت أن العشق والعقل هما شيء واحد.

قال والدي قبل أن يغيب: حذارِ أن تتحول الى خيمة.

إذا كنت أخاف أن أضيع في الصحراء ذلك لأن رأسي كان خالياً من خريطة معقولة لأبعادها. كانت الصحراء تذكرني بتيهنا الداخلي وبلا شيئيتنا يوم كنا جسوراً تعبر عليها خيول الأبطال المصنوعة من الخشب، لا أذكر سوى مناظر ضبابية من الواحات وأشجار النخيل المحدودبة، أما ما بعد الواحات بأمتار، لا أتذكر سوى العطش القاتل، والرمل الملتهب، والأقدام الحافية، ودشداشتي التي كانت تنتفخ مثل بالونة وطفولتي المشوهة الفزعة، وكلمات والدي والعطش يفري داخله وهو يتكلم عن الشهداء الأوائل في قافلة الموت، كنت أركض خلف والدتي، بأعصاب عارية وأحدق في ثدييها اللذين كانا يبصقان حليب الخوف، كنت أريد أن أمصهما لأبلل حلقي المحمص، كنا نسير في قافلة طويلة عبر دخان الصحراء وفي أفق من العويل... منذ الصغر علمتني الصحراء أن السراب من صنع العقل، وأن العقل آلة تعرف صنع الكثير من الأشياء.

قررت أن أنطلق بعد أن زين لي حلمي أشياء مشوهة ورائعة لفرط حقيقتها... حذارِ أن تتحول الى خيمة، أبي، ثمة من يلتذ بالعيش حتى تحت السماء الخانقة رغم البصاق الذي يغسل وجوههم كل يوم. يالذل التعود على الخيم تأكدت من عربتي، وسحبت حصاني خارج الواحات لأمسح المنطقة، صهل حصاني ودويٌّ رنين صهيله مثل نواح حزين. وشعرت وكأن شيئاً أنغلق في داخلي، وكانت والدتي تركض مثيرة بمنظرها الفزع، آلاماً قاتلة، أما والدي فظل يؤشر الى سرب من النخيل، أردت أن ألعق الحليب الذي ظل يتدفق بغزارة من ثدييها. كنت أحسد ثوبها الذي كان يمص السائل الأبيض

مثل ورقة النشاف، صهل حصاني مرة أخرى، جفلت، وعرفت أن الصحراء تبحث من أفقها البعيد مناظر لا وعيي الجمالي، رأيت بقعة سوداء من بعيد تتحرك. اقتربت، وأقتربت، تحولت البقعة الى رجلٍ منكفىء على وجهه أقتربت. إن البعض منهم مثل السنونو يأتي ليضيع من جديد في قطيفة الصحراء الرمادية.

بركت قبالته. وقال بصوت خرج من بطنه، أو ربما من يده: أيها الماء المبارك. هبّت موجة من الريح الساخنة بصقت عيوني على أثرها دموعنا غزيرة. أخرج الرجل لسانه ومن خلال السراب راح يحركه مثل أفعى. كان فمه جافاً مثل الفحم. خلته يتكلم. ولكنني عرفت أن الصحراء قد أمتصت طراوته، أخرج لسانه دفعة واحدة، وحبسه بين كماشتي شفتيه الجافتين. زحف نحوي ومسك من سبابتي وقربها الى رأس لسانه وضغط بها عليه بقوة، كان اللسان جافاً مثل قطعة لحم مقدد، ربما أراد مني أن أدفعه الى الداخل، دمعت عيناي بغزارة من هبوب الرياح وحرك هو لسانه بأستمرار، أشار الى حصاني المربوط بالعربة. تكلم بلغة الإشارات السريعة، من جديد في الخيم تعلمت لا إرادياً لغة السيد، والعيون، والرؤوس، وتقدير المسافات برؤوس العصي، وفي روايتي فم الحصان تكورت كمية من الرغو الأخضر المعجون بالبياض. زحف نحو الحصان، وبصعوبة مسح الرغو ودسه في فيه. أشرّ الى عيني. إقتربت منه. قرب وجهي من لسانه. إستاف أنفي موجة حادة من رائحة مختمرة، وهي مزيج من رائحة الجسد المعذب والصحراء. لعق خدي، و تتبع بلسانه المبردي قطرات الدموع التي إنسابت على صفحة وجهي. سكرت من رائحة العرق، وبخار فيه، وعطانة معدته الخاوية، رفع رأسه ببطء، وزحف بلسانه الى محجر عيني اليسرى ونبش به فوق القزحية، مع أنني شعرت بألم موجع، تركته يلعق، ويسقط على ظهره. أعتقد أن ماء عيني كان مالحاً أكثر من اللازم، كان يفور بالجفاف، حرك قدميه، ورأيت حفراً عميقة تحتهما قلت في نفسي: يالمدية الصحراء المسرطنة.

قربت عيني من القدمين فوجدتهما محفورتين بمدية حقيقية، قد تأكل الصحراء طبقة خفيفة من الجلد، ولكنها لا تحفر ثقوباً، فتحت أزرار قميصه، فوجدت طبقة من جلد صدره مسلوخاً، تنملت في مكاني، وجسد لي صدره المسلوخ الأثداء التي كانت تتساقط مثل التوت تحت شفرات الحراب، والمذابح البهيجة يوم تحولت الصحراء والواحات الى مستنقع من الدم المتخثر.

هاهي الصحراء من جديد تفقد بقايا بتوليتهما. نقلت الرجل الى الواحات عندما نزعت ملابسه، ويشماغه، وجدت في جيب قميصه خارطة تبدأ خطوطها من حيث نحن. ولكن الى أين؟ الحرب والصدور المطعونة والأسلحة. وحدها تعرف الجواب. تخليت عن الحصان، وربطت بدلاً منه جملاً الى عربتي... مع أنني بدأت أكره أسماء وأشكال هذه الحيوانات ولكنني في سفرتي عبر الصحراء رأيت أن العقل والإرادة شيء واحد. قد لا أرجع، وأن أريد بشوق أن أرجع بذكرى، أو برائحة تستطيع أن تحرك الرئات العاطلة، إن الذين رجعوا ، أستطاعوا عن طريق أجسادهم المحترقة مثل صواري السفن، أوأفواه جراحاتهم الكرزية أن يخلقوا لغة جديدة، وأن يطهروا فيالق الرئات العاطلة من أدران مجتمعاتهم الفاسدة، وقيمهم الأكثر فساداً، لقد خلقوا ديناً جديداً... دين الإنتصار على الذات ومن ثم على العالم.

شممت والدتي، برئتي اللتين بدأتا تستيقظان بجموح، وقالت وهي تودعني بشجاعة: عش في خطر... لن أحبك إلا بالشجاعة.

وقبل أن أنطلق ذهبت الى الرجل لأضمد قدميه. أضاء في عينيه ضحكة رائعة وصافية. كل شيء في وجهه الأسمر أكد لي أن السماء، والأنظمة العفنة أمرتاه بالخروج الى الأرض المصلوبة، دهنت لسانه قليلاً، وسقيته قطرات من زيت الزيتون، نهض قليلاً وقال كمن يهذي:

– أريد أن يستمر الجحيم...

وأضاف– أنها مجابهة مؤبدة مع العدو.

مررت رؤوس أصابعي فوق الجروح وضغطت عليها. أراد أن يرفع رأسه ولكنه ظل جامداً، فكرت بالألم الذي له تاريخ طويل، وبالألم الفردي، ضغطت على الجروح بقوة، أطلق ضحكة مزلزلة من عينيه، ورأيت في صفائهما مبلغ تساميه، هيجني من الداخل، وأشعرني بحالة سمو.

أجلت سفري، وجلست لصقه، في الليل جلبت قنديلاً ووضعته في مكان قريب حتى يتسنى لي أن أرى وجهه، ولأول مرة نزعت اليشماغ المعروق من رأسه، تبعثر شعر رأسه الطويل وأعطى شكلاً رائعاً لوجهه الأسمر الذابل، خلته للحظات والدي ولكنه بدا كثير الشبه بمسيح بوليفيا الراحل، لا، إنه مسيح الصحراء الجديد. راح في نوم عميق، قبلته فوق جبينه، هذى في النوم، وأطلق هذه الكلمات: كنا بكما... أما الآن لا... لا...

سهرت لصقه . هذى كثيراً، وذكرني صوته المحشرج بصوت والدي، أفاق قبل منتصف الليل، وطلبت قليلاً من زيت الزيتون. بللت شفتيه، وأسفل حلقه، ولسانه، وقلت له:

– بكم كنا!

– بكم كنا... لأننا... تكلمنا... أكثر من اللازم.

رجوته أن يكلمني قبل أن أنطلق... أشار الى عينيه، وأجابني بجهد:

– تعلم لغة العيون... لغة الصمت... لغة الزحف.

وقلت: أريد أن أسمعك.

– ألم تستمع بعد؟

– الى أي شيء.

– لكل شيء.

وأضاف:

– هل تحررت من فكر جميع أولئك الذين أرادوا أن يصنعوا تاريخك عن طريق الحماقة؟

– تحررت.

– هل تحررت من ثرثرة البكم؟

– تحررت.

كنت كمن يعترف بتواضع عن ذنوبه أمام القس. جلس. رأيت صدره المسلوخ تحت ضوء القنديل، فكرت أن أجرب هذا النوع من الألم، كنت أريد أن تظهر. وقال:

– هل جربت قهر العذاب والألم؟

– كلا... هناك على المحك سأحاول.

كان عارياً إلا من سرواله الداخلي. نهض ووقف على قدميه، صررت على أسناني، وشددت على عضلات وجهي، وشعرت بوجع صاخب تحت قدمي. وقال:

– نبات العاطفة ضروري... إتبعني.

رفع القنديل، تفتقت حفر الجروح. رأيت بصمات أقدامه المدماة على الأرض. تبعته بصمت حتى صرت لصقه. وقلت:

– الى أين؟

– لأريك فراشات عشقت النار.

تركنا الواحات، قدماي ذكرتاني بجروحه. كان ضوء القنديل المترجرج يعكس ظله على الرمل مثل شبح أسطوري. وقال:

– لم نعد غرباء مجهولين في العالم.

– أعرف.

كنا غرباء، نحمل وجوهاً لا تفرقها علامات الأستفهام القاتلة. في جميع تلك المجتمعات المؤسسة بكاملها على أسس موبوءة وفاسدة، كانت علامات الأستفهام تحاط بحروف قرمزية على جباهنا، وملابسنا، لقد تحملنا الرهانات المسننة، وكل التسميات الرديئة حتى بنينا شمساً.

كانت الصحراء مختفية خلف جدار الليل، بعد مسيرة ميل واحد، طرق سمعي صهيل جواد عال. قلت في نفسي: ربما أنه حصاني... هل يمكن أنه هرب؟ هاجت أشياء متشابكة في داخلي، وضخ داخلي لوحات النزوح، والمطاردة، والدفن الجماعي... الهروب والليل وصهيل الجواد. لا أتذكر سوى عويلي، ونواحي المتقطع على ظهر والدي، أو عنق والدتي، والأصوات المختنقة... ولدهشتي تصورت حتى الأرض، تحتفظ بالذكريات، أردت أن أخذ منه القنديل، غير أنه رفعه عالياً، وغمرنا ضوءه الأصفر الكامد، رأيت صفحة صدره مثل خريطة مجسمة لبقعة أرض مشوهة. وقال:

– هل تعبت.

– ليس بعد.

– للرمل جاذبية.

– تسلى بهما يهودي بحربة بندقيته... حفرهما لي للذكرى.

وقلت:

– هل يحفر الرمل باطن القدم؟

– كلا.

– كلا.

– وقدماك. ألا تؤلمانك؟

– كانتا.

– وصدرك؟

– لعقه الصحراء.

–كيف؟

كان يجب أن أعقد سلاماً مع نفسي ولكنني زحفت عليه ليالي طويلة.

سلمني القنديل، وسقط على الأرض، قربت القنديل من وجهه، ولرعبي رأيته يتخذ أشكالاً غريبة. هبت موجة هواء باردة وقوية طيرت خصلات يابسة من شعره الطويل. نامت بعض الخصلات على وجهي، ورغم تتالي موجات الهواء شممت في الخصلات رائحة العرق، والرأس المعذب، وأنطلقت شرارات حادة مضيئة من عينيه، تأملني مثل إله، إضطرب الضوء، وأنفصل رأسه عن جسده، وتحرك على الرمل، وبعد قليل إرتفع الرأس مثل شمس صغيرة وسط تراتيل حزينة أمطرت من كل مكان. أنطلق صهيل آخر. زحفت صوب الرأس رافعاً القنديل في محاولة لأرى صدى الصهيل في وجهه الإلهي، وقال الرأس:

– إنه حصاني.

– هل يعرف الحصان لغة الصحراء.

– إنه تاريخ.

– إذن سأستعين به في عربتي.

– وهل كنت ناوياً السفر؟

– نعم.

– أن، أكمل مسيرة عربتي عبر المقبرة الضخمة، ثم هدايا بسيطة فيها لمئة مليون رئة عاطلة.

وقلت:

– أين عربتك؟

– بإمتداد هذا الطريق. أن صهيل حصاني يقول أنها قريبة.

أرتفع رأسه عالياً. تبعته، وجريت بقوة. ظل يردد بصوت عميق: بسرعة الريح... بسرعة العصر...

وضاع في السماء. وصلت العربة. شمني الحصان بحنان، ومسح جبينه العظمى بصدري. ومن خلال ضوء القنديل رأيت وجه الحصان مغسولاً بالعرق والرمل، ذهبت الى حوض العربة التابوتي الشكل، فوجدت فيه أكواماً من الجماجم، وبدلات القتال،

ويشماغات، وأحذية كلها مغطاة بطبقة خفيفة من السنابل الخضراء. عدت الى الحصان، وسحبته بعد أن ثبت القنديل في مكان مرتفع ليغسل نوره الجماجم، وأنطلق نشيد حرت في معرفة مصدره، كنت أسمع النشيد بنفس الوضوح في حوض العربة، في السماء، في الرمل، وألتقطت أذني هذه الكلمات بوضوح:

– سأكون هنا بين الأوائل من أجل بزوغ الإله الجديد.

الطيور المهاجرة غرباً... تأخرت

في اليوم الثالث من الحرب فقدنا لغة التفاهم بيننا، وكأن يداً وهمية كوت ألسنتنا، غزالة كانت مثل الخرساء، وأنا بحثت أكثر من مرة عن لساني. تكلمنا بحسٍ غائب، وبلغة مخمورة، وبعقل مشلول. منذ مدة نسينا لغة الألم قليلاً. أيدي الحرب الكابوسية فتحت جميع تلك الصنانير لتمطر ذكرياتنا من جديد. كنا نعود الى تلك الذكريات، دونما رغبة صميمية، فإذا بنا في دواماتها الساخنة، نقسو، نعسر الحساب على أنفسنا حتى تتعب ألسنتنا. الحرب من جديد فتقت الجروح، وصبت أسيدها الحاد على لغتنا القديمة والحديثة. عشرون سنة، تعلمنا خلالها بحكم الحياة، لغة، وحياة، ومعيشة، وطقوساً جديدة، مع وقف التنفيذ لكل شقاءاتنا السابقة، منذ اليوم الثالث للظروف الجديدة وبعد أن غطينا طبقة من الغبار على جميع تلك الأحلام، والذكريات، جاءت رائحة البارود، وموجات الهواء التي جرتها الطائرات لتزيح غطاء الغبار. غزالة، بحدسها الأنثوي الدقيق تعرف أن بقايا أحلامها ستموت. ما زالت تذكرني بأعذب الأحلام. بالنسبة لي ما زالت مستودعاً عميقاً لذكرياتي الصغيرة. كبرت كأي أنثى بسرعة مجسدة تاريخاً طويلاً في شعرها، وجسدها، وعينيها. ما زالت أكثر من أخت، أكثر من ذكرى. فيها تواريخ البراءة، والغضب، وتسلق الأشجار، والعودة من المدرسة، والتراشق بالكتب، وسرقة المأكولات، والليمون، والتفاح من البساتين.

جاءت الى غرفتي. كنت متنهلاً، عبثاً أحاول أن أدرك حقيقة الكابوس الذي سقط علينا مثل نيازك وزلزل عالمنا وذكرياتنا. كعادتها جلست قبالتي، وقلت:

– ماذا بعد الآن؟

– من يدري.

كنت مثل الوسنان، ظلت تتكلم دون أن أسمعها بوضوح، ربما. كثافة الأحداث، والتدهور، والأخبار التي ظلت تتوارد وهي حبلى بتوقعات مخيفة، ووجوه المنتصرين الذين كنت أسترجعهم في مخيلتي، والذكريات التي جددتها الحرب بقوة قلبت صورة الغزالة، وصوتها. وضخ شعوري الملغي جرس صوتها الناعم، قالت:

– هل تفكر بالعودة بعد الآن؟

إستمر الجرس الناعم. تبادلنا نظرات صماء، كان وجهها الجميل المعذب يؤكد لي عبر غلالة الحزن.

أنك كنت تحلم. وظللنا نمتص البعض بنظرات دامية.

– هل سترجع بعد الآن؟

كان بالأمكان أن أرجع عارياً، دونما هدف الى الأرض، والذكريات، وأشجار الليمون، ومن ثم يبقر بطني في الطريق، أو عبر الحدود بعد أن تغسلني رياح الأرض الندية، وأموت بصمت على التخوم، كنت أفكر في جدوى العودة، والتنقل في الهواء، والبحث عن أصدقاء الطفولة الذين صاغهم الزمن بأشكال متعددة. خالتي أمينة، وأبنها الأخرس مسعود، وزوج خالتي الذي أنقطعت رسائلهُ منذ مدة طويلة. أن مجرد الهروب الرومانسي ومن ثم الموت في تلك النافورة من الذكريات.

قالت: خالتي. قلت. خالتي.

قالت: شاخت الآن. بل ماتت.

قلت: زوجها.

قالت: ربما عذبه ذاك الأخرس مسعود بهوسه، أو دفع ثمن عناده، وإصراره.

قالت: لا أحد في البيت. لنذهب الى خالتي، ربما تسمح لنا بأخذ الفرس الى النهر.

قلت: لنذهب.

إتفقنا. كان والدي نائماً. تسللنا بصمت. غزالة تتصرف مثل الصبيان. أمسكت بيدي، وقادتني خارج الدار. وركضنا عبر الطريق الترابي.

قالت أنها تحب الفرس كثيراً، وتحب الزبدة التي تضعها خالتي فوق خبز الشعير. في الطريق رآنا صديق لوالدي، توقفت غزالة، وتصنعت الهدوء. أراد أن يتكلم. إبتسم وتركنا. ركضنا. دخلنا ساحة البيت الواسعة. خالتي أمينة كعادتها تغزل. أطلقت بقرتها خواراً طويلاً، خوار الأبقار يذكرني بالصباح. والندى. والمساء المغبر. قالت خالتي بوجهٍ فرح: البقرة تعرفكما، هل جئتما لوحدكما؟ هززنا جسدينا، قالت: كيف سمح بابا لكما بالمجيء؟ رددنا بلا وعي: جئنا... ركضنا. كان نائماً.

سطحت قليلاً من الزبدة على قطعة خبز، أكلنا بِلذة. كانت كعادتها سعيدة بزيارتنا. قالت غزالة: جئنا لنأخذ الفرس الى النهر. رفضت. وأقنعتها غزالة، وقالت تعرف كيف

تسقيها. قالت خالتي أنها سقتها قبل قليل: وإستمرت تنزل. هبت موجات خفيفة من النسيم، ولطمت أنوفنا رائحة الزريبة، رائحة الزريبة ذكرتني بالفرس، وروث الحصان في الطرق، قالت خالتي: لماذا لا تنصبان الفخ للعصافير في الزريبة بدلاً من أن تأخذا الفرس الى النهر؟ غزالة تحب المغامرة، وركوب الفرس، والركض، والدخول في الماء حتى الخصر.

قالت خالتي: الزريبة فيها مئات العصافير. العبا هنا...

إستمرت تغزل، دخل كلبهم الساحة، إقترب مني وشمني، ولحس كاحل غزالة. طردته خالتي بعود المغزل. وقالت: أنه لا يبقى في البيت هذه الأيام. ترنحت خالتي قليلاً. كانت تسمن أكثر من اللازم. قالت غزالة أنها تريد أن تأخذ الفرس. تخيلت خالتي الفرس، قالت... واثقة أنها تهرب منكما. رجوتها كثيراً. قبلت. تركت المغزل وتل الصوف، ونهضت بتثاقل، وغابت في الزريبة. قالت غزالة وهي تحاول إقناعي أن أغلق المذياع، وأرتاح قليلاً.

– إنها زريبة كبيرة... ها هي رائحتها تفوح. وفاحت رائحتنا الى العالم. ماذا أردنا أن نثبت للعالم؟ قلت في نفسي يالها من رائحة مقززة يا غزالة. أين كانت هذه الروائح العفنة طوال هذا الوقت؟ قالت خالتي: لا تضربيها يا غزالة. مسكت غزالة الرسن. وساعدتني على الركوب. تحرك جسمي بحركة، سارت غزالة برفق وهي تمسك اللجام. كان الوقت مساءاً. من بعيد كانت قطعان الماشية تسير في دخان شفاف من الغبار، نزلت الفرس الى النهر وشربت. كانت ثلة من النساء يغسلن البطانيات، ويعبثن في الماء حتى الخصر. دخلت غزالة في النهر حتى خصرها. ضحكت. نست الفرس، وأنشغلت مع أسماك صغيرة.

ألتصقت أثواب النساء بأجسادهن، وبرزت أشكال أردافهن وتعرجاتها بوضوح. غسلت غزالة جبين الفرس، وعنقها. إنطلقت طيور لها ذيول طويلة ملونة. وغمرت النهر بزقزقة قوية. قالت غزالة بحيرة، تطير وكأنها تزقزق. يبدو أن لديهم من طائرات الميراج بوفرة الرز. أتعرف أن الحرب كانت نصراً لطائرات الميراج أيضاً.

كانت أذنا الفرس تتحركان بإستمرار قالت غزالة: لنرجع. ركبت هي الفرس بثقة. كان ثوبها ملتصقاً بردفيها. خجلت من منظر جسدها، قلت: يجب أن تسيري حتى

يجف ثوبكِ. قالت: الهواء يجففه هنا. كانت الفرس تهز رأسها، وكنت أهزُّ رأسي، وغزالة تتحرك مثل كرسي هزاز على ظهر الفرس. قالت: أكره العودة الآن؟

كانت غزالة قبالتي ما زالت تحدق في كتبي، وتحاول أن تخفف من إنبعاجي النفسي. قالت من جديد: هل تستطيع أن ترجع بعد الآن؟

أي جدوى أن أعود لحماً، أو عاطفة؟ لكن الألم الذي لا يُنسى، يتحول ذات يوم الى فعل. من خلال الدروب الكثيرة، المفروشة بالنيران، والهواء الملوث حصلنا على الآلام، وخشية ألا نبقى رمزاً فريداً للذل، حفرنا في طيات لحوم أجسادنا مخازن الآلام. فقط نحن كنا نحسب جسامة الآلام، وصيحات الجروح التي حفرتها أزاميل الأيام، والذكريات... مع أن بحيرة آلامنا كانت عميقة، تحملناها. وأحرقت حتى أيادي أحبابنا.كانت حروقهم تطيب بسرعة، حتى صارت موضة حرق الأيدي في بحيرتنا، عملية لطيفة، تحولت بكر الأيام الى لعبة، وخطابات، وإدعاءات. أرهقتنا، وأرهقتهم تلك الفصول السمجة من الدرامات الغوغولية، والموليرية، حتى أننا من فرط الأرهاق كنا ننسى أنفسنا في بعض فصولها، لكن مجنونة ظلت تلك الجروح.

قالت غزالة، جرحت إبهام رجلي اليمنى، خالي لم يرجع بعد. لنذهب. قلت: أسرعي.

ودعتنا خالتي، مسست ثوب غزالة. كان ما زال نديا، قفزت غزالة طوال الطريق، ورفعت أطراف ثوبها مرات عديدة، ورددت: سيجف... أمام الباب خيم الظلام، تمطى ظل غزالة على عتبة الباب. ضاع شكل ثوب غزالة. دخلت بصمت أمسكت والدتي بخفة بظفيرة غزالة وسحبتها بقوة. وبإمتداد صراخ غزالة هربت الى غرفة نومنا. عوت غزالة عواءاً طويلاً.

قالت: أغلق الراديو لنستمع الى العويل.

قلت: الأردن، سيغلف بعويل طويل.أيه.أن تقحم إنساناً في معركة غير متكافئة أكثر من إجراء، سنسمع العويل يا غزالة لسنوات... إنتظري.

عوت غزالة بإستمرار، ومن قوة عويلنا عرفت مبلغ ضربات والدتي على جسدها ورأسها: مجنونة، كلبة، حتى ثوبكِ مبلل وكأنكِ تبولتِ، كلبة بنت الكلب... أما ذاك الكلب، أكسر له رأسه.

دخلت بين الجدار وتل من الملابس. دخلت والدتي تزفر، بحثت في الغرفة. لم تجدني، تعجبت. رأت أخيراً قدمي الواحدة. قدرت مبلغ خوفي، وأطلقت ضحكة قوية. تأثرت

وبكيت. كفت عن الضحك. أخرجتني برفق، وصفعتني على ظهري، وعنقي، لم ترتح لزيارتنا. عرفت رضاي للعبث مع الفرس. قالت: ستضربك تلك اللعينة رفسة على بطنك وتقتلك.

لم أحر جواباً، هزتني. قلت: غزالة أخذتني. تركت الغرفة. بعد أن تسللت غزالة الى غرفة نومنا. ضحكنا. وكشفت عن باطن ساقها، ورأيت بقعاً زرقاء عليها. قلت: هنيئاً. ضَحِكَتْ وقالت: وأنت. ضَحِكتْ. ضحكنا وتأملنا البعض بصمت حزين لأكثر من دقيقة.

قالت: ماذا يجدي الصمت والحزن. خالد... خالد... أغلق هذا المذياع.

قلت: نائمة كانت تلك الجروح يا غزالة أيقظها هذا الكابوس.

قالت: حسناً فعل.

تنهدت بحرقة، وقالت: الذي أعرفه أن هذه الحرب كانت أكثر من خبر لنا كانت صفعة كنا بحاجة لها. أسمع، أنت لم تأكل منذ يومين.

وضعت الأكل فوق مائدة صغيرة، وقالت بتذمر، تأخرت كثيراً.حتماً ذهبت الى بستان للسرقة.

قلت: أين ماما؟

– سافرت مع بابا لزيارة عمي.

فتح بخار الأكل شهيتي. قالت غزالة: عندي بضعة أسئلة في الحساب ساعدني في حلها.

وافقت. أكلت بشهية، كانت رائحة البرتقال تفوح مني الى مسافة بعيدة، غضبت غزالة لزرعي حبات الرز على الأرض، وقال: أحتاج الى وقت طويل حتى أتعلم أصول الأكل، أستلقيت على السرير:

قالت بحزن: فرس بيت خالتي ماتت.

– ماتت؟ كيف؟ لماذا؟

– قبل ثلاث سنوات ركبناها أخر مرة. الفرس لا تعمر طويلاً.

– والبقرة؟

– ماتت هي الأخرى،

قالت: أشتريت واحدة أخرى.

نزعت ملابسي، وأستلقيت على الأريكة، سألتها فيما إذا كانت تعرف متى ترجع والدتي. أجابت لا تعرف. نمت. في المساء أنشغلت في الضرب، والجمع، والطرح. ظهر ظل بابا، وماما. ذهبت غزالة الى غرفتها، وذهبت أنا الى غرفتي.

قال والدي: إنهما في الفراش، أجابت والدتي بصوت منهك. لقد تأخرنا.

قال والدي: هل تشعرين بتعب؟

ضحكا، ثرثرا، صمتا.

إقتربت غزالة مني، ومسدت شعري بحنان وقالت: هل حقاً يفيد الحزن

وإنسابت الأخبار وكأن آلاف الحناجر الوهمية تهمسها. قلت في نفسي. أما الى حدود القناة فلا... فلا...

قالت: بل أكثر... أكثر... سترى، إنها عملية حسابية دقيقة. هل يمكن أن نستخلص أكثر من الرقم (٤) إذا جمعت إثنين زائداً إثنين؟ إنها عملية جمع، وطرح، وضرب، وقسمة... كنت منتشياً الى درجة الذهول. قلت أجوبتي صحيحة إذن، سأنجح حتماً. كان ثمة طلاب يتراشقون بقشور البرتقال، والحقائب كعادتهم كلما ودعوا سنة دراسية. قالت غزالة بجرس حزين. بابا سيبيع البستان، والبيت.

عملية بيع الأراضي والبساتين بدأت. قلت لماذا؟

– قالت سيأخذونها بالقوة. لقد بدأوا الأرهاب.

تقدم مني صديقي علي، وفتاة في عمر غزالة، علي إنسان لطيف ومضطرب.

قال: إجابتي كانت ضعيفة في الفيزياء.

لم يعجبني إضطرابه. شجعته أن يستعد للدور الثاني. كانت الفتاة في نفس الصف. قالت بصوت أعجبني: أهلي فكروا بالنزوح الى لبنان.

الأردن. لبنان. مصر. العراق. أسماء بدأت تتردد بكثرة في أفواهنا.

قالت الفتاة من جديد: إن عائلة محمود نزحت منذ أسبوع. وأضافت، هل أستطيع تقديم الأمتحان في لبنان؟

هززنا رؤوسنا، وأكتافنا. أخذت علي، والفتاة وغزالة الى بستاننا، دخلنا من الباب الخلفي والدي صرف البستاني، غسلتنا موجة من أريج البرتقال، والتفاح، والليمون. رأيت يهودياً عجوزاً يجول بين الأشجار، وتذكرت إنني رأيت صحبة والدي قبل أسبوع.

كان يسجل ملاحظات على دفتر صغير، إقتربت منه وقلت: ماذا تفعل هنا؟ إبتسم، وربت على كتفي برفق، وجر جسده الهزيل الطويل، وضاع بين الأشجار وضعت يدي على كتف الفتاة، وسألتها إذا كان بوسعها أن تتسلق الأشجار. نكست رأسها بخجل. تسلقت شجرة برتقال، وألقيت لها ثلاث برتقالات ناضجة. إبتسمت غمزت لها. والقيت واحدة فوق رأسها. صرخت. نزلت بسرعة. وعبثت بشعرها المتموج. نسيت حقيبتي فوق الشجرة. تطوعت غزالة لأنزالها. صعدت الى منتصف الساق. كان منظرها مخزياً. صرخت عليها. نزلت، حاولت الفتاة. جرحت فخذها، ونزلت جففت بقع الدم بمنديلي، إقترب عليّ وأراد أن يثبت شجاعته. سقط على مؤخرته من حيث وصلت غزالة بخفة هرة. ضحكت غزالة. نسيت الفتاة جرح فخذها، ألقيت تفاحة في إتجاه الحقيبة، إصطدمت بها ووقعت. كان اليهودي في زاوية بعيدة يسجل الملاحظات، قالت له غزالة بإستفزاز أن ينتبه من الأفاعي. تصنع الهدوء. جفت الإبتسامة على وجهه، وتلفت حوله، وجر جسده نحو الباب الخارجي عبثنا في ساقية صغيرة وتراشقنا بالفواكه، والحقائب عبر الطريق تسللنا الى بساتين أخرى وسرقنا عشرات البرتقالات والليمون لمجرد التراشق. قطبت الفتاة عندما أصابت البرتقالة صفحة وجهها. قطبت أنا الآخر.

قالت غزالة: ما جدوى هذه التقطيبة؟ مرتفعات غولان هي الأخرى راحت.

كانت التقطيبة مثل نتوءات بارزة على وجه والدي، كان جالساً خلف نرجيلته يحدق بعينيه الزائغتين في فقاعات الماء، ركزت بصري على التبغ، والفحم الملتهب الأحمر. أرسل موجة كثيفة من الدخان في إتجاهي، حرك أصابع قدميه بعصبية، ثم أعادهما الى شبشبيه، قلت له، إن نجاحي أكيد، أجابني من خلال موجة دخان التي أضاعت شكله الهزيل.سنسافر. كانت والدتي منهمكة في غسل الأواني في المطبخ. إنتظرت ليتلاشى الدخان لأرى وجهه بوضوح، قلت تقصد ننزح. أطلق موجة أخرى من الدخان. أضفت لماذا؟

– بعت البستان.

– لماذا؟

– أنت لا تفهم.

– ما كان يجب أن نبيعه.

– لن نستطيع العيش هنا بعد الآن.

– نستطيع مثل الآخرين.

– والمجازر التي بدأت؟

– نموت مثل الآخرين.

– تعقل... فكر في المجازر.

– مدرستي، بستاننا، خالتي، بيتنا.

شعرت ببكاء حاد. وقال: أستطيع أن أستثمر فلوسي في مكان ما في الدول العربية.

قلت: أنا أبقى هنا،

رفع إليَّ عينين هائجتين، وقال: مستحيل.

قلت: زوج خالتي لن يترك حيفا.

قال: يجزون رأسه مثل الخروف، إنه مجنون.

قالت غزالة: ألا تأكل؟ ها هي تكهناتك كلها تترجم الى حقيقة.

أبنية رملية كانت تلك الإدعاءات، كانت كل دولة مختفية تدعي العظمة داخل الإذاعة وحسب.

أذهلتنا لغة الأثير. كل... ما جدوى الحزن؟ الأماني وحدها لا تفيد إذا لم تترجم الى فعل... جلست لصقي، وقالت: أتذكر عندما نذهب الى بيت خالتي، ونركب الفرس ومن ثم نرجع ونأكلها فلقة من ماما. نحن في حاجة الى فلقة.

آه، ياخالة لكم تنقصنا لغة الإستنهاض.

قالت غزالة: لنجرب ركب الفرس في هذا العمر.

قلت: ألا تخجلين؟

قالت: في ساحة البيت الواسعة، طبعاً لا أستطيع، لا أستطيع الذهاب الى الهند. خالتي لا تمانع أبداً...

قلت: أسمعي، زارني علي أمس، وقال أن الطلاب اليهود منعوه من الدخول الى المدرسة، وأعطوه فلقة.

صرخت بإنفعال، لكن هذه الفلقة بالرصاص، والقنابل.

قلت: أعرف... نستحقها لأننا لم نتعلم أن نستعمل الأشياء التي أستعملوها.

قالت: أستعملناها في الأعراس فقط!

قلت: ثم في التدريب، وتحطيم أهداف ميتة.

قالت: مَصلحيون.

قلت: مثل المرحوم بابا.

تذكرت حيفا. ووالدي الذي لم يعشق في حياته سوى لغة المادة. ربما ما كان يمانع أن يهاجر الى نيويورك لمجرد المادة.

جاءت والدتي بخطوات ميتة ووقفت في شق الباب. تمطى ظلها على الأرض بشكل مضحك. بدأت تضعف كثيراً. قالت: لا تذهبا الى المدرسة غداً. هناك مسلحون يطلقون النار. المجازر... بعد أيام سنبيع بقية الأشياء ونهاجر. قلت بحزن: دراجتي وشهادتي. قالت: لا حاجة لك بها.

– أين سنذهب؟

– الى الأردن.

ألقت والدتي نظرة فاحصة على موجودات الغرفة للتأكد من الحاجيات التي يمكن بيعها. قالت غزالة: والبيت؟ أجابت والدتي: بعناه. الى نفس اليهودي الذي أشترى البستان. تخيلته وهو يعيش في هذا البيت. وبرز وجهه العظمي أمام عيني، وقامته الهزيلة. إذن، كان يدرس البستان والأشجار، ونوعية البرتقال، والتفاح.

حتى في فهم الأشجار، والتربة. بالنسبة لوالدي، لم يكن بستاننا الكبير أكثر من أرض خصبة ، وأمطار ،ومحصول... قالت غزالة: أخبار الصحراء دامية ومرعبة... نفس الصور القديمة تعاد وكأن التاريخ يعيد نفسه. هل تتذكر الصحراء، وأنين المرحوم بابا، وسقوط والدتي أثناء الهروب، وأحلامنا. يعيد مأساتنا الآن الجنود. منذ الطفولة حكم علينا أن نعيش الألوان الرمادية نفسها وكأننا ورثنا اللعنة والنزوح قلت: نستحق يا غزالة. أعرف ماذا تعني الصحراء الآن إنها جحيم...

قالت: جحيم... لكنها لا تبتلع إلا من لم يعرفوا ترويضها. كانت جحيماً وبقيت كذلك. تصور مئات السنين وهي ما زالت لغة غريبة، وأرضها غريبة، وشكلها غريبة بالنسبة لنا. تصور بهذه السهولة اللامعقولة فض اليهود بكارتها. جسدٌ عشنا لصقه أجيالاً طويلة وظل لغزاً. أم هم فقد عرفوه في بضع سنوات.

قلت: غزالة... يا غزالة كفي... ثرثارون... مبالغون... ٤٠٠ أسير في القطار المتوجه الى مدينة ـــ، و٢٠٠ طائرة ميراج سقطت، و.....

نفخت غزالة بغضب، وبكت. وقالت: أنهض... أغتسل، وكُل لقمة. ثلاثة أيام وأنت على هذه الشاكلة.

قلت: أريد أن أعرف الأخبار كلها.

قالت: هي الهزيمة الثالثة. الحرب عاهرة لا تكشف عن نفسها بسرعة. إنتظر.

كان الوقت ليلاً عندما جاء زوج خالتي. منذ مدة إنقطع عن زيارتنا. إستقبله والدي بفتور. لم تعجبه شراسته. كان يسميه: فلاحاً صلفاً. والدي يتكلم بلغة برجوازي جبان، ويصر على فرض نفسه ولغته على الأخرين، ملأ سعاله غرفة الإستقبال الخالية، الحاجيات كلها بيعت.

كان صدى أخف الأصوات يرن في الغرفة. جاملت والدتي زوج خالتي، قال زوج خالتي: بالنسبة لها إنه يوم تنظيف الزريبة. أختك مثل الأشتراكيين لها أيام خاصة للعمل. صرف والدي على أسنانه، وأنشغل بتأمل الغرفة الخالية. كنت مع غزالة في الطابق الثاني، فتحت غزالة باب غرفتها وتسللت الى حيث الدرابزين، وراحت تسترق السمع، قالت والدتي: ومسعود لم نره منذ مدة، قال زوج خالتي: أنه يكبر، لكنه أخرس أشتغل مؤخراً عند يهودي تاجر يحمل أكياس الطحين والسكر. الأخرس يكون بقوة البغل. قالت غزالة بهمس: زيارة غريبة.

إنقطع زوج خالتي عن زيارتنا مدة طويلة. ربما سلوك والدي الجاف. أو صلابة وجفاف زوج خالتي وتصرفه كفلاح حقيقي، وأشياء أخرى أبعدت بينهما.

نقلت غزالة بهدوء تصرف والدي. قالت: إنه مقطب. يضرب خرطوم نرجيلته على فخذه بعصبية. قطب من جديد. ماما حائرة تحاول إرضاء زوج خالتي بإبتسامات رقيقة. أطلق والدي سعالاً طويلاً. رن السعال في البيت الخالي. إنسحبت غزالة وقالت بخوف: رآني أتلصص. من بعيد أستمعنا،

زوج خالتي: سمعت أنك بعت البستان؟

والدي: لا بد من بيعه.

زوج خالتي: وهل يبيع الإنسان أرضه؟

والدي: ما جدوى البستان بعد الآن؟

زوج خالتي: بعد الآن؟... لم يحدث شيء.

والدي: والمجازر، وكساد السوق، وتعفن الفواكه، دير ياسين، وذبح الأطفال؟

زوج خالتي: أي ضير. لتتعفن الفواكه، أما أن يبيع الواحد أرضه. وبستانه، فعار.

والدي: وهل تريدنا أن نموت؟

زوج خالتي: يموت الواحد في أرضه، ويدفن في بستانه.

والدي: (بلهجة إستفزازية) وماذا تفهم عن البستان.

زوج خالتي: أنا فلاح إبن فلاح، أعرف متى ولماذا يسقط الخوخ من على الشجرة.

والدي: لكنك لا تعرف كيف تبيع المحصول؟

زوج خالتي: أنت لا تفكر إلا بالربح. طالما توجد أفواه لا تتعفن الفواكه. ثم لك إرتباطات مالية مع اليهود... لماذا تخاف؟ ماذا تفعل في الأردن؟ الإنسان لا يهجر وطنه. أنت تنزح، هو ينزح، أوه عيب يا رجل.

لم يحر والدي جواباً. وبعد صمت طويل تكلم بلغة جافة: أرجوك هذا تدخل في شؤوني. لو فكرت في دير ياسين لما تكلمت بهذه اللهجة.

قالت غزالة: الآلاف نزحوا الى الضفة الغربية، يذكرونني بعام ١٩٤٨ .

قلت: النزوح صار موضة هذا الشعب. نحن أشبه شيء بالطيور المهاجرة في الليل، في النهار، في الظهيرة، وفي كل المواسم تهاجر... مهاجرون محترفون...

قالت: إنني أتذكر الهجرة بوضوح.

كان الوقت مساءاً، وكنا مع قوافل النازحين نسد منطقة واسعة من الصحراء. العويل الموجع، وبكاء الأطفال، وأنين الشيوخ... حتى الألم لم يستطع أن ينظمنا في مسيرة الهجرة القاتلة. كانت ثمة أنانية تغري القلب وسط قافلتنا، وظلت أذني تلتقط مثل هذه الكلمات: نورية... نورية حمدية تضع مولوداً ساعدينا. أبو سعد يتقيأ دماً، الطفل يموت من العطش أين والدك يا عثمان؟. ليلى أصيبت بالنزيف. جميلة طرحت طفلها على الرمل. أيها الكلب ألا تستحي... تقرص ردفي؟... كانت كل عائلة تصرخ بألمها. وفي الليل سارت بعض العوائل مستغلة برودة الصحراء في حين نام البعض الآخر. في منتصف الليل نمنا مثل جثث ميتة، ورغم الأرهاق حلمت ببستاننا. وبخالتي أمينة،

وبعلي، وبالمدرسة والطلاب، وبدراجتي العالية. في الصباح أفقنا على برودة الصحراء، وأصوات الطيور المهاجرة مثلنا. كانه وجه والدي جافاً وبلون الطين. أنين والدتي لم ينقطع. زحفت غزالة لصقي، وقالت بتوجع أنها حلمت بالرجوع الى حيفا، ورأت علي وهو يلح عليها بالذهاب الى البستان. قلت في نفسي: لن ينتهي الحلم...

إلتحقت بنا عوائل أخرى وسرنا على شكل جماعات. أخذت بعض الحاجيات من والدتي. كانت تسقط مثل كيس القش بأستمرار على الرمل. والدي يسير تحت حمله غير عابيء بنا. كان صوته الجاف يردد بإستمرار: أستمروا.

قالت غزالة: سيناء..هذه الصحراء الشاسعة كيف سلموها بهذه السهولة؟

وإستمعنا في الراديو الى لغة الدم الجديدة. تركوهم في الصحراء دون ماء أو أكل، أو أحذية. وأضافت غزالة: نفس الصور تعاد. إنها تذكرني بأنين المرحوم بابا، وسقطت والدتي على الرمل، وأحلامنا.

تسلمتنا السلطات الأردنية، وساقتنا مثل قطعان الماشية الى بناية البلدية وزعتنا تحت أنظار آلاف العيون التي وجدت فينا مادة جيدة للشفقة والعطف. كثيرون كانوا يتذوقون تلك النظرات الحزينة وهي ترسل بريقها هنا وهناك. عيون تترصد الفتيات الجميلات، والملابس الممزقة، والأثداء الطويلة الجافة في أفواه الصغار. بعد نصف ساعة أمسك بعض الحضور بأنوفهم من رائحة الأجساد المعروقة. وغائط الأطفال والبول، والغبار. وصورتنا كاميرات. إمتلأت القاعة بصرخات الصغار، وأصوات الجنود وهي تزجر جيش المتفرجين. وفي الظهيرة سحبوا عدداً كبيراً منا، وفي سيارات لوري إنكليزية من طراز بيدفورد أخذونا الى مئات الخيم المضروبة بالعراء خارج البلدة.

وفي الليل إشتعلت الفوانيس داخل الأقمشة البيضاء، وكنست الرياح بعيداً الى جهات مختلفة الأنفاس الحارة، والعويل، وصرخات الأطفال، وهدير مكائن سيارات الصهريج وهي تفرغ أطناناً من المياه العكرة في براميل موزعة على شكل نصف دائرة حول المخيم، وأصوات الباعة، وبعض الأغنياء الذين جاؤوا لشراء بنات صغيرات أو كبيرات كخدم، ولقضايا أخرى. وأستمرت أصوات الباعة وهي تساوم. وتصر في طلب للدنانير الأردنية. جلب والدي ثلاثة أسطل من الماء. غزالة جلبت تموين الخبز وجلبت

أنا بعد أن ضغطت بين مئات الأجساد ملء ماعون كبير رزاً بلون الطين عليه بضعة حلقات من القرع الأصفر النيء وعظمة واحدة تحتاج الى إبرة كبيرة لأخراج نتف اللحم من زواياها. حركنا أفواهنا بقسر ونحن نختلس نظرات سريعة وغائمة من البعض، ونجتر الطين الأصفر بعيون دامعة. كانت ملاعقنا تصطدم بالإناء، وتجمد أثر كل موجة صراخ كانت تنفذ الى الخيمة لتزيد من تشنجنا. حليمة قلبت الأكل على الرمل. ممدوح سرق رغيف البنت. حمدون وصل متأخراً ولم يحصل على الرز.

في الليل قالت غزالة بصوت مخنوق: كان يجب أن تهرب يا خالد...

أن هذا موت قلت هربنا... لكننا أرجعنا.

قالت: لو فقط كان وضع خالتي المالي جيداً... لم تكمل... نامت.

تركت الخيمة. كان الجوُّ بارداً. سرت الى مسافة طويلة. تأملت الأضواء الكابية في الخيم. يالهُ من سجن كبير. آذنتني كلمة الرثاء. فكرت فيها طويلاً حتى إنتابتني حالة من الثورة الوحشية. إنطفأت عيون الخيم الكامدة الواحدة تلو الأخرى. كان الأرهاق، والذُلّ، والشفقة يسحق الموجودين فيها ويلقيهم في قلب النوم. رجعت، أزحت باب الخيمة برفق. خلتها خيمتنا. رأيت إمرأة نصف عارية، وشاباً يُعالج في نزع سرواله. ربما موجة الهواء الباردة جعلت الرجل يحس. إلتفت. تركت الخيمة قبل أن ينهض. دخلت سهواً الى خيمة أخرى، كان والدي يشخر، ووالدتي تئن حتى في قلب النوم. وغزالة مثل غجرية منفوشة الشعر تحلم في أعماق التعب والنوم. تكورت مثل قنفذ حتى الصباح.

ألقيت حقيبتي بلا أباليتي التي تكرهها والدتي. كان اليهودي الذي رأيناه في البستان جالساً لصق والدي يسجل الملاحظات. قلت في نفسي: كل شيء بالكتابة. إبتسم لي. قطبت وجهي. كان يعبث بخرطوم نرجيلته ويضرب نهايته المعدنية بباطن يده. يبدو أنني قاطعته في الكلام. أستمر– أنا لا أريد أم أستغل الظروف، وأرجوا أن لا يفوتك أن كل شيء يفقد قيمته هذه الأيام، سيما البساتين والبيوت.

أجابه والدي: سأنتظر.

قال اليهودي بلغة فيها تهديد. ولكنها تصادر إذا لم تبعها.

– لا بأس. حتماً ستعوض.

– ولكنني أدفع لك أكثر من التعويض.

– أو ربما لا أسافر. ليحدث ما يحدث.

– تندم.

– ربما... غير مهم، أنتظر هدوء العاصفة.

ترك اليهودي رزمة كبيرة من الأوراق النقدية على المنضدة، وقرقر بضع مرات في النرجيلة، وكنس شبحه الهزيل. وضاع البستان الى الأبد.

قالت والدتي بلهجتها الشاكية. منذ أن نزحنا لم تبعث رسالة واحدة لخالتك. ألم تحبك؟ يالتعبها معك. وتعب فرسها!

جاءت غزالة وعلى مؤخرتها بقعة من الطين. تسللت بخفة هرة الى غرفة نومها. نفضت الغبار من شعرها. غيرت ملابسها بسرعة. مسكت كاحلها. وقالت أنها سقطت من ظهر الفرس.

قلت: أخذتها لوحدك؟ كلبة.

قالت: مع مسعود الأخرس، ضربها مسعود على وركها، وجفلت. آه... رجلي...

خالتي العزيزة: إننا بخير. وصلنا بسلام بقينا حوالي الشهر في المخيم. بابا إشترى بيتاً. إنني أداوم في الرابع العلمي. وغزالة في الثالث. ماما بخير وتبعث قبلاتها. هل ما زلت تغزلين؟ هل إشتريت فرساً أخرى؟ مسعود. خالي بستاننا كيف شكله؟ ما زال عدد ضخم من الناس في المخيمات. أكتبي لماما.

قالت غزالة وهي تسحب يدي من الوصول الى الراديو. كفى...

قلت: تبدو أكثر من فكاهة.

قالت: ماذا؟

قلت: هذا العدد الضخم من الدبابات، والمدرعات التي تحولت الى مجرد معادن منصهرة فوق الرمل.

قالت: زرعناها في الصحراء وكأنها كانت عطشى للحديد.

قلت: ماعت آخر قطرة من الحالة النفسية عند الجميع.

قالت: وحتى الحديد ماع.

قلت: كأنه فائض القيمة. كانت الصحراء بحاجة الى الحديد. أحرقناه مثل البن

الأمريكي الزائد عن الحاجة. آه، من نحن؟

قالت: يبدو أننا أنتهينا أسرى في أيدي المغامرين.

قلت: نستحق.

غيرت غزالة جرس صوتها: منذ ثلاثة أيام ونحن نتكلم بهذه اللغة القاتلة. قالت: لو كان بابا موجوداً لمات مثل ذبابة.

قلت: بابا قتلنا يوم سحلنا الى هنا. لو كان حياً لأستغل الوضع للمضاربة.

قالت: كان برجوازياً أنانياً... آه، سعيدة لأن ماما ماتت.

في اليوم الخامس رجعت الى البيت، وفي غرفة غزالة رأيت عبد القادر كان يحرك يده ورأسه، كان يتكلم بسرعة، ويده اليمنى مستمرة في رسم خطوط وهمية في الهواء. كانت غزالة تهز رأسها، وتوافقه. نهض. حدق في ساعته. شد شعر غزالة بحنان، وقبلها على خدها. مسحت غزالة دموعها وقبلته هي الأخرى. تكلما بصمت هذه المرّة. كانت غزالة شاحبة الوجه. إبتسمت مرات عديدة. أحتضنها. أخفيت نفسي في غرفة أخرى. خرج عبد القادر، فكرت أن أزور خطيبتي. جاءت غزالة الى الغرفة. وتعجبت عندما رأتني لوحدي.

قالت: كان عبد القادر هنا.

– أعرف.

– هل رأيته؟

– اليوم.

– قال أنه لم يعُد يؤمن بالجيوش التقليدية. لن يبقى هنا.

– إنه إنسان رائع.

– أحبه... سأبقى خطيبته الى الأبد.

– بلا رومانسية يا غزالة.

– لكنها الحقيقة.

– ربما أنها الجروح القديمة بدأت تلتهب من جديد.

– جمعنا نفيرها... ثلاثون عاماً بلا هوية...

– لا نتكلم بلغتنا القديمة. كل ذاك الغضب لم يستطع تطهيرنا من ذكريات الماضي.

– كنا ثمناً كبيراً يا خالد... وعبثاً على الأخرين.

حان دورنا يجب أن نكون على حافة الموس، سأغيب أنا الآخر.

عزيزتي غزالة:

أنه الأسبوع الثالث لغيابي. وإذا كنت أحن إليك، فأنا أحن بحكم العاطفة الأخوية أولاً، ومن ثم بحكم الوعي، أو العادة، في القتال تضيع الأيام. أمس سرت بمحاذاة الخيام أثناء رجوعي الى المدينة، ولا شعورياً تصورتني صغرت. وللحظات بحثت عنك في الزحام وأنتِ تجلبين تموين الخبز. ورأيت إمرأة بعمر والدتي يوم نزحنا عام ١٩٤٨

واستمعت الى اللغة نفسها. هل يعقل؟ هل يمكن أن نصغر من هذه الحياة المهلوسة. الناس ما زالوا يستلمون التموين، ويحدقون في سيارات الصهريج. والباعة هم. والمضاربون هم. والباحثون عن الأطفال للتبني هم. لا أريد أن أفتق الجروح، ذات مرة قلت لي: هل سترجع؟ الآن كلفت بمهمة الدخول الى أرض الذكريات. كنت أحلم. كنت أفكر في جدوى العودة كجسد، وعواطف، وذكريات... الآن أرجع ثورة يا غزالة، من السخف أن أقول بوسعي أن أرجع... لكن تأملي وأنا أموت على فخذ الوطن. أو صدره، أو رأسه واجب.

ملاحظة:

ألم نتفق أن فترة الميوعة قد أنتهت؟ تماسكي وأنتِ تقرأين كلماتي الأخيرة.

إستشهد عبد القادر أمس. إلتحقي أنتِ الأخرى.

خالد

الجبهة صامتة الآن

حاولت أن تسيطر على حنجرتها، أحسست أن كل شيء في حلقها قد خرج عن إرادتها... كرهت كثيراً أن يراها مضطربة. وحزينة. وأشفقت على نفسها بإشمئزاز، وقالت في نفسها «ترى لماذا الذي يحب أكثر يهزم دائماً... ربما لأنه أقوى ولأن حبه أقل».

وأخيراً جاهدت أن يخرج صوتها طبيعياً، وقالت:

– إنك تبتسم بإستمرار...

إبتلع ضجيج المحطة صوتها الهادىء المضطرب... وظلَّت لا إرادياً تشيح بوجهها كلما غرس عينيه في وجهها، وقالت: المحطة مزدحمة جداً...

وقال: أمامنا أكثر من نصف ساعة... لنذهب الى مكان بعيد.

خرجا من دخان الأصوات، والنداءات، والصرخات، وصرير سحب الحقائق على الأرض الأسمنتية... خارج المحطة كانت شمس آذار المسائية بلون البرتقال الذابل فوق بيوت عمال وموظفي السكك... إرتعشتْ لا إرادياً عندما رأت الأبواب موصدة. وأشجار اليوكالبتوز وذاك المرتفع الذي بنيت عليه البيوت الحجرية القليلة. كم كانت تخاف أن تقترب بضعة أمتار من عتبة البيت... حدقت طويلاً في المرتفع، وفي البيوت، والنوافذ، ومثل رجع صدىً بعيد رنَّ صوت والدتها في كل جسدها، لو سقطت فسيرتطم رأسك بقضبان القطار... ما زالت تتخيل قضبان القطار السوداء وكأنها أفاعي متخدرة تحت الشمس. تنهدت مرات عديدة تبادرها:

– لم هذه التنهدات؟... بي حدس قوي، بل يقين أنني حتماً سأرجع.

أرادت أن تريح رأسها المرهق فوق كتفه، وقالت وهي تداوي خجلاً.

– المحطة... إلهي، فجرت أعماقي القديمة يوم كان والدي يعمل موظفاً هنا... تجولا بعيداً بخطوات كسولة، ظلت هي صامتة، وفضل هو الآخر الصمت... كانا يحبان الصمت... ضربت السكة برأس حذائها... وقال:

– لنرجع... إبتعدنا كثيراً.

حتى صديقاتها يوم كنا صغاراً كلما سرن بعيداً عن البيوت كن يقلن: لنرجع...

إبتعدنا كثيراً، أواه. الى البيت... وذلك المرتفع الأصم، والجلوس بصمت أمام عتبة البيت، ومنظر المحطة الكئيب في النهار... في الليل عندما تتنفس المحطة أتسمر أمام النافذة الذي تواجه مدخل المحطة، المسافرون يثيرون فيّ حزناً يجعلني أتساءَل بإستمرار: أين يذهبون؟ ما شكل وألوان، وروائح، وطعم تلك المدن البعيدة؟ وجوه حزينة. وجوه يطفو عليها فرحٌ دبق، وأخرى مستوفزة، وعيون زائغة، أو تضحك مثل عيون الغجر الملتهبة، وهنا كنت أحتار، عيونٌ تلمع خلال الدموع... هل حقاً يكون المسافر حزيناً؟ والدي كان يتركنا طوال الأسبوع دو أن يحس أو نحس بأي حزن. من خلال النافذة كنت أتخدر وأنا أتتبع تلك العيون، والوجوه، ما أكثر ما كنت أتسلل من البيت وأندس بين المسافرين في إحدى العربات المزدحمة وأصر أن تأخذني الى واحدة من تلك المدن البعيدة. لجُبني، لم أنفذ ولو لمرّة الهروب، كان والدي عندما يرجع من السفر ينام. كنت أشم فيه روائح الليل الماطرة، والمدن... كنت أشم تلك الروائح بعمق، كرر من جديد:

– أعتقد حان الوقت يجب أن نرجع...

أطلقت تنهيدة عميقة،

وقال: لا أريد أن أسمع هذه التنهيدات... لا تكوني حزينة وأنا أتركِ.

وقالت: أسمع ألا تبدو أصعب الأمور فجأةً أشياء سهلة؟

– تقصدين سفري؟

– كلا... أنت حر في سفرك، بل سعيدة لأنك تسافر. أقصد هذا الإستشعار الدافيء عبر أصغر الأشياء للماضي.

– هل حقاً كنت تفكرين في الماضي.

– فجأة أحسست وكأنني أتسعت.

وأضافت بتلعثم من يشعر بفرح مباغت:

– إلهي ياللنشوة الحزينة.

– أية نشوة؟

– ثمة حالات تستسلم فيها النفس لأشياء عتيقة، ولا تستطيع أن تقاوم.

وضع باطن يده فوق رأسها... سارا بصمت، وتأمل ظليهما يتكسر فوق الحصى، والتراب، والقضبان.

وقال: أنظري الى هذه الأعشاب الصغيرة بإمتداد السكة...

تأملت إمتداد السكة... سارا بصمت.

– كنا نقتلها، ونركض، ثم بعيداً في أشجار اليوكالبتوز كنا نتراشق بها، نتغازل بحركات طفولية. بوسعي أن أحدد المكان الذي كنا نجلس فيه حتى مكاني المفضل، وصديقي الذي كان دائماً يحبذ الجلوس لصقي.

حاولت بجهد أن تسترجع ملامحه... كنت أحب فيه حزنه، وشفتيه الجافتين... نادراً ما كان يضحك... بدأ يضحك منذ اللحظة التي سمحت له فيها أن يولج ساق حنطة ملساء بين أسناني. كنا نقلد ذوينا عندما ينتهون من الأكل، وينظفون أسنانهم بصمت مضجر.

وقال: أعتقد يكفي هذا الصمت... لنتكلم قليلاً...

وقالت: أفضل الصمت.

– كم كان عمرك عندما كنتم تعيشون هنا؟

– أرجوك... لنصمت... كلانا يحبه. أليس كذلك؟

الثالثة عشرة... كنت حزينة لأسباب لم أعرفها. ربما المحطة علمتني الحزن. كنت أستند بكوعي فوق حافة النافذة وأترصد المسافرين، والحقائب وهي تطير من يد الى أخرى. عناقات سريعة، وسرية... والدي لم يعانقنا عندما كان يسافر. أسفل المرتفع وعلى ضوءٍ شاحب كان البعض يتهامسون مع صديقاتهم، ربما مع زوجاتهم، ثم بخجل يطبعون قبلاً صغيرة على الخدود، أو الشفاه... كنت أرتجف، ثم أتنمل، وأترقب حركة الشفاه، والأيدي المضطربة، والدموع مثل حبات الملح تلمع فوق الخدود.

إقتربا من المحطة... وقال:

– لا تتأخري في الرد على رسائلي.

– أبداً... وأنت... أكتب... أكتب...

– لا أريد أن أراكِ حزينة.

– لست حزينة مطلقاً لأنك مسافر...

تأملا السماء... من الجنوب كانت موجات الغيوم الربيعية تلهث في الإقتراب من سماء المحطة. وقال:

– أعتقد في السابعة بالضبط ينطلق القطار...

هزت رأسها أن نعم... صمتا من جديد.

السابعة... السابعة... وذاك الصخب، والنداءات الأخيرة، والمناديل الملونة، والتأوهات، وعويل القطار، ودوران العجلات، ثم بعد ربع ساعة من ذاك الضجيج اللذيذ، صمت حزين، وأضواء حزينة، وحمالون منهمكون يجرجرون أجسادهم مثل الأشباح.

في الثالثة عشرة لم أتعلم بعد قراءة الساعة. منذ الصغر كان ذهني بطيئاً في إلتقاط الأشياء...

عندما كنت أمرض، أرقد مثل هرة مجروحة في سريري، وأعرف بالضبط متى تتنفس المحطة، وكيف يندفع المسافرون... وأتخيل الحقائب، ولمعان جلودها، وأعد الدقائق حسب مفهومي الخاص للزمن، وأقول: الآن تَدوي صافرة القطار... وتدوي فعلاً... صافرة أخرى وأخرى طويلة مثل نواح كلب وحيد ومطعون... وأطلق من بين شفتي، ربما، بدافع الحمى التي تنهشني الصوت الذي تخرجه العجلات... وعندما يرجع الصمت الى المحطة، أتخيل القطار وهو يشق الليل مثل الرمح، وثمة منعطف نصف دائري تتقوس على أثره العربات على نحو جميل حيث تشبه كل عربة بأضوائها يعاسب خرافية تطير في حضن الليل.

قال: ما رأيك أن نجلس في العربة؟

– لِمَ العجلة؟ إنك حجزت في الدرجة الثانية... الطريق طويل، وسوف تضجر بالتأكيد من الجلوس...

– أعرف. ربما ستمطر... ألا تحسين بقطرات صغيرة على وجهك؟ أطلقت ضحكة حلوة، ومسحت جبينها... تجولا بإمتداد العربات، في الأماسي الشتائية الكئيبة حيث تبدو واجهة المحطة عبر ملايين القضبان من المطر وكأنها صورة ألتقطت بيد مرتجفة... والمسافرون كأنهم مطاردون، أو ثمة حرب شوارع خفية، وتتحول نوافذ العربات جراء بخار الأنفاس والرطوبة. والأمطار، الى مربعات حليبية... وتبدأ الأصابع بالعبث على الزجاج، وتظهر أشكال مضحكة.

قال: لنرجع...

– لا بأس.

– تحبين المطر؟

– إلهي، هل ثمة ما هو أجمل من المطر. وأنت؟

– هناك سأبقى طوال الربيع تحت زخاته السريعة.

– ترى كيف يبدو منظر المطر في الصحراء؟

– عندما أراقبه من خيمتي، أو أحياناً عندما أكون في الخندق، يبدو مثل ستارة قطنية خفيفة.

– والبرد؟

– أوه، حاداً مثل السكين.

– أعتقد أن المطر يخرج صوتاً حزيناً فوق الرمل.

– جداً... وصوتاً رتيباً يخدر الإنسان، خاصةً عندما تكون الجبهة صامتة... وهي صامتة الآن مثل الصحراء... يشعر الواحد بالنوم ينسدل عليه مثل ستارة حلوة...

– وأحياناً ألا يبدو صوت المطر مثل ترنيمة غريبة...؟

أمطرت زخات حادة.

قال: يالهذه القطرات الكبيرة!

– إنه الربيع... لنتبلل قليلاً.

وبعد قليل دخلا العربة... في مقصورته رأيا رجلاً عجوزاً يدخن بشراهة ويرسل نظرات مركزة الى قفص فيه بلبل بلون الرماد... إضطرب البلبل... حرك العجوز القفص... جلسا بصمت... قالت: ستنطلق صافرة القطار. القطار.

– ليس الآن...

قالت في نفسها«هل يخونني حدسي». بعد لحظات أنطلقت صافرة القطار تشق الليل والمطر. أطلقت هي ضحكة، ضحك هو الآخر. كان زجاج النافذة من جهة الرجل العجوز مكسواً ببخار خفيف... كتبت بسبابتها «وداعاً» ونزلت بسرعة، وقفت أمام النافذة المطلة على الرصيف من ناحية واجهة المحطة... بدت جميلة من وراء الضباب الخفيف للزجاج... قال في نفسه «لم تعد حزينة»... مسح الغبار بباطن يديهِ بسرعة... رأى وجهها يلامس الزجاج، ضحكا كثيراً، وتكلما دون أن يسمعا بعض...

الصافرة الأخيرة أجفلت البلبل والعجوز، تحركت العربة، قالت في نفسها بتعجب:

– يا إلهي، ترى لماذا بكى الرجل العجوز...؟ آمل أن يكتب لي عن سبب بكائه...

تلال الملح

نهض علي بن محمد صاحب الزنج وإستند الى الجدار الطيني الذي كان مضطجعاً لصقه، وقال في نفسه: منذ أن دخلت البصرة وأنا أحمل هموم الدنيا كلها. كان حزيناً الى درجة جاهد ألا يذهب لرؤية المستنقعات، والمسطحات المائية، والأراضي الملحية، وأجساد الغلمان السود الذي جلبت له الكثير من القلق، والتفكير، والأسى، والأرق الذي كان يصلبه حتى الفجر... وقبل أن يتحرك، فكر طويلاً لماذا هو بالذات يحزن، ويفكر من أجلِ أولئك البؤساء المحمصين بين تلال الملح، وفي المستنقعات، قال في نفسه: لا... لن أذهب لرؤيتهم. إن منظرهم يؤرقني. وبدلاً من أن يذهب هذا الصباح الى تلال الملح، والمستنقعات، سار بإمتداد نهر (القندل)، ثم عرج وسار ببطء بإمتداد نهر (الأجانة)، وراقب الطيور المنهمكة في عالمها الخالي من الأحزان، والنخيل، وأعذاق التمر، ومن بعيد تأمل السفن الكبيرة وهي جاثمة بوداعه في حضن الشط تحت مظلة من طيور البحر... أراد أن يستمر في السير حتى نهاية نهر الأجانة، لكنه توقف، وإلتفت لا إرادياً الى الوراء، ثم عاد بخطوات وئيدة، وسار رغماً عنه الى الأراضي البلورية... قال في نفسه: إنني أذهب الى هناك رغماً عني...

رأى الزنوج مثل مئات الجزر السوداء منتشرين فوق الأرض المكسوة بالملح اللاهث البياض، كان الزنوج يتحركون مثل نمال ضخمة بآلية غريبة، ودونما توقف.

إقترب أكثر، وتأمل الأجساد المحمصة، والعضلات المفتولة، والظهور العريضة القوية وهي تحمل أكياس الملح وتفرغها فوق تلال عالية... ولم يستطع أن يمنع نفسه من الدخول في وسطهم ليمتع بصره بأجسادهم... رأى زنجياً يكشط الملح بأظافره الطويلة، راقب أصابعه الغليظة الجافة لمدة طويلة. أسبل أجفانه، وللحظات تأمل الأصابع في خياله، وركع لا إرادياً عند الزنجي، وأرسل نظرة طويلة الى عينيه السوداوين، ووجهه المعروق، وتتبع قطرات العرق وهي تنزلق بسرعة من وجهه وتسقط فوق الملح، شده علي بن محمد، عندما رأى الزنجي يرتعب ويقول:

– صدقني لم أتوقف عن الحركة. أقسم أنني كنت أعمل.

دمعت عينا علي بن محمد، مد يده ومسح العرق من وجه الزنجي، ومرر باطن يده

فوق شعره المجعد، وإبتسم له بحنان، بكى الزنجي، وراح يختض فوق الملح مثل الزق، وبعد ذلك بدأ بالعمل بحمية مجنونة، نهض علي بن محمد، ورأى أفقاً من الظهور المنحنية بلون الدبس، أطلق تنهيدة حارة وركع ثانية أمام الزنجي، وأخرج خنجره، وسلم مقبضه لأصابع الزنجي، بدى المقبض صغيراً بين تلك الأصابع المشققة في كشط الملح، خاف الزنجي، وأعاد الخنجر لعلي بن محمد، وهز رأسه، وقال بوجه ذليل مرتعب:

– إنني أكشط بأظافري يا سيدي...!

أعاد علي بن محمد الخنجر الى حزامه، وطلب من الزنجي أن يريه جميع أصابعه... فلما رآها، قال في نفسه: إلهي أيُّ سيفٍ ثقيل وبتار بوسعها أن تحتضن...!

من بعيد رأى رجلاً فوق حصن بلون الحناء يدخل الأرض البلورية وينهال على الظهور المنحنية بسوط طويل، ولما رآه علي بن محمد يقترب منه أعطى الخنجر للزنجي بعد أن ربت على ظهره بحنان، ونهض بسرعة، قال الرجل فوق الحصان لعلي بن محمد بلهجة جافة:

– يا أنت... ماذا تفعل مع العبيد؟

– منظرهم جميل وهم يعملون.

– إبتعد عن هذه الحشرات...

وأضاف بسرعة:

– من أنت؟

– إنسان.

– لا يليق بإعرابي أن يحشر نفسه بينهم...

– بالمناسبة، هذه أرض من؟

– الهاشميون.

وأشار الى الأجساد وقال:

– وهؤلاء عبيدهم.

أشار علي بن محمد الى جهة الشرق، وقال:

– وتلك الأراضي، وعبيدها؟

– (لعلي بن أيوب). أما تلك التي في الجنوب الشرقي (لعبد الله بكريخا) والبقية في

الشمال (للشورجيين).

أدار الرجل وجه الحصان، وأعطى ظهره لعلي بن محمد، وبعد قليل أعلن تابع الرجل بصوت مثل المؤذن:

– الى الأكل.

وردد الكلمة مراتٍ عديدة، توقفت الحركة في الأرض البيضاء... وقال الرجل المؤذن!

– بسرعة... بسرعة.

وظهر بإمتداد الأرض فرسان يهشون الزنوج مثل الخرفان، وقف علي بن محمد في مكانٍ قصي وراقب الزنوج وهم يتسلمون من (السوق).

ويسقطون على الأرض مثل جثث وأفواههم تلوك السويق... سأل علي بن محمد :

– هل تشبع بهذا؟

أجابه الزنجي وهو يحاول إزدرداد اللقمة الجافة:

– سيدي إننا نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس فقط.

إختض علي بن محمد لكلمات الرجل، ودمعت عيناه، وركع قبالة الزنجي وأخرج خنجراً آخر من جيب دشداشته، وسلم مقبضه لأصابع يده الفارغة.

ضغط الزنجي على المقبض. قال على بن محمد لنفسه: إلهي، هذه الأيادي كأنها خُلِقت لمسك مقابض السيوف فقط. طلب من الزنجي بهمس أن يطعن الأرض... طعن الزنجي الأرض، قال علي بن محمد بهمس حاقد:

– بقوة... بقوة...

وإقترب ثلاثة من الزنوج من علي بن محمد، وراقبوا صديقهم الذي يطعن الأرض، وبعد قليل شاركوه في إطلاق أصوات حاقدة من أفواههم الملطخة بالسويق، ضحك علي بن محمد معهم، ولامس بأصابعه وجوههم، وربت بحنان على ظهورهم، وبخلسة أعطى الأربعة خناجر كبيرة، وقال بأنه سوف يزورهم غداً، تركهم بصمت، وسار بخطوات واسعة فوق الملح المسحوق، وإبتعد عنهم. وعندما تذكر عيونهم المليئة بخوف لا يوصف، قال في نفسه:كلاب، أتيتم بهم من سواحل (قنبلة) وغياضها، ومن (لنجوبة) والسودان ومصر لكي يسمعوا بالشبع من أفواه الناس فقط. إلهي، إنهم يخافون حتى من كلمة حنان... والله لأضربن أعناقكم في قصوركم لهذا الإستضعاف البشع لهؤلاء الغلمان... أبطأ في سيره. وعلى الجهة اليمنى حيث كان يسير رأى جيشاً آخر منهم يردمون

مسطحات مائية واسعة، وقال: إنهم بكثرة النمل. إذا كان يعمل ألفان منهم في أرض علي بن أيوب، وألفان عند ذاك الفاحش الثراء عبدالله بكريخا، والفان عند الشورجيين، والفان عند ذاك الفاحش الثراء عبدالله يدمروا كل شيء. توقف عن السير، وتنهد بعمق، ثم قال وهو يصرف على أسنانه بغضب، ويركل التراب بنعليه: والله لأضربن أعناقكم جميعاً. ألقى نظرة أخرى الى المسطحات المائية، ورآهم يخوضون في مياهها الآسنة المغطاة بالبردي، والحلفاء مثل الجواميس المجترة، وقال:

– يالهذه البؤرة المليئة بالأوبئة...!

طاف في المدينة يرهق نفسه عله ينسى الأرق الذي غزاه مثل كابوس خانق. في الليل عاوده القلق حتى بعد منتصف الليل... وحلم بالموت الذي يحيط بأولئك البؤساء، ووجد نفسه غاطساً في المستنقعات يعمل معهم، أو منحنياً فوق الملح يحمل أكياس الملح. وتكلم معهم بهمس كما فعل هذا الصباح، وأتهمهم بأن الموت في مثل هذا البؤس لا ينهي الحياة وإنما يغنيها وكان سعيداً لأنهم يفهمونه بسرعة، وظل يردد بفرح، أن البؤس يُعلِم الإنسان كل شيء بسرعة... إنهم يستجيبون لكل ما أطرحه عليهم...

وعندما أفاق في الصباح ترك فراشه بنشاط، وقال صافعاً صوره:

– لديّ قناعة أنهم سيولدون من جديد في أحضان المستنقعات، وبين تلال الملح... دس في دشداشته أربعة خناجر، وتوجه إليهم... رأى نفس الرجل فوق الحصان يسوط أحد الغلمان بقوة. إقترب منه. ترجل الرجل، وإنهال بعنف أكثر على ظهر الغلام. كان الغلام يكتفي بإطلاق أنات موجعة... مد علي بن محمد يده الى جيب دشداشته ومسك من مقبض أحد الخناجر، وحرك يده ليخرج الخنجر، لكنه تريث، وقال للرجل:

– أتقوا الله في الضعيفين، المملوك والمرأة.

لوى الرجل فمه بسخرية، وقال:

– هؤلاء الكلاب يحبون الضرب.

كفَّ الرجل عن ضرب الغلام وأمره أن يلتحق بعمله. زحف الغلام على بطنه صوب التلال بذعر. تأمل علي بن محمد ظهر الرجل المدمى، وقال في نفسه: يالهذا القهر... تجولَ باحثاً عن صحبه الأربعة. أشرَّ لهم بالإقتراب منه. زحفوا إليه برفق وهم يعملون... رأى إعرابياً آخر بيده سوط طويل، سأله علي بن محمد بصوتٍ عال محاولاً إسماع أصحابه:

– هل إشترى الهاشميون هذه الإرض؟

– كلا، أقتطعت لهم على طريقة: الأرض لمن أحياها.

– وهل يحيونها هُم؟

– ألا ترى عبيدهم؟

– وأرض علي بن أيوب؟

– أه، تلك أقطاع التمليك، أما هذه فأقطاع الموت.

بعد تجوالٍ طويل هَرَّبَ علي بن محمد الخناجر الى الغلمان، وبعد أسبوع أمرهم بنحر الرجل فوق الحصان، وبقية الفرسان.

وفي اليوم التالي لنحرهم. خلت الأراضي البلورية، والمستنقعات، والمسطحات المائية من البشر، ودخل علي بن أبي الملهبي على علي بن محمد يريد أن يباغته بخبرٍ مفرح:

– ألفُ غلام تبعك في يوم واحد...

لم يحر علي بن محمد جواباً، وقال بعد صمتٍ طويل وبوجهٍ غاضب:

– طالما أنهم طوال حياتهم سمعوا بالشبع من أفواه الناس فقط، فأضرب العدد في عشرين بعد أيام...

ملاحظة: لمعرفة المزيد من التفاصيل عن أسماء الأنهر، والأشخاص والمدن التي وردت في هذه القصة يمكن مراجعة كتاب ثورة الزنج للدكتور فيصل السامر.

زليخة، البعد يقترب

أيُّ شيءٍ آخر غير الذكريات يمكن أن يطمئن إليه الإنسان في العُزلة. هل ثمة شيء مثل الذكريات يمكن أن يجعل الحاضر في قلب العزلة أكثر تماسكاً ومعقولية، أما الحاضر بالنسبة إليهم بعد إنغلاقي في هذه الزنزانة الصماء فكان يجري في الخارج بعيداً عني، في الشوارع، والأسواق، والبيوت، والوديان، والكهوف، وفي أزيز الرصاص الذي أشك أن ينقطع حتى تثمر السنوات مزيداً من الثلج والثمر، إنساب في أذني وأنا أجتر ذكرياتي خيط من أزيز الحنين. وتحت ضوء زنزانتي الأصفر الباهت رأيت عنكبوتاً حطَّ على ذبابة كبيرة خضراء من تلك التي تكثر عند الجثث العفنة، منذ متى وأنا أتعفن في هذا السجن الإنفرادي بعيداً عن الآخرين والشمس! ألا يضيع كل مفهوم للزمن في مثل هذا المكان. كانت الذبابة تئز. أخذها العنكبوت بين فكيه وراح يغلفها بمخاطه الدبق ضارباً حول أجنحتها الطحلبية خيوطاً رمادية رفيعة، قربت بصري من عيني الذبابة. وجدتهما تحاولان الإندلاق. ربما كانت الخيوط المخاطية تضغط بقوة على حلقات بطنها الهش. إستمرت تئز، عبثاً ناضلت، بكل ما لديها من قوة كي تفلت. أهملتها. وقلت في نفسي. أهكذا هي الحياة؟

ذات مرّة كانت صديقتي تجري بغنج، وترشقني بكتل صغيرة من الرمل الناعم المبلل مالئةً المنتجع الذي كنا نزوره في الصيف، وتقفز في الماء، وتعبث مثل دلفين صغير، نصف ساعة أو أكثر، وتضحك بصوتٍ عالٍ، ومن ثم تستلقي لصقي وتردد من خلال لهاث طويل، هكذا هي الحياة... وتسرد لي حكايات خرافية، وتقول بعد أن تخدرها الشمس: هكذا هي الحياة. آه، كان ذات يوم كنا صغاراً وقصاراً... لم يعد ثمة منتجع، أو رمل مبلل، أو حتى بحر. تعلمنا أن نتراشق بالرصاص. بدأنا نفجر ينابيع الحب والفرح، لأننا لم نعد نرى السعادة وهماً، بل شيئاً قريباً. قريباً على مرمى من طلقة بندقية عتيقة. أيه يا صغيرتي، ما كان بوسعنا أن نهرب بضمير مثقل بالعار. كنا نرى كل ذلك العار في وجوه البعض، قبل هذا كنا نعزو قوتنا الى الدهر، الى مساعٍ خائبة، أو أشياء أخرى نصطنعها. أو ربما بدافع من سوء نية كنا نفعل كل ذلك لمجرد أن نخفف عنا بعض ذلك العبء الثقيل... ألهذا السبب كنا نتراشق بالرمل؟

أزت الذبابة من جديد. قربت بصري منها فرأيتها تحاول المستحيل أن تخلص نفسها

من الطوق الدبق في السجن الإنفرادي يتساءَل الإنسان في نفسه كثيراً... ترى ما مبلغ حب هذه الحشرة للحياة؟ من أجل أي شيء تئز دونما إنقطاع؟ وماذا تفهم من الحياة؟

سحل العنكبوت الذبابة برفق، وقفزت بها فوق الجدار . تدلى رأس الذبابة، ورأيت في رأسها الصغير أكثر من عينين خضراوين... يالتلك الخضرة... ولست أدري لماذا شعرت بإمتعاض غير طبيعي، وأطلقت صرخة إحتجاج مدوية دونما وعي حتى إمتلأ الدهليز المؤدي الى زنزانتي بأصوات أحذية ثقيلة...

أخرجوني الى شرفة تطل على ساحة أسمنتية واسعة فيها أشياء بدت لي مجرد أشكال منذ متى وأنا في ظلام؟ غسلتني شمس الصباح الباردة، وأحسست بالضوء ينغرس في عيني مثل أبر. وشعرت بهياج داخلي، ورحت أُعب الهواء دونما توقف. وكلما سقط المزيد من الضوء عليّ، خلتني أتفتح مثل بالونة كبيرة، كنت أتحول الى كتلة غريبة من الضوء. آه، ليتني أعرف منذ متى والأيام بالنسبة إلي مثل حبر صيني؟ منذ متى والأيام بلا ليل حقيقي ولا صباح حقيقي؟ لم أستطع أن أفتح عيني. كان الوقت صباحاً. وعرفت ذلك من برودة الشمس، وربما كان الموسم ربيعاً... جمدت في مكاني وأخذت أستمع الى صمتٍ متموج. أنبجس فجأةً ألمٌ حاد في رأسي، ووضعت لا شعورياً باطن يدي على عيني. أستمر تموج الصمت. أردت أن أستند الى أي شيء بعد أن خذلني الضوء، والشمس الأبدية، ورقص جسمي مثل ورقة عباد الشمس، هذا الجسم الذي أتلفته رطوبة زنزانتي، وهواؤها، والسياط، أمسكني أحدهم من ذراعي وراح يضغط عليها بقوة، ووجدتني أستند الى شيء لا أعرفه، وتجسدت فجأةً على نحو بشع عينا الذبابة الخضراء أمام عيني وكأنها تستجديني بحرارة من يصلي بصدق.

وكلما ضغط الرجل على ذراعي، كان وجه الذبابة يكبر، ورأيت خرطومه ينقط سائلاً. هزني الرجل مرات عديدة. أزحت باطن يدي من على عيني، وأنا ما زلت نهباً لدوارٍ خفيف، ولاحظت فمي يبصق لعاباً بلون الطباشير، خجلت من نفسي، وتماسكت بسرعة. ولكن، آه، اللعنة على الجسد... تنفست الساحة. فتحت عيني، فرأيت سحابة صغيرة بلون الخاكي لصق العربة. جرني عسكري، وساقني الى درجٍ نزلناه برفق، وأُدخِلت بعملية ميكانيكية في قفصٍ حديدي كبير مثبت على عربة يجرها حصانٌ أبيض متين. قلت في نفسي: ما هذا! قفصٌ حديدي... ألقيت نظرة طويلة من خلال قضبان القفص، فرأيت وجوهاً عابسة، وأبواباً خضراء مغلقة وجدراناً مصبوغة بلون أخضر،

وحراباً تلمع في حضن الشمس، وأحذية عسكرية، ولغة سريعة وكأنها تنبثق من أقصى البلعوم... إلتفت الى مقدمة العربة. لم أرى سوى رأس الحصان، وجزء من عنقه. وفي هذه الأثناء فُتِح باب القفص، وأُدخِل رجلٌ نحيف طويل مدمى الوجه، راح يسدد إليّ نظرات طويلة. وبعد صمتٍ طويل قال:

– أمسح الدم عن وجهك.

قلت في نفسي: دم! أتراهم ضربوني؟ من المحتمل أنهم ضربوني. مررت باطن يدي على وجهي مرات عديدة فلم أرّ دماً. قلت:

– لا يوجد دم. لم أُضرب هذا اليوم.

قال بصوت دافيء:

–ولكن وجهك مصبوغ بالدم.

– كلا، لا يوجد دم على وجهي...

مددت يدي ، ومسحت برفق بقع الدم عن عينيه، وخديه، وقلت:

– هل ترى دماً على وجهي؟

ألقى نظرات سريعة على وجهي، وقال:

– آه، حقاً لا يوجد دم على وجهك.

عرفت أنه كان يراني من خلال غشاء الدم المنسدل على عينيه، قلت:

– هل كنت وحدك طوال هذه المدة؟

أطلق زفرة طويلة ، وأجابني بصوته الدافيء:

– أوف... كانت تجربة مرهقة، ولذيذة.

وأردف بعد لأي:

– رباه، ترى أين هم الآن. أين؟

– في كل مكان.

بعد صمت طويل، قال وهو يمد بصره من خلال القضبان:

– إذن كل شيء قد رتب.

– أي شيء؟

– سيأخذوننا الى الحلبة.

وأردف:

– لا تيأس البعد يقترب.

– لا أفهمك.

– هل فكرت في ميتة شريفة؟

– وأين كنا قبل هذا الظلام؟

زمَّ شفتيه، وأطلق كلمة –كلاب– وقال:

– لقد منعوهم من المجيء لمشاهدتنا، آه، كانوا سيجدون المفتاح الخفي لقضايا كثيرة.

– قضايا كثيرة...

صمت. إنحنى قليلاً، وقرب بصره مني، وقال:

– لنر...

قلت بعد أن لاذ بصمت طويل:

– وهذا القفص الى أين سيأخذوننا به؟

– الى الشوارع. شوارع المدينة...

– لماذا الى الشوارع؟

– حتى... حتى... أوه... لنرى...

وسألني بهمس:

– أين أُلقيّ القبض عليك؟

– في التلال القريبة من المدينة.

أطلق زفرة حارة وقال:

– رباه، هذا القفص... يا عزيزي أن الحقيقة شهوة مخربة... لنر... لنر...

دوت أصوات كثيرة حول العربة، رفعت رأسي، تحرك الحصان، وأهتز القفص، وصلت العربة الى شارعٍ طويل. غسلتنا شمس حارة لذيذة، وأعطتنا الكثير من التماسك. رأيت سحباً صغيرة متناثرة من الخاكي على طرفي الشارع، وحراباً تضحك تحت مطر الشمس، ومن بعيد كانت البيوت مثل زواحف منقرضة نائمة بتوجس، قلت لصديقي:

– سكون عميق يغلف المدينة.

– لقد زيفت اللعبة، يريدون أن يبثوا فينا الرعب. آه، يا رفيقي أين الرعب؟

أصبحنا نحن الرعب. الآن فقط إنزاحت الهموم عن صدري.

قلت:

– ما كل هذا السكون في المدينة؟

– أه، يا عزيزي، إننا نفك أسرار الخوف... ربما تكون كل السعادة في يومٍ واحد. البُعد يقترب.

إنحنى برفق وأرسل نظرة طويلة الى حيث البيوت، وقال:

– سنُقتَل هذا اليوم... أجل، سنُقتَل.

صمت وفجأة ركز بصره عليّ دقيقة أو أكثر، وقال وهو يربت على ظهري.

– إنه خيرٌ للعالم أن يغني من أن أُصدِق، أو أن يُصدِق أي إنسان في هذا العالم هذه اللعبة المزيفة.

نظف حلقومه وقال:

– كانت تقول لي أن الحياة أن تكون شجاعاً.

– من؟

– زليخة... زليخة.

إبتسم بحزن، وقال:

– أسمٌ جميل، أليس كذلك؟

– جميل جداً.

– إنها في المدينة هنا... وأنت أليست لك زليخة؟

– ربت على كتفه، وإبتسمنا طويلاً. قال:

– يا عزيزي، لا بأس لو تكلمنا عن زليخة قليلاً... لقد عسرنا على أنفسنا الحساب كثيراً وأيُ ضير أن نفكر من قلب هذا الموت بزليخة.

سنُقتل هذا اليوم. أنه لحلمٌ جميل، بل جميل جداً، وعاصف، ومخيف أن أقول لنفسي، هذا يومي الأخير.

إلتفتّ إليّ، وقال بكثير من الحنان.

– لا أظنك تخاف الموت.

لم أرد عليه. منذ زمن طويل أستنفذت مفهوم الموت، وتخلصت من رعبه. حتى في خضم أحداث مميتة كنت أنظر إليه كأحدى الوظائف الطبيعية في دورة الحياة مثل النوم. بل كثيراً ما كنت أنظر إليه مثل الأكل والشرب جاءَني صوته من جديد:

– لم ترد عليّ.

– هل ثمة خسارة حقيقية في الموت بعد أن يخمد كل حس؟

– إحتضنني بقوة، وقال:

آه يا عزيزي، إن الإنسان أصلاً مخلوقٌ معذب...

صمتنا طويلاً. قال:

– نحن الآن في شارع آخر. أتعرف! منعوا المواطنين من مشاهدتنا.

– لماذا؟

– أن وجودنا هنا في الشرك العنكبوتي كان يعني الكثير بالنسبة إليهم.

أطرقت رأسي، وتجسد لا شعورياً منظر الذبابة أمام عيني، وندمت بعض الشيء لعدم أفلاتها من تلك الخيوط، ولست أدري لماذا لاحت الذبابة أمام عيني بوضوح، وهي تحرك أرجلها الهلامية في محاولة يائسة للخلاص. آلمني منظر عيونها وهي تستجديني. وندمت لتلك الخضرة الصافية. مرة أخرى أطلقت صرخة قوية، ومنظر الذبابة ما زال مثل صمغ مثبت على عيني. أفقت عندما إنغرس شيء حاد في فخذي. سمعت أصواتاً هادرة قوية تمطر من البيوت البعيدة، وتتساقط على الشوارع الخالية. وترتطم بالجدران، واجهات الدكاكين مغلقة. قال صديقي:

– لا تصرخ.

–أه... لقد كانت تستجديني، كان بوسعي أن أنقذها.

أجابني بلهجة أمّر!

– حاول أن تهدأ.

كانت كمن يصلي وهي تحدق في.

قال بلهجة جافة هذه المرّة:

– أفق... هل تسمع؟ أنهم يودعوننا. آه، لو أتوا الى هنا؟

– سيأتون. سيأتون حتماً.

– لو ترى زليخة.

غزتني قشعريرة مصحوبة بألم، قال صديقي بتعجب:

– ملابسك مدماة.

إلتفت الى ملابسي، فوجدت طرف فخذي الأيمن مغسولاً بالدم، تحسست فخذي وألقيت نظرة سريعة عليه فوجدته جرحاً بعمق ثلاث بوصات. قلت لصديقي:

– يبدو أن هذا الجندي قد طعنني عندما صرخت.

إضطرب كثيراً، وقال بغضب:

– رأيته يمد حربة بندقيته من خلال القضبان.

قفز مثل أسد طعين، وأمسك بقضبان القفص وراح يهزها صارخاً بوجه الجندي الذي كان يسير لصق العربة، وبصق في وجهه مردداً. كلب... كلاب. أنت أيها العاهر. مد الجندي فوهة بندقيته حتى لامست عنقه، كنت واقفاً على قدم واحدة أحاول جهدي أن أبعده عن فوهة البندقية. غير أنه لفرط إضطرابه ظل يصرخ... كلاب، وحوش... أخرج يده اليمنى حتى الرسغ، وأبعد فوهة البندقية عن عنقه. والقى ببصقة أخرى على وجه الجندي وتلق الجندي بضع لكمات من آخر، أعلى رتبة منه، وأبعد فوهة البندقية وهو يتبادل نظرات ملتهبة مع صديقي. قلت لصديقي:

– أتركه... أيُّ جدوى في الكلام مع أناس يعانون من سفلس الإنحطاط. أن الجرح يؤلمني... أتركه.

مرة أخرى ملأ القفص بصراخ قوي.

– أن الإنسان العاري لا يُطعن.

إستمر يكرر هذه الجملة مرات عديدة حتى صمت. قلت له:

لنفكر بالذين سيأتون ألا تتفق معي أن اللحظات الأخيرة للموت ستكون أروع وهم هنا؟

زفر طويلاً، وربت على كتفي قائلاً:

– جبناء منعوهم من المجيء. لكم تهون الأشياء، لو أنهم أتوا.

– سيأتون حتماً، وسيكون بوسعنا أن نقول لهم بضع كلمات ساخنة.

إنتقلت العربة الى شارعٍ آخر أكثر أقفاراً من ذاك الذي تدحرجنا عليه، كان الدم يتدفق من فخذي بغزارة وينساب برفق على أرض القفص الخشبية، كان ألمي قليلاً، ربما لأن كل شيء في هذه المسيرة السلحفاتية وفي قلب مدينتي المهجورة ومصيري معلوم، بالإضافة الى الأشهر الطويلة في تلك الزنزانة الرطبة التي اتلفت لحمي، وأتلفت معه كل مفاهيم الألم، حقاً أن الإنسان لا يعرف مدى قواه إلا عندما يضعها موضع الإختبار والتجربة.

صديقي ساه، وأعتقد أنه راح في زيارة عزيزة لزليخة، أشك أن زليخة كانت في يومٍ ما بمثل هذا القرب منه، ربما من أجلها حمل السلاح لتحطيم ذاك البناء النملي. قد يحمل الإنسان السلاح من أجل طفل، من أجل عينين، فجأةً رأيت شارعاً فرعياً أثار الكثير من الشجن لكم طرقته يوم كنت صغيراً وأنا أذهب الى المدرسة، وطرقته يافعاً في إنتظار، بل لكم طرقنا معاً نسير بخطوات رفيقة ونحن نخطط وننسف ونتخاصم، وتنتابنا ثورات وحشية من الإندفاع. فكنا نود أن نعرف الى أين نذهب، ضاع الشارع الفرعي، كانت رائحة الربيع تملأ العربة، وتأخذني بعيداً الى أيامٍ عذبة.

قلت لصديقي:

– أهي زليخة ألتي قالت لك أن الحياة تعني الشجاعة؟

جفل، وراح يحدق في الفراغ، وقال بضيق:

– آه، أيها العزيز لقد أفسدت عليّ كل شيء.

وبحركة خجل مرر رؤوس أصابعه خلال شعره المغبر ، وقال:

– أوه، لا بأس. أسمع، أليست لك ذكريات. حاول أن تروح في سفرة صغيرة اليها.

– إجتررتها في الزنزانة.

– ولكن الذكريات مثل اللامتناهي أحياناً... حاول من جديد... أن العربة تتدحرج برفق، وأمامنا متسع من الوقت لنستهلك الكثير منها. هيا.

قلت مغمغماً: ولكنني لا أطيق...

– أوَليست لك زليخة... أن الزليخات تنمو مثل العنقاء.

إنحنى قليلاً كعادته، وأرسل بصره الى السماء، وقال بجرس حزين:

– إنه ربيع متأخر... يبدو أن أمطاراً غزيرة قد هطلت في الشتاء.

وبعد قليل ردد لنفسه: ولكن الحقول تجف أكثر.

إقتربت الأصوات أكثر، وتحول القفص الى كتلة صوت. ولاحظت وجوه الجنود تربد، كان بوسعهم أن يطلقوا علينا النار هنا، كنت أنتقل ببصري من الشارع الى الدكاكين، الى البيوت وكأنها راحت تتحرك، تدفق شلال أخر من الهدير، أعقبته موجات من وقع الأحذية، إضطرب صديقي قليلاً وإنسابت فجأة دموع صغيرة على خديه.

قلت:

– أنت تبكي.

أجابني بصوت راعش.

– أنت تعرف، لا خوفاً... الطيبون وحدهم يعرفون كيف يبكون.

أطرقت رأسي، ووقع عليّ بقع الدم المتخثرة على أرض العربة، وعلى حذائي، ورأيت ملابس صديقي العسكرية محترقة عند الركبتين. ترى كم من الوديان، والتلال داست هذه الأحذية. وتذكرت رفاقي في البيوت، وفي العراء، والوديان، وهم ينتظرون أن يدب النعاس في أجفان السهول والجبال ليزحفوا من جديد... أه، لليالي العراء، وعواء الرصاص، والوداع الأبدي، ومن ثم للقاء من جديد. سمعت صديقي ينشج، وتذكرت وجه رفيق لي إستقرت رصاصة طائشة في خده وهو يردد قبل الموت(من الذي أطفأ الضوء... من...) وعبثاً حبست أنا الآخر دموعي. كنت ما زلت مطرقاً رأسي عندما راح يردد بجرس حزين:

– إيه يا زليخة، البعد يقترب. يقترب.

مدَّ أصابعه الطويلة، ورفع بها وجهي، وقال:

– لا يبكي إلا الطيبون. حتى القادة كانوا يبكون.

قلت من خلال دموعي:

– يقولون أن الأسكندر بكى مرات عديدة.

– أعرف.

قلت محاولاً أن أغير الموضوع:

– من هي زليخة؟

– زليختك، وزليختي ستراها إذا لم نمت، الأصوات تقترب. كل شيء بدأ يهتز...

وصلت العربة الى ساحة دائرية. توقف الحصان. تحرك الجنود مثل سحالي كبيرة هنا وهناك. إرتطمت أمواج أخرى من الأصوات بالجدران، وتساقطت مثل الرذاذ في جوف القفص، وعلى مبعدة متر أو أكثر من الساحة شارع كانت تنزلق منه موجات الهدير، وأخيراً خرج شريط ملون وكثيف من البشر الساخط، وتجاوز الجدار الخاكي المضروب حوله. إقتربت الجماهير من الساحة. كانت آلاف العيون، آلاف الأفواه، والآهات، وعويل الصغار تملأ الساحة. أمطر الرصاص على نحو متقطع. قال صديقي بفرح غريب:

– نحن لا نساوي هذا الثمن. أخشى أن يقتل الأطفال...

قلت:

– حقاً كان يجب أن يتركونا نموت في هدوء.

وقال صارخاً بصوتٍ عال بعد أن غطت صرخات الجماهير صوته:

– ولكن إذا تهدم السد فأية قوة تستطيع الإمساك به!

وضحك من أعماقه مردداً:

– لقد تهدم السد. لقد تهدم السد.

نشبت معركة دامية بالأيدي، والأسنان، والحجر، والتراب والصراخ. إقترب ثلة من الرجال والنساء من العربة، وراحوا جميعاً يمدون أيديهم ليمسوا أيدينا، وأرجلنا، أو حتى أحذيتنا، وكأننا مباركون. كانت بعض النسوة يمسحن الدم عن فخذي، ويزغردن، صرخ صديقي:

– نحن لا نساوي هذا الثمن... وي... وي...

قفزت النسوة على القفص، وتبعهن الرجال، وحتى بعض الصغار، وشكّلوا على عجل جداراً بشرياً حول القفص: وبعد قليل أُخرج الحصان من العربة ودخل مكانه ثلة من الرجال وراحو يسحبونها بسرعة مجنونة. كان الرصاص يمطر دونما توقف. كنا نتدحرج مثل أكياس القش في داخل القفص. سقط رجل كان في الجدار المضروب حول القفص بعد أن أستقرت رصاصة في ظهره، ومن خلال الفراغ رأيته وسط الشارع المقفر يتلوى. دخلت العربة من زقاق الى آخر، تدفق المزيد من الدم من فخذي من جراء الإهتزاز الشديد للقفص. وفي عنقِ زقاق شبه مظلم إستقرت رصاصة في ذراع صديقي، وأخرى في كتفي، أفلتوا العربة الى زقاقٍ مظلم، سقطنا مثل أحجار

على الأرض المغسولة بالدم.

– أيها الأعزاء ما كنا نساوي هذا الثمن.

كانت العيون تمتصنا بشوق غريب من خلال القضبان، وتمتد الأيدي لتمسنا بخشوع من يتبرك بقديس، ورأيت يد إمرأة تمسد وجهي الجامد برفق. زحف صديقي لصقي، وأسندني رغم تدفق الدم من ذراعه الى عدد من الأيدي لتمسكني. قلت لصديقي وهو لصقي تماماً:

– هل رأيت زليخة؟

قال بفرح طفولي:

– هؤلاء كلهم زليخة...

سحبتني الأيدي حتى تتمكن من السيطرة عليّ، كانت يد تلك المرأة ما زالت تمسد وجهي. إلتفت إليها بصعوبة، كانت الغيبوبة تقترب مني، وتنسدل مثل ستارة سوداء على عيني. إبتسمت لها بصعوبة. وظللت أحدق في عينيها الخضراوين... كانت العربة تهتز برفق، وفي هذا الهوس كله رأيت عيني الذبابة الخضراء تنظران إليّ بتضرع. الآن عرفت أن هاتين العينين تبشهان عيني صديقتي التي هدموا عليها البيت بالديناميت.

صهيل المارة حول العالم

مجموعة قصص

الشوارع الأخرى أيضاً

لا شيء يدمي قلبي مثل منظر الصغار الذين كانوا يركضون كالسرطان، عندئذٍ أنسلخت عني. ماذا كان بوسعي أن أعمل؟ حتى الفئران كانت مرتعبة. الإنسان يفكر كثيراً، ويسبح في بحر من الأسئلة عندما يُلقى في زوبعة ترابية. أسئلة تتراقص حولها علامات الأستفهام. كثيرون هم اولئك الذين كانوا مقتنعين بما لا يقبل الشكّ أن ليس ثمة حل لهذهِ اللحظات الرهيبة التي تفرض نفسها بلزوجة لا إنفلات منها البتة.أن ترى طفلاً يرتطم رأسه بأسفلت الشارع ويتلوى كالذبيح، أو إمرأة شابة تقع وتحتضن الأسفلت. وان ترى أناساً كثيرين، من جميع الجهات، يهربون مذعورين دونما سبب. كان العويل، كما كانت الاصوات المختنقة تنبت في الشوارع، وفي الأزقة، وفي الجدران. كانت الأزقة الضيقة مفروشة بالأجساد، تجرجر نفسها بقوة بغية الإختفاء. غير أنها ظلت متراكمة بعضها على البعض، تهرع عليها الدجاجات وتنقر بلذة سخيفة في المُقل والشفاه والأرجل.كانت المدينة مغلفة تغليفاً كثيفاً ووحشياً برعب لا وصف له. كنت أنا أيضاً أهرب دون ان أدري لماذا، لأن الأستفسار كان مستحيلاً في تلك اللحظات المشحونة بالرعب. وعندما تركتها، راقتني إندفاعة الجماهير المستهترة، وتصورت ان ثمة معنى في هذا الهروب. وأدركت عندما انسلخت عنها أنني كنت في موكبٍ مضطرب، خائف. الأطفال يسقطون دونما سبب، والنساء يقعن ويلتوّين. التفتُ الى الخلف، فرأيت كتلاً بشرية كالسيل الجارف. مرة أخرى، أقول، لماذا أعجبتني تلك الإنطلاقة؟ لم نكن في حرب. إذ أننا لم نرّ حرباً طوال حياتنا. وليست ثمة مدينة واحدة على سطح هذه الارض مثل مدينتنا المرتجفة في هذه اللحظات، يجثم عليها الهدوء. بل أكثر من هذا، كثيرون يسمون مدينتنا البحر الصامت. إنها أبداً منغلقة على نفسها، تدور منذ الأزل في جوّ إسطوري، بعيداً عن الزمن. ولم يحدث قط ان فتكت بأهاليها الأمراض الخبيثة مثل الهيضة، او الكوليرا، أو الطاعون. حتى أن أهاليها يتصورون لحد الآن، ان لا وجود لمثل هذه الأمراض، وأنها مجرد كذبة أو إفتراض.

لقد خلقت السعادة عندهم ضرباً من البلادة، والفتور الحسي، والخمول. قلائل جداً هم أولئك الذين كانوا يؤمنون بأن التاريخ يسير على رجل واحدة، وانه من المحتمل أن

ينزلق في مسيره، فتبقى الأشياء مجرد أشكال هلامية. كانت جحافل الاطفال المذعورة تنطلق على أرجلها الصغيرة، وتتخبط، وترتطم بالجدران، أو تغوص في برك المياه التي خلفها هطول الامطار الغزيرة للأيام العشرة المنصرمة. وما خلا الصغار كان الجميع يتصورون، بالرغم من جنون الهلع، أنهم يدفعون ثمن السعادة والأرتخاء والجمود. وكانت اللحظات السريعة، إبّان الصاعقة، تشعرهم بأثم لم يجدوا له إسماً. ومرة أخرى أتساءَل: ماذا حدث؟

كانت النسوة يصرخن من فرط الخوف، ويتركن وراءهن خيوطاً طويلة من العويل الحاد، ويقفزن على أجساد الصغار التي مات بعضها، وراح البعض الآخر يناضل بعناد بريء ليقوم من جديد. حتى الحمير، والبقرات، والأغنام، والكلاب كانت تركض دونما هدف، وتدخل في المخازن المهجورة، تعبث بمحتواها، او تركل أكياس التفاح، وصناديق البرتقال، مطلقةً أصواتاً مخنوقة.

لا أحد يعرف ماذا حدث.

كانت المدينة تتقلص كرئة مسلولة، وكأن أيدي خرافية تعمل على تشذيبها. الشوارع تصغر وتتحول الى خطوط حلزونية صغيرة، والجدران تنحرف برفق، والحدائق العامة تجف بسرعة ويصغر لونها. وكانت اللحظات تكشف عن مزيد من الرعب، وكان الناس ينتظرون أحداثاً أكثر رعباً. ورغم تكهرب الجو بهذه الانقلابات، كنا نسمع أن جميع البيوت في القطاع الفلاني من المدينة تحولت الى لون رماد السيجارة، كأنها فرشت بفرشاة خرافية، بينما تحولت جدران جميع البيوت في القطاع الاخر الى لون أصفر. وفي خضم هذا الرعب، سمعنا أن جميع سكان القطاع الرمادي تحولوا الى مخلوقات طويلة جداً ونحيفة، على نحو لا معقول، بينما تحول أهالي القطاع الأصفر الى مخلوقات قصيرة كأنهم خرجوا من تحت مكابس هائلة. كل شيء كان مشوهاً. أما الأشياء التي لم تصلها يد التشويه، فقد كانت في إسطوانة الصيرورة السريعة المفعول.

كان الفضول بمثابة طاقة محركة للكثيرين. ورغم فداحة الموقف، كانت الاسئلة السمجة تملأ الشوارع – أسئلة مثل:

– ماذا حدث؟

– لماذا نهرب؟

– ماذا حل بالمدينة؟

– ماذا تعني هذه الضجة؟

كان الهاربون يضحكون، بعضهم من بعض، أحيانا بصلافة خنزيرية، وأحيانا أخرى بألم. كانوا يقولون: «أنظروا، إنه يطول كالزرافة» أو «رباه، طال عنقه». أو كانوا يستفسرون بسرعة، وبلجاجة:

– هل طالت أعناقنا أيضاً؟ ما شكل بشرتي؟ لماذا أقصر؟

ثلاث ساعات إنقضت. وطبيعي، في جو مرعب مثل هذا الذي نعيشه، أن يحدث ما لم يكن بالحسبان بالمرّة. فإذا انا مع ثلة من المخلوقات المشوهة في بناية كبيرة، لها ردهة واسعة. وتصورت، لشكلهم البشع وأيديهم الطويلة وملابسهم الرثة، أن البلاء جاء الى المدينة بواسطتهم. كان عليّ ان ارفع رأسي عالياً إذا اردت التحديق الى وجوههم. وتصورت إنني من المحتمل ان أكون انقذفت الى القاطع الرمادي من المدينة. كنت أعجز من اعرف مدى طول قامتي، أو قصرها، وتصورت بأن هؤلاء سيفتكون بي حتماً. فسألتهم بصوتٍ عال، ولأول مرة تكلمت بعد الكارثة:

– اسمع، هل تعرف ماذا حدث؟ هل ثمة احد في المدينة؟

لم يرد عليّ، تشبثتُ بساقه الطويلة وجعلت أهزها كشجرة. فأحنى رأسه والقى عليّ نظرة إستغراب، وقال «مدمدماً»، بلغة اشك بأن لها مثيلاً في الوجود.

وبعد قليل تجمهر الناس حولي في صحن الدار، وراحوا يتهامسون بلغة مبهمة يثير جرسها دغدغة في طبلة الأذن. وعرفت بسرعة أنه من المستحيل أن أتفاهم معهم. فبحثت عن منفذ للخروج. ولدهشتي، رأيت البناية محاطة بجدار مرتفع. ولعل الناس، رغم طول قامتهم، لم يستطيعوا ان يروا شيئاً من فوق الجدار.

وتألمت جداً لهروبي وإنخراطي بالناس. ولا أظنني كنت واعياً في أثناء جريي. ومن المحتمل أنني خفت ان لا أسقط مثلهم على الرصيف. لكن أين أنا الآن، ومن يكون هؤلاء، وأين هي؟ اشك انها ستبارح ذهني.كانوا ينظرون اليّ بإزدراء قاسٍ ووحشي، ربما لأنهم كانوا اطول مني قامةً. كان البقاء في باحة هذه الدار، ومع هذه المخلوقات المشوهة، مستحيلاً. لذا رحت ابحث بحمية في ارجاء الباحة عن منفذ للخروج، فلم اجد. فصرخت فيهم بصوتي الراعش.

– من أنتم؟

لم يرد عليّ أحد. انزويت بعيداً. ورحت أتأمل الاحداث، والاطفال، والنساء، وتلك التطورات السريعة والخرافية التي حدثت. وغبت في تأملٍ طويل. ولأول مرة شعرت إنها أيضاً مطروحة، حتماً، في ركن بعيد من المدينة. ربما في القطاع الأصفر، إو الرمادي، أو ربما على شارع فرعي، إن لم تكن قد إستطالت، او كبست، أو شوهت، كيف تركتها؟ ما هذا المسار الأعرج؟

وبينما كنت انبش في طين الحوادث، تقدمت المخلوقات الطويلة مني. وبعد قليل تحلّقت حولي في هدوء.

وأمسكني أحدهم بيده الطويلة ورفعني عالياً وبصق في وجهي نبرات من الأصوات المتقطعة. وهزّني مرات عديدة، واعادني الى مكاني بغضب. ومدّ آخر يده، وبعد ان هزّني بقوة القاني في مكاني. وإمتدت بعد ذلك الايادي تهزّني، ثم تعيدني الى مكاني. وتصورت ان هذه المعاملة غير المتكافئة هي أبشع إهانة وجهت إليّ طوال حياتي. ماذا كان بوسعي ان أفعل؟ بصقت في وجوههم، غير ان رذاذ بصاقي عاد فسقط على وجهي. وبجنون بحثت حولي عن شيء لأقذفهم به. لم أجد اي شيء. وإجتاحني غضب أبكم، رحت أردد على أثره: كلاب، حيوانات. من أنتم؟ هل تتباهون بطولكم.

ظلوا يهينونني بأستمرار. وإنحبس ألمٌ غريب في داخلي، وشعرت بعجزي عن رد الإهانة لهم بضآلتي. وأردت ان أبكي، غير إنني تذكرت أنني لم أبكِ في حياتي.

وأنفجر أحدهم عليّ وأمسكني من كتفي بقوة، ثم رفعني عالياً بيد ومَسحَ بيده الأخرى أجزاء الدار، وقام بحركات سريعة ملأت إشارتها كل مكان.

وأراد الرجل أن يلقيني بعيداً، غير انه أعادني، دون ان أدري لماذا، الى مكاني في هدوء. أعتقد انه كان يتهمني بأنني المسؤول عن الهوس الذي أصاب المدينة. وأدركت أن الكلام لا معنى له البتة. لذا أعطيت وجهي للجدار وأسترسلت. رغماً عني، في بكاء حار صامت، ضارباً جبيني بالجدار ومردداً:

– هل أصمت؟ نعم، ما دمت لا أستطيع أن أقول ما أريد.

لكنني كنت أجد في الصمت إهانة كبيرة، ثم صرخت بقوة:

– أين المدينة؟ أين الشوارع؟ أين الناس؟ والاطفال أين هم؟ لماذا تحاكمونني بهذا الشكل الصامت؟ هل لأنني لست بطولكم؟ أيتها الكلاب المتباهية بطولها، ماذا تريدون؟

وصرخت بعد صمت قصير:

– ما هذه السخافة اللامتكافئة؟ لماذا تتهمونني؟

وظلوا يجادلونني بصلافة، وبلغة غير مفهومة. فقلت من خلال دموعي:

– أيُّ رعب أن يشعر الانسان بالعجز احياناً.

وقام أحدهم وهمّ بإلقاء صخرة، لا أدري من اين جاء بها، على رأسي. غير أن أحدهم انتزعها منه والقاها بعيداً فصرخت كالمحموم:

– المدينة... المدينة...

ولفرط حنقي، أخذتني غيبوبة مفاجئة. ثم أفقت وهذيت طويلاً،ثم عدت الى الغيبوبة. وعندما أفقت منها، رأيتهم قابعين في زاوية بعيدة. كانت الصخرة على بعد أمتار مني. زحفت اليها الى أن وصلتها. كانت ثقيلة جداً، وكنت أعجز من ان أستطيع تحريكها. فسقطت عليها ورحت، لفرط ألمي، أقضمها، صارخاً بها:

– أين المدينة؟ أين المدينة؟

فجأةً ملأ صحن الدار صهيل داوٍ أعقبته موجات من الغبار الكثيف، ثم ساد صمت قطعه وقع حوافز جياد شبيه بقرع طبل كبير. فقلت بتلعثم:

– المد.....ينة.

وفيما ملأني الصهيل بأستمرارية العالم واحتمال وجود بقايا المدينة، راحوا هم، على العكس، يتكورون ويرتجفون. وترامى الصهيل مراراً الى صحن الدار بشيء كثير من القوة. وفكرت في نفسي: ما داموا هم يخافون هذا الصهيل، اذن جاء دوري لأزدريهم أنا أيضاً. ثم هبت موجات متتالية من الغبار حجبت عن بصري جميع الاشياء، وتريثت قليلاً، وايقنت أن هذا الصهيل الذي زلزل كل شيء، مستمر بعض الوقت، وسيكشف عن أشياء لا أستطيع أن أتكهنها. ثم انقشع الغبار وظهرت الأشباح الطويلة.

فصحت في وجوههم:

– جبناء تخافون الصهيل.

وبخوفٍ مستخذ أومأوا لي أن لا أبارح مكاني، وهزّوا رؤوسهم بحزن. ورحت اصهل أنا أيضاً مقلداً جهدي ذلك الصوت العويلي. فأرتجفوا. وظللت أصهل حتى خروا عند

قدمي. وبعد قليل رفعوني، وبشيء كثير من الاحترام أنزلوني الى الجهة الاخرى من الجدار... رأيت المدينة أكثر خلاء ووحشةً من قبل، كانت تبدو مشققة كقميص عتيق. وبألم كبير تصورت بصدق إننا نعيش في عالمٍ حكم عليه بالخراب. كانت خالية من كل شيء. الأبواب موصدة. والمحلات مهجورة. وسرت برفق احدق الى النوافذ الشبيهة بعيون حزينة أتعبها الإنتظار الطويل. ولأول مرة أحسست بخدرٍ لذيذ مشحون بألم الإنسلاخ من كل شيء. وإمتلأت عيناي بدموع شعرت معها برغبة داعرة في أن أفكر بها. وعجبت لماذا كنت مقتنعاً في تلك اللحظات، حيث كنت أتارجح على الشوارع المضغوطة، بأنني لم أحب او اكره أحداً، وتقت الى ان أرى عيوناً وأنوفاً وآذاناً، وان أصافح بعض الأيدي. لماذا كانت المدينة يتيمة؟

وفكرت بها مرة أخرى، وتمنيت أن تكون معي، أما قالت لي انها تحب أن تسير معي ذات يوم في مدينة مهجورة؟ من يدري، ربما كانت المدينة أجمل لو عرف الناس كيف يصمتون.

وطرقت باباً، وآخر، وآخر، دون أن يجيب أحد. فصرخت بحرقة:

– أين الاطفال؟أين أنتم؟ أين هي!

ودوت موجات الصهيل من جديد. كان الصهيل هذه المرة بمثابة ردود على أسئلتي التائهة. وبشيء من التفكير، الطفوليّ، تصورت أن هذا الحصان لا بد أنه يجر عربة تجلس هي فيها، باحثةً عني، اما قالت لي ذات مرة إنها لا تعرف المدينة جداً؟

صهلتُ بقوة وأعقبت صهيلي بالصراخ:

– اين أنتم؟ آه، أين أنتم؟

وإقترب الصهيل كثيراً. وبعد دقائق، رأيت حصاناً طويلاً جداً، وبشعاً، يجر عربة مستطيلة شبيهة بالتابوت. فقفزت اليها وجلست بصمت. وجاءَني صوت ضبابي:

– سيعاد بناء المدينة.

– ماذا تقصد سيُعاد بناء المدينة؟

– أقصد انها ستعود الى حالتها الطبيعية في غضون زمن قصير.

– لم أعد افكر فيها.

– سمعت انها ستكون أجمل مما كانت عليه.

– متأكد.

– طبعاً.

– لماذا تغريني بالعودة؟

– جميل أن يعود الانسان.

– أين؟

– صمت،.

–أين؟.

– صمت.

وتقلصت العربة، ثم راحت تحتويني وتضغط عليّ. آه، لو صح ما سمعت.

ثلاثة تلال من الجراد

ادغال ساكنة، لكن الصحراء حولها تهتز

بنشيد الجراد الغرامي

اندريه جيد

لا أحد بيننا يعرف متى جئنا الى هذا الخان الطيني. ولا أحد يعرف ايضاً كم من المرات ساقونا الى تلك الأرض المسطحة في إنتظار تلك الآلة التي قال لنا ذاك الإنسانان الميكانيكيان إنها ستشحننا الى حيث تلتقي السماء بالأرض. انتظرنا في ظلام طحلبي، بعضنا بأمل باسم، والبعض الآخر بصمت قاتل وقلق وتوتر أعصاب شديد. كانت هذه المرة العاشرة التي نذهب فيها الى هناك. ونرجع بخطوات جنائزية ضاربين في أرض شوكية تارةً، وكلسية تارةً أخرى، الى حيث هذا الخان الطيني. ثم نتوزع في أرجاء الخان بصمت وكأننا مساجين محكومين بالسجن المؤبد، أو بأن نعاني دون البشرية جميعاً تجربة شاذة، ناشزة، مرعبة. وبعد ان دخلنا جميعاً الى الخان، تقدم احد الرجال، وكان مصنوعاً من الحديد، فأستند الى مفتاح كبير جداً، وانطلق يتكلم قائلاً:

– في المرة المقبلة حتماً تصل تلك الآلة التي نشحنكم فيها.

وكأن هذا المخلوق الحديدي يحمل فوق رأسه مصباحاً كبيراً يبصق نوراً ورادياً حاداً، لو أصاب واحدنا صهره على الفور. قال كلماته الاخيرة كببغاء، ثم تقهقر بخطوات بطيئة جداً، وغاب خارج الخان. حقاً من نحن؟ ماذا نفعل هنا؟ اي شيء يراد منا، والى متى سنبقى هنا؟ كثيرون كانوا يسألون أنفسهم مثل هذه الأسئلة، بل أكثر. لم نكن لاجئين، أو فقراء، أو مشّردين. كنا جميعاً في دهشة غريبة، نفكر بإضطراب، ونتأمل الاشياء المحدودة والتافهة في الخان بقلق شديد، ونتحسس الجدار الطيني بباطن أيدينا، ونقضي ساعات طويلة في دراسة وجوه بعضنا البعض، ومحاولين ان ننفذ الى أعماق أصحابها لنسكن دقائقها. كنا جميعاً نحس بدافع غريب لا أستطيع تسميته بأننا ننتظر أحداثاً غريبة ومرعبة. وهذا التكهن كان يجعلنا أن نفكر بعمق في

مصير الاطفال الخمسة الذين كانوا معنا في الخان. لا شيء كمنظرهم كان يدمينا، أو يهزنا، او يغرينا من الداخل بوحشية.

وذات مرة كنا كعادتنا نغط في صمت أخرس، فإذا بطنين داوٍ يغلف أطراف جدران الخان. وكان على أطراف الجدران الأربعة ثقوب كبيرة يهب منها الهواء علينا، ولا نرى من خلالها إلا ظلاماً دامساً. وظل دوي الطنين يشتد بقوة. وفجأة، إذا بآلاف من الجراد تندفع من الثقوب وتحط على كل مكان في الخان، فتصبغ الجدران بلونها الترابي. ولاحظنا ان الجدران من الداخل تضخمت على نحو غير طبيعي.

ودونما وعي، إندفعنا لنسد الثقوب بكل ما لدينا من الخرق، والاثواب. وتعرى الكثيرون منا من ملابسهم الخارجية، وبقوا نصف عراة. وإندفعنا بعد ذلك في حرب وحشية لقتل الجراد. وشاركتنا النسوة في الحرب بعزيمة كبيرة حتى قضينا عليها جميعاً. وعندما قامت النسوة أخيراً بجمع الحصاد من الجراد، كومنَّها مع ثلاث تلال كبيرة وسط الخان. ثم جلس الجميع متعوبي الأنفاس، مُشتتي الفكر لحد الرعب. لم يجرؤ أحدنا ان يتكلم منذ ان حشرنا هنا. لكنني لاحظت ان كل واحد منا شعر برغبة ملحة، بل جنونية في الكلام، ونهض احدهم وكان شاباً نحيفاً، مربد الوجه. وبشيء كثير من القلق وقف قرب التلال وقال بعصبية:

– ألا تعرفون الهدوء؟ ما هذا الصراخ؟ ألا يستطيع الانسان ان يجد القليل من الراحة هنا.

ووقع بصره على الجراد، فقال بتقزز:

– ما هذا الجراد؟ من الذي اتى به الى هنا؟ حقاً ماذا تفعلون هنا؟ وأجال ببصره في أرجاء الخان، وضحك بقوة هيستيرية، وقال:

– أين زوجتي؟ اين نحن؟

وهنا قام رجل عجوز، وسار بخطوات واثقة الى حيث الشاب، وربت على كتفه قائلاً له بصوت خافت سمعناه جميعاً:

– إذهب... إذهب وأستمر في حلمك.

فنكس الشاب رأسه في هدوء، وقال حانياً جسمه النحيل.

– أجل، أين كنت؟

وذهب الى مكانه مترنحاً، بينما وقف العجوز جامداً لردح قصير من الزمن. وأنفجر فجأةً بصوت مضطرب:

– إسمعوا، يقولون لنا أنهم سيشحنوننا كأكياس عادية.

– لابأس. لكن ليستعجلوا. ألا يكفي اننا نطيعهم؟

– اتعرفون أننا نستطيع الإستفادة من هذا الجراد؟

– ما رأيكم نجففه ونملحه. انه مادة غذائية جيدة.

وإمتلأ الخان بكلمة عو..... عو..... عو..... ورجت النسوة من الرجل الذي أسمينه بالعقل المختل أن يجلس في مكانه. وعبثا إستمات الرجل في شرح وجهة نظره، وظل يردد بحمية أن الحشرات فيها مادة غذائية جيدة، يجب الاستفادة منها حتى تتم عملية الشحن الموعودة، وكرر بأننا أناس جبناء لا حول لنا ولا قوة أمام المصير الذي فرض علينا. ونهض آخر بسرعة، وكان شاباً متحمساً، تبدو عليه سيماء الجد المفرط، وقال:

– كل شيء يمكن ان يكون جباناً...هذه الارض، هذه الجدران، هذه السماء، هذه الدنيا بأكملها، أما الانسان فلا...

وصمت قليلاً، وركل بعصبية كومة الجراد، فتطايرت الحشرات على الجالسين، بينما راح هو يقول بصوت خافت:

– جففوها إذن... جففوها. لا تنسوا إنكم تساومون على أكبر حقارة. لماذا لا تحتجون؟ لماذا تتأمرون على أنفسكم؟

وعجّ الخان بكلمات ثائرة، وصرخت النسوة بالشاب ان يجلس، وقالت إحداهن بغضب:

– دعوه يجلس. دعوه يجلس. إنه خيالي. لا شك إنه فقد عقله.

فصرخ الشاب بحقد:

– لم افقد عقلي... إن عقلي لم ينتصر أبداً مثلما انتصر الآن. وإذا كان الخنوع وتجفيف الجراد هما اللذان انتصرا عندكم، فهنيئاً لكم. أنا ابصق على الجراد، ابصق على كل واحد لا يعرف كيف يموت.

وهنا إندفع الشاب السخيف الذي نهض للمرة الأولى، وقال بتوتر عصبي:

– أنا. أنا أعرف كيف أموت.

فجأةً طعن نفسه بمدية كبيرة، وقال وهو يسقط على تل الجراد:

– بلغوا حبي لزوجتي.

لا احد كان يسمعنا. وكنا نتعذب بصمت. وجرَّ بعضهم جثة الشاب والمدية التي لم تزل غارقة بعمق في بطنه، وألقوهُ بهدوء في زاوية بعيدة من الخان.

وإنطلق الشاب في الكلام:

– هل وصل بنا الجبن، ونحن نحمل مثل هذه الرأس، ان نقبل بهذا الوضع؟ ماذا أراد ان يقول ذاك العجوز الخرف؟ وراح يبحث عنه بين الجالسين بعينيه الحادتين. ثم عاد الى الكلام بسرعة قائلاً:

– ماذا أراد ان يثبت عندما طلب منا أن نجفف هذه النتانة ونملحها؟ هل كان يعني أن نقبل كجرذان بهذه المائدة الحيوانية؟ أنا أفضل أن انهش لحمي من ان أقبل بوجودي هنا. أنا ارفض كل هذا العالم. وهذا الصعلوك يفكر بتجفيف جراد عفن.

وعندما إنتهى من الكلام، سأله احدهم قائلاً:

– ولكن يجب ان نأكل لنعيش. الا يأكل الانسان ليعيش؟

– نعم... نعم...

وأردف بعجالة وقد أضطرم وجهه:

– نعم... لكن ليس بعد هذا العمر. لماذا تخون نفسك، لبضع سنوات اخرى من الحياة...

وساله آخر:

– حسناً... لكن ماذا يجب ان نفعل؟ الا تسمع قوة الطنين في الخارج؟ أتعرف ماذا يحدث لو أزلنا الخرق من الثقوب؟ ألا تعرف ان الجراد سيأكل لسانك الطري الذي تطلق به كلماتك؟

وترك الشاب مكانه، وأسرع الى حيث كان جالساً.

وشعرت برغبة جنونية في تقبيل هذا الإنسان. ورددت لنفسي:

– إذن ليهجم الجراد بكل جحافله، ولتمطر السماء ما تشاء من النيران..

ثم جرجرت نفسي صوبه، وبجهد كبير وصلت الى جانبه فوجدته مستنداً الى الجدار يقضم شفته السفلى بعصبية، وقد أربد وجهه من الغضب. فأقتربت منه كثيراً، وبعطف كبير لثمت كتفه دون ان يشعر بوجودي. ثم قلت له بهمس:

– إسمع... لكم جعلتني أخجل من وضعي. كان يجب ان أنفجر أنا الآخر. أتعرف أنني كنت على وشك الموافقة على إقتراح العجوز بتجفيف الجراد؟ ترى لماذا تغيرت هكذا فجأةً؟ إذن، بوسع الإنسان أن يرفض.

وحدجني بنظرة فاحصة، ثم إبتسم رابتاً على ظهري برفق. فقلت:

– هل تقبل ان يرضخ هؤلاء؟

– يؤلمني جداً ان يتآمر الإنسان على نفسه بوعي.

– إسمع. ماذا عن الاطفال؟

– يجب ان يأكلوا ولو مات طفل واحد هنا لقتلت نفسي.

– ما الحل إذن؟

– إنهم يتآمرون حتى على الأطفال.

– ماذا يجب ان يفعلوا؟

– يتمردوا.

– تقصد يموتوا؟

– لا بأس إذا إقتضت الضرورة.

– حسناً، لماذا لا تعيد الكرة من جديد؟

– لنرى.

إستندت أنا أيضاً الى الجدار، ورحت أراقب بصمت، وأتأمل الوجوه الحزينة، والعيون الأكثر حزناً وهي تحدق الى الفراغ تارة، وتارة أخرى الى تلال الجراد، والثقوب المحشوة بالخرق، والباب الخشبي الطويل الذي كان مجرد إهتزازه يثير في الجميع رجفة غريبة. كنت اتمنى، وبرغبة مُلحة، أن أجلس مع كل شخص، وأتكلم اليه طويلاً، واذا استطعت، أفهمهُ ان الوجود الحقيقي للإنسان لا يمكن إلا في الرفض ... رفض الجراد، رفض الشحن الموعود، رفض القيم، رفض كل شيء. لكنني كنت أُخرس،

وأُصعق لحد الموت، عندما كان بصري يقع على طفل صغير. وكنت، لفرط حبي النابع من أعماقي، العنُ كل شيء. فنهضت كالملسوع، وذهبت الى حيث تلال الجراد، وقلت:

– إسمعوا... أعتقد اننا نريد أن نقرر أحد الأمرين. لأننا هذه المرة، حتماً، سيشحنوننا. أرجوا من يؤيد عملية التجفيف أن ينتقل الى جهة الرجل العجوز، ومن يؤيد صديقي، أي صاحب فكرة الرفض، أن ينتقل الى جهته.

وإمتلأ الخان بغمغمة، وتطايرت التعليقات المبسترة في كل مكان. وعندما وجهت كلامي إليهم بكثير من الحرية، إنتقل الجميع، ما عدا إمرأة.

الى جهة صديقي. فقلت بغضب:

– حسناً أنتم الأكثرية. وهذا بالنسبة لنا لا يعني أي شيء. إذا كانت الديمقراطية تعني، في بعض الأحيان، ان يؤيد الانسان فكرة ميتة تقبل بحقيقة سخيفة فأنني أرفضها وادوس عليها. والآن إبدأوا بالتجفيف.

ونهض صديقي بسرعة، وقال هائجاً:

– بل أكثر من هذا، لا مانع لدينا أن نفتح الثقوب ليندفع عليكم المزيد من هذا الزاد الخانع اللائق بكم.

وإنفتح الباب فجأةً، ودخل الرجلان الحديديان. قال احدهم...

– وقوفاً... وقوفاً.

فوقف الجميع مطيعين الأمر بخنوع، بينما بقينا نحن الثلاثة في أماكننا دون أن نبدي حِراكاً. ولما إستفسر عن سبب رفضنا الوقوف. أجاب صديقي بجفاف:(نحن نرفض المجيء)

– لماذا؟

– لا حاجة للشرح.

وسدد الجميع الينا نظرات حزينة، وبكت النسوة، ورددن بأصواتهن الرقيقة المقززة إننا مجانين. والتمس منا البعض أن نفكر على نحو أعمق في الموضوع. كان جوابنا لهم بأستمرار: الصمت. وراح الرجلان يعطيان الأوامر القاسية، والجميع يلبونها بخنوع قبيح. وانحنت بعض النسوة اللواتي كنّ يملكن أطفالاً، وجمعن كميات لا بأس

بها من الجراد في خرق كبيرة، ثم خرجن مع الرهط مسرعات. وأغلق آخر الخارجين الباب بقوة. وكانت المرأة جالسة في ركن من الخان تنتظر أن يوجه صديقي اليها شيئاً.

وبعد صمتٍ طويل، سألها صديقي إذا لم تكن نادمة على موقفها، فأجابت بلطف:

– لقد اخترت، لذا انا سعيدة.

فقال صديقي:

– مساكين، لم يجففوا الجراد. هكذا الإنسان عندما يكون دمية.

وسألت المرأة:

– ترى، اين سيشحنونهم؟

– من يدري! ما داموا امّعات عادية، فأي مكان يصلح لهم.أنهم سيشحنون الى الجنة.

وسألها، بعد صمت قصير، إذا كانت تؤمن بالجنة وتقبل بها بالمساومة. فقالت:

– مع أن لا وجود لها في نظري، فأني أرفضها بالمساومة.

وخيم صمت جداً كثيف، شقّه فجأةً دوي ماكينة قاطرة، وصرير عجلاتها، وأصوات الفوج المستسلم. ومن ثم دوي آخر للعجلات. وأخيراً، ساد صمتٌ قاحل.

قلت لصديقي:

– إذن سنواجه الجراد من جديد.

فردّ باسماً:

– هنا يكمن إنتصارنا. قد لا نستطيع التغلب، وفعلاً لن نستطيع. لكننا، وهذا الأهم، إنتصرنا على أنفسنا، نحن الذين أخترنا. فلا بأس إذن، بالنتيجة.

وقالت المرأة:

– آه... فعلاً...

وعلى حين غفلة أزيلت جميع الخرق من الثقوب، فتدفقت جحافل الجراد بجنون الى الخان. وظلت تتدفق لساعات طويلة حتى وجدنا انفسنا غائصين حتى الرقبة في مستنقع من الجراد. وكنا مع ذلك نضحك بكل ما لدينا من طاقة، ضحكاً نابعاً من أعماقنا.

صَهيل المارّة حول العالم

أصوات إنهيار الأزمنة، صهيل المارة حول
العالم، السهر الانتحاري... هذا كله كان
جميلاً، مشيناه طعنة طعنة

الياس مسوح

وقف أمامي بإرتخاء، وبعد تحديق طويل بكى وأدار لي ظهره. لم أعره إهتماماً كبيراً، لأن لا شيء فيه يثيرني بعد. كان كل ما لديه من الزاد الفكري والنفسي والأخلاقي قد جفّ. بالنسبة إليّ، منذ اليوم الأول.

لكنه إستدار نحوي وقال خلال دموعه:

– مللت هذه الغرفة الخالية من كل شيء. صحن الدار الصغير هذا يقتلني! لماذا لا ترد عليّ؟

ثم أردف بكثير من التخاذل:

– ليتني كنت مثل هذه الغربان، ألا يمكنني أن أتحول الى غراب؟ وأشار الى ثلاثة غربان في الفضاء فوق البناية المهجورة.

كانت قد مضت عشرة أيام على صمته الأخرس وإبتعاده عني. واليوم عاد الى ثورته التي يشنها هكذا فجأةً عندما تنبجس في داخله فكرة وتغمره بفيض غريب من الشعور المكهرب، فيروح يمطرني بكل ما يحوي قاموسه من المفردات الدنسة: يثور، يبكي، يضمحل، وأخيراً يزرع نفسه بهدوء في ركنٍ بعيد يتأمل الغربان التي تحوم حول الدار، باحثة بعيونها الحديدية عن بقايا عظام ظل وهو ينثرها متعمداً جذب الطيور الى صحن الدار.

لا نعرف، حقاً، إذا كنا قد نفينا الى هذا المكان، أم إننا جئناه بأختيارنا. ما أعرفه هو أننا، بغض النظر عن كل شيء، قد قذفنا في عزلة صماء، بكماء. وأن كُلاً منا وقف أمام ذاته عارياً وخالياً من «الرتوش». مع ان وقتاً طويلاً مضى على وجودنا هنا، إلا ان أحداً منا لم يفهم الآخر، أنا بصمتي المطبق، وهو بثرثرته وبكائه وحلمه المستمر بأن

يرتمي مرةً أخرى في الآخرين ويذوب فيهم الى الأبد.

كانت الغرفة مستطيلة الشكل. ومنذ وجودنا فيها. وهي خالية من كل شيء، ما خلا فراشين عاديين. وكان يحتضن غرفتنا، وغرفة صغيرة أخرى، سور صخري يعلو على قامتي مرتين ونصف. وما خلا كوة صغيرة في الجدار، حيث تمتد منها مرتين كل يوم يدٌ طويلة جداً تحمل وعاءين، لم يكن هنالك ما يجعلنا نحس بأي وجود بشري.

وكان صديقي، او زميلي، أو هذا المخلوق العادي الذي يشاركني الغرفة وصحن الدار، يهرع الى تناول الوعاءين الممدودين فينهال بالتقبيل الحار على اليد، ويستجديها بصوته الراعش قائلاً:

– آه، أي إختيار مرعب! أشعر بندم فظيع. أنقذني، أنقذني فترد اليد قائلة: «إخرس!» ثم تنسحب برفق وتعيد الصخرة من جديد الى مكانها في الكوة. ويأخذ صاحبي الوعاءين ويرجع بخطوات حزينة. وبعد قليل يلقي بالوعاءين، في هدوء. على الأرض ويجلس القرفصاء، وهو غارق في التأمل. وكان ينهض، بين الحين والحين، فيُصفر لحناً حزيناً ويروح، بشيء من القلق، يذرع الساحة الصغيرة، الى ان يخطر له أن يأخذ أحد الوعاءين ويلتهم ما فيه متصنعاً الجوع الوحشي. ودرج صاحبي، في الآونة الاخيرة، على ان يضع عظمة صغيرة أو كبيرة في حفرة بمكانٍ ما تحت الشمس في صحن الدار، ثم يأخذ الوعاءين ويضعهما تحت الكوة.

وذات يوم جمع كومة من العظام وزرعها في أرجاء الساحة. غير أني غضبت منه وانتهرته بقوة قائلاً:

– هذه العظام النتنة ستجلب الى صحن الدار جيشاً من الغربان. فلم يرد عليّ، وإنما أنهمك بحمية أكثر في زرع المزيد من العظام وتعريضها للشمس حتى تتعفن بسرعة اكثر. وعندما زجرته مرة ثانية، شهر عليّ عظمة كبيرة حادة وقال مهدداً إنه سيغرسها في بطني إذا خاطبته مرة أخرى. ثم أضاف بصوته الراعش أبداً:

– كم مضى علينا هنا؟ ثلاث سنوات؟ أربع؟ لماذا لا تتكلم معي؟ هل أنت أبكم؟ بماذا تفكر طوال النهار؟ لماذا جئنا الى هنا؟ اليس من حقي ان أصطاد الغربان؟ حتماً سيفهمني الغراب.

فلم أرد عليه.

وفي الظهيرة، حامت ثلاثة غربان على صحن الدار، فحط أحدها بسرعة خاطفة، والتقط إحدى العظام. وحين همّ غراب أخر بالهبوط أسرع صاحبي ليمسكه، غير ان الطير سارع الى الإرتفاع. وقضى صاحبي أياماً عديدة في مثل هذه اللعبة السمجة دون ان يصطاد واحداً. لكنه ظل يزرع العظام في صحن الدار، ويتأمل الغربان وهي تنقض عليها ثم تعود الى الفضاء.

وعاد من جديد الى صمته الذي كان يلوذ به، بين الحين والآخر. ولاحظت انه، في المدة الاخيرة، أخذ يذوب كالشمعة المعرضة للنار. وفي إحدى الليالي، أصيب كعادته بتمزق لا يوصف، فقال:

– هل تقدر أن تقتلني؟

– لا

– لماذا؟

– لأنني، ببساطة، لا أقدر.

– هل أنت جبان؟

– أشكّ.

– لكن القتل عمل سهل، ألا توافق؟

– إذن، لماذا لا تقتل نفسك بيدك؟

– كيف؟ أرشدني.

– فكر.

وغاص ثانية في الصمت وأدار لي ظهره وراح يغط في نوم عميق. كان صاحبي يحلم بأستمرار أحلاماً مزعجة للغاية، فيستيقظ على أثرها، ويهرع الى الساحة صارخاً كحيوان مطعون. وكان يكثر من الضحك ويخاطب اليد والغربان، ويردد بلهجة مسرحية قائلاً:

«هل تعتقدون أنني جبان؟ أنا فقط أشعر بالندم. أيتها اليد السخيفة سأسحقكِ هذه المرة». لكنه لا يلبث ان يعود الى فراشه في هدوء ليعيد الكرة حتى الصباح.

وفي يوم من الأيام، كنت في صحن الدار أفكر تفكيراً مضطرباً، وأحاول عبثاً

التركيز على شيء ولو للحظة واحدة. فطرق سمعي، فجأةً، صوتٌ لا جرس فيه، كذلك الذي يخرج من مكان بعيد . وتردد الصوت مرةً أخرى، ثم إنقطع تماماً. كان كل واحد منا، في ما مضى، يعيش، ويصمت، وينام، ويبكي، ويفكر في اشياء جميلة تلاشت. أما الآن فالذي كان يذهلني ويرهق دماغي، هو التفكير بلا شيء. فلم يعد ثمة شيء يناصبني العداء في عزلتي سوى ذاتي التي تكلست كصخرة الجرانيت، والتي لم تكن تتصور يوماً أني سأقذفها في هذا الأتون وأترك آلاف الأفاعي السامة تلسعها كل يوم.

وبآلية تامة إتجهت صوب الغرفة، فإذا بزميلي معلقاً برقبته يتأرجح كبندول الساعة. ولاحظت أن زرقة مقززة تزحف لتصبغ بقية الصفار الليموني في وجهه المرهق المائت، ُارتحت بعض الشيء إذ فكرت بأني سأبقى وحيداً وبعيداً عن كل شيء.

أثبت لي زميلي، بأنتحاره، أن الندم الذي يتبع خطأ الاختيار يستطيع ان يدفع بالإنسان الى موتٍ حقيقي، خصوصاً إذا لم يبق ثمة مجال لتجاوز الأختيار. لم يخبرني، منذ مجيئه الى هنا، لماذا كان يريد الرجوع والإنضمام الى الآخرين. هه! ليبق إذن، في مكانه، ولينعم براحة حقيقية.

وقررت ان لا أخبر اليد بالأمر، لأنني أقسمت ألا أخاطبها أبداً. لكن اليد أخذت تزعق منادية إياي. فأضطررت، تحت الحاح هذا الزعيق، ان اقترب من الكوة، وعندما امتدت اليد دست عليها بقدمي وقلت دونما وعي تقريباً:

– لقد إنتحر.

وبينما هي تنسحب قالت:

– أفعل مثله!

فألقيت الوعاء على الأرض وقلت في نفسي:

– هل أنتحر؟ هل أُجهز على نفسي؟ هل اترك هذا الوحش الذي يسمونه الموت يضحك مني؟ لا... لا... سأحاربه.

وإنتابتني ما يشبه الغيبوبة، فهذيت طويلاً حتى وجدتني اردد بحماسة لا،لا،لا.

في المساء إمتلأت الغرفة برائحة قذرة للغاية. فقلت لنفسي: «الآن، ماذا يجب ان افعل؟ أدفنه؟ أين؟ وبأي شيء أحفر الارض؟»

لا أملك هنا سوى عصا غليظة احتفظت بها منذ وقت طويل. وخرجت الى صحن الدار. ورأيت الا افكر في هذا الموضوع إلا في الليل، عندما اتمدد على فراشي، وأتأمل جثة صديقي طويلاً. فلعل ذبولها وشكلها اللامعقول، وهي تتأرجح على الحبل، يهديانني الى حلٍ معقول. لكن منظر الجثة بدأ يبث الخوف في داخلي وانا أحدق الى الوجه الازرق، واليدين الطويلتين اللتين كأنهما لم تكونا، في يومٍ ما ، مطاطتين. فصرخت بي:

– مكانك ايها الحقير. تأمله طويلاً، فكر بالجدار الصخري، بالساحة الصغيرة، بالعزلة، بالموت.

وبينما أنا أزجر نفسي ووعيي، دخل نسر كبير الى الغرفة لا شك ان رائحة الجثة العفنة قد فاحت الى مسافات بعيدة. واكد دخول النسر المباغت الى الغرفة بعدنا الكلي عن جميع معالم الحياة. واطلق النسر أصواتاً غريبة، مزعجة، بل مرعبة الى درجة لا تطاق.

هل أسكت؟ لا شك انه سينهش جسده البارد. فلأختر أنا أيضاً مصيري. لكن عليّ ان أقرر سلفاً، وبصلابة، أنني سأختار مصيري الدامي هذا بوعي. فأخترت بسرعة، واسرعت الى العصا خارج الغرفة، وبعد لحظات دخلت مردداً لنفسي:

– ما اردت الموت، ولكنه جاء بتحدٍ سافر.

ورأيت النسر ينهش وجه صديقي، وهو مستسلم له في هدوء. والتفت النسر إليّ بسرعة، وعندما وقع بصره الناري عليّ، ضربني بجناحه فطرحني خارج الغرفة. وظل النسر ينشب مخالبه بجنون في جسد ذلك المخلوق المتأرجح. ونهضت بسرعة إليه كالأعمى، وضربته بالعصى على ظهره مرة واحدة بكل ما كنت املك من حقد اخرس، كان انف زميلي قد اخذ ينزف في هذه الاثناء، ولم تعد عيناه في مكانهما. وبدأ شكله ناشزاً ومثيراً للضحك. كان النسر ينشب مخالبه في جسده الذي تخشب، محاولاً السيطرة على نفسه. فصرخت به وأنا أغلي حقداً:

– هيا أيها الحقير، لنتشابك... لنتشابك... قاوم أيها السخيف. لم يحرك النسر ساكناً، وراح يسيطر على نفسه فوق الجسد البارد.

وسددَّ إليّ نظرة طويلة مخيفة. وشَهَر مخالبه الحادة محاولاً مباغتتي. فخفت ان يغرسها في عيني. واخذت أحاربه بلذة لم يسبق إن ذقت مثلها، إلا في محاربتي لذاتي.

وسددت اليه ضربة أخرى أصابت مخالبه. غير انه هجم عليّ وأنشب مخالبهُ في وجنتي اليمنى. وكم بدا ذلك شبيهاً بطعنة غادرة من عدو مراوغ حقود. فبصقت في وجهه، وضربته مرة أخرى ضرباً وحشياً زعق على أثره زعيقاً حاداً، موجعاً. وأراد أن يهرب، غير أنني أغلقت الباب واحكمت رتاجه بسرعة. فقلت وانا أغلي حقداً:

– هيا، هيا. ستدفع ثمن تلك العين. نعم اراد الموت. كلا لا احاربه من اجله. تعال. تعال.

وأسرع النسر كالومض وضربني بمخالبه على وجنتي اليسرى، هذه المرة، فشجها بعمق. فأدركت إننا غير متكافئين بالمرة. سيقتلني، لكن ما أشرفه من قتل. انا أردته، أنا أخترته. فزعقت في وجهه:

– إستمر ايها الداعر إستمر.

كنتُ في هوسٍ إندفاعي، اوجه اللوم لا شعورياً لصديقي الذي كنت اتصوره حياً، واردد: لا تقف هكذا جامداً أيها الكلب. دافع عن نفسك. الم تحلم بأن تصطاد غراباً؟ ها هو، لكنه من نوع آخر.وأخذ النسر يملأ جو الغرفة بزعيقه الوحشي، دونما توقف. كان يفتح جناحيه العريضين على سعتهما، ويغطي بهما مسافة كبيرة من الغرفة الصغيرة، ويحاول أن يضربني بهما كلما وجد فرصة. او ينشب مخالبه الحديدية في جسمي الشبه عاري. وصار جسدي لزجاً بدمي النابع منه بغزارة. فرددت صارخاً:

– كلب، كلب، انه يحارب بضراوة.

وهجمت عليه بغضب لا أستطيع وصفه، وضربته على رأسه الصغير ضرباً قوياً ألقاه الى الأرض، فراح يتلوى كالدجاجة الذبيحة. ولم يمضِ وقت طويل حتى هاجت طعنات المخالب في جسمي فشعرت بألمٍ موجع وأدركت ان هذا الحقير قد طعن جسدي في أماكن كثيرة ونظرت الى زميلي، فرأيت منظراً مرعباً. فغمرني خدَر غير طبيعي. وسقطت على الأرض وأنا أراقب، بلذة، نزف الدماء من جراحي العديدة. والتفت الى النسر، بصعوبة، فسدد هذا بصره البشع نحوي وشهر مخالبه المدماة، ثم اخذ يزحف الي. كان كل منا يريد ان يحقق إنتصاراً على الآخر. وأيقنت انه سيقتلني لو جددّ المعركة، فخيرٌ لي ان أستسلم له كزميلي، واراقبه بصمت حتى أنتهي، كان كل شيء فيّ مشلولاً من تأثير الجروح العميقة. وفي ذروة تخبطي في دمي، وصيحات جروحي،

فكرت بجدية أن أقبّل هذا الحيوان إذا ما قتلته. لانه أشعرني بحقيقة وجودي، بنمو قواي، بسعادتي. ورغم الشلل الذي راح يدب في جسدي، كنت اشعر بلذة للأشتباك معه في المعركة من جديد. واقترب مني حتى صار بجانبي، فركلته باذلاً جهداً كبيراً ورفع النسر جناحه الأيسر بصعوبة كبيرة ولطم به ساقي برفق كأنه يمزح معي. وكانت عيناه المخيفتان، دون سواهما، تلقيان الخوف في جوفي. ورفعت العصا وتركتها تسقط بثقلها على ظهره. فتحرك قليلاً، واقترب مني حتى قارب منقاره فخذي العاري. وفتح منقاره، فشممت منه رائحة كريهة، وحاول ان يغرز منقاره في لحمي، فأمسكت رأسه وإذا رأسه محطم حتى منبت عنقه. فدفعته بعيداً، فأزداد وجع طعناته، وداخ رأسي، واستندت الى الجدار، وكأن يداً قوية كانت تطبق على جفوني. ماذا يحدث لو غبت عن الوعي وتلاشيت؟ وشعرت بالشك في كل شيء. لكن النسر أعاد، وهو على وشك الموت، رأسه المهشم ووسّده برفق الى فخذي. ثم استسلم للموت بصمت.

ورحت معه في قبلة حارة.

الضفة الأخرى من البحر

ضع السيارة بعيداً حين تفشل الحياة،
فأين فائدة الرحيل الى بلادٍ أخرى.

هـ. أودن

بعد صمت وظلام أسودين داما ردحاً طويلاً من الزمن، زعق صوت مجسم كالذي ينبعث من «مايكروفون» منصوب في فراغ أصمّ:

– المهاجر السيد ن هل انت مستعد؟

أعتقد أنه كان عليّ ان ارد بكلمة نعم، ثم أسير، وادركت انني قطعت على نفسي وعداً قاطعاً لا أجادل أو أتساءل، بعد ان يئست من لا جدوى الجدل او التساؤل. لكن اين ذاك الذي يعرف الصمت في زوابع الهوس والمحاكمات السمجة. لذلك تريثت قليلاً، بعد ان غمرني دفءٌ لذيذ، وعشقت الجدل، واردت بشيء من الجدية أن أتخذ قراراً حاسماً تجاه هذه المهزلة التي تعجبت من الذي اجاد إخراجها المشوش وفي هذا الإطار المروع. بل اكثر من هذا، وبخت نفسي طويلاً، كعادتي لتأخري في إتخاذ قرار جذري قبل دوي الزعيق، ربما كان ذلك لأنني كأي إنسانٍ أخر لا يسعفني وعيي بالحلول الاصيلة إلا عند الوصول الى الهاوية.

وإتضح لي، بعد إتهامي بالمهاجر وبتلك اللهجة الخشنة، أني في شبكة، وأن المصير الذي انتظره مخيف وشائك ولا يمكنني أن اعرف الى اين سيفضي. فتريثت، وتريث الصوت معي. ورأيت في تريثه ضرباً من الازدراء والعطف، ومن إفساح المجال أمامي لأتخاذ قرارٍ ما. كوتني كلمة «المهاجر»، وشعرت بوقعها على طبلة أذني، كما لو كان وقع مطرقة كبيرة. واقشعر بدني، ووجدتني هكذا عرضة لطعنات وجهت إليّ دونما مبرر أو سبب منطقي. وركعت على الأرض وانا اردد كلمة مهاجر، مهاجر. وبحثت بباطن يدي حتى اهتديت الى كمية من التراب، فملأتُ قبضتي ورحت اضغط بقوة.

وزعق الصوت من جديد:

–المهاجر السيد ن...

وقلت بنفس القوة التي ملأ بها صوت ذلك الظلام الذي يكتنفني:

– أخرس. أخرس أيها الاحمق. ماذا تقصد بكلمة مهاجر؟ ثم اخذت مزيداً من التراب وقذفته كالمحموم في إتجاه الصوت اللاموجود، وصرخت: أحمق... أحمق.

وامتدت فجأةً عشرات الايدي الطويلة البشعة، خارقةً جدار الظلام، جارفةً خلفها خيطاً رفيعاً من الضوء الابيض الشبيه بضوء الفجر، واخذت تهددني بالمهاجر. واقل ما يمكنني قوله الآن، هو انني لم ارى اكثر بشاعة وقذارة من تلك الايدي التي راحت ترقص كأرجل أخطبوط أمسك بفريسة. ولا بد لي ان اقول انني عودت نفسي في الأونة الاخيرة ، وعلى نحو شاذ بعض الشيء، على شجاعة غريبة، طرحت بها الى الأبد من حسابي قضية الخوف، والجبن. والأرتعاد أمام الاحداث. كانت الشجاعة هي القوة الوحيدة التي كانت تدحرجني لعبور الجسر الى الطرف الآخر من ضمة البحر الْهلامي بشيء من الصفاقة.

تمادت الايدي من إقترابها مني. ثم اهانتني وبعثت، أو حاولت ان تبعث، الرعب في داخلي. وعندما زعق الصوت صائحاً: المهاجر السيد ن، حطت الايدي عليّ ، ولم يقضِ وقت طويل حتى شممت رائحة مدوخة، فرأيت، ربما تحت وطأة لا معقولية الموقف، أن ارتجف قليلاً عندما شاهدت سائلاً بنياً الذي يخرج من فم الجراد يصبغ وجهي ويدوخني، ثم حاولت الأيدي ان ترفعني عن الارض في محاولة داعرة لإهانتي، وإشعاري بحقارتي وهشاشتي، كان من المستحيل ان اقبل بهذا التحدي او بتلك المعاملة التي كانت تمثل بالنسبة لي ذروة الازدراء.

كيف جئت الى هنا؟ لماذا لم أسأل؟ وماذا تعني هذه الكثافة من الألغاز؟ وهذا الصوت المجهول؟ وكلمة مهاجر؟ وهذه الايدي؟ وحركت هذه الاسئلة في داخلي تمرداً ابكم . ثم راحت الأصابع تعبث في وجهي وتعصر عنقي حتى افقد السيطرة على نفسي . كانت قوية جداً، وكم آلمني أن توجد ثمة أشياء كثيرة أقوى مني. وكنت. قبل هذا المصير السينمائي، أصرُ بدافع من كبريائي أن هذا الكون خالٍ من القوة.

وهكذا اخذت احاول جهدي ان اتخلص من تلك الاصابع . كنت كذبابة أطبقَ سائل العنكبوت اللزج حول أجنحتها. وما ان نجحت في محاولتي حتى وجدتني منكباً على الارض... والايدي تمتد باحثةً عني بفزع. فهربت زاحفاً في الظلام. ثم تكورت في مكاني وجعلت أترقبها. كنت على مقربة منها، غير أنها لم تجدني. وخامرني يقين انها

لا تحس ولا ترى، وانما هي مجرد كتل لحمية لا اكثر. وظل ذاك الخيط الرفيع من النور الأبيض يتبع الايدي ويصبغني، بين الحين والآخر. بلون الفجر. وانطلق الصوت صائحاً بخنق:

– المهاجرالسيد ن، لا تهرب! تعقل. انت تعرف جيداً ان لا جدوى من الهرب.

فأخذت وبكل ما اوتيت من قوة، أحفر في الأرض الرخوة تحتي. وعجبت لماذا كانت الارض تطيعني، ظللت احفر بجنون، وبسرعة. وبحقد اشد من حقد القنفذ، الى ان استطعتُ ان احفر قرابة عمق متر واحد فقط. وكنت بحاجة الى متر آخر وأنجوا نهائياً من تلك الايدي التي ما انفكت عني ببلادة. لكنني فكرت في ان اغرس رأسي في الحفرة الصغيرة. غير اني اطلقت ضحكة قوية لفرط عقم هذه الفكرة وسخافتها. ثم تصورت ان من المستحيل أن يضحك الإنسان على نفسه بمثل هذه السماجة.

لم تكن الأيدي وحدها هي التي اصيبت بحمى البحث عني، وإنما الصوت، والضوء، وحتى كلمة «المهاجر».

– المهاجر السيد ن. قليلاً من التريث والصبر.

فصرخت، وكنت قد نسيت الصمت. قائلاً:

– أين انا؟ وفي اي بقعة من العالم؟ التراب الذي لمسته هو ذاته ذلك التراب. اي برهان تريدون على كوني غير مهاجر؟ ما هذا النطاق من الظلام؟ وما معنى هذا الإتهام وهذه المطاردات الثعلبية؟

لم أتلقَ رداً. ففكرت بأنني ربما جئت سهواً، وجئت بكامل عدتي ومؤهلاتي مقتحماً جدران هذا العالم الذي يسيره التدقيق الشديد، والإيضاحات، والإثباتات. وهل عليّ ان أثبت بأستمرار أنني فلان، وان لي هذه الإرتباطات أو تلك، وأن لي اقارب وحدود ووطن وأمزجة وعادات واية كليشهات سخيفة أخرى. ماذا يعني هذا الاستمرار في التفكير، وهو لا يفضي، بل يصر على ان لا يفضي. الى نتيجة ما. ماذا يعني هذا التسربل في اللغز.

وخامرني الشك بأن هذه الايدي العاهرة لن تكف عن توجيه الإتهام إليّ، وان هذا الصوت البومي لن يخرس عن نعتي بالمهاجر. وساد صمتٌ طويل، بعض الشيء، دون ان تكف الأيدي عن البحث عني.

ومرة أخرى زعق الصوت:

– المهاجر السيد ن! لا خيار لك البتة. انت مجبر على السير. ولا جدوى من الهرب.

فقلت: لم اكن اعرف ان زيارة الغجر ستكلفني مثل هذا الجهد الحيواني.

وساد صمت مطبق، انتظرت فيه طويلاً أن اسمع الصوت. فكررت القول، هذه المرة لنفسي:

– نعم، لم اكن اعرف ان زيارة الغجر ستكلفني مثل هذا الجهد الحيواني.

وكنت، بغية الخلاص من وحدتي وصمتي، قد قررت ان التحق بالغجر فأعاشر وجوه رجالهم البوذية، وكم حلمت طويلاً بنسائهم المحترفات للوتر والنغم والكلمة الطيبة والتنقل المستمر في الصحاري والوديان، وراء جيش من الحمير والضحكات البريئة، وإهتزاز النهود الاكثر براءة. ولكم كانت النهود، خصوصاً الصغيرة منها. تفتح افاقاً جديدة لعالمي، وتشحن وجودي بأستمرارية عاهرة. فما زلت أؤمن بأن الحلمتين هما المصدر الحقيقي لوجود هذا العالم المتخبط. وكنت غريباً في لغتي، وفي ديني، أعشق التراب، ولون الخمر، والوتر. أما الآن فما هذه الايدي، وهذا الظلام، وهذا الاتهام؟ ولماذا باتت تلك الكرات القرنفلية، والضحكات المشحونة بلا مبالاة الترحال، والارض الجديدة، عقيمة وكأنها شوهت. أأنا الذي شوَّهها؟ لكم كنت اسير حقائق تحمل على وجهها آلاف الاقنعة. إن الاصرار لم يمت فيّ إلا مؤخراً، ربما في هذه اللحظات الرهيبة التي جاءت لتكشف المزيد من الاقنعة الزائفة. ما هذا الفتور الذي غلف إصراري بالحوار؟ كل شيء يموت، يموت.

هل كنت اكذب على نفسي؟ لم بقيت أكذب على نفسي ببراءة طفل؟ لماذا لم يكلفني الكذب سوى توبيخ ساخن ولوقت قصير؟ كلا، لقد مللت الغجَر. وها أنا أُعيد الكرّة بعد ان زينت لنفسي بأن ثمة آمالاً واسعة لإعادة النظر في الأثداء، والروث، والتراب، والترحال. وقررت أن انتحر بوتر ربابة أحد المغنين، أو بثدي كبير لإحدى الغجريات، بأن أضعه على أنفي الأفطس حتى أختنق. لن أرجع بعد الآن الى الشوارع، والوجوه الكئيبة، وآلة الخراطة التي ضيعت ثلاثة من أصابعي، والى الكلمات الجوفاء التي أعرفها مثلما أعرف لون جلدي.

وجفلت بذعر عندما ملاء الصوت رأسي الحرب من التفكير، متهماً إياي من جديد.

– السيد ن، لا مبرر لأن تضيع نفسك في الزوايا والمنحنيات.

فصرخت:

– مرة أخرى، ماذا تريدون؟ ماذا يعني هذا اللغز؟ كاشفوني بحقيقة هذا الظلام الذي أحطتموني به.

وأدركت بسرعة، وبشيء كثير من الخجل أنني خاطبت هذا الصوت الحقير بلغة الجمع. فقلت:

– من أنت ايها الصعلوك؟ من أنت؟

وجاءني الرد بهدوء:

– آه. إذن انت تعرف كيف تبصق على الوجوه.

لم أجب، وشعرت بأنني مللت السباحة في هذا البحر الذي تحول من جراء ركوده الطويل الى مستنقع آسن. غير أنني لم اتحمس، ولا يمكنني ان اتحمس لتجريب عضلاتي ووعيي في بحر آخر، إيماناً مني بأنه سيتحول بمرور الايام الى مستنقع.

وصرخت:

– الموت لك ايها الصوت القبيح.

وركضت بقوة وبسرعة غريبة. وراح الصوت يطاردني بعويل بث الرعب في نفسي. وجريت بسرعة، لا خوفاً أو إرتعاداً من الجو الذي وجدتني فيه، وإنما لإيماني بأن هذا الشيء يجب ان ينتهي. بل أكثر من هذا، رأيت ان المبادرة يجب ان تكون مني، كي لا أكون عرضةً لسخرية كاوية مع نفسي.

وبعد جري طويل، أنتهيت الى مكان يغمره ضوء ابيض شبيه بضوء الشمس، فرأيت مصيدة كبيرة جداً في وسطها قطعة جبن كبيرة ومجموعة من الهياكل العظمية متناثرة في أطراف المصيدة.

وغمرني الضوء بدفء لذيذ، فشعرت بدغدغة مثيرة. وتأملت قطعة الجبن. كان من حقي أن أفكر بأن المصيدة كانت موضوعة لإقتناص حيوانات فقرية تحوم في هذا القطاع من العالم. لكنني عندما أقتربت لألمس قطعة الجبن، رأيتني في المصيدة التي أطبقت عليّ بقوة وأنا عارٍ تماماً.

الليل والطين

لا شيء مثل الليل كان يستمريء السهر معنا في مسيرتنا الطويلة التي قد لا تنتهي. وكانت أيدينا هي الواسطة الوحيدة التي نحس بها. ولفرط إحتضانها لخشبة العربة المخيفة، فقدت هي الأخرى حسها وصارت أكثر خشونة من الخشب. إضطررنا كالسحالي أن نتعود تبديل ألواننا بمرور الزمن غير المرئي وأن نقبل الليل كحقيقة مطلقة لتمثل فيها كل ابعاد الزمن والأبدية والصفر. ونسينا تلك الوجوه الجميلة التي عاشت في داخلنا طويلاً، واجتررنا ماضياً طويلاً بجميع أبعاده. ضحكنا، بكينا، صرخنا، حزنا دونما سبب، وأخيراً سحبنا. ونحن ما زلنا نسحب بكل ما لدينا من طاقة، منتزعين أقدامنا الثقيلة من طين ثخين. كان كل شيء يشدنا بجاذبية خرافية الى هذا الطين الذي نتخبط فيه، ضاربين الى هدف يقال، أو قيل لنا عنه، إنهُ عزيز جداً. وإمتلأت آذاننا بكلمات كادت لفرط فراغها أن تحولنا الى تفاهة. نحن نسحب عربة، ربما كذبة مدوخة، أو خرافة.

بجانبي مباشرةً كان يقف رجلان أجنبيان لأنهما يتكلمان بغير لغتي. لكنني مع ذلك كنت أفهمهما فهماً واضحاً. كنا بمثابة أحصنة في مقدمة العربة. والعربة كانت ثقيلة جداً بحيث كنا، بصعوبة بالغة، نقطع مسافة مئة متر في اليوم الواحد. ومئة متر يعني تقدماً كبيراً في الحركة، وإنتصاراً عظيماً نحو الهدف الذي نجهله أبداً. لما كان الظلام يغلف كل شيء حولنا، لم نعرف بأي شيء كانت محملة. وقد ضرب نطاق من الكتمان الأصم حول حوض العربة، بحيث كان من المستحيل أن يجرؤ اي واحد منا ان يقترب ولو شبراً واحداً من الحوض. ولحد الآن لم يرّ أحدنا وجه الآخر. فنحن نعرف بعضنا بعضاً بمجرد الصوت. فالذي يقف بجانبي على الجهة اليمنى، كان يمتاز بذكاء حاد ويعرف الوقت بطريقة غريبة جداً. إضطررت أن اسميه «ساعة». كان يعرف متى تنتهي المائة متر. فإذا سألناه كيف يعرف أننا قطعنا ثمانين متراً، كان يردد:

– اتركا هذه المهمة لي. رجاءاً، أتركا هذه المهمة لي.

أما الاخر فكان قليل الكلام، ورجاني بالذات أن اسميه حصاناً. وكان يسأل «ساعة»، عندما ننطلق بالسحب، بصوته المتهدج:

– أخبرني متى تنتهي المائة متر. يبدو ان المسافة طالت هذه المرة. ولم يجسر واحدنا ان يسأل عن هدفنا أو مصيرنا في هذه المسيرة الدامية التي أجبرنا، بالطبع، عليها. ورغم ذلك، وجدناها الملجأ الاخير لمعرفة كل شيء، بما فيه الظلام والطين. وكانت تلك الايدي الدودية تدس في افواهنا مختلف المآكل بآلية، وتسقينا مشروبات لذيذة تارة ودبقة محرقة تارة أخرى، وتحل وثاقنا لنتغوط أينما نشاء. ثم سرعان ما نعود ونضع ايدينا على خشبة العربة. هل كنا ننام؟ لا ادري لكننا كنا،بكل تأكيد، نضاجع طيناً طرياً ناعساً. وغزاني شعورٌ غريب. وخطر لي ان أرفض.

قال «ساعة»:

– متى نبدأ؟

فردّ الآخر:

– لم انته بعد.

وقال «ساعة» بهمس:

– ألا تعتقد أن الوقت حان لنفكر؟

– نفكر بماذا؟

– أن نكف عن السحب.

– نموت.

– لنجرِّب.

وأتفقنا ان نتمرد. ولأول مرة منذ إنطلاقنا تمردنا، مع أن لا أحد كان يأمرنا بالأنطلاق. قال «ساعة»:

– خمس ساعات مضت.

– كيف عرفت؟

– هذا سرّ المهنة.

صمتنا، ما خلا«ساعة»، إذ راح يعد أرقاماً كبيرة. فعلمت أنه بمجرد عد الأرقام يعرف الوقت. ودبّ إلينا الملل. ودفعنا قوة حب العمل الى الحركة. فتململنا في أماكننا، وراوحنا في الطين طويلاً.قال «ساعة»:

– ست ساعات كاملة.

كنا ما زلنا مربوطين الى خشبة العربة. «ساعة» ما يزال يعد الارقام، و«الحصان» يغني، وأنا استرجع ذكريات يائسة باحثاً في طياتها عن أمل ومبررات. وفجأة قال«ساعة» إنه لن يعد بعد الآن. ثم رجاني أن أستمع إليه، فغنى بلحنٍ جنائزي:

لو اعرف لماذا

خلقت لأكون حصاناً.

لكنني اعرف لماذا

خلقت حصاناً.

فرد عليه «حصان» بصوت حزين:

– إخرس. دعني أغني.

وشقّ صوته الجميل قطيفة الظلام

أنت تحمل الليل على كتفك،

وأنا اترنح من ثقله في دماغي.

لماذا؟

وتوقف «حصان» عن الغناء عندما حطت اقدام ثقيلة على الطين. وامتدت فجأةً يد الى رأسي وأمسكت بشعري الطويل وشدته بقوة الى الخلف، بينما فتحت يد أخرى فمي وراحت تسكب فيه ماءاً مالحاً، بقبقت، بقبقنا جميعاً، وشعرت بعد لحظات بأحتراق شديد جداً في داخلي فأخذت ألطم بطني بقوة وأطلق أصواتاً حيوانية غريبة. وكنت. لفترة وجيزة، اخلد الى السكوت في محاولة مستميتة لأسترجاع أنفاسي. وكان الاخران ،يطلقان مثل أصواتي، حتى أنني لفرط احتراقي كنت اتصور أني انا الذي يصرخ، لا هما.

وبكينا، وضحكنا، وصرخنا، وزعقنا طويلاً كالمرأة عند المخاض، ثم أضطررنا ان نستنجد. وكم كرهت ضعفي وتيقنت أن لا معنى البتة بتكويني الهلامي الهش. وقال«ساعة»:

– اسحبا. اسحبا. اسحبا. وإلا متنا حتماً. وهكذا كنا مخيرين بين الموت البطيء

والسحب. وعدنا الى السحب، لكن بثقل شديد. وشعرنا بأن تمردنا هذا كان خالياً من الفهم الصحيح لحقيقة واقعنا. كانت عجلات العربة لا تدور إلا بصعوبة، كأنها مربوطة بأوتاد خرافية الى أعماق الأرض. وكان الطين يزداد كثافة. ونسي «ساعة» بعد ان كواه التمرد الأخير ان يعد المئة متر. فتوقفنا بعد ان هدَّنا التعب. وكان التعب الشديد يعني ان المئة متر قد انتهت. وتغوطنا، وحشت الايدي افواهنا. وضاجعنا الطين الناعس. وربما نمنا ايضاً. ولأول مرة منذ المسيرة الطويلة نسوا أن يربطوا يدي. فتسللت بهدوء الى حوض العربة. وإمتلأت أذناي بصوت «حصان» وهو يغني:

أنت تحمل الليل على كتفك

وأنا اترنح من ثقلهِ في

دماغي

لماذا؟

وكررت بهمس في داخلي: دماغي. دماغي.

ماذا في هذه العربة؟ تسلقت الجدار الخشبي الطويل، وما ان وضعت قدمي على أرض العربة حتى إمتدت عشرات ، بل مئات الأيدي إليّ وطرحتني على ظهري، ثم اخذت تسحق وجهي وصدري تحت شفاه حارة، وتخلصت منها بصعوبة. لكنني في هذه الأثناء علمت بما تحتويه العربة، كانت تحتوي مختلف انواع الآلات والأدوات. فضحكت طويلاً وتسلقت الجدار بسرعة. ثم هويت بثقلي في الطين، بالقرب من العجلة التي رأيتها تدور ببطء. فتجنبتها، وهرعت بمحاذاة العربة حتى وصلت متلمساً الطريق الى مكاني. فقال«ساعة»:

– من هذا؟

– أنا

– آه. أين كنت؟

– إسحبا. إسحبا.

وسحبنا. وأنتظرت بفارغ الصبر وقت التغوط ليتسنى لي التفكير بتلك القبلات الدافئة التي ذقتها من تلك الشفاه المجهولة. لهفي عليها. آلات، أدوات، قبلات، فأين كنت؟ لماذا لم أسألهم من هم، وماذا تعني تلك الآلات، والى اين نسير. لكنني شعرت

بسعادة تلك القبلات.

الظلام شيء قبيح فمتى ينتهي هذا الظلام.

قلت لساعة:

– أرجوك غنّ!

– بعد الأمتار المئة!

– هل تمزح؟

– أمزح؟

– لا شيء يعني اي شيء. لو سحبنا مئة وعشرة أمتار لا يصير اي شيء. فأما القبول بمليون متر أو الموت. إما الليل والطين والطين الناعس والاكل والتغوط والسحب المستمر، أو الموت.

وبعد صمتٍ طويل قال «ساعة»:

– تعرف ماذا؟

– ماذا؟

– لن استمر بعد الوقفة الاخيرة.

– آه، جميل. فكرت انا أيضاً ان لا أستمر.

وخاطبت الآخر:

– أنت، ألم تملّ هذا الليل الذي تحمله في دماغك؟

– نعم مللت. سأغني ولو سقوني سماً. لنكف عن السحب الى الأبد. كنت اريد ان استمر في السحب من أجل تلك القبلة الخرافية. من اجل دفئها الصوفي. من اجل تلك الأصوات الهشة التي كانت تتكسر قبل ان تصل الى طبقة أذني المتكلسة. لكم تُبدل، أحياناً، أمور تافهة مجرى الانسان وتمنعه من الإقدام على أمور خطيرة. الى الجحيم بتلك القُبل.

لكننا سرعان ما اتفقنا على الكف عن السحب، فإذا بإبر حادة تغرس في رؤوسنا. لم نحر جواباً. عادت الابر الى الإنغراس في رؤوسنا وتحملت ذلك بجهد خارق. واخذ «ساعة» يغني:

خلقت لأكون حصاناً؟

وحين انتهى من الغناء، قال:

– إنتهت اللعبة بالنسبة الي، كانت لعبة قاسية جداً. لعبة الماء المالح. لعبة الاختفاء خلف الأقنعة. غير مهم. ثم راح يغني:

لو اعرف لماذا

خلقت لأكون حصاناً؟

وتوقف عن الغناء. وصمت طويلاً. ثم اختفى الى الابد.

– ازيحو هذا الظلام لنتفاهم.

واندفع حصان بحمية، وقال:

ازيحو هذا الطين من أمامنا.

وإمتلأ الليل بكلمات جاءت من كل الجهات:

– ايتها الكلاب، ايتها الوحوش، ايها الحمقى، الى متى سيبقى هذا الطين؟

كانت تلك الاصوات المتناثرة في رحاب الليل تطرق سمعي للمرة الأولى. وخامرني الشك في أن آخرين يجرون عربات أخرى الى المجهول. وتعالى صوتٌ كاد يملأ كل حواسنا:

– أنقذوا العربة.

مع رجل جامد الوجه

ما أصفه ليس مهماً، بل المهم هو مقدار ما
أستمتع به من حرية.
سارتر

الرتابة لا اتحملها مطلقاً. فالتجارب المشحونة بديناميكية هي وحدها تجعلني اشعر بوجودي. لذلك القي بنفسي في خضمها بعنف لأعيش بهوس. بهذا أتوصل الى حقائق عدمية مرعبة.

هل خامره ما يشبه الشك بأنني أتتبعه؟

لا أظن انه من الحماقة بحيث يجهل وجودي وأنا الذي يلازمه كظله تقريباً. إلا إذا كان مظهري الأنيق لا يوحي له بأي خوف. فكان يبادلني التحية دونما سبب، ويقول لي بصوت خافت:

– مرحباً. كيف صحتك؟

ولم اكن ارد عليه هذه التحية، بل اكتفي بهزة رقيقة من رأسي، مع بسمة ثعلبية، واقول لنفسي:

– لماذا؟ حقاً لماذا تسأل عن صحتي؟ حسناً، الى اللقاء.

أظن انه في المدة الأخيرة تصور أنني معجب به. عرفت ذلك، أو بالأحرى أفترضته من حركاته الرزينة، ونظراته، والتفاتاته السريعة الى ملابسه النظيفة.

وكثيراً ما كنت أجلس بإزائه في المقهى، أو قبالته بعض الأحيان، وأظل أدرس تقاطيع وجهه الجامد. ثم احاول ان الفت إنتباهه إليّ ببسمة خفيفة أرسمها على وجهي كلما حدق إليّ.

لا أعرف كم كان يبلغ من العمر، لكنه كان على ما أظن فوق الاربعين. وهذا في إعتقادي غير مهم.

عرفت اين يعيش. لأنني تتبعته، منذ مدة، حتى باب بيته. أما لماذا كنت ارثي لحاله، فأمرٌ لم اعرفه أبداً، حتى ان رثائي لحاله كان، بعض الاحيان، ينقلب الى كره شديد،

خصوصاً عندما كان يدخل بخيلاء ويصفق الباب الحديدي خلفه، ثم يفتح، بخيلاء أكثر، باباً آخر ويداعب كلبه الفرنسي الصغير، وهو يرسل من بين شفتيه لحناً جميلاً.

ألا يكفي ان يرى الانسان أحداً يتبعه كل يوم تقريباً الى السوق، والى المقهى، أو حتى الى السينما، ثم يلاحقه الى البيت؟ لعله لم يكن يشعر بوجودي؟ وإستبعدت ان يكون مشغولاً بالتفكير بمشاكل ذهنية عميقة. أما لماذا أخترته هو بالضبط لأعيش معه تجربة جديدة، فأمر لا أجد مُبرراً له سوى وجهه، وجهه الجامد.

وذات ليلة فكرت في الدخول عليه، لأسرقه إذا استطعت، (مع إنني كنت ابعد الناس عن اللصوصية)، ثم لأرى الى اي شيء يتحول ذلك الوجه الجامد. كنت في الحقيقة مأخوذاً بالفكرة. فلم يسبق لي أن عشت تجربة من هذا النوع، اعني مع إنسان لا تتحرك عضلة واحدة في وجهه.

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة ليلاً، فقفزت من فوق السياج القصير للبيت، وطرقت الباب بمنتهى الثقة. كنت مرتدياً ملابس انيقة جداً. وفتح لي الباب، فلمحت وجهه في الضوء المنبعث من أحد أعمدة الشارع. كان خائفاً، إلا أنه تمالك نفسه بعض الشيء وقال:

– نعم، ماذا تريد؟

وضعت فوهة المسدس فوراً على صدره وقلت بصوت خافت:

– تراجع الى الخلف. اذا نطقت حرفاً واحداً اطلقت عليك النار.

فتراجع في هدوء، ووجهه الجامد لم يتحرك بعد. وقلت:

– إفتح هذا الباب.

وعندما دفع الباب، إنفتح بسرعة، فدفعته أمامي. وضحكت في داخلي من حركاته الآلية السريعة. وراحت يده تبحث في الجدار. واشعل ضوءاً أحمر خفيفاً كان كافياً لأرى وجهه بوضوح. وعندما اراد ان يفتح بقية الأضواء، قلت بسرعة: – هذا يكفي.

وجلس على الأريكة فجلست قبالته. وقلت لنفسي، وانا احملق فيه:

– ترى لماذا يطيعني؟ لماذا لا ينطق بكلمة؟ لماذا لا يحتج بطريقة ما؟ ولعبت بالمسدس قليلاً. ورميته بنظرة سريعة فوجدته مرتاعاً. ثم لم يلبث أن أخذ يعبث بحزام سترته المنسدل بين ساقيه. فأرجعت المسدس الى حيث معطفي وقلت له:

– كيف حالك؟ ارجو ان تكون بخير.

فلم يحر جواباً. وراحت عضلات وجهه الجامد ترقص، كأنما بخيوط تحركها يد وهمية. واستحال عليّ، في تلك اللحظة، ان اعرف ما كان يدور في نفسه، وإزداد إرتباكه بحيث خشيت ان يقع كما يقع الحجر. لكنه اذهلني فجأة عندما رأيته يحاول أن يرسم على وجهه ما يشبه الابتسامة. وإبتسم فعلاً، او هكذا خُيلّ لي.

وإذا لم تكن نيتي خبيثة، فقد خشيت ان يفضحني وجهي. فقلت:

– هل تعيش وحدك؟

– مع... مع... زوجتي.

فقلت بجدية :

– كن طبيعياً، أرجوك.

واردفت بعد صمت قصير:

– خلتك تعيش وحدك؟

وفجأة بدأ يرتعش. وانتابه قلق كثيف، راح ينعكس على جسمه.

وتحول وجهه الى ما يشبه الطين. فكأني به ممثلاً بارعاً اجبره المخرج على أن يستعمل كل طاقات وجهه.

وقال بأستجداء:

– هل تسمح لي ان اذهب الى المرحاض؟

قلت:

– ليس الآن، حاول ان تكون طبيعياً. أرجوك، لا ترتبك. وأضفت بعد ان تأملته طويلاً:

– ماذا تعمل؟

– ماذا؟ آه. تعني ماذا أعمل.

– نعم. نعم.

– ملاّك. لدي أملاّك.

وخلال فترة صمت قصيرة، تأملني بخوف لا يوصف. ثم قال بلهجة إستجدائية مقززة:

– تريد فلوساً؟

– نعم.

فقام نصف قومة، وقال:

– أرجوك انتظر سأجلبها لك.

ونهضت انا الآخر، فقال:

– كم تريد؟

– هذا غير مهم. لنذهب معاً

– لكن؟ ولـــ...

وسرنا معاً تاركين الغرفة تسبح في الضوء الأحمر. كان البيت مظلماً ما خلا ضوءاً برتقالياً في غرفة الى الجانب الأيمن من الممشى ينفذ نوره من خلال الستائر الى حيث نسير. فأدخلني بإنفعال الى الغرفة، وعندما فتح الضوء، وجدتها جميلة رغم صغرها. واخرج من إحدى الزوايا رزمة من الدنانير وقال بخنوع مقيت:

– لا املك اكثر من هذا الآن.

فأخذت الرزمة، ثم أخرجته قدامي وأطفأت الضوء. وفي الغرفة الاولى أجلسته قبالتي، وخيل لي ان قلقه خف كثيراً. وقلت بعد صمتٍ طويلٍ جداً، رحت خلاله افكر فيه، وفي بيته، وفي هذه المسرحية التي لم اكن ادري ما دفعني الى تمثيلها بمثل تلك الجّدية:

– تلعب البوكر.

فأجاب بلطف:

– ماذا تريد.

فأبتسمت له بصدق، وكدت اقوم في تلك اللحظة واقبله. وقلت، وأنا أفتح ازرار معطفي وأضع قبعتي بجانبي:

– تحب ان نلعب البوكر؟

فتجمد وجهه من جديد، وبدأ عليه الإرتباك. وخيل ليّ انه تصورني مجنوناً، لكن ما لبث ان قال بتلعثم:

– لكن... بوكر... انا... بوكر في هذا الوقت،

فنظرت الى ساعتي وقلت بمرح:

– آه... هيا، انها الحادية عشرة بعد. البوكر لعبة لذيذة. اريد ان اقامر بهذه الفلوس

فقال بعد ان ظل يقضم شفته السفلى:

– أنا غير مرتاح. اعني أعصابي متوترة.

– ستنسى نفسك. بالمناسبة، زوجتك نائمة الآن؟

– نعم. نعم.

وارتعب كثيراً عندما ذكرت زوجته. قلت:

– رائع، رائع، اتركها نائمة، لنلعب. اريد ان اجرب حظي معك. فنكس رأسه وقال بلهجة لا استطيع ان اصف جرسها :

– حسناً. حسناً.

وأراد ان ينهض، لكنني رمقته بنظرة قاسية وقلت:

– أين؟

قال:

– لأجلب ورق اللعب.

لكنني وضعت مجموعة كاملة من اوراق اللعب عل المنضدة، وكم صعق عندما رآني اقوم بعملية خلط الاوراق في هدوء. وظل يتأملني ويمتصني بعينيه كالمأخوذ. ثم قال بصوت راعش:

– يجب ان نلعب؟

– أرجوك ارح اعصابك. الاتعرف كيف تعيش تجربة؟

– تجربة؟ تجربة، أي تجربة؟

وقال بعد صمت قصير:

– إسمح لي ان أضيء بقية...

لكنني قاطعته بسرعة قائلاً:

– آه. كلا. هذا الضوء يكفي.

وخلطت الاوراق ووضعتها فوق المنضدة، وبعد ان قسمها بيد مرتعشة اخذت اوزعها بهدوء. قال:

– هل لك ان تعطيني قليلاً من الفلوس؟

فاعطيته نصف الرزمة،. وهنا رفع بصره وسدد اليّ نظرة في منتهى التعجب. ولأول مرة منذ مجيئي لانت قسماته وبدا عليه بعض الأرتياح والشعور بالثقة. وبدأنا باللعب. ولم يمضِ وقت طويل حتى نسي نفسه والجو الذي هو فيه وراح يكثر من الضحك ويلطم ساقيه بعصبية.

وبمرور الدقائق، نسي وجودي وراح يحرك الاوراق بحذق لعين ويطلق ضحكات ممطوطة إستهزائية، ولما لم اكن اتقن لعبة البوكر، اخذت اخسر بسرعة. وكان هو يسحب الدنانير ويجمعها، ثم يضعها في جيب سترته ويردد ناسياً نفسه نهائياً:

– سأعلمك كيف تلعب البوكر. آه... لعبة البوكر... فن، فن!

وراعتني تلك السهولة المخيفة التي نسي بها نفسه ووجودي، ولم يمض علينا ونحن نلعب سوى مدة قصيرة، وتعجبت كيف استطاع هذا المخلوق ان يلقي بكل هذا الجو المكهرب في العدم. ووقع بصرهُ فجأةً عليّ عندما رفع رأسه، فتذكر كل شيء بسرعة. وسقطت الاوراق من يديه، فكأنه تجمد. وقال دونما سبب:

– هل انت بحاجة الى شيء من المشروب؟

فأبتسمت له، وهززت برأسي أن لا. فأبتسم هو أيضاً، لكن بكثير من البلادة. وعدنا الى اللعب من جديد. وغاص هذا المخلوق المعقد بعد دقائق قليل في عالمه ، نافياً وجودي. وخسرت اخر دينار من الرزمة، واتكأت على ظهر الصوفا واغمضت جفوني. وبعد قليل جاءني صوته المبحوح:

– هل تِستَدين مني بعض الفلوس لنعاود اللعب؟

فلم ارد عليه، وانما اطلقت ضحكة عالية جداً.

وحتى في الشارع الخالي أكثرت من الضحك، ورأيت بعض العمال يسيرون مسرعين، وهم يشاركونني في الضحك.

البانيو

قالت بأرتباك وخوف شديدين:

– لنذهب.

قلت:

– إنها مجرد سمكة عادية، واتعجب كيف يستطيع البعض تشبيهها بفخذ إمرأة. تصوري انها فقدت لمعانها إذا تعرضت للنار نصف ساعة فقط. وضحكتُ قليلاً رابتاً على ظهرها. أما صرّحت لي مرة بأنها لا تتواني عن تقديم القرابين للفقراء من أجلي لو انني أكثرت من الضحك؟

قلت:

– انظري، لم تعد فخذاً... كلي... كلي.

كانت تعيي إضطرابي، بحيث صارت بمثابة «بارومیتر» لوجهي. أما أنا فلم أكن أعرف متى، ولماذا أضطرب.

وحدقت طويلاً الى النهر، والضوء، والطبقة الكثيفة من الطين الغريني الجاثم على مبعدة أمتار قليلة من حيث نجلس. واستمعت الى خليط الاصوات الباحثة عن اشياء. ونبهتني انني اخذت افرط في استعمال كلمة «اشياء» بكثرة.

قلت:

– هذا الذي يزعق في المذياع يؤلمني. ما هذا الشيء الأزرق؟ كانت تمضغ لقمة من الشيء الشبيه بالفخذ المحروق وتحرك فمها بعهر. إستهوتني كلمة عهر. وفكرت بذهول كيف استطاع الناس ترتيب الألفاظ بحيث تعطي أصواتاً ذات معنى.

قالت:

– هذه السمكة مالحة جداً.

– ضروري.

– لكنني لا اقدر على النوم براحة في الليل.

لم ارد عليها، لأنني لم افكر في الليل بعد .

قالت:

– منظر الليل هنا جميل.

والواقع كان النهر يعكس منظراً جميلاً على الاشياء.

قالت:

– حنجرتي.

– تحمصت ؟

وفكرت بالفخذ المحروق وبشذرات الملح المتناثرة عليها، وتمتمتُ مردداً:

– يجب ان نذهب.

وكنت ما ازال افكر في الملح. قلت:

– الملح حيوان مفترس أحياناً.

واردفت بعجالة:

– انا مصاب بهبوط في الضغط لرفضي تناول الملح في وجباتي وبعد صمت قصير رددت هذه الكلمات: هندي... كالهنود... هندي.

كانت المدرسة مهجورة والباب مغلق عليه بقوة. لماذا عليه؟ اما كنت اشاركه الغرفة انا ايضاً؟ ولفرط ذهولنا تكلمنا طويلاً من الرحلات الثلاثين المزروعة في طول الصف. لا شك ان كارثة مخجلة وأليمة ستحل بالفراشة، والمعلمة. اي قصاص سخيف ولعين، ذاك الذي أنزل بنا. كان زميلي يتكور بجانب سلة المهملات، وهو يخرج لسانه ككلب. كان يكبرني بعض الشيء. قال:

– نحن الآن ندفع ثمن مشاكسة بريئة.

كنا حقاً أبرياء، لحوماً طرية تدفعها غرائز غير مهذبة. أظن كان يجب أن امنعه عن تناول تلك الكمية من السماق المخلوط بالملح. الآن عرفت انه كان يشكو من نقص غير شريف بمادة الكالسيوم. لقد ضحك في الحصة الاخيرة من حمرة الشفاه البرتقالية على شفتي معلمة التي كانت تشرد بإفراط. كان هو على عتبة المراهقة، ومن المحتمل ان جفاف حلقه دفعه أن يربت على ردفها.

لم يحدث مرة واحدة أن بقينا في المدرسة حتى المساء. لذلك رأيت الفراشة، خلال

الزجاج المغبر، تعبر الباب الرئيسي وتهجر، هي الاخرى، المدرسة. كان الاستنجاد بها سخيفاً، لأنها كانت بعيدة عنا. وبقينا في المدرسة. وتبول صديقي كثيراً. وكان من المقرر لنا ان نبقى في المدرسة، لربع ساعة فقط، وحيدين مع الرحلات حتى نرعوي، ونتعلم الصمت.

قال بصوتٍ ذابل:

– حنجرتي.

خلته يمزح، لأنه كان لعوباً وبهلواناً مضجراً، وبدأ يتكور ويضغط على بطنه، ثم راح ينازع. ورأيته يموت برفق. وصدمت الباب بقوة. وهرعت خلفي، وهي تصرخ بفزع.

– آه... رباه، إنك مضطرب. مضطرب. لماذا جئت بي الى هنا؟

وركضت على طول المكان الذي كنا نجلس فيه. وفي بحر ثوان. وجدتني منصوباً حتى خاصرتي، كرمحٍ غير مستقيم في الطين الغريني. صراخها. صراخهن، همهماتهن، وأيدٍ كثيرة إمتدت لتنتشلني بجهد... وبخطوات واثقة سرت وسط الزحام وجلست الى مائدتنا. فرأيت انها حفرت في أماكن كثيرة من الفخذ المحروق.

قالت:

– لا يمكن ان نستمر في الجلوس.

وفي لحظات نسيت أنني فعلت شيئاً. بكت، ضحكت، إننا قطبان متنافران. ورفعتني بمساعدة البعض، فلم أحتج، وإنما مددتُ يدي بلطف، ونهضت. ثم عدت الى الجلوس ورحت أحفر في الفخذ بهدوء.

قالت:

– أنظر حولك... أنظر.

فنظرت، وإذا رجال، ونساء، وأطفال، وباعة، وشرطة، ونهر، وأضواء، وكلمات طويلة، وعويل مجسم. فدعوتهم جميعاً لمشاركتي. كنت كريماً رغم إفلاسي المستمر. والححت عليهم في الدعوة.

– إنها سمكة.

كانت تبكي بحرقة، وتجلب مزيداً من المدعوين الى مائدتي. وقال الشرطي تكلم من انفه:

– يجب ان تبارح المكان

كانت خطواتي بطيئة للغاية، وظل ثمة شيء يصفق بين ساقيّ وكنت اسير كالوزة.

صرخت:

– تاكسي. تاكسي.

وتجمهر الناس.

ووقفت بجواري، ثم أحتضنت خصري برفق وحنان. بكت، فقلت:

– لماذا تبكين؟

– آه... انت لا تفكر. ما هذه المهزلة؟ أنظر الى ملابسك.

قلت بصمت:

– أحبّك.

– ماذا يعني هذا العمل؟

وصرخت من جديد:

– تاكسي. تاكسي.

فقالت:

– لن تقف سيارة وانت على هذه الحالة.

قلت:

– ماذا حدث؟

وركبنا أخيراً سيارة «بيك آب»

قالت خلال دموعها:

– رباه، ما أبعد البيت من هنا.

– هه! أنظري. لماذا يحدق الناس إلينا هكذا؟

– لأنك تجيد التهريج.

– إسمعي، لماذا لا تعطينهم البقية الباقية من الفخذ المحروق؟

كانت الشوارع مزدحمة. وادركت عندما أفرط المارة بالتحديق إلينا أن لا أهمية لأي عمل من الأعمال. كنت أهتز وأشعر ببرودة لذيذة في فخذي. قلت:

– هذه الكتل البشرية لن تنسى الجميل ابداً.

لم ترد عليّ. كنت في شوقٍ أحمق لهذه الكتل البشرية التي أفتقدتها لردحٍ طويل من الزمن. فضحكت كثيراً. ورحت أرد التحية لهم بإستمرار، رافعاً يدي عالياً للنساء اللواتي تسربلن بملابس في منتهى التعقيد والبساطة والألوان.

قلت لهم والفرح يغمرني:

– كانت أيام المنفى مرعبة للغاية. لقد أصبت بعمى الألوان من جراء إنفرادي في عزلتي. تأملي، لن أستطيع إسترجاعها. أين ولت تلك الآلام، والأشواق، والرذيلة؟ تلاشت كلها وضاعت. أنظري الى هذا البحر من الإبتسامات الشفافة، والايدي الملوحة لي... من انا؟

كانت ما زالت تبكي وتطرد الصغار الذين تحلقوا حول السيارة، وتزجر الرجال الذين أندفعوا للتحديق في وجهي. لم أحلم بأن تكون عودتي من المنفى هكذا. كم كانت أيام المنفى جميلة. ها انا اقبض ثمن العزلة.

وصرخت بها:

– إملأي حقيبتك السمراء بهذا العطاء الجماهيري السمح. إملأي جيوبكِ بالإبتسامات قبل ان تجف. لقد ملأت جيوبي كلها، وها انا أشعر بها تنساب برفق الى فخذي. ياللزاجة هذه الإبتسامات.

لكنها صاحت بغضب:

– إبتعدوا... إبتعدوا... ألم تروا إنساناً من قبل؟

فكرهتها واردت أن أزجرها بصلافة، غير ان وضعي كإنسان خرافي يعود من المنفى لم يسمح لي. فدفعتها جانباً وإقتربت من حافة السيارة ومددت يدي لأصافح الناس. آه، ياالهؤلاء الصغار. كم يملأون العالم بالمعنى. زميلي الذي مات في الصف لم يكبر. دفع ثمن الإفراط في تناول السماق والملح.

قالت:

– إهدأ... إهدأ.

– اوه... هدأت طويلاً، صمتُ طويلاً، تألمتُ طويلاً، حُرِمتُ طويلاً.

فشهقت، وبكت، وأخيراً رددت:

– ما هذا التصرف الشاذ؟ إنهم يسخرون منك.

فصفعتها بقوة وصرخت بها قائلاً:

– يسخرون مني؟ آه لو سخروا... لا... لايمكن أن يردوا لي عذاباتي بالسخرية.

وصرختُ في الحشد:

– هل تكرهونني؟ هل تحبونني؟ هل...

لكن موجات الضحك كانت تبتلع إفتراساتي. قلت لها:

– طال الطريق.

– إنه أنت.

– لكن الطريق لم يكن طويلاً على هذا النحو.

– أسكت. أسكت.

– أسمعي، تقولين إنهم يكرهونني؟ وهل هم أفاعي؟

– أفاعي. أفاعي. نعم، أفاعي سامة تعرف كيف تغير وجودها.

– لكن حتى الملعون يجب ألا يفكر في تبديل جلده. أقتليني إذا وجدتني أغير جلدي. إجهضي عليّ فوراً. مزقيني، لا بل ذوبيني في حامض الكبريت.

وبعد صمت طويل، قالت بذعر:

– عما تبحث؟

– حبوبي.

فأطلقت ضحكة داوية ورددت:

– حبوبي... حبوبي... إسمعوا، إنه يبحث عن حبوبه. وبعد قليل راحت تخاطب رجلاً تسلق السيارة:

– آه... كلا، كلا، إنه إنسان سوي.

فقال الرجل:

– أنتِ حلوة، فما لكِ وهذا المهرج؟

– نحن نقدم فصلاً من مسرحية جديدة.

– دونما ثمن؟

– لم نعد نهتم بالمال.

– شرفاء أنتم؟

– مثلكم.

ثم ضاعت الشوارع، ووجدت نفسي، كالعادة، مسنداً الى رجل. قال وهو يخلع ملابسي:

– أتركيه لينام.

– ربما. بالمناسبة، كم تريد؟

– لاشيء.

– لا يمكن إسمع، هل يمكنك ان تنقلنا الى قرية (ب) صباح غد.

– لمّ لا؟ سأكون هنا غداً.

صمتٌ طويل.

لقد نام، لأكتب بسرعة الى عشيقي.

أيه الكلب، ها أنك مرة أخرى تغوص في صمتٍ بليد، مستغلاً تمرغي في حبك الذي أحرقني وحولني الى بلهاء. هذا المساء غاص من جديد في عالمه الشائك. أنت تعرف أنني أعطف عليه الى حد الهوس. وهذا المساء غيرت فكري تماماً. لم أعد أحبك، لكنني ما زلت عشيقة تلك الساعات التي اثبت فيها رجولة خارقة. ورغم تحولك الى مسخ قذر، فما زلت احب تلك الساعات. من يدري؟ ربما لم احبك بالمرّة، وإنما أحببت الساعات التي بدت لي أشرف من هذا الكون. ما زلت أفكر بوقوعنا في الفخ: أنا، وانت، وهو، وبهربه دونما سبب منطقي وسقوطه في البئر. اتعجب كيف جرؤت على النزول في تلك البئر. لا تأتِ لزيارتي بعد الآن. إذا كنت شريفاً أبعث لي صوتك مسجلاً على شريط وانت تتكلم عن الحادثة التي عشقتك من اجلها. اريد ان ارجع الى الماضي. المرأة لا تملك سوى الماضي.

– هل تعرفين؟

– ماذا؟

– لا تقولي ماذا يجب ان تعرفي. كل شيء. كل شيء. القِصاص الذي يفرضونه على صغار الكلاب وحشيٌ حتى الموت. كنت جاهلاً، قبل السنة الاولى من عزلتي، لأنني تصورت أنني ضيعت شهادتي. لكنني الآن مقتنع بأن اية شهادة لا تساوي موت زميلي من العطش.

فقالت بخوف:

– لا افهم ماذا تقول.

وساد الصمت. هش. إفتحي الباب.

قالت:

– السائق.

– اي سائق؟

– سنذهب الي القرية.

–قرية؟

فتحت الباب. دخل عشيقي. ذهلت. لا، لا يمكن ان تصله رسالتي بهذه السرعة. لا بد وأنه كان آتياً على كل حال. كان قد تغيّر كثيراً وفقد جانبا كبيراً من وسامته. أبداً، لا يمكن ان يكون ذلك هو الذي احببته. لم يعرني اي إهتمام. جلس بصمت على كرسي بجانب سريره. ثم إنحنى، بعد صمتٍ طويل، وقبّل يده في الفراش وهو يشهق بالبكاء، أيكون هو الذي نزل الى البئر لينقذه؟ وقال بصوتٍ محروق:

– إنني مجرم.

كان صوته بشعاً في جرسه. وعبثاً حاولت ان اقنع نفسي بأنه هو. وقال زوجي مخاطباً عشيقي:

– مجرم، لماذا مجرم؟

– كان يجب ان لا يعرف بعضنا بعضاً. أنا بطل، كلا. انا أقذر جبان على سطح الأرض. أنا استحق ان أُقّبل موطىء قدميك. اي فائدة من الكلام؟

وحدقت اليه طويلاً وأنا أجهل ما يقول.

وصمتنا. كان الفراش مازال يلفه، وعشيقي جالس كبوذي على الكرسي. لكنه لم يلبث ان نهض وسار بخطوات ميتة الى الباب. ثم انحنى بهدوء وقبّل عتبة الباب بحرارة، وراح في بكاء طفولي، وهو يردد:

– لا شك إنك دست بحذائك على هذه الأرض.

وفتح الباب، وغاب كذبابة. ودمدم الآخر من فراشه بكلمات مبهمة:

– كنت اعلم ان الندم سيقتله ذات يوم. وفي اليوم التالي ذهبنا الى قرية(ب) وضاع زوجي فجأةً كما يضيع الطير الحبيس. ورحت ابحث عنه، لأنني عرفت انه هو المقدس، لا ذاك الجبان النادم.

وذات يوم وصلني شريط قصير يقول:

ها أنا اتكلم بناء على رغبتك. كانت فكرة الكتابة تستهويني دوماً، لكنني اجيد الكلام اكثر . لم اكن بطلاً، وإنما صعلوك إستهواني لحمك البض. ربما لحمك اكثر شجاعة مني. كنت جباناً طوال حياتي ارتعد كأي رعديد أمام الاحداث. عندما نزلت الى البئر لأنقذ زوجك، إكتشفت للمرة الاولى ان البطولة تحتاج الى محرك. واتضح لي ان الرغبة هي القوة الحقيقية. كنت افضل الموت على النزول الى البئر لأنتشاله. وأتعجب لماذا طلبت مني النزول، مع العلم انكِ تريدين نفيه من عالمكِ والانغلاق عليّ فقط. كان يختنق، وكنت تريدين له الحياة من جديد. لماذا؟

أليفشل فشلاً أفظع. لكنه، يالعظمته، إنتصر على كل شيء حين إنتصر على نفسه. كان رمزاً صلباً وشرساً للصمود في منفاه الذي اختاره بوعي. إنني لا استحق سوى اللعنة. لقد سما عليّ. إنني أبشع حقير في هذا العالم. كنت بدافع ندمي أقبّل يديه ليغفر لي. اتعرفين كم من المرات تنكرت وزرته في منفاه دون ان يعرفني؟ إنه ما زال يشكو من فخذه المحمص. ورغم استفحال السرطان في أعماق لحمه، فقد كنت الحسه بلساني لأكفر عن ذنوبي . إستمعي إليّ. ثم ابصقي على وجهي. ها انا اضع الحبل حول عنقي، لأنني لم أعُد اطيق الأثم والندم. صمت... عو... عو...

إسطوانة الزمن

طبقة سميكة وكاكاوية من الغبار تغلف خمسمائة متر أو أكثر من مكان فسيح خالٍ من كل شيء. وينقشع الغبار في هدوء جنائزي لينكشف عن سور جلدي اسود على شكل دائرة اهليجية. و تنفجر أصوات شتى لا تستطيع آلاتي تمييزها لفرط إختلاطها الشديد. وكأنها تنبعث من فم أسطوري. وتعود الطبقة الكثيفة من ذاك الغبار، فتتعالي اصوات وكأنها من حناجر محروقة. وجدت نفسي أسبح في الغبار والمح بصعوبة جداراً سميكاً من البشر يتهافتون الى كوة صغيرة. وخيل لي ان يداً أسطورية تسوقهم. كانوا يتزاحمون في الوصول الى الكوة الصغيرة. أما الى اين كانت تؤدي تلك الكوة، فأمرٌ كان يجهله الجميع.

دفعني أحدهم لأضع لبنة أخرى في الجدار البشري الكثيف. وكان حولي نساء جميلات وقبيحات، أذاب الحر الشديد المساحيق الملونة من وجوههن. ورغم شدة الحر، كن يبتسمن ولا يمانعن إذا لطم احدهم مثلاً أثداءهن السائبة، وكانت تقف أمامي إمرأة مكتنزة الجسم يغطي ردفاها اللامعقولان طريقي. كانت تدفع المارة بحمية، وترد:

– هيا... هيا... إفسحوا الطريق. لم اكن اعرف ان مثل هذا الجيش سيدخل الجنة؟

قلت لنفسي بإندهاش شديد:

– جنة؟ اي جنة؟

وكان بعض الرجال يأتون بحركات مشينة خلال الزحف البطيء صوب الكوة، كقرص أثداء النساء. او الربت المستمر على ارداهن. وكانت الضوضاء تطغي على كل شيء معلنة مجيء صمت وسكون اكيدين.

واردت ان اتخطي المرأة أمامي. الا ان ردفيها المخيفتين كانتا تسدان عليّ الطريق بإستمرار. فقربت فمي من اذنيها وهمست:

– سيدتي، انكِ تسيرين ببطء زلنطحي. أسرعي. أسرعي.

فلم تلتفت إليّ، وإنما ظلت واقفة تلهث وكأنها منفاخ. لا شكّ كنت، الهثُ أيضاً. بل

كان كل واحد في هذه المسيرة الحرانية يلهث بجنون. وحانت مني إلتفاتة الى المرأة، فإذا بها جامدة في مكانها. ولما نظرت الى رأسها رأيت شعرها غزيراً للغاية. ومنقوشاً على نحو وحشي غير طبيعي. ورفعت خصلة كبيرة من جهة الاذن اليسرى. وقربت فمي هامساً:

– سيدتي، انكِ تسيرين ابطاء من الزلنطح. عجلي... عجلي. رجاءاً.

فألتفتت الي بصعوبة بعد ان ضغطت على بطني، وإبتسمت بغنج مقزز، وقالت بصوت عال:

– هل كنت تعتقد ان الجنة ستسع كل هذا الجيش. لا شك ان عفواً عاماً قد صدر عن الجميع.

قلت:

– أسرعي... أسرعي... إدفعي... إدفعي

وهزت رأسها دون ان تسمعني. وبعد قليل، عندما ادركت انها لم تتحرك، لطمت ردفيها مرات عديدة، لكنها راحت تحركها على إيقاع مغر، وكأنها في حلبة رقص.

ومرة أخرى غطى الغبار كل شيء، وضاعت الوجوه والأجساد، وإرتفعت الأصوات. وبصعوبة كبيرة وصلت المرأة الى الكوة. كان رجل مخيف يحرس الكوة ويحدق الى الوجوه تحديقاً دقيقاً، فيرسل البعض الى الجهة اليسرى حيث دهليز طويل، والبعض الاخر الى الى الجهة اليمنى حيث دهليز طويل، لكنه مضاءٌ على نحو مغرٍ وجميل للغاية. وحدث فجأةً ضغط غير طبيعي. فإذا بي على ظهر المرأة، عندما أقتربنا تماماً من الكوة. فأنزلني الرجل المخيف الذي يحرس الكوة. وقال بصوت انبعث من بطنه. أو من أذنه:

– لا تكن حماراً يا هذا.

ثم تأملني طويلاً. وبعد قليل، وبحركة سريعة للغاية، دفعني الى الدهليز في الجهة اليسرى، وصرف المرأة الى الدهليز في الجهة اليمنى. كان الدهليز مظلماً. ولم البث ان وصلت الى ساحة واسعة، فرأيت جيشاً من الناس في أسمال قذرة مزرية يرثى لها. كانوا جميعاً مبعثرين هنا وهناك، بعضهم يحمل الواحاً خشبية غليظة على ظهره، وآخرون يسيرون خلف ثيران تمشي على إيقاع طبول خافتة، في حقول تبدو تارة

مخضرة، واخرى مجدبة، وكان منهم ايضاً من يديرون عجلة كبيرة، بل خرافية.

وأردت ان ارجع مرة أخرى الى الدهليز. لكن أحدهم باغتني بضربة عصا رفيعة على ظهري قائلاً:

– سر... سر.

وساقني كشاة الى صخرة كبيرة وصاح:

– إرفعها.

– لماذا؟

لكنه ضربني على قفاي بعنف وقال:

– هنا لا توجد كلمة لماذا. هنا يجب ان تقول نعم.

قلت:

– جئت مع إمرأة سمينة.

فقال بلهجة غريبة:

– ارفع... ارفع.

كانت الصخرة التي أراني اياها كبيرة لا يقوى نحيف مثلي أن يحملها. إلا انني مع ذلك حملتها، ورحت اترنح تحت ثقلها المرعب. ثم سقطت على مقربة ثلة من الناس كانوا يحفرون في أرض كلسية. وانطلق الصراخ والعويل والبكاء الغريب. وفجأةً وجدت نفسي محاطاً بجدار من اقذر الاشكال البشرية، لكن اكثرها جدارة بالحب.

وإنهال عليّ الرجل بعصاه حتى شعرت أن جسمي أخذ ينتفخ. وعندما نهضت رأيت في تلك اللحظة فقط أن طفلاً صغيراً تمددَّ تحت الصخرة. فصرخت:

– لا يمكن. لا يمكن. ما هذا؟ أين انا. أنا جئت مع إمرأة سمينة. لكنهم رفعوني برفق، واوقفوني في صف الجدار البشري، وقالوا:

– ارفع... ارفع.

وخيل إليّ أن طاحونة مخيفة كانت تدور. وراعني ان أجد ان هذا المكان لا يتغير، وان الناس يعملون بآلية جنونية خالية من اي تفكير أو حِس وأن وسط الساحة، قرب الطاحونة الاسطورية، ساعة هائلة، لكن واجهتها لا تحمل العقربين اللذين يقرآن الوقت.

وحين رأيت مكان الارقام رسوماً دقيقة الصنع. أنعمت فيها النظر. فبدل الرقم الواحد، مثلاً، كان هناك مجموعة من الرجال يمثلون العصر الحجري، وبدل الرقم اثنين مجموعة أخرى يمثل أفرادها العصر الحديدي، وبدل الرقم ثلاثة صورة تمثل أناساً ظرفاء بعض الشيء. أما الرقم الاخير فكان يمثل مجموعة من الناس مقوسي الظهور يسيرون ببطء تحت وابل من السياط الغليظة، كتلك التي تستعمل في تدجين الاسود.

أي رعب؟ أي جنون؟ هكذا رحت أردد لنفسي بصمت. وفكرت بالهرب مهما كلفني الأمر، ولخيبة أملي. وجدت ان المنطقة احيطت كلها بطبقة كثيفة من الأسلاك الشائكة. لكنني مع ذلك لم أيأس. وفكرت ان اصادق واحداً. أو أثنين من هؤلاء الذين لا ادري كم مضى من الوقت وانا أعمل معهم. إلا انني عجزت نهائياً عن إقناعهم. فلماذا كانوا يتهربون مني؟ كنت أبكي لهم، واعطف عليهم، وأحياناً أغني لهم، وبلغات عديدة.

واتضح لي أخيراً أنهم مصابون جميعاً بالصمم. وراعني إنني اكتشفت فيما بعد انهم عميان ايضاً. وذات مرة نقلت للعمل مع عدد من الرجال يمشون خلف الثيران في حقلٍ أجرب. كانوا يمسكون بذيول الثيران ويسيرون على إيقاع طبول خافتة. واخذت ذيل احد الثيران من يد شاب وسيم، لكنه وقع بعد قليل، فشجت آلة المحراث جانب بطنه. وعندما رفعته. وجدت يدي تسبح في أمعائه الحارة. لم يلتفت إليّ أحد وفكرت بهوس أن هذه كانت الجريمة الثانية التي ارتكبتها في هذا المكان. أهذه هي الجنة التي ظلت المرأة السمينة تتكلم عنها، طيلة تلك المسيرة، تحت ستار الغبار الكاكاوي؟

وهربت خلسةً نحو الجدار الشائك. لم يكن هذا المكان مظلماً، كما لم يكن مضيئاً. لكن كنت ارى بوضوح.

وبجهود لا استطيع وصفها، تخطيت الجدار الشائك، وركضت تاركاً ورائي لوحةً دامية، وما ان وصلت الى الدهليز واتجهت صوب الكوة، حتى اخذت، لخوفي، أسير ببطء... ووجدت الحارس يدقق في الوجوه تدقيقاً جيداً، ويصرف الكثيرين الى الجهة اليمنى... كان من المستحيل ان اقفز الى الجهة اليمنى، حيث سبقتني تلك المرأة السمينة، لولا ان هجوماً عنيفاً حدث فجأةً للكوة. وللمرة الاولى. وجدت نفسي اسبح في ضوء عجيني دبق. ثم غزت انفي الوف الروائح المهيجة. ومشيت مسافة قصيرة حتى بلغت باحة جميلة مليئة بأنواع المراجيح، وناس ظرفاء يسيرون في هدوء، وهم

يحدقون في واجهات المخازن، وبيوت الدعارة، والنساء النصف عاريات، وهن يرددن كلمات سريعة، والقوادين –سيل جارف من القوادين– وهم يمثلون مهزلة السقوط البشري.

إذا فقد الملحُ طعمهُ!

إتفقوا جميعاً على نفيي إلى مكان بعيد جداً عن المدينة، وقالوا لي إنهم جهزوا لي هناك بيتاً صغيراً، وسط صحراء قاحلة، فيه كل مقومات الحياة، وهذا القرار الكابوسي المفاجيء، والخطير جداً بحقي كإنسان، صعقني، وفكرت لساعات طويلة، وبهوس، كيف يستطيع الإنسان أن يعيش في الصحراء، وبعيداً عن الاخرين؟ وكلما فكرت بقرار نفيهم ، وبهذه الطريقة لا اعرف ماذا أُطلق عليها من الأسماء. إزدادت أعصابي توتراً وشعرت بالجنون الأكيد.

صحراء؟ لماذا؟ حسناً. لا بأس أن أنفى، لكن، في الاقل، بين اناس على شاكلتي. انا قبل كل شيء إنسان. ومن حقي ان اعيش في محيط بشري. لا اعرف كيف يتسنى لي ان اعرف نفسي، ماهيتي، وجودي في الصحراء؟ ومن غير انسان يستطيع ان يخبرني بعيوبي. ورذائلي، ويسقط عني كل ما هو غير إنساني. وقلت لنفسي:

– لا يمكن، لا يمكن. الإنسان بحاجة الى مرآة بشرية تعكس له ذاته. لذا كتبت لهم، وبسرعة، هذه الرسالة التي أكتفي أن أذكر منها هذه المقاطع القليلة.

«سادتي: أفهم ان الكلمة لا تذبل إلا حينما تطبع على الورق. لكن، أرجوكم ان تنبشوا فيها بعين ذكية لتجدوا مدى ما فيها من عنف. إن قراركم بنفيي يعني سوقي الى الموت البطيء، يعني تمزيقي برفق. وهو قرار لم يفكر فيه حتى المركي دو ساد. تعرفون من هو المركي دو ساد؟ فكروا بمصير إنسان يذبل في الصحراء. أوجه أنظاركم الى كلمة الصحراء. تعرفون ماذا يعني الرمل؟ الرمل يعني جفاف الجلد، وتشقق الشفاه، وضياع قوة البصر، بل هو يعني تجريد الإنسان من جميع الصفات الإنسانية. لا يمكنني ان اكون صديقاً مع الرمل. الرمل حيوان متوحش، لا يمكنني ان اصادقه أبداً... أنا لا أستجديكم قدر ما أشرح لكم حقيقة غاية في البساطة. الرمل – فكروا في هذهِ الكلمة...»

وأنتظرت بيأس قاتل ردهم على رسالتي. وأخيراً جاءني الردّ يقول بالحرف الواحد:

«يؤسفنا ان نقول ان قرارنا نهائي، إتخذناه بالإجماع».

يتمرد واحد منهم ضد هذا القرار الخطير المجحف بحق إنسان عادي؟ ثم لماذا مثل هذا القرار المريض؟ لا أعرف كيف إهتدوا الى فكرة بيت في وسط الصحراء. لا شك انهم مرضى. ولم يكن يخطر ببالي ابداً، أن بوسع الإنسان ان يفكر في يومٍ ما بمثل هذا الشيء المريع. ورغم رعب الفكرة، لم أستطع إلا أن أضحك، وأضحك من العقل الذي أبدع هذا الشيء الناشز. والمخيف. إلا انني لم أستطع الكفّ عن الكتابة لهم. فكتبت قائلاً:

«قد يتخذ الإنسان قراراً في حلمه حيث يختلط الوعي باللاوعي. لكن هذا لا يعني أنه عندما ينهض في الصباح يبدأ بتنفيذه فوراً، دون أن يعي أن هذا القرار كان من نسيج اللاوعي. فكروا قليلاً... الرمل. الرمل اللانهائي».

وأخيراً جاءني ثلاثة رجال طوال يخفون وجوههم وراء لثام داكن، وساقوني بتؤدة الى سيارة لا شكل لها، وانطلقوا بي بعيداً. ولم يتكلم معي واحد منهم طيلة المسافة التي لا ادري كم من الساعات الطويلة استغرقت. وسألتهم مرات عديدة وبلهجة مؤدبة جداً، أين يذهبون بي؟ كانوا يسلعون ويهزون برؤوسهم دون ان ينطقوا بكلمة.

وتوقفت السيارة فجأةً. فسارع الرجال الثلاثة الى النزول منها . وبعيداً عنها. تهامسوا فيما بينهم. ثم أشار احدهم الى نخلة طويلة عارية، يرقد تحتها إعرابي يمسك بلجام حصان بني. وأخذوا جميعاً يرسلون في إتجاهه أصواتاً حيوانية بأستمرار. فنهض الأعرابي بسرعة. وقفز على الحصان. وانطلق متوجهاً نحونا. وتكلم الرجال الثلاثة معه بإشارات سريعة. وبدا عليهم انهم تفاهموا تماماً. وبعد قليل، أنزلني الرجال الثلاثة ثم ركبوا السيارة وانطلقوا تاركينني مع الاعرابي وحصانه، كان هذا الأعرابي الصامت، بوجهه البرونزي الطويل اللاطبيعي يملؤني خوفاً، وعندما حدقت الى وجهه، وجدت ملامحه مخيفة، خصوصاً أنفه المنقاري الذي كانت نهايته تلامس شفته العليا التي اطبقت على شفته السفلى الغليظة، المشقوقة من الوسط.

وقفز الأعرابي فجأةً على ظهر حصانه بحركة سريعة للغاية، وأطلق بضعة أصوات حيوانية، فهمت منها أنه يريدني أن أقفز خلفه. وأعطاني يده الطويلة، ثم امسك ذراعي بأصابعه الغليظة، وسحبني بقوة إليه. وسرعان ما وجدتني خلفه على ظهر الإنسان العريض. وجرى الحصان خبباً عندما لطمه بقدمه العارية على بطنه. ولما لم أكن

متعوداً ركوب الخيل، رحت اضع باطن يدي على ظهر الحصان لأريح ظهري. وأُمسك بيدي الأخرى حزام الأعرابي. وبعد مسافة قلت للأعرابي:

– أين يقع هذا البيت؟

فأجابني بلهجة لا افهم منها شيئاً. وقلت:

– ألا تتكلم. ألا تتكلم العربية؟

فلم يحر جواباً، وراح يضرب الحصان على خاصرته فيجري بسرعة وسألته مرة أخرى:

– أوَلستَ عربياً؟ لماذا لا تتكلم؟

وأشتد بي التعب. فوضعت رأسي على ظهره كالطفل ورحت في تفكير مضطرب. وشعرت ان الدموع تنساب من عيني. في الحقيقة لم اكن ابكي ، وإنما كنت أضحك في أعماقي ضحكاً صامتاً، وأفكر بهذهِ المهزلة التي أعيشها. وسألت الأعرابي:

– أرجوك. أرجوك، أين تأخذني؟ أين نحن الآن؟ أين؟

فألتفت إليّ، ثم اخذ يحتضني بعينيه السوداوين الحادتين اللتين كانتا تعكسان براءة الصحراء ووحشيتها. فصحت به:

– لماذا لا تتكلم معي؟ ارجوك. لماذا؟

وأثار منظر وجهه الحصاني الناشز جداً في تكوينه ضحكي. وتابعت صائحاً:

– تكلم. تكلم معي. هيا. أين نذهب الآن؟ أين يقع هذا البيت؟ من أنت؟ من هم أولئك الرجال؟ قل. قل. تكلم.

وهنا رفع يده الطويلة وراح يرسم حركات سريعة في الهواء ويطلق أصواتاً حيوانية متتالية. قلت:

– ألا تتكلم؟ تكلم. قل لي اي شيء. أين نسير الآن؟ الم يتعب الحصان بعد؟ السير على الرمل شيء متعب؟

وضحك مرة أخرى دونما سبب. ايكون ذاك لأنني فهمته جيداً؟ لكنني أشرت الى فمي وقلت له، بحركة بطيئة، ما معناه ان يتكلم، ان يقول اي شيء.

وفتح لي فمه على وسعه. فرأيت ان داخله خالٍ من اللسان. فأقشعر بدني. وشعرت ان يداً وهمية إمتدت الى داخلي وراحت تقلب أمعائي. وبينما انا أحاول أن أتفادى

التقيؤ إذا به يلتفت إليّ من جديد ويفتح فمه ويطلق قهقهات مدوية. فقلت لنفسي بعد ان ارحت رأسي من جديد على ظهره:

– آه... لماذا هذا الشيء الكابوسي المرعب. إنه حتماً كابوس. سأفقد تفكيري، بل وجودي.

وتعب الحصان. وكنت أشعر ببطنه ينتفخ ويهبط بسرعة. وكنا قطعنا مسافة طويلة جداً. وفي الليل صادفنا ضوء قوي ينبعث من مكان بعيد.

وعندما وصلنا الى الضوء، ترجل الأعرابي وساعدني على النزول. وغاصت قدماي في الرمل، وسقطت على وجهي. وساعدني هو على النهوض، وساقني في هدوء الى البيت الذي كان يحتوي غرفة واحدة كبيرة بعض الشيء. ولما كنت تعباً جداً، اندسست في فراشي، ورحت في نومٍ عميق. وفي الصباح عندما فتحت عيني، دهشت وانا ارى اغطية نظيفة عليّ. وفي الزاوية رأيت برميلاً كبيراً فيه ماء عذب وثلاجة متوسطة الحجم وجدتها، عندما فتحت بابها الصغير ، حافلة بضروب المأكولات. وأدهشني أنني وجدت مجموعة لا بأس بها من الكتب الجيدة، وكمية من الأوراق، وبضع قناني حبر، وكومة من الملابس الداخلية في صندوق كبير.

إذن هنا يجب ان اعيش. لكن، الى متى؟

وفتحت باب البيت لألقي نظرة، فلم اجد سوى ملايين التلال الرملية، ولا شيء سوى الرمال على مد بصري.

وقلت لنفسي: ستكون لي ماهية رملية.

ثم عدت الى الغرفة وأخرجت بعض المأكل من الثلاجة. ومررت ببصري على الكتب فوجدتها شيقة للقراءة. وإذ كنت مبلبل الفكر جداً، توجهت نحو الباب ورحت أتأمل الرمل. ثم خرجت لأتمشى قليلاً، ومن الخارج وجدت منظر البيت يوحي ببؤس شديد. ثم رجعت الى الغرفة بعد ان أخذ الرمل يمتص حرارة الشمس. وفي الغرفة جلست على سريري، وسرعان ما اخذني نومٌ عميق. وعندما فتحت عيني، وجدت المساء قد تجمد بعض الشيء في الخارج، والرمل والأفق قد فقدا لونهما. وطلع الصباح، ثم عاد الى المساء، وظلت هذه حالهما يوماً بعد يوم. وخُيّل اليّ أنني في فيلم يحاول فيه المخرج أن يختصر الزمن.

وذات صباح زارني الأعرابي الذي اتى بي الى هنا على حصانه وسلمني في هدوء ورقة عليها هذه الكلمات:«هل انت بحاجة الى شيء»

ودعكت الورقة في يدي، وتبادلت مع الأعرابي نظرات طويلة. وحرت بماذا أخاطبه، الى ان قلت:

– من أعطاك هذه الورقة؟

فضحك ببلادة. وتذكرت انه أخرس. واخرجت ورقة صغيرة كتبت عليها:«ارجو ان تبعثوا لي بكلب صغير. أشكركم»

وسرعان ما أخذ الأعرابي الورقة وقفز على حصانه وغاب في قلب الصحراء، وفكرت طويلاً من يكون هذا الشخص، ومن الذي ارسله الى هنا، ولماذا؟ ثم ما هذه المهزلة؟ وبقيت اطوف في فراغ هذه الاسئلة التي لم اجد إلا علامات الأستفهام تتراقص أمامها.

وخرجت كالعادة لأتمشى قليلاً على الرمل. ثم عدت بعد قليل وأستلقيت بآلية على سريري. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى حلّ المساء، ثم الليل، ثم الصباح. وجاءني الأعرابي بعد بضعة أيام يحمل معه كلباً كبيراً –من النوع الذئبي– وسلمني ورقة صغيرة قرأت فيها الكلمات التالية:«أرسلنا لك كلباً ضخماً – أطلب إن اردت شيئاً»

وأنتظر الأعرابي طويلاً حتى صرفته بحركة سريعة. ثم دخلت غرفتي مع الكلب ورحت أداعب رأسه. وقدمت للكلب قطعة لحم من الثلاجة فالتهمها بسرعة، وبعد ان شرب قليلاً من الماء، قفز في هدوء على سريري. ونام معي في الليل معطياً ظهره لي. وفي الصباح نهض وراح بعيداً وتغوط في هدوء، ثم رجع الى الغرفة وراح يتمسح بي. واعطيته قطعة أخرى من اللحم فألتهمها ووضع رأسه الكبير بين ساقيّ وأخذ يلهث. لماذا أنسجم معي هذا الحيوان بهذه السرعة؟

ومضت لا ادري كم من الأيام. وذات يوم وجدت الكلب يقوم بحركات فهمت منها انه بدأ يشعر برغبة جنسية. فكان يقفز على رجلي، ويمرغ جسده على ساقي. فكنت الطمه على رأسه وأبعده، أحياناً بعنف. وكان يقفز بعيداً ويرفع رأسه ويسدد إليّ نظرات غريبة ومخيفة، ويطلق بعد قليل أصواتاً حزينة تكاد تكون إنسانية. وفي الليل كان يلف ساقه على ساقي ويلهث مما حملني على طرده وإجباره على إفتراش الأرض، لكنني في

الصباح كنت اجده متمدداً بجانبي.

وظل الأعرابي يزورني في فترات متقطعة. واخيراً جاءني بتابوت كبير. فوضعه وراء البيت ووقف أمامي مومئاً بيده. وعرفت انه يطلب مني ورقة. لكنني صرفته بسرعة، وادركت جيداً لماذا جاءني بالتابوت. ومضت الأيام مسرعة كأنها ساعات بلا دقائق. وذات يوم يئست جداً من وضعي اللاإنساني، ولم اعد اتحمل وحدتي الفارغة. ومما زاد في غثياني هذا الكلب الذي راح يزعجني بأصراره على القفز الى ساقي، وعويله المستمر، وإقلاقي طوال الليل في السرير. وقلت لنفسي، يجب ان تكون هناك نهاية لهذا الكابوس المريع. وفكرت في التابوت خلف البيت، فذهبت لأجلبه. وجلبته فعلاً. ولما فتحت غطاءهُ بجهد، رأيت فيه جثة شخص يعرفه كل إنسان في هذا العالم. ورفع الشخص جفنيه فجأةً، وقال بعد ان رسم تلك البسمة الحنون التي تمزق أقسى قلب:

– ماذا تفعل هنا؟

وداخ رأسي وانسدلت غشاوة ضبابية أمام عيني. وسمعته يسألني مرة ثانية.

– حقاً، ماذا تفعل هنا؟

فقلت وانا امط الكلمات:

– ارجوك. إبتسم. إبتسم. نسيت الابتسامة. اعني نسيت كيف يبتسم الناس بهذه الطريقة الحلوة. وظلّ يبتسم بحنو. ثم سألني من جديد:

– حقاً، ماذا تفعل هنا؟

قلت:

– هل تشعر بجوع؟

فأغمض جفنيه، وقال بصوتٍ هاديء جداً:

– أتعرف أين انت الآن؟

فهززت برأسي أن لا. وأردف بعد صمت قصير جداً:

– ألا تريد ان تتمدد هنا، الى جانبي؟

وتابع بعد صمت:

– معذرة انا لا استطيع ان اتحرك. المكان هنا فسيح. وبعد صمت قصير، أضاف بألحاح:

– تمدد... تمدد...

فقلت:

– شكراً. لكن هذا الشيء الشبيه بالصليب يغطي المكان كله.

فأغمض جفنيه وقال بصوت خافت:

– آه. نسيت انه صليبي، آسف.

واردف بعد صمت قصير:

– ألا تملك صليباً؟

فهززت برأسي أن لا. فأبتسم قليلاً وقال:

– إذن، إذن، ابحث عنه. لكن، هل تعرف ان قيمة هذا الصليب الذي احمله قد بطلت؟ ابحث لك عن صليب جديد.

فقلت وبشيء من الهوس:

– هل أعيد الغطاء؟

– نعم. لكن، ليتك تنقلني الى مكانٍ آخر.

– حسناً. حسناً.

وأعدت الغطاء، وعندما رفعت التابوت وجدته خفيفاً جداً. فحملته على ظهري وانطلقت عبر التلال الرملية.

أنا ذلك المسافر

إقتحم عيادتي ثلاثة رجال طوال، ودونما اي تقدير لحرية المكان، وبشيء كثير من الصلافة، وضع احدهم عصا غليظة على صدري وقال بلهجة جافة:

– يجب ان تغلق عيادتك.

فأنت المرأة التي كنت أُجري عليها الفحوص قبل ان يدخل الرجال غرفتي. وزحفت ببصرها نحوهم. كان من المستحيل ان افكر بشيء، وانا أحدق في وجوه الرجال الجامدة، إلا بكلمة لماذا. لكنني لم الفظ كلمة، لأن منظر عيونهم البومية والجو المفاجيء الذي خلقوه كان من الشذوذ والتوتر بحيث تصورتني في فيلم بوليسي. كان لا بد من إطلاق كلمة لماذا.

فأجابني أحدهم بأزدراء:

– لا داعي للكلام. يجب ان تغلق عيادتك الآن.

فقلت في لنفسي: هذا غير ممكن البتة، وأجبت:

– لكنني أعالج هذه السيدة. إنها تعاني ألماً حاداً في بطنها.

فدفعني أحدهم بمرفقه، ثم سحب المرأة من كتفها، بينما راح الآخر يساعده. ولم تفعل المرأة شيئاً، بل إكتفت بالتحديق اليهم بإضطراب غريب كمن أصيب بشلل مفاجيء. وصرخت:

– إنها تشكو من إلتهاب الزائدة... إنك تخضها... يجب ان تعالج بسرعة.

فأجابني:

– لقد كلفتنا عواطفك الإنسانية الكثير...

واتضح لي من لهجاتهم الجافة، وكلماتهم الشامتة، ان الكلام معهم ضرب من السخف. وأطفأ أحدهم الضوء، بينما سحبني الآخر ودفعني بحركة ساخرة الى الباب الرئيسي. وبحركات سريعة وبهلوانية أغلقوا الباب، وساقوني عبر الشارع الرئيسي للمدينة دون ان يثيروا اية جلبة.

كان من المحال ان اعرف، او أستنتج، اي شيء من هذا التصرف الأحمق، الذي كان

يعني لهم، ولا شك، حقيقة ما. فلولا «السرعة» التي تمت بها عملية سحبي من عيادتي، وسوقي الى الشارع، ومعاملة المرأة المريضة بقسوة، لما اكترثت لهم البتة. وبعد مسيرة خطوات في الشارع، رأيت المارة يتوقفون ليحدقوا إليّ والى الرجال الثلاثة بشيء من الإندهاش الطبيعي وكأننا رقع شاذة لدعاية جديدة. وسمعت، وأنا اسير برفق محاولاً جهدي أن أبدو طبيعياً للغاية، أن بعض المارّة يقولون للبعض:

– وأخيراً قبضوا عليه. هذا حسن. ولكنه لا يبدو شريراً. هل يعقل أنه... آه... كلا. عيناه مخيفتان...

ضاعت المرأة، او ربما أركبوها عربة، اما انا فساروا بي الى شارع صغير ضيق. ولما كانت الحماقة تبيح لنفسها كل شيء، لذا تصورت انهم سيقتلونني. فتوقفت وقلت:

– الى أين تأخذونني؟

– الى بيتك.

– بيتي؟ لماذا بيتي؟

لم تكن المسافة بعيدة من عيادتي الى بيتي. وادخلوني غرفة الجلوس، وقالوا أنني محتجز، ولا استطيع مبارحة بيتي مطلقاً.

قلتُ بأحتجاج:

– لكن هذا اكبر من سخف... هذا دجل.

ما ان انتهيت من الكلام. حتى ضربني أحدهم بالعصا بقوة، فسقطت على السجادة. ويبدو انهم تركوا بيتي، واغلقوا الباب الرئيسي. عندما افقت كان صداعي خفيفاً. وتهالكت على أقرب مقعد. وانتابتني حالة نفسية حاقدة، وشعرت بضرب من الغبن اللاإنساني.

وبعد حوالي ثلاث ساعات من إحتجازي، سمعت أصواتاً قوية ممطوطة تتقدم من بيتي. ولما أزحت الستار. رأيت حشداً من الناس متجمهرين تحت النافذة، يحملون لافتات كتبوا عليها كلمات لم استطع قراءتها جيداً في البدء. كانوا يزعقون مثل الوحوش متهمين إياي بشتى النعوت. وتراجعت الى الخلف بخطوات حقيرة. وأمررت باطن يدي على سترتي. ورأسي، واقحمتهما في جيب سترتي. قمت بهذه الأعمال بسرعة لأتاكد من أنني لم اكن في حلم. ثم ذرعت الغرفة مرات عديدة، ومسست

لاشعورياً الكثير من أشيائها وأنا أؤكد على نفسي بين لحظة وأخرى أنني لست في حلم. وبرزت وجوه الرجال الثلاثة أمام عيني، وشكل المرأة، وشكل الرجل الذي إنهال بالعصا على رأسي، وهذه الأصوات التي ما زالت تزعق مثل الغربان تحت نافذتي، وكلمات الإتهام. لقد كشفت هذه الاشياء عندي حقيقة واحدة، وهي ان هذه المدينة بلا قاعدة، ولا شيء فيها صحيح، بل ان كل شيء فيها مباح.

إقتربت من النافذة فرأيت عدداً كبيراً من الأفواه مفتوحة تخرج أصواتاً وتقذفها مثل الحجارة على نافذتي. وقرأت لافتة كانت حروفها بارزة: أترك المدينة ايها الغريب الدجال. وقرأت أخرى: أخرج من المدينة فوراً. نحن في غنى عن الإضطرابات التي خلقتها لنا... لن تهدأ المدينة إلا بخروجك. فتراجعت عبر النافذة، وقلت لنفسي: أما هذا جنون... ما الذي أصاب هؤلاء؟

وأخيراً إنقطع الزعيق. وأزحت الستارة برفق فرأيتهم يتفرقون مثل النمل المذعور. ولم يبق ثمة على الرصيف سوى صبي كان يحدق في إتجاه نافذتي بذِل. فتحت النافذة لأراه بوضوح. إبتسم لي، ونكس رأسه قليلاً... إنه الصبي الذي يعمل عندي، أشرت له بالمجيء.

عندما دخل غرفتي ادركت انهم لم يغلقوا الباب. سدد اليّ نظرات طويلة فاحصة، وظلّ يقضم شفته السفلى بعصبية. قال بصوته الناعم:

– لا توجد جرائد...

– لماذا؟

– لن أعمل بعد الآن.

– لماذا؟

– أخاف...

– لماذا؟ لماذا؟

فأغمض جفنه وبدا مثل أرنب اتعبه الجري. قال:

– جئت لأخبرك بأنني لن أعمل عندك بعد الآن.

– ولكن لماذا؟ ما هذا الهَوس في المدينة؟ لماذا يتظاهرون أمام بيتي؟ ماذا يريدون مني...

فرفع كتفه الواحدة، وقال:

– لا ادري...

إن هذا الصبي الذي يعمل عندي منذ ثلاثة أشهر كشف هو الآخر جوانب أخرى من مخاوفي، وتصورتني مضغةً في أفواه سكان المدينة... ولكن من أنا؟ ما الذي فعلته لأكون مضغة في الأفواه.

قلت للصبي:

– ألا يمكنك ان تشرح لي لماذا لا تريد ان تعمل عندي؟ وماذا كان أولئك الناس يريدون مني؟

فأهتز الصبي، وقال:

– أريد ان أخرج... إنني خائف.

– لماذا؟

– سيقتلون كل من يدخل بيتك.

– ألا تعرف لماذا؟

فأعطاني ظهره، وهرب مشحوناً بالخوف. وغاب الى الأبد. رباه لكم بدوا لي مثل الأشباح... ذهبت الى المغسلة وفتحت الصنبور. كان الماء منقطعاً. قلت:

– هل يمكن ان يكونوا قد قطعوا عني الماء؟ يبدو إنه يمكن... هذه المدينة تبيح لنفسها كل شيء.

وذهبت الى الباب الرئيسي فرأيت رجلاً. سألته إذا كان سيلان الماء قد إنقطع في الأنابيب، فأجابني بنعم.

تذكرت الصبي لا إرادياً... كان مرتعباً وكأنه رآني على حقيقتي في تلك اللحظة... ترى ماذا فهم عني؟ لماذا هددوه بالقتل؟

لم يسل الماء في الصنبور. وبشيء قليل من الجبن فكرت كيف سأواجه الموت بعد العطش.

رنَّ جرس الباب. قلت لنفسي قبل ان افتح الباب: هل بعد هذه الشماتة يزورني المرضى؟ ودخلت إمرأة عجوز ملفّعة بالسواد، وقالت دون ان تدخل غرفة جلوسي.

– لماذا لا تترك المدينة؟

بذلت جهوداً يائسة للسيطرة على نفسي وانا أحدق في أبشع وجه ذابل في حياتي. اوليست للصلافة حدود؟

أردفت بجرس نقيقي:

– لماذا لا تترك المدينة...

قلت لنفسي:

حبذا لو تخرج هذه الجيفة بسرعة قبل ان اخنقها.

وكررت من جديد:

– لماذا لاتترك المدينة.

قلت:

– لماذا؟

– لأنك منذ أن دخلتها زرعت فيها الخراب.

– انا؟ لماذا أنا...؟

– ألا تعرف ان المدينة ملتهبة.

– رباه.

ومطت العجوز عنقها مقربة عينيها من وجهي، وقالت:

– يبدو انك لا تكترث لكلامي. اسمع، لقد قطعوا حتى الماء عنها.

– من؟

فزعقت مثل غراب فزع:

– آه...من؟ من يدري من؟

وزعقت أنا ايضاً:

– ولكن ما دخلي في قطع الماء، والخراب. وظيفتي هي إنتشال أمثالك من المصابات بأنواع الأمراض... أيتها الجدة، هذه المعاملة غير شريفة.

فأطلقت صوتاً شبيهاً بالزغرودة، وقالت:

– إنك مرغت المدينة في...

وصرخت بها وهي على وشك أن تمط بقية الكلمات:

– هذه إتهامات سخيفة...

فقالت:

– أترك المدينة.

– لا ارى لماذا يجب ان أترك المدينة؟

ونهضت العجوز، وترنحت مثل خرقة، وقذفت ببصقة كبيرة في وجهي وقالت:

– إذا لم تخرج من المدينة مزقناك وحرقناك الى كومة دُخانٍ أسود.

ثم راحت تولول، وتردد مثل ببغاء: أخرج، أخرج، أخرج.

ومرة أخرى، بعد ان جلست. قلت لنفسي: أرجو ألا يكون هذا حلماً. وقفز وجه الصبي أمام عيني وهو يقضم شفته السفلى بخوف. وبعد لأي تجسدت بقية الوجوه، واللافتات، والأفواه التي كانت تؤكد لي أن الهدنة لا تعني السكينة.

وشعرت بأحتراق في وجهي. واسرعت الى المغسلة وفتحت الصنبور. لا يوجد ماء. قلت في نفسي: لكم يهتدي الإنسان بسهولة الى أفتك الطرق. إنه لشيء مخيف، ومرعب حقاً، ان تقع أنبل المثل بيد ثلة من السوقة والمقامرين.

ثم ذهبت الى النافذة، والقيت نظرة طويلة على الشارع الذي كان خالياً. ومن بعيد كان الظلام يضاجع المباني والأشجار بثقة مهيبة. وإذ عدت الى مكاني، شعرت بطمأنينة مشربة بقليل من الجبن. ثم نهضت بآلية، وذهبت الى المغسلة. كانت عادة غسل يدي كطبيب تسوقني الى المغسلة بإفراط. رأيت وجهي في المرآة. أخرجت طقم الحلاقة، وبسرعة وضعت موسي في الماكنة وجعلت أمررها على وجهي...

آلمني جلد وجهي كثيراً، وتقززت من صوت الموس وهي تذبح شعر وجهي الجاف. فتحت الصنبور. لم يكن ثمة قطرة ماء. عدت الى الحلاقة، وجعلت أمرر الماكنة على وجهي بسادية. شجت الموس أسفل سالفي. قلت لنفسي:

– لا يمكن ان تحلق وجهك بدون ماء.

وسال الدم على شكل خط مستقيم حتى تجمع تحت فكي، مثل ندبة قرمزية. كنت

اتصور القضية مجرد حلم. وتعمدت فشججت وجهي في مكان آخر. والمني إنغراس الموس في لحمي، ولكن بدرجة أقل من فكرة الأستسلام للألم.

جاء طرق خفيف على باب غرفتي. فتحت الباب قليلاً. ملأت سيدة جميلة فتحة الباب. إرتبكت عندما رأت وجهي المدمي.

قلت:

– سيدتي، آسف لأنني في حالة غير طبيعية. لا أستطيع معالجة أحد.

لكنها مرقت مثل هرة من فتحة الباب. ووقفت قبالتي.

قلت:

– أرجوكِ لا استطيع إستقبال المرضى... إنني منهمك.

رشقتني بنظرات سريعة لا مبالية، وقالت:

– أعتقد لا يوجد ماء في الصنبور...

– وفكرت هل هم يمارسون معي لعبة القط والفأر؟

لكنني تصنعت عدم الإستماع، فقالت:

– كيف يمكنك ان تحلق وجهك بدون ماء. لقد شججت وجهك. أجبتها وكأنني في غيبوبة:

– أعرف... أعرف...

– لماذا لا تمسح وجهك؟

– بعد قليل.

– لكن الدم يسيل بغزارة. من الأحسن ان تستعمل أي شيء لأيقافه...

– إنني عار هنا...

وجلست دون ان تستأذنني. كانت الصلافة العمود الفقري لكل شيء في هذه المدينة. قالت:

– هل تعتقد أنك في حالة نفسية مربكة؟

– ماذا تريدين؟

– هل تعتقد انه يمكننا التفاهم؟

– أعتقد نعم... تفضلي، ماذا تريدين؟

قالت بلهجة باردة وسريعة:

– حبذا لو تلف وجهك بالمنشفة.

– لماذا؟

وبحركة سريعة دعكت رأس أنفها الصغير، وقالت:

– إنك تعذب نفسك.

كنت أخاف كثيراً ألا أرتكب عملية قتل... ولكن من يدري. وصرخت بها:

– ماذا تريدين؟ إن هذا التصرف غير معقول... هل أنتِ مريضة؟ إذا كنتِ مريضة فأنا آسف... لا أستطيع معالجتك.

فقامت نصف قومة وقالت:

– آسفة، الكلام معك صعب.

– لكن يا سيدتي، انا لست في حالة جيدة.

فقالت:

– أعرف.

أعطيت ظهري للجدار، واردت بعد تحديق طويل في شعرها المرجل ترجيلاً جميلاً، أن اهجم عليها واسحبها من شعرها. إنني منذ الصباح لا ألاقي سوى أُناس أعطوا أنفسهم صلاحيات مطلقة في الكلام، والأتهام.

قالت ببرود:

–لماذا لا ترتاح؟

صرخت بها: من أنت؟ ماذا تريدين؟ لماذا تتدخلين في شؤوني؟ ثم لففت المنشفة على وجهي وقلت بغضب أبكم:

– ماذا تريدون من طبيبٍ يعمل من أجل إنتشالكم من الأمراض. إنكم تموتون مثل الذباب... لقد أنقذت حياة الكثيرين منكم... إن وظيفتي هنا هي ان انقذكم من الموت السريع.

وبعد هذا الكلام، صعقتني العاهرة وكأنها تتكلم عن اتفه موضوع:

– أريدك ان تترك المدينة... من الأحسن ان تتركها.

أقل ما يمكنني قوله في تلك اللحظة هو أنني شعرت بدوخان، وكأن يداً وهمية لوت عنقي... وما زلت في دهشة أين كانت تأتيني كل تلك السيطرة الغريبة على نفسي. وأزحت المنشفة عن وجهي وقلت لها في هدوء:

– ارجوكِ، أتركي غرفتي.

وأرادت ان تنهض، غير أنني أسرعت اليها، وضغطت على كتفها برفق، وهمست:

– أجلسي... أخبريني لماذا يجب ان اترك المدينة؟

– بصراحة، لانك جلبت لها الكثير من الشر.

وترنحت قليلاً، وبدافع لاإرادي قرصت فخذي لأتاكد من أنني لست في حلم. وقلت في نفسي: إنني بخير. وكانت المرأة جالسة في هدوء.

قالت:

– لقد إنقطع الماء.

– وهل انا الذي قطعته؟

– وحدثت إضطرابات كثيرة في المدينة.

– وما علاقتي؟

– ويقولون ان هذه المدينة لن تحصل على الماء إلا إذا خرجتَ منها.

– إن هذه الإدعاءات سخيفة ولا اريد ان اسمعها أبداً. لقد أنتهكتم حرمة عيادتي، وبيتي، وأهنتموني... وأذا كنتِ موفدة إقناعي بترك المدينة، أرجوا أن تعلمي أنني لن اتركها أبداً.

فنهضت، وبعجالة زررت معطفها الذي التفت به في تلك اللحظة، وقالت بسخرية:

– أعتقد ان إخراجك من المدينة عملٌ سهل. غير أننا رأينا أن تخرج منها بسلام.

فقلت مدمدماً: بسلام... بسلام... أي سلام هذا؟

وتركت غرفتي بخطوات قصيرة، ثم قالت قبل ان تصل الباب الرئيسي:

– يؤلمني أن أراك مداساً تحت الأحذية، إنك لو رفضت الخروج من المدينة دفعت الثمن غالياً...

ألهبتني كلماتها مثل سوط جاف – لقد تعودت ان ادفع أثماناً باهظة لمواقفي. وما إن خرجت، حتى ذهبت الى المغسلة وفتحت الصنبور. كان الماء منقطعاً. رفعت ماكنة الحلاقة، واخرجت منها الموس. حدقت في وجهي المحروق طويلاً. من المحتمل ان مليون حذاء لن يثير في جسمي ولو شرارة من الألم... ولكن الحذاء شيء مرعب وفوجئت بالمرأة تدخل غرفتي بسرعة وتقول أنها نست حقيبتها.

قلت لها:

– إنكِ تخيفينني بالأحذية.

وحالما ركزت بصرها عليّ، شججت صفحة وجهي بالموس، فأنبثق الدم بغزارة. قالت بصراخ مكتوم:

– إنك مجنون.

ثم خرجت مهرولة.

لففت وجهي بالمنشفة، واستلقيت على السرير... كان من المستحيل ان اتصور ما الذي حدث، أو سيحدث لي. آلمني وجهي قليلاً... لكنني، في لحظات، نسيت نفسي. ثم ثقل رأسي كثيراً. فأندسست في الفراش مؤكداً على لنفسي أن قليلاً من النوم ضروري.

وبعد دقائق قليلة من اندساسي في الفراش رنَّ جرس التلفون. رفعت السماعة:

– نعم... الو... الو...

فأجابني صوت يتهددني: أترك المدينة... أترك المدينة فوراً... نمهلك فرصة حتى منتصف الليل. يوجد قطار في الثانية عشرة ليلاً... جهز أمتعتك بسرعة واترك المدينة.

وأعدت السماعة الى مكانها ، وانا أردد: هل هذا ممكن؟ هذه معاملة غير شريفة.

ورنَّ جرس التلفون من جديد: الو... الو... الو... اسمع، لا يمكننا الأستمرار بدون ماء. ثمة مرضى يريدون الماء، تعقل وأترك المدينة.

فصرخت: ما هذه الفوضى. ترى كيف فقدتم عقولكم. ما الذي حدث لكم... هل انا الذي قطعت الماء؟

أجابني الصوت:

– الإضطرابات تهدد المدينة... الناس لا يجدون اي شيء سوى الفوضى. أخرج...

وزعقت مثل حيوان جريح: لكنني بريء... بريء... إنني طبيب شريف. إنني أعمل من أجلكم... فكروا...

فأجابني الصوت: إذا لم تترك المدينة في قطار الثانية عشر إقتحمنا بيتك وسحقناك تحت أحذيتنا أيها الطبيب الشريف.

أعدت السماعة الى مكانها. وأضطربت في الفراش الى درجة راح العرق يتصبب من جسمي بغزارة. وتوقف سيلان الدم من وجهي...

كانت ملابسي الداخلية مشبعة بالدم... ورنّ جرس التلفون أيضاً. ورفعت السماعة واعدتها بسرعة. ثم تركت السرير وذهبت الى غرفة جلوسي، ودلفت الى غرفة أخرى، ووجدتني أمام المرآة، كان وجهي بشعا لفرط ما تجمد عليه من دم. وسمعت رنين التلفون الحاد من جوف غرفة نومي . قلت لنفسي:

– لماذا لا تبارح المدينة؟

وصرخ صوت حاد في داخلي: ولماذا يجب ان تتركها. هل انت جبان الى هذه الدرجة؟ ولماذا يجب ان تتركها دونما سبب منطقي؟ هل انت كلب أجرب، هل انت ذبابة؟ لكنهم سيقتلونني. لقد اباحوا لأنفسهم كل شيء. وماذا استطيع ان افعل كفرد؟ يجب ان أخرج...

من جديد زعق صوت في داخلي أقوى من رنين التلفون: مُتّ ولا تخرج... لا تخرج... مجرد خروجك يعني إعدام نفسك بنفسك. أخرج... لن أخرج... لن أخرج.

وذهبت الى التلفون ورفعت السماعة وصرخت قبل ان استمع إليهم:

– لن اخرج... لن اخرج... لن اخرج. لقد انتهيت الى هذا القرار أيها الكلاب.

اجابني الصوت: لم يبق سوى نصف ساعة فقط.

فتركت السماعة. واندسست في الفراش. وبعد حوالي خمس دقائق تحطم زجاج نافذة غرفتي. جفلت، نهضت بسرعة... أصابني حجر على رأسي وشجهُ فوراً. غسل الدم عيني. وأقتربت من النافذة، فرأيت من خلال الدم الذي غطى عيني أناساً يحملون الفوانيس ويرددون: أخرج أيها البوم. أترك المدينة.

لكني صرخت لن أخرج.

كنتُ على وشك السقوط بعد الألم الذي أثارهُ إصطدام الحجر برأسي. قال أحدهم: إنه عنيد مثل البغل.

وتدفقوا أخيراً مثل جيش من الحشرات الى بيتي، وفي لحظات وجدتني هدفاً لألف عصا وراحت الأحذية تنهال ، دونما رحمة، على جسدي، وفي الصباح أفقتُ في القطار منفوخ الجسد، مغسولاً بالدم، وأنا أردد لنفسي: لن أخرج... لن أخرج...

توقف القطار في مدينة أخرى، وأسرع المسافرون في النزول وبجهدٍ كبير إلتفتُ حولي. لم أجد أية أمتعة معي. نهضت بتثاقل وخطوت صوب الباب، وبصعوبة بالغة وضعت قدمي اليمنى على رصيف المحطة. كان الناس يتوقفون من باب المحطة الى الخارج. أوقفني بضعة رجال وسحبوني داخل العربة. ولما إستفسرت، قالوا:

– لا يمكنك أن تنزل هنا.

– لماذا؟

– المدينة في غنى عن الإضطرابات.

قلت:

– أين عساني أذهب؟

فأكتفوا بحركة لا مبالية من أكتفاهم.

ثم تحرك القطار من جديد، وأنا أصيح أين.....

أيام مثقوبة

ليس ثمة أجمل وأدفأ من الرجوع الى المدينة التي عشت فيها بعد إغترابٍ طويل. لأن المدينة تكون قد ذابت في دمائك وأصبحت جزءاً من تاريخك الذي بوسعك أن تقرأه على شكل لوحات مبعثرة في كل مكان. ولكم يتكاثف هذا الدفء وذاك الجمال عندما ترجع الى علاقة حب قديمة أبت أن تموت وإن عملت على بترها الكبرياء تارةً، أو مُلابسات هامشية تارةً أخرى. فأن ترجع رغم كل الملابسات مساقاً بدفء الأفعال، أمرٌ يستحق أن يُصلب الإنسان من أجلهِ. وحين كنت أصمم على أن لا أرجع، كنتُ أجدني بغتةً أمام كلماتها المستجدية التي تحثني على أن أخوض التجربة من جديد.

هل ثمة مخلوق من أنصار وحدوية «الانا» في هذه الحياة؟أشك. لكنني لم أجد ضيراً في أن أخوض تجربة السعادة التي لم أرى سوى القلة يتمتعون بها في هذه الحياة.

كنتُ طوال الطريق أشبه شيء بطائر منتفض؟ أفكر فيها، وفي المدينة التي لم أعرف البتة كيف ستتلقاني، أو أتلقاها. لقد جدّدت رسالتها الأخيرة لي عواطف غريبة في داخلي. إن العواطف لا تكبت، أو تدفع، إلا بعواطف أخرى مناقضة لها. من جديد فكرت بالمدينة... أشك أن يكون ثمة إنسان واحد بلغ الخامسة عشرة ولم يُلقِ على نفسه هذا السؤال: ما الذي دفع أسلافنا لأختيار هذه القبعة الرملية للعيش؟ لم تكن صالحة للعيش، وإن أضحت الآن مدينة حقيقية، تقع على مقربة من واحات كبيرة مليئة بأشجار النخيل. ويندر أن يوجد ثمة مكان كئيب وجميل في هذه المدينة التي تشبه مجموعة من الألوان المُنسقة. كنت في أثناء إغترابي عنها وتطاحني مع نفسي أفكر بلياليها الصامتة الحزينة، وسمائها الدائمة التغير، وأسراب طيور المهاجرة التي تحط قرب الواحات وهي في طريقها الى عوالم مجهولة. أو أفكر بقوافل الغجر التي تعسكر في الربيع على بعد أمتار من الواحات وتملأ ليالي المدينة بأنين الناي، والأغاني الشاكية، وكأنها تنبعث من حناجر مشنوقة وهي تترنم بالترحال، وهوس التمرد على الجمود والعيش في مكانٍ ثابت، لقد تعلمت من هؤلاء الغجر أن الترحال حق، والهجرة حق.

كان الطريق الى المدينة مُملاً، لذا أخذت أخفف من إهتياجي، تارةً بقراءة رسالة لي، وتارة أخرى بقراءة دفتر مذكراتي الذي أحمله معي دوماً:

«عزيزي ن. لا أجد سوى كلمة إرجع... إرجع... لقد بدأتُ أحن كثيراً لسفرةٍ طويلة الى الواحات لسماع أغنية حزينة»

وقلت في نفسي: أجل، ثمة ذكريات بوسعا أن تصلب الأنسان الف مرة في الساعة. رباه، ما أقسى وأصعب الفرح الحقيقي:

«أقسمت أن أخرج لأستقبالك عند مدخل المدينة حافية القدمين غير عابئة بما يثيره منظري من عدم الحشمة... أولم تحب تلك الغجريات الحافيات الأقدام وهُنَّ يرقصن على الرمل؟»

ووضعت رأسي برفق على زجاج نافذة السيارة، وقلت في نفسي: يبدو أن ثمة ذكريات تأبى مع مضي الزمن إلا أن تتشبث بكل أبعادها وتفرض وجودها بصفاء غريب.

فها أنذا أتذكر بوضوح منظر الغجريات وهُنَّ يرقصن بأقدام حافية، وهي، لفرط إنتشائها، تلتصق بي مثل طفل صغير خائف. وذات مرّة قالت، بصدق إمرأة عاشقة، إنها تحب أن توشم كاحليها مثل الغجريات.

«رفضت الحكومة مؤخراً مجيء الغجر الى المدينة بحجة إنهم يشغلون الناس ويلهونهم عن أعمالهم. لكن ثمة معنى للربيع في مدينتنا بدون الغجر؟ لذا إحتجت الجماهير لدى الحكومة وأرغمتها على السماح لهم بالمجيء كالعادة. ومنذ أسبوع عسكر الغجر قرب الواحات، لذا أترجاك أن ترجع...»

لم يبق سوى مسافة رُبع ساعة للوصول الى المدينة، عندما نبهني السائق الى جماعة من الرجال والنساء والأطفال يسيرون ببطء على تلال الرمل وهم يحملون أمتعة منزلية مختلفة على أكتافهم. قلت للسائق:

– غجر؟

فأجاب بأندهاش:

– أشكُ. كلا. إنهم من أهال المدينة.

– أولَسنا في الربيع؟ إنهم غجر.

– ليسوا غجراً.

وفي هذه الأثناء أقبل البعض منهم في إتجاه السيارة، تاركين أثقالهم على الأرض. وأقترب مني رجلٌ قصير وقال بصوتٍ مخنوق:

– أيها السيد، لا تذهب الى المدينة.

وأزدرد ريقه بصعوبة، وتابع قائلاً:

– لن يسمحوا لكم بالدخول اليها.

فقلت:

– لماذا؟

– لا أحد يدري ماذا حدث. ضربوا سوراً كثيفاً من الأسلاك الشائكة حول المدينة.

– من؟ من؟

– أناس غُرباء لا أحد يعرف من أين جاءوا. إنهم طوال، وأشبه شيء بالأشباح. آه، ما أغرب وجوههم!

– وكيف خرجتم؟

– نعجب كيف سمحوا لنا بالخروج.

– منذ متى حدث ذلك الشيء؟

– قبل أمس.

وبعد صمت قصير إبتعد الرجل عن السيارة بخطوات قصيرة وراح يوميء الى الأخرين ويحثهم على السير كقطيع صغير من الغنم. ثم قال محذراً إياي:

– حبذا لو أنك لا تراهم! إرجع...

كان الصغار يحدقون الى كل شيء بخوف وهم يسيرون على تلال الرمل. فقلت في نفسي: الى أين يذهب هؤلاء التعساء؟ قد يضيعون في الصحراء.

وإنطلقت السيارة الى المدينة. وأخذت أفكر طويلاً بكلمات الرجل التي جعلتني أحس بما يشبه خيبة الأمل. لكن من يدري؟

كان الوقت مساءاً عندما وصلت الى مدخل المدينة، فرأيتها فعلاً، محاطة بسور كثيف من الأسلاك الشائكة، ووراءه أناس غرباء طوال القامة يحملون عصياً غليظة مدببة الرؤوس يدفعون بها الأهالي، دونما تمييز. كانت المدينة ملتهبة، وأشبه ما يكون بخلية

نحل. كان آلاف النساء يركضن هنا وهناك، بينما كان الرجال يقفزون من فوق المباني الى الساحات، والصغار يصرخون. كنتُ الوحيد خارج الأسلاك، لذلك تسنى لي أن أرى المدينة كما وصفت. وعبثاً رحت أصرخ محاولاً أن ألفت نظر أحد أولئك الرجال الطوال ليسمح لي بالدخول أو بالكلام معه.

وقلت في نفسي: إذن لن أجدها. وهل إذا وجدتها تستطيع تشخيصي؟

وراحت الجماهير تتدفق نحو الساحة. وكنت بين الحين والآخر، أسمع صراخ خرافي مهول تهتز له الأرض فتقفز الجماهير ككرات مطاطية. كان كل شيء مغلفاً بالرعب. وعبثاً حاولت، لفترة من الزمن، أن أرى وجه أحد أولئك الرجال، وفجأةً هجم جمهور الناس صوب رجلٍ منهم، فأنحنى الرجل ورفع ملء قبضته رملاً وسكبه عليهم مثل زوبعة سريعة. فقلت في نفسي:

– ما أقدر قبضة هذا الإنسان؟ ما هذا الهول الذي أصاب المدينة؟ لا شك إنها ستمحى في وقتٍ قصير.

وسرتُ مسافة مئة متر أو أكثر الى الجهة اليمنى من المدينة فرأيت المنظر نفسه. فوليتُ هارباً بمحاذاة السور وأنا أصرخ، والمدينة تصرخ، والجماهير تصرخ. وبكثير من الأسى تذكرت ليالي هذه المدينة في مثل هذا الموسم الجميل. رباه، ما الذي حدث، ومن يكون هؤلاء الرجال، ولماذا إغتصاب هذه المدينة، دون جميع المدن الأخرى في العالم، بمثل هذه الكارثة؟

وإبتعدت كثيراً عن مدخل المدينة، وإذا بإمرأة تتسلل بصمت من الجدار البشري وتقترب بمنتهى الحذر من السور. كانت محترقة الملابس، حافية القدمين، تحدق نحوي بعيون زائغة من خلال الأسلاك وترفع بيد مرتعشة خصلة من شعرها المنفوش لتكشف عن وجه مدمى وزحفت بنظرات قصيرة حتى صارت قبالتي، فقالت بصوتٍ جاف:

– أين ذهبوا؟

– من؟

وأطلقت زفرات متتالية. ثم سقطت على الأرض. غير أنها عادت فنهضت بسرعة وصاحت بي:

– أين ذهبوا!

– من، من تقصدين؟

– لم ترّ أحداً يخرج؟

– رأيتهم...

كان جسدها يرتجف وراء الأسلاك كطيرٍ مُبلل. وأتسعت حدقتا عيناها الرطبتين وهي تلح بالسؤال:

– أين ذهبوا؟

– ساروا بأمتداد الطريق المؤدي الى مكان ما.

ووضعت باطن يديها على الأسلاك وراحت تضغط عليها بقوة وتصيح:

– وماذا تفعل أنت هنا؟

– وصلت لتوي... ماذا حدث للمدينة؟

فنكست رأسها ببطء وأخذت تردد بهمس قائلةً: حقاً ما الذي حدث؟

وفي هذه الأثناء خيم ظلام فحمي على المدينة، وبدت للحظات كأنها ذابت. فغمغم الرجل الذي وقف منذ هُنيهة بقرب المرأة قائلاً:

– لن ينتهي الليل يا عزيزتي...

وفجأةً أضيئت المدينة ببروجكترات كبيرة، فبدت كآلاف المكعبات الملونة. وقال الرجل:

– إنهم يُعروننا هنا حتى في الليل.

وتقدم برفق من المرأة ووضع يده على كتفها وقال:

– عزيزتي، لن نستطيع الهروب.

فأجابت المرأة دون أن ترفع رأسها:

– إبتعد عني... إبتعد...

وتقدم الرجل حتى صار بجانبها وقال بلهجة إستجداء:

– لنذهب الى الواحات. قد نجد مخبأ في أحد مُخيمات الغجر!

– أتركني... أتركني.

فسألت المرأة:

– من هو؟

– يدعي إنه زوجي.

– وهل هو حقاً زوجكِ؟

– لا أدري. إنه يريد أن يأخذني الى الواحات. رباه أنظر الى المدينة.

وإحتضن الرجل المرأة بين يديه وراح يصرخ:

– أقسم أنها زوجتي. ما زلت أحبها. أصبنا بالنسيان.

وصرخت المرأة بصوتٍ مخنوق.

– أتركني... لا تصرخ... لا تصرخ.

– بل سأصرخ، وسأسلم نفسي الى هؤلاء الأشباح إذا رفضت المجيء، أو سأشنق نفسي .

ورفعت المرأة يدها وصفعت الرجل، ثم ولت هاربة، بينما ظل الرجل واقفاً أمامي. ولم يلبث إن أقترب من الأسلاك وقال لي:

– لكنها زوجتي. إن الأشباح مسحوا ذاكرتها وذاكرتي. والتفتَ يميناً ويساراً، ثم هرب هو الآخر بعيداً.

ورأتني إمرأة عجوز كانت تهرب دونما هدف. فقالت من بعيد بصوتٍ راجف:

– أنت، إذن، في الجانب الآخر من الجنة!

قلت:

– الجنة؟

– لماذا لا تهرب. إهرب!

وبعد صمتٍ قصير قالت:

– هل يمكنك أن تنقذني؟

وفي لحظات جاءت إمرأة أخرى. كانت في حالة أزرى بكثير من تلك التي جاءت قبلها. كان جسمها عارياً حتى الخصر. وعليه آثار كدمات بدت تحت الضوء الحاد بلون البنفسج. وعندما رأتني وضعت باطن يدهيا على نهديها وقالت بصوتٍ ميت:

– إنه رجل...

ثم ذهبت خلف المرأة العجوز، وهي تخفي جسدها وتقول للمرأة:

– إسأليه كيف خرج.

– لا تفسدي عليّ كل شيء. إذهبي من هنا. ربما يساعدني في الخروج.

كان صراخ الجماهير يزداد ويتكاتف. وقالت لي المرأة العارية:

– هل تبحث عن أحد؟

– أوه... لا فائدة من البحث عنها في هذا الزحام.

– لابأس . قل لي. لعلني أعرفها.

– الآنسة م...

وما أن لفظت أسمها حتى أطلقت صرخة مكتومة وأقتربت من السور، وباطن يديها ما زال على نهديها.

– ن... آه... إخترت لمجيئك أتعس الأوقات. إرجع، إرجع.

كانت كلمة إرجع في رسالتهال تعني حياةً جديدة لي ولها، أما الآن فتعني إغتراباً جديداً. وهمست منتزعاً أسمها من بين شفتي بقسر. فأنتفضت وقالت:

– ن... ها أنت تراني بعريي في هذا الليل المضاء، ومن وراء هذه الأسلاك. نعم كان يجب ان تراني بهذا العري، لكن ليس في مثل هذا الجو... اواه!

وأقشعر بدني، وفي لحظات صرت نهباً لمشاعر مجنونة، وتصورت أن هذا العالم يبيح كل شيء. وصرختُ وأنا في ذروة إهتياجي:

– لا... لا... لا يمكن أن يوجد مثل هذا العهر في العالم.

وسقطت لا شعورياً على الأسلاك، فأنجرح وجهي وصدري. وصرخت هي الأخرى:

– كلا... كلا... إذهب. لا تعذب نفسك. المدينة ملتهبة. إرجع.

وإنتزعتُ نفسي من الأسلاك، هارباً بإمتداد السور، أبحث بإصرار عن منفذ لدخول المدينة، ولحقتني هي الأخرى من وراء الأسلاك، كان منظر جسدها مؤلماً، بنهديها السائبين اللذين كانا يهتزان وكأنهما يدينان العالم، وفيما نحن نركض بشوق يفيض بالألم والعذاب، قالت:

– الى أين تركض؟

– لا بد من أن أجد منفذاً للدخول.

– مستحيل... لقد أحكموا الطوق.

– وحوش.

– أكثر من وحوش!

كنا نجري في بحرٍ من الضوء مثل الف رغبة متفجرة. قلت:

– إسمعي. سألقي لكِ سترتي. إن منظركِ مزرٍ.

– لا تيأس ثمة نساء عاريات تماماً في وسط المدينة... إن الأشباح أباحوا كل شيء. كل شيء.

وخلعت سترتي، فيما أنا أجري، وألقيتها بقوة الى الجانب الآخر من الأسلاك، فألتقطها وإرتدتها بعجالة. ومع إنها زررتها، غير أن نهديها كانا يندلقان من الفتحة.

قالت:

– لا تهرب. قف.

– إنني لا أهرب، وإنما أبحث عن منفذ.

– لقد أحكموا الطوق.

– لماذا؟رباه، لماذا؟

– لا أحد يدري. الموت فظيع في وسط المدينة.

– والصغار... ماذا حدث لهم؟

– عجنوا تحت الأقدام.

– اواه...

– لا تركض... إنني منخورة الجسد... لا تركض.

– هل مات والدكِ؟

– كلا، صنع تابوتاً لنفسه ودخل فيه ورجاني أن أغلقه عليه.

– وهل أغلقته فعلاً؟

– كان يجب عليّ أن أفعل. راح في الآونة الأخيرة يبحث عن موتٍ سهل.

وتوقفت عن الجري، فتوقفت هي أيضاً. وتبادلنا نظرات عميقة، بصمت حزين. وبدت

لي أشبه ما يكون بلوحة مخيفة. وبلهفة وحقد أبكمين وددتُ لو أحتضن رأسها. ومددت يدي من خلال الأسلاك الى وجهها، لكن الأسلاك إلتفت حولها، كان من المستحيل أن أتجاوز الأسلاك. وسحبت يدي بقوة، فتمزق بعضها. ثم أطلقت صرخة مكتومة:

– إنك تعذب نفسك.

وأخذت تبكي وتلطم وجهها. فقلت:

– ماذا جرى؟

– لا أدري، لا أدري، ن، لقد ضيعت عليّ سنين طويلة!

قلت:

– ألا تعتقدين أن ثمة متسع من الوقت؟

– هنا متسع من الوقت للموت فقط... الموت.

وبدأت أركض من جديد بأتجاه الأسلاك، وأخذت هي أيضاً تركض قبالتي، قالت:

– هل تصر على أن تضيع الوقت في الجري؟ ألم تجرِ طويلا بعد؟

– يجب أن أدخل المدينة.

ووصلت الى مساحة كبيرة خالية. كان الضوء خفيفاً. ومن بعيد أقبلت عربة مكشوفة من تلك التي تجرها الأبقار، وفيها عدد من الرجال العراة وهم يحدقون بعيداً بنظرات حاقدة، كان صراخ الجماهير يدوي على شكل موجات متقطعة. ونادت لي بهمس:

– قف.

– لماذا؟

– إذا وقع بصرهم عليّ إنتهيت.

قلت بذهول.

– من هؤلاء الذين في العربة؟

– قتلة!

كانت بقرة ضخمة تسحب العربة بيأس في إتجاه ضوء أحمر خافت. وكلما إقتربت من الضوء، بدت وجوه الرجال أكثر صرامة وحقداً. وألقت «م» نفسها على الأرض وتكورت كالقنفذ، وهمست:

– لا تنظر.

وبعد قليل جاء رجلٌ طويل وأخذ ينهال على رؤوس الأخرين بالعصي فتساقطوا، الواحد فوق الآخر.

قالت بتشنج:

– سقطوا!

قلت.

– ياللهول!

وظلت العربة في مكانها، بينما راح الرجل الطويل يسير بسرعة الى وسط المدينة. كان منظر البقرة غريباً تحت الضوء الأحمر وهي تهزّ ذيلها وتحدق في الجثث وكأنها تستمرىء المنظر. وبعد لحظات حدقت في الفراغ طويلاً، ثم تحركت بالعربة الخالية بعيداً، تاركةً جثث الرجال العراة في ساحة تحت الضوء أشبه الشيء بكتل ملونة.

وهمست.

– إنتهى كل شيء.

– رباه. أرجوك، أتركيني... أتركيني!

– مستحيل.

– يجب أن أجد منفذاً للدخول. إذهبي... إذهبي.

– لكنك لن تجد منفذاً...

فلم أصدق. وجريت صوب الواحات بكل ما لدي من طاقة. وعند الواحات كانت المنطقة مظلمة إلا من خيوط صغيرة من أضواء بعيدة. وبعد بحث طويل يائس عثرتُ على منفذ صغير ولجته بعد أن شجت الأسلاك ظهري وعنقي. وأدركت أنني دخلت منطقة الموت. والقيتُ رأسي على الرمل البارد ورحت أستمع الى صراخ الجماهير الذي كان يزداد بأستمرار. فكرت ان لا بد من الذهاب الى وسط المدينة. وإذ كنت قد غادرتها منذ أمدٍ طويل، فأنني صرت أجهل أي الطرق أسلك أليها. وفيما أنا أفكر، وإذا ب«م» تقف أمامي مثل شبح صغير. وإنسل نهداها من فتحة سترتي، فرأيتهما يلمعان من العرق الغزير الذي غسل جسدها طوال الجري.

وهمست بجرس حزين:

– لنهرب!

– إلى أين؟

– ألم ترّ العربة، ألم تر الرجال فيها؟ كيف لو ترى ما يحدث وسط المدينة؟ هيا نخرج من المكان الذي دخلت منه!

وركعت قبالتها. كان منظرنا شاذاً وجميلاً تحت سماء مدينتنا المشهورة بتغيّراتها المستمرة. وفجّرت هذه التعسة في داخلي براكين من الغضب، والحب، والسعادة. ولم تعد تستحي من عريها. وفجأةً ألقت نفسها عليّ وقالت:–ن، لم تعد الواحات كما كانت في السابق. لقد هجر الغجر المدينة. إنه ربيع مشؤوم. لنخرج.

فأجبتها:

– سنخرج، لكنني أريد أن ألقي نظرة الى وسط المدينة.

– لكنها ستشوه بقايا الأشياء عندك... إسمع، لم يبق الكثير للصباح... لنخرج.

– والمدينة...!

– ما علاقتنا بها؟

– لا تكفري! آه، والصغار؟ والذكريات؟

– نلد سواهم، نصنع ذكريات أخرى.

– والدكِ في التابوت!

– مات الآن.

– والجثث المزروعة؟

– ماذا بوسعنا ان نفعل بها؟

– أنانية!

– عانيت الكثير.

– من أجل من؟

– من أجلك... من أجل نفسي.

وزعقت بقوة لاطمةً نهديها– من أجل هاتين القطعتين من الحياة الجافة.

وإحتضنتها بين ذراعي قائلاً:

– إذن، من أجلكِ يجب أن أرى وسط المدينة. أخبريني. كيف أجد طريقي إليها.

ونهضت ممسكة بذراعي. ورأيت حلمتي نهديها تلمسان التراب من فتحة سترتي، قلت:

– إسمعي، كيف أجد طريقي؟ لا بد لي من أن أذهب الى وسط المدينة. لا أريد أن أحمل ضميراً دنساً في المستقبل.

وتركت يدي مشيرةً الى طريق ترابي، فسلكتها راكضاً. ومع خيوط الصباح بلغت وسط المدينة فإذا بجدارٍ بشري على شكل دائرة يحيط بآلة ضخمة مخيفة تشبه الأخطبوط. وعلمت الجماهير أضرمت فيها النار، فيما راح الرجال الطوال، وقد قصروا مثل الأقزام، يدخلون في النار بعد ان يصلّوا طويلاً أمام الآلة.

وسألت أحدهم:

– أهي التي خلقت الدمار في المدينة؟

– آه، يا عزيزي. أين كنت إذن؟ هذه هي الآلة.

– ومن أين جاء الرجال الطوال؟

– خرجوا منها، وعاثوا في المدينة كل هذا الفساد.

– ألا تعرفون من أين جاءت؟

– نزلت فجأة، كالصاعقة، وراحت تضرب هذا الجدار من الأسلاك الشائكة، ثم أخذت تفتك بالناس.

كانت الآلة تتحول مع الدقائق الى كومة رماد.

وقال أحدهم:

– ياللسرعة التي ماتت بها.

قال الآخر:

– عرفنا مصدر قوتها.

وتساءلتُ أنا:

– حقاً، أين كان مصدر قوتها؟

– لا أدري الجماهير وجدتها.

وطلع الصباح على المدينة وقد أصابها الدمار. فأخذنا نعمل جميعاً في رفع الأنقاض ودفن الجثث. وبعد ثلاثة أسابيع رحت أبحث عن «م» فعلمت أنها هربت مع أول قافلة من الغجر، فأنطلقت أبحث عنها.

السفرة الأخيرة في القطار

كان يعرف هو أيضاً، أنه سينطفىء عما قريب كما تنطفىء الشمعة في الهواء. وكان يعرف كذلك أن كلماته المتقطعة والمغلفة بحنانٍ فوار تنطفىء، هي الأخرى، وفي ذلك الحيّز الخانق. لم ينقطع الغبار من الوقوع علينا، ولم نكن نأمل بإنقطاعه. إنها لحقيقة دامية أن يعرف الإنسان، وبوعي، أنه سيضاجع الموت. لم أزدر حبّه العميق لحياة، لأنني لم أكن أقل شوقاً منه إليها، غير أنني أستسلمت لتفاهة وجودي. قد يضحك الإنسان وهو يواجه الموت. وفعلاً، كنت أضحك كلما خاطبني بصوته الحزين الذي كان في طريقه الى الذبول، قائلاً:

– من أجل قليل من الأوكسجين.

فقلت بأختناق:

– ما أسخف أن يموت الإنسان من أجل قليل من الأوكسجين.

وبعد صمت قصير ، قال:

– لنكف عن الكلام، إذا سمحت.

– لماذا؟

– الكاربون يقتل الأوكسجين.

وقال بعد صمتٍ طويل:

– من كان يتصور أننا سنكون ضحية أوكسجين؟

– الإنسان دوماً ضحية سخيفة.

– هل هناك حياة في الخارج؟

– أما زلت تعيش على الأمل؟

لحنٌ في قاعٍ أزرق

العقيدة الوحيدة التي تستحق الإيمان بها هي أن لا عقيدة هنالك. ففي الوقت الذي أقف هنا، فأنني أسقط الى أسفل تلك الهاوية: أسفلها، أسفلها، وكلنا ساقطون فيها.

جورج برنارد شو

إلى الآن ما زلت أعيش اتون المعركة. ولا أدري أهي معركة سقوط أم إنتصار. لا فرق، المهم هو أنني أعجز من أن أستطيع أن أعرف إذا كان ذهني هو الذي إخترعها، أم إنها معركة حقيقية، كل ما أعرفه أن بوسع إدراكي الفطري ووعيي أن يخلقا كل شيء. كل الأشياء كانت توحي بأنها حقيقية، لكنها كانت ملطخة بشيء من الضبابية. كنت ألمسها، وأحسها، وأصطدم بها في نضالي المستمر وأنا أنحدر من تلك الكرة الأسطوانية على درج حلزوني عريض. الى أين كان يؤدي ذلك الدرج الذي يركض أمامي دون أن يكون له نهاية؟ كان يتبعني ضوء برتقالي باهت من فانوس مختنق. وكنت أركض بسرعة جنونية لأصل الى القاع. هل ثمة قاع في هذا الوجود؟ هكذا كنت أسأل نفسي بأستمرار. ثم لماذا لا ينتهي هذا الدرج الى أي شيء: الى التراب، الى البحر، الى الطين، أو حتى الى مستنقع آسن. الى متى أنزل هذا الدرج الذي قطعت منه الآلاف حتى الآن؟ لِمَ لَم أرى بعد شيئاً، ولم أسمع سوى ضربات حذائي المتتالية على خشب الدرج الرطب؟

كنت أبداً، وبجنون أتساءَل طيلة إنحداري: هل أتدحرج الى السقوط؟ لا شيء كالسقوط في هذه الحياة الوقحة كان يؤلمني. ولم أقذف هذه الأسطوانة اللولبية المظلمة إلا لأجرب إرادتي، وصعودي، وربما سقوطي أيضاً. ومنذ وقت طويل أنا أهبط بأستمرار وبسرعة غريبة مشوبة بنشوة مؤذية تلسعني لسعاً كاوياً. ماذا لو سقطت الى الأبد؟

وإذا كانت كل الأزمات تؤدي الى الجمال، فأزمة السقوط عندي تؤدي الى الصلب.

وكنت أخشى، رغم شعوري بجمال الإنحدار نحو مجهولٍ شاذ، أن أقع وأتلوى، ثم أجفل من لسعات شيء مرعب كنت أسميه الندم.

ولأول مرة أحسست أن جداراً دائرياً يحيط بالدرج السائغ. وكان الجدار مغلفاً بطبقة غير طبيعية من البخار، وبلزوجة مقززة. وكنت كلما استندت اليه للراحة المؤقتة، زدت إلتصاقاً به وحاجة الى قوة كبيرة تنزعني عنه، وكنت لا أسمع في الفراغ الأصم سوى أنفاسي اللاهثة. وقلت لنفسي وأنا نهب المشاعر المختلطة.

– العالم عدوي الوحيد، ويجب أن أنزل معه الى المعركة وحيداً. آه، لو أنه يكشف عن وجهه مرة واحدة لأصفعه. هذا السخيف يعرف أنني لن أشعر بسعادة إلا عندما أراه يتدحرج أمامي كالفأر. أوَليست السعادة هي في أن يرى الإنسان قواه تنمو.

وبينما كنت أردد لنفسي هذه الكلمات كمن يتلو صلاة، أنقذف فجأةً ضوء أحمر حاد، فغلف المهبط الحلزوني بلون الدم المتخثر. وشعرت بتحدٍ سافر إنتفض في داخلي. لكنني أكدت لنفسي كمن يهذي أن لا شيء يفضي الى القاع.

وصرخت أخيراً بقوة، وبحقدٍ أبكم:

– من هناك؟ تكلم، قل. إنطق.

فلم يرد عليّ أحد. وأردت أن أتحرك، غير أنني وجدت نفسي مشدوداً بقوة الى الجدار اللزج. وبذلت جهوداً كبيرة للأفلات، وأنا أسمع وراء ظهري صوتاً كصوت إنتزاع قطعة خشب من فوق شيء دبق. ثم سمعت جوقة تردد هذه الأغنية:

الحياة هي إنتظارٌ طويل

ومملّ لشيء لن يحدث

إن من يشتهي دون أن يفعل

ينتج الطاعون... الطاعون... الطاعون...

وإبتعدت الجوقة وهي تردد كلمة الطاعون بجرس رفيع ومؤثر للغاية. وعندما إبتعدت الجوقة نهائياً، ضحكت بقوة. ولأول مرة في حياتي شعرت بأصالة الضحك: يداي ضحكتا، رأسي ضحك، جسمي كله ضحك. وتصورت إن الضوء، هو الآخر، ضحك معي. وبأختفاء كلمة الطاعون، إختفى الضوء الأحمر، وظل الضوء البرتقالي في مكانه

ليعيد الكآبة والوجوم والعتمة الى المكان. وبعد قليل رددت محاولاً تقليد الجوقة:

إن من يشتهي دون أن يفعل

ينتج الطاعون... الطاعون... الطاعون.

ومرة أخرى ضحكت. وهذه المرة لا بدافع النشوة، وإنما بدافع من سخرية كاوية من صوتي القبيح الذي كان يشبه خوار ثور ضائع في أزقة المدينة. وقلت لنفسي:

– ترى، من كانوا؟ لماذا غنوا؟ الى أي شيء قصدوا في ترديد تلك الأغنية الغامضة؟ أين ذهبوا؟ لماذا إختفوا؟

وصرخت خلفهم:

– أين أنتم، أيها المنشدون، أيها المختفون، أيتها الأشباح المضطربة في اللون الأحمر، أيها الآخرون؟

بحّ صوتي المرتعش، وصرت أخافه لجرسه المضحك. وكم تمنيت لو يبقون في أماكنهم ويرفعون عقيرتهم بالغناء. ولم ألبث أن نسيت البيت الأول من الأغنية، وعبثاً حاولت أن أتذكره بأي ثمن.

وكم آلمني ذلك، إذ شعرت بحاجتي الى أغنية. آه، لماذا أستجدي، وهل يفيد العزاء في هذه المسيرة الدامية؟ وبكيت بصمت. وتعجبت كيف نسيت جميع تلك الأغاني التي كنت أعرفها منذ وقت طويل. ألا يمكنني أن أؤلف لنفسي أغنية؟ ربما؟ لكن من سيلحّنها لي؟ لماذا لا يستطيع الإنسان أن يتعلم كل شيء؟ وصرخت:

– أعيدوا البيت الأول من الأغنية. أريد أن أغنيه، رغم قباحة صوتي.

لم يرد عليّ أحد. فلأتبعهم إذن، لكن ما شأني بهم؟ أولست أنا نفسي؟ حقاً ما الذي يجمعني بهم، لو أحسوا بأنني ضروري لهم لأقتربوا مني. وتهيأت للهبوط. ووجدتني مشدوداً الى الجدار من جديد. ترى، ماذا في هذا الجدار؟

وحدقت في الدرج العريض الذي يحملني. ولطمته مراراً، وأنا أردد كلمة «أين» بصوت عالٍ. كان صوتي، هو الآخر، ينزلق كالضوء الى الأسفل، باحثاً عن قاع.

وما أن نزعت نفسي عن الجدار، حتى إستأنفت الهبوط ببطء. وأدركت حاجتي الى إرادة للإستمرار في هذا الهبوط. لكن لا إرادة بدون هدف. ولم أكن أملك أي هدف.

إذن، يجب أن أخترع هدفاً، أو لأوقد ناراً تحت إرادتي المشلولة. وأنطلقت متلاشياً في طقطقة صوت حذائي، حتى شلني التعب. وتوقفت متأملاً الأشياء من جديد فوجدت أن لا شيء تغير البتة. عندئذٍ إرتعبتُ وصرخت من جديد:

– ألا تردون عليّ؟ ألا يسمعني أحد؟ تكلّموا... تكلّموا!

ثم صمتُ وجلست، غارقاً في التفكير. وبدا لي أن صراخي لأولئك اللامرئيين لم يكن إلا بوادر الندم في داخلي. لا، لن أناديهم بعد الآن.

وفجأة، إنقذف اللون الأحمر، فأشاع دفئاً لا يستطيع إلا ذلك الشيء اللامرئي في داخلنا أن يتحسسه. ونظرت الى يدي فوجدتهما بلون الدم. وتهيأت لأردد معهم تلك الأغنية التي أصبحت لي بمثابة هدف كبير. وقلت لنفسي بإنتشاء:

– آه... ستبدأ الأغنية.

وأشعرني إنتشائي المباغت بإثمٍ لاسع. ولعنت نفسي التي تهيأت للأغنية والمغنين. وعلى حين غفلة، دوى صوت غريب الجرس، لا بشري تارة، وبشري تارة أخرى، قائلاً:

– السيد أنور: نعلمك أننا هم نحن المحلفون الذين أختارنا وعيك وأعطانا الصلاحية المطلقة للحكم عليك. وقد قررنا بالإجماع الحكم عليك بالعزلة الأبدية.

لم أحتج. حتى داخلي الذي لم يعرف سوى التحدي، بقي ساكتاً. نعم، إنه لحكمٌ قاسٍ. لكنه كان لذيذاً جداً.

صوت المطر الخافت

هدف الحياة يتمثل بالإرادة الساعية من أجل فهم النفس.

جورج برنارد شو

ظل لساني يتضخم في فمي على نحوٍ غريب. وشعرت به كأفعى تريد النفاذ الى حلقومي. وظل الرجل يحث عليّ بالكلام.

من هو هذا الرجل؟ ومن أين جاء؟ وماذا يريد مني بشكله المخيف؟ ولماذا يلح عليّ بالكلام وكأنه ببغاء؟

وأشرت الى فمي، باذلاً جهداً يائساً لإفهامه أن لساني تضخم، وأنني أعجز من أن أستطيع النطق. وكنت قد عشقت الصمت أكثر من أي وقتٍ مضى، لأنني أدركت أن الإنسان يصل فجأة الى نقطة معينة لا يستطيع بعدها أن يستخدم الكلمات.

وتحت إلحاحه المستمر عليّ بالكلام، شعرت أن يدي اليمنى ثقيلة جداً. ولفترة، ظننت أنها كانت مشدودة الى عمود، أو الى الأرض، أو إنها لم تكن موجودة قط. وكنت أكثر من الحركات السريعة بيدي اليسرى. كانت تلك الحركات أوضح بكثير من الكلام العادي. وكنت أشعر أن اللغة في تلك اللحظة الدبقة لم تكن تفي بالغرض مطلقاً. وإستمر لساني في التضخم وكان الرجل يعرض، ويتحول جسمه المخيف الى عضلات. ربما كنت أفهمه أحياناً، غير أنه سرعان ما كان يتحول الى لغز مضحك، بشكله الكاريكاتوري، وبلغته المضحكة، وبحركاته الأكثر لغزاً من شكله ولغته. وقلت له بحركة سريعة من يدي اليسرى– و أعجب لماذا كنت أثق بأنه يفهم حركات يدي كأحسن ما تكون اللغة:

– إسمع، أين نحن؟ ماذا تريد؟

وسمعته للمرة الأولى بشيء من الوضوح يقول:

– الجمهور ينتظر أيها السخيف. هل نسيت دورك؟ هل نسيت دورك؟

لم أرد عليه. كان من المستحيل أن أرد عليه بعد أن بدا في نظري كأكبر أكذوبة.

وألح عليّ بالكلام من جديد. وأخرجت له لساني لأريه شكله اللامعقول، لكنه ردّ عليّ بغضب قائلاً:

– لا تخرج لسانك. حرّكه. حرّكه. تكلم بسرعة. الجمهور ينتظر.

وكنت في هذه الأثناء أسمع موجات من الضحك الصهيلي فقلت له، مرة أخرى، مشيراً بيدي اليسرى:

– أنت مخلوقٌ غريب. لساني. لساني. آه، لماذا لا تفهمني؟

وظللت جامداً في مكاني، وشعرت أنه لو لم تكن اليد اليمنى مشدودة الى شيء مجهول، لأستطعت حتماً أن أرد عليه بسرعة أكثر:

– أين يدي اليمنى؟ أين.

ومن جديد تعالى ذلك الضحك الصهيلي المقزز. من أين كان يأتي هذا الضحك الناشز، المثير للأعصاب؟ حقاً، إن شيئاً من الحيرة والفوضى موجود أبداً عند البشر.

وإقترب الرجل مني بقامته العريضة اللامعقولة، كما لو كان جداراً صغيراً، ورفع يداً مسطحة الشكل هددني بها قائلاً:

– أيها المجنون، الجمهور ينتظر. ألا تفهم ما معنى أن الجمهور ينتظر؟ هل نسيت دورك؟

فلم أرد عليه. كنت أجهل إذا كنت حقاً خُلقت لأي دورٍ في الحياة. وحدقت إليه طويلاً، وبسرعة مددت يدي اليسرى الى فمي، وأمسكت لساني بأصابعي. وجعلت أسحبه الى الخارج، فراح يتأرجح كبندول الساعة. وهزَّ الجدار البشري رأسه مرات عديدة بغضب. ورأيت ما يشبه البسمة على وجهه المطروق. وخلت أنه فهمني أخيراً. غير أنه صفعني بقوة على رأسي. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى رأيت الأشياء تسبح في كثافة مخيفة من الضبابية. غير أنني أفقت بسرعة من الجنون المزق. بأن سطوة الإنسان على نفسه من الضعف بحيث أن عليه أن يظل وحيداً مدى الحياة. هو لا يفهمني أبداً. وأنى له أن يفهمني؟ ومتى إستطاع أحدنا أن يفهم الأخر؟ أوَليس معنى هذا العالم يكمن في خارج هذا العالم، لا في داخله؟ وإنتابتني حالة نفسية غريبة شعرت معها بعذابٍ موجع. غير أن هذا العذاب الموجع كان يدفعني الى الشعور بحريتي، رغم كل ذلك الإختلاط والتشويش.

كانت موجات الضحك الصهيلية لا تنقطع، كأنها تنبعث من جوف نساء يعنين من مخاض عسير. أما هو فظل يعرض بشكله الكاريكاتوري ويلح عليّ بالكلام لأن الجمهور ينتظر. ليته قال لي أين أنا، وماذا يجب أن أقول، ومن هو ذلك الجمهور، ربما هو الآخر يشعر بالعجز عن التعبير. حسناً، ليصمت إذن؟ أوَليس الصمت يعني إنتهاء كل شيء؟

وظلَّ لساني متأرجحاً بدقة بندول الساعة. ولما لم يسمع مني شيئاً، غضب وأسرع الى مكانٍ ما، ثم عاد بعد قليل بمدية حادة النصل، وأمسك لساني المتأرجح محاولاً بتره. عندئذ أدركت أن هذا الكاريكاتوري يشعر بأبشع حالات الفراغ، وأنه يريد أن يترجم حالة الفراغ هذه الى فعل، الى خلق، وربما الى جنون. وأخيراً قال بغضب لا يمكنني وصفه:

– سأقطع لسانك إذا رفضت الكلام. تكلم، الجمهور ينتظر!

ومرة أخرى تعالت موجات الضحك الناشزة. من المحتمل أن لساني أرتعش عندما لامست حافة المدية سطحه الحساس فأندفع كأفعى الى مكانه وراح يتحرك داخل فمي زارعاً محلول الحديد في سقف فمي وحلقومي. وبعد قليل راح لساني يطيعني، فأطلقت هذه الكلمات:

– ليس هناك، وهنالك فقط، وإنما هنا أيضاً، وهناك أيضاً، وفي أماكن أخرى من العالم أيضاً.

وسرعان ما تلقى وجهي صفعة قوية، إسودّ على أثرها كل شيء أمامي. وأدركت أن الصفعة جاءت لأنني فشلت في التعبير عن نفسي. لم أيأس، لأنني كنت أقر بحقيقة كوني كالآخرين لا أمثل غير الفشل.

وعجبت لماذا تهيأت لأرد عليه من جديد. فقلت بلساني:

– ماذا تريد مني؟ من هو، هم، أنت؟

وفرحت لهذا التطور في كلامي. فتابعت الكلام قائلاً:

– من أين تأتي هذه الضحكات؟

وغلّفنا صمتٌ أخرس. وظللنا نتبادل نظرات بليدة حقودة. وطال الصمت، فأخذت للمرة الأولى أتأمل الأشياء الموجودة في ذلك المكان الذي لا شكل له. وبفزعٍ كبير أدركت أن يدي اليمنى لم تكن مشدودة الى اي شيء، وإنما تحمل قفصاً كبيراً فيه

عدد كبير من الفئران البيضاء والسمراء وهي ترقص بنشوة في القفص. فقلت بذهول:

– ما هذا القفص؟ ما هذه الفئران؟

وردَّ عليّ بإنشراح غريب:

– أنت تعرف ما هيّ. إنها جميلة. هيا. هيا أستمرّ. الجمهور ينتظر.

فقلت:

– أقسم أنني لا أعرف!

وأنطلق الضحك من جديد. كانت تلك الضحكات تتلف ملايين الخلايا في جسمي، وتذبح أعصابي التي كانت بحاجة الى جيش من الإرادة لضبطها في تلك الفوضى اللامعقولة. وحدقت في الفئران جيداً، فرأيتها تنط بحركات سريعة، وهي تطلق أصواتاً رفيعة كأصوات عجريات صغيرات. فقلت للرجل:

– ما هذه الفئران؟ حقاً إنها جميلة.

فأجابني بهدوء:

– نعم، جميلة فعلاً.

– وكيف جزءت الى هنا؟

– جاءت...؟

وإنحنيت قليلاً، وفتحت باب القفص الكبير، وأخذت أراقب الفئران وهي تبارح القفص واحدة تلو الأخرى، ثم تصطف على بعد أمتار قليلة، في شكل نصف دائرة. وكان الصمت كثيفاً لا تعكره سوى ضربات أرجل الفئران اللحمية على الأرض. وغرقت في تأمل هذه الحيوانات التي راحت تتحرك دونما إضطراب.

وبعد أن أنتهت من تشكيل نصف دائرة، رفعت رؤوسها وجعلت تحدق إليّ طويلاً. وتقدمت أخيراً فأرة كبيرة ووقفت أمامي بشيء كثير من الإحترام. وصعقت عندما سمعتها تنظف حلقومها لتقول بصوتٍ رفيع:

– نحن نفهم إنك في مستوى من الإدراك غير طبيعي. أي أن مفاهيمك تختلف عن مفاهيم غيرك من البشر، لذلك جئت لأقول لك بشيء من الوضوح والصراحة أن الحياة هي أن تظل وحيداً وغير قانع حتى النهاية.

الجدار الذي نطق

إذن، على نحوٍ مخيف يعمل اللاوعي عندما يندس الأنسان في الفراش ليتحول الى جثة. فتنطلق كالصاروخ الى مسالك مخيفة. مرعبة، معقدة، وشائكة. فتصبح كلمة المستحيل إكذوبة إيجابية. خصوصاً عندما تتمسرح الحوادث على نحو كوميدي، وتراجيدي، وتراجيكوميدي.

كنت واقفاً في ظلامٍ دامس لا أحس إلا بوجودي، وإذا بضوءٍ خافت في ركنٌ قصي يضيء لي زقاقاً طويلاً مليئاً بمئات الأبواب الموصدة. كنت أعرف جيداً أنني خرجت لتوي من بيت إمرأة في حوالي الأربعين من عمرها، بعد أن أعطيتُ أبنها درساً في اللغة الأنكليزية. وإمتلأت أُذناي فجأةً بصوتها الضبابي. وهي تناديني بخشونة:

– ألم أقل لك لا تترك البناية من هذا الزقاق؟

وأدركت بسرعة، وبشيء من الوضوح، أنها فعلاً قالت لي ذلك مراراً. إلا أنني سرتُ بخطوات سريعة. مدركاً أن الرجوع محفوف بالمخاطر. ودفعت أحد الأبواب فأنفتح بسهولة غريبة، وواجهتُ فوراً باباً آخر، وآخر، دونما نهاية. كانت هذه الأبواب حائلة اللون، قبيحة الشكل، كأنها مخلوقات أسطورية. المهم أنها كانت تنزاح عن طريقي وأنا أركض بسرعة. وظلَّ صوت المرأة الضبابي يطاردني. يضعف أو يقوى تارة، أو يتحول الى لحنٍ ناشز سمج تارةً أخرى. ثم توقفت الأبواب فجأةً عن الإنفتاح...

وسرعان ما قبض عليّ بضعة أشخاص راحوا يضحكون مني بإستهزاء، ويوجهون إليّ كلمات لم أفهم منها شيئاً. وأمسك إثنان منهما يديّ وساقاني بعجالة، وكان أحدهم يردد بصوتٍ واضح:

– لا تخف... لا تخف... إنها مهزلة... مهزلة.

أما الآخرون، فبدوا كأشباحٍ سوداء. كانوا يسيرون بإتزان، وبخطوات عسكرية ثابتة، ويصعدون تلالاً مرتفعة بعض الشيء، ويقفزون في بعض الأحيان دونما سبب. وتعجبت لماذا إختفت الأبواب الكثيرة التي بذلت جهوداً مرعبة في فتحها وإجتيازها. قال أحدهم:

– لنأخذه من هنا.

والتفتُ الى حيث أشار، فإذا هنالك مرحاض ببضع غُرف مكشوفة. ولا أعرف لماذا لم أقتنع، وأنا أسير معهم، إنه لم يكن أكثر من غرف بسيطة عارية. لكن سرعان ما فاحت منه رائحة مدوخة للغاية.

وإبتعدنا عن المرحاض، لكن الشخصان ما يزالان يمسكان يدي بقوة، وأحدهم يردد:

– لا تخف... لا تخف... إنها مهزلة... مهزلة. وكنتُ عاجزاً عن الردّ عليه والإستفسار عما كان يقصد إليه. وإقتربنا من البيت الذي بارحته، فأرتعبت وقلت لنفسي:

– ألا تعفو عني هذه المرّة؟ ألا تغض النظر عن هفوة بسيطة إرتكبتها بلا وعي؟ أما أُدرّس وحيدها لغة أجنبية؟

وتركوني جميعاً ووقفوا الى مسافة قصيرة، وهم متراصّون كجدارٍ عتيق غير مستقيم. ثم راحوا يحدقون إليّ وأنا أرتجف وأنظر حولي بخوفٍ شديد، مُحركاً رأسي يميناً ويساراً. كان كل شيء مغلفاً بظلام، بظلامٍ حبري، إلا هم، فقد كانوا يلمعون تحت ضوءٍ خفي. ثم لم يلبثوا أن تحولوا الى جدارٍ متماسك.

كان نورهم يضيء الزقاق الى مسافة قريبة. وخطر لي أنهم لو غابوا عن المكان لعاد الظلام من جديد. فأدركتُ لا معقولية الركض. ونظرت الى الخلف، فرأيت الضوء الذي كان يغمرهم يتقلص ببطء، والجدار الذي كونوه يضيع برفق. وخلت أن الضوء أذابهم، فأرتعبت لحد الجنون، وخيل إليّ أن شيئاً ما سيصهرني بعد قليل، فأتحول الى عجينة دموية.

سأنصهر، أنصهر، أنصهر. وراودتني فكرة الرجوع من حيث أتوا بي.

– كلا... كلا... كلا... كلا.

هل أبقى إذن، واقفاً الى الأبد في هذا المكان الحبري؟ يجب أن أرجع، أن ينتهي هذا الرعب، أن أرى النور. وصرخت بصوتي المخنوق: النور. النور. النور.

وأخيراً، تراكضت من حيث أتيت، فإذا بي أصطدم بجثة ريشية كبيرة. فصرخت، ووقعت على وجهي. وشعرت بشيء ينهال على ظهري، وبريح قوية ترفع سترتي. فصحت كالمذعور:

– أرجوكم. أرجوكم. سأرجع. سأرجع. أقسم أنني سأرجع ونهضت بتثاقل شديد.

وسدّ الظلام عليّ الطريق مرةً أخرى وساقني ذهني المضطرب في الإتجاه ذاته، وإذا بزعيق حيواني مرعب فصرخت بعد أن عجزت نهائياً عن أية حركة:

– أنا راجع. راجع. قل لي إذا كان إتجاهي خطأ. أنا لا أرى سوى الظلام إرشدني. الى أين يجب أن أتجه؟ سأعتذر لها بتواضع. ألا يكفي أنني أدرس وحيدها اللغة الأنكليزية؟

وفي خضم تلك الفوضى الدماغية، فكرت أن أرجع الى الخلف. فرجعت، وأنا كخروف أمام ذئبٍ جائع. ثم أخذت أركض بكل ما لدي من طاقة. ووجدت نفسي خفيفاً جداً. ومن بعيد لاح ضوءٌ بنفسجي، وإذ إقتربت منه، شعرت بسترتي تطير في الهواء، وبأنني أقع على مقربة من الضوء. وتلويت كالمصاب بالصرع، وعندما رفعت رأسي، وجدت فوقي نسراً كبيراً يحرقني بنظراته النارية، وجناحاه يغطيان مسافة كبيرة من المكان. فأغمضت عيني. وسرعان ما تخدر جسمي حتى صرتُ لا أعي شيئاً. وزحفت بعد صمت طويل الى تحت الضوء. وغمر الظلام كل شيء من جديد. ونظرت الى الخلف فأدركت أنني في نفس المكان الذي أتوا بي إليه. ووجدت الجدار يتحرك في رقصة جميلة. وسمعت أحدهم يردد بصوت جهوري:

– تكون أو لا تكون.

الليلة الأخيرة للوركا في بنيرنار (*)

مسرحية من فصل واحد

شخصيات المسرحية

– فيدريكو كارشيا لوركا. شاعر اسپانيا العظيم.
– ديونسيكو كوترااليز. موسيقار غرناطة العظيم.
– خوسيه كوزمان. قائد عسكري.
– انخلينا كونزاليز. خادمة لوركا.
– مارگريتا خيرگو) ممثلتان مثقفتان، واروع من جسدتا الشخصيات
– لولا مميريفس) النسائية في مسرح لوركا
– شاب.
– شابة.
– رجل١.
– رجل٢.
– أمراءة عجوز.
– رجل عجوز.
– ضابط.
– صبي.

كتبت هذه المسرحية بمناسبة مرور خمسين سنة على استشهاد شاعر الشعب الاسپاني فيدريكو كارشيا لوركا.

(يصاحب المسرحية منذ البداية حتى النهاية عزف على الگيتار... والعزف يتنوع في اللحن حسب المشهد والموقف... يسلط الضوء على لافتة صغيرة مكتوب عليها (سنة ١٩٣١) يدخل صبي يحمل مجموعة صحف، وينادي بصوت عالٍ).

* بنيرنار: المكان الذي كان لوركا معتقلاً فيه، حيث بقى ليلة واحدة، ومن ثم اعدم في اليوم التالي.

الصبي: لقد هرب الملك... آخر خبر... لقد هرب الملك...(يدخل رجل، يوقف الصبي ويأخذ صحيفة..يقرأ... يهز رأسه بتعجب).

الرجل١: آه... فعلاً... لقد هرب الملك... هاها... الملوك اما يهربون أخيراً، أو يُقتلون في قصورهم...ايه، سيف ديموقليس خيطه رفيع جداً... نعم... لقد كان هذا متوقعاً... إذن وداعاً للنظام الملكي... وداعاً لكابوس الاقطاع، وفتاوي الكنيسة...(بفرح). تلك هي شطآن الجمهورية تلوح... زبد الجماهير سيشع مثل الفضة(*)

(تُسمع هتافات وأجراس) لتدق الاجراس... وليعم الفرح أسپانيا التي تخشبت... آه... الفرح... الفرح... لقد أفتقدناه طويلاً.(يدخل رجل آخر).

الرجل٢: هل حقاً هرب الملك؟

الرجل١: ألا تسمع الهُتافات؟ الاجراس؟ هذهِ هي الصحيفة... إقرأ، المانشيت يلمع باللون الأحمر... أنظر... هرب الملك...

الرجل٢: ربما انه خبرٌ مفربك... ملفق... كذبة.

الرجل١: وهل نحن في الأول من نيسان...! وحتى في الأول من نيسان، من يجرؤ ان يكتب خبراً مثل هذا... أي صحفي يستطيع ان يُطلق كذبة مثل هذهِ، والملك في قصره... وتقول خبر مُلفق... لا... انهُ خبر حقيقي... وصحيح جداً...

الرجل٢: (يتنهد) آه... صحيح جداً... أيها المسيح... احفظنا... نجنا من الكوارث.

الرجل١: اية كوارث تقصد؟

الرجل٢: وهل تغير نظام ما لعبة... مصارعة الثيران يُقتل فيها الثور فقط، وأحياناً المصارع. ايه، سيموت الكثير من المشاهدين أيضاً... بل الكثير أيضاً.

الرجل١: أيها الرب... ماذا؟! أنت متشائم... ملكٌ أخرق كان يحكم الوطن... الآن لا حاجة لنا به، ولا بحاشيته، واللطيف انه هرب بجلدهِ... والآن حان الوقت لنحكم أنفسنا بأنفسنا...

الرجل٢: نحكم أنفسنا؟ ربما لا... وربما نعم... أنا اشعر بعواصف سوداء... أرى ان السهول في إسبانيا بدلاً من ان تخضر، سوف تُصفر، بل تسود.

الرجل١: (بتعجب شديد) ماذا؟ لماذا...؟

(*) يقال ان الشعب الاسپاني يحب الشعر ويتكلم عادةً بلغة شعرية.

الرجل٢: وستبقى إسپانيا حزينة، وتذبل مثل الوردة المقطوعة.والكل ذات يوم يتحسر، ولسنوات طويلة لن نسمع سوى صلوات مهموسة، وأدعية للمسيح والعذراء وللقديسين، ونرى كثيراً من العيون تسح دموعاً... آه... والناس يتقبلون مضطرين في مواقف صعبة جرعة الموت اللطيفة بحب...

الرجل١: (بشيء من الغضب) أنت! أنت حتماً ملكي...!

الرجل٢: لا... لكن ثمة صوت في قلبي يقول، إن النهارات الجميلة ستذوب اسىً، والشفاه ستغلق حُزناً.

الرجل١: كل هذه الكوارث من أجل هروب ملك بائس؟

الرجل٢: ربما نعم... ربما لا.

الرجل١: ما هذه اللازمة التي تكررها، ربما نعم... ربما لا...

الرجل٢: (بإنفعال) سيدوي البركان... البركان... وأي بركان... أيها السيد... بعد هروب الملوك، يظهر رجال أمثال روبسپير، ودانتي، وسان جوست، وكميل دي مولان(*) هل نسينا جارتنا فرنسا... إنها على بعد أمتار منا، أنظر، تلك هي، خلف جبالنا الجميلة... تذكر ثورتها.

الرجل١: لا لا... انت حتماً ملكي، بل بالتأكيد عميل ملكي... اسمع، نصيحة لله... إستمع جيداً الى هتافات الجماهير السعيدة، أنت إذا تكلمت بهذا الحماس، والحزن على هروب الملك، لن تسلم... لا... لن تسلم.

الرجل٢: لست حزيناً لهروب الملك ... لا... أنا حزين لأن إسپانيا الحبيبة ستحاط بالرعود من كل الجوانب ولسنوات سوداء طويلة...

الرجل١: أيتها العذراء... أيها المسيح الحبيب... وهل بعد هذا تقول أنك لست حزيناً على هروب الملك؟ وأنك لست ملكياً...

الرجل٢: آه... إسپانيا... إسپانيا ايها المحترم... ستصبح مثل حفرة مليئة بالدم... نعم... بعد إن كانت عروساً مطرزة بالأكاليل...

الرجل١: من الاحسن ان تبلع لسانك...(هتافات) إستمع... إسپانيا تمور فرحاً، وحباً، وسعادةً لهروب الملك... وانت! تغلي أسىً وحزناً عليه...

الرجل٢: إسپانيا... آه... ستتحول الى مصهر مخيف.

(*) قادة الثورة الفرنسية

الرجل١: مصهر مخيف؟

الرجل٢: مصهر للجثث...

الرجل١: بل ستتحول الى جنة عدن...

الرجل٢: لا... ستحرق التماثيل... وعلى الأرض تلقى الأحشاء... سيكون هناك الكثير من الكبريت، والجنون، والصراخ، والموت، سترى يا عزيزي.

الرجل١: (يصرخ في وجه الرجل٢) ايها الملكي... إبلع لسانك...

الرجل٢: أيها الجمهوري يجب ان ترى من خلال الضباب الكثيف، جيداً...(هتافات) إنني أرى عذابات كثيرة وراء هذه الهتافات، أراها من وراء الستارة، أراها في كل مكان...

الرجل١: أيها الملكي الذي لا يرى أبعد من أنفه، أسمع، لتكن هناك كوارث لا سمح الله، فالجمهورية قرنفلة نضعها فوق قلوبنا ونرعاها بحبنا...

الرجل٢: قرنفلة! نعم... قرنفلة... لكنها سرعان ما تذبل بين الايدي المدججة بالغضب.

الرجل١: القرنفلة تنمو... أنت تعرف أنها تنمو دائماً.

الرجل٢: نعم... لكنني أرى ظلماً، وألاماً في الأفق... أرى قتالاً ينمو... ينمو.

الرجل١: أيها الملكي أقول لك أهرب... أهرب... أنا أغفر لك حبك للملك، لكن لن أسمح لك أن تهذي بالكوارث، والظلام، والموت... أهرب... (يتنهد) لقد تحمل هذا الشعب العذاب مثلما تتحمل الصحراء الجفاف... شعبٌ تحمل عبء ونزوات الملكية، والأقطاع، والكنيسة، فوق ظهره جيلاً بعد آخر... ماذا، هل خُلقنا بؤساء بالوراثة؟ ألا يحق له ان يلقي عن ظهره ذاك العبء، ويبني مصيره؟

الرجل٢: يبني مصيره؟ كلمات... كلمات... عندما يجيء الرعد... آه... الرعد.

الرجل١: إخرس... اخذك الرعد مع الملك، وكل حاشيته.

الرجل٢: ستسقط الصاعقة، لن يكون هناك غسق، ويصبح الليل طويلاً...

الرجل١: يا لك من متشائم...(يمر صبي آخر يحمل مجموعة صحف وينادي).

الصبي: هرب الملك... شاعرنا الكبير خورخه گيين سيعود من منفاه... الاستاذ الجامعي الكبير دي لوس ريوس سيعود قريباً. رجال القصر هربوا...(يخرج الصبي).

الرجل٢: خورخه گيين سيعود... هاها... لن يعود... الهي الريح ستهب...ستهب...

الرجل١: نعم ستهب لتكنس كل من له علاقة بالملك، والملكية.

الرجل٢: ستهب... وتكسر ظهوراً كثيرة من الملكيين اولاً، ثم من الجمهوريين، سترى.

الرجل١: الريح لا تكنس سوى الأياء التافهة...(وقفة) اذهب أيها السيد... إنني سعيد هذا المساء، وذاهب لمشاهدة مسرحية –ماريا بنيدا– للوركا الرائع... أرجوك لا تفور دمي، وغادر المكان من غير محاضرات عن الكوارث...

الرجل٢: (بإلقاء مسرحي) الريح ستغطي إسپانيا بغمامة، بغبار، بطين لزج.

الرجل١: (يريد ان يشتبك معه في القتال) أقطع لسانك ولا تفور دمي أيها الملكي القذر...

الرجل٢: انظر... هكذا ستبدأ الكوارث. نحن الأسپان حارون بطبعنا... لقد زرع فينا العرب حرارة الدم والجرأة... ودمنا الحار هذا سيكون سبب موتنا، هناك براكين من الانفعالات تحت جلودنا الشفافة...من مجرد حديث تريد ان تشتبك معي، وتقاتلني... هذا هو الرعب... إذهب لمشاهدة لوركا... أنا الآخرأحب هذا الشاعر الرقيق... أذهب واستمع الى كلمات مارية وهي تطرز فوق المنديل كلمات، الحرية، والمساواة، والقانون...

الرجل١: أعتقد من الاحسن ان أذهب... أنت بعقلك الملكي وأنا الشعبي بمشاعري لن نتفاهم... غريب، تخاصمنا ونحن لا نعرف بعضنا... وكل هذا الحديث عن الكوارث.

الرجل٢: هكذا تبدأ الشرارة...(يخرج... الگيتار يُخرج لحناً رومانسياً حالماً... نسمع اغنية حب... جميع القصائد في المسرحية للوركا، بأستثناء واحدة، فقط للشاعر بابلو نيرودا.

كان ذلك في ليلة القديس جيمز
وكأن الأمر هكذا قد دبر
مصابيح الشارع قد انتعشت.
عند مشارف المدينة
مسست نهديها النائمين.

(تدخل شابة جميلة، حالمة الوجه تحمل بيديها ديوان –أغاني الغجر– للوركت... بعد لحظات يدخل صديقها، وهو ايضا شاب وسيم ورقيق، تستمر الاغنية بصوت اقرب الى الهمس... يجلسان فوق مصطبة).

الشاب: ايّ صوت جميل...

الشابة: فيه حنان غامض... آه... اية كلماتٍ ساحرة.

الشاب: كأنها تحكي عن مشاعرنا.

الشابة: هل يمل العشاق مثل هذهِ الأغاني؟

الشاب: مستحيل... اسمعي ، وتأملي جيداً عندما يردد، مصابيح الشارع قد انتعشت... أشعر الكلمات وكأنها تروي ضمأ غريباً في داخلي...

الشابة: يا حبيبي، أتعرف، أشعر كأن الأغنية جعلتني اعثر على شيء هارب في داخلي.

الشاب: ما هو ذاك الشيء الهارب يا طائري...؟

الشابة: لا اعرف ما هو... شيء مثل الموجة... موجة مضطربة... أشعرها فقط. القصيدة، وذاك الصوت الاخضر، والآهات، جعلتني أشعر بالحياة أكثر...إنني الآن سعيدة جداً.

الشاب: وما أجمل عيونك وانتِ سعيدة.

الشابة: كم انا بحاجة الى جبينك... عيناك لن ينطفيء لمعانهما.

الشاب: يا ربيعي الدائم...

(المغني يردد بهمس جميل)

عند مشارف المدينة
مسست نهديها النائمين.

الشاب: لمن القصيدة؟

الشابة: للوركا يا عزيزي... وهل تحتاج الاذن الى الكثير من الرهافة لمعرفة كلمات لوركا... آه... لوركا الحبيب... كلماته ملتهبة دائماً.

الشاب: فعلاً... ومشرقة أيضاً...

الشابة: اوه... أجل... كلماته مثل القبلات الحارة لن تفقد مذاقها ابداً...(وقفة) هل اخبرتك أنني رأيته قبل أيام مع نخبة من الفنانين الشباب؟!

الشاب: حقاً... كيف وجدته؟

الشابة: آه... يا البيرتو، ماذا اقول، إنه يلتهب حماساً.

الشاب: هل تعرفت عليه؟

الشابة: عرفني به صديقي الشاعر أنطونيو... آه يا البيرتو... لو تراه... لوركا... لوركا... الهي، رغم إمتلائهِ بالفرح، والضحك، يبدر فجأةً مثل المجروح: عيناه صافيتان... لوركا يلمع ببريق من أعلى رأسهِ الى قدمي... يتكلم بطلاقة غريبة... رآيته يكلم المخرج لويس بونسول تارةً، وبحركاته الجميلة يلتفت ويكلم هيراردو دييگو، ثم برفق يهمس بكلمة في اذن سلفادور دالي، اوه، والجميع يستمعون اليه بحماس لاهب، كنت اراقبه وكأنني أراه في حلمي، وانا مثل الضائعة وسط تلك المجموعة من الموهوبين .

الشاب: انتِ مجنونة بلوركا.

الشابة: أحبه...(تفتح الديوان لا على التعيين، وتقرأ بحرارة)

العشاق المئة
يرقدون الى الأبد
تحت اليابسة
للاندلس
دروب طويلة حمراء
لقرطبة أشجار الزيتون الحمراء
حيث مئة صليب
غرست تذكاراً لهم

(تتوقف عن القراءة) طبعاً أحبه بجنون يا البيرتو. لكن ليس بقدر جنوني بك انت، إغفر لي حبي للوركا، لوركا كل فصول العشاق، لوركا كل المدن للأحباب، وهو، آه، كل الحقول والجبال... لوركا وحده سيعيد لشعرنا امجاد(فراي لويس دي ليون) و(فرناندو دي ايريرا) و (القديسة الحبيبة تريزا) و(لويس دي گونگورا...)

الشاب: للمناسبة... ما آخر أخبار هروب الملك؟

الشابة: ما لنا وهروب الملك... ليهرب... ما الملك بالنسبة لك... وللوركا، يا مليكي يا البيرتو...

الشاب: شكراً يا عزيزتي ... للمناسبة، هل اسرتك من الليبراليين؟

الشابة: وهل هذا يحتاج الى مجرد سؤال...

الشاب: ولوركا؟

الشابة: إنه وطني جداً... إنه مليء بالحب لأسپانيا الى درجة الجنون... هو ليبرالي طبعاً.

الشاب: حتماً سيكتب بعد اليوم أشعاراً جميلة.

الشابة: حتماً... كلنا سنكتب بحرية وبغزارة، ايه... لنُصلِ دائماً يا عزيزتي أن يمطر الرب على إسپانيا العزيزة شعاعاً ذهبياً.

الشاب: آمين... (يضع يده خلف خصرها) إقتربي مني... نحن ما زلنا صغاراً على هموم السياسة... أنا لا يهمني حالياً أي شيء سوى ومضات عينيك، ضحكتك...

الشابة: يا صيادي العزيز.

الشاب: يا صيادتي الذكية.

الشابة: يا حبيبي الذي ينبع من نومي مثل الملاك.

الشاب: ها ها ها ها... لا أستطيع ان اتبارى معكِ في إستعمال الكلمات الجميلة أيتها الشاعرة،

الشابة: يكفي ان برقتك تشعل فيّ الحب...

الشاب: انتِ دائماً تصيبيني في اماكني السرية بقوة.

الشابة: أعرف أين يقع كعب اخيل في جسدك.

الشاب: صيادة ماهرة.

الشابة: آه... كنت تتصور نفسك عصياً على غزواتي.

الشاب: في البداية نعم... لكنكِ كشاعرة خبيرة بثمار غابات الرجال.

الشابة: وبأشواكهم أيضاً.

الشاب: انتِ... شيطانة في تذوقي.

الشابة: ها ها ها ها... لدي عدة عيون، وعدة أرواح.

الشاب: هرة بشرية.

الشابة: يكفي... هيا انهض لنذهب الى الحانة التي يتردد عليها لوركا... من المحتمل ان يجيء، بل اكيد انه سيجيء هذا المساء مع شلته، ويغرد كعادته بأشعاره... تحرك...

الشاب: ليتني التقي به...

الشابة: سيحتفلون ثمة وسط الأنخاب بهروب الملك، ونستمع الى قصائد حارة، والى

أغاني الغجر، وتهريج سلفادور دالي.

الشاب: لنذهب يا عزيزتي... لنذهب.(يخرجان، اظلام... بعد لحظات يسلط ضوء على رجل عجوز، وإمراءة عجوز يدخلان بخطوات قصيرة ويجلسان في نفس مكان الشابة والشاب).

المرأة العجوز: إجلس يا عزيزي... لقد هدني التعب... آه، انت مشّاء جيد. أما انا... لا لا... أعتقد هذا المكان أهدأ قليلاً... المدينة تعج بالهتافات... ما هذا... ديوان شعر... حتماً نسيته الشابة، أو الشاب اللذان خرجا قبل قليل... آه... ديوان أغاني الغجر... لوركا... قد ترجع بعد قليل.

الرجل العجوز: لن ترجع... لن تكون بحاجة الى الديوان ومعها ذاك الشاب الوسيم، إنهما سعيدان... جسدان لدنان... مُتيمان ببعض...

المرأة العجوز: (هتافات من بعيد) أيتها العذراء... الم تتعب حناجرهم... يالأوتار حناجرهم القوية...

الرجل العجوز: ما لنا وهتافاتهم... لماذا انتِ غاضبة من هتافاتهم؟

المرأة العجوز: هذه الفوضى... كل هذا الصراخ... هرب الملك... ها ها... اليس هذا زمن الثرثرة... زمن المجانين... خلال نهار واحد إضطربت إسپانيا كلها.

الرجل العجوز: لتضطرب كما تشاء طالما ان الناس سعداء...

المرأة العجوز: ألا ترى معي يا عزيزي راموس ان الكثير من العواصف تطفوا في الأفق...

الرجل العجوز: أرجوكِ إفتحي فمكِ بخير، ولا تتكلمي مثل ساحرات مكبث، نحن في أواخر عمرنا يا عزيزتي... لا أعتقد إننا سنعيش لنرى اية عواصف، لأننا سنغادر الى الأبد...(تسمع أغنية بنفس ذاك الصوت الجميل).

آن لنا إن شئنا أن نقود شهيتنا
خلال عروق المرجان والعري السماوي الرائحة
غداً تكون عاطفتنا صخرة، وبالزمن،
تأتي ريح لتنام بين الاغصان...

المرأة العجوز: اليست هذه نفس الاغنية التي سمعناها في الحانة مساء أمس.

الرجل العجوز: بالضبط.

المرأة العجوز: هذا الشاب فيدريكو گارشيا لوركا كلماته تضرب القلب. اليس كذلك؟

الرجل العجوز: إنني أفضل عليه غونغورا...نعم... غونغورا أكثر شاعرية، أكثر عمقاً.

المرأة العجوز: لوركا أكثر شباباً... وهو يا عزيزي عاشق ألوان...إنه لذيذ مثل الخبز الحار...(تسمع الهتافات) إلهي، حتى في هذا المكان الهادىء لم نسلم من الهتافات... صدقني يا راموس ستسقط اعشاش عصافير بريئة من وراء هذه الهتافات... (تتنهد) غداً كما يقول لوركا تكون العواطف صخرة... إستمع الى الأغنية.

(يعاد المقطع التالي من الاغنية)

غداً تكون عاطفتنا صخرة، وبالزمن
تأتي ريح لتنام بين الاغصان...

المرأة العجوز: (تردد بصوت خافت) غداً تكون عاطفتنا صخرة...

الرجل العجوز: ربما... غاضبون... لماذا... كل واحد منذ اليوم نفش ريشه مثل الديك الرومي...(بسخرية) هرب الملك...

المرأة العجوز: لكن ماذا لو رجع؟ الكل يهرب مثل ثعلب الغابة...

الرجل العجوز: إنهم الآن مليئون بالآمال... آه من الآمال.

المرأة العجوز: آمال... هراء... مليئون بالفقاقيع... أوه... لقد تكلمنا في هذا الموضوع منذ الصباح... ثم... كلانا بعيدان عن هذيان السياسة، والذي يسمعنا يتصورنا ملكيان عنيدان... تأكد يا راموس أن حدسي الأنثوي يقول، إن الهدوء إنتهى في إسپانيا...(وقفة) خذ الديوان وإقرأ لي مقاطع من شعر هذا الشاعر الوسيم... إقرأ... صدقني ستحبه...

الرجل العجوز: نظارتي ليست معي...

المرأة العجوز: لنذهب إذن... لا تنس ان تقرأ لي بصوتك الجميل عدة قصائد من الديوان.

الرجل العجوز: حاضر يا عزيزتي، هيا إنهضي... أعطيني يدكِ... تحركي يا عزيزتي.(يخرجان برفق... إظلام طويل نستمع خلاله الى أغنية إسپانية حزينة... يستمر الإظلام كدليل على مرور وقت طويل. يسلط الضوء على تقويم كبير نعرف من خلاله إننا في اليوم السابع عشر من آب ١٩٣٦... يتحرك الضوء برفق

ويسلط على وجه قائد حرب الكتائبيين، خوسيه كوزمان، رجل منقبض الوجه، جاف، عنيد، دموي السلوك، وحشي النظرات... يدخل ضابط، يحي القائد كوزمان. هنا يكون عزف الگيتار متوتراً حزيناً)

الضابط: سيدي القائد، أخيراً عثرت على هذا المدعو فيدريكو گارشيا لوركا.

القائد خوسيه:(ينتفض من مكانه) حقاً... برافو... برافو... أين عثرت عليه؟

الضابط: كان معتقلاً من قبل النائب السابق للتحالف الأسپاني المستقل –رامون رويث النسو– عند أسرة روسالس...

القائد خوسيه: آه... (ينهض ويذرع الغرفة) آه... في شارع أنگلو...

الضابط: بالضبط يا سيدي... هل تريدني ان آتي به الى هنا؟

القائد خوسيه: طبعاً أيها الضابط... سيكون لي مع هذا الفوضوي حساب عسير. سأجعل صوته المغرد بلا صدى... سأحطم مرآياه على رأسه... ساطفيء له بصره... (بغضب) إذهب واجلبه بسرعة...

الضابط: حالاً سيدي...(يخرج. بعد قليل يدخل لوركا، يبدو، رغم تعبه الشديد، رابط الجأش، متماسكاً).

القائد خوسيه: آه... أهلاً بك أيها الجمهوري المغرد... أيها البلبل... أيها الغجري... لقد كنت تؤجج الاماكن الحارة في مشاعر الجماهير. كنت تغرد لهم... (يشعل سيجارة ويدخن بشراهة). أما كنت أيها البلبل تخشى من غضبة وتصادم الكبار... أنظر... هذا ما فعله تصادم الكبار، وقتال الجماهير، حربٌ دامية جلبت كل هذه الكوارث، والدم، ودفع الضعاف، والعجزة، والابرياء، ثم الشباب أفدح الاثمان... القتلى بمئات الآلاف... (بغضب) وانت بدلاً من أن تصمت، رحت تغرد أكثر للجماهير...أقصد لأولئك الضعاف والعجزة... للدهماء... تكلم... ماذا تقول؟

لوركا: ماذا اقول لك أيها السيد القائد، وأنت من اللحظات الاولى تكلمني بلهجة كلها تهديد.

القائد خوسيه: وهل تريدني أن أكلمك بلغة حميمية! كيف تريدني ان اكلمك؟ بلغة العنادل؟ ام بلقة القبرات، والبلابل...(بغضب) وانت هيجت بأشعارك الاماكن المخيفة عند الغوغاء... أما كنت تخاف مثل هذا اليوم! أتعرف ما معنى الخوف؟ انت تكلمت عنه في قصائدك كثيراً... الخوف... ما رأيك به وانت الآن هنا؟

لوركا: أنا لا أدعو حتى لعدوي أن يذاق طعم الخوف الحقيقي...

القائد خوسيه: (صارخاً) لماذا إذن كنت تغرد؟ كنت تمجد... وتؤجج.

لوركا: (ببرود أعصاب) كنت أغرد، نعم لن أنكر، لكنني لم أمجد، ولم أؤجج...

القائد خوسيه: تكذب... تكذب...

لوركا: أنا أحتقر الكذب.

القائد خوسيه: حسن... إليك هذه الأبيات...(يتصفح واحداً من كتب لوركا)

دم الرياح الهوج التي تكتسح
من الجبال الوعرة ما تغتصبه
دم هجمة محيط لا ريح فيه
دم البحيرة الساكنة الناعسة

(وقفة) دم... دم... قل لي إذن كيف تكون الإثارة! والعصيان.

لوركا: لا علاقة لهذه الابيات بالإثارة، والعصيان.

القائد خوسيه: أيها الشاعر لا تحاول ان تكون ابيض مثل الحليب.

لوركا: لقد كنت كذلك طوال حياتي...

القائد خوسيه:(بسخرية) حقاً... (يرسل نظرة طويلة الى لوركا) يالوجهك المنتحب.

لوركا: وجه شاعر شريف...

القائد خوسيه: ها ها... شاعر شريف... يا فيدريكو گارشيا لوركا، أنت لم تكن نظيفاً، ولا أبيض مثل الحليب.

لوركا: لقد كنت نظيفاً، مثل الذهب الخالص...

القائد خوسيه:(يصرخ) لا لا... ابداً... كنت عاصفة... كنت بركاناً علينا، وعلى النظام، وعلى الجنرالات... كنت فوهة نار... كنت رعداً علينا... كنت ثورة الانتظار للغوغاء.

لوركا: أنا!؟ أنا... أنت تبالغ في مكانتي، ودوري... أيها القائد يمكن لأي إنسان أن يفهم، ويترجم كلماتي كما يشاء.

القائد خوسيه: تقول إنك لست ليبرالياً... جمهورياً... ماذا تقول عن ماريا بنيدا... من أعاد تجسيد حياتها فوق المسرح. ماريا بطلتكم التي طرزت لكم فوق المنديل، حرية... مساواة... قانوناً... والتي قتلناها نحن...

لوركا: إسپانيا كلها تفتخر بماريا بنيدا...

القائد خوسيه: أما كانت ماريا تؤجج لإثارة الدم... يا لوركا، انت تردد كلمات كلها دم الرياح، دم الجبال، دم همجية، وأنت ببساطة تقول لي إنك بريء... ماذا يا فيدريكو هل تتصورني غبياً ساذجاً، لا أفهم...

لوركا: الشعر سيدي القائد لا يفسر... وانت تفسر شعري بطريقتك الخاصة لكي تنتقم مني.

القائد خوسيه: (صارخاً) انتقم منك... الدم هو الدم... وهل يحتاج الدم الى تفسير؟ كلماتك واضحة... مليئة بالأحقاد ضدنا، كلماتك حمم...(بغضب هيستيري) يا فيدريكو، ان الذي يطلق الحمم علينا يجب ان يتوقع منا حمماً... عليك ان تدفع ثمن أشعارك، ثمن ليبراليتك يا فيدريكو، كما دفعت ماريا بنيدا حياتها من أجل المساواة، والحرية، والقانون... اليس كذلك...؟

لوركا: لقد كنت حمماً على أعداء إسپانيا فقط.

القائد خوسيه: أي علينا... علينا نحن الفاشت...

لوركا: ما ذنبي ايها القائد وانت تضع نفسك بجانب أعداء إسپانيا.(وقفة) هل انت عدو؟

القائد خوسيه: (من شده غضبه يتكلم وكأنه يمضغ الكلمات) كنت، وسأظل عدواً لكم ايها التقدميون... سأبقى عدواً للجمهوريين ولجمهوريتكم، أيتها الارواح الشريرة المرتعدة... أيتها القلوب الصغيرة... ايتها الارواح التي تتكسر من الضربات الاولى... ايتها الاجساد الناعمة...تكلم.

لوركا: إن روحي ايها القائد كبيرة، وكذلك قلبي كبير... أنا لا أنكر أنني غردت لشعبي... لمن يغرد الشاعر اذا لم يغرد لشعبه...أيها السيد القائد، في هذه الزنزانة، وأمام هذه الزوبعة من الكلمات الهيستيرية التي تطلقها بوجهي بعنجهية، وأنا أسيرك، لا تظنني أبداً ساخاف منك، او ابتعد، وأرجو الا تستغل تهذيبي العالي.

القائد خوسيه: تهذيبك العالي، ها ها ها ها... اعرف انك لن تخاف من صوت البوق... وعيونك لن تدمع ايها الاندلسي...

لوركا: أمام مثل هذه اللغة الصدئة، لن أخاف... لكن قلبي يحزن، بل ويشحب الوجه خجلاً من لغة قائد في رتبتك...

القائد خوسيه: ألا تعجبك لغتي... إسمع يا فيدريكو ان صوتي وصوت جنرالاتنا، ولغتنا

ستكون مثل الشهب المنتفضة، وسنذيق من تكلم عنا ولو بهمس، أو من مجد الجمهورية، الموت... الموت... سنذيقه الزقوم، وحتى الابرياء منهم سنضع حول أعناقهم النير...(بإنفعال وصوت عال) سنصبح بعد اليوم أسوداً تزأر في وجه من يحلم بكلمة الجمهورية. سنحطم... سنحطم... (يقترب من لوركا ويصفعه بقوة) نعم سنحطم... مثل هذه الرؤوس التي تنبعث منها أفكار هدامة، ومجنونة، وكلمات مثل السعادة، والشعب، والحب، والاخوة، والقرنفل، والزيتون، والحمامات البيضاء...(وقفة) يا فيدريكو، إسمع، بعد كل هذه المَسي، ألست حقاً نادماً؟

لوركا: (ببرود) يالك من إنسان صغير...

القائد خوسيه: أنا؟! أنا إنسان صغير...!

لوركا: ايها القائد، لقد عاملت نفسي دائماً بصدق شاعر شريف، وصادق. قبل قليل صفعتني، لأنك إنسان غير متماسك، وغير مهذب... طبعاً... (وقفة) إقترب مني ايها القائد... أنظر الى عيني... هل ترى فيهما رجفة خوف...؟ مستحيل ان ترى فيهما رجفة واحدة، انا لم افعل شيئاً أندم عليه... وبعد تلك الصفعة لم اعد املك ما يؤلمني فقدانه...

القائد خوسيه: آآآآآآ...(بسخرية) لم تعد تملك ما يؤلمك فقده...

لوركا: أبداً... أبداً...

القائد خوسيه: ها ها... وماذا بقي لديك... لاشيء... لقد ماتت ثورتكم... كنت بثورتكم تريدون إعادة النهر الى الوراء...

لوركا: انت تعرف ان النهر يتدفق دائماً الى الأمام...

القائد خوسيه: نهرنا نحن وليس نهركم انتم...

لوركا: أنا اقصد نهر الشعب الاسپاني.

القائد خوسيه: ها ها ها ها... نهركم سيجف بعد اشهر...

لوركا: وهل يجف البحر؟

القائد خوسيه: تقصد الشعب... نكتة... مزحة سخيفة... ايها الشاعر، لقد كان هذا الشعب قانعاً، خانعاً، صامتاً، يعمل بدأب النملة، جئتم ونسجتم له احلاماً جميلة، ثم موتاً خاصاً.

لوركا: الشعب ايها القائد ،وحده يعرف كيف يصنع حياته، ويحقق احلامه... انه فنان عظيم يعرف متى يبعث الحياة في سمائه وارضه...

القائد خوسيه: (بصوت مثل فحيح الأفعى) هل بعد هذا تقول انك لست جمهورياً تقدمياً.

لوركا: الشعب كله اراد الجمهورية... انتم لوثتم مياه و أرض إسپانيا بالدماء... لقد كانت هذه الارض مخنوقة...

القائد خوسيه: مخنوقة... مخنوقة... تكلمني بالألغاز يا فيدريكو؟ الارض كانت مخنوقة! وانتم؟ ماذا فعلتم لها... جئتم وقطعتم عنها العيون والانهار لتموت اكثر فأكثر. اليس كذلك؟

لوركا: إسپانيا ليست شبه جزيرة كما يقول البعض، انما جزيرة، محاطة بشعب من الماء والشمس... لا... ايها القائد لن تختنق ابداً. إسپانيا زمردة كبيرة لا خوف عليها ابداً... انها خالدة مثل شعبها...

القائد خوسيه: هاهاها... تكلمني بلغة شاعر... زمردة... شعب من الماء...

لوركا: إنني شاعر بالفطرة أيها القائد.

القائد خوسيه: لماذا تصر ان تبدو مهذباً وانت تكلمني؟

لوركا: كذلك انا مهذب بالفطرة...

القائد خوسيه: وبالفطرة تعرف كيف تؤلب الجماهير ضدنا... اليس كذلك؟

لوركا: الشعب وليس انا، أشعل شعلة الثورة بنفسه.

القائد خوسيه: ها ها ها ها... حسن... إذن لا حاجة الى لوركا.

لوركا: طبعاً... آه... لو كنت تفهم لغة الشعب، لأعطيتني الحق فيما أقول...

القائد خوسيه: (بسخرية) الشعب...!

لوركا: نعم... لم يستطع هذا الشعب أن يبقى في عزلته الصقيعية.

القائد خوسيه: (يضحك بهستيرية) عزلته... الصقيعية... اوه... سنضرب حوله المزيد من الصقيع... سنجعله في صقيع أزلي...

لوركا: انت لا تعرف زفيره الحار جداً... يعرف متى ينزل الى الشوارع، والمدن، ومتى يكون في السهول، والوديان... انت تعرف جيداً ماذا يفعل...

القائد خوسيه: يبدو ان مخابراتنا لا تعرفك جيداً... لقد قالوا لي إنك رقيق جداً ومهذب جداً...

لوركا: الهذا السبب تمارس عليّ سيادتك؟ ثم ان الرقة ايها القائد مثل الشعر طبعٌ فيّ...

القائد خوسيه: لكنك في هذه الثكنة، وفي هذه الغرفة، اي في هذا المكان المصيري المخيف... (تسمع اطلاقات سريعة) تتصرف معي وكأنك خليط من الديك الرومي والأوز...

لوركا: ماذا تقصد...؟

القائد خوسيه: كلماتي راضحة... انك معتز جداً بنفسك... جريء.

لوركا: لم لا معنوياتي جيدة... ومتماسك جداً...

القائد خوسيه: وقالوا لي انك رهيف المشاعر...

لوركا: إذن كنت تطاردني ايها القائد لمثل هذا اليوم...ومنذ مدة طويلة...

القائد خوسيه: طبعاً... طبعاً. انت عدوي اللدود... اكرهك... كنت اريد ان اعرف كل شيء عنك عندما احاكمك...لقد أعطوني إنطباعاً غير صحيح عنك، كنت اتصور انك سرعان ما تنهار... عندما تراني...

لوركا: أنا! الاندلسي الشريف لا ينهار... أنا أنهار ... إنني كشاعر امتلك احياناً جراءة پروميثية.

القائد خوسيه: (يصفع لوركا) پروميثية... ومثله تتحدى الارض والسماء.

لوركا: بسالتك المضحكة معي وانا اسيرك تدل على ضعفك المخيف من الداخل...

القائد خوسيه: (يصفعه مرة أخرى، ثم بيديه ضرب صدره مثل الغوريلا) انا، القائد خوسيه كوزمان ، المعروف بالدموي، مندوب حرب، انا الذي يرتعب الجميع من مجرد ذكر اسمي، أانا ضعيف...؟

لوركا: أقول بسالتك وضيعة... وضيعة جداً...

القائد خوسيه: أنا بطبعي باسل...

لوركا: أبداً، البساله تكون وضاءة... البسالة الحقيقية تكون دائماً وضاءة...

القائد خوسيه: وضاءة... ما معنى وضاءة؟

لوركا: ايها القائد، اتعرف كيف وصف شاعرنا العظيم لوپ دي فيگا، بطلنا القومي العظيم رودريگودي فيفار.

القائد خوسيه: كيف؟

لوركا: قال: بريق سيفه يضيء الميدان كله...

القائد خوسيه: وأنا! وضاعتي تضيء هذه الزنزانة... اليس كذلك؟

لوركا: ها انتذا تجيد الوصف...

القائد خوسيه:أيها القذر، كيف تجرؤ ان تصفني بالوضيع... يا لوركا ، مثلما الزمن لا يرجع الى الخلف، لن اتنازل البتة عن قراري الذي اتخذته بحقك، أبداً، حتى إذا تدخل الجنرال فرانكو، الموت... الموت بالرصاص، (يدخل الضابط... يحيي القائد)

الضابط: سيدي القائد هل تأمر برمي المجموعة الثانية التي اصدرت بحقها حكم الموت؟

القائد خوسيه: ليس قبل ان التقي للمرة الاخيرة بأولئك الحثالة... (وقفة) للمناسبة، كيف كانت معنوياتهم وهم يواجهون الموت؟

الضابط: بصراحة؟

القائد خوسيه: طبعاً بصراحة.

الضابط: كانت عالية جداً، الجميع هتفوا بالموت للجنرال فرانكو، وبالحياة للجمهورية...

القائد خوسيه: (للوركا) هل ترفع هذه الكلمات من معنوياتك... هاهاها... ماذا يفيد الهتاف. كلمات... كلمات... تطفو في الهواء ثم تنزلق وتسقط...(الى الضابط) انظر الى هذا الشاعر المدعو فيدريكو گارشيا لوركا، هذا المخرب... اريد ان تنخر له صدره. اكثر من الرصاصات، اريد صدره غربالاً... اضربه مثلما تضرب الصاعقة الارض .

الضابط: آمرك سيدي.

القائد خوسيه: إملاء فمه بالتراب... مثل هذه الافواه المخيفة يجب ان تسد بالطين والتراب (تسمع اصوات دبابة... رصاص... يشير الئ الضابط بالخروج، يخرج)الى الموت يا فيدريكو... الى الموت.

لوركا: انه قدر مبكر، لكن ارحب به.

القائد خوسيه: يالبرودة اعصابك...؟؟

لوركا: الموت... لا يلغي اي شيء... لقد اديت دوري... ثم انا مثل اي انسان اخر لست اكثر من عابر سبيل طيب فوق هذه الارض...بعد موتي سأبقى أغرد، وسيذكرني العشاق، وكبار السن، وسوف تدمع عيونهم بكلماتي. ماذا اريد اكثر...؟

القائد خوسيه: (بنفاذ صبر وهو يخرج) كلمات... اذهب الى الموت...(يخرج. صمت... مع عزف گيتار يغني لوركا)

يا نيسان السماء تقدم
مثقلاً بنور الشمس والعطر
املاء بالأعشاش الذهبية
هذه الجماجم المزهرة

(اظلام،، يسلط الضوء على انخلينا گونزالز، خادمة لوركا الطيبة والوفية جدا، وهي تحمل طعاماً وملابس للشاعر)

انخلينا: (وهي تترجى حارس الثكنة بكلمات حارة لكي يسمح لها بمواجهة لوركا) ارجوك... اقبل يديك ... لا تقل لا... ايها الحارس الطيب، لو تعرف كم تحملت من المخاطر حتى وصلت الى شارع دوگيا... فكر يا عزيزي... هل تستطيع وانت شاب ومعك سلاحك ان تصل الى شارع دوگيا وسط كل هذا الرصاص، والقنص والدبابات.(بحرارة) ايها الحارس الطيب، انا وحدي اعرف سيدي فيدريكو، اعرف كم هو نبيل وصادق... وحدي اعرف حالته النفسية الآن... اقسم منذ ان اعتقل لم يذق طعم الاكل...(تبكي) ربما لم يذق طعم الماء... يا حبيبي يا فيدريك،... انا ايها الحارس خادمته واعرفه جيداً... لقد تعود ان يأكل من يدي، هل كثير ان اخذ له هذه اللقيمات... يا مسيح الحبيب ادخل الشفقة الى قلب هذا الحارس...(تسمع اصوات إطلاقات) ما كل هذا الرصاص، والدم في المدينة... إسپانيا كلها تحولت الى جهنم حمراء... لماذا... (تردد بحزن) فيدريكو ... فيدريكو... آه... يا مريم المقدسة. لماذا يحدث كل هذا القتل...!

الحارس:لا تصرخي... لماذا تبكين... قلت (ممنوع)... ارجوكِ (ممنوع).

انخلينا: ايها الحارس الطيب، اقبل يديك... دعني... دعني... اقابله، اه لو تعرف اي انسان رقيق، طيب، ونبيل، اقسم بدم المسيح ان هذا المخلوق لا يعرف اي شيء سوى كتابة الشعر، والرسم، والعزف على البيانو، والغناء.. (تبكي) ايتها القديسة العزيزة تريزا، كيف يمكن ان يكون انسان مثل فيدريكو خطيراً، كيف... صدقني عندما يفيق صباحاً، اما يغني، او يردد كلمات جميلة مع نفسه، ويتغزل بالورود، والالوان ...(تقلده في محاولة للتأثير على الحارس) كل صباح يردد:

الاخضر التفاحي، الابيض المصفر، الابيض المحمر، الاخضر المزرق، الاصهب الابرص، الوردي المخطط، اللبني... هذا ما يفعله هذا الانسان الرقيق.(تبكي) الهي، كيف يمكن ان يكون فيدريكو خطيراً.

الحارس: لا تبكي... انا أحب شعره يا عزيزتي... لكن ما العمل... لا أستطيع. أخاف. ماذا يفيد بكاؤك، إذا وجدكِ الضابط، او القائد أرمى انا الاخر... أنا مجرد نفر... حارس بسيط.

انخلينا: سأدخل بصمت، اقسم بدم المسيح لن امكث عنده كثيراً... لقد كان دائماً كريماً وحنوناً معي... من حقه عليّ ايها الحارس ان اثبت له انني خادمة وفية في هذا الوقت الصعب، يا عزيزي... اعطيه هذه الملابس، وهذه اللقيمات... اريد ان اراه يأكل ولو لقمة صغيرة... أيها الحارس إرحم قلب خادمة عاشت سنوات في بيت إنسان كريم... لقد كان اكثر من أب وأخ لي. أيها الحارس، ارجوك... أستطيع أن أقول من تقاطيع وجهك إنك فلاح حقيقي.(تتنهد بحرارة) لقد كتب لوركا أشعاراً كثيرة عن الفلاحين. يا مريم المقدسة، كيف يمكن ان يكون شاعر مثل – لوركا– خطيراً على الدولة... (تبكي) ان قلبي يخبرني انه في مثل هذه الظروف الصعبة لن يعيش... هناك عاطفة غامضة من الخوف في قلبي تهمس لي كلمات حزينة عن فيدريكو... صدقني ايها الحارس ان القائد خوسيه كوزمان على خطاء في عدائه الشديد للوركا.

(تكلم نفسها) يا حبيبي فيدريكو، هل كنت تتصور انك ستحاط بهذا العدد من الأعداء... أنت المليء بالمحبة، والعطف، والطيبة... أكاد ارى ايها الملاك ومضات عيونك وهي تنطلق بأندهاش...

(وقفة) أمس في عيد القديس يوحنا دعيت لك من اعماقي عندما يزهر السرخس سأقطع زهرة لا من اجل كنز لي، بل من اجل خلاصك يا عزيزي(*) (تبكي) صدقني ايها الحارس... قبل ايام من اعتقاله احتفل بحب بقديسه العزيز جداً الى نفسه. القديس جيمز...آه... يا مريم المقدسة... ماذا فعل فيدريكو... هل هو الذي قتل كالوسو سيلو مثلاً(**)

(*) عيد القديس يوحنا، من اعياد الصيف، وهناك إعتقاد شائع ان السرخس يزهر ليلة العيد، وان من يقطع زهرة منه يجد كنزاً دفيناً.

(**) سياسي يميني متطرف اغتيل من قبل الجمهوريين.

الحارس: لا تبكي يا عزيزتي... مافائدة البكاء...الهي، انا هنا مجرد حارس... نفر بسيط... الدخول على لوركا لن يكون الا بأمر من القائد خوسيه كوزمان... هل كلماتي واضحة... ارجوكِ لا تبكي.

انخلينا: لا احد يعرف لو سمحت لي بالدخول خفية... من أجل المسيح اعمل حسنة لأمرأة حزينة... ارجوك اعمل صدقة... آه يا مريم العذراء... لقد فقد الجميع الشفقة في هذه المدينة... ايها الحارس اشفق عليّ ودعني اراه... ارجوك... انت لا تعرف اية نار تأكل احشائي في هذه اللحظات... انظر... كل جسدي يرتعش من الالم والتوتر... بدم المسيح منذ ان اعتقل فيدريكو وأنا لم يغمض لي جفن... لماذا انت صامت...(تبكي) ساعدني... لا تقل لي إذهبي... لن انسى مساعدتك...(وقفة) هل هو الآن في الداخل... من اجل كل قديس تحبه اسمح لي ان ادخل... ربع ساعة فقط... ايها الفلاح الطيب...

(يلين الحارس) ارجوك.....

الحارس: حسن... ادخلي... بصمت... ربع ساعة فقط... من غير بكاء... تكلمي معه بهمس... الآن انا اترجاكِ ان تكوني حذرة... هيا ادخلي... لا تنسي كل شيء بهمس.

انخلينا: (وهي تدخل على رؤوس اصابعها) شكراً... أطال الله في عمرك، ورعتك مريم المقدسة...(تدخل... أظلام... يسلط ضوء على لوركا وانخلينا... تندفع انخلينا وتحتضن لوركا بحب وحرارة وحنان، كذلك يستقبلها لوركا وهو غير مصدق نفسه)

انخلينا: فيدريكو... حبيبي... حبيبي... سيدي... سيدي...(من خلال دموعها) آه لو تعرف كيف وصلت الى هنا ... آه... عملت المستحيل لكي اصل الى هنا... فيدريكو الدم في كل مكان... الرصاص مثل ذباب القمامات ينهمر في كل مكان. الدبابات في كل مكان، القنص في كل مكان، لقد جن الناس يا سيدي.(تحتضنه بحرارة مرة اخرى غير مصدقة نفسها) لولا بعض اصدقائنا الشرفاء لما عرفت ابداً أنك هنا في شارع دوغيا.(بلهاث) ذهبت الى بيت صديقك الشاعر لويس روساليا... (بهمس) صحيح انه كتائبي، لكنه يحبك... هو دلني عليك.(تبكي بصمت) وهناك عرفت يا عزيزي ان الذي وشى بك هو ذاك القاتل رامون لويس الونسو.

لوركا: قاتل... مجرم... سافل... آه يا رامون لويس الونسو، الهذا السبب كنت تتبعني مثل ظلي...

انخلينا: الهي، واخيراً جاءوا بك عند هذا الدموي خوسيه كوزمان... عند هذا الجلاد.

لوركا: وأي جلاد... أي جلاد... لقد اصدر بحقي حكم الموت يا انخلينا.

انخلينا: (تخنقها شهقة بكاء مفاجئة) ويلاه... ويلاه... اعرف انه لا يعرف الرحمة... هل حاكمك.

لوركا: محاكمة... لا طبعاً... اراد ان يهينني، لكني لم اقبل.

انخلينا: حسناً فعلت... يا سيدي... قال بيلاطس في الانجيل (ما كتب كتب، هذا هو الاول الذي لا يتلاشى ولا يهبت ابداً) فإذا كتب عليك الموت ما العمل، لماذا يجب ان تموت جباناً. (تبكي) لكن ان تموت في هذه السن... رباه... رباه... يا حبيبي فيدريكو.

لوركا: لا تبكي... يا انخلينا الطيبة... إنني بحاجة الى ضحكاتك الحلوة وليس الى دموعك... بحاجة الى افواه مليئة بالفرح وليس بالمرارة... انا سلمت نفسي الى قدري... اي ضير من ان اموت من اجل اسپانيا، أتعرفين يا انخلينا... منذ صغري كان يطاردني هاجس غريب انني سأموت ميتة غريبة، دراماتيكية جداً.

انخلينا: كيف... ولماذا يا عزيزي...؟

لوركا: إسمعي... (ذات مرة وانا صبي نهضت قبل الفجر بقليل بعد ان امتنع عليّ النوم... كان مشهد منطقة – استريمادور– الصارم ما زال مغطى بالضباب... جلست ونظرت الى الشمس تشرق ببطىء بين تمثالين قديمين ومحطمين... كانا تمثالين من المرمر من القرن الثامن عشر... كان ثمة قصر مهجور مثل القصور القديمة لاشراف إسپانيا الكبار... فجأةً مرّ قربي خروف شرد عن قطيعه، ومن بين الخرائب ظهرت ستة خنازير سوداء قفزت على الخروف، وفي دقائق مزقته وافترسته، رغم اني اصبت بخوف شديد) لكنني ظللت اتابع الخنازير السوداء وهي تفترس الخروف بين التمثالين في وحشة الفجر الشاحبة(*)

انخلينا: لماذا تروي لي هذه الحكاية يا فيدريكو...؟

(*) يقال ان لوركا روى هذه الحادثة لصديقه الشاعر بابلو نيرودا.

لوركا: ان القائد خوسيه كوزمان ورجاله يفترسونني على شاكلة اولئك الخنازير... منذ صغري وانا لديّ هاجس ان اشخاصاً أجلافاً يقتلونني بطريقة مخيفة.

انخلينا: (تبكي) أنت تعذبني بهذه الكلمات.

لوركا: يا انخلينا العزيزة، أعرف كم أنا عزيز عليكي... تذكريني كل مساء عند قدوم غلائل الليل... تذكريني كإنسان لم يؤذِ نملة، وعاش شريفاً ونبيلاً من أجل فنه...

انخلينا: انا عشت معك واعرف طيبتك... انت يا عزيزي حنجرة لا تعرف سوى الغناء...(تبكي) لماذا يريدون ان يحولوا صوتك الى رماد...

لوركا: ايه يا انخلينا، صحيح لقد انفلت الامن في إسپانيا، ومعه انفلت المنطق، والمحبة، وبدأت العواطف تتحكم...

انخلينا: (تصرخ) آه...

لوركا: ماذا؟...

انخلينا: يا عزيزي، لقد نسيت الاكل... جلبت لك اكلتك المفضلة، وهذه الملابس النظيفة... يا عزيزي... اكيد انك لم تذق لقمة واحدة.

لوركا: وجبتي الاخيرة كانت قبل يومين، في بيت صديقي الشاعر لويس روساليا.

انخلينا: (تهيء له لقيمات) كل يا عزيزي... إن المصاير عمياء احياناً، من يدري، قد يفرج عنك...

لوركا: يفرج عني؟ إذا كانت الوشاية من ذاك القاتل رامون لويس الونسو، والمحاكمة الصورية من قبل الدموي خوسيه كوزمان لن يفرج عني ابداً... مستحيل... كلاهما يريدان ان يبنيا مجديهما على جثتي...

انخلينا: بل قل عارهما... هيا كل يا حبيبي.(تعطيه اللقيمات بسرعة) أنت تحب الدجاج المقلي، والطرشي، وهذه زيتوناتك المفضلة يا عاشق الزيتون، كُل، (تضع زيتونة في فم لوركا) لقد تغنيت بالزيتون كثيراً...(وقفة... تتذكر، بعد قليل تغني بصوت خافت جداً)

والآن فوق الطريق
يفيض صمت متموج
من بستان الزيتون

(تتوقف) لا أتذكر بقية الابيات...

لوركا: (ضاحكاً، يكمل بقية الابيات وهو يمضغ اللقمة)
ثم مع جماعة نمل احمر
التقي بعد ذلك
انها سائرة قدماً... غاضبة
تجر وراءها
نملة اخرى
انخلينا: (تضحك وتبكي في انٍ واحد) كُل... كُل... يا عزيزي... آه لو سمحوا لي بالبقاء هنا لأخدمك.
لوركا: (ضاحكاً) نكتة باردة... هذا معتقل يا انخلينا، (ينتهي من الاكل) شكراً يا انخلينا الوفية... لو استطاع الموتى ان يتذكروا فهم لن يتذكروا سوى الطيبين... بإرادتكِ المحضة، بوفائكِ الإسباني يا انخلينا وليس طمعاً براتبك، قمتِ بخدمتي، بوفاء أُم حقيقية، إذا مت لكِ نصف ميراثي، واذا عشت وهذا مستحيل، ساهدي لكِ أشعاراً كثيرة... هذا بتواضع ما استطيع ان اعمله لخادمة وفية جداً... (وقفة) آه بيتي الريفي في (لاهويرتادي سان فيسانتي)... يا الوان الشمس الغاربة... ايها الليل، ايتها المياه... ايتها العطور... انخلينا... خذي من بيتي الريفي كل ما تريدين...
انخلينا: لا اريد منك اي شيء اريدك ان تعيش، وتشع مثل الماسة في الوسط الادبي... اريدك ان تقول الشعر لكل الناس... وحدي اعرفك كيف تكتب... كيف تردد ما تكتب، كيف تغني، كيف تعزف، بدم المسيح انك طفل كبير... صدقني انت تدفع حياتك بسبب شهرتك كشاعر... إنهم يحسدونك... وإلا فبأي سبب...
لوركا:(ضاحكاً) ربما بسبب شهرتي... بل فعلاً بسبب شهرتي، انها ستكلفني شبابي...
انخلينا: آه لو سمحوا لي ان اموت بدلاً عنك يا فيدريكو.
لوركا: لا انهم يريدون حياة فيدريكو گارشيا لوركا، فلا يبدلونني بآخر...
انخلينا: فيدريكو...(تبكي) ارجوك مت بطلاً... اقول لك هذه الكلمات والنار تأكل في أحشائي... لكن مت بطلاً...
لوركا: إنني يا انخلينا في موقف مصيري خطير، من اجل اسپانيا، السعيدة، المزدهرة غداً، ومن اجل تاريخي، يجب ان اموت كإنسان شريف وشجاع.

الحارس: (ينادي) يا إمرأة... قلت لكِ ربع ساعة... بقية الحراس على وشك المجيء... عجلي... اترجاكِ... اخرجي قبل ان يراكِ احد هيا...
لوركا: إذهبي يا اختي العزيزة، يا امي الحبيبة، يا نجمتي، يا انخلينا الوفية، لا تجزعي... لا تكوني شاردة اللب من اجلي... ماكتب قد كتب... هذا قدري... تذكريني عند الفجر... في الليل... في كل الفصول... طالما انتِ حية... إجمعي جميع مخطوطاتي واعطها لاخي فرانسيسكو، او لأختي.(تحتضنه وتبكي) وداعاً.
انخلينا: وداعاً ايها المليء بالرحمة... وداعاً اقول وانا اختنق بالشهقات...وداعاً ايها النبيل الكريم... وداعاً يا من لن اعرف اين سيكون قبرك لأجيء وأذرف دموعاً عليك. لأقبل الجروح التي سيفتحونها في صدرك...(تبكي بحرارة اكبر) إغفر لي اذا كنت قد قصرت ذات مرة في خدمتي.
لوركا:(يقبلها) اذهبي ايتها الوفية... ايتها القديسة. إذهبي بسلام. قبلي جميع الاصدقاء...
الحارس: (بصوت غاضب) يا إمرأة... ماذا؟ هل تريدينني أن أموت انا الاخر...؟ عجلي بالخروج...(تلوح انخلينا للوركا وتخرج... اظلام... بعد قليل يسلط الضوء على الضابط)
الضابط: ادخل... تحرك... ابقى مع المدعو لوركا ريثما اتسلم الأوامر الاخيرة من القائد كوزمان...(عزف حزين على الگيتار... يدخل الموسيقار الاسباني العظيم، والوطني، والمعلم البارع لشعب غرناطة... ديونسيكو كوترالیز)
كوترالیز: (تنتابه دهشة شديدة) ماذا؟ هل انا في حلم؟ فيدريكو الحبيب... انت هنا... متى القي القبض عليك؟
لوركا: قبل ايام... آه... لكم تبدو متعباً يا كوترالیز،(بحزن) انت مرهق جداً...
(يضرب على قلبه بباطن يده) تحطم، تحطم يا قلبي الحزين. (يحتضنه بحرارة وحب) كيف حال موسيقارنا العظيم؟
كوترالیز: متعب جداً يا فيدريكو... لقد عذبوني كثيراً...ايه... هكذا هي الحياة...على اي حال، لست أسفاً... لقد عملت بكل قواي من اجل الجمهورية... الآن تعقدت الامور، ليس من السهل فك خيوط ذاك التشابك الذي يجري في الساحة...

الحرب هي الحرب... تعرف يا فيدريكو ما كان بالامكان تحمل رتابة النظام، وتلك الحياة الملكية، الميتة. من الخزي بل من العار ان يرغب الانسان في ان تطول حياته حين يعجز عن تغيير حياته البائسة، حين يعجز عن تأليف ما يحس به، وحين يرى الشعب بائساً... الست معي يا فيدريكو؟

لوركا: معك يا عزيزي كوترالیز، يبدو اننا إذا سقطت الجمهورية سنواجه حكماً اكثر دمويةً من حكم ريمون دي ريفيرا.

كوترالیز: فرانكو اكثر دموية من ريفيرا... أكثر بكثير...

لوركا: الاتأكل لقمة من هذه الدجاجة... لدي زيتونات لذيذة... وطرشي، ولحم مقدد...

كوترالیز: حقاً... يبدو انهم يحترمونك هنا.

لوركا: يحترمونني... مستحيل... هذه الاشياء جلبتها لي خادمتي انخلينا.

كوترالیز: انخلينا! كيف وصلت الى هذا المكان المنيع... كيف سمحوا لها بالمجيء ، والدخول؟

لوركا: انخلينا تعمل المستحيل... انت تعرف الاسپانيات الوفيات.

كوترالیز: (يأكل) لم اذق اي شيء لأكثر من يومين... لقد اهانني ذلك الدموي الغبي خوسيه كوزمان.

لوركا: معي ايضاً استعمل أقذر، واشنع لغة.

كوترالیز: كنت اتمنى ان تسمعني وأنا ارد عليه... لقد اسمعته كلمات قاسية لن ينساها ابداً...(يأكل برفق ويتكلم) قال لي، يا ديونسيكو كوترالیز،سأرميك مثل الكلب... قلت له، أيها الجبان بسبب جبنك توظف جميع طاقاتك التدميرية من أجل قتل أمثالي... أنت لست أكثر من كتلة محمومة ومجنونة من الأنانية، والغباء، تعمل بهستيرية لأرضاء بضعة جنرالات، ايها الفاشي القذر...

لوركا: رائع يا كوترالیز العظيم...

كوترالیز: وأضفت، انت ايها القائد ستُرمى ذات يوم مع النفايات في التاريخ...

لوركا: (طرب لكلمات كوترالیز) برافو... برافو... ياعظيم... الآن اكمل هذه اللقيمات.

كوترالیز: (يأكل) أتعرف يا فيدريكو، قبل إعتقالي بحوالي إسبوع ربما أكثر أنتهيت من تلحين مقطع جميل من ديوان أغاني الغجر...

لوركا: (بفرح) حقاً...

كوترالیز: لو لم اكن مرهقاً لأسمعتك مقطعاً.

لوركا: بل يجب ان تسمعني... قد لا نرى بعضنا، لأن الجلاد خوسيه أصدر بحقي أنا الآخر حكم الموت بالرصاص.

كوترالیز: (بحزن شديد) آه... لا لا...

لوركا: طبعاً يا عزيزي، معي أيضاً دخل في ثرثرة طويلة...

كوترالیز: هل أهنته؟

لوركا: لم أستعمل نفس كلماتك، أنت حاد... استعملت كلماتي الخاصة... أنت تعرف مبلغ رقتي حتى مع خصومي...

كوترالیز: أعرف... أعرف... أنت رقيق جداً...

لوركا: أنسى الجلاد... لقد قرر مصيرنا... الآن أسمعني ولو مقطعاً من اللحن...

كوترالیز: سأحاول... أنا متعب... لكن سأحاول..(يغني بصوت خافت)

سودُ خيولهم
سودُ حوافرها
على اكسيتها لطخات
من الحبر والشمع تلمع
وإذ صنعت جماجمهم
من رصاص فهم لا يبكون
بأرواح من الجلد الصقيل
ينحدرون في الطريق.

لوركا: (يصفق) رائع... أحسنت يا كوترالیز... برافو... لحن جميل جداً.(وقفة) ايه يا موسيقار غرناطة العظيم... هل ادعو رياح السماء لتحفظك... لمن أصلي ان يحفظك يا صديقي.

كوترالیز: لا أحد يستطيع إنقاذي الآن سوى نفسي...

لوركا: كيف؟

كوترالیز: اطلب مقابلة القائد خوزيه كوزمان، وأعتذر له، وأسب الجمهورية و...

لوركا: وهل كوترالیز العظيم يفعل هذا؟

كوترالیز: لو أعطيت الف حياة أخرى، والف موهبة أخرى، بل والف عبقرية أخرى،

والف مجد آخر، لن أفعل يا فيدريكو، أنا غرناطي أصيل، أعبد إسپانيا، ولأجلها اموت الف مرة.

لوركا: (يحتضنه ويقبله بحرارة) لتسعد، ولتفتخر غرناطة الحبيبة بموسيقارها... بل لتفتخر كل مدننا بدءاً من غاليثيا، واسترامادور، واشبيليا، الى مدريد، لأنك أبنها البار...(يُفتح الباب، يدخل الضابط).

الضابط: (بجفاف) فيدريكو گارشيا لوركا، دينيسكو كوترااليز، تحركا.

كوترااليز: (الى الضابط) إمنحنا لحظات... (ينظر الى لوركا بحب، يحضنان البعض بحرارة) سنذهب الى الموت يا لوركا... لنذهب بثقة عشاق الى هذا الموعد الابدي. وسع نظراتك يا لوركا وأنت تمشي وسط الجنود... لقد منحك الاله الايبيري الاندلسي بسخاء موهبة شعرية عظيمة، فكن أهلاً لها في هذه اللحظات الصعبة... لا تدع الطريق تنهكك... تحدَّ تخوم الخطر... لتتماسك اقدامنا... الموت حق... والايام السعيدة حق على الذين سيأتون من بعدنا... هيا أيها العندليب لنذهب.

لوركا: هيا يا عزيزي كوترااليز.(يخرجان، اظلام طويل دليل على مرور الوقت، إطلاقات سريعة... صمت... تسمع الابيات التالية من الشعر وهي للشاعر بابلو نيرودا بألقاء جميل)

كنت يا مدريد طرية الجرح
وما زال النعاس يرهق عينيكِ
وتدافعين عن نفسك
ببندقية قديمة واحجار
وكنت تركضين في الشوارع
تاركة آثار دمك المقدس.

(اظلام...)

(يسلط ضوء على وجه الممثلة مارگريتا خيرگو، وهي من أروع الممثلات مع رولا ممبريفس مثلتا الشخصيات النسائية للوركا... مارگريتا على خشبة المسرح تمثل دور الام في مسرحية –عرس دم– للوركا).

المخرج: (يعطي إرشادات لمارگريتا) مارگريتا... يا عزيزتي... اريد مزيداً من الحنان،

والأسى في القائك. مزيداً من طعم العذاب في الكلمات... اريد ان اسمع لوركا في صوتك... اريد ان تطير الكلمات بعشرات الاجنحة لتثير الدهشة، والعذاب في المتفرج، اريد المتفرج ان ينتفض وهو يستمع اليكِ.

مارگريتا: حاضر... سأحاول... سأحاول.

المخرج: الآن ابدأي من مقطع : ما دموعكم... هيا يا عزيزتي.

مارگريتا: (تمثل بحرارة) «ما دموعكم إلا دموع العين... ودموعي تهمي عندما اكون وحيدة... إنها تصعد من أخمص قدمي، من جذوري وهي اشد حرقاً من الدم»

المخرج: (يصفق) هائل... رائع جداً... برافو... والآن أريد ان اسمع المقطع الآخر... إبدأي بنفس الطريقة من: سأصنع من حلمي... هيا.

مارگريتا: حاضر... (تبدأ) «سأصنع من حلمي حمامة باردة من العاج تحمل كاميليات من الثلج الى باحة الكنيسة... ولكن لا، ليس الى باحة الكنيسة، الى فراش الارض... لا اريد ان ارى احداً... الارض وانا...»

المخرج: (يصفق بحرارة)... برافو... برافو... يا مارگريتا... آه انتِ وذاك الساحر لوركا خلقتما لبعضكما، لنسترح قليلاً...

(تدخل الممثلة لولا ممبريفس وهي تبكي، وتصرخ)

لولا: آه... كارثة... يا مارگريتا... كارثة... وأية كارثة.

مارگريتا: (تنظر الى لولا بذهول) ماذا حدث؟... لماذا تصرخين يا لولا... لماذا تبكين يا عزيزتي؟

لولا: ويلاه... مارگريتا قولي وداعاً الى الأبد... سنبقى أعواماً طويلة نحمل الحزن تحت جلودنا.

مارگريتا: لولا... لولا... ماذا حدث... انتِ مضطربة... إنني اتمرن، وانتِ بهذا البكاء تفسدين عليّ كل شيء... ماذا جري... تكلمي؟.

المخرج: حقاً ماذا حدث... لماذا انتِ مضطربة... تكلمي.

لولا: تقول ماذا حدث؟ تمثلون عرس دم، وهناك سال دم حقيقي، لقد سال بسخاء دم الذي كتب عرس الدم.

المخرج: (بصوت مخنوق) ماذا؟ فيدريكو؟ ماذا حدث له؟

لولا: (تبكي بحرارة) سنتحير عليه طويلاً... طويلاً... آه... اي قلب يستطيع ان ينسى

فيدريكو... ليتني لم اعرفك يا فيدريكو... لم ارى وجهك الجميل... ليتني لم اسمعك وانت تقرأ علينا بصوتك الحنون مسرحياتك، واشعارك.

مارگريتا: (بفزع شديد) لولا... لولا... هل انتِ جادة؟

لولا: طبعاً يا عزيزتي... لقد فتحوا له جروحاً كثيرة في صدره... هناك في وادي –فيزنار–، سوية مع الموسيقار الكبير ديونسيكو كوتراليز... هذا ما اخبرني به صديقنا ماركيز...(تبكي) الخبر يطير الآن في إسپانيا كلها... آه من ذاك الصدر المليء بالحب والرحمة... فيدريكو... فيدريكو...

مارگريتا: (تبكي هي الاخرى) يا مريم المقدسة... هل حقاً مات؟ هل حقاً لن نتجول بعد الآن معه في الارجنتين، وكوبا، ولن نقدم بعد اليوم –وهو معنا– عرس الدم، بيت برنارد البا... هل حقاً لن نذهب بعد الآن الى بيته الريفي في – لاهويرتادي سان فيسانتي– ولن نرى نظرة الطفل البريئة المذهولة في عينيه. لن نذهب الى نافذة بيته...لن نرى مزيداً من لوحاته، ونستمع الى كلماته. اي ظلام سيهبط علينا بعد رحيله...؟

لولا: (الى المخرج) لماذا لا تذرف الدموع يا غونزالز...أبكِ... الا يستحق فيدريكو ان تبكي عليه.

المخرج: (بحزن) من حقه علينا ان نذرف له الدموع... الهي، هل اصدق نفسي... سنفقد فصاحته الباذخة... حركاته الجميلة مثل حركات الشرقيين، مهما كان حزننا، كآبتنا، بعد ربع ساعة من الاستماع اليه يذوب الحزن، ويجيء فرح بهيج...(يمسح دموعه) من يستطيع مثل فيدريكو ان يسمعنا كلمات عن طبقات الشمس السريعة العطب... من يغني لنا عن قوس قزح الرمل على الشاطيء.

مارگريتا: من مثله يمتلك موهبة القاء الكلمات بتلك السهولة؟

لولا: مثل اي اندلسي كان فيدريكو جريئاً.

مارگريتا: (مثل المجنونة) الهي انظروا الى وجوهكم، اي شحوب مقرور طاف على وجوهنا بهذا الخبر المخيف... آه... يا لولا، لقد فتحتِ بهذا الخبر ثقوباً في صدري، لن تجف دموعنا ابداً يا فيدريكو.

لولا: (تصعد لولا فوق خشبة المسرح، وتقف بهيئة حزينة بجانب مارگريتا) إذن لقد ماتت روحه... نكاته... لطفه... مقالبه الجميلة مع الاصدقاء... بهجته... الحانه المرحة...

مارگريتا: غاب فيدريكو إذن... فيدريكو الذي كان وجوده بيننا سحراً ذهبياً.

لولا: طفلنا الكبير الذي كانت السعادة تفيض منه... الان يجب ان نطلق صرختنا الحقيقية... الصرخة التي تجرح من الروح... الآن تيتمت إسپانيا.

مارگريتا: الآن، يجب ان نثير في اعماقنا كل بدائيتنا الحقيقية.

لولا: لندع كل الاحزان القديمة والجديدة تنتفض.

مارگريتا: في ارقّ قلب عرفته غرناطة صهروا الرصاص.

لولا: وسقط الأسپاني الكامل

مارگريتا: مات طفلنا المدلل الحبيب... (تبكي) طفلنا الاندلسي.

لولا: فتانا القشتالي.

مارگريتا: آه... يا تراب وادي –فيزنار– كيف تلقيت جسده الطاهر... كيف... كيف؟

المخرج: (بصوت حزين) البرقيات ستبقى حزينة.

لولا: كل البرقيات الشريفة تبكي الآن.

مارگريتا: كل الشفاه النظيفة حزينة.

لولا: لقد اصبحت طرق –الباسكودي لاكستيانا– خالية من احباء لوركا، والمقاهي التي كان يجلس فيها مهجورة...

مارگريتا: (غير مصدقة نفسها) هل حقاً بردت الاصابع التي كتبت عرس الدم؟ ماريا بنيدا، زوجة الاسكاف، أغاني الغجر.

المخرج: سيزهر رأسه الحبيب... وسيصبح فمه مرة أخرى بطعم الملح، وتزدهر رمانته، وتطير ثانية فراشاته الجميلة، وتلمع احجاره الكريمة، وتتوهج من جديد حبات زيتوناته... ولن يُضلّ الانسان الاسپاني، لا لا... لن يموت الانسان هنا بعد اليوم موتاً مجانياً... وإذا مات، يموت مقدساً، ويكون له ضريح القديسين... (يسلط ضوء ابيض على وجه وجه مارگريتا)

مارگريتا: (بألقاء حزين جداً، ومثير تلقي الابيات التالية)

لم يكن في اشبيليه أميرٌ مثله
يمكن ان يقارن به،
ولا قلب بهذه الموهبة الكبيرة
شجاعته المعجزة

كنهر من الاسود
وعلى غرار تمثال منحوت
قُدّتْ كرامته.

لولا: (يسلط الضوء على وجه لولا) سيداتي سادتي وأنتم تغادرون القاعة نتمنى لكم احلاماً جميلة، ونرجو ان تتذكروا طفلنا الاندلسي الصغير... وإذا حزنتم ذات يوم، ارجعو الى كلماته... ان هذا الغرناطي الشهيد خُلق ليمسح الاحزان من القلوب المتعبة.

ستار

***

مدينة مدججة بالسكاكين

مسرحية من فصل واحد

شخصيات المسرحية

- حمدي: شاب في حوالي الثامنة والعشرين، وسيم، طويل القامة، وثمة كآبة حادة في وجهه توحي بأحتجاج عنيف على الحياة... ورغم كآبته يتدفق، كلما انتابته حالات نفسية مضطربة، حيوية تارة، وبرود فجائي تارة أخرى.سريع الحركة، كثير الايماءات عندما ينفعل يشعر كما لو ان اللغة وحدها لا تفي في التعبير عن افكاره ومشاعره، وعواطفه المضطربة، يتكلم احياناً بمنطق مثل مثقف حقيقي، واحياناً بلا ترابط منطقي وكأنه يهذي.
- بثينة: فتاة في نفس عمر حمدي، جميلة جداً، ورشيقة، هادئة عندما تتكلم، حركات رأسها، ويدها وكذلك جسدها تطفح عذوبة، وتفصح عن أعماق إنسانية طيبة، وحزينة، فهي إنسانه صادقة لا تعرف الكذب.
- احمد: الاخ الوحيد لحمدي... شاب رقيق، يتكلم برزانة وتمهل، ويجاهد في ان ينتقي كلماته بدقة ليكون لها ايقا ع مريح ريان.

(غرفة الجلوس مؤثثة تأثيثاً ينم عن ذوق مرهف... يوجد بابان في الجدار الخلفي للمسرح متقاربان، احدهما يؤدي الخارج، والاخر الى غرفة النوم، على الجدار ما بين البابين توجد صورة كبيرة لحصان عربي في وقفة مثيرة، وعلى الجدران صور لمثلين عالميين وعرب، يختارها المخرج حسب فهمه للنص، وثلاث صور لحمدي في ادوار عطيل، وعربة اسمها الرغبة، وطائر النورس، منضدة عليها الة تسجيل وراديو، وسط المسرح منضدة مستطيلة للطعام حولها مقاعد... في الجدار الايسر نافذة عليها ستارة بلون النبيذ، والنافذة تطل على ساحة خالية... باب يؤدي الى المطبخ... الساعة العاشرة صباحاً، نهر ربيعي، الشمي ساطعة، احمد جالس فوق كرسي هزاز يستمع الى موسيقى هادئة ويصحح اوراق إمتحانات... يرن جرس الباب... يذهل ويفتح الباب... تدخل بثينة وهي ترتدي فستاناً حريرياً بلون الليمون يضفي على تقاطيع جسدها

الرشيق وعلى وجهها الفاتن تألقاً محزناً).

بثينة: صباح الخير... آه كعادتك تستمع الى الموسيقى واوراق الامتحانات امامك... مدرس دؤوب... اي والله دأب النملة... (تستمع الى الموسيقى للحظات) بصراحة انا غبية في الموسيقى... ربما لا امتلك مخيلة سمعية جيدة... لكن هذه القطعة هادئة...

أحمد: جداً... هذه القطعة تريح الاعصاب... إستمعي الى النغمات الهادئة... إنها تتلامى كشلال من النور، وتدخل الاذن برفق.(وقفة) آ آ آ. أنت جميلة جداً هذا الصباح... كل شيء فيكِ يومض بوميض المحبة...

بثينة: (بخجل) انت دائماً تخجلني بهذه الكلمات الحلوة.

احمد:أنا لا اقول سوى الحقيقة...(يلقي عليها نظرة طويلة) هذا الصباح مثلاً جئت لزيارة حمدي وانتِ بأكثر التبرج إغراء.

بثينة: احمد ارجوك... الذي يستمع اليك يقول انك تغازلني!

احمد: انا امدح خطيبة اخي... ماذا افعل وانا ارى كل هذا السحر في عينيكِ، وفي يديك، في وجهكِ... لا اقول سوى الحقيقة.

بثينة: شكراً... شكراً...

احمد: اكيد النهار جميل في الخارج.

بثينة: بل ساحر...

احمد: الربيع ...ربيع آخر... الربيع يملاء الانسان بمشاعر حالمة، ويغري بالخروج بعيداً، بعيدا عن المدينة، الى قرية نائية حيث الزهور البيضاء، والحمراء، والنرجس تغطي مساحات واسعة من الارض.

بثينة: انه الفصل الوحيد الذي يمس قلب كل كائن...

احمد: احسنتِ، آه... ويحدث الربيع ثورة في الدم احياناً، يفقد حتى الانسان الهاديء الرزين هدوء أعصابه فحذارِ...

بثينة: حذارِ مِمَ؟

احمد: أنتِ تعرفين ماذا اقصد ايتها الفراشة الليمونية...

بثينة: أنت وحمدي تتكلمان احياناً بلغة غريبة... أحياناً لا افهمكما.(وقفة) هل ما زال حمدي نائماً؟

احمد: لا... نهض في التاسعة... واخذ حماماً كعادته.

بثينة: بالماء البارد؟

احمد: طبعاً... وتناول كعادته فطوراً خفيفاً.(بصوت خافت) وردد كعادته عدة ابيات من الشعر لعدة شعراء... ومقاطع من هذه المسرحية وتلك... وبصوته الجميل غنى... ايه يا بثينة، السنوات السبع في امريكا، وتلك الكارثة المروعة التي حلت به حولته الى كائن غريب.

بثينة: احمد، بصراحة ترى هل يشفى، ويرجع كما كان إنسانا رائعاً كما عرفته... يا الهي... قل نعم يا احمد.

احمد: هكذا تقول تقارير الاطباء الامريكان الذي عالجوه هناك، وكذلك تقارير الاخصائيين هنا... اجل سيشفى.

بثينة: يا ليت... لكن متى؟

احمد: الزمن... الزمن وحده علاجه الحقيقي... هكذا تقول التقارير.

بثينة: (بحزن) الزمن... هذا الزمن الذي يجري، يجري، ماذا يترك وراءه لنا...؟ لا شيء سوى الشيخوخة.

احمد: ليجري مثل الحصان الجامح، انا واثق ان حمدي ذات يوم يشد رسنه ويأخذكِ بعيداً مثل فرسان القصص...

بثينة: اريده ولو لشهر واحد وهو بكامل عافيته.

احمد: لقد كانت اصابته عنيفة عقلياً... لقد رجوا له مخه... وكذلك جسدياً كانت اصابته بالغة... اما روحياً فقد تحطم... (وقفة) ورغم إضطرابه الفكري الشديد، فهو أحياناً رائع وواضح جداً، ويبدو معافى، جم النشاط، لديه حيوية فائرة، وحب حقيقي لكل ما هو جميل، ولديه شهية لا بأس بها... ثم اخيراً انه حي...

بثينة: نعم... انه حي... حي... لكن في عزلته... حي لوحده...

احمد: ما العمل.. لكل إنسان قدره... انه يحتاج الى عناية رحيمة منكِ، ومني، ومن اختي، بل منكِ بالذات ليرجع كما كان... لا تنسي العناية الرحيمة.

بثينة: لن يجد عندي سوى الرعاية، والعناية، والحب... إن عنايتي به رحيمة حد المبالغة... أنت تعرف إنني لم اعرف رجلاً غير حمدي في حياتي... فهو ماضيي وحاضري...

احمد: أعرف... أعرف... حمدي جدير بالحب... بحبكِ انت... والدتي المرحومة كانت تقول، انه منذ صغره كان وديعاً، رقيقاً، حساساً، خجولاً، إنطوائياً، يكره الكذب...

بثينة: أعرف... لقد عاشرته لسنوات قبل سفره الى أمريكا لدراسة المسرح، اعرف كم هو مهذب، وذو حس رائع، وكم هو نقي وطاهر، ايه، أعرف ادق مشاعره... أعرف عفة نفسه... (وقفة) تصور يا احمد قبل سفره بليلة واحدة كنا معاً لوحدنا، رجوته بحرارة أن يقبلني قبلة بريئة واحدة لمجرد الذكرى، رفض... (بصوت حزين) عندما اتذكر زمن الوشائج الجميلة التي كانت تشدنا لبعض، واراه الان وهو، الهي... (تبكي بصوت خافت)

احمد: الوشائج اقوى الان... اليس كذلك؟

بثينة: طبعاً... طبعاً... للمناسبة، هل انتابته اية حالة البارحة؟

احمد: ثلاث مرات، لكنها كانت قصيرة... الهي... انها حالات مثل الصرع لا يمكن التنبؤ بها ابداً، فترات الصرع تطول... وقد تأتي مرة واحدة في الشهر، أو مرتين... أما حالته فغريبة جداً.

بثينة: (تبكي بصمت) اواه، كم يكون حزيناً عندما يبدأ الصراع المضطرب في ذهنه... وجهه الجميل يفقد ملامحه المتناسقة، ويصبح كل شيء في ذاك الوجه أشبه بقناع شاحب.(تبكي بحرارة) لماذا! يا الهي، ماذا فعل هذا الملاك ليعاني بهذه الطريقة المؤلمة...(وقفة) كم مضى على عودته؟

احمد: شهران... لا تبكي... ماذا يفيد الحزن يا بثينة... لنسلم امرنا للزمن، هذا الساحر الذي يعرف كيف يشفي عذابات الجميع... (وقفة) اسمعي، خذيه هذا اليوم الى ناحية تازة... المكان هاديء والطبيعة جميلة، هواء الربيع يثير عنده الانتعاش والبهجة ويشجعه على المشي...

بثينة: لكنني أخشى ان...

احمد: ان ماذا؟

بثينة: اخذته قبل اسبوع لنتجول قليلاً، ولنحضر عرضاً مسرحياً صغيراً من فصل واحد، إضطرب بعد العرض، وتقبض وجهه، واصبح شاحباً مسحوباً من شدة الانفعال، اخذت سيارة اجرة ورجعت به الى البيت بسرعة.

احمد: لماذا تقبض وجهه... لماذا أضطرب، هل سمع شيئاً؟

بثينة: لا... بل لا اعرف... كما قلت انت لا تستطيع ان تحزر متى ولماذا يضطرب...

احمد: وماذا فعل في البيت.؟

بثينة: غيّرت له ملابسه، وهو، يتكلم بتلك الطريقة اللامنطقية، واخذته الى السرير ونام نوماً عميقاً، نوم من يعاني من ارهاق شديد.

احمد:لا عليكِ يا عزيزتي، يحدث هذا معه في البيت ايضاً، (بحيرة) ان الطرق لمعرفة مشاعره وافكاره مغلقة حالياً.

بثينة: الى متى...! اعرف ستقول الزمن...

احمد: لفترة... لفترة يا عزيزتي. (يحاول ان يغير الموضوع) انظري الى صورته هناك... كان في السادسة عشر... كان موهوباً منذ صغره، ويقلد بدقة ذلك الرائع الذي لا يقلد ابداً.

بثينة: من تقصد؟

احمد: شابلن... ايه كنا جميعاً نروح في ضحكٍ طويل... وكان يغري اختي فاتن ان تمثل معه، وفاتن عديمة الموهبة تردد حوارها ببغائية مضحكة ... كان حبه للمسرح كبيراً.

بثينة: والآن، بعد ان حصل على الماجستير في الاخراج، رجع مهلوساً، قتلوا له كل احلامه، فقد كل شيء.

احمد: لا... لم يفقد اي شيء، انه في محطة راحة... تريثي واصبري...(يحاول مرة اخرى ان يغير الموضوع) بثينة، للمناسبة، كيف ولماذا اخترتِ دراسة علم الفضاء؟ (مازحاً) عالمة فضاء مع عالم مسرحي... معادلة غريبة... اي تناقض.

بثينة: كنت اخشى الفضاء، اخشاه خشيتي من الافعى، من منا في كل الاعمار لم ينظر طويلاً الى السماء، ويتأملها في الليالي، ومن منا لم تنتابه الدهشة، والحيرة من منظر ملايين النجوم، والسماء اللامتناهية، ملايين النجوم تومض، والنيازك تسقط وهي تشع، وتلك الحكايات الخرافية عن سقوطها... كنت يا احمد في فترة مراهقتي انظر الى السماء، واستمع في ليالي الصيف عن طير ظل السرب وهو يطلق صوتاً حزيناً، واراقب النجوم، وافكر بالحكايات الخرافية عن سقوط النيازك، وابكي بكاءً حاراً من خوفي... (وقفة) في الاعدادية اصبح الفضاءاكثر غرابة، والسماء اكثر اثارة لفضولي، وتلك الندوات التلفزيونية عن الفضاء...

وحديث الدكاترة، واختصاص والدي في الفيزياء، وقصص علمية جميلة (وقفة بحرارة) احمد لو تقف خلف التلسكوب وتنظر الى السماء اللامتناهية، الى زحل، والمشتري، والمريخ، والمجموعات الجميلة من النجوم البعيدة، البعيدة جداً.

احمد: (يرتاح لاندماجها في الحديث) حتماً عالم رائع جداً جداً ... اسمع، هل تعتقد ان زحل مثلاً وهو الكوكب العملاق الثاني في المنظومة الشمسية، يوجد فيه غاز الامونيا.

احمد: غاز... الامونيا... كيف؟

بثينة: كيف... حسن... في حالة متجمدة ، ويغطي هذا الغاز المواد الصخرية.(وقفة) اتعرف ما لون زحل.

احمد: لا طبعاً.

بثينة: (تتكلم بحرارة اكبر) كيف تتصور لونه مثلاً؟

احمد: ضاحكاً .

بثينة: هاهاهاها... مستحيل... هذا اللون الذي تراه هو اللون العادي... لو رأيت «زحل» بواسطة التلسكوب، اتعرف ماذا ترى؟

احمد: (بتعجب) ماذا؟

بثينة: اولاً يبدو باللون الاصفر، ثم الاخضر في بعض المناطق الاخرى. إضافة الى ظاهرة مثيرة على سطحه، حيث يبدو، آه...لون قطبه المواجه للشمس اعمق من القطب الاخر الاكثر لمعاناً... شيء مثير جداً.

احمد: (يطلق ضحكة لا إرادية، وتشاركه بثينة في ضحكة حلوة) الهي ما هذه الالوان.

بثينة: (تتكلم بنفس الحرارة) انها فعلاً تشكيلة من الالوان الساحرة، ثم ان «زحل» يا احمد يميزه عن بقية الكواكب وجود النظام الحلقي الذي يحيط به.

احمد: (ملاطفاً اياها، وبتعجب) ما معنى النظام الحلقي؟

بثينة: حلقات منتظمة، موازية لخط استوائه، وذات لون رمادي محمر ...

احمد: (يقلد بثينة وهي تلفظ الكلمات) لون... رمادي... محمر حسناً يا عزيزتي ماذا تعمل هذه الحلقات؟

بثينة: لا تعمل اي شيء... هكذا هو زحل... هاهاهاها... الحلقة لونها رمادي... وعرضها ١٠٠٠٠ ميل، والحلقة الوسطى عرضها ١٦٠٠٠ ميل، وهي اكثر الحلقات

لمعاناً... (بأندماج) وتدعى الحلقة اللامعة... آه يا احمد لو رأيتها.

احمد: من اين جأت هذه الحلقات؟

بثينة: اجسام صلبة ناتجة عن تهشم التوابع بسبب تصادمها... اوه... حلقات تتكون من ملايين المواد الصلبة ممزوجة بالاتربة الكونية...

احمد: (ضاحكاً) كل هذا الحديث الملغز ونحن بعد في زحل.(يضحكان) الا تنوين التخصص في موضوع معين؟

بثينة: تعرف انني كنت اريد ان التحق بحمدي في أمريكا لأتمام دراستي، لكن الكارثة التي حلت به... وعودته الى الوطن...

(يسمع صوت حمدي وهو يغني)

الحلوة دي قامت تعجن في البدريه
والديك بيندە كوكو في الفجريه
ياالله بنا على باب الله يا صنايعيه
يسعد صباحك صباح الخير يا اسطه عطيه.

(يتوقف عن الغناء)

احمد: يعشق الشيخ سيد...

بثينة: وصوته جميل...

احمد: جداً...

صوت حمدي...(وكأنه يخاطب شخصاً)

انت متخاذل.

اعرف.

وخنوع.

جداً.

ولا تملك من امر نفسك شيئاً.

أبداً.

وأنت تلتذ بالألم والاذلال.

إنني بأختصار إنسان ضعيف.

جداً... لكنني لا احتقر ضعفي أبداً...

لماذا؟

الضعف قدري... وأنا بصراحة لا استطيع أن اعيش خارج حدود شخصيتي...

ها ها ها ها، لديك اسهال قوي في قول الحقيقة.

(ينقطع صوت حمدي، بثينة واحمد يتكلمان بصوت هامس).

بثينة: هل يقرأ في نص مسرحي؟

احمد: (يفتح الباب المؤدي الى غرفة نوم حمدي بهدوء، ثم يعيد غلقه) لا... انه مستلقٍ يحدق في المرآة ويكلم نفسه.

بثينة: يكلم نفسه؟

احمد: أحياناً يكون مخموراً بغضبه... آه... الخيالات تهوى عليه مثل الصاعقة.

بثينة: أعرف... الهي، وكم يكون حزيناً عندما يردد عبارات مثل تلك التي رددها الآن.

احمد: لا تيأسي... سيرجع كما كان ... سيخرج من دوامة إضطرابه...

بثينة: (مثل اليائسة) سيرجع... سيرجع... كما كان... في الحلم.

احمد: لديه إرادة لا بأس بها.

بثينة: نعم... ترى ماذا كان يقصد بتلك الكلمات التي رددها عن الضعف، والخنوع، وكأنه يخاطب إنساناً؟

احمد: اوه... هو في الحقيقة يردد أشياء كثيرة... لم انتبه الى كلماته... احياناً يتكلم طوال المساء... في الليل... يردد أبياتاً من الشعر... يغني... أعتقد قال كلمات عن الضعف والخنوع...

بثينة: (تحاول إسترجاع عدد من كلمات حمدي) أنت متخاذل...

أعرف...

وخنوع...

جداً.

ولا تملك من امر نفسك شيئاً.

أبداً.

(وقفة) لأول مرة أسمع هذه الكلمات...

احمد: فعلاً... لكنها كلمات... ايه... هو يردد أشياء كثيرة.

بثينة: (بتألم وهي تجفف وجهها، الذي يظهر تعبير مرتبك عليه) كلمات تثير الحزن...

والخوف أيضاً... ترى من يقصد بهذه الكلمات؟

احمد: هو وحده يعرف... حمدي مثقف ومتعدد المواهب، رأسه مليء بالافكار... (وقفة) وبسبب حالته الصعبة تهيمن عليه أفكار كثيرة ويروح عقله ووجدانه في إضطراب. هذه حقيقة يا بثينة، وعلينا تحمل هذه الحقيقة ريثما يشفى.

بثينة: لقد اصبح غامضاً... غا... مضاً... جداً.

احمد: مجرد ان يسترجع عافيته يرجع شفافاً كما كان... نحن بحاجة ماسة الى الصبر.

بثينة: شهران مضيا على عودته وهو يصبح اكثر غموضاً...

احمد: لا يا بثينة... لقد كان إضطرابه الفكري مخيفاً جداً قبل مجيئه كما تقول التقارير، وكذلك معارفه هناك... نعم الصدمة كانت مخيفة، تأكدي انه الآن أحسن بكثير... صدقيني انه يتقدم... يتقدم الى الاحسن يوماً بعد الآخر.

بثينة: منذ عودته لم يكلمني سوى مرتين بعاطفة حقيقية.

احمد: يا عالمة الفضاء... يا أنستي العزيزة، هذا لا يعني انه لا يحبك. العاطفة التي كان يكنها لك بعمق ما زالت في أعماقه... انه يحتاج الى مزيد من الصحو... حمدي انسان نبيل.

بثينة: حقاً... مخفيةٌ في اعماقه! يا ليت...

احمد: تقولين يا ليت! هل تشكين في عواطف حمدي، انه من الاسبوع المنصرم يلاطفكِ كثيراً... انه يمسد لكِ شعركِ أحياناً، ويزداد حباً عندما يراكِ... قبل ايام رأيته وهو يحاول ان يقبلكِ، وأنتِ ترسمين إبتسامة إغراء ناعسة على وجهكِ... حمدي لن يحب احداً سواكِ...

بثينة: ماذا! هل كنت تتلصص علينا؟

احمد: ابداً... ابداً... رأيتكما بمحض الصدفة، من نافذة غرفتي.(وقفة) بصراحة، الطبيب كلفني ان انقل اليه كل تطور ايجابي يحدث معه.

بثينة: انه يتقدم الى الاحسن إذن؟

احمد: بالفهم الطبي نعم... وانتِ... ألا تلاحظين مقدار التقدم.

بثينة: (بحزن) ارى... ماذا اقول... لا اعرف... ربما.

احمد: خطوةً... خطوة... لا توجد حلول سحرية في هذه الحالات الصعبة، يجب ان نؤمن

بالطب، بالزمن، بالحب...

بثينة: (تبكي) يالحبيبي وصغيري المسكين الذي لم يحظ بأحلامه الجميلة.

احمد: البكاء بهذه الطريقة من عالمة فضاء، لا لا...

(يسمع صوت حمدي يردد)

أنا جريحٌ انظروا اليّ
بحاجة الى حيوات كثيرة

***

أُفٌ لمن لم يجرح
لمن لم يشعر مطلقاً بجروح الحياة
لجريح لم يطمئن في حياته مغتبطاً.(*)

بثينة: (بعد ان تستمع الى صوت حمدي... بصوت حزين) يالحبيبي الجريح... يالحاجته الى حيوات اكثر...(تبكي بصوتٍ خافت) فعلاً جريحٌ لم يطمئن في حياته.

احمد: بثينة يا عزيزتي هل بالدموع نعالج مريضنا الحبيب.(بلطف) بدلاً من هذه الدموع التي لا تفيد، يجب ان تُسمعيهِ في كل لقاء كلمات بالغة الرقة والروعة... كلمات كما يقول الشعراء مليئة باللهيب...

بثينة: (تتنهد) وهل تعتقد انني لا افعل... بعد كل هذا الحب العنيف أنا مستعدة يا احمد ان اضحي من اجلهِ.(وقفة) لكن اذا كلمته في الحب مثلاً، يجيبني مغمغماً بشفتين رخوتين باردتين، ويتكلم بكلمات لا افهم منها شيئاً.

احمد: دعيه يتكلم كما يريد يا عزيزتي... لديه بقايا إرادة يجب ان يقويها أكثر... نحن بحاجة الى الصبر والمحاولة... بثينة انتِ تعرفين، ما إن تذوب الارادة حتى تذوب الحياة والانسان معاً، ليقل ما يشاء، ليسخر، ويهذي، ليتصرف كما يريد، انه بهذه الاشياء يرتاح نفسياً...

بثينة: (بحزن وصوت ذابل) وانت! ألا تقوم معه بأي دور مثلاً.

احمد: يا عزيزتي بثينة، لماذا تسألين سؤالاً بديهياً. ان دوري مقارنةً الى دورك صغير جداً... انت الاهم... انا اقوم بدور زخرفي مقارنة الى دورك...

(*) الكلمة معناها هلوسة الشخص لجسمه، اي ان المريض النفسي يرى جسمه متحركاً امامه كشخص غريب عنه.

بثينة: (بصوت دامع) يالإنتظار الطويل... يا للحياة الرتيبة الباردة التي عشتها وأنا انتظر...

احمد: هذه لغة بنات أُميات، ساذجات يندبن حظهن مثل القرويات.

بثينة: اليس من حقي ان اندب حظي؟

احمد: حظك! حظك: حظك رائع...(مازحاً) عالمة فضاء جميلة، في حب حقيقي مع فنان مسرحي، طبعاً حظ رائع...

بثينة: فنان رائع، نعم، لكنه رغماً عنه سقط في بؤسٍ اسود.

احمد: يا عزيزتي اي بؤسٍ اسود... أنتِ دائماً متشائمة، يائسة.

بثينة: آآآآآآآآآآ، يائسة، لا لا لا... ارجوك.

احمد: بل فزعة... مضطربة.

بثينة: لقد هزتني مصيبته... الا يجرح وضعه القلب... اتعرف كم مرةً يردد، انا جريح انظروا لي... يا احمد... لقد هزتني مصيبته. والظلم الذي اصابه...(وقفة) لقد عانيت سنوات رتيبة، وعشت علاقات باردة مع الاخرين، مثل الشاردة انتظره... والآن عندما اراه على هذه الحال، يا الهي، ألا يحق لي ان احزن. ان اضطرب، ان انتفض من المي...؟ لقد كنت صابرة اكثر مما يجب، وسأبقى... احمد لو عاش حمدي مريضاً طوال حياته، صدقني ان حبي له لن يعرف السلام... انني احبه بجنون...(وقفة) حمدي علمني كيف احب الحياة، من اجله مستعدة ان احرق حياتي وكأنها بلا قيمة...

احمد: (برقة) بثينة، يا عزيزتي، تتكلمين بهذه الحرارة وكأنني، وكذلك والدي، واختي لا نقدر مشاعركِ تجاه حمدي. لالا... ما قلته قبل قليل واضح جداً وموضع تقديرنا...(يمرح) ما اريده من عالمة الفضاء الجميلة، هو، ان تكون صورة مثل كوكب عطارد، وتشكيلة الوانه، ومواده الصلبة الممزوجة بالاتربة الكونية، ها ها ها ها... أقول، يا عزيزتي بمهارة المرأة المجربة، المعتادة على الحنكة، والتصرف الكيس، اي مثل السياسي الماهر يجب ان تكوني فنانة في معاملته.

بثينة: أين هو الشيء الذي لم اخاطر بنفسي من أجلهِ؟

احمد: انتِ فعلاً كريمة بتضحياتك... بل كريمة جداً.

(يسمع صوت حمدي يكلم نفسه، ويردد عبارات تارة منطقية، وأخرى غير منطقية)

صوت حمدي: مثلما تعرف الجذور اللينة للشجرة كيف تبحث في الارض عن غذائها، وتمتص العصارة لتنمو، هكذا حال هذه الانسانة التي تعرف كيف ومتى ولماذا ترمي شبكها حولي...

(يتوقف عن الكلام)

بثينة: (بصوت خافت) انه يقصدني انا... انه كان يستمع الينا...

احمد: ثم ماذا... ليستمع... ها ها... يقصدكِ انتِ... فكاهة.

بثينة: (بخوف) من يقصد إذن... اية إنسانة... الا تعتقد انه يسخر مني؟ الا تعتقد بأن ما قاله هو جواب على نصيحتك لي كيف يجب ان اتصرف معه...

احمد: يا عزيزتي... اقول لا... لا... ما هذه الشكوك ...(بصبر) يا بثينة هذه الكلمات يرددها بعد واحدة من تلك النوبات التي تنتابه.

بثينة: ربما يتصور انني ارمي شباكي حوله.

احمد: (يطلق ضحكة ساخرة) يا خفي الالطاف نجنا مما نخاف... بثينة... عالمة الفضاء المحترمة... ما هذه الشكوك؟

صوت حمدي: انا احب الجمال... النضارة، والنقاوة، ولا اتحمل المرارات اليومية... حتى عندما تمر بي حياة قاسية فأنا لا اتعمد أوهاماً سخيفة.

بثينة: ما معنى هذه الكلمات؟

احمد: يتكلم بلغة عربية واضحة... انه يحب الجمال. والنضارة، والنقاوة... وهو لا يحب اوهاماً سخيفة...(وقفة) انه واضح جداً...(وقفة) الاوهام يا بثينة لا تجلب سوا الكوارث ، وانتِ بصراحة جداً تتوهمين كثيراً.

صوت حمدي: (يطلق ضحكة قوية) انك تدورين حولي... ماذا تريدين مني... غريب امرك... هل ستبقين تدورين حولي كما تدور خيول الدراسة حول الدريس... أنا ... أنا؟

احمد: (بلطف ورقة): بثينة... ماذا حدث لكِ... اعرف ان قلب المرأة يرى اكثر من عيون عشرة وجال... لكن اوهامك غير معقولة... اين كياستك... هذه مجرد كلمات... انه مريض.

صوت حمدي: ها ها ها... جميل ان يسلم الانسان نفسه الى الاحلام وحتى الى الاوهام احياناً... كنت اتصور الحب بسهولة مضحكة، وكنت اقول ان اي فتاة

جميلة ترى شكلي الوسيم تأتي متدلهة وتحتضنني قائلةً أُحبك.

بثينة: ما معنى هذا الكلام؟

صوت حمدي: لا لا لا... أنت على خطاء... شعرها بسواد حبوب البليسان، شعرها يثير قلقاً مقدساً...(صمت قصير، يغني)

والطير بينده كوكو في الفجرية

يا الله بينا على باب الله يا صنايعيه

(يتوقف عن الغناء، يصفر مقطعاً من اغنية انا هويت وانتهيت)

احمد: هل اقتنعت الآن... لا يوجد اي ترابط بين الكلمات، والاغنية، وشعر يثير قلقاً مقدساً... انه يهذي احياناً...

بثينة: يهذي؟

احمد: يتكلم كما يريد... واحياناً بطريقة لا يفهمها سواه...

صوت حمدي: سمراء... سمراء... شهية لها انوثة حقيقية... وسط جبينها نونة بلون الكهرمان، وعيون بلون الفحم...(بصوت هامس) تتأبى عليّ، تهرب مني... لكن لا، ان هذا الحاجز الثلجي الذي تضعينه بيني وبينكِ لا يذيبه إلا انا... انا...(صمت... بعد قليل يطلق ضحكةً قوية، مع سيل من الغمغمات) الاطباء في امريكا يجيدون استعمال الكلمات الطويلة، كلمات ترن AUTOSCOPIC--HALLUCINATION ، أنا لا ارى نفسي غريباً في المرآة... صحيح ان وجهي احياناً غريب ومضحك.

(يدخل حمدي بسرعة يحمل بيدهِ إناء فيه تمر، لحيته طويلة، وجهه الوسيم حزين، ومتوتر... عندما يرى بثينة يضطرب قليلاً... يقترب منها خطوات قصيرة، يبتسم لها. ويربت على كتفها، وعلى كتف احمد، يضع الاناء فوق المائدة)،

حمدي: ما هذه المدية؟ ألا تثير المدية قشعريرة في النفس... (يلتقط المدية... يتأملها ثم يعيدها برفق الى مكانها) ...من اتى بها الى هنا؟

احمد: ربما فاتن استعملتها لقطع حاجة...(ينظر بخوف الى المدية...)

حمدي: (يلتقط تمرة ويقربها من فم بثينة) كلي... هذه النعمة العظيمة تجعلكِ اكثر جمالاً.(يلتفت الى احمد) انظر الى بثينة يا احمد، شفتاها رقيقتان كجناحي فراشة... اليس كذلك؟(يدس تمرة في فم بثينة) كلي يا عزيزتي، التمر فيه شفاء لكل مرض...

بثينة: (وهي تمضغ قطعة التمر) كيف حالك اليوم يا عزيزي؟
حمدي: (يشير الى صورة الحصان فوق الجدار) قوي... مثل الحصان...
بثينة: حقاً؟
حمدي: وسعيداً جداً... اعيش فترة إنشراح لا مديات لها...
بثينة: (بفرح) رائع... أنت سعيد هذا الصباح...
حمدي: (يضع تمرة أخرى في فمها) انا لا اعرف الكذب...
بثينة: اعرف... مجرد ان افكر بالكلمة اضطرب... انا مثلك يا حمدي.
حمدي: اعرف... اعرف.
بثينة: أنت صادق دائماً.
حمدي: ربما... لكن من منا لا يحمل احياناً افكاراً مُحرمة، وكذباً بريئاً.
بثينة: كمبدأ ... انت إنسان صادق، ونظيف...
حمدي: حقاً.
بثينة: وهل تشك في صدقك! (وقفة) ألا تتذكر عن محاضراتك لي عن حقارة الكذب، وتفاهة الكذاب...
حمدي: ذاكرتي متكلسة يا بثينة، لقد كلس النسيان ذاكرتي.
بثينة: ذاكرتك رائعة يا حبيبي.
حمدي: (يلتفت الى احمد) كيف حالك يا احمد؟ ما هذه الاوراق... دائماً اكوام من اوراق الامتحانات. مساكين الطلبة، دائماً تضطهدونهم بالامتحانات.
احمد: أنت منشرح وسعيد فعلاً هذا الصباح.
حمدي: منشرح! أحياناً يا احمد اتعرف على الجوانب السهلة في حياتي، فأكون منشرحاً.
(يلتفت الى بثينة) اي جمالٍ سماوي...
احمد: بثينة زهرة دائمة التفتح...
حمدي: (الى بثينة) فعلاً لماذا انتِ حزينة؟(يلقم آلة التسجيل شريط كاسيت، وتنطلق موسيقى هادئة)
بثينة: حزينة! ابداً يا عزيزي... إنني سعيدة جداً، واحمد يعرف مبلغ سعادتي.
حمدي: (يطلق آهة طويلة) رائع... اذن كلانا لدينا هذا الصباح فائض فرح... ها ها ها.

بثينة:(بِرقة) فائض فرح...
حمدي: اي، كلانا هذا الصباح في نقطة الصفر اليونانية.
بثينة: (بتعجب) ماذا تقصد بنقطة الصفر اليونانية؟
حمدي: نقط الصفر اليونانية تعني الرؤية النقية... الفرح... الانشراح... (وقفة... بسخرية) كما تقولين انتِ مثلاً، الاتربة الكيمياوية، تراكمات صخرية ايونية...(الجميع يضحكون بحرارة) اليس كذلك؟
بثينة: بلى.
حمدي: ماذا بكِ انتِ حزينة؟
بثينة: ابداً... ابداً.
حمدي: (بإضطراب) انك، انك،
بثينة: انني ماذا يا عزيزي؟
حمدي: (بَاضطراب أكثر) إنك احياناَ تتصرفين بطريقة خرقاء، بإضطراب وكأنكِ غير واثقة من نفسكِ كما لو انكِ تعانين من امراض الطفولة، أو الكآبة المراهقة...
بثينة: (بخوف) لماذا هذه الاتهامات يا عزيزي... لست مضطربة ابداً، وتصرفاتي طبيعية جداً، وإنني لست خرقاء، وجداً سعيدة هذا الصباح، وجئت بلهفة بناءاً على طلبك...(وقفة) ومعك يا حمدي انا دائماً مليئة بالفرح، وبرغبات كثيرة...
حمدي: ورأسك!
بثينة: ماذا عن رأسي يا عزيزي.
حمدي: هل هو مليء بجحيم من الافكار مثل رأسي؟
بثينة: (ملاطفةً إياه) وهل انا عظيمة مثلك ؟
حمدي: (يطلق ضحكة ساخرة) أنا عظيم؟
بثينة: أنت فعلاً إنسان عظيم...
حمدي: (بصوت قوي) طز...زززززز...
بثينة: (تبتسم له بحنان) الكثير من الافكار لا توجد إلا في الرؤوس العظيمة.
حمدي: (بتمثيل) لقاء هذا الأطراء، لا أملك يا آنستي شيئاً أقدمه لكِ سوى حرارة روحي...
بثينة: وأنا بدوري أقدس حرارة روحك...

احمد: (متدخلاً) إسمحا لي ان اترككما لوحدكما.(مازحاً) اعرف ان لديكما حديثاً طويلاً.

حمدي: الى اين؟

احمد: الى المدرسة.

حمدي: آه... الى المدرسة... آه... يا مقاعد الدراسة، ايتها الطفولة الهاربة، والصبا، والشباب، للمناسبة ماذا تدرس؟

احمد: الانكليزية.

حمدي: آه... وهل ما زلت مستمراً مع تاجر البندقية؟

احمد: نفس المادة...

حمدي: تحياتي اذن لانطونيو وبسانيو.

احمد: (وهو يضحك بحرارة) واصل يا عزيزي.

حمدي: واحتقاري، ولعناتي لذاك اليهودي القذر شايلوك..(يضحكون)

احمد: واصل ايضاً.

حمدي: بثينة... اليهود خنازير لا تعرف الاسترخاء... في مدينة شيكاغو يتدفقون مثل الزنابير الهائجة الى حيث المال.

بثينة: مدينة شيكاغو... كان اسم هذه المدينة يرن في أذني بأستمرار وانت هناك تدرس... لقد وعدتني ان تكلمني عن دراستك في المسرح...

حمدي: (بذهول) المسرح... هل كنتِ تذهبين الى المسرح؟

بثينة: لا يوجد مسرح في كركوك... المسرح في بغداد فقط... كنت احضر بعض العروض أيام كنت ادرس في بغداد.

حمدي: (بذهول اكثر) بعض العروض. (بتوتر) أثناء العرض هل كنتِ تبقين مشدودة الى كرسيك حتى النهاية؟

بثينة: نعم، اذا كان العرض جيداً...

حمدي: بماذا كنتِ تشعرين وانتِ تغادرين عرضاً جيداً؟

بثينة: كنت اشعر بحالة خاصة جداً، مشاعر غامضة مثلاً، عاطفة جميلة، بفرح احياناً، وبألم... لا اعرف...

حمدي: (يذرع الغرفة... يوقف الة التسجيل... يغني)

اواه من البستاني الظالم
الذي ارسل زهوراً قليلة لحبيبتي
التي عرشها في القلعة.

بثينة: هل ما زلت تتذكر هذه الاغنية التركمانية؟

حمدي: هناك اغانٍ تركمانية جميلة عن قلعة مدينتنا... (وقفة) هل قدمت لكِ زهوراً...

بثينة: زهوراً؟

حمدي: كان يجب ان اقدم لكِ زهوراً كثيرة.

بثينة: لماذا؟

حمدي: لانكِ كنتِ تذهبين الى المسرح.

بثينة: ماذا؟ انك مندهش من ذهابي الى المسرح؟

حمدي: (بذهول) مندهش! مندهش... من الذي لا يندهش... انا بحاجة الى الدهشة... بل الى الدهشة المستمرة... (يضطرب فجأةً، يصفع رأسه، وتنتابه واحدة من تلك الحالات التي يتكلم فيها بلغة غير مترابطة احياناً، وبلغة منطقية جداً أحياناً. أثناء حديثه يسلط ضوء ازرق على وجههِ)

حمدي: هل تسمعين هذه الاصوات، انا لا استطيع ان اتجاهل الضوضاء ، بينما لا يستطيع الجهاز العصبي الذاتي اهمال الضوضاء كعامل يؤدي الى الإضطراب... وتسجيل التهيجات، الضوضاء في المخ، هل الأرق... الارق... ثم التهيجات... في شيكاغو الاطباء يسمونها PSCYCIC CONDITIONED ... ها ها ها... هل سبق وان رقدتِ في المستشفى لتعالجي جروحاً عميقة في الجمجمة؟ بثينة كوني على ثقة... هناك دائماً تناقضات في كل شيء... البروفيسور مارتن في كلية –كودمان ثيتر حيث كنت ادرس الاخراج كان يقول: بارمندس يقول ان الواقع ينفرد بالوحدة، وعدم التغيير، فكنت ارد عليه، لكن يا حضرة البروفيسور مارتن لا تنس ان تلميذه ليبوس الذي شرع في تنظيم الذرية، كسر كرة استاذه الصلبة وجعلها تتألف من جسيمات دقيقة سماها ذرات، بحيث لا ترى بالعين مجردة، والپروفيسور يضحك، ويقول: رائع ايها العربي الذكي، انت على حق... كنت اقول له، الا تتفق معي ان بارمندس لا يفيد، يضحك ويقول، لنعد الى ايسخيلوس مرة اخرى ونبدأ بدنيا المسرح...(وقفة)

بثينة أنا اتكلم عن التناقض، والدهشة التي تزلزل المخ. الدهشة الفعالة التي تخلخل المناطق المخية الثلاثية الحسية وتشلها الى درجة الصفر... الاطباء في شيكاغو كانوا يعالجون رأسي ويتكلمون عن المناطق المخية الثلاثية الحسية... وتبدأ الهلوسات في التحليلات وسط دخان غليان اولئك الأطباء، طرق على الاعصاب، تحليل الوظائف الفيسولوجية عند الانسان، وإدخال الطريقة التاريخية في الحياة العقلية للانسان، كنت اقول للبروفيسور مارتن، اسمح لي ان اقول ان على الممثل الجيد ان يصدر امراً باعتقال داخله، ويمنع التجول في اعماق شخصيته نهائياً عندما يمثل دور شخصية ما، وكان يضحك ويقول: يا لك من عربي ذكي...(صمت طويل).

بثينة: (جانبا) الهي ما هذا الهذيان... (لحمدي) إجلس يا حمدي... هل تشعر بألم في مكانٍ ما؟ انت لست طبيعياً.

حمدي: لماذا يجب ان اكون طبيعيا... هناك الم اصم... الم يكون مثل الاسيد... (وقفة) ماذا كنت اقول؟

عن اي شيء كنت اتكلم ؟ هل كنت اتكلم عن الخبرات الجمالية والذهنية عند الجمهور؟ ام ماذا؟...

بثينة: (تلاطفه) انت تتكلم في مواضيع عديدة، وبطريقة جميلة...

حمدي: (يمسح جبينه) غريبة جداً هذه الحياة...

بثينة: جداً... جداً يا عزيزي...

حمدي: فيها اشد العناصر تبايناً، فيها مفاجأة، تناقض، سوء تصنيف، هي قاسية حافلة بالنكات... اوه يصعب شرحها، تفسيرها... غير منطقية.

بثينة: الا تعتقد يا حبيبي انك مرهق... إذهب وتمدد قليلاً.

حمدي: (صارخاً) اتمدد... لقد تمددت طويلاً... ان ظهري تكلس من التندد... ارجوك انا اريد ان اتكلم... اتكلم.

بثينة: كما تشاء يا حبيبي... تكلم...

حمدي: في كلية –كودمان– كانت عندي صديقة تدعى جيجي.

بثينة: هل كانت جميلة؟

حمدي: جميلة؟ لا... لكنها كانت موهبة عظيمة... ممثلة ساحرة... (وقفة) كانت تقول لي،

حمدي انا اعرف كل جوانبك السهلة والطيبة، بل انت انسان مثل اي شرقي طيب وسهل. لماذا لا تحاول ان تعرف الجوانب المتسكعة، والبوهيمية في داخلي...

بثينة: كلمني عنها... عن جيجي.

حمدي: كانت تقول لي، حاول... حاول... انت لا تحاول معي اي شيء... تذوقني مرة... ستزداد شغفاً بي... ماذا... أأنت قديس ام ماذا؟ كنت تأخذني الى بحيرة ميشغان، أنا اتأمل البحيرة الجميلة، والزوارق، والنساء مثل دلافين فرحة يطفن فوق الماء، وهي تلقي عليّ محاضرة في اللذة.

بثينة: في ماذا؟

حمدي: في اللذة، تقول حمدي اريدك ان تفهم اللذة... نعم اللذة، هي وحدها تنمي الانسان... كل شيء يدب على الارض يبحث عن اللذة... اليست لديك -ANAL EROTIC الغريزة الـ... اللذة تعني الوجود... والوجود يعني اللذة... كانت دائماً تهذي باللذة.

بثينة: (تأخذه وتجلسه برفق فوق الكرسي الهزاز... ما زال مضطرباً) أجلس هل تريدني ان اهزك؟

حمدي: وهل انا طفل... هل هذا مهد... أم ماذا؟

بثينة: تكلم عن جيجي لا تنفعل.

حمدي: كانت تقول لي انظر الى نهدي الناعم كالقطيفة يذوب الماً ولذةً لأصابعك العربية السمراء...(فجأةً يقفز من على الكرسي مثل الملسوع، ويمسك رسغ بثينة ويجرها الى الصور المعلقة على الجدار...) هذه هي جيجي... وهذا انا... هذه جيجي الحارة جداً والموهوبة جداً، في دور–ستيلا...

بثينة: (وهي تشير الى صورته في دور عطيل) هل هذا انت ايضاً؟

حمدي: طبعاً... انا هنا عطيل... هل ابدوا قبيحاً؟

بثينة: لا... لكن.

حمدي: لكن ماذا؟

بثينة: لا شيء يا عزيزي.

حمدي: (يأخذ يدها بين يديه، يردد هذا المقطع من حوار عطيل) اعطني يدك، هذه اليد

رطبة، سيدتي...

(بعد لحظات يستمر في المقطع التالي...)

انها دليل الاثمار والقلي السخي.

حارة حارة ، ورطبة، يدك هذه بحاجة الى،

الاحجام عن الحرية، الى الصوم والصلاة،

الى التقشف الكثير، الرياضة، الورعة.

لان هنا شيطانا فتيا يعرق.

من دابه تمرد، انها يد طيبة.

يد حرة صريحة...

بثينة: لأول مرة اراك تغازلني.

حمدي اغازلك؟

بثينة: اما كنت تغازلني؟

حمدي: لا ... كنت اردد كلمات لعطيل..(وقفة) هل امثل لك مقطعاً من اللقاء بين سيبلا وستانلي...

بثينة: (بفرح) حبذا يا عزيزي ... حبذا...

حمدي:(يمثل مقطعاً من اللقاء بين ستيلا وستانلي، المنظر الثاني من الفصل الاول، وبغية تجسيد هذا المقطع لا بأس، ان يأتي صوت ستيلا، وبلانش من خارج المسرح، مع خلق الجو الملائم للمنظر) .

ستانلي: (حمدي يمثل دور ستانلي) ما هذه الاعمال الصبيانية كلها؟

ستيلا: اوه... ستان سآخذ بلانش لنتعشى في مطعم جلاتوارز ثم نذهب معاً الى السينما لانك ستلعب البوكر هذه الليلة.

ستانلي: هل عملت ترتيب عشائي؟ هيه... انا لن اذهب لمطعم جلاتوارز، ولا غيره للعشاء.

ستيلا: لقد اعددت لك طعاماً بارداً ووضعته في الثلج.

ستانلي: حسناً... اليس هذا بديعاً؟

ستيلا: سأحاول ان ابتعد ببلانش عن البيت حتى تنتهي من لعب البوكر ، لأنني لست ادري ماذا يكون موقفهما منه لذلك سنذهب بعد السينما الى احد تلك الاماكن

الصغيرة في الحي، ولهذا ارجوك ان تعطيني نقوداً...

ستانلي: اين هي الآن؟

ستيلا: انها تاخذ حماماً دافئاً لكي تهدىء أعصابها... انها في شدة الاضطراب...

ستانلي: وما سبب ذلك؟

ستيلا: لقد مرت بمحنة قاسية.

ستانلي: ياه.

ستيلا: لقد ضاعت منا –في الريف–.

ستانلي: البيت الذي في الريف؟

ستيلا: أجل.

ستانلي: وكيف؟

ستيلا: لقد قدر لنا ان نضحي به او اي شيء من هذا القبيل... عندما تدخل بلانش ارجوك ان تمتدح شكلها، كما ارجوك الا تذكر لها الجنين، انني لم اذكر لها شيئاً عنه. فأنيب انتظر حتى تتحسن حالتها...

ستانلي: أو هكذا؟

ستيلا: حاول ان تفهمها يا ستان وان تكون لطيفاً معها.

بلانش:(تغني في الحمام) من البلاد التي يبدو فيها الماء أزرق بلون السماء احضروا فتاة اسيرة...

ستيلا: امتدح ملابسها قل لها انها في ذروة الجمال. إن بلانش تهتم جداً بذلك، فهذا ضعفها...

(يتوقف حمدي عن التمثيل).

بثينة: (تصفق بحرارة لحمدي) رائع... رائع... للمناسبة لماذا تريد ستيلا ان تمتدح جمال بلانش؟

حمدي: (بصوت مثل الفحيح وهو يشير الى رأسه) لأنها مريضة هنا... هنا... الخوف هنا... في الرأس.(وقفة) أتعرفين ما معنى أن يكون الانسان مريضاً هنا؟. هنا الخوف ينشطر ويصبح فجأةً الفاً، بلانش مثلي مريضة، وتحتاج الى المساعدة.

بثينة: أنت لست مريضاً يا عزيزي... أنت مرهق قليلاً.

حمدي: ماذا! مرهق قليلاً... لا... ذهبت وانا في كامل عافيتي مثل الحصان، ورجعت

معي عطب في مخي... وفي روحي.(بحزن شديد) هكذا الانسان يا بثينة خُلق ليجري وراء امجاد وهمية، وهو، في الحقيقة لا يحتاج غير اشياء بسيطة ليكون سعيداً. اليس كذلك؟

بثينة: صحيح. لكن الطموح حق مشروع، وشيء جميل...

حمدي: انت الآن مثلاً سعيدة.

بثينة: معك انا دائماً سعيدة لأنني أحبك...

حمدي: كذابة.

بثينة: هل حقاً تشكُ فيّ... أقسم ... بكل ما تريد...

حمدي: (مازحاً) أنت تحبين «زحل» و«عطارد» و«الزهرة»... و«المريخ» .

بثينة: (سعيدة وهي تلاحظ الانشراح على قسمات حمدي) نكتة حلوة. ها ها ها... زحل... الزهرة وهي بعيدة عني ملايين الكيلومترات... لكنني احب الزهرة فعلاً.

حمدي: لماذا؟

بثينة: لان حرارتها لاهبة (٤٧٠)درجة مئوية. وانت تحب من؟

حمدي: احب ارضنا... أعشقها...

بثينة: آه، أرضنا الحبيبة.

حمدي: أرضنا الحبيبة... فوق هذه الارض توجد الحياة، والانسان العظيم، وفوقها توجد الاحزان، والافراح، والعذابات، والحروب، والكآبة، الكآبة، واخيراً الموت... الموت... (وقفة... يردد بألقاء جميل الابيات الآتية لبودلير)

أيها الموت،

أيها القبطان العجوز لقد آن الاوان !

لندفع المرسى!

فهذا البلد يبعث فينا السأم،

أيها الموت فلنستعد للرحيل!

ان كانت السماء والبحر سودا كالمداد

فقلوبنا التي تعرفها عامرة بأشعة النور...

(وقفة) أنا كئيب... آه من الكآبة.

بثينة: أنت تردد هذه الكلمات بكثرة لماذا؟

حمدي: في شيكاغو إنغرست فيّ الكآبة، والفزع حتى النخاع. هناك في تلك المدينة المتوجة بالرعب، والمدججة بالسكاكين والدولارات... كل شيء هناك يعمل على تأجيج الرعب، وتضييق الوعي.

بثينة: لماذا؟ وكيف؟

حمدي: الانسان يا بثينة مهما كان عظيماً هناك يُختزل بطريقة غريبة.

بثينة: ماذا! يُختزل...؟

حمدي: نعم... هناك الكثير من الاشياء مسموحٌ بها، لكن المأساة لا شيء هام ابداً... لا شيء هام... هناك الانسان ليس لديه بعد.

بثينة: لا افهمك.

حمدي: ايه، واقع صعب لا يستطيع الانسان تجاوزه ابداً.

بثينة: لا افهمك... لماذا مثلاً...؟

حمدي: اوه... يجب ان تعيشي هناك لتعرفي... (وقفة) كلميني عن عالمكِ الذي تعرفينه جيداً... كلميني عن عطارد... عطارد كلمة جميلة... احبكِ عندما تتكلمين عن النجوم... ما شكل عطارد...

بثينة: هل يهمك ان تعرف شيئاً عن عطارد؟

حمدي: طبعاً طبعاً.

بثينة: انت تمزح...

حمدي: أنا جاد... ماذا يوجد هناك...؟

بثينة: تكسوه الشقوق والتصدعات من كل جانب، يصل قطر البعض منها الى (١٣٠٠٠) كيلو متر.

حمدي: انتِ تتكلمين كطالبة مدرسة... مثل الببغاء... لا لا لا ... تكلمي بحرارة كما كنتِ تشرحين لي كوكب الزهرة... حسن... كلميني عن زهرة.

بثينة: لا توجد في الزهرة سوى الحرارة...

حمدي: بحرارة اكثر... حسن... كم يبعد اقرب كوكب عن ارضنا؟

بثينة: خمسة وعشرين مليون ميل...

حمدي: تكلمي... لا تتوقفي... تكلمي عن درب التبانة... كيف يبدو؟

بثينة: درب التبانة فيه ثلاثة مائة مليون نجمة...

حمدي: اي مجنون عدَّ هذه النجوم؟

بثينة: عدد تقديري طبعاً.

حمدي: العلماء ايضاً يهذون مثل المرضى في المخ، يقولون ان المسافات بين المجرات تستغرق حوالي مليون سنة ضوئية لقطعها.

بثينة: فعلاً.

حمدي: كلام... كلام... كلام.

بثينة: لكنه كلام منطقي...

حمدي: (صمت طويل) ليتني كنت نجماً... ايه تلك النجوم البعيدة السعيدة التي تبدو مثل الفراشات الذهبية... واحياناً مثل ندف الثلج، اليس كذلك؟

بثينة: نعم...

حمدي: واحياناً مثل فلينات فضية تطفوا كما تشاء فوق اللازورد.

بثينة: وتبدو كانها ناعمة نعومة مثيرة...

حمدي: آه... رائع... هكذا اريدك ان تكلميني عن النجوم... بلغة الشِعر... وليس كطالبة مدرسة... إستمري... ماذا بعد...؟

بثينة: مجموعة اضواء ناعمة... (لمجرد ان ترضيه) ساحرة... بعيدة... بعيدة.

حمدي: بثينة... ما الانسان اذا ما قيس بالازلية.

بثينة: لا اعرف... ان عقلي لا يستوعب.

حمدي: اقول مقارنة بتلك النجوم البعيدة... (تنتابه حالة نفسية مضطربة) النجوم البعيدة... بعيدة عن الفُسق والفجور والدعارة... تعيش حياة نظيفة...(يضطرب اكثر) في شيكاغو رأيت افحش حياة فجور، وفسق، هناك فقط تطبق كلمة MANIPUATION

بثينة: ما معنى هذه الكلمة؟

حمدي: هناك يا بثينة يستطيعون التأثير بطريقة غريبة جداً، بأغرب الطرق على الناس، ويدفعونهم، للقيام بأفضع الجرائم... والاعمال التي تتعارض مع مبادئهم... الهي ، هناك قتلة محترفون (صمت يصرخ) اتعرفين كيف بدأ الالم الاصم معي؟ كيف اصبحت مثل بلانش في المسرحية.

(يلتقط المدية من على المائدة ويجلس فوق الكرسي الهزاز بخوف وتضطرب

حالته النفسية... اظلام، يسلط الضوء على ثلاثة شبان امريكان يرتدون الجينز، ويضعون نظارات سوداء. الاول يحمل بيديه مدية، والآخر مسدساً والثالث الة جارحة صغيرة... يستمر في الحديث وبعد قليل ينهض ليدخل طرفاً مع الشباب) ذهبت الى مصرف (منهاتن) لاقبض المبلغ الذي يرسله والدي نهاية كل شهر، اخذت المبلغ وهو مئتا دولار ، وضعتها في جيبي . قبل ان اصل الى شقتي كان على ان اجتاز عدة ازقة. (بصوت خافت وحزين) فجاة ظهر لي ثلاثة شباب... الهي،... كانت عيونهم من خلال نظاراتهم السوداء تبرق بالغضب... صاح احدهم عليّ... ايها العربي قف... توقفت... قال... حتى هنا رائحة النفط تفوح منك... هنا انت من غير جمل ولا صحراء... ها ها ها ها... لا تستطيع ان تهرب... اعطني النقود التي في جيبك... في البداية لم افقد تماسكي، وقلت بلا مبالاة، اية نقود تقصد؟ قال بغضب وهو يلوح لي بالمدي، ايها العربي القذر، يا قتلة اليهود، يا اصحاب بالوعات النفط، قلت اعطني النقود... اجبته... ارجوك احترم نفسك، انا لست قذراً، اجابني بصوت مثل الفحيح اعطني النقود... يا من تطفون فوق بحيرات من النفط... اسرع... إقترب مني وصفعني بقوة.(تجسد جميع الحركات على المسرح) اردت ان اصفعه فإذا صديقه يطعن باطن كفي بالمدية، ثم طعنة في ظهري، وطعنة في رأسي... وإنهال الثاني بأخمص مسدسه عدة مرات فوق رأسي، وضربني الثالث في صدري بالآلة الجارحة، واستمروا يضربونني على رأسي، وهم يرددون. اسرع... اخرج النقود... ايها الاسمر القذر... اعطني النقود... بعد ذلك انهالت عليّ كعوب احذيتهم عشرات المرات... وافقت وأنا في المستشفى...(يبكي) ومنذ ذلك الوقت وانا متكلس الذاكرة، والمشاعر، ومليء بالرعب.(يخرج الشباب... يعاد الضوء الى المسرح كالسابق).

بثينة: (تمسح دموعها ودموعه) الكلاب. آه... لقد عاملوك بقسوة.

حمدي: واية قسوة يا بثينة. من اجل بضعة دولارات...

بثينة: ألا تحب ان نخرج؟

حمدي: أمس قلتِ لي إننا في الربيع.

بثينة: نعم يا عزيزي... انه نهار جميل... بل ساحر... الشمس مشرقة ودافئة، ورائحة الارض مثيرة... هل ترغب ان نذهب الى التلال في المنطقة الشرقية من المدينة...

انت تحب أزهار النرجس...

حمدي: نخرج الآن!

بثينة: لم لا.

حمدي: خذيني الى الصوب الكبير...

بثينة: لماذا الى هناك؟

حمدي: يعجبني منظر السوق هو مزدحم بالمارة... اريد ان ارى الدكاكين القديمة وانظر الى صانعي السروج... السروج دائماً تذكرني بالجياد...(يتكلم بفرح) اريد ان اراقب صانعي –الگيوة– ، والاحذية، وانظر طويلاً الى صانعي المناجل، والمساحي، والقي نظرات طويلة الى القلعة... القلعة...(يشتد به الفرح... يغني)

بيتها في القلعة
يالعرشها العالي
طلبت يدها، قالو لي انها صغيرة بعد...

بثينة: لكم انت مغرم بالأغاني التركمانية؟

حمدي: جداً... لنذهب...

بثينة: لا مانع لدي يا عزيزي، لكنك على ما اعتقد بحاجة الى اماكن هادئة... منطقة التلال، او ناحية تازة مثلاً

حمدي: هل التلال ارجوانية الشكل الآن؟

بثينة: الآن؟ لا... تكون ارجوانية في المساء... كانت ارجوانية في الصباح قبل انقشاع الضباب الخفيف.

حمدي: كركوك مدينة ناعسة.

بثينة: بل ساحرة...

حمدي: مدينة مليئة بالرحمة... تحب الجميع.

بثينة: من غير إستثناء.

حمدي: كركوك... آه... انها عروس المدن... وجهها الحالم...

بثينة: نارها الأزلية تهلل ليل نهار.

حمدي: في شيكاغو كنت احلم بها، واتخيلها، مع اوجع الامي، في هذياني، تحت انامل الاطباء كنت احلم بها، واقارن بينها وبين مدينة الفجور والفسق، والدعارة،

بثينة: يالحنانك وحبك الشديدين لها.

حمدي: انها كل تاريخي... وكل ذكرياتي... انها مدينة واضحة كالماء العذب. (بصوت حزين) بثينة... اشعر انني في وضع نفسي احسن اليوم... هل كنت اتكلم بوضوح؟ هل اضطربت كثيراً؟

بثينة: انت رائع ... وطبيعي جداً...

حمدي: إقتربي مني يا عزيزتي.

بثينة: (تقترب منه، إظلام، يسلط ضوء عليها فقط) نعم يا حبيبي...

حمدي: (بطريقة رومانسية) اتعرفين مقدار العاطفة التي يشتعل بها صدري لك يا بثينة؟

بثينة: اعرفها ... اقدرها.

حمدي: اعذريني إن كانت مشاعري تفتر رغماً عني، واجد صعوبة في المواصلة... اقصد مواصلة عواطفي الحقيقية... اولئك الفتيان زلزلوا عقلي، وروحي بضرباتهم...

بثينة: انك تتحسن كل يوم... انت مثلاً الآن رائع.

حمدي: اريد ان يستجيب قلبي لكل رغباتكِ... بل حتى نزواتكِ.

بثينة: وحتى إذا لم يستجب فأنا راضية بك كما انت.

حمدي: سأشفى ذات يوم... لا تهمني الجروح فهي تلتئم... الزلزال الذي في روحي، داخلي...

بثينة: ستشفى، ستشفى حتماً.

حمدي: يا لكِ من زهرة بشربة رائعة،

بثينة: اشكرك.

حمدي: (بصوت حزين) لماذا تجيبيني بصوت دامع وحزين... لماذا نظراتكِ شاردة وانتِ تنظرين إلي؟

بثينة: لأنني سعيدة... سعيدة وانا استمع اليك وانت تتكلم معي بحب، وبصوت هادىء، رقيق يؤثر في نفسي كثيراً... ماذا اريد اكثر؟.

حمدي: لماذا تحبينني لهذه الدرجة؟

بثينة: أحبك، لا اعرف... ربما لأنك الآن اصبحت كل حياتي، وقدري. اوه... دعني...

(تحتضنه بحرارة) إنني الآن اعيش لحظات حلوة... حلوة... انني معك اتحرر من كل شيء... من الذاكرة؛ من تاريخي كله... (وقفة) هاها، تقول لماذا احبك الى هذه الدرجة.

(بحرارة) إنك يا عزيزي إستحوذت عليّ بأفكارك، بوسامتك، بثقافتك، بحديثك الحلو... حمدي... حمدي... حتى لو طردتني فسأعود اليك بمجرد إشارة واحدة، مجردةً من كل شيء، مليئة بالحب، لانك زرعت فيّ رغبات جميلة غير مشبعة، اريد ان ارتوي منكِ(وقفة، بصوت جميل ومؤثر) إنني من غيرك ابقى على طعم الرماد... حمدي حبيبي، لا اريد ان تجهض اعترافاتي هذه افكارك، وتتركني في نصف الطريق...

حمدي: يا حبيبتي... باللفرق الشاسع بينكِ وبين صديقتي جيجي... باللبساطة، والنظافة، وبالذاك الجنون في البحث عن اللذة لمجرد اللذة... آه لو ارجع إنساناً سوياً.

بثينة: انت سوي.

حمدي: اقسم لكِ أنني إنسان غير سوي. اتصرف احياناً بتهور طفل.

بثينة: ثم ماذا؟ انت طفلي المتهور الحبيب... حالات سريعة وتزول...

حمدي: الى متي هذه الحالات... من سنة وانا إنسان ملغي أحياناً لساعات طويلة في النهار... لماذا المصاير معقدة، حمقاء، فجائية؟

بثينة: هكذا الحياة ... غريبة... ثم ان مصيرك رائع.

حمدي: رائع! اين ذاكرتي؟ اين صفاء ذهني؟ لماذا اصاب بهلوسات، لماذا اتصرف كما لو ان قوة غامضة تحركني؟ لماذا تأتيني الافكار تارةً واضحة، وتارةً مثل غمغمات، ثم فجأةً تتضخم في رأسي.(بصوت حزين) لقد حولني اولئك من اجل حفنة من الدولارات الى إنسان شقي... انهم يمهلونني ولو قليلاً من الفسحة...

بثينة: انسى يا عزيزي.

حمدي: لقد تعبت... اشعر انني اشيخ... منذ طفولتي وانا اعمل... بثينة صدقيني لقد كانت طفولتي ،وصباي، وشبابي عملاً متواصلاً... بصراحة لم اذق طعم الطفولة.

بثينة: (بحزن) يالحبيبي المسكين الذي لم يحظ بطفولة سعيدة ...

حمدي: (يضطرب فجأة) لماذا تشفقين عليّ... (تنتابه نفس الحالة النفسية) انظري... الهزيمة، الاحباط، الخيبة، السكاكين، الافلاس النهائي لكن الجهود ...(بإلقاء

مسرحي، وحركات مضطربة،، وتعابير وجه تنم عن الالم) لقد كانت المعركة غير متكافئة... انا انظر بنبل، وبطولة الى نفسي... ما كنت افقد شجاعتي ابداً لو كان معي شيء ادافع به عن نفسي. كانوا مجدحين بالسلاح...لا... لم اكن جباناً.

بثينة: طبعاً لم تكن جباناً...بل كنت شجاعاً وتحديتهم...

حمدي: آه... اعرف... ماذا؟ هل انا الآن ابرر موقفي؟

بثينة: أبداً... أنت لا تقول سوى الحقيقة... (صمت طويل).

حمدي: الكلمات تكذب...(يردد الابيات الاتية، للشاعر روفائيل البرتي...)

اشعر الليلة بأن الكلمات

مصابة بجروح مميتة.

بثينة: هل غيرت رأيك... لا تريد ان نخرج، ارى لو ترتاح قليلاً...

حمدي: (بحزن) تتركينني... فاتن لا ترجع حتى المساء. وأبي مسافر... واحمد هو الآخر يرجع مساءاً... لا يوجد في البيت سوى ابن فاتن... هل ابقى لوحدي... من لي سواك في هذه اللحظات؟

بثينة: ارى لو تستلقي لبضع ساعات...

حمدي: هل أنتهى النهار؟

بثينة: طبعاً لا... نحن في الظهيرة.

حمدي: لماذا استلقي إذن؟

بثينة: لترتاح... تنام... تحلم.

حمدي: أنام ! أحلم... آه... جميلٌ ان يسلم الانسان نفسه الى الاحلام... أحياناً حتى في منامي يخلق لي خيالي المصائب... استطيع فجأةً ان احلم بغابة من السكاكين.

بثينة: حمدي... عزيزي... انت تؤذيني...

حمدي: (بتعجب وفضول) اؤذيكِ؟ اؤذي بثينتي الحبيبة، اعرف اي عذاب مُرّ ان يؤذي الانسان غيره...(يزداد إضطرابه) اتعرفين ماذا تفعل الدراما؟

بثينة: الدراما... ماذا تفعل...؟

حمدي: الدراما بكل انواعها عرض للفعل الانساني، اقدمه انا، وانت، وممثلون اخرون... نكشف خلاله الفعل الانساني، والافكار والاعماق.

بثينة: ماذا تريد ان تقول بالضبط؟

حمدي: انني كل يوم اكشف لكِ نفسي... اقول عندما تهشمت جمجمتي تهشمت معها ذاكرتي، وروحي...

بثينة: ارجوك... ارجوك.

حمدي: (مستمراً بنفس التوتر في الحديث) وبدأ الالم الاصم...(يسلط ضوء قرمزي على وجهه) ألا تريدين ان تعرفي دراما حياتي... الا تريدين ان تعرفي الافيون الذي زرعوه في مدينة الفجور تلك... ألا تريدين ان تعرفي لماذا بقيت حتى الآن مجرد إنتظار...(وقفة... يغمغم مع نفسه، ويردد ابيات الشعر الآتية بطريقة الهلالوليا الكنسية)

هؤلاء نساء فلاندرز
ينتظرن الضائعين
ينتظرن الضائعين الذين
لن يغادروا الميناء ابداً

(وقفة) بثينة... بثينة.

بثينة: نعم... نعم...

حمدي: لمن هذه الابيات؟

بثينة: لا اعرف... انت رأسك مليء بمئات الابيات الشعرية.

حمدي: (ضاحكاً) لعطارد... لا... لزحل... (يصرخ) ازيحي الستارة وافتحي النافذة...

بثينة: (تزيح الستارة،، وتفتح جناح النافذة) نهار جميل... جميل...

حمدي: (يرسل نظرة طويلة من خلال النافذة) الفرس العجفاء ما زالت واقفة في مكانها قرب شجرة التوت... اين مهرها؟

بثينة: (تشارك في التحديق) ذاك هو المهر... ينط مليئاً بالحيوية.

حمدي: الفرس واقفة مثل تمثال... لاكثر من يومين وهي واقفة. انها هيكل عظمي ... حتى الربيع لن يعيد لها عافيتها.

بثينة: صاحبها قال لي انها عجوز ومريضة منذ حوالي شهر. يا لذاك الجري الجميل لمهرها.

حمدي: اي منظر حزين... فرس عجوز وحيدة لا تأكل ولا تشرب... اعتقد ان صاحبها سيقتلها... الهي، غريبة هي الحياة... اواه، فيها تناقض غريب، سوء تصنيف

مضحك، حافلة بالنكبات.(اظلام، دليل على مرور ساعات... يحل مساء شفاف خارج الغرفة، يسمع صوت طلق ناري، يذهب الى النافذة) اكيد قتل الفرس...(بعد قليل طلقة اخرى) هل كانت تلك الفرس العجفاء بحاجة الى طلقتين؟

حمدي: المهر يجري... ربما خاف من صوت الاطلاقة... (وقفة) لم يرجع احمد ولا فاتن... هذا صوت ابن فاتن، (ينظر الى صورة الحصان فوق الجدار) الحصان حيوان قوي... انه قوي مثل التاريخ... لا يموت بسهولة...(الى بثينة) اعتقد انه يجب ان تذهبي... هل ستأتين غداً؟

بثينة: أنا دائماً رهن إشارتك حبيبي.

حمدي: ارجوكِ... تعالي... احبكِ... تعالي مع مزيد من الحنان... إغفري لي وضعي الصعب. احبكِ. (تتجه لتخرج... صوت ابن فاتن ينادي الى بثينة) دقيقة (يذهب حمدي، ويخرج من الباب الذي يؤدي الى غرفة أخرى... يسمع صوت مثل الغمغمة... ضحك... بعد قليل صوت إطلاقة... تتجمد بثينة في مكانها، وتطلق بعد لحظات صرخة قوية)

بثينة: إنتحر...(تصرخ) حمدي... حمدي...(صمت يدخل حمدي)

حمدي: لماذا صرختِ؟

بثينة: تصورت إنك...

حمدي: ابن فاتن ضربني بمسدسهِ البلاستيكي.

بثينة: يا الهي...ظ

حمدي: أنتظركِ غداً.

بثينة: متى ما تريدني تجدني بجانبك.

ستار

***

إنهزامية حزينة

مسرحية مونو قصيرة جداً في فصل واحد

غرفة جلوس صغيرة جداً، فيها مكتبة صغيرة، عدة لوحات مطبوعة لفنانين عالميين من مدارس مختلفة... منضدة مستطيلة عليها عدة قناني جعة واوانٍ... جهاز تسجيل... فوق المكتبة كرة أرضية، الساعة تشير الى الثامنة والنصف ليلاً... شابان جالسان الى المنضدة يشربان بأستمتاع، الأول في الخامسة والثلاثين، وسيم يتحدث بحرارة، وبطريقة مسرحية عندما يعبر عن أفكاره، ومشاعره... يجلس تارةً أثناء الحديث، أو يتجول في أرجاء الغرفة، ويدور حول المنضدة... أما الثاني فيبقى جالساً مثل التمثال يستمع بأنتباه الى الأول، وعبثاً يحاول ان يقاطعه بين الحين والاخر ليبدي وجهة نظره، وعندما لا يعطيه الاول فرصةً للكلام يكتفي بأطلاق ضحكات تارةً ساخرة جداً، وتارةً باردة، وأحياناً يطلق قهقهات عالية، وبين فترة واخرى يسمع صوت نسوي ناعس ومثير لأمرأة وهي تكلم ابنتها، او تغني... يأخذ الأول رشفة كبيرة من كأسه وينهض...

الشاب الأول: ارجوك... ارجوك دعني اتكلم... لا... لا تقاطعني اعرف ان المتفائل الحقيقي تستسلم له المشاكل وتحل نفسها بنفسها. ثم من قال لك ان لدي مشاكل معقدة؟ أنت تريد ان تعذبني وأنا ما ازال في مقتبل العمر. يا عزيزي هناك سنوات طويلة للعذاب مهما عاش الانسان في سعادة... أنت تحاول إغرائي، وتُسمعني كلما جلسنا نشرب، كلاماً مجرداً خاصةً عندما تعزف على وتر موهبتي... آه... انا معك ان فرصة الحياة الحقيقية هي عندما يوظف الإنسان جميع طاقاته قبل ان يُرمى مع النفايات... ها ها ها ها... يالك من إنسان طيب. وانت... تعتبر تورطي الحنون في الرسم موهبة، وإطلاعي العميق على حيوات وأعمال فان كوخ، بيسارو، ديگا، مانيه، سورا، رامبرانت، ديلاكروا، موهبة أخرى... انت حزين لضياع طاقتي ...لا لا ... أنت رغم ثقافتك الجيدة لا تفرق بين الموهبة الحقيقية والابداع الخلاق... أنا اعرف جيداً حدود طاقتي...(يجلب من المكتبة البوماص كبيراً يتصفحه بعجالة) انظر... الى هذه اللوحة... اسمها اوتافيو ستراداا للايطالي تينتوريتو... تأملها جيداً... انظر الى الهدوء في السمات، وهذه

السكينة في المنظر، ولاحظ هذه الحرية في الحركات، والانسيابية الواثقة من نفسها... تأمل هذه الاستدارة الرشيقة... لو بقيت عشرات السنوات ارسم لن افهم المنظور مثله... (يريد الشاب الثاني ان يقاطعه.) لا لا ... لا تقاطعني اعرف ماذا تريد ان تقول ... هناك من يستطيع ان يكون نابليون، انشتاين، بتهوفن، شيكسبير، دستويفسكي، دافنشي، اما انا ، اوه صدقني لدي عقم حقيقي، وانت هاهاها، تحاول مداعبة غروري عن طريق إطراء مواهبي...(يشرب، يتنفس بعمق، يشعل سيجارة، ويستمر في الحديث) تقول لي ان الحياة لا تطاق لمن ليس له في كل لحظة حماس يهزه... كلام جميل... جميل جداً... أنا لدي الحماس للعيش ... للعيش فقط... (يطلق الشخص الثاني ضحكة ساخرة) إضحك انت حر... إضحك كما تشاء، وهل قليل ان يعيش الانسان ؟ إسمع،، مثل اي عاطفي انت تطالبني ان اترك شيئاً من بعدي... اليس كذلك؟... لماذا؟ الا يسقط الكل من الحساب بعد الموت؟ الموت يا عزيزي روح العالم... (يشرب بإستمتاع) الجنة الحقيقية ايها المثالي هنا كما يقول المتصوف الالماني يعقوب بوخمه، لكن الانيان لم يدخلها بعد...

(يرسم الثاني على وجهه بسمة ساخرة) ها انتذا ترسم على وجهك بسمة ساخرة... انت حر... حقاً من يفهم من... طبعاً ان كل كائن نبعٌ لا ينضب، أنت لا تريد ان تفهمني لأنني قررت ان اهجر كل شيء يمت بصلة الى دنيا الرسم انني يا اخي اريد ان اتعلم فن العيش... وانت تطاردني بالعودة الى الرسم... (يتصفح بسرعة) انظر الى لوحة الغريكو هذه...تأمل يوحنا المعمدان تحت قدمي المسيح... انظر الى هذا التكامل الساحر بين الارض، والموت، والحياة الابدية، لأكثر من سنة عملت ولساعات طويلة على نقلها... مجرد تقليد وفشلت... مجرد... ها ها... نقل... انظر... هذا خلق حقيقي... (بحماس). اتريدني ان ارجع كالسابق مرهقاً، ويائساً، مهملاً اسرتي، بحثاً عبر الالوان عن حلول، غير موجودة، او عن حلول قد تأتي ذات يوم واجسدها بعد جهود بطريقة كسيحة، لتحطمني عند النظر اليها العيون الذكية في دنيا الرسم...(يُسمع صوت إمرأة وهي تغني: اوقاتي بتحلو تحلو معاك) انها زوجتي... هي سعيدة دائماً... بل اصبحت اكثر سعادة منذ ان اصبحت لها بكاملي...(يشرب ويستمع الى صوت زوجته... صوت الزوجة

يتلاشى برفق) أنت تعرف العيون الذكية... غريبة تعرف دقائق العقليات الاصطفائية، وترفض، بل تحتقر التمجيد الكاذب.

(يحاول الثاني ان يتكلم... يقاطعه الاول بسرعة) لا تكن حساساً اكثر مما يجب. انت تتصور، او هكذا فهمت منك قبل ايام، انك، او أنني اتهمك بالتلصص عليّ... ها ها ها ها... حاشاك... (يربت على كتف الثاني بحنان) أنت انبل من عرفت من المثقفين. انت إنسان طيب، وبريء، لكنك فعلاً تتلصص على اعماقي، على الاماكن المنيعة فيّ والتي هي خاصة بي أنا... وتريد ان تغويها بلغتك الجميلة لتعيدني الى عالم الفن... آه... أنت عنيد... ولا تريد ان تعترف بمبلغ صدقي مع ذاتي. إنني اعرف اهميتي كأنسان...(وقفة، يشرب) لماذا توقفت عن الشرب... اشرب... اشرب...(يشعل سيجارة أخرى) يا صديقي، هناك حب لا يثمر، وهناك حب يثمر في بهجة العيش الخالص...(هز رأسه ويحرك كتفه الواحدة عدة مرات) لا لا... موهبتي في الرسم لا تثمر أبداً، اكتشفت هذه الحقيقة بعد عشر سنوات من العذاب، والمعاناة، والسهر، والرسم المستمر والعمل الدؤوب، وفي عشر سنوات دخل فان كوخ عالم الخلود الابدي. (يتنهد) لا تنظر إليّ بأستغراب... هناك شلل... نعم هناك شلل في موهبتي، مثلما هناك رهافة ساحرة في مخيلتي السمعية. كان يجب ان ادخل دنيا الموسيقى... ما الفائدة الآن وانا اخطو الى الاربعين... إسمع، اليست الحياة غنية أيضاً من غير إبداع؟ ألا تعتقد ان الابداع رغم السحر الذي فيه نوع من العبودية ايضاً؟ (يطلق الثاني ضحكة ساخرة... يستمر الاول في الكلام) إضحك كما تشاء... إضحك... لم يسعد موتزارت مع زوجته كونستاس، ولا هايدن مع زوجته ماريا، ولا فاغنر مع زوجته مينا، ولا غوغان... كانوا عبيداً لمواهبهم...

(يسمع صوت زوجته تغني لليلى مراد –نعيماً يا حبيبي...) انت تعرف كم انا سعيد مع زوجتي الشابة وطفلتي التي اعبدها... طفلتي، يا الهي، انها اروع ابداع في العالم بالنسبة لي... صدقني هناك لذة مثيرة في بهجة العيش... أنت تعرف حبي للموسيقى ، وتعرف ماذا ينتابني عندما استمع الى طفل السماء موتزارت... او باخ الساحر... هنا الموهبة... أنا عندما اجري مقارنات مع نفسي ومع المبدعين في خلوتي، وبصمت، اصابُ بخوف شديد... بماذا افكر عندما استمع الى باخ...

هل حقاً بوسع اي عقل إنساني مهما بلغ من النشاط، والحيوية، والخيال الحار ان يصوغ تلك الانغام.

(يريد الثاني ان يقاطعه) مهلاً... ارجوك...لا تقاطعني، لانني ساعطيك وقتاً طويلاً لتتكلم... اعرف من نظراتك كنت تريد ان تقول لي، ان الموسيقى لم تنته مع باخ، ولا مع موتزارت. طبعاً... الابداع خالد مثل الانسان الخالد...(الثاني يشرب، وبعد لحظات يطلق ضحكة عالية) انت كلما رفضت العودة الى عالم الرسم تطلق كلمتك المفضلة... TAUTALISE التحبيب بالأمل... الأمل... حب الأمل... ها ها ها ها ... أنت عنيد وصبور... كلمتك المفضلة...(يردد الكلمة الانكليزية عدة مرات). الأمل شيء رائع... لكنني لا احب الأوهام ايضاً... صحيح من غير الاوهام يشعر الانسان انه كائن عادي... عادي جداً؛ لكن الأوهام مخيفة أيضاً، تدوخ القلب، والفكر، والروح، لماذا تريدني عبر امل موهوم ان اعيش أرقاً طويلاً في الليالي، وانا مثل المخبول اطارد الأفكار، والألوان، والخطوط، والرؤى، وهي تفلت مني بنزق فراشة... حقاً لماذا تريدني ان اضطرب مع حشد من الأفكار الغامضة والمرهقة وأنا بالتالي لا استطيع ان اجسدها على اللوحة... ها ها... ياللغرابة... كلما اسالك لماذا تقول لي أريدك ان تنتصر... في النهاية... ها ها ها ها... وتقول لي بطريقتك المغرية ان للنصر سحراً رائعاً...(يشرب ويدخن) هيا اشرب... افتح قنينة اخرى واشرب... إذن تريدني ان انتصر... يا لك من طيب بريء... إسمع، انت اكثر إطلاعاً مني في الأدب، والتاريخ. اذكرك مثلاً باجاممنون، لانك من عشاق هوميروس، انتصر باجاممنون على طراودة ولم ينتصر على نفسه... حشد الف سفينة ليسترد إمرأة هربت مع ضيفها... والاغرب استبد به الغرور فحاصر طراودة عشر سنوات، وضحى بأجمل بناته وقتل شباب أمته... ماذا وجد مع النصر؟ ماذا وجد في وطنه؟ شيوخاً وإمرأة خائنة... ها ها... ما فائدة الحكم، ما فائدة الانتصار... ما فائدة الفرح.

يا صديقي ماذا تريد ان تثبت لي بالانتصار، وبهذه المثالية المضحكة... لا... بل مثاليتك اسپارطية صارمة ... أعرفك ... تقول لي ، اريد الكمال؟ الكمال... وتقديم افضل ما لديك، وبذل نفسك بسخاء للآخرين... حسن... افعل... افعل... ألا قل لي ماذا فعلت خلال السنوات الخمسة عشر الاخيرة في دنيا الأدب. كتبت

رواية يتيمة واحدة نسيت بعد ايام، وقصصاً... ما كتبته لن يعيش بقدر واحد من ألف من الحياة التي تعيشها قصص تشيخوف وموپسان. انت لا تُنسى بعد سنوات، إنما انت منسي منذ الآن، والثمن الباهظ الذي تدفعه... الهي، انظر الى وجهك في المرآة! لقد هرمت دفعة واحدة... وانت في نفس عمري. لقد انقض عليك الزمن بسبب معاناتك بقوة... ها ها ها ها... أما انا... فراجعت نفسي بسرعة، لذا بدأت اهرم بهدوء وبالتدريج، ان الزمن يراعيني لانني لا اطلب منه اي شيء، وربما ايضاً بسبب صدقي مع نفسي وقناعتي بأن طلباتي قليلة من الحياة. ها ها... الزمن يحسب لي حسابات دقيقة لأنني اتعلم معه كل يوم فن العيش... وانت! لا يكفيك عذاب الكتابة، والقرأة، تفكر ايضاً بهلوسة، بل بتمزق، وبحزن شديد، وحياناً بسبب عاطفيتك بالدموع، بمصاير ومصائب العالم، وانت لا تستطيع عمل اي شيء لها...

(يريد الثاني ان يقاطعه) انتظر ... لم انته بعد... اعرف ماذا تريد ان تقول لي، انا احترم حماسك الثوري، لكنني احزن لمعاناتك المجانية بسبب احداث العالم الدامية...(يلتقط الكرة الارضية من فوق المكتبة، ويديرها، ثم برفق يضع يده هنا وهناك وهو يتكلم)

انظر... الدماء ما زالت تسكب في إيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والپروتستانت، والحرب الاهلية بين التاميل والسنحاليين في سيريلانكا، وتلك لبنان المغدورة، وهناك صراع دامي في الفيليبين، وهذه سلفادور وانغولا ما زالت ملتهبة، والصراع في الپنجاب في الهند، والباسك في إسپانيا، والمأساة المستمرة في جنوب افريقيا... ماذا تريد ان تعمل لكل هذا الخراب المخيف!؟ رفقاً بقلبك يا عزيزي... ماذا تريد ان تصبح؟...–اپوللو– حتى اپوللو استأصله المسيح... آتريد ان تصبح مسيحاً اخر؟ جاء داروين واستأصل المسيح. أما أنا... فأطبق مقولة نيتشة (اذا فاتك ان تكون عظيماً فكن عاشقاً للعظيم) أتعرف إنني بعد كل مرة استمع الى دور –أنا هويت وانتهيت– اصرخ من اعماقي– الله اكبر يا شيخ... الله اكبر.

وعندما استمع الى –اصل الغرام– لملا عثمان الموصلي، أرتعش من الفرح... وعندما اكون مع موتزارت، ينتابني فرح معقد وساحر غير قابل للشرح ابداً...

واهتف، آه... ايها العظيم موتزارت انحني إجلالاً لموهبتك العظيمة. هكذا اطلق صرخات مكتومةأمام ملحمة جواد سليم، واسكر عندما انظر الى لوحة الربيع لبوتشيللي...(يسمع صوت زوجته تناغي طفلها)... يا صديقي طالما لا امتلك سمو اولئك فأنحني لهم حباً.

هل ثمة ضرورة في خداع نفسي... لا لا... لا تغريني بالعودة... ما زالت شاباً بعد، من حقي ان اعيش فقط... صدقني بعد الآن لن اعير ذرة إهتمام لا للماضي... ولا للمستقبل... (يطلق الثاني ضحكة ساخرة) اضحك كما تشاء. اسخر... اسمع، اتعرف كيف تفسد معنى الاشياء؟ تفسدها عندما تحاول ان تعطيها معنى... انت، يا الهي، تريد ان تعطي لكل شيء معنى. لا لا... انا... لا اريد ان افسد بتولية الاشياء بعد الان... هل اصبحت واضحاً الآن؟(يشرب!؟)

لحظة، اشك انني الآن واضح بالنسبة لك ... اتعرف كيف ينظر اليّ الناس في الحارة... بتعجب شديد... واسمعهم احياناً يقولون مثلك تماماً! يالهذا الشاب الغامض... من يدري كم من الاسرار الغريبة والعميقة لديه! انه يثير الفضول والاسئلة، يستمع ليل نهار الى موسيقى معقدة، او يغازل زوجته مثل المراهق، او يحمل طفلته فوق رقبته ويطوف بها الحديقة... ها ها ها هم ايضاً يحاولون التلصص عليّ بطريقة شيطانية، ويرهقون انفسهم بطريقتهم الخاصة لرؤية المحور الداخلي لنفسي كما تقول انت... ها ها ها ... اعرف عندما يجيء دورك في الكلام ستقول لي، هل حقاً مثلك يهجر الرسم!؟ ويقبل الاندحار بتلك الطريقة الانهزامية الحزينة، صدقني لو فكرت بهذه الطريقة تكون قد بعدت عن فهمي نهائياً... من يفهم من؟

انا مثل البوذي، اقول، كل فرد يجد الجواب الصحيح على سؤاله في الداخل... اسمع، من يدري قد تصبح كاتباً كبيراً، وتتجاوز كل ما تكتبه، وتصبح سعيداً، لان النجاح سعادة، لكن لا تنس ابداً، اقول ابداً، ان الفشل مجرد سوء حظ وليس عاراً... وسوء حظي في دنيا الرسم علمني ان اعيش، وان اكون حضارياً من اجل ذاتي... لا تضحك ايها الرومانسي...(يضحك الثاني بقوة كما لو انه يقول، هل حقاً انا رومانسي). أجل انت رومانسي... تريد مثل فرسان القرون الماضية في اوربا ان تمتطي صهوة جواد وتقتل آخرين من اجل الشهرة،

والمجد، وربما قفاز سيدة(يتجه الى جهاز التسجيل، يلقم الجهاز كاسيتا). دعني اسمعك مقطوعة... لتشايكوفسكي، لنقدم معاً حبنا لعبقريته... طالما انت لست عبقرياً، ولا اريد ان اكون عبقرياً، انا لم اعد انظر الى الحياة كربح او الخسارة... اريد ان اعيش، واترك الغوص بعيداً فالحياة لك انت... (يطلق الثاني ضحكة قوية...)

اضحك بقوة اكثر... واطلق علي ما شئت من الاسماء.(تنطلق موسيقى تشايك،فسكي...)

ستار

ومضات من خلال موشور الذاكرة

مسرحية -مونو- في فصل واحد

غرفة نوم صغيرة... سرير في حالة فوضى... باب من الجهة اليسرى... باب آخر في الجدار المواجه للجمهور يؤدي الى الخارج، بجانب الباب صورة كبيرة لفتاة جميلة في وضع شاعري وحالم جداً... نافذة على الجهة اليمنى. كرسي... منضدة صغيرة عليها تلفون، وبجانب التلفون جهاز تسجيل... عدد من الكتب المتناثرة فوق السرير، وعلى الارض، اوراق... مصباح منضدي بجانب السرير... يدخل شاب وسيم اطلق لحيته بشكل جميل، يحمل مجموعة علب صغيرة تحتوي على مواد للمكياج... يغني بصوت جميل اغنية شيخ سيد درويش «سلمى يا سلامه رحنا وجينا بالسلامه» يضع العلب فوق المنضدة بالقرب من مرآة كبيرة معلقة على الجدار بحيث عندما يحدق فيها يكون وجهه الى الجمهور... يستمر في الغناء... يلقي نظرة طويلة الى وجهه، وهو يقول بصوتٍ فيه غلظة محببة الى الاذن...

الممثل: وجه ممثل حقيقي... خلق للأدوار الدرامية... هاها...(يرن جرس الهاتف... يلتقط السماعة...) الو... نعم... آه... انت ، اعرف مبلغ حرصك، ودقتك يا مخرجي العزيز، اعرف انت فنان دقيق، حسوب جداً... رجعت لتوي... انني سعيد جداً، وممتليء بنشاط فوار... طوال النهار وانا اردد حواري في المسرحية مع نفسي، وحسب إرشاداتك. أطمئن، إنني الآن أتقن كل شيء، وفي ذاكرتي خزنت اصغر نصيحة وتوجيه... بل حتى اصغر إشارة أعطيتها لي... اتعرف ماذا ساعمل بعد دقائق. سأشرب كأس عرق، واضع لنفسي المكياج اللازم على طريقة ماكيير الفنان محمد، واعيد دوري كما لو انني أمام آلاف المشاهدين، وفي هذا المساء ستجدني على المسرح كتلة نشاط وحيوية... هكذا انا دائما يا عزيزي في يوم الإفتتاح اعيد دوري لوحدي في البيت... ابداً... لا عليك...اطمئن ... انا ومنذ صباي اشعر انني خلقت للمسرح.

يا مخرجي الحبيب، بمجرد ظهوري اعرف كيف اوقظ مشاعر عميقة عند المتفرج... انت تعرف أنني لا افقد رباطة جأشي ابداِ... آه، ها ها... انا كالصخرة طمأنينة في رباطة جأشي... قلت لا عليك... الكلمات... اعرف بإلقائي كيف احولها الى المشاهد، احولها الى رؤى ليراها المشاهد... بل سأجعلهم يتأملونها وكأنها لآليء جميلة... اعرف كيف سأجسد حياة هذا الكاتب الشاب الذي ينهشه المرض... نعم انت تعرف يا عزيزي ، المبدعون يمتازون بالذكاء التصويري، والروح الانطوائية، والعاطفة العالية... لقد درست عدة حيوات قريبة لهذا البطل... نعم... اعرف... اهم شيء تجسيد الالم، والانسجام الداخلي، طبعاً لدي تأملات خصبة حول البطل... سأتمرن بعد قليل بحماس لاهب، في المساء سأكون فوق خشبة المسرح، وسأفجر قنبلتي في العرض الاول، اطمئن، الى اللقاء.

(يعيد السماعة) آه... مخرج حريص، دؤوب، دقيق، حساس...(صمت، يغني نفس الاغنية، يذهب ويأتي بكاس فيه عرق... يشرب... يلقي نظرات تأملية الى جميع زوايا وجهه في المرآة) لا اظن ان وجهي يحتاج الى الكثير من الألوان... ان وجهي شاحب بطبعه...(يحرك وجهه الى جهة اليمين ببطيء، ثم الى اليسار، ويمرر اصابعه خلال لحيته السوداء وهو يرسم تعابير مختلفة... يفتح علبة ويضع بالفرجاة قليلاً من مادة صفراء فوق خديه) احتاج الى هذا اللون الاصفر هنا، بل يجب ان ازيد هذا اللون قليلاً... لون الزعفران... طبعاً لآنني مريض جداً... وهذا اللون الاخضر... هكذا... جيد... هذا اللون يعكس حالة الم روحي اضافة الى تدهور فسلجي كما يقول ماكييرنا محمد.

(يستمر في المكياج) وشعري طويل طبعاً، ومهما (يتفش شعره) هكذا... جيد... تماماً مثل شعر شعراء القرن التاسع عشر... جيد ... وجهي الآن حزين مثل وجه بطل مسرحية...(يشرب) اعتقد انني بحاجة الى عدة ضربات ليبدو وجهي منتفخاً بسبب المرض... (يستمر في المكياج) رائع...

(يرن جرس الهاتف... يلتقط السماعة) الو... اه... عزيزة... انت... ماذا؟ كنت اتهيأ... طبعاً كعادتي مع كل عمل ... بعد قليل سادخل مع بطل المسرحية وسط زوابع الحمى، والالم، والهذيان، والحب، انني تقريبا في كامل مكياجي،. سأتمرن بحماس... لا

لا... فقط لأشعر بالراحة النفسية للمساء الجميل عند العرض... أه يا حبيبتي وانتِ جالسة في القاعة، هل يعقل ان اضطرب... مستحيل... انت... تبعثين الطمأنينة في قلبي... حبكِ الالهي يا عزيزة يلهمني في اصعب الاوقات ... انا... ها ها ها ... انسى نفسي وانتِ تبثين الي حناناً لا يوصف. اوه... طبعاً انا الآن مشرق المزاج.

لكن بعد قليل اصادر مزاجي المشرق لأمثل دور إنسان مريض، وحزين تنتابه نوبات غم، وألم رهيب... اسمعي لو نجحت في دوري بنفس ذاك النجاح في دوري السابق، سأندمج في تقبيلكِ. موافقة؟ رائع... شكراً... وشكراً للمخابرة، والى المساء...(يعيد السماعة... يلقي نظرة اخرى الى وجهه...) الآن بعد ان آخذ آخر رشفة من العرق سأبدا...(يشرب ويبدأ بتمثيل المقطع الاول).

الهي ، لقد اشتد عليّ المرض... منذ متى وانا ارهف سمعي علني اسمع خطوات صديق، او صديقة ... لماذا اتذكر شيئاً وانسى شيئاً آخر. هل وجدت الذاكرة للنسيان؟

(يلقي نظرة الى النافذة المزاحة عنها الستارة قليلاً). ذابت الشمس في الافق، وبدأت الظلمة تشوب وجه الغسق... ماذا لو خابرت صديقتي محسنة التي هجرتني... أتصل بها قبل ان أبدأ بكتابة المشهد الأخير لمسرحيتي... لقد شح حديثها معي أخيراً... أعرف انها تعيش حباً آخر...آ آ آ... الم شديد آخر راح يعصر صدري، ومعدتي... ماذا تفيد هذه الاهات العميقة؟ ترى هل تستمع إليّ لو كلمتها؟ محسنة تعرف انني من الطينة اللينة القابلة للعجن... طينة الفنانين، لقد عملت بصبر لأعادة علاقتي معها، لكن محسنة الآن اصبحت تحتقر الكتابة والمسرح... إنها اصبحت في الاونة الاخيرة تتوهج بحالة شيطانية، وتقول انها اطلقت رصاصات على ذكرياتها، والمسرح ... مع بداية مرضي راحت تبتعد عني ، وتقول لي ان وجهك اصبح منغلقاً، منقبضاً، لا يمنح سوى الكآبة...

(يضحك بحزن) تقول لي ان معالم وجهك تبرز لعيني مثل الصورة السلبية في وعاء التحميض... الكلبة احياناً ذكية في اختيار وترويج مفرداتها. سأتصل بها واحاول... (يتنهد... يلتقط سماعة التلفون... يدير الرقم) الو... محسنة... ان امكن رجاءاً... حسن... انتظر على الخط... (يضع باطن يده فوق سماعة الهاتف)آه... لو

كانت ثمة نافذة صغيرة في قلب كل إنسان ليرى الناظر من خلاله ما يدور في ذاك القلب... ترى ماذا في قلب محسنة الآن من المشاعر أتجاهي؟ يجب ان اعمل المستحيل لأملاء قلبها بحنان بهيج. اه لو عادت إليّ... من يدري، ربما تخفف عليّ مرضي الخطير... لكن، مستحيل، لا هي ترجعلي، ولا ثمة امل في شفائي... الو... الو... محسنة... هل تسمحين لي بالكلام ... قليلاً... شكراً... انني حزين جداً هذا المساء... ارجوك... لا تميتي الكلمات على شفتي من البداية... اتعرفين اي عذاب ان تموت الكلمات على شفتي انسان مريض، ورقيق وحساس مثلي... لا لا... لا اريد ان افلسف كلماتي ... اريد ماذا؟لا... لا أريد ان الجمكِ لكي اقودكِ بكلماتي الرقيقة، مثل جواد سلس... يالكلماتك... على العكس... كنت انت دائماً اكثر قدرة على لجمي وقيادتي.... لقد اعترفت لك بتواضع كاتب مسرحي ، ان الفنان طينة لينة قابلة للعجن، وانت استغللت هذه الليونة فيّ كثيراً... كنت اتصوركِ كممثلة تمتلكين حساسية عالية مثلي... الو... الو... ماذا؟آه... انا؟ مثل الضائع الآن انتظر.

لقد بدأت اشعر انني انسان منبوذ مثل المصاب بالجذام ... بأستثناء قلة من الممثلين الاصلاء لا احد يزورني... بل حتى اولئك القلة ابتعدو مؤخراً، لا اعرف لماذا، ربما غرقوا في همومهم... يا محسنة، لم تعد لي سوى تلك الذكريات التي تثير في نفسي الاشفاق على حياة انصرمت بسرعة أليمة... احياناً بسبب تلك الذكريات ابكي مثل الطفل، محسنة، اتعرفين انني دائماً عاملتك مثل انسان اخلاقي عرف كيف يتصرف امام جمالكِ الساحر، وكيف يتحكم في رغباته، وأهوائه، تصرفت معكِ كقديس... تعرفين كم هي مؤلمة الوحدة؟ الو... امسياتي منذ مرضي هي نفس الامسيات الباردة، وكذلك صباحاتي الرتيبة... انظري كم انا صادق معكِ... عبثاً حاولت ان اتخلص من عبى حنين اليك... اوه... انني الآن مثل الشبح يا محسنة... شبح حقيقي... اعرف... اعرف ، لقد عشت بإرادتي حياة صعبة عانيت خلالها آلاماً مبرحة قادتني الى هرم كبير... يوم كنت معي كنت لا اخاف ابداً، وأقول، سابقى في رعاية إنسانة شريفة، نبيلة، فائقة القوة، وسأعيش أياماً جميلة... ارجوك لحظة ... الو... لا... لا تكوني قاسية معي قسوة مرضي...لا ... لا اتملقكِ... آه... ان قساوتك يا محسنة في الحكم عليّ من غير

استئناف تدل على خلو روحك من السلوك الانثوي الرقيق... (يتقبض وجهه، ويتألق في أعماق عينيه لهيب حاد) محسنة: يقول احد القديسين: ان ادم انهزم من الجنة، بينما انتصر ايوب على المزبلة... هل ثمة امل وانا فوق مزبلة مرضي ان انتصر والتقي بك لساعات؟ محسنة لا لا تضحكي بهذه السخرية... الهي... لكم قضينا اياماً كنا خلالها مندمجين في عالمنا... وكنا... اواه... من شدة فرحنا، (بحزن شديد) نرى الاخرين مجرد ظلال لا اكثر... لن انسى رموشك الطفولية فوق عينيكِ الصافيتين وهما ترنو إلي... لقد الهمتني يا محسنة كتابة الاعمال سيعتز بها العشاق الشرفاء... ايه... كنت تريدين مني ككاتب كلمات ضاحكة بأستمرار... كنتِ تقولين لي، انت مثل الغموض تتسلل الى داخلي... اين كل هذا الكلام؟ آه... يبدو ان الحكم و التوراتية التي تقول: باطل الاباطيل الكل باطل وقبض الريح... هذه الكلمات صحيحة اذن... اين ذكرياتنا؟ بل اين سأكون ، وانا في قبضة المرض المخيف؟ كل شيء باطل الاباطيل... اه لو تعرفين كم نكل بي المرض، وتصرفك القاسي الاخير، وهروبك، وعدم الفهم الموجع لأعمالي الاخيرة... أنتِ تعرفين، لقد حاولت دائماً اجتياز ما يراه الناس... كان الهجوم على اعمالي لعبة محببة لدى البعض. ثم ماذا؟ ان مفتريات الاوغاد مجد لانسان مستقيم مثلي. لقد كنت صادقاً جداً مع نفسي... برافو عليك... شيء رائع... رائع... إنكِ إذن تستمعين إليّ بأنتباه وانا اتكلم عن الامي وذكرياتي...

(يدور في ارجاء الغرفة ساحباً سلك التلفون الطويل من هنا الى هناك) انني يا محسنة مثل بعض الهنود، منذ دخلت عالم المسرح، صرت اعرض جلدي للضرب طوعاً، واعذب نفسي تعذيباً مروعاً لابلغ مثل الهندي درجة القداسة... لا تضحكي من كلماتي... اتهمني البعض بالغموض، بينما كنت واضحاً مثل الحقيقة الصلبة... عندما مثلت دور فاطمة الغامض جداً في مسرحيتي، قال النقاد ان محسنة فكت لنا جميع الغاز البطلة بإبداعها ... الو... الو... اي مديح... لا... هناك رنة سخرية في ضحكتك... إغفري لي هذه المشاعر العاصفة التي لفتني رغماً عني وأنا اتكلم معكِ... محسنة. ارجوك، لا تنظري بسهولة لمثل هذه المشاعر... انت تعرفين... وحتماً تعرفين، لانك تعيشين الآن حباً جديداً... ان الحب عاطفة عنيدة، قوية، صحيح انه خادع لكنه قوي وحاسم... ماذا؟... الو... ماذا تقولين؟ انا قلق! لقد

ادمنت على القلق... لكنه القلق المقدس... الذي افترس روحي، مثلما افترست روحي الكتابة، وانت، والمسرح، وحب الاخرين. انت طبعاً... انت افترست مساحات من روحي. لا لا... لم تكوني حبيبة سيئة الحظ معي، بل كنت دائماً اميرتي... اعرف يا محسنة ان المرأة تكره الضراعة في الحب، لو فقط تعرفين هذه اللحظات اي عذاب يفيض من عيني وقلبي، والمرض ينهش فيّ مثل وحش جائع، إن لم اعد احس بها منذ بدأت الحديث معك... ابداً... صحيح انني سخيف، لكنني قوي مثل الحبل المبلول... ها ها... اقصد كنت قوياً، أما الآن فأنا مرهق، ولا استحي من هذا الاعتراف... لا طبعاً لم اعد انتظر اي منقذ، اتعرفين ما معنى الحزن الاسود؟ ارجوك... استمعي الي أكثر... الو... فكري اي عذاب أن يعتمد الانسان ايذاء غيره... محسنة، لم يبقى لي في هذه الايام سوى هذه الذكريات معك وانا اعرف انك شطبت عليّ نهائياً في ذاكرتك... أنا صادق. هكذا كنت دائماً، حار الحديث، وكلماتي تنغرس مثل الصنارة، لكنها الان بدلاً من ان تصطاد الجوانب الحارة والحلوة التي عرفتها فيكِ، فهي الان تصطاد برودتكِ وسخريتك... الو... الو... ماذا؟ انا دائماً اقول الحقيقة... ابارك لكِ حبكِ الجديد... لكن اتسأل، هل حقاً حاولتي ان تمتلكي قليلاً من الشجاعة كي لا تخدعي نفسك؟ ان تكوني محسنة التي عرفتها... ان مغامراتك المتهورة... آه... لقد كنت مغامرة ايام الاكاديمية، بل ما زلتِ، نعم... اقول مغامراتك المتهورة ستطويك ذات يوم في متاهاتها ... الو... الو... تقولين ان صديقك الجديد ليس شريراً؟ يا اميرتي، هناك شرير يعيش راضياً عن نفسه رغم ادراكه حقيقة نفسه، وهناك شرير يحس بالألم لانه شرير... وصديقك الجديد هذا ليس من النوع الثاني... ايه... يا محسنة، اعرف ان صديقك الجديد لديه ثمار محرمة كثيرة، لكنه سيجعل حياتك ذات يوم معلقة بخيط العنكبوت، وتجدين نفسك عارية مثل الدودة... نعم، هذه ملاحظاتي عنه ككاتب لديه فراسة قوية... لا لا... لا تنفعلي... هكذا عرفته قبل مرضي، كنت اتابعه وادرس سلوكه... طبعاً كنت اكون سعيداً لو كان هذا الانسان من النوع النبيل. انا اقول هذه الكلمات ونحن نفترق... بالنسبة لي لحظات الفراق للمحب الحقيقي هي اصدق اللحظات لمعرفة الصديق. انتبهي يا محسنة الى النزوات المنحرفة، والاستسلام السهل لغوايات تافهة... الو... ماذا؟

تذهبين... لا بأس... شكراً لأستماعكِ إلي.

(يعيد السماعة، يصفق لنفسه، وينط في مكانه ويطلق صيحات فرح...) كنت رائعاً... رائعاً... آه... من حقي ان اصاب بالأنفعال الانذهالي. لقد استطعت ان اجسد كلمات الحب، والحزن... الحزن... هذه الخطيئة الاصيلة عند الانسان كما يقول المؤلف... الهي، ترى كيف سيفهم النقاد ادائي لهذا المقطع ... إنفعالي... توتري... إضطرابي... إستجدائي... تنغيمي للكلمات، هل سيقولون انني اديتُ الدور بحماس صامت وانا اتكلم بطريقة هادئة واهباً نفسي وحنجرتي للكلمات... حقاً كنت اهب نفسي اكثر مما كنت امثل... كنت اراقب وجهي في المرآة من بعيد والاحظ التعابير بدقة وانا اتكلم... كنت مقنعاً رائعاً... والآن لاجرب المقطع الثاني...

(يلتقط مجموعة من اوراق من على الارض... يلقي نظرة سريعة عليها) في هذا المقطع يشتد المرض والالم على المؤلف، ويبدأ الالم بالجسد ويشعر بسببه وكانه خارج الزمن... هنا اكد لي المُخرج انه كلما يزداد الالم، تزداد الحركة التنقل من مكان الى آخر في الغرفة، مع آداء حركات صامتة، هنا يجب تجسيد كل ما لدي من المشاعر، والآلام، والعواصف الداخلية... حسناً لأبدأ...

(يؤدي مجموعة حركات بنتومايم كمن يحاول ان يستنجد بإرادته لينسى نفسه وآلامه، ويسلم نفسه عبر حركات رغم عذاباته الى احلام جميلة... يقترب من صورة الفتاة الحالمة فوق الجدار، ويتحاور معها بصمت، ويمرر اصابعه بصمت خلل الشعر، وعلى الخدين، ويقبل الشفتين بطريقة رومانسية مؤثرة... يدغدغ خياله ككاتب مسرحي، وبحركات جميلة ورشيقة من يديه يشرح كيف يصنع في أزمته! اطياف ساحرة، ثم يؤدي برفق حركات تجسد حالة من الندم الغائم وآمالاً هاربة، ويروح في خيالات اليمة، وافكار إنسانية، وتتفجر على وجهه المرهق النشوة، والهيام، والانفعالات،، مؤكداً في كل التعابير ، ان الانسان الفائق، المثقف الجريء يستطيع تجاوز كل الصعوبات، وترافق هذه الحركات اما مقطوعة من كسارة البندق... او الحسناء النائمة لجايكوفسكي، او اية موسيقى يختارها المخرج... تتلاشى الموسيقى برفق عندما يهم بالكلام بصوت مخضل بألم شديد، وحزن، وهو يتجول في الغرفة بخطوات مهزوزة...)

إن المي يتطاير... من يدي... من عيني... من جبيني... بأي صوت بشري يجب ان الفظ كلمة، الم... الم... كم هي صعبة محاولة ترطيب الالم... كيف يُسكن الالم...؟ اقدم له اقوى الكلمات، وارقها، واكثرها تزلفاً، وتملقاً فهو يثور ويتمرد اكثر فأكثر... أنساه للحظات... يعود فيطرق مخي بلجاجة... اكلمه يلسعني مثل أفعى مثلثة الرأس... أستجديه يزأر، وبلسان مثل المبرد يبردني... العاطفة، وهي مثل الألم تموت عندما تموت ذكراها، أما الألم فلا تستطيع ذاكرتي أن تنساه... إنه يحتقر انتحال الحجج والتعلات. يقول بسخرية كاوية مستحيل الهروب مني... لوجودي قوة... أنت في مستعمرتي، في معسكر إعتقالي... أعذبك... (يصرخ) الالم... يعني الألم... قوة غامضة، سبحية تعبث فيّ كما تشاء... (بحزن) كم انا بحاجة الى صديق، صديقة، إنسان يفهمني، صوت بشري دافيء فيه حب، بحاجة الى إنسان يمتلك قوة أعصاب، يستطيع في اصعب المواقف، بل اخطرها أن لا يفارق ذاك الهدوء الرصين، والطمأنينة المهيبة وجهه... (يحاول ان يتماسك) سأحاول ان اكون مثل هذا الانسان في أيامي الاخيرة... (ينظر الى وجهه في المرآة) يجب ان اخجل من نفسي... سأتماسك... واسترجع ذاك الهدوء الحالم لوجهي... (يفتح جهاز التسجيل... يضع مقطوعة – الفنلندي– للموسيقار جان سيبليوس) هذه المقطوعة تمنح الإرادة، الثورة، التمرد على المي...(تنطلق الموسيقى بقوة... ثم بالتدريج تخفت) هذه المقطوعة هزت فنلندا كلها، حتماً ستهزني انا الاخر...(صمت... يسترجع قليلاً من هدوئه) هذه المقطوعة تساعدني في ترويض المي... (يتكلم بحمية وحرارة) الموسيقى تجر الانسان بأغراء غريب ممغنط الى مملكة من الانعكاسات الضوئية...(تتغير الاضواء في الغرفة... يذهب الى النافذة... يفتح الستارة اكثر) آه... لقد اصبح الليل في هذه المنطقة ساحراً، رائعاً، ناعماً، ممتداً مثل قطعة قماش من المخمل الاسود اللامتناهي... ايه، أيتها المدينة، أين اصدقائي الذين عشت معهم... الممثلين الذين اعجبوا بمسرحياتي، ومثلوها بحب... كم يجب ان انتظر ليعودوا، الاصدقاء الذين هجروني... (يربد وجهه اربداداً مُخيفاً) تعالوا... تعالوا... (يبكي) اريد ان اعيش معكم دنيا من اللحظات الاخيرة... تعالو لكي اتحرر من آلامي التي تنهشني... تعالوا لأتحرر من ذاكرتي... (يصرخ) أين انتم؟ حتى محسنة، بسبب حب مسعور هجرت حتى

المسرح، وهجرتني في أوج إحتياجي إليها... (بحزن شديد) ايه، محسنة، صدقيني... هناك من يعرف طريق السعادة، لكنه لم يعرف السعادة، انظري التاريخ... قيس وليلى، مم وزين، بتراركة وحبيبته لورا، القديس ابيلار وحبيبته هلويزه... هؤلاء لم يعرفوا السعادة لذا عرفهم التاريخ... هل انتم ايضاً بصمتكم ، بسلبكم السعادة مني تتركونني للتاريخ... ما الخلود؟ ثرثرة لا أكثر في أفواه الناس، في الحانات، والشوارع، والمقاهي، وكلمات في الكتب... (صمت... يعبر عن حركات تعبر عن ألم شديد في القلب) الهي، هذا الألم يخلق ضوضاء مخيفة في رأسي...(يلقي نظرة من النافذة) لقد بدأ القمر يفضض الجبال القريبة... (يوقف المسجل... تسمع من بعيد أغنية عاطفية... يستمع الى الأغنية) الى أين يأخذني هذا الالم؟ هذا الالم اللاأبالي، العابث، المتهور، المندفع وراء نزوته، الى أين... أين يأخذ جسدي المتعب الحزين (تنتابه حالة من الحمى الشديدة، وزوغان في البصر، وضرب من الهذيان الرعاشي... يقف أمام المرآة)

ماذا حدث للمرآة؟! كيف ومتى انشرخت بهذا الشكل الغريب... انها تشبه الموشور الآن... الموشور البللوري الذي كنا نضعه ونحن صغار في المدرسة. ارى عشرات الدوائر، والمثلثات، والمربعات... آه... هذا انا داخل في المثلث يوم كنت صغيراً... وهذا انا في حضن أمي... أمي، التي حتى لحظاتها الأخيرة مثل الملح لم تفقد مذاقها وحبها لي، بل لنا جميعاً... وفي هذا المربع المضيء هذا والدي مع والدتي... كانا حمامتين حقيقيتين... عشقا بعضهما حتى الموت... ها ها ها ها. هذا انا ايضاً داخل المثلث يوم سجلت في المدرسة... وهذا اخي علي... واختي نادية... نادية الرقيقة ... آه. وهذا زوج اختي سمية... الدكتور الطيب الذي يصدع رأس الاسرة في كل زيارة بالحديث عن الزراعة والبستنة، وانواع الفواكه، لكنه إنسان طيب مليء بالنبل والصدق... الهي، هذا انا يوم دخلت الاكاديمية... والدتي تصرخ من فرحها، واختي ترقص... ووالدي مشلول في حماسه... هذه الصور الصغيرة الواضحة في المرآة وكأنها خيالات تهوي عليّ... اوه، هذه والدتي الطيبة تبكي، وانا اهديء من خاطرها لأنني ذاهب الى بغداد للدراسة. يالبسمتها الحلوة... الامهات دائماً لديهن صفاء هادىء. والدي يودعني وفي صوته رعشة هادئة. آه صوت يخرج من قلبه... الموشور البللوري يتحرك،

والصور تختلط... هذه صديقاتي. تلك هي محسنة. استطيع تميزها من بعيد... وجهاً مستديراً وحاجبين اسودين رفيعين فوق عينين سوداوين... (يؤشر الى الصور وهو يتكلم) وشفتين ورديتين ضاحكتين... تلك هي في كامل مكياجها يوم مثلت دور هيلدا جابلر... عيناها الجميلتان تتوثبان بأستمرار... آه... مدرس الالقاء يصفق لروعة القائها... محسنة لها نبرات صوت مغرية... ان رائحة هذه الفتاة دافئة، عميقة وكأنها بأستمرار في حب، فتاة غريبة لا يؤمن جانبها... انها دائماً تصاب بنوبات من الحب، وتطلق ضحكات هستيرية...

(يطلق ضحكة قوية) هذا انا داخل هذه الدائرة الكبيرة... ها ها... اغازل محسنة وعلى شفتي إبتسامة رقيقة وانا بخجل أبعد خصلة من شعرها سقطت فوق رمانة خدها... آه... وو... داخل هذا المربع الكبير محسنة وصديقاتها، والاساتذة يصفقون لي...(يُسمع صوت صفير قوي) وأنا في ذروة تألقي في مسرحية شيكسبير ريتشارد الثالث أردد بحماس (يُلقى هذا المقطع من ريتشارد الثالث بطريقة حارة).

اي ربي الكريم، إكسر شوكة الخونة
الذين يتمنون ان يعيدوا تلك الأيام
الدامية ويريقوا دموع انكلترا في نهر من الدماء.
لا تكتب لهم ان يذيقوا رخاء هذه الارض
فسيطعنون بخيانتهم سلامتها... والآن
برئت جراحنا وعاد السلام مرة أخرى...

(صمت طويل... مثل المذهول الذي يفيق من حالة صعبة... يمسح العرق من وجهه... بحزن) ما قيمة الحسرات على الماضي وأنا عما قليل سأنام في مكاني الحقيقي كالقوقعة في وقائها الصدفي. ربما هناك قلة من الناس تحب الحياة بشغف مثلي، لكنني حرقت حياتي بصمت في الكتب ومطاردة الأفكار، والعذابات، وحب الآخرين. آه، من حيث لا ادري دخلت دنيا البحر... وللبحر الاعيبه، لغته، وغموضه، وقوته... لقد اتعبني عالمي، وهدّني... آن لي ان اقول وداعاً ايها الزمن الذي مهما كُبل عنقك بالأنيار فأنت تجري، تجري، وتخلفنا هنا وهناك مجرد

ذرات من الرماد... (يتوقف... يتنهد بعمق ويطلق صيحة فرح، ويصرخ مثل الهنود الحمر مردداً) كنت في هذا المقطع أكثر روعة...(يستمر في القفز) دائماً أتجاوز نفسي... (يذهب بخطوات رشيقة يلتقط الكأس ويأخذ عدة رشفات من العرق)... آه لو كان مخرجي العزيز يراقبني من مكان ما وانا اؤدي هذا المقطع...لكنه سيراني هذا المساء... آه... اسرع ايها المساء... اريد ان اكون مع الجمهور... (بحماس).

لقد طبقت هذا المقطع نصيحة غروتوفسكي الرائعة، على الممثل ان يكون يقظاً، مستقلاً، وواثقاً من نفسه...(يأخذ رشفة أخرى...) فعلاً كنت رائعاً... (يرن جرس الهاتف... يلتقط السماعة).

ألو... يتكلم... تفضلي... قلت يتكلم... من... معجبة... أتشرف... وهل يوجد ممثل ليس له معجبات... (يشرب) ها ها... ماذا؟ المبدعون من أمثالي لديهم معجبات كثيرات؟ لم لا... حق مشروع... شكراً هذا اطراء مبالغ... ماذا؟ أنت معجبة بي كممثل... جداً جداً جداً... شيء يسعدني جداً جداً جداً... وبوسعكِ ان تلهميني جداً جداً... كيف مثلا؟ تحرقين صدري، وفكري، ومشاعري... ها ها ها ها... بماذا يا عزيزتي معجبة؟ بجمالك؟ حسن... وأفكارك! وبماذا أيضاً! آه... بحرارة خيالك... اسمعي يا آنستي، لدي كفنان قدرة كافية جداً جداً لخلق الهامي الخاص، وبطريقتي الخاصة كممثل... يا آنستي يعرف كيف يخلق أنسب الحالات لعمله... بالموهبة، بالتمرين المستمر... ها ها... انت لطيفة... أذكر ان أحد العازفين الكبار قال انه حين يمتنع يوماً واحداً عن العزف فأنه وحده يلاحظ ذلك، فإذا امتنع يومين يلاحظ اصدقاؤه ذلك، لكنه اذا امتنع عن التمرين اسبوعاً فإن المستمعين يلاحظون ذلك... (وقفة) لماذا تضحكين. انا ايضاً مثل الموسيقي يجب ان اتمرن... انت! انتِ بوسعكِ ان تلهميني اكثر... لا يا آنستي الالهام لا يأتي من الخارج... ابداً... يُكتسب عن طريق العمل الشاق... لا لا... ليس بوسعكِ ان تقدمي لي اي شيء... معجبة، أهلا وسهلاً... ماذا؟ وتحبينني بجنون...؟ يا آنستي انا لدي صديقة احبها بجنون... اسمها؟ عزيزة... طبعاً تفهمني جداً ... جداً، وتفهم عالمي جداً جداً، طبعاً ذكية، ورقيقة جداً...ها ها... أنت تكثرين من استعمال كلمة جداً جداً... طبعاً إنها انسانة حالمة، وواقعية أيضاً. ماذا اريد اكثر... غريب، لماذا

غريب... ماذا؟ ستبقين تنتظرينني كالحيوان الصبور... يا عزيزتي ما هذه الرومانسية؟! ماذا! ارفعي صوتكِ قليلاً... يجب الا أفرط فيكِ؟ لماذا؟ لانكِ لماذا؟ جوهرة حقيقية... ها ها... أيتها الجوهرة الحقيقية تعلقي وابقي مجرد معجبة لا أكثر... إذا رأيتكِ مرة واحدة فقط أغير رأيي. حسن. انا اقول مستحيل لأن صديقتي هي كل حياتي... ماذا؟ تلتصقين بي كالوميض... هل انتِ شاعرة؟ ها ها... كالوميض... كلمات غريبة. سأنقاد ذات يوم لحرارة حماسك! مفرداتك جميلة... فعلاً... بل حتى الكلمات العادية تلفظينها بصوت دافيء... اعترف ان صوتكِ يمس القلب لكنني لن احبك... آه... كان يجب ان تعملي في المسرح... إذا عرفتكِ تجعلينني أنفصل عن الجميع... مستحيل. كيف! ليس بالتهديد، بماذا إذن؟ بالعشق الحقيقي. بأنبل الطرق. لكنني مع ذلك لا اريدك ... كمعجبة نعم... يا آنسة هناك ممثلون آخرون، وشباب كثر... لماذا انا بالذات... لأني ماذا؟ عدو ممتاز... عدو ممتاز . أنا؟ والعدو الممتاز ماذا؟ حبيب ممتاز... ها ها ها ها... هل هذه حكمة؟ الآن يا آنستي العزيزة ارجوكِ أتركيني... إنني اتمرن ولدي عرض هذا المساء... ارجوكِ... لا تفسدي عليّ حماسي. اذهبي، لاشك انكِ فتاة عاقلة، وتتكلمين بمنطق رصين، وانا احترم فيكِ تهذيبك الجيد، ولغتك الحلوة. لكن لا... ارجوكِ اقفلي الخط... الخيل... تقولين الخيل... ماذا عن الخيل؟ «الخيل من تفحط تمد أركابها، والمهرة لو طال الدرب تتسابك ويا ترابها» ... يا عزيزتي المحترمة هل ستلقين عليّ محاضرة ؟ ماذا؟ ستبقين مثل المهرة تطاردينني... غريب... تأتين لمشاهدتي هذا المساء... وكل مساء... أنت حرة... أهلا وسهلاً... وتصغين لكلماتي بحب، وتصفقين لي بحرارة... شكراً... شكراً... ماذا! أنتِ حقاً فتاة صعبة... ماذا تفعلين في القاعة... تعاقبين نفسك برؤيتي... انتِ فتاة مهووسة... مهووسة... ماذا؟ المرأة العاشقة ماذا؟ إرفعي صوتك... ضوء... المرأة العاشقة ضوء... يكشف افراح الرجل، آنستي، عزيزتي، معجبتي، ارجوكِ إذهبي... إذهبي. غريب امرك... يجتاحكِ الآن الخوف... خوفٌ عذب؟ ووجهكِ الآن وانا ارفضكِ مليء بالألم... تريدينني اهدىء من مشاعركِ المضطربة، بكلمات حلوة... الهي... أنا...؟ كيف استغل مشاعرك... آنستي أنا احترمكِ كمعجبة فقط... ارجوكِ انهي المحادثة...

مشاعركِ الفائضة وفريها لإنسان أخر... ما ذنبي انا... يجب الا يشرد فكرك مثل فتاة صغيرة بقصص الحب... كوني واقعية... الآن إذعلي... في المساء تعالي واجلسي كما ترغبين وشاهدي المسرحية... إذهبي... لماذا؟ تبكين... ها ها... لأنكِ تحبينني... ماذا يفيد البكاء... اذهبي... (يعيد السماعة) يالها من معجبة غريبة...(يضع مقطوعة موسيقية هادئة، تبقى المقطوعة الهادئة من المقطع الاخير من المسرحية. يطفي جميع الاضواء، ويكتفي بضوء المصباح المنضدي لصق السرير، ويصبح وجهه بفعل ضوء المصباح الوحيد وهو يندس في الفراش، شاحباً، حزيناً، مهزوماً، ومهزوزاً... يتكلم بصوت متهدج وهو يمثل المقطع الاخير... يلتقط عدة اوراق، يقرأ بسرعة، ثم يخرج دفتر يكتب وهو يكلم نفسه).

لقد تأخرت في كتابة المشهد العاشر والغريب من مسرحيتي ... هل وفرّ لي الالم فسحة للكتابة؟ وهذه الشخصية كثيرة القرب من عالمي. انها لا تستطيع أن تتكيف، وتنضبط... شخصية في البداية تعاني من –پارانويا– مثل هذه الشخصية تكون منعزلة، تفتقد الاصدقاء. (يتوقف) آه يا الهي، هجمة أخرى من الالم... هجمة قاسية هذه المرة. (يحني راسه ويغمغم) لكن هذه الشخصية تتمرد في الاخير، وتصبح انساناً من نوع آخر... اذن يجب ايصال ادراكه الحسي بشكل جيد وسائغ... (يكتب ملاحظات سريعة بيد مضطربة) اذن يجب ان افهم لغته بعد تمرده. لقد عانيت كثيراً في نقل مشاعره واحتراقه الداخلي في الفصلين الاول والثاني... هنا يجب ان اضعه في حقيقته، في هذا المشهد الطويل يصبح مزاجه وعراً، حاراً، بل نارياً... يخيف جميع من حوله... بمجرد ان يتكلم عن عذاباته... يفهمه الجميع... إذن سيكون هناك تصعيد درامي، مع تصعيد العذاب، والثراء الروحي... سأحاول ان أكتبها بطريقة مندغمة من الافكار والمشاعر، (يكتب ملاحظات أخرى...) سأضع في حواره لغة جديدة، تجعله حياً، واتركه يقوم بأفعال غامضة غير مفهومة بسهولة... سيكون هذا اصعب مشهد في العمل... (يقرأ ما كتبه بصوت مثل الغمغمة، يتصفح الاوراق، يقرأ جانباً من الحوار بأداء مسرحي) اية سعادة ابدية في العودة الى فردوس الطفولة... الطفولة، البرهة المرتعشة، ومراقبة نظرات الكبار وهي احياناً تنضج غشاً... الطفولة تعني النظر الى الدنيا من خلال موشور البراءة... (يغادر السرير...

يمشي بخطوات قصيرة وبتعب واضح) الطفولة،تعني الضعف، والضعفاء وحدهم يستحقون المحبة... حتى الرجل الضعيف يستحف المحبة... الزمن يلوث البراءة... لأننا في الزمن نرتكب الحماقات... (يتوقف... يطلق آهات عميقة)آآآآآ... هجمة شرسة اخرى من الألم... لا استطيع ان اقف. ولا استطيع ان ابقى في السرير... هذا الالم يشوش افكاري ... (يذهب الى النافذة) هذا الليل يذكرني بلياليً جميلة عشتها... لياليً مليئة بالأحلام... كل الناس الآن في المدينة يستنشقون ظلام الليل... المدينة مزدحمة... هناك إيقا ع عصبي... الانسان يشعر احياناً في الشوارع المزدحمة بالعزلة... يشعر بأنه وحيد، منبوذ وسط حشد من الغرباء... لكن في المدينة هناك إدراك حسي... البعض الآن في بيته يتناعس في فراشه، والبعض يضحك، أو يُقبل زوجته، او يعانق حبيبته، أو يشرب الخمر، وهناك من يعني مثلي من الآلام، (وقفة. بحزن) ربما محسنة الآن تخب في ثوبٍ جميل، مشرقة الوجه فرحة حتى الثمالة مع صديقها الجديد... آه... الليل يهبط كعادته بليونة، ويهمس بصوته الازلي الغامض قصصاً خرافية... ربما البعض في هذا الليل يتكلمون عني، وعن أحلامي، ومرضي وكتاباتي، وعن صديقتي التي هربت مني مع شاب مهووس، او يتكلمون عن إستسلامي الصامت لقدري... ربما يضحكون ويقولون إنه الآن يكتب دراما حياته.(يذهب الى المرآة... ينظر طويلاً الى وجهه) ماذا حدث لوجهي... ما هذا الخراب؟ لقد نسجه المرض بالغضون، والتجاعيد، والوان رمادية، وصفراء... (يتنهد، ويسري في صوته ما يشبه النشيج) اين الاصدقاء... لقد كانت مشاعري تجاههم تكافؤ الضدين... حباً شديداً مع كراهية نظيفة جداً... كيف دارت الايام حول نفسها بكآبة ورتابة...؟ أيام بلا ود، بلا ذوق، ايام شديدة البؤس... صحيح عشت في عالمي بلا أنانية، لكنني عشت وحيداً، بينما هناك اصدقاء اعرفهم عاشوا حياة فجور غريبة، وحياة داعرة، عابثة، وانا، دقّت العزلة، والوحدة اسفينها في عظامي... وهجرت اهلي... اعتقد يجب ان يكون الانسان ضائعاً كي يكون حقيقياً... لقد كان الاصدقاء والكتب كل حياتي... مثل طيور السنونو. يملأون الحياة لبعضهم ثم يهاجرون... (بحزن شديد) ممثل واحد... عرفته... لن انساه... وحده استطاع

تجسيد أكثر شخصياتي تعقيداً... صديق حبيب وجميل... عباس السعيدي... لقد ظلت صداقتي معه على جانب ساحر من الرهافة، والعفوية... كان مثلي مهووساً بالمسرح، بسبب حساسيته العالية كان كئيباً، حزين النفس دائماً. الهي، كم كانت برأته موضوع إعجابنا جميعاً... لن أنسى صوته... يتكلم بصوتٍ قريب من الهمس... (بتعجب) فجأةً اصيب هذا الملاك بالضعف الحسي، وظهر الزلال في بوله، ثم بعد عدة أيام اصيب بنزف دموي من الانف والفم، وصاحب الحالة تقيؤ دموي، وتعطل في الكليتين، وعطب نهائي في الكبد، ومات هذا البصراوي الساحر برفق، هل يُعقل ان تنتقم الحياة من إنسان جميل بهذه الدرامية اللعينة... إنسان رائع ، كان مليئاً بالفرح ، ويعرف كيف يناغي بلغته اجمل الملذات... كنا نبكي له بصمت، ونتذكر تفوقه العظيم في دور هاملت، وانا. لم يشاركني اي انسان في لحظاتي الاخيرة؟(يلقي نظرة عبر النافذة) الليل نائم نوماً عميقاً... كل شيء يستسلم له بعد ساعات... (بخطوات مهزوزة يذهب الى الفراش وهو يطلق انات موجعه... يلقي بالاوراق بعيداً... يندس في الفراش) أنا الآخر سأستسلم له... (تتوقف الموسيقى... يصفق لنفسه في الفراش) اكيد في هذا المقطع كنت رائعاً... رائعاً... آه... الآن يجب ان آخذ غفوة وأجدد نشاطي للمساء... (يطفيء ضوء المصباح... بعد صمت طويل يرن جرس الهاتف يضيء المصباح. يلتقط السماعة) الو... عزيزة... ماذا يا حبيبتي... لماذا صوتكِ مضطرب. ماذا؟ لم يبق سوى ثلث ساعة لبدء العرض... حقاً! يا رب... لقد نسيت نفسي. سأكون في المسرح... اطمئني... لا احتاج لا للمكياج ولا لأي شيء. حالاً حالاً...(يرتدي سترته، وبحركات سريعة مثل حركات تشارلي شابلن يغادر الغرفة مثل الزوبعة...)

ستار

كركوك ٣٠-١٢-١٩٨٦

***

فهرست

حلمٌ تحقق إسماعيل البرزنجي 5
المقدمة – عدنان القطب 6

مملكة الإنعكاسات الضوئية – مجموعة قصص 7
فتاة مجدولة بالضوء 9
غموض الروح 17
مملكة الانعكاسات الضوئية 26
غابة من الاحلام 39
نيدابة 47
توهج بلازما الخيال 60
أحلامٌ بيضاء 73
هذا الحالم الوديع 84
تذكرني مع شويرت 91
الميثوبي 106
جروشنكا 116
مملللو 131
أمسية قصيرة مع الأمير 147

وداعاً أيها الشعراء – سبع مسرحيات من فصل واحد 157
خريف مبكر 159
فراشات ملونة 182
وداعاً أيها الشعراء 201
مرحباً ايتها الطمأنينة 218
إنه خادم مطيع 229
ربيع متأخر 269
جاءَت زهرة الربيع 289

زليخة... البعد يقترب مجموعة قصص 319
الإعتقال الصحراوي رقم ١٢٥ 311
إن عروقي تتحول الآن الى لون البنفسج 321
ديوس أكس ماشينا 330
الرجل الذي كانت روحه عارية 338

سمكة طرية 346
وظلَّ يحلم بالوشم 356
هوا!؟ هي!؟ هوا!؟ 364
حتى القطط 374
لنحتفل معاً 384
سفرة الجسد الأخير 392
السحالي 400
سافروا مع طيور البحر 412
سفرة حول المقبرة 420
الطيور المهاجرة غرباً... تأخرت 427
الجبهة صامتة الآن 445
تلال الملح 448
زليخة، البعد يقترب 453

صهيل المارة حول العالم – مجموعة قصص 465
الشوارع الأخرى أيضاً 467
ثلاثة تلال من الجراد 474
صَهيلَ المارّة حول العالم 481
الضفة الأخرى من البحر 488
الليل والطين 493
مع رجل جامد الوجه 499
البانيو 505
إسطوانة الزمن 514
إذا فقد المِلحُ طعمهُ! 519
أنا ذلك المسافر 526
أيام مثقوبة 538
السفرة الأخيرة في القطار 551
لحنٌ في قاعٍ أزرق 552
صوت المطر الخافت 556
الجدار الذي نطق 560
الليلة الأخيرة للوركا في بنيرنار 563
مدينة مدججة بالسكاكين 594
إنهزامية حزينة 625
ومضات من خلال موشور الذاكرة 632